ت. أ. لورانس

أعمدة الحكمة السبعة

ترجمة

مكتبة النافذة

أعمدة الحكمة السبعة

هذا الكتاب

«أعمدة الحكمة السبعة»، كان أول ظهور لهذه العبارة في الإنجيل، بكتاب الأمثال. وقد اقتبس المؤلّف هذه التسمية لأنّه كتب مسودّة الكتاب أو نشر أجزاء منه في سبعة مدن، من بينها عمّان، جدّة، لندن، نيويورك. ولم يشأ المؤلّف، تيودور ادوارد لورنس، الشهير بلورنس العرب، نشر هذا الكتاب، لأنّه اعتبره «غير ناضج». وقام بكتابته على عدة مراحل، ولم يطبع كاملًا خلال حياته، إلّا بعد وفاته عام ١٩٣٥.

لقد قال لورانس بأن هذا الكتاب ليس بمذكّرات ولا يوميات وإنّما عبارة عن تذكرات. وأُثيرت حوله العديد من الجدل والانتقادات إلى حدّ الهجوم عليه في أحيان كثيرة من قبل العديد من الكتاب والشخصيات والجهات المختلفة. إلّا أن الكتاب يمتاز بسرده لأحداث تاريخية في غاية الأهمية وقعت في بدايات هذا القرن. وهي تشمل بمجملها الثورة العربيّة الكبرى. كما أنّه يمتاز بوصفه للعديد من الشخصيات التاريخيّة التي أثّرت في مسار حركة التاريخ في تلك الحقبة. إضافة لوصفه المميّز الدقيق والمسهب للمناطق الطبيعيّة في الجزيرة العربيّة وبلاد الشام، وللأماكن الأثرية والجغرافيّة العديدة. ويعتبر الكتاب من المؤلّفات الهامّة.

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ♦ منشورات في العام ١٩٩٨م
• الغلاف: زهير أبو شايب.

لورنس العرب

توماس إدوارد لورنس

أعمدة الحكمة السبعة
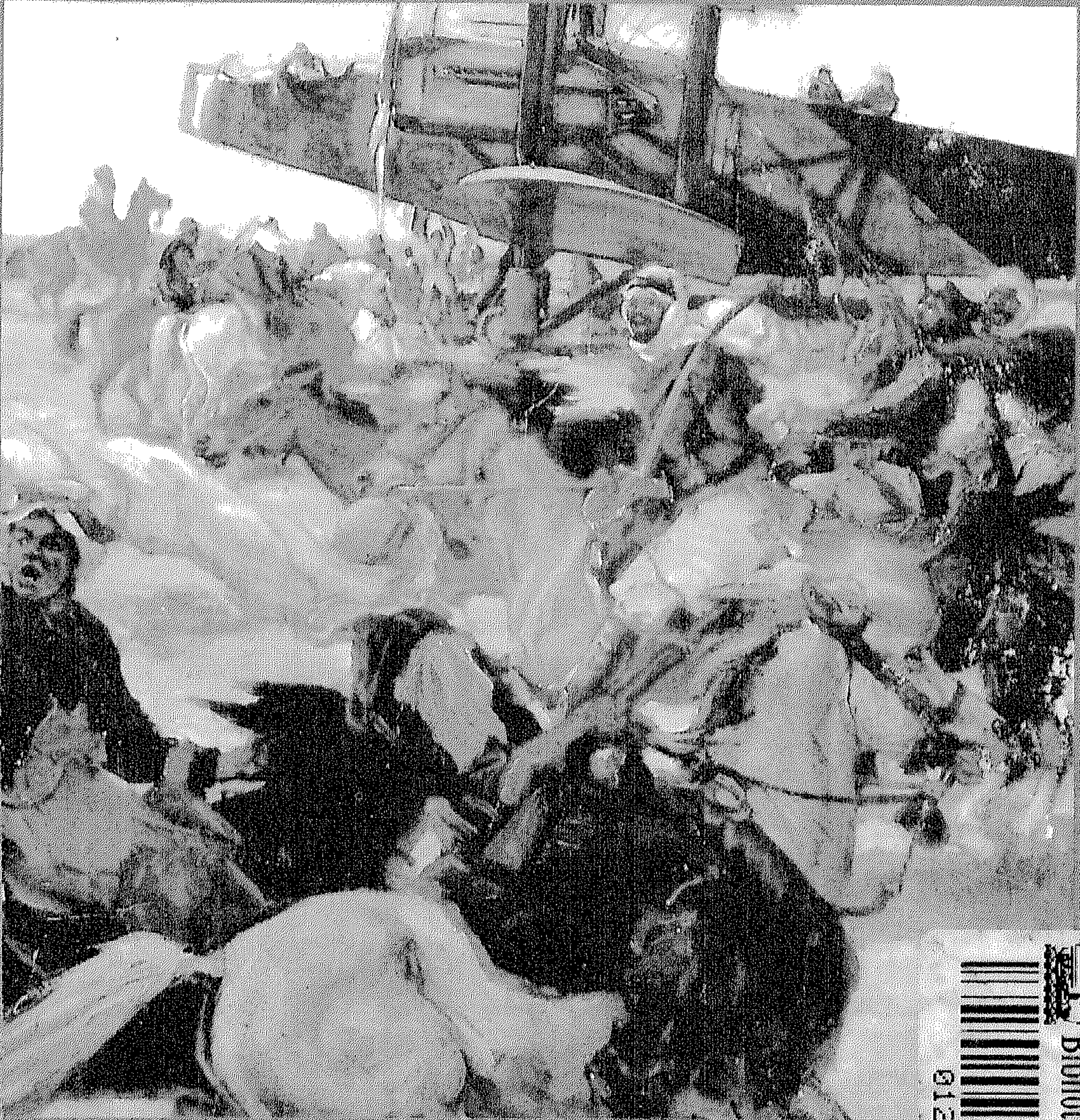
ترجمة: محمد نجار
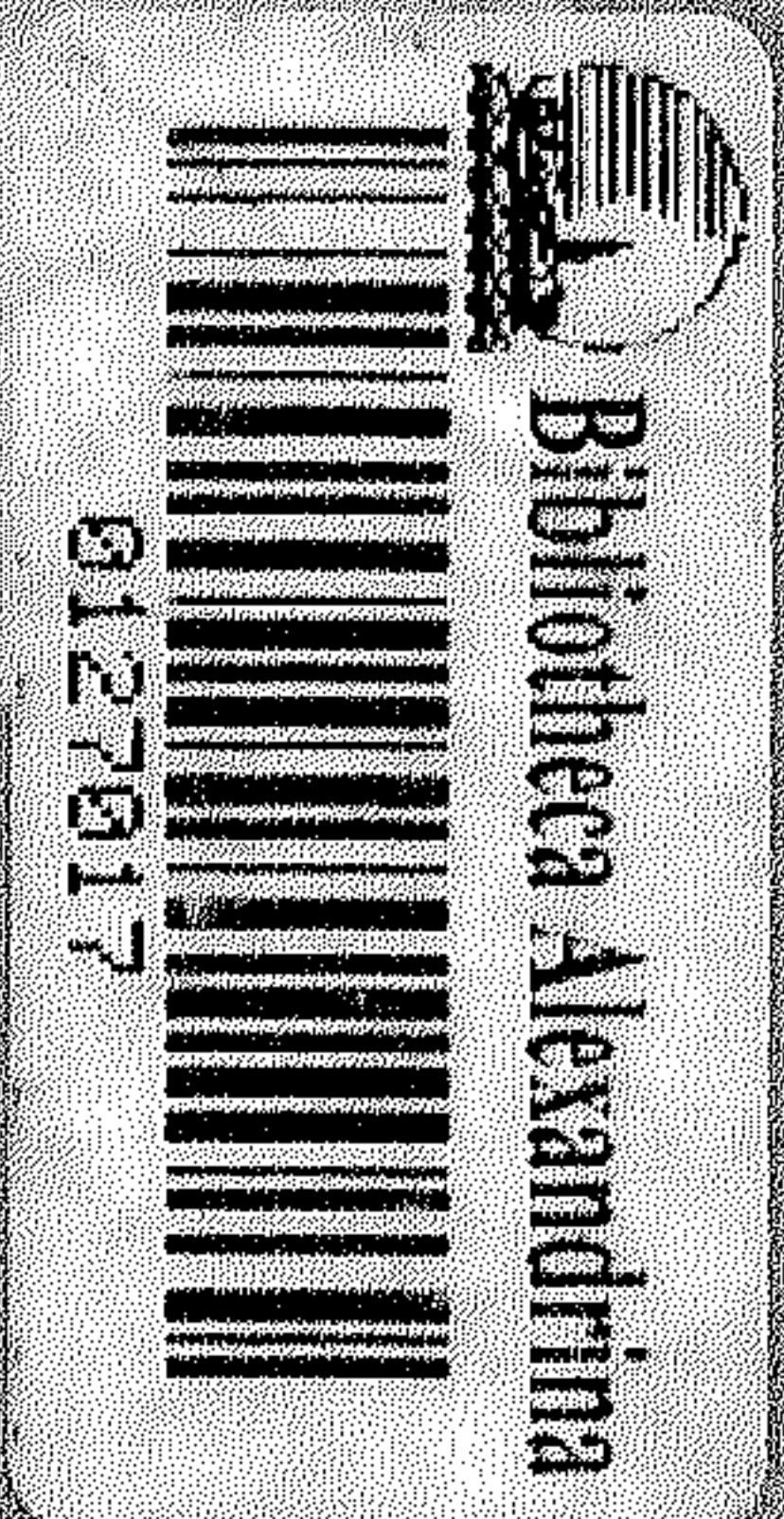
الأهلية

أعمدة الحكمة السبعة

لورنس العرب

توماس إدوارد لورنس

أعمدة الحكمة السبعة

ترجمة: محمد نجار

الأهلية
للنشر والتوزيع

نبذة عن حياة المؤلف

ولد توماس إدوارد لورانس في ويلز عام ١٨٨٨ ، وتلقى تعليمه في مدرسة أكسفورد العليا وفي كلية اليسوع ومجدولين ، بأكسفورد . وأصبح فيما بعد طالباً باحثاً في كلية أوول سولز (كافة الأنفس) ، بأكسفورد . ومن عام ١٩١٠ . ١٩١٤ ، اصبح عالماً مساعداً في متحف الكشف عن آثار الفرات البريطاني . وجنّد في الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب العالمية الأولى . وألحق في عام ١٩١٧ رسمياً بأركان حرب قوة حملة الحجاز ، تحت أُمرة الجنرال وينجيت . وفي عام ١٩١٨ ، نقل إلى هيئة أركان قوات الجنرال اللنبي . وحضر مؤتمر السلام الذي عقد عام ١٩١٩ كعضو في الوفد البريطاني . وفي عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢ أصبح مستشاراً في الشؤون العربية في قسم شؤون الشرق الأوسط بوزارة المستعمرات البريطانية . وفي عام ١٩٢٧ تعقد من أسم أسطورة « لورنس العرب » ، فغيّر كنيته إلى « شو » . ثم انضم إلى سلاح الجو البريطاني كطيّار . قتل في عام ١٩٣٥ بحادث دراجة نارية . له عدّة مؤلفات ، إضافة لهذا الكتاب ، منها « ثورة في الصحراء » ، « قلاع الصليبيين » .

مقدّمة المؤلف

حثّ المستر جيفري داوسون كلية « أوول سولز » بأن تمنحني إجازة مفتوحة بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ للكتابة عن الثورة العربية . وأفسح لي السير هيربرت بيكر أن أعيش وأعمل في منازله الواقعة في ويست منيستر . وأخرج هذا الكتاب للامتحان عام ١٩٢١ : حيث أنه كان محظوظاً بانتقاده من قبل الأصدقاء . وهو مدين بالشكر بشكل خاص للسيد والسيدة برنارد شو للاقتراحات القيمة الجمة والتي لا تحصى ، ولكافة التشكيل والتنقيط التي وردت في الكتاب .

إنني لا أدّعي أن هذا الكتاب نزيه ، غير متحيّز . فقد كنت أكافح بيدي ، للتغلّب على قاذوراتي . فأرجو أن تأخذوه (الكتاب) كقطعة سردية شخصية ، وليس كمذكرات . ولم يكن باستطاعتي أن أقوم بتسجيل مذكراتي الخاصة : فسيكون ذلك في الحقيقة نقض وخرق لواجبي تجاه العرب ، فيما لو جنيت مثل هذه الثمار في حين أنهم هم الذين حاربوا . فرؤسائي الضباط ، ويلسون ، جويس ، دوناي ، نيوكمب ، ودافينبورت ، كان بإمكانهم أن يرووا مثل هذه الحكايات . وغيرهم العديدين ، مثل ، يونغ ، لويد ، منينارد ، هورنبي ، بينيت ، ماسيندو ، ليسون ، ماكينز ، نونان ، وغيرهم .

وهنالك العديد من القادة الآخرين أو المقاتلين المنعزلين الذين لم ينصفهم الكتاب بحق . فبالطبع ، ما زال هناك قليل من الإنصاف ، كمثل كافة قصص الحروب ، للذين اشتركوا وساهموا فيها ثم لم ينصفوا ، أو نسي وافتقد أثرهم فيها ، لغاية ما يمكنهم أن يكتبوا مذكراتهم .

ت . ي . شو (لورانس)

كرانويل ، ١٥ آب ١٩٢٦

تقديم

إن هذه القصة التي ستتبع كتبت لأول مرة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلام ، من ملاحظات نشرت يومياً ، ثم دعمت ببعض التقارير التي أُرسلت إلى رؤسائي في القاهرة . وفيما بعد ، في خريف عام ١٩١٩ ، فقدت مسودتها وبعض الملاحظات المدونة . وبدا لي من الناحية التاريخية الحاجة الماسة لإعادة كتابة الحكاية ، حيث أنه ربما لا أحد سواي في جيش فيصل قد فكّر بكتابة ما كنا نشعر ونحسّ به ، وما كنا نأمله ، وما حاولناه . لذلك فقد كُتبت مرة ثانية بتثاقل كبير في لندن ، في شتاء عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، اعتماداً على مذكراتي وملاحظاتي الباقية . وأن تسجيل الأحداث لم تكن غير واضحة بالنسبة لي ، وربما كانت هناك بضعة أخطاء فعلية ـ فيما عدا تفاصيل التواريخ أو الأرقام التي وردت ـ إلاّ أن الخطوط العريضة وأهمية الأشياء قد فقدت وميضها في ضباب الاهتمامات والمصالح الجديدة .

إن التواريخ والأمكنة هي صحيحة ، حيث أن ملاحظاتي المدوّنة حفظت ذلك : غير أن الأسماء الشخصية لم تكن كذلك . حيث أن عنصر المغامرة لبعض الذين عملوا معي جعلتهم يدفنون أنفسهم في القبر الضحل للواجب العام . وهنالك آخرون ما زالوا يملكون معلوماتهم لأنفسهم ، وهنا تكمن سريتهم . وأحياناً حمل شخص ما أسماءً مختلفة . وقد يخفي هذا عنصر الشخصية ويجعل من شخصيات الكتاب العاب مبعثرة لا شكل لها ، بدلاً من جعلهم مجموعة من الشخصيات الحيّة : منها الطيّب ، ومنها الشرير ، وبعضهم لن يشكرني سواء باللوم أو المديح .

فهذه الصورة المنعزلة التي تسلّط الضوء الرئيسي علي هي غير عادلة بالنسبة لزملائي البريطانيين . خصوصاً . وأنني متأسّف جداً ، لأنني لم أرو ما قام به غير المجنّدين منا . فقد كانوا غير معبّرين أو مفصحين عن أنفسهم ، إلاّ أنهم كانوا رائعين ، وبشكل خاص ، عندما يؤخذ بالاعتبار أنهم لم يكن لديهم الحافز ، والرؤيا الخيالية للهدف ، التي آزرت وساندت الضبّاط . ولسوء الحظّ ، فإن اهتمامي كان مقتصراً على هذا الهدف ، وأن هذا الكتاب هو مصمّم لغاية التحرّر العربي من مكة حتى دمشق . فقد قصد منه تعقيل الحملة ، بحيث أن كل واحد يمكنه أن يفهم ويرى كيف كان النجاح طبيعياً ومحتوماً . وكم كان الإعتماد ضئيلاً جداً على المساعدة الخارجية ، واقتصر على بضعة بريطانيين . فقد كانت حرباً عربية شنّت واقتصرت على العرب لتحقيق هدف عربي على الأرض العربية .

إن مشاركتي الحقيقية كانت ثانوية ، ولكن بسبب طلاقة القلم ، وحريّة الكلام ، وبراعة معينة ، فقد فقت على نفسي ، كما أصف ذلك ، بالخدعة الرئيسة . وفي الحقيقة ، فإنه لم يكن لديّ أي مهمة رسمية بين العرب : فلم أكن معنياً بمهمة بريطانية بينهم . فقد كان كل من ويلسون ، جويس ، نيوكمب ، داوناي ودوفينبتورت ، جميعهم يفوقونني . إلاّ أنني أتملّق وأداهن نفسي بأنني كنت صغيراً جداً ، وقد بذلت قصارى جهدي . وأن ويلسون ، نيوكمب ، جويس ، داوناي ، بوكستن ، مارشال ، ستيرلنغ ، يونغ ، روز ، سكوت ، سبنس ، جيلمان ، جارلاند ، برودي ، بيك ، سكوت ـ هيجنز ، رامساي ، وود ، برايت ، جرينهل ، وغيرهم ، بذلوا أيضاً قصارى جهدهم .

وسيكون خارجاً عن موضوع البحث (الكتاب) أن أمدحهم . وعندما أريد أن أقول أن فلاناً شريّراً ، فسأفعل ذلك : مع أن هناك الشيء الضئيل من هذا في مذكّراتي ، حيث أنه يبدو أن مرور الزمن يبيض وصمات الرجال . وعندما أريد أن أمدح الغرباء ، فسأفعل ذلك أيضاً : إلاّ أن الأمور العائلية تبقى شيئاً خاصاً بنا . وقد قمنا بما هو معدّ للقيام به ، مع ما يحتويه من رضا لتلك المعرفة .

وسيكون للآخرين الحرية في يوم ما ليسجّلوا رواياتهم ومذكراتهم ، وربما تكون موازية للتي قمت بها ، ولا يذكرونني سوى بأنني واحد منهم وليس أكثر . فذلك يخصّ كل واحد منا للقيام بعمله وفقاً لما يرغب ، فالمرء نادراً ما ينظر إلى أصدقائه .

إن الصفحات التالية لا تعني أنها تشمل تاريخ الحركة العربية ، وإنما تعنيني مباشرة و الدور الذي قمت به . إنها عبارة عن يوميات مسردة للحياة ، تعني ماذا كان يحدث ، وتشمل نفر قليل من الناس . فلا يوجد هنا دروساً لتقدّم للعالم ، ولا كشفاً لأسرار قد تسبّب الصدمات للناس . والكتاب مليء بالأحداث والأشياء التافهة ، فهي إلى حدّ ما قد تكون محاولة لكتابة فصل من التاريخ ، وكمتعة منحت لي لاستذكر دوري في الثورة العربية ، إلى حدّ آخر . وقد كنا شغوفين جميعاً ، وذلك بسبب انفتاح الأماكن ، والهواء الطلق ، والآمال التي عملنا من أجلها . كان بزوغ الصباح ليوم جديد ينعشنا . وكنا مشبعين بأفكار لا يمكن وصفها ، وغامضة ، ولكن قاتلنا من أجلها . وعشنا أحداث تلك الحملات العسكرية المندفعة ، ولم نوفّر أن نبخل بأنفسنا : ومع ذلك ، عندما حققنا النصر ، وبزغ عالم جديد ، فإن الرجال القدماء أتوا ثانية وأخذوا نصرنا ، ليعيدوا صنعه وفقاً لعالمهم القديم الذي عرفوه . فالشباب يمكنهم أن يفوزوا ، إلاّ أنهم لم يتعلّموا أن يحافظوا على هذا الفوز أو النصر : وهذا ضعف يرثى له بالنسبة للعمر . و تفوهنا بتمتمات بأننا قد عملنا من منطلق عالم جديد ، إلاّ أنهم شكرونا بلطف وعقدوا سلامهم .

إن جميع الرجال تحلم : إلاّ أنهم ليسوا بطريقة متوازية . فأولئك الذين يحلمون في الليل من خلال أعماقهم المغبّرة يصحون في الصباح ليجدوا أن ذلك كان فارغاً : بيد أن الحالمين في النهار هم رجال خطرون ، ذلك أنهم قد يمارسون أحلامهم بعيون مفتوحة ، لجعل الأمر ممكناً . فهذا ما فعلته أنا . أعني بأنني قمت بمحاولة بناء أمة ، واستعادة نفوذها المفقودة ، ولإعطاء عشرين مليوناً من الساميين الأسس لبناء قصر أحلامهم الملهم لأفكارهم الوطنية والقومية . ذلك

الهدف السامي بزغ ثانية في أفكارهم النبيلة الموروثة ، وجعلهم يقومون بدورهم بسخاء في الأحداث التي جرت . لكن عندما ربحوا وفازوا ، فقد وضعت الاتهامات ضدي بأن المصالح البترولية البريطانية في بلاد ما بين النهرين (العراق) أصبحت مشكوك فيها ، وأن السياسة الاستعمارية الفرنسية قد خربت في المشرق العربي .

إنني أخشى ، وآمل ذلك ، باننا سندفع غالياً جداً لقاء هذه الأمور ، من شرفنا وسمعتنا وحياتنا . ولقد ذهبت إلى حوض دجلة (العراق) مع مائة من أعضاء جمعية « ديفونشاير » الإقليمية ، وهم من الشباب المتحمّسين الأنقياء ، المفعمين بقوة السعادة لجعل النساء والأطفال مسرورين . وكان الواحد يرى من خلالهم كم من العظمة أن يكون واحداً منهم ، أن يكون إنجليزياً . وكنا نرمي بهم في أتون النار ، إلى أسوأ الميتات ، وذلك ليس لكسب الحرب وإنما ليكون لنا بترول الشرق ، ومنتوجاته الزراعية . وكان المطلب الوحيد هو هزم أعدائنا (ومن بينهم تركيا) ، وهذا ما حققته في نهاية الأمر حكمة « اللنبي » ، بخسائر تقل عن أربعمائة جندي ، إلاّ أنه حول وسائل القمع من تركيا إلى أيدينا . وأنني لفخور جداً من أن المعارك الثلاثين التي خضتها وقدّمتها لم تكلّف أي إراقة دماء لجندي انجليزي .

لقد كنت فرغت من هذا الجهد (تأليف الكتاب) لأكثر من ثلاث سنوات ، ولديّ ما يوجد الكثير لأعود بالذاكرة إليه ، ولم يذكر بعد . وحتى ذلك ، فإن أجزاء هذا الكتاب ستكون جديدة تقريباً لكل من يقرأه ، وسيبحث العديد عن أمور وأشياء مألوفة ، إلاّ أنهم لن يجدوها . وما أن قدّمت إفادات كاملة لرؤسائي ، حتى علمت ، بأنهم كانوا يكافئونني ويحكمون علي بنيتي الخاصة ، فهذا لا يجب أن يكون . فالتقديرات والاحترامات يمكن أن تكون ضرورية في الجيش المحترف ، كغيرها من التنويهات العديدة المؤكدة في الوحدات العسكرية . وبتطوعنا في الجيش ، فنحن وضعنا أنفسنا ، سواء برغبة أو بدون رغبة ، في موقع الجنود النظاميين .

وبالنسبة لعملي على الجبهة العربية فقد قررت أن يكون ذلك دون مقابل . فالحكومة البريطانية التي حثّت العرب على القتال من أجلنا ، كانت مقابل وعود محدودة لإنشاء دولة عربية مستقلة بعد انتهاء الحرب . والعرب يثقون بالأشخاص ، وليس بالمؤسسات . فهم رأوا فيّ عميلاً حرّاً للحكومة البريطانية ، وطلبوا مني العمل على تطبيق تلك الوعود المكتوبة من قبل الحكومة . لذلك فقد كان عليّ أن أنضم للمؤامرة ، وأن أقوم بإعطاء تأكيدات كلامية للرجال بأنهم يستحقون مكافئتهم . وخلال سنتين من العمل المشترك في ظلّ المعارك المستعرة ، فقد اعتادوا على تصديقي ويظنون أن حكومتي ، كمثلي تماماً ، بأنها كانت مخلصة في وعودها . وفي ظلّ هذا الأمل ، فهم قاموا ببعض الأمور الرائعة ، ولكن ، بالطبع ، فبدلاً من أن نكون فخورين بما قمنا به سوية ، فإنني كنت خجلاً باستمرار وبشدة من نفسي .

كان واضحاً منذ البداية ، أنه في حال كسبنا للحرب ، فإن هذه الوعود ستكون عبارة عن ورقة ميّتة . وكان لزاماً عليّ كمستشار أمين ومخلص للعرب أن أنصحهم بأن يذهبوا لوطنهم وأن لا يخاطروا بأرواحهم في الخوض بحرب لقاء مثل هذا الهراء : إلاّ أنني طوّقت نفسي بالأمل ، بالاشتراك في القتال مع هؤلاء العرب بشكل جنوني حتى النصر النهائي ، والسلاح ما زال بأيديهم ، وهم في وضع مؤكد جداً (إذا لم يكن مهيمناً) إنه من الممكن أن تكون هناك وسيلة تقنع القوى العظمى بعدالة مطالبهم . وبكلمات أخرى ، افترضت (عندما رأيت أنه لا يوجد هناك زعيم في الساحة لديه نيّة بذلك) أن عليّ أن أقوم بحملات سياسية . وأن أكون قادراً ليس بهزم الأتراك في ساحة المعارك فحسب ، وإنما اكافح في بلادي وضد حكومتي ومؤيديها في مجلسيّ العموم واللوردات . إنه كان افتراض غير متواضع : ولم يكن واضحاً بعد فيما إذا كنت سأنجح فيه ، إلاّ أنه كان واضحاً أنه لم يكن لديّ نيّة لتوريط العرب في مثل هذا الخطر المجهول . وخاطرت بشكل مخادع ، على الرغم من قناعتي أن مساعدة العرب لنا كان ضرورياً لإنتصارنا الرخيص والسريع في الشرق ، وأنه كان من الأفضل أن نكسب الحرب ، وننقض تعهداتنا ، بدلاً من أن نخسرها .

إن تخلّي السير هنري مكماهون عن تعهداته ، أكّد اعتقادي بعدم إخلاصنا الجوهري لهذه التعهّدات : إلاّ أنه لم يكن بوسعي أن أشرح رأيي للجنرال وينجيت عند انتهاء الحرب ، حيث أنني كنت تحت إمرته ، كما أنه لم يبد أنه كان شاعراً بمدى زيف موقفه . والشيء الوحيد الذي ظلّ ، كان رفض المكافآت لكوني مخادع ناجح ، ولمنع هذا البغض الظاهر من قبلي . وبدأت في تقاريري المنشورة أكشف القصص الحقيقية للأمور ، والبحث عن القلة من العرب الذين كانوا يعرفون الحقيقة ، ويتحفّظون عليها مثلي ، للكشف عنها . وأقول اخيراً ، إن هذا الكتاب ، سيكون حكمي الخاص بما أقوله .

تقديم آراء حول
أسس الثورة العربية
من فصل ١ ـ ٧

إن بعض الرجال الإنجليز وعلى رأسهم كان كيتشنر ، اعتقدوا بأن ثورة العرب ضد الأتراك ستمكن إنجلترا ، بينما هي تحارب المانيا ، أن تهزم حليفتها تركيا بوقت واحد معاً .

فمعرفتهم بطبيعة و قوّة البلدان العربية جعلتهم يعتقدون بأن إثارة قضية الثورة ستجعلهم مسرورين : وبالتالي يحدّدون شخصيتها وأسلوبها .

لذلك فقد اتاحوا بأن تبدأ ، وحصلوا لها على الدعم من الحكومة البريطانية . ومع ذلك فإن الثورة العربية بقيادة الشريف حسين كانت مفاجأة تماماً لبريطانيا ، ووجدت الحلفاء غير مهيأين لها . وقد أثارت إحساسات ومشاعر مختلطة ، وأوجدت أصدقاء أقوياء لها ، كما خلقت أعداء أقوياء ، وبين الأحساد والغيرات المتصادفة والمتضاربة بدأت أمورها بالإجهاض .

(١)

إن بعض شـرور روايتي يمكن أن تكون مـوروثة من ظروفنا التي عشناها . فلقد عشنا لعدة سنوات مع بعض في الصحراء القاحلة ، تحت ظرف غير مبال . ففي النهـار كانت حرارة الشمس تلفحنا ، وكنا ندوخ بمكافحة الريح . وفي الليل كنا ننعم بطراوة الجو ، ونلجأ إلى لعبة تافهة بعد النجوم الساكنة واللامحدودة في السماء . وقد كنا جيشاً مستقلاً دون الحاجة للاستعراض أو البروز ، مكرّس من أجل الحرية ، وله عقائد وقيم ، وله هدف تواق سخرت له كافة قوانا ، وأمل فائق جـداً تلاشت مع بريقـه طمـوحاتنا السابقة ، مع أن الوقت كان يمضي ويقتـرب لحاجتنا للقتال من أجل تحقيق هدف تام ، ويحذونا حافز للتغلّب وكبح شكوكنا . وأصبحت العقيدة مطلقة لا تردد فيها . ولقد أصبحنا عبيداً لها ، وقيّدنا أنفسنا معاً بأغلالها ، ووقفنا أنفسنا لخدمة هدفها المقدّس بكل طاقاتنا وقوانا . إن عقلية العـبـيـد العـاديين رهيبـة ـ فـهم قـد فـقـدوا العـالم ـ ونحن قـد استسلمنا ، ليس باجسادناوحدها ، وانما بارواحنا . . . لقهر جشع الإنتصار . وبعملنا الذاتي جُرّدنا من المبـادئ الأخـلاقـيـة ، ومن الإرادة ، ومن المسؤوليـة ، كـمثل أوراق الأشجار الميّتة وهي تواجه الريح .

إن المعركة النهائية قيّدتنا فلم نعد نهتم بحياتنا أو بحياة الآخرين . فقد كانت هناك حبال حول أعناقنا ، وأثمان لرؤوسنا أظهرت نيّة العدو المخفية لتعذيبنا إذا ما القى القبض علينا . فكل يوم كان يقتل أحد منا ، والآخرون عرفوا أنفسهم على أنهم عبارة عن دمى واعية في الحياة : ففي الحقيقة ، إن مهمتنا الأساسية

كانت قاسية ، قاسية ، ما دامت أقدامنا المتقرّحة يمكنها السير قدماً على الطريق . فالضعفاء حسدوا أولئك المنهكوين تماماً على الموت . فبالنسبة للنجاح فقد كان بعيد المنال ، وأن الإخفاق القريب والمؤكّد ، إذا ما كان حاداً - يريح من الكدح . فقد عشنا دوماً على شدّ أو ارتخاء الأعصاب ، سواء بلغ ذروة أمواج الشعور أو انخفاضها العميق . فهذا العجز كان شديداً علينا ، وجعلنا نعيش في الأفق المرئي فقط ، مهملين كل ما ابتلينا به أو ما تحملناه ، حيث أن الإحساس الجسدي أظهر نفسه على نحو رديء زائل . ومضت الغرائز الحيوانية ، والإنحرافات ، والشهوات العارمة فوق السطح دون أن تزعجنا ؛ لأن القوانين الأخلاقية بدت واقية من هذه الأمور التافهة . فقد تعلّمنا أنها كانت غصّات حادة جداً ، وكروب عميقة جداً ، ونشوات عالية جداً بالنسبة لأنفسنا المقيدة . وعندما وصلت العاطفة إلى هذا العقل المختنق ، مضت الذاكرة بيضاء ، لغاية ما أصبحت الظروف رتيبة ومملة جداً .

إن مثل هذا الفرط في الحالة النفسية والتفكير ، في حين تدع النفس بلا هدف ، وتعطيها رخصة في أجواء غريبة ، أفقدت الجسد قاعدته القديمة بالصمود. كان الجسد قاسياً جداً ليشعر بمدى أحزاننا وأفراحنا . لذلك ، فقد تخلّينا عنها كشيء مهمل : وتركناها خلفنا لنسير قدماً ، كصورة زائفة منهكة ، دون أي مستوى مساعدة ، خاضعة للتأثيرات التي يمكن أن تكون غرائزنا منكمشة في أوقاتنا العادية . لقد كان الرجال صغار السن وأقوياء ، دماؤهم ولحومهم حارة ، عذّبوا أنفسهم برغبات شديدة وغريبة. وأن حرماننا وإخطارنا أثار حرارة الرجولة في مناخ قاس لا يمكن أن يستوعب . ولم يكن لدينا أمكنة مغلقة ، لنختلي بأنفسنا ، ولا ملابس ثقيلة لإخفاء طبيعتنا . فالرجال عاشوا بكل أشيائهم وأمورهم بشكل مفتوح مع بعضهم البعض .

إن العربي هو عفيف بالطبيعة ، وأن استخدام الزواج العام (المشترك) هو معدوم بين القبائل العربية . وأن النساء العاميات في أماكن الاستيطان التي واجهناها أثناء ترحالنا ، لم تكن لتفي بشيء بالنسبة لأفرادنا ، وحتى لو كن

مستساغات لرجال أصحاء . وفي ظلّ مثل هذا الرعب من الانخراط في مثل هذه الأعمال ، فقد أخذ رجالنا بكبح أنفسهم ، ليظلّوا أنقياء بغير شهوات جنسية . وأخذوا يشغلون أنفسهم بالأمور الروحية والتأمل الفكري ، ويبعدون أنفسهم عن شهوات الجسد وغرائزه .

لقد أُرسلت لهؤلاء العرب كشخص غريب ، غير قادر على التفكير بأفكارهم ، أو المشاركة بمعتقداتهم ، ولكنني كلّفت بمهمة مساعدتهم للسير قدماً ولتطوير أية حركة بشكل عال فيما يتعلّق بمصالحهم مع انجلترا في حربها . وإذا لم يكن بوسعي أن أنسجم مع شّخصياتهم ، فقد استطعت على الأقل أن أكتم نفسي وأن أمضي بينهم دون احتكاك ظاهر ، ولا تنافر ولا حتى انتقاد ، سوى تأثير بسيط غير ملاحظ . وحيث أنني كنت تابعاً لهم ، فإنني لم أكن مدافعاً عنهم أو حاميهم . وأنا اليوم بردائاتي القديمة ، فقد استطعت أن أقوم بدور المتفرّج ، مطيعاً لعواطف مسرحنا . . . ولكن من الأصدق والأشرف أن يسجّل أن هذه الأفكار والأعمال قد مرّت حينئذ بصورة طبيعية . وما هو يبدو الآن بهيجاً أو حزيناً فقد بدا ذلك في الميدان أمراً محتوماً ، أو هو فحسب روتين غير مهم .

كانت الدماء دوماً على أيادينا : فقد كنا معتادين على ذلك . وبدا القتل والجراح آلاماً سريعة الزوال ، وقد كانت الحياة معنا قصيرة جداً ومؤلمة . فمع أن محنة وأسى العيش كانت عظيمة ، فانه كان على اسى وعذاب العقاب ان يكون بلا رحمة . فقد عشنا ليومنا ومتنا له . وعندما كان هناك سبب ورغبة في العقاب فقد طبعنا ذلك بالسلاح أو بالسوط على الفور ، على الجلد العليل للمعاني أو المعذّب ، وكانت الحالة فوق التصوّر . فالصحراء لم تكن لتمنح البطء في تنفيذ العقوبات .

فبالطبع ، إن افراحنا وسرورنا كانت تندفع فجأة كمثل معاناتنا ، ولكن ، بالنسبة لي بشكل خاص ، كان لها حجم أقل . فالأساليب والطرق البدوية كانت صعبة حتى بالنسبة لهؤلاء الذين جلبوها لأنفسهم . وبالنسبة للغرباء . فقد كانت فظيعة : عبارة عن موت في الحياة . فعندما كان ينتهي المسير أو القيام بعمل ما ، فلم يكن لديّ طاقة لتسجيل إحساسي ، ولا حتى يكون هناك أي فراغ لرؤية

الجمال الروحي الذي يمكن أن يلفحنا لبعض الوقت بطريق الصدفة . وفي مذكراتي ، فإن القسوة وجدت لها مكاناً بدلاً من الأشياء الجميلة . فنحن تمتعنا فقط بلحظات نادرة من السلام والتسامح ، إلاّ أنني أتذكّر الكثير من الكرب ، الإرهاب ، والأخطاء . وأن حياتنا لم تتلخّص بما كتبته (فهناك أشياء لا يمكن أن تكرر بدم بارد بسبب الخجل الشديد) ، ولكن ما كتبته كان من صميم حياتنا . وأحمد الله إن الناس الذين يقرأون القصة (هذا الكتاب) ، لحبهم لسحر الغرابة ، سوف لن يكرّسوا أنفسهم ورواياتهم لأغراض فاسدة لخدمة عرق آخر .

إن الإنسان الذي يمنح نفسه لتكون ملكاً للغرباء يواجه أو يعيش حياة جلفة ، مقايضاً روحه لسيد وحشي . فهو ليس منهم . وقد يقف ضدهم ، ويحثّ نفسه على القيام بالمهمة ، يسحقها ويلويها بشدة إلى حيث يجب أن لا تكون . ومن ثم فهو يكون مستغلاً بيئته القديمة ، ومن ثم قد يتخلّى عن بيئته الخاصة : متظاهراً بعاداتهم ، والتظاهرات هي فارغة ، وأشياء لا قيمة لها . ولا أنه حتى يقوم بشيء ذي جدوى لنفسه ، ولا حتى شيء نظيف ليكون خاصاً به (دون التفكير بالتحوّل) ، تاركاً لهم أن يقوموا بعمل أو ردّة فعل يحبذونها من هذا المثال الساكن . وبالنسبة لحالتي ، فإن جهود تلك السنوات التي عشتها بلباس عربي ، وتقليد أسسهم وقيمهم الفكرية ، جرّدتني من نفسي الإنجليزية ، وجعلتني أبدو بنظر الغرب وتقاليده بوضع وشكل جديدين ، فقد هدموا كل شيء بالنسبة لي . وبنفس الوقت ، فإنه لم يكن باستطاعتي أن أبدو عربياً بشكل مخلص : وإنما كانت عبارة عن عاطفة فقط . فمن السهل جعل إنسان ما أن يكون ملحداً ، إلاّ أنه من الصعب تحويله لعقيدة أخرى . وكان عليّ أن أكون بشكل واحد ، وأن لا أتبنّى آخراً . إن مثل هذا التجرّد أتي في أوقات لرجل منهك بالجهد الجسدي الطويل والإنعزال . وجسده متهاوي ومتثاقل ميكانيكاً ، في حين أن عقله المفكّر تركه ، ومن دون أن يعيره اهتماماً بشكل خسطر ، متسائلاً ما جدوى فعل الإعاقة ولماذا . فأحياناً يمكن أن تتحوّل هذه الأنفس إلى فراغ ، ومن ثم يصبح الجنون وشيكاً ، كما أعتقد ، فسيكون قريباً من الإنسان الذي يمكنه أن يرى الأشياء من خلال الأحاجي والستائر على الفور لعادتين وتقليدين ، وثقافتين ، وبيئتين مختلفتين .

(٢)

إن الصعوبة الأولى للحركة (الثورة) العربية هي أن يقال من هم العرب .

وكشعب مرّ بفترات تاريخية طويلة ، فإن اسمه كان متغيّراً ببطء مع مرور الزمن . فقد كانت هناك بلاد تدعى الجزيرة العربية ، ولكن هذا لم يكن الغرض. فهناك كانت لغة أطلق عليها اللغة العربية ، وفيها يكمن الاختبار . إنها اللغة الحالية التي ينطق بها سكان سوريا وفلسطين ، بلاد ما بين النهرين (العراق) ، وشبه الجزيرة العربية . وقبل الفتح الإسلامي ، كانت هذه المناطق مأهولة بشعوب مختلفة ، يتكلّمون لغات مشتقة من العائلة العربية . ونحن نطلق عليها اللغة السامية ، ولكن (مثل معظم المصطلحات العلمية) فإن هذه ا لتسمية خطأ . ومع ذلك ، فإن اللغات ، العربية ، الآشورية ، البابلية ، الفينيقية ، العبرية ، الآرامية والسريانية ، كانت لغات متعلّقة ببعض ، أو مشتقة من نفس المصدر ، ولها مؤشرات وتأثيرات مشتركة في الماضي ، أو حتى من نفس الأصل . وأن مظاهر وعادات الشعوب الحالية الناطقة باللغة العربية في آسيا ، في حين أنها تبدو مختلفة كاختلاف شجر الخشخاش ، الا ان لها تشابه جوهري ومتواز . ويمكننا أن ندعوها بلغات أبناء عم ـ وأبناء عم بالتأكيد ـ ، مدركة بمدى العلاقاتً بينها .

إن المناطق التي تتكلّم العربية في آسيا ، في هذا السياق ، هي مُربع قاس متوازي الأضلاع . فالجزء الشمالي ممتد من الإسكندرية ، على البحر الأبيضً المتوسط ، مجتازاً حوض الرافدين (العراق) في الاتجاه الشرقي حتى نهر دجلة . والجزء الجنوبي يمتد من حافة المحيط الهندي ، من عدن ومسقط . وفي الغرب

فإنه محدد بالبحر الأبيض المتوسط ، وبقناة السويس ، والبحر الأحمر حتى عدن . وفي الشرق بنهر دجلة ، وبالخليج الفارسي (العربي) حتى مسقط . فهذا المربّع من الأرض ، بمساحته الكبيرة كمساحة الهند ، شكل الوطن الأم للشعوب السامية ، والذي لم يكن بوسع أية سلالة أجنبية أن تبقى بشكل دائم هناك ، مع أن سلالات مختلفة أخرى جربّت ذلك ، مثل المصريين القدماء ، الحتيين ، الفلسطينيين القدماء ، الفارسيين ، اليونان ، الرومان ، الأتراك ، والفرنكيين (الفرنجة) . فجميعها قد حطّمت في النهاية ، وانصهرت عناصرها المشتتة الباقية في خصائص الجنس السامي القومية . وقد اندفعت القبائل السامية في أوقات مختلفة إلى خارج هذه المنطقة ، كما أنها نفسها انصهرت في أقطار العالم الخارجي ، فمصر ، الجزائر ، المغرب ، مالطا ، صقلية ، إسبانيا ، سيلسيا وفرنسا ، جميعها قد استوعبت الهجرات السامية اليها . وهناك فقط في طرابلس الغرب ، توجد قبائل سامية نائية مبقية على بعض هويتها وميّزاتها .

إن أصل هذه القبائل يشكّل سؤال أكاديمي ، ولكن لفهم ثورتهم واختلافاتهم الاجتماعية والسياسية الحالية فهي أمور مهمة ، و يمكن أن تفهم فقط في البحث في مناطقهم الجغرافية . فهم يتواجدون في مناطق ضخمة معيّنة ، لها عادات وتقاليد مختلفة حسب السكان الذين يعيشون فيها . وفي الغرب شكل مربّع متوازي الأضلاع ، من الإسكندرية إلى عدن ، بسلسلة جبال ، عبر (في الشمال) سوريا ، ومن ثم منحدراً نحو الإتجاه الجنوبي بما يُدعى فلسطين ، الحجاز ، منتهياً باليمن . ومعدّل ارتفاع هذه الجبال ربما يصل إلى ثلاثة آلاف قدم ، وبقمم تتراوح مساحتها ما بين ١٠ ـ ١٢ ألف قدم . وفي الغرب ، فإن مصادر المياه غنيّة ، وتتشكّل السحب الآتية من البحر ، وهي مكتظة بالسكان بشكل عام . وخطّ الإتجاه الآخر للتلال المأهولة ، والتي تواجه المحيط الهندي ، تشكّل الحافة الجنوبية للمتوازي . والخطّ الشرقي كان في البدء عبارة عن ساحل طميي غريني يدعى ببلاد الرافدين أو مابين النهرين ، ولكن يمتد في جنوب البصرة سهل ساحلي ، يسمى الكويت ، الإحساء ، حتى قطر . ومعظم هذا

السهل الساحلي مأهول بالسكان . وهذه الجبال والسهول المأهولة تحتضن صحراء قاحلة ، إلاّ أنها تحتوي في قلبها على واحات خصبة مزدحمة بالسكان مثل القصيم وبريدة . وفي مجموعة الواحات هذه يقع المركز الحقيقي لشبه الجزيرة العربية ، المحافظة على روحها الأصلية ، وشخصيتها المتميّزة . فالصحراء تحيط بها من كافة الجوانب مبقية إياها بعيدة ونقية عن الإتصال .

إن هذه الصحراء التي تشكّل الجزء الأكبر حول الواحات ، صنعت الشخصية الخاصة للجزيرة العربية ، المختلفة في طبيعتها . وجنوب هذه الواحات تبدو المنطقة لتكون عبارة عن بحر من الرمال غير مسلوكة (متاهات) ، ممتدة تقريباً حتى الجرف المأهول لساحل المحيط الهندي ، مبتعداً ومغلقاً بينه وبين تاريخ الجزيرة العربية ، وتأثيراتها السياسية والأخلاقية . فحضرموت ، كما يطلقون على ذلك الساحل الجنوبي ، شكّلت جزءاً من الحضارة الأندونيسية ـ الهندية ، وسيطر عليها طابع جزيرة جاوا الأندونيسية ، بدلاً من الطابع العربي . وإلى غرب هذه الواحات ، ما بينها وبين جبال الحجاز ، تقع صحراء نجد ، وهي منطقة مكوّنة أرضها من الحصى وحجارة الحمم البركانية مع قليل من الرمال . وإلى الشرق من هذه الواحات ، ما بينها وبين الكويت ، تمتد أرض من الحصى ، إلاّ أنه يتخلّلها امتدادات كبيرة من الأراضي الرملية المتحركة ، جاعلة من الصعب تعبيد الطرق عليها . وإلى جنوب الواحات ، يقع حزام من الأراضي الرملية ، ومن ثم سهل ذو أرض حصوية بركانية ، شاملة جميع الأراضي الواقعة ما بين التخوم الشرقية لسوريا وضفاف الفرات حتى بلاد ما بين النهرين (العراق) . وإمكانية استخدام أرض الصحراء الشمالية للتنقل بالنسبة للرجال والمركبات مكّنت الثورة العربية من كسب النجاح السريع

إن الجبال والتلال الواقعة في الغرب والسهول الواقعة في الشرق تشكّل أجزاءً من الأقطار العربية وهي مأهولة بالسكان ونشطة دوماً . وفي الجزء الغربي بشكل خاص ، فإن جبال سوريا وفلسطين ، والحجاز واليمن ، دخلت إليها الحضارة الأوروبية الراهنة . فكأن هذه التلال الخصبة الغنية تقع في أوروبا ،

وليس في آسيا . وتماماً فإن العرب يبدون في ملامحهم شبيهين بسكان أقطار البحر الأبيض المتوسط ، وليس بسكان أقطار المحيط الهندي ، وفي تعاطفهم وانسجامهم الثقافي والحضاري ، وفي مشاريعهم وأعمالهم ، وفي امتدادهم وتوسعاتهم بشكل خاص ، حيث أن مشكلة الهجرة هي أكبر وأعظم قوة معقّدة في الأقطار العربية . ومع ذلك ، بشكل عام ، فان هذه المظاهر يمكن أن تختلف من منطقة عربية لأخرى .

وفي الشمال (سورية) ، فإن معدّل الولادات كان منخفضاً في المدن ومعدّل الوفيات مرتفع ، بسبب الأوضاع الغير صحيحة ، ومرض السل الرئوي الذي كان يصيب غالبية السكان . وبالنتيجة فإن هناك فائض من السكان الفلاحين في القرى والبلدات ، وهم مستوعبون تماماً . وفي لبنان ، حيث الأوضاع الصحيّة قد حُسنت ، فإن هناك هجرة ضخمة للشباب تأخذ طريقها إلى أمريكا كل سنة ، مهدّدة (لأول مرة منذ العصر الإغريقي) تغيير مستقبل ومظهر البلد ككل .

أما في اليمن ، فإن الأمر كان مختلفاً . فلم تكن هناك تجارة أجنبية ، ولا توجد مصانع ، وازدحم السكان في أماكن غير صحيّة . فالمدن والبلدات كانت تحتوي على الأسواق فقط ، والقرى كانت خالية وبدائية . لذلك فإن السكان ازدادوا ببطء ، ومعدّل المعيشة كان منخفضاً جداً . ولم يكن باستطاعة السكان أن يهاجروا إلى ما وراء البحار أما الهجرة للسودان ، فقد كان حتى أوضاعه أسوأ من غيره من الأقطار العربية ، والقبائل القليلة التي غامرت بالهجرة اليه أُجبرت على تغيير عاداتها وتقاليدها بشكل عميق ، لكي تستطيع البقاء . ولم يكن بإمكانهم أن يتحرّكوا باتجاه الشمال لامتداد الجبال ، لذلك فإن الطريق إلى مكة المكرّمة وميناءها جدّة كانت مسدودة أمامهم : والتي كانت تستقبل الغرباء الآتين من الهند وجاوا وبخارى وأفريقيا باستمرار . وكانت هذه الهجرات نشطة جداً ، ومعادية بعنف للوعي السامي ، وأبقت على نفسها بالرغم من الاختلافات الاقتصادية والجغرافية والمناخية . والاكتظاظ السكّاني لليمن ، مع ذلك ، أصبح

مفرطاً ، ووجد له منفذاً إلى الشرق ، وذلك بإجبار التجمّعات السكانية الأضعف بالهجرة نزولاً من سفوح الجبال إلى الوديان ، إلى منطقة وديان بيشه ، الدواسير ، الرانية وترابا القريبة من صحراء نجد . وهذه القبائل الضعيفة اعتمدت في معيشتها على تبادل السلع والتمور في أوقات الربيع ، لغايات ما وجدت لها منطقة حيث أصبحت الحياة الزراعية الحقيقية غير ممكنة . ومن ثم بدأت بتوسيع الحياة الرعوية من المواشي والجمال ، واعتمدت مع مرور الوقت أكثر فأكثر على رعي القطعان والمواشي في حياتها . وأخيراً ، وبسبب الضغط السكاني الكثيف خلفهم ، فإن تلك القبائل الحدودية (المتواجدة على الحدود ، والتي كانت قبائل رعوية تماماً) اندفعت من الواحات إلى أرض قاحلة غير موطوئة ، كقبائل بدو رحّل . وهذه العملية ، كانت تشاهد وقتذاك من قبل عائلات فردية وقبائل ، وهي تتنقل من منطقة لأخرى ، ولا بدّ أنها كانت تجري منذ القدم ، منذ اليوم الذي استوطنت فيه اليمن . فمنطقة الوديان الواقعة أسفل مكّة والطائف مليئة بالذكريات وأسماء الأماكن لنحو خمسين قبيلة كانت رحلت من هناك ، ويمكن أن تكون متواجدة اليوم في نجد ، وفي جبل شمر ، وفي منطقة الحماد ، وحتى على تخوم سوريا والعراق فقد كانت من هناك مصدر الهجرات ، ومصنع البدو الرحّل ، وتدفّق الراحلين عبر الصحراء . وبالنسبة لسكّان الصحراء ، فإنهم كانوا قليلي الإستقرار كسكان المرتفعات . وكانت الحياة الاقتصادية تعتمد على تموينات الجمال ، فهم أفضل وسيلة للحياة في الصحراء . وبهذه الوسيلة ، عاش البدو ، وصاغوا حياتهم ، وتقاسموا المناطق القبلية ، وأبقوا على قبائلهم تدور في هذا الروتين ، واعتمدوا الرعي صيفاً وشتاءً ، حتى يمكنهم من تنمية مواشيهم وقطعانهم بشكل ضئيل ، كل بدوره . وتواجدت أسواق الجمال في كل من سوريا ، العراق ، ومصر ، وهي التي كانت تقرّر ما يمكن شراؤه من الصحراء . هذا وكانت الصحراء تضيق بسكانها أحياناً ، حيث كانت هناك جيشانات واندفاعات من قبل القبائل المكتظة ، فمن الممكن أن يتدافعوا بقوة الطبيعة نحو أماكن أفضل . ولم يكن بوسعهم أن يتحوّلوا غرباً ، بسبب وجود مرتفعات

الحجاز ، المأهولة بكثافة والمتميزة بموقعها الدفاعي الكامل . وأحياناً كانوا يتجهون نحو الواحات الوسطى لبريده والقصيم . وإذا ما أردات القبائل أن تبحث عن أماكن استيطان قوية ونشطة ، فمن الممكن أن تنجح في احتلال أجزاء منها . ومع ذلك ، فإذا لم يكن ذلك متواجداً ، فإن قبائلها كانت تندفع تدريجياً نحو الشمال ، إلى أعلى ، ما بين المدينة في منطقة الحجاز والقصيم في منطقة نجد، لغاية ما تجد لنفسها مكاناً تستوطن فيه . وكان بإمكانهم أن يغزوا باتجاه الشرق ، عبر وادي رم أو جبل عسير ، ليتابعوا تدريجياً نحو الباطن إلى الشامية حيث يمكنهم أن يصبحوا من عرب حوض الفرات الأسفل ، أو كان يمكنهم أن يصعدوا ببطء نحو الواحات الغربية - إلى خيبر ، تيما ، الجوف ، ووادي سرحان لغاية ما يقتربوا من جبل الدروز (جبل العرب) ، في سوريا ، أو يقومون بسقاية قطعانهم ومواشيهم حول منطقة تدمر في الصحراء الشمالية ، وحتى حلب أو آشورية .

ولم يتوقف الضغط وقتذاك : فالنزعة العنيدة الصلبة للهجرة والإتجاه نحو الشمال استمرّت . فالقبائل وجدت نفسها مدفوعة ومنجرفة نحو التخوم الزراعية الخصبة لسوريا والعراق . فالبحث عن فرص ومتطلباتهم المعيشية حثّتهم على الإستفادة من امتلاك الماعز ، ومن ثم على امتلاك الأغنام ، وبدأوا أخيراً بالزراعة، ولو أنها كانت في البداية من أجل مواشيهم . ولم يعودوا آنذاك يعيشون حياة بدوية ، وبدأوا يعانون مثلهم مثل القرويين من غارات النهب والسلب من البدو المتواجدين على تلك الأرض من قبل ، واكتشفوا ، أيضاً ، أنهم كانوا يعيشون حياة الفلاحة . وقد رأينا قبائل ، ولدت ونشأت على مرتفعات اليمن ، أُجبرت من قبل قبائل أقوى على الهجرة إلى الصحراء ، حيث أصبحوا ، على عدم رغبة منهم ، بدو رحّل ليحافظوا على حياتهم . وقد رأيناهم يرحلون كل سنة إلى الشمال أو إلى الشرق قليلاً ، كلما أتاحت لهم الفرصة ، والهجرة من الصحراء ثانية إلى الأرض الخصبة ، راضين بذلك عن حياة البداوة التي عاشوها دون رغبة منهم في البداية . إنها كانت عبارة عن الدورة أو الجريان

الذي حافظ عليه الجسد أو البنية السامية . وقد كانت هناك أقليّة ، أو قلّة في الحقيقة من العنصر السامي تعيش في الشمال ، والتي لم تأت سلالاتها من عبر الصحراء في بعض العصور الحالكة . وعلامة البداوة ، التي كانت عميقة ومتأصّلة جداً في سلوكها الاجتماعي ، كانت تتراوح بدرجات متفاوتة من عشيرة لأخرى .

(٣)

إذا كان إبن العشيرة وابن المدينة في المناطق العربية بآسيا ليسا من سلالات وأجناس مختلفة ، لذلك فإنه من المعقول تماماً أنه لا بدّ أن تكون هناك عوامل وعناصر مشتركة تظهر في نتاج هؤلاء الناس جميعاً . فمنذ الوهلة الأولى ، ولأول لقاء معهم ، فقد يكتشف نقاء ووضوح كليّ وشامل أو صلابة في المعتقد ، ثابت تقريباً في حدوده ، ومُنفر في شكله اللامتعاطف أو اللامتسامح . فالساميون لم يكن لديهم أمور وسط في رؤياهم . فهم أناس كانوا يرون بلونين رئيسيين ، أي أبيض وأسود فقط . وهم يرون العالم في كفاف على الدوام . فهم أناس جازمون ، يحتقرون الشك ، وحياتنا العصرية المليئة بالأشواك . ولا يفهمون صعوباتنا الميتافيزيقية (ما وراء الحياة) ، وتساؤلاتنا المستنبطة . فهم يعرفون فقط الحقيقة أو عدم الحقيقة ، الإيمان أو عدم الإيمان ، دون أن تنتابهم الأوهام والأطياف والخيالات المتردّدة .

فهؤلاء الناس يرون الشيء إما أبيض أو أسود ، ليس في آرائهم ورؤياهم فحسب ، وإنما في معارضتهم . وأفكارهم متحرّرة من القلق والأوهام إلى أقصى الحدود . واعتادوا على المغالاة باختيارهم . وبدت عدم الترابطات أحياناً لتكسبهم تأرجح مشترك على الفور ، إلاّ أنهم لا يرضون بحلول وسط مطلقاً : فهم يسعون وراء آراء متضاربة منطقية عدة ليصلوا إلى أهداف بسيطة ، ودون إدراك أو فهم هذا التضارب أو التعارض . وهم برباطة جأشهم وحكمهم الهادئ ، يتأرجحون ويتذبذبون من خطّ متقارب .

إنهم أناس ضيّقوا ومحدودوا التفكير ، حيث أن ذكائهم الجامد يرتاح باستسلام غير مبال . وأن خيالاتهم نشطة ، لكنها غير خلاّقة . لقد كان هناك قليل جداً من الفن العربي في اسيا ، ويمكن أن يطلق عليهم تقريباً أنهم لم يكن لديهم فنون ، مع أن فئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية كان لها رؤوساء متحرّرين ، وقد شجّعوا المواهب والكفاءات مهما كانت في مجال الهندسة ، أو السيراميك ، أو غيرها من المهن اليدوية التي كان جيرانهم أو أقيانهم يمارسونها . وأنهم لم يبنوا المصانع الكبيرة : فلم يكن لديهم المؤسسات الفكرية أو المادية . ولم يخترعوا أنظمة وأسس الفلسفة ، ولا الأساطير المعقّدة . وانقادوا في نهجهم ما بين أوثان القبلية والكهوف . وهم أقل الشعوب كآبة ، فتقبّلوا هبة الحياة على نحو غير مشكوك فيه ، كأمر بديهي .

إنهم شعوب الفورات ، الجيشانات ، الأفكار ، وسلالة العبقرية الفردية . وأن حركاتهم كانت مؤثرة أكثر ، ومتناقضة مع هدوئهم اليومي ، وعظماؤهم أعظم تناقضاً بالنسبة لإنسانية رعاعهم . وقناعاتهم هي غريزة ، ونشاطاتهم حدسية . وكانت العقائد أعظم إنتاج لهم : فهم تقريباً كانوا محتكروا الديانات الملهمة . فثلاثة من هذه الديانات هي ثابتة بينهم : واثنان منها نشرت (بأشكال معدّلة) خارجاً ، إلى شعوب غير سامية . فالديانة المسيحية . ترجمت إلى لغات مختلفة ، لليونانية ، واللاتينية والجرمانية ، وقد غزت كل من أوروبا وأمريكا . والإسلام بتجولاته المختلفة قد انتشر في أفريقيا وأجزاء من أسيا . فقد كانت تلك نجاحات سامية . وقد احتفظوا وأبقوا على إخفاقاتهم لأنفسهم . وأن حواشي وأهداب صحاريهم نثرت مع معتقداتهم .

إنه كان مهماً أن الديانات القديمة نزلت على الذين يعيشون في الصحراء والأرض الخصبة . واختفت أجيال كافة العقائد . وكانت تحتوي على تأكيدات ، وليس على الحجج ، لذلك فقد تطلّبت وجود نبي ليدفع بها قدماً . ويقول العرب أنه كان يوجد هناك أربعين ألف نبي ورسول : ونحن قد سجلنا بضعة مئات على الأقل . ولم يكن أحد منهم يعيش في الصحراء ، إلاّ أن حياتهم كانت نموذجاً

يحتذي به . وقد ولدوا في مناطق وأماكن مزدحمة بالناس . ودفعتهم عاطفة اشتياق غير مفهوم أو واضح نحو الصحراء . وعاشوا هناك أوقاتاً طويلة أو قصيرة في التأمّل والهجر الجسدي ، ومن ثم كانوا يعودون برسالاتهم لوعظ وإرشاد الناس . إن مؤسسي (أنبياء) الديانات الثلاث الكبرى مروا بهذه التجربة : وتصادفاتهم الممكنة أثبت قانوناً لتواريخ الحياة المتوازية . وبالنسبة للمفكّرين فإن الحافز لديهم لم يكن ليقاوم ، ليس من احتمالية اكتشافهم لوجود الله ، وإنما من خلال انعزالهم سمعوا المزيد من الكلمات الحيّة المؤكدة التي جلبوها معهم .

إن القاعدة المشتركة لكافة العقائد السامية ، سواء الرابحة أو الخاسرة منها ، كانت دوماً هي الفكرة الحالية لعالم عديم القيمة . وردّ فعلها العميق للأمور قادتها لتنشر القفر ، الزهد ، والفقر ، وأن جو هذا الاختراع خنق أفكار الصحراء دون رحمة . وكانت معرفتي بمعنى نقائها المتخلخل في سنوات مبكّرة من عمري ، عندما امتطينا الدواب وذهبنا بعيداً إلى سهول سوريا الشمالية إلى أطلال العصر الروماني ، التي اعتقد العرب إنها بنيت من قبل أمير كقصر صحراوي لملكته . وقيل أن صلصال أو طين بناء ذلك القصر لم يُجبل بالماء ، وإنما جُبل بماء الورد . وكان مرشدي السياحي يشمّ ويستنشق الهواء مثل الكلاب ، وهو يقودني من غرفة متقوضة إلى أخرى ، وهو يقول ، « هنا بنيت الغرفة بماء الياسمين ، وهنا بماء البنفسج ، وهناك بماء الورد . »

ولكن أخيراً سحبني الدليل السياحي من يدي وقال : « تعال وشمّ رائحة أحلى منها كافة » . وذهبنا إلى الغرفة الرئيسة ، وكان طرفها مهدوماً بشكل كبير ، ويتلاعب هواء الصحراء فيها ، أي عبارة عن أطلال . وتمتم الدليل كالأطفال وهو يقول « هذه ، كما قالوا لي ، هي الأفضل ، فإنها لا رائحة لها ، أي لم تبن بماء الورد » . فالعرب قد أداروا ظهورهم للعطور وحياة الرخاء ، ليختاروا الأشياء التي لم يقاسمهم أو يشاركهم فيها الجنس البشري .

إن بدوي الصحراء ، يولد وينشأ بها ، ويحتضن بكل كيانه وروحه تلك

الأرض القاحلة التي يعجز عنها المتطوعون ، ولسبب ما يشعر به دوماً إنه وجد نفسه هناك طليقاً بشكل ثابت . وهو يفقد الروابط المادية ، الراحة والرفاهية ، وكافة الكماليات والتعقيدات الأخرى لينجز ويحقّق حريّة شخصية التي تلازم الجوع والموت . وهو لا يرى فضيلة أو منفعة من الفقر بحدّ ذاته : فهو يتمتع بترفيهات ضئيلة ـ مثل القهوة ، الماء العذب ، النساء ـ والتي ما زال بإمكانه الحفاظ عليها . ففي حياته ، يوجد الهواء والريح ، الشمس والضوء ، والأجواء المفتوحة والفراغ الضخم . فلا يوجد هناك جهد إنساني ، ولا طبيعة خصبة : وإنما فقط السماء من فوقه والأرض المترامية من تحته . وهناك هو يصبح قريباً من الله . فالله بالنسبة له ليس مجسماً ، ولا ملموساً ، وإنما مدركاً بالحواس ، وهو سبب كل العلل والاسباب والأعمال .

إن البدوي لا يمكنه النظر والبحث عن الله في نفسه : أنه متأكد تماماً بأنه عبد الله . ولا يمكنه أن يتصوّر أو يتخيّل أي شيء مثل الله ، الذي هو وحده العظيم . ومع أنه يوجد هناك حياة عدم الإستقرار والمناخ القاسي ، فإن الله موجود في مأكلهم ، وفي حروبهم وشهواتهم ، وفي أفكارهم المشتركة ، وهو رفيقهم ومصدرهم المألوف ، وبطريقة تبدو مستحيلة بالنسبة لهؤلاء الذين حجب الله بصيرتهم بسبب انشغالهم بالأمور الدنيوية وتركهم لعبادته . والعرب لا يشعرون بالتعارض من أن يعزوا ضعفهم وأدنى ما يعترضهم من مشاكل إلى مشيئة الله . فالله هو أعظم شيء بالنسبة لهم ولبلاغتهم ، فنحن في الحقيقة نفقد الكثير من البلاغة والفصاحة عندما نجعل اسمه من أقصر الكلمات ذات المقطع الواحد ، (دون أل التعريف بالنسبة للغة الإنجليزية) .

لقد بدت عقيدة الصحراء هذه كواحدة لا يمكن وصفها بالكلمات ، وإنما في التفكير في الحقيقة . ومن السهل أن تشعر بتأثيرها ، فأولئك الذين ذهبوا إلى الصحراء ومكثوا فيها لمدة طويلة سينسوا أمر أجوائها المفتوحة أو فراغها ، فكانوا منغرسين بشكل محتوم في التفكير بالله كملجأ وحيد ووجود متناغم . وأن البدوي يمكن أن يكون سنياً بالإسم ، أو وهابياً بالإسم ، أو أي شيء آخر في

النطاق السامي . ويمكنه أن يأخذ ذلك على نحو بسيط جداً ، بسيط على نمط حراس بوابة صهيون الذين شربوا البيرة وضحكوا من صهيون لأنهم كانوا صهاينة . وكل فرد بدوي كان له دينه الملهم ، ليس شفوياً ولا تقليدياً أو تعبيرياً ، وإنما بشكل غريزي في نفسه ، ولذلك فإننا فهمنا كافة العقائد السامية بالتأكيد (في الشخصية والجوهر) على ان العالم فارغ وان الكمال للله ، وحسب قوة وفرصة المؤمن للتعبير عنها .

إن ساكن الصحراء لايمكنه أن يأخذ معتقدة كمفخرة . فهو لم يكن مبشّراً أو مهتدياً على حد سواء . وهو وصل إلى هذا بتكشيف إيمانه بالله ، وذلك بإغلاق عينيه للعالم ، ولكافة الاحتمالات المعقدة والكامنة فيه ، والتي تتصّل فقط باليسر والثروة والإغراءات التي يمكن أن تجرفه لبعيد . واكتسب ثقة مؤكدة وثقة قوية ، وإنما كانت في مجال ضيّق . وقيدته تجربته المجدبة للشعور بالشفقة ، وأفسدت لطفه الإنساني بالصورة الصحراوية التي هو مختبئ فيها . ووفقاً لذلك ، فهو يؤذي نفسه ، ليس ليكون حراً فحسب ، ولكن ليسر نفسه . وتبع ذلك سرور في الم ، وقسوة كانت اكثر نسبة من الخيرات والحسنات . فلا يوجد في الصحراء العربية متعة مثل حمل الأمتعة والرحيل بصورة طوعية . ووجد البدوي متعته وترفيهه في نكران الذات ، الزهد ، وتقييد النفس . وجعل التجرّد في النفس والعقل كالتجرّد في الجسد . وأنقذ روحه ، ربما ، بدون خطر ، ولكن بأنانية قاسية . والصحراء جعلت له منزلاً روحياً جليدياً ، جعلته فيه سليماً ولكن غير قابل للتحسّن في كل العصور لتصوّره ورؤيته الإلهية . ولذلك أحياناً ، فإن الساعين من العالم الخارجي يمكنهم الفرار لسبب ما ، وينظرون من ذلك المكان بتجرّد إلى طبيعة الجيل الذي يمكن أن يحولوه . أن عقيدة الصحراء هذه مستحيلة في المدن . فإنها تعتبر غريبة على الفور ، بدائية جداً ، وصعب جداً تقبلها . فهذه الصورة ، أو المصدر الثابت لكافة العقائد السامية تكمن منتظرة هناك ، ولكن كان عليها أن تخفّف لتجعل قابلة للاستيعاب والفهم بالنسبة لنا . وأن صوت ضربة العصا الضيّق كان حاداً جداً لعديد من الأذان أو الأسماع : فروح الصحراء فرت

أو تلاشت من خلال تركيبنا وبنياننا القاسيين . فالأنبياء عادوا من الصحراء بلمحاتهم عن الله ، وأظهروا من خلال وسيلتهم شيئاً عن القوة والنور الإلهي ، والذي رؤياه الكاملة ستسكننا وتخدمنا كما خدمت البدوي في الصحراء ، وجعلته غير مصقول ومستقلاً حراً .

إن المؤمنين ، في محاولة تقييد أنفسهم وجيرانهم بكل الأمور حسب مشيئة الخالق ، تعثّرت بالضعف والإخفاق الإنساني . فالعيش ، سواء بالنسبة للقروي أو المدني فلا بدّ أن يملأ نفسه كل يوم بمنع الإمتلاك والتراكم . وبالتقيد بالظروف فقد أصبحوا أناساً ماديين جداً . والإزدراء الجلي للحياة الذي قاد آخرين إلى زهد مجرّد جداً دفعهم لليأس . وبدّد نفسه بشكل طائش . وكمبذّر ، فقد انطلق من خلال وراثته للجنس البشري برغبة متهورة للنهاية . وأن اليهودي ، في برايتون ، البائس ، المتعبّد في أدونيس ، الفاسق في المواخير ، كان على حد سواء إشارات وعلاقات للطاقة السامية للمتعة ، والتعبيرات من نفس العصب الذي يعطينا في القطب الآخر إنكار الذات للجوهر أو المسيحيون الأوائل ، أو الخلفاء الأوائل ، واجداً طريق الملاذ الأعدل للفقير في نفسه . فالانسان السامي تأرجح ما بين الشهوة وإنكار الذات .

إن العرب يمكن أن يكونوا متأرجحين في فكرة ما كما لو أنهم يمشون على حبل ، فعدم إخلاصهم لأفكارهم وعقولهم جعلهم عبيد مطيعين . و لا واحد منهم يمكنه أن يفرّ من العهد أو الرباط لغاية ما يأتي النجاح ، وتأتي معه المسؤولية والواجب والمواثيق والعهود . لذلك فإن فكرة ما تذهب أو تتلاشى والعمل يصبح منتهي ـ بخراب . وبدون العقيدة فإنهم يمكن أن يؤخذوا إلى زوايا العالم الأربعة (ولكن ليس إلى السماء) ليروا أغنياء الأرض وسعاداتهم ، ولكن اذا ساروا على الطريق ، بهذا الأسلوب ، فإنهم قابلوا رسول الفكره ، الذي كان يضع رأسه في أي مكان والذي اعتمد في طعامه على الإحسان والطيور ، ومن ثم فإنهم سيتركون جميعاً يسرهم وغناهم من أجل إلهامه . إنهم كانوا أبناء الفكرة بشكل عنيد وراسخ ، عاجزين ، وعميان ألوان ، والتي كان الجسد

والروح معارضين لها دوماً بشكل محتوم . كان عقلهم وتفكيرهم غريباً ومظلماً، مليء بالركود والإفراطات ، ناقصاً في الحكم ، ولكن مع مزيد من الغيرة والحماسة ومزيد من الخصب في العقيدة من أية فئة أخرى في العالم . إنهم كانوا شعب النجوم ، التي كان لها الشيء المطلق والحافز الأقوى ، ولعملية الشجاعة غير المحدودة ، والتنوّع ، ونهاية العدم . فهم كانوا غير مستقرين كالماء ، وكالماء أيضاً ، ربما ، يمكنهم أن يسودوا في نهاية المطاف . ومنذ فجر الحياة ، وفي موجات متتابعة فإنهم دفعوا بأنفسهم في مواجهة سواحل الجنس البشري . وكل موجة حُطّمت ولكن ، مثل البحر ، الذي يؤثر الشيء الضئيل بصخور الغرانيت ويفشل عليها ، وبعض يوم ، وعصور أيضاً ، يمكن أن يتموّج غير مبال على المكان حيث يكون العالم المادي ، والله يمكن أن يتحرّك على وجه تلك المياه .
وواحدة مثل هذه الموجة (وليس الأقل) رفعت وبسطت أمام روح الفكرة ، لغاية ما وصلت لذروتها ، وانقلبت لأعلى لغاية ما وقعت على دمشق . إن غسل تلك الموجة ، المطروحة خلفاً من قبل مقاومة الأشياء الثابتة ، ستوفّر وتزوّد محتوى ومادة الموجة اللاحقة ، عندما في تكامل الزمن سيرتفع البحر مرة أخرى .

(٤)

إن الإندفاع العظيم حول البحر الأبيض المتوسط أظهر للعالم القوة المدهشة للعرب للفترة القصيرة لنشاط الجسد المكثّف ، ولكن عندما حرق الجهد نقص الأحتمال والروتين في العقل السامي اصبح جلياً . فالأقاليم التي حكموها أهملوها ، وكرهوا فرض النظام فيها ، وكان عليهم أن يسعوا للحصول على المساعدة من تابيعيهم المُحتلين ، أو من العناصر الأجنبية النشطة ، لإدارة أمبراطورياتهم الناقصة ضعيفة البنيان . لذلك ، فمنذ العصور الوسطى المبكّرة ، فقد وجد الأتراك أقدام لهم في الأقاليم والدويلات العربية ، كخدم في البداية ، ومن ثم كمساعدين ، ومن ثم أصبحوا قوة متطفّلة متنامية التي خنقت وقضت على الحياة السياسية القديمة . وكان الطور الأخير هو العداوة والبغضاء ، عندما أشبع التتار والمغول غليلهم وتعطّشهم للدماء ، وأحرقوا ودمّروا كل شيء ضايقهم مع التظاهر بالفوقية .

إن الحضارة العربية كانت مطلقة في طبيعتها ، فكرية وأخلاقية غير مطبقة ؛ ونقص الروح العامة جعل خاصياتهم الخاصة الممتازة غير ذي جدوى . وكانوا محظوظين في عهدهم : فأوروبا كانت واقعة في براثن البربرية ، وذكرى التعاليم اليونانية واللاتينية كانت متلاشية في عقول الناس . وعلى النقيض فإن الممارسة المقلّدة للعرب بدت مثقّفة ، فقد كان نشاطهم الذهني متقدّماً ، و دولتهم مزدهرة . وقد قوّموا وعرضوا خدمة حقيقية في الحفاظ على شيء من الماضي التقليدي (الكلاسيكي) من أجل مستقبل العصور الوسطى .

ومع قدوم الأتراك فإن هذه السعادة أصبحت حلماً . ومع مرور المراحل

والعصور ، فإن ساميين آسيا خضعوا لعبوديتهم ، ووجدوا ان ذلك هو موت بطيء . فقد سلبت ثرواتهم ، وذوّبت أنفسهم تحت تخدير الحكومة العسكرية . فالحلم التركي كان حلماً شرطياً (عسكرياً) ، والنظرية السياسية التركية كانت قاسية في ممارستها . فالأتراك علموا العرب أن المصالح الطائفية كانت فوق تلك المصالح الوطنية : إن الاهتمامات الثانوية للبلد أو الإقليم كانت فوق وأهم من المصالح القومية . وقادوهم بأسلوب التفريقات والأنشقاقات الذكي ليشك الواحد بالآخر . حتى أن اللغة العربية أُبعدت عن المحاكم والمؤسسات الحكومية العامة ، والمدارس العليا . والعرب يمكن أن يخدموا في الدولة إذا ما ضحوا بمميزاتهم العرقية . كانت هذه الإجراءات غير مقبولة بشكل سري وهادئ . وأظهر التماسك السامي نفسه في عدة ثورات قامت في سورية ، العراق والجزيرة العربية ضد أشكال التغلغل التركي الواضحة ، كما وجدت مقاومة أيضاً للمحاولات الماكرة المتزايدة للابتلاع . والعرب لم يتخلّوا عن لغتهم المرنة والفنية ليستخدموا اللغة التركية الخام والجامدة : فبدلاً من ذلك فقد ملئوا اللغة التركية بالكلمات والمصطلحات العربية ، ونقلوا إليها كنوز أدبهم العربي .

لقد فقدوا شعورهم وإحساسهم الجغرافي ، وذكرياتهم العرقية والسياسية والتاريخية ، لكنهم تعلّقوا بثبات أكثر بلغتهم ، وربطوها أكثر بالوطن الأم . وكان الواجب الأول لكل مسلم هو تعلّم القرآن ، الكتاب المقدّس لدى الاسلام ، وهو بشكل عرضي أعظم دعامة ادبية للعرب . ومعرفة هذا الدين هو من اختصاص العربي المسلم ، وأنه كان هو فقط مؤهل تماماً لفهمه وممارسته ، مما أعطى ومنح كل عربي مقياساً ليحكم منه على الإنجازات التافهة للأتراك .

ثم جاءت الثورة التركية ، وسقوط السلطان عبدالحميد ، وبروز حركة «تركيا الفتاة » ليتوسع أفقها بكل لحظة بين العرب . وكانت حركة تركيا الفتاة ثورة ضد العقيدة الدينية للإسلام والنظريات الإسلامية المؤيدة للسلطان القديم المخلوع ، الذي طمح ، بجعل نفسه الزعيم الروحي للعالم الإسلامي ، ليكون أيضاً زعيماً دنيوياً له . فقد ثار أولئك الشبان السياسيين ضده والقوا به في

السجن، تحت قوة وحافز الأحكام الدستورية لدولة مستقلة . ذلك حدث في وقت كانت فيه أوروبا الغربية تبدأ بالتخلي عن الإقليمية والتحول إلى الأمور الدولية ، وتخوض الحروب مبعدة نفسها عن المشكلات العرقية ، فبدأت آسيا الغربية بالتخلي عن الشمولية إلى التحول نحو السياسات الوطنية ، وتحلم بخوض الحروب من أجل الإستقلال الذاتي والحكم الذاتي ، بدلاً من السعي من أجل تحقيق العقيدة السياسية . فهذه النزعة تحطّمت أولاً وبقوة أعظم في بلدان الشرق الأدنى ، في دول البلقان الصغيرة ، وقامت بتقويتها وتعزيزها من خلال عملية استشهاد لا نظير لها تقريباً لتحقيق هدفها في الإنفصال عن تركيا . و كانت هناك فيما بعد حركات وطنية في كل من مصر ، وفي الهند ، وفي إيران ، وفي القسطنطينية أخيراً ، حيث قويت وعزّزت واستفادت من الأفكار والمفاهيم الأميركية في العلم : هذه المفاهيم ، التي ما أن أطلقت في جو شرقي قديم ، حتى صنعت وأحدثت أنفجاراً مختلطاً . فالمدارس الفكرية الاميركية ، اتبعت منهاج البحث والتحقيق ، وشجعت الإستقلال والتجرّد العلمي وتبادل وجهات النظر الحرّة . وتماماً دون قصد فقد قامت بتعليمهم أساليب الثورة ، حيث أنه كان من المستحيل بالنسبة للفرد أن يكون عصرياً وهو بنفس الوقت موالياً ، إذا ما كان واحداً من السلالات والأجناس التي كانت خاضعة لتركيا - مثل اليونان ، العرب ، الأكراد ، الأرمن أو الألبانيين - والذين كان الأتراك يسعون لأن يبقوهم لمدة طويلة جداً تحت هيمنتهم .

إن أعضاء حركة تركيا الفتاة ، وبسبب الثقة من نجاحهم الأولي ، قد بُهروا بمنطق مبادئهم ، كحركة محتجة ضد الولاء الإسلامي للأخوة العثمانية . واعتقدت الفئات والأعراق الساذجة والخاضعة - وهم أكثر عدداً بكثير من الأتراك أنفسهم - بأنهم قد دعوا للتعاون في بناء شرق جديد . واندفعوا للمهمة ، فتخلّوا عن برامجهم الفكرية الشاملة ، وهلّلوا للأتراك كأنصار لهم . وفزع الأتراك من تلك القوة التي أطلقوا عنانها ، فقد أشعلت النار بصورة مفاجئة ، وكان عليهم أن يخمدوها . فأصبح شعارهم - تركيا صُنعت للأتراك . وحوّلتهم هذه السياسة

فيما بعد باتجاه إنقاذ اقاليمهم المحتلة ـ فقد كان هناك سكان أتراك في وسط آسيا خاضعين لروسيا . ولكن قبل كل شيء ، فإنه ينبغي عليهم تطهير إمبراطوريتهم من تلك الأجناس والأعراق الثائرة والساخطة ، والتي تقاوم النظام الحاكم . فالعرب ، وهم الذين كانوا يشكّلون العنصر الغريب الأكبر في الدولة العثمانية ، يجب أن يُتعامل معهم أولاً . ووفقاً لذلك فإن النواب العرب يجب أن يُبعثروا ، وأن يُمنع تأسيس الجمعيات والمنظّمات العربية ، وأنه يُنفي ويُبعد الوجهاء والشخصيات العربية . وقمعت المظاهر واللغة العربية من قبل أنور باشا بطريقة أقسى مما فعله السلطان عبدالحميد من قبله .

ومع ذلك ، فإن العرب كانوا تذوّقوا الحريّة : فلم يكن بإماكنهم أن يغيّروا أفكارهم وأيضاً سلوكهم بسرعة ، ولم يكن من السهل إخماد الروح الثابتة الصلبة بينهم . وكانوا يقرأون الصحف التركية ، واضعين الشعارات والمبادئ العربية الوطنية فوق الشعارات التركية . والقمع شحنهم للقيام بأعمال عنف غير صحية . وبسبب الحرمان من الحقوق الدستورية فقد أصبحوا ثوريين . وأنشئت الجميعات العربية السريّة ، وتحوّلت من نواد ليبرالية حرّة إلى نواد « للمؤامرات » في العُرف التركي . فجمعية الأخوة ، وهيَ الجمعية العربية الأمّ ، حلّت علناً . واستبدلت في العراق ، بجمعية خطيرة أخرى أسمها « جمعية العهد » ، وهي جمعية «أخوة » في غاية السريّة ، اقتصرت تقريباً على الضباط العرب في الجيش التركي ، الذين أقسموا على امتلاك المعرفة العسكرية من قوادهم ، وتحويلها ضدهم ، لخدمة الشعب العربي ، عندما تحين لحظة الثورة .

لقد كانت جمعية كبيرة ، بنيت على قاعدة ثابتة في الجزء الجنوبي المقفر من العراق ، حيث تولّى قيادتها بشكل سري سعيد طالب ، وهو يشبه جون ويلكس بالنسبة للحركة العربية . وكان معظم المنتمين لها من الضباط العراقيين ، وكان تنظيمها حسن جداً ويجري بسرية تامة ، مما جعل أعضاءها يحافظون على مراكز قيادية عالية في الجيش التركي حتى النهاية . وعندما جاء وقت الاقتحام ، وعندما اجتاز وانتصر الجنرال اللنبي في المعركة الفاصلة الكبرى وانهارت تركيا ، كان

نائب رئيس الجمعية يقود القوات التركية البقايا المحطمة لجيوش فلسطين التركية المتقهقرة ، وضابط آخر منها كان يقود القوات التركية عبر الأردن في منطقة عمّان وفيما بعد أيضاً ، وبعد عقد إتفاقية الهدنة ، كان ما يزال يوجد في الخدمة العسكرية التركية رجال يتقلّدون مناصب رفيعة مستعدين للإنقلاب على قادتهم الأتراك عند ورود أية إشارة من زعمائهم العرب . وكان يتهيأ لمعظمهم أن تلك الإشارة لن تُعطى أبداً . فبالنسبة لتلك الجمعيات فقد كانت موالية للعرب فقط ، وراغبة في القتال من أجل استقلال العرب فقط ، ولم يكن بوسعهم أن يروا أية فائدة في مساندة الحلفاء بدلاً من الأتراك لا أنهم لم يصدّقوا تأكيداتنا بأننا سندعهم أحراراً . ففي الحقيقة ، فإن العديد منهم فضّل وجود أقاليم عربية متحدة مع تركيا في خضوع بائس ، على أن تكون هناك بلاد عربية مقسّمة وكسولة تحت إشراف عدّة دول أوروبية ضمن مجالات النفوذ او الانتداب .

كانت الجمعية الأكبر من جمعية « العهد » هي جمعية « العربية الفتاة » ، وهي جمعية أُنشئت في سورية ونادت بالحرية . وتكوّنت من ملاك الأراضي ، الكتّاب ، الأطباء ، كبار الموظفين العامين ، حيث ربطوا أنفسهم بهذه الجمعية بأداء قسم مشترك ، وكلمات سر ، وإشارات ، وصحافة ومخصصات مالية ، ووذلك كله من أجل تدمير الإمبراطورية التركية . وبالأسلوب السوري المفعم بالضجيج البارع ـ مثل شعب يشبه إلى حدّ كبير السرعة اليابانية في هذا المجال ، ولكن بشكل سطحي ـ فإنهم قد بنوا بسرعة كبيرة منظمة ضخمة ، . وتطلّعوا للخارج من أجل الحصول على المساعدة ، وانتظروا أن تأتي لهم الحرية بالاستعطاف أو العطف معهم ، وليس بالتضحية . وتراسلوا مع مصر ، ومع جمعية « العهد » (الذين يتصف أعضاءها بالصرامة العراقية ، لذلك فقد ازدروا مطلبهم) . وتراسلوا مع شريف مكة ، ومع بريطانيا العظمى : وكانوا يسعون للحصول على حليف لهم في أي مكان ليخدم نزعتهم . وهم كانوا أيضاً مفرطوا السريّة في تعاملهم ونشاطاتهم ، وكانت الحكومة تشكّ بوجودهم ، ولم يمكنها أن تجد أي دليل موثوق يكشف عن زعمائها أو أعضاءها . وكان على الحكومة

آنذاك أن تغضّ النظر عنها لغاية ما تتمكّن من ضربها مع وجود دليل كاف ، وذلك لترضي الدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين ، الذين كانوا يمثّلون الرّأي العّام العصري (الحديث) في تركيا . إلاّ أن اندلاع الحرب في عام ١٩١٤ أبطل وسحب هذه العوامل ، وتركت الحكومة التركية طليقة اليد في ضربها .

ووضعت التعبئة العامة كل السلطة في أيدي أولئك الذين كانوا أعضاءً في الحكومة التركية - أمثال أنور ، طلعت وجمال (باشا) - الذين كانوا آنذاك في منتهى القسوة ، الأكثر منطقيين ، والأعظم طموحاً في حركة تركيا الفتاة . وقد هيأوا أنفسهم للقضاء على كافة التيارات غير التركية في الدولة ، وبشكل خاص العرب والأرمن . وكخطوة أولى ، فإنهم وجدوا سلاحاً ماكراً وملائماً في أوراق سريّة لقنصل فرنسي في سورية ، تركها خلفه في القنصلية والتي كانت تحتوي على نسخ (تتعلّق بقضية الحرية العربية) ، والتي جرت بينه وبين ناد عربي ، لم يكن له ارتباط بجمعية « العربية الفتاة » ، ولكنها تعلّقت بأحاديث ثرثارة غير خطرة لمجموعة من أهل الفكر في مدن الساحل السوري . وكان الأتراك مسرورين بالطبع ، بالهجوم الاستعماري الذي شنّه الفرنسيون في شمال إفريقيا مما أكسبهم سمعة سيئة في العالمين العربي والإسلامي ، ومما خدم جمال باشا بشكل جيّد ليظهر أخوته في الدين ، من أن هؤلاء العرب الوطنيين كانوا كفاراً تماماً بتفضيلهم فرنسا على تركيا .

لم تلق ، بالطبع ، تصريحاته تلك ، في سورية ، سوى تأثير بسيط ، ولكن أعضاء الجمعية كانوا معروفين ومحترمين ، وأدّى اعتقالهم وإدانتهم ، ونفي وطرد وإعدام عدد منهم ، الى تحريك البلاد من أعماقها . وعلم أعضاء جمعية « العربية الفتاة » بأنهم إذا لم يستفيدوا من درسهم ، فإن مصيرهم سيكون مثل مصير الأرمن من قبل . فالأرمن كانوا جيدي التنظيم والتسليح ، ولكن زعمائهم هم الذين أفشلوهم . فجرّدوا من السلاح وقضي عليهم تدريجياً . فالرجال ذبحوا في مجزرة ، والنساء والأطفال سيقوا على امتداد طرق باردة وعاصفة إلى الصحراء ، عريانين وجائعين ، وكانوا فريسة لكل قاطع طريق ،

لغاية ما قضى عليهم الموت . لقد قتلت حكومة تركيا الفتاة (الإتحاد والترقي) الأرمن ، ليس لأنهم كانوا مسيحيين ، وإنما لأنهم كانوا أرمن . ولنفس السبب فإنهم ساقوا العرب المسلمين والعرب المسيحيين إلى نفس السجن ، وشنقوهم جميعاً على نفس المشانق . وبذلك . فقد وحّد جمال باشا كافة الفئات الشعبية ، والأوضاع والعقائد في سوريا ، تحت ضغط البؤس والخطر المشترك ، وبذلك جعل احتمال حدوث ثورة منظمة أمراً ممكناً بسبب قمعه واستبداده .

لقد ساور الأتراك الشكّ بالضباط والجنود العرب الذين كانوا يخدمون في الجيش التركي ، وأملوا أن يستخدموا ضدهم أساليب التشتيت والتفرقة التي استخدموها ضد الأرمن من قبل . فوضعوا الصعوبات في طريقهم في البدء ، ومن ثم جاء التركيز والحشد الخطير للفرق العسكرية العربية (كان العرب يشكّلون تقريباً ثلث الجيش التركي وقتذاك) في شمال سوريا ، في مطلع عام ١٩١٥ . وسعوا لتحطيمها ما أمكن ، وسيروها إلى أوروبا ، والدردنيل ، والقفقاس ، وإلى قناة السويس - وإلى أي مكان آخر ، ووضعهم بسرعة على خطوط النار ، أو سحبهم بعيداً عن مرأى ومساعدة مواطنيهم . وأُعلنت حرب مقّدسة لتمنح شعار حكومة « الإتحاد والترقي» ، شعار القدسية التقليدية لمعركة الخليفة ، وفقاً للعناصر الدينية القديمة ، ودُعي شريف مكة - أو أستنجد به - لتلبية نداء الاستغاثة .

(٥)

إن منزلة أو لقب « الشريف » انحدر من سلالة النبي محمد ، من سلالة ابنته فاطمة ، وابنها الأكبر الحسن . وسلالة الشرفاء الأصليين نقشت أو كتبت في شجرة العائلة ـ وحفظت في مخطوط ضخم في مكة ، في رعاية أمير مكة ، وهو شريف الأشراف المنتخب ، والمفترض أن يكون كبيرهم وأنبلهم . إن سلالة الرسول (ص) حكمت مكة لفترة زمنية تمتد لنحو تسعمائة سنة ، واشتملت على نحو ألفي شريف .

والحكومات العثمانية القديمة نظرت إلى هذه العشيرة (السلالة) نظرة وقار وتقدير . حيث أنها كانت إلى حد كبير من القوة بحيث يصعب القضاء عليها عليها ، لذلك فقد اتبع السلطان العثماني احترامه لها بتنصيب أميرها في مكانه الطبيعي . ولغاية ما وجد الأتراك في آخر الأمر أنهم كانوا بحاجة لأن تكون منطقة الحجاز تحت سيطرتهم الفعلية كجزء من تلبية شعارهم الجديد وقتذاك لتوحيد العالم الإسلامي تحت سيطرتهم . وتصادف ذلك مع فتح قناة السويس مما مكّنهم من إقامة حاميات عسكرية حول المدن المقدّسة . ثم أنجزوا مشروع الخطّ الحديدي الحجازي ، وزادوا من النفوذ التركي بين القبائل بواسطة الرشوة بالمال ، وبالخدع والتآمر تارة، وبالحملات العسكرية تارة أخرى . وعندما ازدادات قوة ونفوذ السلطان هناك غامر بفرض نفسه إلى جانب الشريف أكثر فأكثر وحتى في مكة نفسها . وعندما كانت تحين مناسبة ما فإنه غامر بخلع الشريف وفقاً لوجه نظره فيه ، ومن ثم تعيين خليفة له من عائلة منافسة في العشيرة على أمل كسب

المنافع من ذلك الإنقسام . وفي آخر الأمر ، فإن السلطان عبدالحميد أحضر لعنده في القسطنطينية بعض أعضاء العائلة الهاشمية كنوع من الإقامة الجبرية (المُشرفة) . ومن بين هؤلاء كان الشريف الحسين بن علي ، الحاكم المستقبلي للحجاز ، والذي مكث هناك لنحو ثمانية عشرة سنة . وقد انتهز الشريف حسين الفرصة خلال وجوده هناك لتزويد أبناءه ـ علي ، عبدالله ، فيصل وزيد ـ بالعلم والتجربة الحديثين اللتين مكّنتهم فيما بعد من قيادة الجيوش العربية إلى النجاح .

وعندما سقط السلطان عبدالحميد ، فإن حركة تركيا الفتاة الأقل مكراً قلبت سياسته واعادت الشريف حسين أميراً على مكة . فعمل بشكل بارز في الحال على استعادة سلطته على الإمارة ، وتقوية نفسه على الأسس القديمة ، مبقياً على العلاقة الوديّة الوثيقة ولفترة ما مع القسطنطينية من خلال نجليه عبدالله ، الذي كان آنذاك نائب رئيس مجلس النواب (المبعوثان) التركي ، وفيصل ، الذي كان نائباً عن مدينة جده . واللذان أبقياه على إطلاع بالوضع السياسي في العاصمة العثمانية لغاية ما اندلعت الحرب ، عندما رجعا على عجل إلى مكة .

إن اندلاع الحرب سبب إضطراباً في الحجاز . فقد توقف موسم الحج ، وتوقفت معه العائدات والأعمال في المدن المقدّسة . وكان هناك سبب للخوف من أن تتوقف السفن المحمّلة بالأغذية القادمة من الهند (حيث أن الشريف كان أصبح تلقائياً عدواً للإنجليز) ، وحيث أنه لا يوجد إنتاج غذائي تقريباً في الحجاز آنذاك . فإن ذلك سيكون معتمداً بشكل مشكوك فيه على حسن نية الأتراك ، الذين من الممكن أن يعرضوا المنطقة للجوع بإغلاقهم الخطّ الحديدي الحجازي . ولم يكن الشريف حسين من قبل تحت رحمة الأتراك كما أصبح آنذاك ، وفي تلك اللحظات الحرجة الحزينة ، طلبوا منه الألتزام بشكل خاص بـحملة « جهادهم » ، لشن حرب مقدّسة من قبل كافة المسلمين ضد المسيحية .

ومن اجل ان تصبح تلك الحرب فعالة فإنها ينبغي أن تُقر من قبل مكة ، وإذا ما أُقرت فإنها يمكن أن تُغرق الشرق بالدماء . كان الحسين رجلاً شريفاً ، عنيفاً ، عنيداً وورعاً بشكل عميق . فشعر أن الحرب المقدّسة كان من المتعذّر خوضها من

الناحية العقائدية ، وستكون حرباً عدائية ، وهي بالتالي تعتبر سخيفة لوجود حليف الدولة التركية ، المانيا : التي تدين بالمسيحية . لذلك فقد رفض الطلب التركي ، وأصدر نداءً موقراً في نفس الوقت للحلفاء بأن لا يقوموا بتجويع ولايته بسبب أن لا ذنب لشعبه في ما حصل . ورداً على ذلك فقد قام الأتراك على الفور بمحاصرة الحجاز بشكل جزئي ، وذلك بالإشراف على خطّ سير الخطّ الحديدي الحجازي بالنسبة لموسم الحج . وترك الإنجليز سواحله مفتوحة لترد إليها السفن المحمّلة بالغذاء بشكل خاص .

ومع ذلك ، فإن المطلب التركي ، لم يكن الوحيد الذي تلقاه الشريف من الأتراك . ففي كانون الثاني ١٩١٥ ، أرسل كل من « ياسين » رئيس الضباط العراقيين ، وعلي رضا رئيس الضباط الدمشقيين ، وعبد الغني العريسي نيابة عن المدنيين السوريين ، إليه اقتراحاً مكتوباً للقيام بحركة تمرّد عسكرية ضد الأتراك . فالشعبان المقموعان لسوريا والعراق ، ولجان جمعيّتي « العهد » و « العربية الفتاة» ، كانوا يدعوه بـ « أبو العرب » ، و « مسلم المسلمين » ، وأميرهم الأعظم ، ووجيههم الأقدم ، لينقذهم من الخطّط الشريرة لطلعت وجمال (باشا) . والحسين ، كسياسي ، كأمير ، كمسلم ، وكرجل عصري ، وكوطني ، دُفع ليستجيب لاستغاثتهم . فأرسل إبنه الثالث ، فيصل ، إلى دمشق ، ليبحث خططهم ومشاريعهم ، كممثّل له ، وليوافيه بتقرير حول ذلك . وأرسل علياً ، إبنه الأكبر ، إلى المدينة ، ليجمع بهدوء ، المقاتلين من القرى والعشائر - وليقوم بجمع الرجال من الحجاز ، وأن يجعلهم جاهزين للعمل إذا ما دعي فيصل لذلك . وكلّف إبنه الثاني عبدالله ، الذي كان مستشاره السياسي ، ليستطلع رأي البريطانيين بواسطة الرسائل ، وليعلم ماذا سيكون موقفهم تجاه قيام ثورة محتملة ضد تركيا .

وأفاد فيصل في شهر كانون الثاني ١٩١٥ ، بأن الأوضاع الداخلية كانت مهيأة ، إلاّ أن الحرب العامة لم تكن تجري بشكل جيّد حسب ما كانوا يأملون . ففي دمشق كانت هناك ثلاث فرق عسكرية عربية جاهزة للثورة . وفي حلب ،

كانت هناك فرقتان ، مشبعتان بالقومية العربية ، وكانتا جاهزتين بالتأكيد للإنضمام للثورة إذا ما بدأت بها الفرق الأخرى . وكانت هناك فقط فرق عسكرية تركية تتواجد في الشمال ، لذلك فقد كان من المؤكد أن الثوار سيستولون على سوريا عند القيام بأول تحرّك . ومن ناحية أخرى ، كان الرأي العام أقل استعداداً لتقبّل إجراءات متطرّفة ، وأن الفئة أو الطبقة العسكرية كانت متأكدة تماماً أن المانيا ستكسب الحرب ، وستربحها قريباً . ومع ذلك ، فإذا ما أنزل الحلفاء بفرقتهم الأسترالية (التي كان تستعد آنذاك في مصر) على شاطئ الإسكندرونه ، وبذلك تغطي الجناح السوري ، فعندئذ سيكون ذلك شيئاً حكيماً وسليماً لتعريض الإنتصار الألماني النهائي للخطر ، وسيترتب على ذلك لجوء الأتراك إلى عقد معاهدة سلام منفصلة سابقة لأوانها .

وتبع ذلك تأجيل ، حيث أن الحلفاء اتجهوا نحو الدردنيل ، وليس نحو الإسكندرونة . ولحق بهم فيصل ليحصل على معلومات بشأن الأوضاع في غاليبولي ، حيث أن انهيار تركيا سيمنح العرب إشارة البدء . ومن ثم تبع ذلك ركوداً في الوضع بسبب حملة الدردنيل التي استغرقتن شهوراً . وتحطّم في تلك المجزرة (المعركة) ما تبقى من الجيش العثماني الأول . وكانت تلك النكبة في الخسائر ضخمة جداً بالنسبة لتركيا ، مما دفع فيصل للعودة إلى سورية ، مستطلعاً إمكانية القيام بالثورة ، إلاّ أنه وجد في غضون ذلك أن الوضع الداخلي كان غير موات .

فمؤيدوه ومساندوه السوريين أما كانوا معتقلين أو ان مختبئين ، وأصدقائهم وأتباعهم قد شنقوا بالعشرات بتهم سياسية . ووجد إنقسامات في الصف العربي هناك سواء بعمليات النفي إلى الجبهات البعيدة ، أو بشرذمتهم وتوزيعهم بين الوحدات العسكرية التركية . وكان الفلاحون العرب واقعين في قبضة وبراثن الخدمة العسكرية التركية ، وسوريا منهكة تحت الحكم القاسي المستبد لجمال باشا . وبذلك فقد تلاشت تخمينات فيصل بهذا الصدّد .

فكتب لوالده مشيراً بالمزيد من التأخير ، لغاية ما تكون إنجلترا مستعدة

لذلك وتركيا في أشدّ انهياراتها . ولسوء الحظّ ، فإن انجلترا كانت في وضع بائس . فقواتها كانت تتراجع مبعثرة من الدردنيل . وكرب معركة الكوت البطيئة كانت في مراحلها الأخيرة ، وظهور الحركة السنوسية ، تصادفت جميعهاً مع دخول بلغاريا الحرب ، مهدّدة بريطانيا بفتح جبهات جديدة .

كان موقف فيصل خطراً للغاية . فقد كان تحت رحمة أعضاء الجمعية السرية ، التي كان رئيساً لها قبل اندلاع الحرب . و كان عليه أن يعيش كضيف في كنف جمال باشا ، في دمشق ، مخفياً معرفته و معلوماته العسكرية . وبالنسبة لشقيقه علي ، فقد كان يقوم بجمع الرجال والقوات في منطقة الحجاز بذريعة أنه هو وشقيقه فيصل سيقودوهم نحو قناة السويس لمساعدة الأتراك . لذلك فقد كان على فيصل ، كشخصية عثمانية رفيعة وضابطاً في الجيش التركي ، أن يقيم في مقر القيادة العسكرية ، ويتحمّل مساوئ وتصرفات جمال باشا الرعناء .

فقد كان من الممكن لجمال باشا أن يرسله هو أيضاً مع أصدقائه السوريين لحبل المشنقة . اولئك الضحايا الذين لم يبيحوا بسرهم عما كانوا يعرفونه بخصوص آمال فيصل الحقيقية ، وهو أيضاً لم يكن ليجرؤ على إظهار أفكاره ونواياه سواء بالكلام أو بالتعبير ، خشية من إدانته هو وعشيرته من قبل السفاح . وعندما عبر عن سخطه بالإعدامات التي ارتكبها جمال باشا ، وأنه سيكلفه ذلك غالياً ، فإن ذلك لم يشفع له من بطش السفاح سوى أصدقائه هناك في القسطنطينية ، وكانوا من كبار المسؤولين الأتراك ، ولينقذوه من دفع ثمن تصريحاته تلك .

كانت مراسلات فيصل مع والده مغامرة بحد ذاتها . كانا يستخدمان في اتصالاتهما وسائلهما القديمة في المراسلة ، فيستخدمان رجالاً فوق الشبهات ، من الذين يذهبون ويعودون مع قطارات الخطّ الحديدي الحجازي ، فيحملون الرسائل في مقابض السيوف ، وفي قوالب الحلوى ، أو يضعونها بين نعالهم ، أو بالكتابات غير المرئية على أغلفة الطرود . وفي جميع تلك الرسائل التي أرسلها فيصل لوالده ، التمس فيها منه أن يؤجل القيام بعمل ما لغاية ما يحين

الوقت المناسب . وبالطبع ، فإن الشريف حسين ، لم يشك مثقال ذرة بشجاعة الأمير فيصل . وكان قادة « الإتحاد والترقي » بنظره عبارة عن كفّار ملحدين منتهكين لعقيدتهم ودينهم وواجبهم الإنساني - وهم أيضاً خائنين لروح ومصالح الإسلام العليا . ومع ذلك ، فإن هذا الشيخ البالغ من العمر خمسة وستين عاماً ، كان مصمّماً بنشاط لشن الحرب ضدهم ، معتمداً على قضيته العادلة لتحقيق ذلك وقد كان الشريف حسين مؤمناً بالله للغاية ، وترك إحساسه ومعنويته العسكرية تعتمد على ذلك ، واعتقد بأن الحجاز كانت قادرة على محاربة تركيا في نزال عادل . ولذلك فقد أرسل عبدالقادر العبدو إلى فيصل حاملاً إليه رسالة يبلغه فيها أنه كان مستعداً وقتذاك لتحرير المدينة قبل أن تبدأ القوات التركية بالتحرّك إلى الجبهة . فأبلغ فيصل جمال باشا بنيته للرحيل ، ولكن ، ردّ عليه جمال والفزع يتملّكه ، إن أنور باشا ، القائد العام للقوات التركية ، كان في طريقة إلى المدينة ، وأنهم سيقومون بزيارة المدينة سوياً لاستعراض القوات هناك . ولذلك ، فقد خطّط فيصل بأنه حالما يصل المدينة ، فإنه سيقنع والده بتأجيل الهجوم ، وأخذ الأتراك على حين غرّة ، حيث أنه سيكون ممتطياً جواده ومعه إثنان من الضيوف الغير مرحّب بهما لاستعراض القوات هناك ، وأنه حسب التقاليد العربية للضيافة ، فإنه لا يمكنه أن يؤذيهما ، وأن من الممكن لوالدة أن يؤجل تحرّكه حتى لاتنكشف الخطّة السريّة للثورة برمتها وتُعرّضها للخطر .

وسارت الأمور بالنهاية بشكل حسن ، ومع ذلك فقد كانت مهزلة استعراض القوات مزعجة . فقد شاهد كل من أنور ، جمال ، وفيصل استعراض القوات وهي تسير على السهل الترابي المُغبّر خارج بوابة المدينة ، وهم يمتطون جمال المعركة ، أو يحثون الخيول على القيام بلعبة الرمح بالطريقة العربية التقليدية . « هل جميع هؤلاء متطوعون من أجل خوض الحرب المقدّسة ؟ » سأل أنور في نهاية الأمر ، وهو يلتفت إلى فيصل . « نعم » ، أجاب فيصل . « هل لديهم الرغبة بالقتال حتى الموت ضد أعداء الدين ؟ » ، سأل أنور . « نعم » ، أجاب فيصل ثانية . ومن ثم حضر زعماء القبائل ليقدّموا أنفسهم ، وانتحى

الشريف علي بن الحسين بفيصل جانباً وهمس بإذنه قائلاً : « سيدي ، هل سنقتلهما الآن ؟ » فقال له فيصل ، « لا ، إنهما ضيفانا . »

احتج شيوخ القبائل إلى أبعد حدّ ، حيث أنهم اعتقدوا بأنه كان بإمكانهم أن ينهوا الحرب بضربتين ، وقرّروا أن يختلوا بهما (جمال وأنور) ليقتلوهما ، إلاّ أنه كان على فيصل أن يكون قريباً منهما ، ويضعهما تحت نظره تماماً ، ويحافظ على حياة هؤلاء الديكتاتوريين (حفاظاً على التقاليد العربية الأصيلة) ، اللذين قتلا أعزّ أصدقائه على حبال المشانق . ووجد مخرجاً لهما في النهاية ، حيث دعاهما للرجوع سريعاً إلى داخل المدينة ، وأقام لهما مأدبة ، ومن ثم رافقهما للعودة إلى دمشق لينقذها من الموت في الطريق . وعزا الأمير فيصل تلك الكياسة أو المجاملة إلى العادات والتقاليد العربية بتوفير كل شيء لحماية الضيوف ، إلاّ أن أنور وجمال ، قابلا ذلك وما شاهدا بشك عميق ، وفرضا حصاراً مشدداً على الحجاز ، وأمرا بإرسال تعزيزات تركية إلى هناك . وأرادا أن يحتجزا فيصل في دمشق ، إلاّ أن برقيات وصلت من المدينة تطالب بعودته الفورية إلى هناك لمنع حدوث إضطرابات هناك ، ووافق جمال على عودته ، على مضض ، شريطة أن يخلف ورائه حاشيته كرهائن .

ووجد فيصل المدينة تعجّ بالقوات التركية ، وكانت قيادة وأركان الجيش الثاني عشر التركي تحت أمرة فخري باشا ، الجزّار القديم الذي « اباد وصفى » بصورة دموية مدينتين أرمنيتين من قبل هما (زيتون) و (أوفرا) . وكان ذلك يدل بوضوح أن الأتراك مستنفرون ويأخذون حذرهم ، وأصبح أمل فيصل ، بوصوله المفاجيء لمنع القتال الوشيك ، مستحيلاً . ومع ذلك أيضاً فإن الحذر من قبل الأتراك كان متأخراً جداً . ومن دمشق ، بعد أربعة أيام ، امتطت حاشية فيصل خيولها وانطلقت نحو الشرق إلى الصحراء ، لتلتجيء إلى الشيخ نوري الشعلان ، الزعيم القبلي ، واتخذ فيصل موقفه ؛ عندما رفع العلم العربي ، معلناً قيام الدولة العربية القومية . وبذلك تلاشت أحلام إنشاء رابطة إسلامية ، التي عمل لها السلطان عبدالحميد سابقاً وارتكب المجازر ومات من أجلها ، وتلاشى معه

الأمل الألماني في تعاون مع العالم الإسلامي حسب خطط القيصر . وبالحقيقة المجرّدة لهذه الثورة ، فإن الشريف حسين قد أغلق هذين الفصلين المثيرين في التاريخ . لقد كانت الثورة العربية أهم وأخطر خطوة يمكن أن يتخذها رجال السياسة وأن نجاحها أو إخفاقها كان عبارة عن مقامرة خطرة جداً . ومع ذلك ، وفي هذه المرة ، فإن الحظ حالف اللاعب الجريء ، وشقّت الملحمة العربية طريقها العاصف واجتثت الضعف ، والألم والشك ، لتحقق النصر الدموي . لقد كان ذلك نهاية مغامرة فقط والتي كانت جريئة للغاية ، ولكن بعد الإنتصار جاء وقت الوهم البطيء ، ومن ثم وجد المقاتلون أنفسهم في يوم وليلة أن جميع آمالهم قد أخفقت . والآن ، أخيراً ، قد يأتي لهم الامل ويحصلون على السلام الأبيض النهائي ، على معرفة منهم أنهم حقّقوا شيئاً لا يموت ، وأنجزوا إلهاماً ساطعاً لأبناء جنسهم .

(٦)

لقد كنت لعدة سنوات أقوم بالتجوال في مناطق الشرق السامي (المناطق العربية) قبل نشوب الحرب ، وأتعلّم عادات وتقاليد القرويين والقبائل وسكان مدن سوريا والعراق . وقيّدني فقري أن أنخرط مع الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، الذين كانوا نادراً ما يقابلوا من قبل الرحالة أو المسافرين الأوروبيين . وبذلك فقد منحتني تجاربي بجانب غير عادي من الرأي ووجهة النظر ، التي مكّنتني من الفهم والتفكير بالعديد من الأشياء المجهولة أيضاً بالنسبة لوجهات النظر والآراء المتنورة النادرة بهذا الصدد . إضافة إلى ذلك ، فلقد رأيت شيئاً من القوة السياسية تعمل في أذهان و أفكار الشـــرق الأوسط ، ولاحظت بشكل خـــاص في كل مكان الإشارات والعلامات الأكيدة لتفسخ وانهيار الإمبراطورية التركية (العثمانية) .

كانت الإمبراطورية تموت من الإرهاق ، مع وجود محاولة لانقاذها من ذلك الإنهيار ، مع انعدام وتلاشي المصادر ، واتباع الطرق التقليدية . فالسيف كان يشكّل القوة لأبناء بني عثمان ، ولم يعد لتلك السيوف من تأثير هذه الأيام ، في مواجهة الأسلحة الحديثة الأكثر فتكاً . وأصبحت الحياة تزداد تعقيداً بالنسبة لتلك الشعوب البسيطة ، التي كمنت قوتها في البساطة ، والصبر ، وفي طاقتها للتضحية . إنها كانت تلك الأجناس والملل الأبطأ في تقدّمها والتي تعيش في آسيا الغربية ، الضعيفة والضئيلة لتكيف نفسها مع العلوم الجديدة للحياة والدولة ، والتي كانت لا تزال ضعيفة لاختراع أية فنون جديدة لأنفسها . وأصبحت إدارتهم بحكم الظروف مسألة ملفات وبرقيات ، لها موازنة عالية ،

وإجراءات وحسابات . وبشكل محتوم ، فإن الحكّام القدماء ، الذين حكموا بقوة السيف أو الشخصية ، والذين كانوا أميّين ، يحكمون مباشرة وبصورة شخصية ، قد تلاشوا . وانتقل الحكم إلى رجال جدد ، مهيأون لسرعة الخاطر ومطوّعين أنفسهم لاستخدام الآلة والمكننة . وكانت اللجنة المركزية لحركة « تركيا الفتاة» أو « الاتحاد والترقي » السطحية والشبه مصقولة ، قد انحدر أعضائها من أصول يونانية ، البانية ، شركسية ، بلغارية ، أرمنية ، ويهودية ـ من أية أصول اخرى ما عدا الأصول السلجوقية أو العثمانية . فهذه الأجناس والملل توقفت عن الشعور المنسجم مع حكامها ، والتي كانت ثقافاتها شرقية ، وكانت نظريتها السياسية فرنسية . وكانت تركيا تنهار ، والسيف (القوة) هو وحده الذي كان يمكنه أن يبقى على صحتها .

وبحبه للطرق والوسائل القديمة ، فقد ظلّ الأناضولي عبارة عن بهيمة يشكّل عبئاً في قريته وكجندي غير متذمّر في الخارج ، في حين كانت الأجناس والملل الخاضعة والتابعة للإمبراطورية ، والتي كانت تشكّل تقريباً سبعة أعشار العدد الإجمالي من السكان ، تنمو وتزداد قوة ومعرفة يومياً . وبسبب انعدام التقليد والمسؤولية بينهم ، وأيضاً بسبب تقبّلهم للأفكار والأساليب العصرية بشكل أسرع وأخفّ ، فقد تأهلوا لقبول هذه الأفكار والأساليب الجديدة . وبدأ الرعب الطبيعي السابق للإسم التركي وسموه بالتلاشي في وجه تلك المقارنة الأوسع . وتطلب هذا الميزان المتغيّر من تركيا والولايات الخاضعة لها الإنهماك في زيادة الحاميات العسكرية إذا ما أُريد الإحتفاظ بالأرض القديمة ، أو بتلك الولايات التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية . فطرابلس ، البانيا ، اليمن ، الحجاز ، سوريا ، العراق ، كردستان ، أرمينيا ، كانت جميعها ولايات تقع ضمن الحسابات ، وتشكّل عبئاً على فلاحي الأناضول ، الذين كانوا يؤخذون بالقرعة للخدمة العسكرية وبشكل متزايد . ووقع العبء بشكل أثقل على القرى الفقيرة ، وكانت كل سنة تمرّ تجعل هذه القرى أكثر فقراً .

وحمل المجنّدون الأتراك مصيرهم دون تردّد أو اعتراض : بشكل

مستسلم، وفقاً لعادة وتقليد الريف التركي . وكانوا يساقون كالقطيع ، مجرّدين من كل شيء ، أو كمواد خام . ولو أنهم تركوا لوحدهم ، فإنهم لن يفعلوا شيئاً ، أو ربما جلسوا ببلادة على الأرض . فقد وجدوا ليكونوا مطيعين ، ويمكن أن يكونوا أصدقاء جيّدين مع مرور الوقت ، أو أعداء شرسين حسبما يجدوا ذلك مناسباً . وإذا ما أُمروا فإنهم كانوا على استعداد لأن يهينوا آبائهم ويخرجون أحشاء أمهاتهم ، ويقومون بذلك بهدوء كما لو أنهم لم يفعلوا شيئاً ، أو أنهم فعلوا شيئاً حسناً . وكان يتخلّلهم انعدام الأمل ، انعدام المبادرة ، مما جعلهم جنوداً أكثر إطاعة ، أكثر عملاً ، وأقلّ جرأة وشجاعة .

فأولئك الرجال كانوا ضحايا طبيعيين لضباطهم المبهرجين الفاسدين ، يساقون إلى الموت أو يلقون بعيداً بإهمال دون حساب ، أو أخذ أي اعتبار لهم . وفي الحقيقة ، فقد وجدناهم عبارة عن لوحات أو خشبات هرمة لرغبات وهوى قوادهم الفاسدين . فهم قد عاملوهم بأسلوب رخيص ، ذلك أنه عندما كان يتم الإتصال معهم ، يجد المرء أنهم ، لم يستخدموا أية طريقة عادية بالحيطة والحذر . وعندما تم إجراء الفحص الطبي على بعض العينات من الأسرى الأتراك ، وجد نصفهم تقريباً مصابين بأمراض جنسية غير طبيعية . فمرض السفلس وما شابه ذلك لم يكن معروفاً في الريف التركي . وكان فيروس المرض ينتقل من شخص لآخر في الوحدة العسكرية . وحيث أن للمجنّدين كانوا يقضون في الخدمة العسكرية من ست إلى سبع سنوات ، لغاية ما ينهي الإحياء منهم مدة خدمتهم ، فإنهم كانوا يخجلون من العودة إلى قراهم ، إذا ما كانوا ينتمون لعائلات محافظة ، فإما أنهم كانوا يتحوّلون للخدمة في الجندرمة (الشرطة) ، أو يصبحون رجالاً محطّمين ، يمارسون أعمالاً عشوائية في المدن ؛ وتبعاً لذلك فإن معدّل المواليد انخفض جداً في القرى . لذلك فقد كان الريف التركي في منطقة الأناضول ينهك ويموت من جرّاء الخدمة العسكرية .

وأمكننا أن نفهم أن عامل جديد كان مطلوباً ومحتاجاً إليه في الشرق ، بحاجة لقوة ما أو لجنس بشري يمكن أن يكون متفوّقاً على الأتراك في العدد ،

وفي القدرة، وفي النشاط الفكري . ولم نعط أية معرفة في التاريخ لنظن ونعتقد أن هذه الخاصيات يمكن أن تتوفّر وتكون جاهزة التكوين في أوروبا . فكل الجهود التي قامت بها القوى (الدول) الأوروبية للحفاظ على موطئ قدم في آسيا الشرقية كانت مأساوية بشكل مطرد ، ولم ندرك أن هنالك شعب غربي أُغري تماماً في القيام بمحاولة أخرى . فالقوة والحلّ اللتان ستخلفان ينبغي أن تكونا محليتان ، ولحسن الحظّ فإن مقياس الفعالية المطلوب كان محلياً أيضاً . وسيكون التنافس مع تركيا ، وتركيا كانت مرهقة ومنهارة .

وبعض منا حكم أو خمّن أنه كانت هناك قوة كامنة مستترة تماماً متوفّرة أو مخزنة في الشعوب العربية (التي كانت تشكّل أكبر عنصر أو جزء من الإمبراطورية التركية) ، وهي عبارة عن تكتّل سامي منتج ، عظيم في فكره الديني ، صناعي وحرفي بشكل معقول ، في التجارة ، والسياسة . علاوة على ذلك ، فإنها مُذيبة (مرنة) في شخصيتها وليست مهيمنة . وهي قد وقعت تحت الهيمنة التركية لمدة خمسمائة عام ، وبدأت تحلم بالحرية . لذلك فعندما اندلعت الحرب بين انجلترا وتركيا ، واشتعلت في الشرق والغرب في آن واحد ، فنحن الذين اعتقدنا بأننا حملنا مؤشراً للمستقبل ، قد لوينا وحولنا الجهود البريطانية باتجاه إنشاء دولة عربية حديثة في آسيا القريبة (الشرق الأوسط) .

ولم نكن في البدء كثيري العدد (البريطانيين) ، وكنا جميعاً تقريباً نحتشد حول « كلايتون » ، رئيس الإستخبارات ، المدنية والعسكرية في مصر . وكان «كلايتون» رئيساً لمثل تلك العصابة من الرجال الشرسيين كما كنا نطلق على انفسنا . كان كلايتون هادئاً ، مستقلاً في عمله ، واضح الرؤيا ، ولديه شجاعة فائقة في تحمّل المسؤولية. وقد منح مساعديه حريّة مفتوحة في ممارسة عملهم . وكانت أفكاره أو وجهات نظره عامة ، مثل معرفته ، وكان يعمل بالتأثير وليس بتوجه واضح . ولم يكن من السهل اكتشاف معرفة او تبيان نفوذه وتأثيره . فقد كان مثل الماء ، أو مثل الزيت المحترق ، يزحف بهدوء وبإصرار من خلال كل شيء . ولم يكن ممكناً أن تقول أين كان يكون كلايتون أو لا يكون ، و كم كان في

الحقيقة منتمي لشيء ما . فهو لم يقد على نحو مرئي ، ولكن أفكاره كانت متماشية مع تلك التي يفعلها أو التي يقوم بها : فقد كان يؤثر على الناس برزانته ، وبهدوء معيّن وبحالة حديثة من الأمل . ومن الناحية العملية ، كان رخواً في حلّ المشاكل والمسائل ، غير نظامي ، ومهمل ، ورجل يمكن أن يتحمّله الرجال المستقلون .

وكان اقدم واول واحد منا هو رونالد ستورز ، سكرتير الشؤون الشرقية في مقرّ المندوب السامي ، وأكثر إنجليزي تألقاً في الشرق الأدنى ، وأكثر كفاءة ، بالرغم من تحويل طاقته نحو حبه للموسيقى والأدب ، والنحت والرسم ، وكل ما هو جميل في نتاج العالم . وبرغم ذلك ، فقد زرع ستورز ماجنينا ، وكان دوماً هو الأول والسبّاق ، والرجل العظيم بيننا . وكان طيفه يطغى على عملنا وعلى السياسة البريطانية في الشرق مثل الساعة ، وكان قادراً على إنكار ذاته أمام العالم ، وأن يهيء عقله وفكره وجسده بصلابة بطل رياضي من أجل أن يخوض قتالاً عظيماً .

ودخل الساحة أيضاً جورج لويد . الذي كان يمنح الثقة في المرء ، وبمعرفته بشؤون المال ، فقد أثبت أنه خبير ومرشد من خلال الطرق والمسارب التي اتبعها في التجارة والسياسة ، وكان عالماً ومطّلعاً بالشريانات (السياسات) المستقبلية لمنطقته الشرق الأوسط . و لم يكن بإمكاننا أن نفعل الكثير بشكل سريع من دون مشاركته ، بل كان لديه روحاً لا تكلّ ولا تستريح ، وكان شرحاً لتذوّق كل شيء من دون أن يتعب أو يُنهك . فبالنسبة له كانت أمور عديدة مطلوبة وملحة ، ومع ذلك فإنه لم يمكث طويلاً جداً معنا . ولم يعلم كم كنا نحبه .

ومن ثم كان هناك المدافع ا لمتخيّل لحركات العالم الغير مقتنعة ، مارك سايكس : وهو أيضاً أُعتبر حزمة من الأذى والضرر ، والبديهيات والتخمنينات ، وأشباه العلوم . وكانت أفكاره تتجه للخارج ، وافتقد الصبر لتذوق وتحسّس أفكاره وآراءه قبل أن يختار أسلوبه لبنائها وتركيبها . فكان يتناول مظهر الحقيقة ، ويعزله عن الظروف المحيطة ، ويضخّمه ، ويلويه ويصيغه ،

لغاية ما يخرج شبهه أو شكله القديم وشبهه الجديد ضحكة ، والضحكات كانت تشكّل انتصاره . وغرائزه تكمن في المحاكاة التهكّمية : فقد كان رساما كاريكاتورياً باختياره بدلاً من أن يكون فنّاناً ، وحتى في إدارة شؤون الدولة . وكان يرى الغرابة في كل شيء ، ويفقد الزمام . فقد يقوم بالتخطيط لعالم جديد ببضعة خطوط ، جميعها خارجة عن الميزان ، ولكنها فعالة تعكس بعض زوايا رؤيانا لأمر نأمله . فعمله جلب لنا الخير والأذى على حدّ سواء . ولهذا السبب كانت زيارته الأخيرة لباريس وحاول أو يعوّض عن ذلك . فقد عاد بعد فترة بمسؤولية سياسية في سورية ، وبعد أن عبّر عن أحلامه الحقيقية المروّعة ، ليقول بتودّد ، « لقد كنت مخطئاً ، وهنا تكمن الحقيقة . » ولم ير أصدقائه السابقين جديّته الجديدة ، وظنوه متقلباً وفي غلطاتة من غلطاته ، الا انه سرعان ما توفي . لقد كانت افكاره مأساة المآسي ، بالنسبة للمصلحة العربية . أما هوغارث ، فلم يكن شرساً ، ولكنه المعلّم الناصح لنا جميعاً ، وأبانا الذي نعترف بانه كان مستشارنا وخبيرنا ، والذي استقى لنا الدروس والأمثال من التاريخ ، و الحداثة ، والشجاعة . وبالنسبة للأجانب فقد كان صانع سلام ، وجعلنا نفضّله وننصت له لحكمه الموزون . كان لديه إحساساً رقيقاً ذو قيمة ، وأفصح لنا بوضوح عن القوى الخفيّة المتواجدة خلف الخرق القذرة والجلود المتقرّحة التي عرفناها كالعرب . لقد كان هوغارث حكمنا ، ومؤرخنا الذي لا يكلّ ، الذي منحنا معرفته العظيمة والحكمة اليقظة وحتى في الأمور الأقل شأناً ، لأنه كان يؤمن بما نصنع ونقوم به . ويأتي بعده كورنواليز ،كان يبدو وكأنه خام وبسيط ، ولكنه على ما يبدو فقد صيغ من واحدة من تلك المعادن الخارقة ، والتي لا تذاب إلاّ مع الآلاف من درجات الحرارة . لذلك فقد كان يمكنه أن يظلّ أشهراً أكثر حرارة من الرجال الآخرين ذوي الحرارة البيضاء ، ومع ذلك يبدو بارداً وصلباً . وكان يأتي بعده آخرين ، مثل نيوكمب ، باركر ، هيربرت ، غريفس ، بكل عقائدهم وآرائهم ، وأعمالهم الجريئة القوية .

لقد دعونا أنفسنا بـ زمرة « المتطفّلين » لأننا كنا معنيين باختراق أروقة

وردهات السياسة الخارجية البريطانية ، وبناء شعب جديد في الشرق ، وبالرغم من العوائق التي وضعت أمامنا من قبل أسلافنا . لذلك فقد بدأنا من مكتب استخباراتنا في القاهرة (وكان مكاناً مليء بالضجيج وصوت الأجراس المتواصلة والصخب والعدو جيئة وذهاباً ، كان كما شبهه أوبري هيربرت بمحطّة قطار شرقية) بالعمل مع جميع الرؤساء ، القريبين والبعيدين . فالسير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، كان ، بالطبع ، أول واحد نتعامل معه ، وقد فهم مهمتنا على الفور وحكم عليها بشكل جيّد ، من خلال رؤيته الثاقبة وتجربته الواسعة . والآخرون مثل ويميس ، نيل مالكولم ، وينجيت ، دعمونا بكل رضا وسرور عندما رأوا أن الحرب تحوّلت بطريقة بناءة . وتأكدت مساندتهم من خلال اللورد كيتشنر ، والتصريح أو التعبير المحبّب الذي أدلى به منذ سنوات سابقة ، عندما ناشده الشريف عبدالله في مصر ، ولذلك فإن مكماهون أنجز في آخر الأمر أو وضع حجر الأساس لنا ، عندما أنشأ تفاهماً مع الشريف حسين .

ولكن قبل ذلك كانت لنا آمالاً في العراق . فقد كانت بداية حركة الإستقلال العربي ، تحت القيادة الشجاعة ، ولكن الإندفاع المتسرّع ، لسعيد طالب ، ولياسين الهاشمي من بعدُ ، ولعصبة العسكريين . وعزيز المصري ، منافس أنور باشا ، الذي كان يعيش في مصر ، واادان لنا بالكثير ، كان محبوباً جداً من الضباط العرب . وكان من قبل تقرب من اللورد كيتشنر في الأيام الأولى من الحرب ، على أمل أن يكسب انحياز القوات العراقية إلى جانبنا . ولسوء الحظّ فإن بريطانيا كانت تتشوّق وقتئذ لحراز نصر سهل وسريع : فتحطيم تركيا كان يُظن على أنه عبارة عن نزهة . هذا ، وكانت حكومة الهند البريطانية تعارض تقديم أية تعهدّات للقوميين العرب ، والتي من الممكن معها أن تقيّد طموحاتهم ، لتجعل مستعمرة العراق تلعب نفس دور التضحية الذاتية لبورما من أجل المصلحة العامة . لذلك فقد أوقفت بريطانيا المفاوضات ، ورفضت عزيز المصري ، واعتقلت سعيد طالب ، الذي وضع نفسه في أيدينا .

وقادته بوحشية بعدئذ إلى البصرة . كانت القوات المعادية في العراق عربية

تقريباً ، وكان عليهم أن يقاتلوا لمصلحة مضطهديهم (الأتراك) ، ضد قوات صوّرت على أنها محرّرة ، لكنها رفضت أن تقوم بهذا الدور بشكل عنيد . وكما كان متوقعاً فقد قاتلت تلك القوات بشكل سيء . وربحت قواتنا المعركة تلو الأخرى لغاية ما وصلنا للإعتقاد بأن الجيش الهندي (جيش الهند آنذاك) كان أفضل من الجيش التركي . وتبع ذلك تقدّمنا المتهور نحو « كتسيفون » ، حيث تواجهنا مع قوات تركية أصلية ، كانت معبأة ضدنا . وتراجعنا منهكين ، وبدأت التعاسة الطويلة في « الكوت » ، في غضون ذلك ، ندمت حكومتنا على ما فعلت بقواتنا ، ولأسباب لم تكن مرتبطة

بسقوط « أرزيروم » ، فقد أُرسلت إلى العراق لأرى ما يمكن عمله بوسائل غير مباشرة لفك الحصار عن حاميتنا المحاصرة هناك . كانت القوات البريطانية هناك معارضة جداً لمجيئي ، وقد أوضح لي جنرالان من قواتنا هناك بأن مهمتي (التي لم يعرفانها بالضبط في الحقيقة) كانت تمسّ بالشرف العسكري للجندي المقاتل (لأنني لم أكن جندياً) . ولحقيقة واقعة ، فإن الأمر كان متأخر جداً للقيام بعمل ما ، لأن حامية « الكوت » العسكرية كانت تنهار ، وبالنتيجة فإنني لم أفعل شيئاً بصدد ذلك .

كانت الأوضاع مثالية للقيام بتحرّك عربي . فأهالي النجف وكربلاء ، المتواجدين خلف جيش خليل باشا التركي ، كانوا يقومون بثورة ضده . والقوات العربية المتبقية في جيش خليل باشا ، كانت باعترافه هو ، غير موالية لتركيا على نحو ظاهر . وقبائل الفرات كانت ترى علامات الخلاص في القوات البريطانية . وكان علينا أن نصرح بالوعود التي قطعناها للشريف حسين ، أو حتى الإعلان عن الإستيلاء على بغداد ، ويتبع ذلك ، إنضمام رجال مقاتلين محليين يمكن أن ينضموا إلينا لإنهاك خطوط الإتصالات بين بغداد والكوت . وبعد بضعة أسابيع من ذلك ، كان الخيار إما أن يجبر العدو على رفع الحصار والتراجع ، أو تعاني قواته نفس الحصار ، خارج منطقة مدينة الكوت ، تكون شدته تقريباً كشدة الحصار حول المدينة من قبل القوات التركية . وكان الوقت يلعب دوراً في ذلك ،

فهذه الخطة يمكن تطبيقها بسهولة . وكان على القيادة البريطانية في العراق الحصول على ثمانية طائرات إضافية من وزارة ا لحربية البريطانية لزيادة عمليات نقل الأغذية اليومية لحامية الكوت العسكرية المحاصرة ، وبذلك فمن الممكن زيادة المقاومة الداخلية في داخل البلدة وتطويلها بشكل مؤكد . ومع ذلك ، فلم تكن تلك الوسيلة لتوجيه الأطراف هناك ، فعدت إلى مصر على الفور . ولغاية انتهاء الحرب فقد ظلّ البريطانيون في العراق عبارة عن قوات عدوة غازية وغريبة على الأراضي العراقية ، وظلّ الناس ينظرون إليها إما بحياد سلبي أو بالعداء أو الغضب ، ولم تكن بالنتيجة قوات تحرير ومرحّب بها كما حدث لقوات اللنبي عندما دخل سوريا ، الذي دخل البلاد كصديق ، وكان السكان المحليين يقفون إلى جانبه . فعوامل العدد ، المناخ والإتصالات كانت ملائمة لنا في العراق أكثر منه في سوريا ، وكانت قيادتنا العليا ، بعد بدء المعارك ، ليس أقل كفاءة وفعالية وخبرة . ولكن خسائرها مقارنة بخسائر قوات اللنبي كانت ضخمة ، وتكتيكاتها العسكرية المتعثّرة ، أظهرت كم كان الوضع السياسي الداخلي المعادي من الضخامة ليكون قادراً على تقييد العملية العسكرية بشكل أساسي

(٧)

إن صدمتنا في العراق كانت مخيّبة لآمالنا ، إلاّ أن مكماهون استمر في اتصالاته ومفاوضاته مع الشريف حسين في مكة ، وتوصّل إلى نجاحها في نهاية الأمر بالرغم من الإنسحاب البريطاني من غاليبولي ، واستسلام حامية الكوت البريطانية ، مع وجود الوضع العسكري المتعثّر بشكل عام في تلك الأثناء . فقلة من الناس ، وحتى أولئك الذين عرفوا سير المفاوضات برمتها ، كانوا في الحقيقة يعتقدون أن الشريف حسين سيحارب إلى جانب بريطانيا ، وبالنتيجة فإن إعلان الثورة بشكل نهائي ، وفتح شواطئه لسفننا ومساعدتنا ، كانت مفاجئة لنا ولهم (الأتراك) .

ووجدنا صعوباتنا تبدأ حينئذ . فقد عاد الفضل لنشوء العامل الجديد ذاك إلى مكماهون وكلايتون : فبرزتْ رؤوس الغيرة المحترفة في الحال . فالسير ارشيبالد موراي ، الجنرال القائد في مصر ، أراد ، ان تكون الأمور طبيعية تماماً ، فهو لم يرد منافسين ، ولا حملات عسكرية منافسة في مجاله العسكري . وقد كره السلطة المدنية ، التي أبقت على السلام قائماً بينه وبين الجنرال ماكسويل لمدة طويلة جداً . ولم يكن موثوقاً به في الشؤون العربية ، حيث أنه لا هو ولا أركان حربه كانت لديهم المقدرة المطلوبة ليتعاملوا مع مثل تلك المشكلة الدقيقة . ومن ناحية ثانية ، فقد جعل إدارة المندوب السامي تشنّ حرباً خاصة سخيفة تماماً . وكان تفكيره عصبياً جداً ، خيالياً وتنافسياً بشكل رئيسي . وعندما كان يواجه بما يعتبره على أنه مظهر تحد ، فإنه يستخدم كافة قواه ليقضي عليه .

ووجد عوناً في ذلك من رئيس أركانه ، الجنرال ليندن بيل ، الجندي

الأحمر ، الذي كان ينفر غريزياً من السياسيين ، ولديه حماسة بالغة . ومفهومه العسكري لولائه نحو مهنته دفعة ليكون محبّاً للتقلّب ومحاولاً ليقلّد زلات وأيضاً مناقب قائده .

وكان هناك أيضاً ضابطان آخران من الأركان العامة متبعان قائدهما تماماً ، ولذلك فإن مكماهون الغير محظوظ وجد نفسه محروماً من مساعدة الجيش البريطاني هناك واقتصر الأمر منه أن يشن حربه في الجزيرة العربية بمساعدة ملحقه في وزارة الخارجية .

وحتى تلك العوامل لم تبرهن ولائها تماماً له . وبدا للبعض أن هناك حرب تذمر وامتعاض مما سمحت معه للغرباء بالتدخّل في عملهما . وحتى خبرتهما في القمع ، والتي كانت تمارس ضمن التفاهات الدبلوماسية اليومية ، فإنها كانت تغوص عند ورود أمر مهمّ ، مما يجعله تافهاً . وضعف نبرتهما ، وتضليلاتهما التافهة واحد للآخر ، أغضب العسكريين إلى حد الإشمئزاز ، وكان ذلك سيئاً لنا ، أيضاً ، حيث أنهما أذلا بذلك المندوب السامي ، أولئك العسكريون الذين لم تكن أبواطهم (جزماتهم) العسكرية جيّدة تماماً للتنظيف . وتنبأ وينجيت ، الذي كان لديه ثقة تامة في فهمه الخاص للوضع في الشرق الأوسط ، بمصلحة ومنفعة كبيرتين لبريطانيا من خلال التطوّر العربي ، ولكن عندما ازداد النقد ببطء ضد مكماهون أبعد نفسه عنه ، وبدأت لندن تلمح بأنه من الممكن أن يُستخدم شخص أفضل له خبرة ومقدرة جيّدتين في الإنخراط بالأمور .

ومع ذلك ، فقد كانت الأمور في الحجاز تسير من سيء إلى أسوأ . فلم يكن يوجد هناك ارتباط حقيقي تزوّد به القوات العربية في الميدان ، ولا معلومات عسكرية تقدّم للأشراف (الأمراء) ، ولا نصيحة تكتيكية أو استراتيجية مقترحة أو مقدّمة ، ولا القيام بمحاولة لاكتشاف الأوضاع المحلية والتكيف مع المصادر الحليفة الموجودة مادياً لتلائم متطلباتهم . فالبعثة العسكرية الفرنسية (التي اقترح كلايتون بحذر لأن ترسل إلى الحجاز لتهدئة حلفاؤنا الشاكين جداً بنا وذلك بإبعادهم عن المسرح وإعطاؤهم أي هدف آخر) ، سمح لها بأن تنفذ عملية خادعة ضد الشريف حسين في مدينتي جدة ومكة ، والإقتراح عليه وعلى

السلطات البريطانية للقيام بإجراءات كان لا بدّ لها من ان تدمر قضيته في عيون كافة المسلمين. وبعد أن أصبح وينجيت مشرفاً عسكرياً لتعاوننا مع الشريف، كان يحثّ على إنزال بعض القوات الأجنبية في ميناء «رابغ»، الواقع بمنتصف الطريق بين المدينة ومكة، وذلك من أجل الدفاع عن مكة وإغلاق الطريق امام وصول إمدادات تركية من المدينة. وكان مكماهون، بسبب كثرة آراء المستشارين المتضاربة، أصبح مشوشاً، وحول الأمر لموراي لمعالجة تشويشاته وأصبحت الثورة العربية بخطر، وتنبأ لها الضباط البريطانيون في مصر بالفشل الوشيك.

لم يكن وضعي الخاص هيّناً. وكنت كضابط أركان تحت أمرة كلايتون التابع لقسم استخبارات السير ارشيبالد موراي، مسؤولاً عن استطلاع «توزيع» أو انتشار الجيش التركي، وعن تحضير الخرائط بهذا الشأن. وقد أضفت لهاتين المهمّتين، بميل طبيعي، القيام بتحرير وإصدار نشرة عربية، وكانت عبارة عن تقرير سرّي أسبوعي لسياسات الشرق الأوسط، وذلك مع ازدياد حاجة كلايتون لي أكثر فأكثر في القسم أو الجناح العسكري لمكتب الشؤون العربية، وكان عبارة عن قسم صغير للاستخبارات والشؤون الأجنبية، والذي كان إنشاءه وقتذاك من أجل مكماهون. وفي النهاية، فإن كلايتون نُقل من الأركان العامة، وحلّ محله بقيادتنا الكولونيل هولديش، الذي كان ضابط استخبارات موراي في الإسماعيلية. وكانت نيته في البدء بأن يحتفظ بخدماتي، ومنذ أن بدأ بوضوح أنه لم يعد بحاجة لي، فقد تبيّن لي هذا، ليس بدون دليل ودّي ما، كعملية إبعادي عن الشؤون العربية. وقرّرت أن أبتعد في الحال. وقد رُفض طلب مباشر لي بهذا الشأن، لذلك فقد كان عليّ أن ألجأ للحيلة. وأصبحت أعمل على خط الهاتف (فمقرّ القيادة العامة كان في الإسماعيلية، وكنت أنا في القاهرة) في عمل لا يطاق مع ضباط أركان الحرب المتواجدين في منطقة القناة. وكنت أنتهز كل فرصة لأسخر من جهلهم وعدم كفاءتهم فيما يتعلّق بإدارة الاستخبارات، كما أنني كنت أقوم بتصحيح أخطائهم اللغوية في تقاريرهم المرسلة.

وخلال بضعة أيام أصبحوا يتذمّرون مني، وقرّروا في آخر الأمر أنهم لم

يعودوا يطيقـون وجودي أكثر من ذلك . وانتهـزت هذه الفرصـة الاسـتراتيجية لأطلب إجازة لمدة عشرة أيام ، قائلاً أن ستورس كان ينوي الذهاب إلى جدّة في مهمة مع الشريف حسين ، وأنني أرغب بقضـاء إجازة على شاطئ البحر الأحمر معه . ولم يكونوا يحبون ستورز ، وكـانوا مسرورين أيضاً ليرتاحوا مني في تلك الأثناء . لذلك فقد وافقوا على ذلك. في الحـال ، وبدأوا بتحضير وإعداد بعض الأسبـاب الرسـمـيـة ضـد عـودتي . ولا حـاجـة للقـول ، بأنه لم تكن هنـاك نيـة لإعطائهـم مثل هذه الفرصـة ؛ لسبب ، أنه في حين كنت مسـتـعداً جداً لتأجـير جسدي للقيام بمهمة تافهة ، فإنني تردّدت ، أو لـم أكن مستعداً ، بأن أطرح فكري وعقلي جانباً بطريقة طائشة . لذلك فقد ذهبت إلى كلايتون واعترفت له أو أبلغته بأمـري ، ورتّب هو بـدوره مع مكتب المندوب السـامي البـريطاني بإرسـال برقـيـة موافقة من وزارة الخارجية لنقلي إلى مكتب الشؤون العربية . وستعـالج وزارة الخارجية الأمر مباشرة مع وزارة الحربية ، ولن تكون القيادة البريطانية في مصر على اطلاع بالأمر ، لغاية ما ينتهي كل شيء .

ورحلت أنا وستـورس سـوياً عندئذ ، ونحن مـسـرورين . وفي الشـرق ، كـانوا يقـولـون أن هناك ثلاثة جهات أو اتجاهـات لاجتيـاز المربع بطريقـة لائقة أو مهـذّبة ، وكـانت حيلتي للفـرار ضـمن هذا المعنى الشـرقي . ولـكنني بررت نفسي بثـقتي بـالنجاح النهـائي للثورة العربيـة . وقـد كنت ذاك الشـخص المتحـرّك في بدايتـهـا : فآمـالي تعلّقت وكـمنت فيهـا . فالتبعية المجبّرة للجندي المحتـرف (لأن الخداع لم يكن معروفاً في الجيش البريطاني) كانت ستجعل من ضابط حقيقي أن يجلس ويشاهد خطته تتحطم من قبل أناس لا يعرفون شيئاً عنها ، ولا عن روحها الطموحة .

الجزء الاول

البحث عن قادة الثورة

من فصل ٨ ـ ١٦

لقد ذهبت الى الجزيرة العربية من اجل السعي للقاء ورؤية القادة والرجال العظام للثورة . فالشريف حسين الرجل الكبير الوقور ، وأنجاله ، عبد الله ، الذي وجدته فائق الذكاء ؛ وعلي ، الرجل الواضح والرزين ، وزيد ، الشاب الهادىء .

ومن ثم سعيت للقاء فيصل ، ووجدت فيه القائد المتقد . ووجدت في هذه السلالة والعشيرة الاداة الملاءمة للثورة العربية . لذلك فقد عدت الى مصر مسروراً وواثقاً ، وهنا ابلغت رؤسائي بالوضع الأولي للثورة ، ووضع الفصائل المقاتلة هناك . وبعد ذلك بدأت الانطلاقة الاولى للثورة .

(٨)

انتظرنا في قناة السويس السفينة « لاما » ، وهي سفينة صغيرة تعمل على الخطّ البحري ، وقد غادرنا بها على الفور . فمثل هذه الرحلات البحرية القصيرة على السفن الحربية كانت على فترات فاصلة ممتعة لنا . ومع ذلك ، ففي تلك الرحلة ، كان هناك بعض الإرباك . فنوعية الركاب المختلطة بدت لتقلق ملاحي السفينة في رحلتهم . فصغار البحارة كانوا يتخلون عن مضاجعهم ليوفروا لنا مكاناً للنوم ، وفي النهار كنا نملأ غرف جلوسهم بالأحاديث المختلفة . وستورز بمزاجه قليل الإحتمال كان نادراً ما يتنازل لملاحي السفينة . إلاّ أنه في ذلك اليوم كان أكثر فظاظة من المعتاد ، . وكان يدور مرتين على ظهر السفينة ، وهو يردّد بازدراء ، « لا أحد يستحق التحدّث معه » ، ثم يجلس على أحد الكرسيين المريحين ، ليبدأ بالمناقشة مع عزيز المصري . وعزيز المصري كان ضابطاً عربياً من أصل شركسي برتبة عقيد سابق في الجيش التركي ، وبعد ذلك أصبح فريقاً في جيش الشريف حسين ، وكان آنذاك في طريقه ليبحث مع أمير مكة بخصوص المعدّات والأسلحة واستعداد القوات العربية التي شكّلها ووضعها في ميناء «رابغ» . وكانا ـ عزيز المصري وستورز ـ يتناقشان باللغات العربية والألمانية والفرنسية . وقد وجد ضباط السفينة أن المحادثة برمتها كانت غير مناسبة .

لقد اعتدنا على الوصول الهادئ إلى جدة ، من خلال الطقس الممتع للبحر الأحمر ، فلم يكن بالحار جداً خلال إبحار السفينة . وكنا في النهار نضطجع في الظل ، ونقضي جزءاً كبيراً من الليالي المقمرة الرائعة نمشي ونجلس على ظهر المركب الرطب تحت النجوم لنسترطب بالهواء الجنوبي .

ولكن عندما رسينا في نهاية الرحلة في الميناء الخارجي ، بدت المدينة لنا

ولكن عندما رسينا في نهاية الرحلة في الميناء الخارجي ، بدت المدينة لنا كأنها متعلّقة ما بين السماء الملتهبة وانعكاسها في السراب الذي غطّى والتف فوق الهور الواسع (بحيرة ضحلة قريبة من البحر) ، ومن ثم لفحنا حر الجزيرة العربية مثل سيف مستل لا يمكن وصفه . كان الوقت منتصف النهار ، والشمس تشع من الشرق ، مثل ضوء القمر ، تبهت الألوان . كانت هناك فقط الأضواء والخيالات ، البيوت البيضاء وثغور (خطوط) الشوارع السوداء : وفي الأمام ، كان هناك اللمعان الشاحب للسديم (ضباب رقيق) يومض على الجزء الداخلي للميناء : وخلفه ، الإنبهار أو اللمعان الواقع على الرمال الساكنة فرسخاً بعد فرسخ ، صاعداً حتى سفوح التلال المنخفضة ، موحياً بوهن السديم الحار في البعد .

وفي الشمال من جدة تماماً كان يقع جانب ثان من الأبنية البيضاء ـ السوداء ، وكانت تبدو متحركة إلى أعلى وإلى أسفل في السراب مثل مكابس ، عندما كانت السفينة تترنّح في المرسى ، والهواء المتقطّع يغيّر أو يلطّف من أمواج الحر في الجو . فبدا الشعور بذلك مرعباً . وبدأنا نشعر بالعزاء من أن المناخ السيء وغير الصحي للحجاز هو الذي جعلها مسرحاً عسكرياً آمناً يتعذّر الوصول إليه .

ومع ذلك ، فقد بادرنا الكولونيل ويلسون ، الممثّل البريطاني في الدولة العربية الحديثة ، لإجراء مقابلة معنا ، وكان علينا أن نتجه نحو الشاطئ لنستطلع حقيقة الرجال الذين كانوا يسبحون في السراب . وبعد نصف ساعة ، كان «روحي» ، وهو مساعد القنصل البريطاني للشؤون الشرقية ، يستقبل رئيسه القديم ستورز بابتسامة عريضة وترحيب مبتهج ، (إنه ذلك الإنسان الساذج الذي يشبه الباذنجانة) ، في حين اصطف ضباط الميناء ورجال الجمارك ورجال الشرطة الذين أنشئوا حديثاً لتقديم التحيّة لعزيز المصري . وقد قيل أن الشريف عبدالله ، النجل الثاني للشريف حسين ، كان وصل للمدينة آنذاك . وكان علينا أن نقابله ، لذلك فقد كان مجيئنا موقوتاً بشكل ناجح .

ومشينا مجتازين صفاً من الأبنية البيضاء ، ثم أجتزنا من خلال ممر ضيّق أو زقاق مزعج لسوق المواد الغذائية المؤدي للقنصلية . وكانت تغطي الجو ، سواء

فوق الرجال أو على التمور أو على اللحوم المعروضة ، أفواج من الذباب مثل امواج من الغبار ، ترقص الى اعلى واسفل على مظلات الخيش المرفوعة فوق الدكاكين بواسطة الواح خشبية . فقد كان الجو مثل حمّام . وكان اللون القرمزي لجلد الكرسي الذي كان يجلس عليه ستوزر في السفينة « لاما » قد سبغ سترته وبنطاله بذلك اللون من كثرة جلوسه عليه لمدة أربعة أيام خلت ، وبدا الآن وهو يمشي والعرق يتصبّب في ثيابه وكأنه يشع مثل طلاء على سطح ملطّخ . كنت مستمتعاً جداً بمشاهدته على تلك الصورة ، ذلك أنني لم ألاحظ أبداً ذلك على ملابسي الكاكي البنية القاتمة مهما كانت تلامس جسدي . وكان هو يتمنّى لو أن الطريق إلى القنصلية كان طويلاً تماماً ليبتل جسدي من شدّة التعرّق ، ثم ينشف ليشكل لوناً منسجماً ، وكنت أتساءل لو أنه لم يجلس على ذلك الكرسي هل كان لون ثيابه أصبح قرمزياً كلون بشرته أم لا .

وصلنا القنصلية بعد وقت قصير جداً ، وهناك كان يجلس ويلسون في غرفة مظلّلة لها نافذة مفتوحة ، مستعداً للترحيب بنسيم البحر ، الذي تخلّف عن القدوم منذ بضعة أيام . واستقبلنا بشكل رسمي ، كصراحة الإنجليز ، وهذا ما كان يتوقعه ستورز ، حسب ذوقه الرفيع . في حين ، بالنسبة لي ، أنه كان لي اتصالاً معه في القاهرة ، وكان لدينا اختلاف قصير في الرأي ، فيما يتعلّق بملابسنا الأصيلة الإنجليزية وأنها كانت غير وقورة لنا . وقد أبديت وجهة نظري على أنها غير مريحة فحسب . أما بالنسبة له فقد كانت غير لائقة . ومع ذلك ، فإن ويلسون ، بالرغم من شعوره وإحساسه الشخصي ، كان كل شيء بالنسبة له عبارة عن فرحة . وكان عليه وقتذاك أن يقيم الاستعدادات لمقابلته الوشيكة مع الشريف (الامير) عبدالله ، وكان مستعداً لتقديم كل مساعدة ممكنة . إضافة ، إلى أننا كنا ضيوفه ، وأن الضيافة الرائعة للشرق أصبحت قريبة من نفسه . وقدّم إلينا الشريف عبدالله بهدوء ، وكان يمتطي جواداً أبيضاً ، تحيط به مجموعة من الحرس بسلاحهم الكامل ، وهم يسيرون على الأقدام ، من خلال تحيّات واحترامات أهالي المدينة . كان زهواً بنجاحه في حملة الطائف ، ومسروراً ، وكنت أراه لأول مرة ، في حين أنه كان صديقاً قديماً لستورز ، وعندما أخذا

بالحديث سوية ، كان يبدو عليه المرح الدائم . وكانت عيناه متلألئتان بثبات ، وبدت الحياة سعيدة جداً بالنسبة له . كان قوي البنية ، صافي البشرة ، وذا لحية سمراء رُتبت بعناية ، ووجه ناعم مستدير وشفتان صغيرتان . وكان منفتحاً في أسلوبه ، ودوداً في مجاملته وحديثه . ولم يكن يقيّد نفسه بالمراسم الرسمية ، ولكن يعامل كل من يقدّم إليه بود وسهولة وتواضع : ومع ذلك ، فعندما كان يخوض في حديث جاد ، يبدو وكأن عنصر المرح يتلاشى منه . ومن ثم فإنه يختار الكلمات التي سيتفوه بها ، ويقدّم حججه وبراهينه . وبالطبع ، كان يخوض آنذاك نقاشاً جاداً مع ستورز ، الأمر الذي تطلّب مستوى رفيع من المناقشة . إن العرب اعتبروا الشريف (الأمير ثم الملك فيما بعد) عبدالله بأنه رجل دولة بعيد النظر وسياسي ذكي وذا دهاء سياسي . وكان طموحه واضحاً جلياً . وكان يعتبر بأنه كان العقل المفكّر لوالده الشريف حسين وللثورة العربية . هدفه بالطبع ، الحصول على الإستقلال العربي وانشاء الدولة العربية .

وبدورنا نحن كالجليز ، فقد كان علينا أن نقوم بتقديم العون والمساعدة للثورة العربية حتى لا تتعثّر ، كما كان الأمر منذ بضعة أشهر خلت . وكان علينا أيضاً تقديم الخبرة والمعرفة لقيادتها ، إلاّ أن هذه الثورة لم يكن ينقصها الفكر والعقل المدبّر ، ولا الحكمة السياسية . وأنه كان يجب دفعها بحماس بحيث يمكن معه أن توقد الصحراء . وكانت زيارتي تلك تهدف بصورة رئيسة للتعرّف على القائد الغير معروف بالنسبة لي ، الذي سيقود هذه الثورة إلى هدفها المنشود الذي اقتضت به . وبعد أن استمرّت مباحثاتنا ، فقد أصبحت متأكداً أكثر فأكثر بأن عبدالله كان متوازناً وراجحاً جداً ، هادئاً جداً ، وودوداً جداً ليكون قائداً رائعاً : وبشكل خاص قائداً عسكرياً متألقاً ، ناجحاً في قيادة الثورات ، إذ سيثبت التاريخ ذلك . وإذا ما تطلّب الأمر الشجاعة الجسدية ، والشجاعة الفردية ، والتكريس ، واستلزم الأمر التضحية بالنفس ، فإن عبدالله سيكون في المقام الأول ، ولا يمكن تجاهل دوره في هذا المضمار .

وتحدثنا معه أولاً بخصوص إدارة جدة ، لنبدي له وجهة نظرنا من خلال هذه المقابلة الأولى ، بأنه لا يوجد هناك هدف لوجود الإدارة العسكرية فيها .

فأجاب بأن الحرب كانت تلقي بأعباء ثقيلة جداً مما يمنعهم من إنشاء حكومة أو إدارة مدنية فيها . فهم قد ورثوا النظام التركي في المدن ، وكانوا يتابعون ويستمرون بذلك وفق أسلوب عصري أكثر . فالإدارة التركية لم تكن غالباً شديدة بل متساهلة مع الأشخاص المتنفّذين في الحجاز الذين أبدوا استيائهنم من قدوم حاكم أصلي من أهل البلاد . وكان الرأي العام ، وخاصة في مكة وجده ضد إنشاء دولة عربية . فجماهير المواطنين هناك كانوا من الأجانب - مصريين ، هنود ، يابانيين ، أفارقة ، وغيرهم - وهم غير قادرين تماماً على التعاطف مع الآمال والتطلّعات العربية ، وخصوصاً إذا ما صدر ذلك من السكان العرب الأصليين ، أفراد العشائر والقبائل ، حيث أنه بالنسبة لهؤلاء كانوا يتذمّرون من سكان المدن بشكل دائم ، وسكان المدن أيضاً كانوا يتذمّرون بدورهم من السكان البدو الأصليين .

كان جيش الشريف يتكون فقط من رجال القبائل المقاتلين ، واعتمدت الثورة على مساندتهم ، وكان يسلّحهم بحرية ، ويدفع للعديد منهم مرتبات لقاء خدمتهم العسكرية ، ويطعم عائلاتهم عندما يكونون بعيدين عن بيوتهم ، ويستأجر منهم الجمال لاستخدامها كوسائل نقل ليبقي جيشه في الميدان . و وفقاً لذلك ، فقد كان الريف مزدهراً خصباً ، في حين كانت المدن والبلدات في وضع أقل ازدهاراً .

والمشكلة الأخرى في المدن كانت تتعلّق بمسألة القانون . فالقانون المدني التركي كان أُلغي ، وتمّ الرجوع إلى حكم الشريعة القديم ، وإلى حكم القاضي بالقرآن . وشرح لنا عبدالله ، أنه عندما يحين الوقت فأنهم سيكتشفون في القرآن أو سيجدون آراء وأحكام تكون مطلوبة لجعلها ملائمة فيما يتعلّق بالتعامل التجاري الحديث ، مثل الأمور المصرفية وصرافة العملة . وفي غضون ذلك ، بالطبع ، فما فقده أبناء المدينة من جرّاء الغاء القانون المدني ، فإن أبناء البادية حققوا كسباً من جانبهم . وقد أقرّ الشريف حسين بشكل صامت إحياء النظام القبلي القديم . فأبناء القبائل يحتكمون إلى كبير قومهم أو عشيرتهم عندما يحدث بينهم خلاف في قضية ما ، أي أمام ما يدعى بالقاضي العشائري ، ويدفع له أجر

لقاء عـمله ذلك عـبارة عن عنزة من كل بيت سنوياً . وكـان الحكـم يستند على العرف والتقليد ، حسب التقاليد والأعراف العربية المتوارثة من قبل . ويصدر الحكم علناً ودون دفع أية رسوم . و في حالة حدوث نزاع بين رجال ينتمون إلى قبائل مختلفة ، فإنه في هذه الحالة يختار القاضي بقبول ورضى مشترك ، أو يتم اختيار قاض من قبيلة أخرى محايدة . وإذا ما استمرّت القضية في التعقيد ، فإنه يعاون القاضي هيئة تحليف مكوّنة من أربعة أعضاء - يعيّن إثنان من قبل العشيرة المدعى عليها ، وإثنان آخران من العشيرة المدعية . وتتخذ القرارات بالإجماع . وقد تأملنا وفكرنا في الصورة التي عرضها لنا الشريف عبدالله ، وتملّكتنا أفكار حزينة فيما يتعلّق بجنة عدن وكل ما فعلته حواء ، الراقدة في قبرها خارج أسوار مدينة جدّة . ومن ثم دفعني ستورز إلى إجراء نقاش مع عبدالله وسؤاله بأن يعبّر لنا عن وجهات نظره بشأن الحملة التي يمكن أن أقوم بها ، وللإتصال مع القيادة العسكرية في مصر . فأصبح عبدالله جاداً في الحال ، وقال إنه أراد أن يحث البريطانيين لأن يولوا المسألة اهتماماً أكثر وفوري ، وأجمل مطالبة كالآتي :

- بإهمالنا بقطع الخطّ الحديدي الحجازي ، فإن الأتراك سيكونون قادرين على جمع وسائل النقل والمؤن لتدعيم قواتهم في المدينة .

- لقد أُجبر فيصل على التراجع والإنسحاب من المدينة ، وأن العدو كان يستعد بطابور آلي متحرّك يضم كافة الأسلحة للتقدّم نحو « رابغ » .

- إن القوات العربية المتواجدة على التلال والتي كانت تشرف على طريق تحرّك القوات التركية كانت ضعيفة جداً في تجهيزاتها ، بسبب إهمالنا لذلك ، وخاصة المدافع الرشاشة والمدفعية ، لتدافع عن تلك التلال طويلاً .

- إن حسين مبيرج ، زعيم قبيلة مسروح حرب ، كان انضم للأتراك . وإذا ما تقدّم الرتل التركي نحو المدينة فإن قبيلة حرب ستنضم لهم .

- وسيبقى لوالده (الشريف حسين) فقط أنْ يضع رأسه بين أبناء قومه في مكة وأن يقاتل حتى الموت دفاعاً عن المدينة المقدّسة .

في تلك اللحظة ، قرع جرس الهاتف : وكان على الخط الشريف الكبير

يريد التحدّث مع نجله عبدالله . فقد أُبلغ بموضوع وهدف مباحثاتنا ، وقرّر على الفور أن يتصل ويبدي أقصى درجات انفعاله . فقد قال ، بأن الأتراك سيدخلون مكة على جثته . ثم أغلق خطّ الهاتف . وابتسم عبدالله قليلاً ، وطلب منا ، أن نمنع حدوث مثل تلك الكارثة ، وإذا أمكن ، أن يجري إرسال لواء بريطاني ، والذي كان موجوداً آنذاك في منطقة قناة السويس ، ويتم نقله بسرعة إلى منطقة « رابغ » ، وذلك لإخراج القوات التركية من منطقة المدينة . فما هو رأينا بهذا الاقتراح ؟ استفسر الشريف عبدالله .

وأجبت قائلاً ، أولاً ، ومن ناحية تاريخية ، فإن الشريف حسين طلب منا بأن لا نقوم بتدمير الخطّ الحديدي الحجازي ، حيث أنه سيحتاجه من أجل تقدّمه المنتصر نحو سوريا . ثانياً ، فمن الناحية العملية ، إن الديناميت الذي أرسلناه من أجل تدمير الخطّ قد أُرجع من قبله وعليه ملاحظة بأنه كان خطراً جداً على العرب لاستخدامه . ثالثاً ، وعلى وجه التخصيص ، فإنه لم ترسل لنا طلبات من أجل الحصول على أسلحة ومعدّات من فيصل . وفيما يتعلّق باللواء المطلوب إرساله إلى « رابغ » ، فإنه كان طلباً معقّداً . حيث أن عملية الإبحار كانت صعبة جداً ، ولم يكن بإمكاننا توفير أو إيجاد وسائل نقل وبشكل خاص في السويس . وأيضاً لم تكن لدينا وحدات مكوّنة من قوات مسلمة . واللواء البريطاني المذكور كان ثقيل الحركة ، وسيأخذ وقتاً طويلاً لتحميله ثم إنزاله على البر . وموقع «رابغ» كان كبيراً . فمن الصعب على ذلك اللواء أن يستوعبه جميعه وسيكون غير قادر تماماً على تجريد أو تخصيص قوات لمنع الرتل التركي من المرور إلى الداخل . فأغلب ما كان بإمكانهم أن يقوموا به هو الدفاع عن الساحل ، تحت وابل نيران السفن الحربية ، وأن السفن الحربية يمكنها أن تقوم بالمهمة بشكل جيّد دون الحاجة لقوات .

وأجاب عبدالله ، إن السفن الحربية لن تكون كافية من الناحية المعنوية ، حيث أن القتال في الدردنيل قد دمّر الأسطورة القديمة للبحرية البريطانية وقدرتها الكليّة . ولن يكون بوسع الأتراك أن يغضوا النظر عن « رابغ » ، حيث أنها كانت الوحيدة التي تزوّد المنطقة بالماء ، ولا بدّ لهم من استخدام مياه آبارها . وأن

الغرض المخصّص لوجود لواء ووسائل النقل سيحتاج إليه مؤقتاً فقط ، حيث أنه (الشريف عبدالله) قد حقّق بقواته انتصاراً في الطائف ، وأمن طريق مكة ـ المدينة . وقريباً سيصبح في وضع ثابت ، بحيث سيصدر أوامره إلى شقيقيه علي وفيصل ، اللذان سيزحفان بقواتهما من الجنوب والغرب ، وستقوم قواتهم المتجمّعة بشن هجوم كبير ، حيث سيمكّن الإستيلاء على المدينة ، بمشيئة الله . في غضون ذلك ، يكون عزيز المصري قد قام بجمع وحشد المتطوّعين من العراق وسوريا وتشكيلهم في كتائب للتمركز في « رابغ » . وإذا ما أضيف إلى ذلك أسرى الحرب لدى العرب من الهند ومصر ، فسيكون ذلك كافياً لتسلّم المسؤولية من اللواء البريطاني الذي ستناط به بشكل مؤقت . وقلت له بأنني سأعرض وجهات نظره على القيادة الإنجليزية في مصر ، ولكن عليه أن يتوقع أن البريطانيين كانوا يعارضون تجريد أو إرسال بعض القوات التي كانت تقوم بالدفاع الحيوي عن مصر (ذلك أنه لا يمكن أن يتصوّر أن القناة لم تكن بمنأى عن أي خطر من الأتراك) . وما زال هناك أكثر من ذلك ، وهو إرسال قوات بريطانية للدفاع عن سكان المدينة المقدّسة ضد أعدائهم ، اذ أن بعض المسلمين ، في الهند مثلاً كانوا ما زالوا يعتبرون الحكومة التركية أن لها الحق الأساسي في الإشراف على الحرمين الشريفين ، وبذلك سيسيئوا تفسير نوايانا وأعمالنا . واعتقدت أنه ربما يمكن أن أدعم وأؤيد وجهات نظره بشكل أكثر قوة إذا ما كنت قادراً على إعداد تقرير عن مسألة « رابغ » في ضوء معرفتي الخاصة للموقع والشعور والإحساس المحلي بهذا الصدد . وأنني أيضاً سأرغب بمقابلة فيصل ، وبحثت معه احتياجاته ومتطلّباته وتوقعاته في إطالة الدفاع عن التلال المتواجدة قواته فيها بمساندة رجال القبائل إذا ما قمنان بتقويتهم مادياً . لذلك فسأكون راغباً بالتوجه من « رابغ » سالكاً طريق «السلطاني » باتجاه المدينة حتى أبلغ معسكر فيصل .

وتدخل ستورز عندئذ وساندني بكل قوة ، مبدياً الأهمية الحيوية للحصول على معلومات كاملة مبكرة من مراقب مدرّب تابع للقائد العام البريطاني في مصر ، ومظهراً أن إرسالي بتلك المهمّة ، على اعتبار أنني أفضل ضابط أركان مؤهل ولا غنى عنه ، تثبت الإعتبار الجاد الذي يولي للمسائل والقضايا العربية

من قبل السير ارشيبالد موراي . وتوجه عبدالله نحو الهاتف محاولاً الإتصال بوالده للحصول على موافقته بشأن مهمتي داخل البلاد . ونظر الشريف للاقتراح بارتياب كبير . والح عليه عبدالله بذلك ، مبدياً له بعض المنفعة من جرّاء ذلك ، ثم حول سماعة الهاتف لستورز ، الذي استخدم بدوره كافة وسائله الدبلوماسية مع الشريف . وكان ستورز ضليعاً في فهم اللغة العربية والمحادثة بها ، كما أنه كان يعتبر قدوة لكل إنجليزي حي حول كيفية التعامل مع الشرقيين الشاكين أو غير الراغبين بشيء ما . وقد كان له أسلوبه في الإقناع الذي لا يقاوم تقريباً . ثم طلب الشريف إبنه عبدالله مرة ثانية ، وفوّضه بأن يكتب لشقيقه علي ، وأوحى له أنه إذا ما اعتقد أن ذلك ملائم ، وأن الأوضاع كانت عادية ، فمن الممكن أن يسمح لي أن أصل إلى فيصل عن طريق جبل سبها . وتحت تأثير من ستورز ، جعل عبدالله يحوّل تلك الرسالة إلى تعليمات مباشرة مكتوبة لعلي بأن يجهزني بوسيلة نقل بأسرع ما يمكن ، وينقلني بأيد أمينة إلى معسكر فيصل . فهذا كل ما كنت أريده تماماً ، ونصف ما أراده ستورز ، وبذلك انفض الاجتماع من أجل تناول الغداء .

(٩)

لقد سرتنا مدينة جدة ، ونحن في طريقنا إلى القنصلية : لذلك فبعد تناول الغداء ، عندما أصبح الجو ألطف قليلاً ، أو على الأقل عندما لا تكون عمودية تماماً ، فقد خرجنا لرؤية المناظر تحت إشراف « يونغ » ، الذي كان مساعداً للقنصل ويلسون ، ذلك الرجل الذي وجد الخير في العديد من الأشياء القديمة ، ولكنه وجد خيراً قليلاً في الأشياء والأمور الجديدة التي طرأت .

ولقد كانت في الحقيقة مدينة رائعة . وكانت الشوارع ضيّقة ، والسوق الرئيسي سُقف بالخشب ، ولكن كانت هناك مسافات أو فجوات ضئيلة بين البيوت البيضاء العالية المسوّرة . وتلك البيوت بنيت من أربعة أو خمسة طوابق ، من الحجر المرجاني بدعائم مربعة ، وزيّنت بنوافذ ذات أقواس من الأسفل حتى الأعلى ، محاطة بإطارات خشبية رمادية . ولم يكن هناك زجاج في جدة ، لذلك فقد غُلفت النوافذ بشبك ، وبعضها احتوت على نقوش وزخارف على إطاراتها الخارجية . وكانت الأبواب تتكوّن من الخشب الثقيل وتحتوي على درفتين كبيرتين لكل منها ، ومنقوشة ومزخرفة بعمق ، ومركّب عليها مطارق حديدية . وزيّنت جدرانها الخارجية بالجبص والنقوش الجميلة ، وكانت نوافذ البيوت القديمة لها إطارات أمامية بارزة تطل على الساحات أو الفناءات الداخلية للبيوت .

كانت الهندسة المعمارية للبيوت تشبه هندسة العصر اليزابيتي في انجلترا ، فنصفها من خشب والنصف الآخر من الجبص ، بطراز متقن ، إلا أنها مزيّنة ومزخرفة إلى درجة لا تصدّق . كانت واجهات البيوت مزخرفة بنقوش شبكية

جبصية نافرة ، تبدو وكأنها عبارة عن خزانة مزخرفة تعود للعصر الرومنطيقي (الرومانسي) . وكان كل طابق بارزاً للأمام ، وكل نافذة مائلة للأمام بطريقة أو بأخرى . كانت آنذاك تبدو وكأنها مدينة ساكنة ، أرضها نظيفة جداً ، وهادئة جداً. وكانت أزقتها ومنعطفاتها ، وحتى شوارعها مغطاة برمال رطبة أصبحت صلبة مع مرور الزمن ، وهي ملساء كمثل سجادة أو بساط . وأن الشعريات (الشبكيات) المثبّتة على النوافذ تجعل ارتداد الأصوات من الخارج معزولاً . ولم تكن هناك عربات تجرها الأحصنة ، كما أنه لا توجد شوارع تتسع لمرور مثل هذه العربات ، كما أنه لا يوجد نشاط كبير أو صخب في تلك الشوارع الضيّقة أو الأزقة . فكل شيء كان هادئاً ومكبوتاً ، وحتى مُختلساً من خلال النوافذ والأبواب . وكانت أبواب المنازل تفتح و تغلق بلطف ونحن نمر من أمامها أو نجتازها . ولم يكن هناك نباح كلاب ، ولا صوت بكاء أطفال . فيما عدا ، في الحقيقة ، في السوق العام ، الذي كان لا يزال شبه نائم ، كان هناك بضعة من المارة من أنواع متعددة ، والبضعة أشخاص الذين قابلناهم كانوا جميعهم نحيلي الأجسام ، كما لو أن أجسادهم أنهكها المرض ، وعليها ندب ، ووجوههم جرداء لا يوجد عليها شعر ، وعيونهم نصف مغلقة ، وكانوا ينسلون بسرعة وبحذر مجتازيننا ، ولا ينظرون إلينا . وكانوا يرتدون أثواب بيضاء مهلهلة ، ليس لها قبات ، ويضعون عليها قلنسوات صغيرة ، ويلفون أكتفاهم بشالات قطنية حمراء ، وكانوا حافي الأقدام لا ينتعلون شيئاً ، وجميعهم كانوا في مثل هذا الوضع وكأنه كانا لباساً موحّداً .

كان الجو ثقيلاً مضايقاً ، ومقيتاً . ولم تكن هناك حياة فيه . فإنه لم يكن حاراً محرقاً ، إلاّ أنه مثقلاً بالرطوبة ويوحي بالجهد والإنهاك ليبدو او لا يشبه أو ينتمي لمكان آخر : فلا يستشم منه عبق مدن أخرى مثل نابولي أو مرسيليا ، ولكنه يعطي شعوراً بالاستخدام الطويل ، برائحة العديد من الناس ، وكأنه حمام حار مستمر يتخلّله التعرّق . ويمكن للمرء أن يقول أن جدة لم تشهد لسنوات عديدة هواءً عليلاً أو نسيماً تخلّلها أو اندفع إليها : ذلك أن الشوارع أبقت أو حفظت هوائها من سنة لأخرى ، منذ اليوم الذي أنشئت فيه ما دامت تلك الأبنية قائمة حواليها . ولم يكن هناك شيئاً ليشترى من الأسواق .

وفي المساء قرع جرس الهاتف ، ودعا الشريف ستورز لسماع حفلة موسيقية . وسأل فيما إذا كنا نحب سماع فرقته الموسيقية . وسأل ستورز بدهشة ما هي تلك الفرقة ؟ وهنأ جلالته على التقدّم السريع بهذا الإتجاه الحضاري . وشرح الشريف إن مقرّ قيادة الحجاز العسكرية التركية كان لديها فرقة موسيقية تستخدم الآلات النحاسية في هذا المضمار ، والتي كانت تعزف كل ليلة للحاكم العام ، وعندما أُسر ذلك الحاكم من قبل عبدالله في الطائف ، فإن فرقته أسرت معه . وأرسل الأسرى الآخرين إلى مصر لحبسهم هناك ، واستثنيت الفرقة الموسيقية من ذلك . فقد أُبقيت في مكة لتقدّم الموسيقى للمنتصرين . ووضع الشريف سماعة الهاتف على الطاولة التي كانت موجودة في قاعة استقباله ، ودعينا ، واحداً إثر الآخر بوقار إلى سماعة الهاتف ، لنسمع عزف الفرقة الموسيقية في القصر بمكة التي تبعد خمسة وأربعين ميلاً عن جدة . وعبر ستورز عن امتنانه لتلك البادرة بالنيابة عنا جميعاً . وزاد الشريف من سخائه وأجاب بأنه يجب أن ترسل الفرقة إلى جدة ، لتقوم بالعزف أمامنا أيضاً . وقال ، « إنه سيسعدني أن تتصلوا معي هاتفياً حتى يمكنني مشاركتكم بالسماع » .

في اليوم التالي زرنا عبدالله في خيمته المتواجدة خلف أسوار المدينة ، ,زرنا سوية المستشفى المتواجد في المدينة ، والثكنات العسكرية ، والمكاتب لحكومية ، وحللنا بضيافة رئيس البلدية والحاكم . وتحدّثوا من خلال لقاؤنا وهم يقومون بواجبهم أو وظيفتهم ، تحدّثوا عن المال ، وعن لقب الشريف ، والعلاقات مع أمراء الجزيرة العربية الآخرين ، وعن سير الحرب بشكل عام : عن الأشياء العادية التي يجب أن تبحث بين مبعوثي أو موفدي الحكومتين (حكومتينا) . وبادر عبدالله إلى القول بأن لديه خطة سلمية من اجل السيطرة على كافة منطقة الحجاز ، كان قد عرضها على كيتشنر منذ عام ١٩١٥ . وقد عني بها بأن يدعو القبائل خلال مأدبة ، ليقوموا باحتجاز الحجّاج . وسيكون هؤلاء الحجاج تابعين لجنسيات مختلفة من تركيا ومسلمين وتتضمن قياديين من مصر والهند وأرتيريا والجزائر . وبوجود هؤلاء الآلاف من الرهائن فإنه سيتوقع لفت انتباه واهتمام الدول العظمى . وأعتقد أنه بذلك سيضغط على الباب العالي (

الحكومة التركية) من أجل إطلاق سراح مواطنيها . والباب العالي بدوره ، الذي لا يستطيع التعامل مع الحجاز عسكرياً بسبب ضعفه ، فإنه إما سيقدّم تنازلات للشريف حسين أو أنه سيعترف بضعفه أمام الدول الأجنبية . وفي تلك الحالة ، فإن عبدالله سيكون مستعداً لمساومتهم وتلبية مطالبهم في مقابل ضمان الحصانة من تركيا . إلاّ أنه قال أن والده وشقيقه فيصل لم يحبذا تلك الخطّة .

وفي المساء حضر عبد الله ليتناول العشاء مع الكولونيل ويلسون (القنصل البريطاني) . واستقبلتاه عند درجات فناء المنزل . كان يحيط به خدمه وحراسه ، ويسير خلفه رجال ملتحين ذوو وجوه شاحبة ، يرتدون ملابس عسكرية رسمية بالية ، ويحملون الات موسيقية نحاسية ، ولوح عبدالله بيده نحوهم وهو يقول «إنها الفرقة الموسيقية» . وأجلسناهم على مقاعد خشبية في واجهة الفناء ، وأرسل لهم ويلسون السجائر ، في حين توجهنا جميعاً إلى غرفة الطعام ، وفتحت أبواب الشرفة المطلة على الفناء من أجل السماح لدخول نسيم البحر ، المطلوب بشكل ملح . وما أن جلسنا ، حتى بدأت آلات الفرقة ، كل على حدا ، تهدر بصوت شديد ، حتى صُمت أذاننا بالضجيج .

لقد كانت الحفلة تضم جمعاً غريباً لافتاً للنظر . فعبد الله نفسه ، الذي كان نائباً لرئيس مجلس المبعوثان (النوّاب) التركي ، وهو الآن (آنذاك) بمثابة وزير خارجية الدولة العربية الثائرة . وويلسون حاكم إقليم السودان ، والوزير المفوّض لجلالة ملك بريطانيا لدى شريف مكة ، وستورز المستشار الشرقي (مستشار الشؤون الشرقية) لكيتشنر ومكماهون في القاهرة ، ويونغ ، وكوشرن ، وأنا الضابط في الأركان البريطانية ، وسعيد علي ، اللواء في الجيش المصري ، وكان قائداً للكتيبة التي أرسلت من قبل السردار في مصر لمساعدة الجهود الأولية للعرب ، وعزيز المصري ، الذي كان آنذاك رئيساً لأركان الجيش العربي النظامي ، ولكنه سابقاً كان منافساً لأنور باشا (القائد العام التركي) ، وقائداً للقوات التركية والسنوسية ضد الإيطاليين ، وزعيم الضباط العرب الذين خطّطوا ضد لجنة الإتحاد والترقي ، والرجل الذي حكم عليه الأتراك بالإعدام لقبوله وإذعانه لمعاهدة لوزان ، ثم أنقذ بواسطة أو بمساعي صحيفة « التايمز » البريطانية واللورد كيتشنر .

أصابنا الإعياء من جرّاء الموسيقى التركية ، وطلبنا سماع موسيقى أو لحناً ألمانياً . واتجه عزيز المصري نحو الشرفة ودعى رجال الفرقة باللغة التركية أن يقوموا بعزف شيء من الموسيقى الأجنبية . وقاموا بعزف نشيد الماني ، عندما تم الإتصال مع الشريف في مكة ليسمع من خلال سماعه هاتفه إلى موسيقى حفلتنا. وطلبنا المزيد من سماع الموسيقى الألمانية ، فقاموا بعزف لحناً آخر . ثم بدأت طبولهم بالإخفاق . فقد تمدّدت جلود طبولهم من جراء هواء جدة الرطب. وصرخوا يطلبون ناراً ، فأسرع خدم ويلسون وحراس عبدالله بجلب كومة من القش والحطب من أجل النار . ثم دفئوا طبولهم ، وهم يدوروها حول لهب النار ثم قاموا بعزف لحن حزين ، حيث انه لا احد امكنة ان يدرك أو يستوعب أنه كان لحناً أوروبياً . والتفت سعيد علي إلى عبدالله وقال له « إنه لحن الموت » . وأبدى عبدالله استغرابه ودهشته ، إلاّ أن ستورز تدارك الأمر بسرعة وحول الجو إلى مرح وضحك . ثم أرسلنا هدايا وبقايا طعام المأدبة إلى الموسيقيين الحزانى ، الذين لم يستطيعوا أن يلقوا استحساناً ، إلاّ أنهم توسّلوا بأن يرسلوا إلى وطنهم . وغادرت في صباح اليوم التالي جدّة متوجهاً بالبحر إلى « رابغ » .

(١٠)

رست السفينة « نورث بروك » في رابغ ، وكانت سفينة تجارية هندية . كان على متنها الكولونيل باركر ، وهو ضابط اتصالنا مع الشريف علي ، الذي قام بإرسال رسالتي له من عبدالله ، والتي تضمّنت أوامر والده لتوصيلي في الحال إلى فيصل . كان علي متردداً من فحوى الرسالة ، إلاّ أنه لم يكن بيده حيلة ، حيث أن اتصاله الوحيد مع مكة كان بواسطة لاسلكي السفينة ، وكان خجلاً من إرسال اعتراضه الشخصي من خلالنا . لذلك فقد بذل قصارى جهده ، وأعدّ لي جمله الرائع الذي كان يمتطيه ، وسراجه الخاص المزخرف ذو الألوان الجميلة الزاهية . واختار رجل موثوق به ، هو طفاس رشيد ، من قبيلة حرب ، ومعه إبنه ، ليرشداني إلى معسكر فيصل . وقد قام بكل ذلك بفضل تشجيع ومساندة نوري السعيد ، وكان ضابط ركن من بغداد ، الذي ارتبطت معه بصداقة في القاهرة عندما كان يستشفي هناك . وأصبح نوري الآن نائب القائد العام للقوات النظامية العربية التي كان يقوم بتدريبها وإعدادها آنذاك عزيز المصري . وكان هناك صديق آخر هو فايز الغصين ، الذي كان يعمل سكرتيراً لدى الشريف علي . وهو شيخ من منطقة حوران ، ومسؤول سابق في الحكومة التركية ، وقد فرّ عبر أرمينيا خلال الحرب ، ثم وصل في نهاية المطاف لطرف السيدة جيرترود بيل في البصرة . وقد أرسلته لي مع توصية حارة . وكان لي انطباع عظيم عن علي . كان مربوع القامة ، نحيلاً يبدو آنذاك أكبر من عمره الحقيقي ، وهو السابعة والثلاثين . منحنياً قليلاً . ولون بشرته شاحبة ، وعيناه واسعتان عميقتان بنيتان ، وأنفه رفيع ، وذا لحية سوداء ، ويدان دقيقتان . وكان سلوكه موقراً ومثيراً

للإعجاب ، وذا شخصية متواضعة ، إلاّ أنه كان يبدو عليه التعب والعصبية . وكان مولعاً بالكتب والمطالعة ، وقد تعلّم القانون ودرس الدين ، وكان ورعاً وتقياً إلى حدّ التعصّب تقريباً . وكان واعياً ومدركاً أيضاً لتراثه العظيم ليكون طموحاً ، وكانت طبيعته أو نفسه نظيفة جداً ليرى أو يشك في نوايا أو حوافز الذين كانوا من حوله .

كان طاهر النفس ، طيّب القلب ، حساساً ، ولطيف المعشر ، ويحصل على حب كل من يتصل معه مباشرة . ويصلح لأن يكون قائد ثورة . وكان يساعده في رابغ آنذاك ، أخيه زيد ، الذي حضر مع كل من علي ونوري وعزيز المصري إلى بساتين النخيل ليودعونني عندما هممت بالمغادرة . وكان زيد خجولاً ، أبيض البشرة ، بدون لحيته ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً تقريباً ، وكان هادئاً . وكان من أم تركية ، وقليل التجربة بعد بسبب صغر سنه ، وقد أحببته ، وأمكنني أن أرى فيه بأنه سيكون رجل صاحب قرار عندما يبلغ السن المناسب .

ولم يدعني علي أغادر لغاية غروب الشمس ، وذلك خشية أن يراني أي واحد من أتباعه وأنا أغادر المعسكر . فقد أبقى على رحلتي سرية حتى عن حراسه ، وأعطاني عباءة وكوفية لارتديهما على ملابسي النظامية أو الرسمية ، ذلك حتى يمكنني أن أظللهما تماماً في الظلام وأنا ممتطياً جملي . ولم يكن لديّ طعاماً ، لذلك فقد أمر طفاس بأن يحصل لي على بعض الطعام عندما نبلغ « بئر الشيخ » ، وهي كانت أول محطّة لنا ، تبعد نحو ستين ميلاً ، وزوّده بتعليمات مشدّدة ليبقيني بعيداً عن الأسئلة والإستفسارات والتطفّل أثناء رحلتنا ، وأن نتجنّب في طريقنا كافة المعسكرات والمصادفات . وبالمناسبة ، فإن عشيرة مسروح حرب ، الذين كانوا يسكنون أو يقيمون في منطقة رابغ ، لم يكونوا موالين تماماً للشريف حسين ، وأن ولائهم كان كاذباً ومتملّقاً . فولائهم الحقيقي كان لشيخهم ، حسين مبيرج ، وكان شيخاً طموحاً يغار من أمير مكة ، وعلى خلاف معه . وكان آنذاك فاراً ، يعيش على التلال الواقعة إلى الشرق ، وكان معروفاً باتصاله مع الأتراك . ولم يكن أبناء قبيلته موالين للأتراك ، إلاّ أنهم يكنون له بالطاعة . فلو أنه قد سمع بمغادرتي ورحلتي وقتذاك ، فإنه كان من المحتمل تماماً

أن يأمر جماعة من قبيلته لأن يعترضونني وأنا في طريق . وكان طفاس ينتمي لعشيرة الحزيمي ، وهي تابعة لقبيلة بني سالم المتفرّعة من قبيلة حرب ، ولذلك فإنه لم يكن على صلات جيّدة مع عشيرة مسروح حرب التي كان يرأسها الشيخ مبيرج . وذلك ما جعله ميّالاً نحوي ، وعندما قبل مهمة مرافقتي إلى معسكر فيصل ، فقد أمكننا أن نثق به . وأيضا فإن الإخلاص والأمانة في مرافق الطريق هو شيء عزيز ومحبوب جداً بالنسبة لأبناء القبائل والعشائر العربية . فالدليل المرافق قد يخاطر بحياته إذا ما فرّط بالذي كان يرافقه ويعرض سمعته للخطر أمام أبناء قومه . فلو سولت نفس ذلك الحربي (الذي ينتمي لقبيلة حرب) ، الذي كان وعد ليرشد ذلك الرجل (لورانس) إلى المدينة ، ان ينكث بوعده ويقتله في الطريق بالقرب من رابغ ، عندما يكتشف أنه كان مسيحياً ، فإنه عندئذ سينبذ من أبناء قومه ومن الرأي العام كذلك ، بالرغم من ان الدافع الديني إلى جانبه ، وسيعيش حياة تعسة ، منفياً وحيداً في الجبال ، ولن يصادقه أحد ، ولن يسمح له بالزواج من أية ابنة في القبلية . لذلك فقد كان بإمكاننا الإعتماد على حسن نية طفاس وإبنه ، كما أن عبدالله وعلي حاولا بكل جهدهما وبتعليماتهما أن يضمنا حسن سير العملية أو الرحلة كحسن نيتهما الخالصة بهذا الصدد .

وتحرّكنا من خلال بساتين النخيل التي كانت تشكّل طوقاً حول البيوت المبعثرة لقرية رابغ ، ومن ثم اتجهنا خارجاً تحت أضواء النجوم باتجاه صحراء تهامة ، ذلك الشريط الرملي الساكن والهامد للصحراء المتاخمة للساحل الغربي للجزيرة العربية والواقع ما بين ساحل البحر والتلال الساحلية ، والممتد مئات من الأميال الرتيبة المملة . وفي أثناء النهار يكون هذا السهل حاراً لا يطاق ، كما أن خلوه من الماء يجعله طريقاً مستحيلاً ، ومع ذلك فإنه من المحتم لأن يسلكه المرء ، حيث أن التلال الخصبة بالأشجار تشكّل طريقاً وعراً وصعباً جداً سواءً شمالاً أم جنوباً بالنسبة للدواب المحمّلة .

كانت برودة ا لهواء منعشة وسارة بعد إنقضاء يوم من التدقيقات والمناقشات التي جرت بشكل كثيف في رابغ . وكان طفاس يقودني دون أن يتكلّم ، والجمال تسير بهدوء فوق الرمال المنبسطة الناعمة . وشرّدت أفكاري ونحن نسير حول

كيفية استخدام هذا الطريق كطريق للحج ، وكان يستخدم من قبل أجيال لا حصر لها ، فقد كانت تستخدمة الشعوب القاطنة في الشمال ، والذين كانوا يأتون ليزوروا المدينة المقدّسة ، وهم محمّلون بهدايا وعطايا الإيمان ، متجهون نحو مقام الرسول ، وبدا لي الأمر وكأن الثورة العربية يمكن أن تكون عبارة عن شعور او احساس بحج الرجوع ، لترجع إلى الشمال ، إلى سوريا ، كغاية من أجل هدف، كالإيمان بالحرية ، كإيمانهم الماضي بالرسالة .

ولبثنا سائرين لعدة ساعات ، دون أن تحدث عوائق باستثناء فترات كانت تغوص فيها الجمال قليلاً في الرمال فتصتك السروج عليها : مما يعطي دلالات على أن السهل الناعم المنبسط قد اندمج في مساكب كتل رملية ، ومن ثم تأتي بقع منخفضة ذات أشجار متفرّقة ، تتبعها أرض غير مستوية ، ثم تشكّل تلك النبتات روابي صغيرة ، ثم تحدث التيارات المعاكسة لرياح البحر فجوات في مساحات من الأرض . وبدا أن الجمال لم تكن لتحسّن سيرها في الظلام ، وأن ضوء النجوم على الرمال كان يحدث خيالاً ضئيلاً ، لذلك فإن الروابي والأكمات والفجوات كانت من الصعب رؤيتها أثناء السير . وتوقفنا قبل انتصاف الليل ، وقمت بلف نفسي جيّداً بعباءتي ، واخترت فجوة (حفرة) تلائم حجمي ، نمت جيداً فيها لغاية الفجر تقريباً .

وما أن شعر بالهواء يزداد برودة ولفحاً ، حتى صحا طفاس من نومه ، وبعد دقيقتين كنا نواصل سيرنا قدماً ثانية . وبعد ساعة ازداد ضوء الشمس ، ونحن نسير على مساحة من الأحجار البركانية التي تتخلّلها الرمال . وكان بمحاذاة ذلك الطريق نهر أو سيل صغير يمتد بجانب الشاطئ حتى الحقل الرئيسي للحجارة البركانية في منطقة الحجاز ، والذي كان تخمة أو حافته تقع على يميننا ، وحيث يقع هناك الطريق الساحلي . وكان الجزء الأدنى منه حجري ، إلاّ أنه قصير وكانت الحجارة البركانية الزرقاء تتناثر على جانبيه ، ويمكن من هناك ، كما قال طفاش ، أن تُرى السفن وهي تبحر في البحر . وقد قام الحجاج بوضع ركامات من الحجارة كعلامات على الطريق . و كانت توجد في بعض المسافات بضعة أو كومة صغيرة من الحجارة ، أو ثلاثة أحجار فقط وضعت فوق بعض .

وفي بعض الأحيان أو المسافات كانت تتواجد كومات مشتركة من الأحجار ، حيث كانت تشير إلى أنه يمكن لأي مار طريق أن يضيف حجر إليها - وليس لذلك أية دلالة أو إشارة معيّنة ، وإنما لأن الآخرين قاموا بذلك ، أو ربما ليعرفوا ذلك .

وخلف سلسلة التلال يوجد ممر منحدر إلى مكان أو منطقة واسعة مفتوحة، وهو عبارة عن سهل والذي يجري أو تتدفّق فيه مياه وادي فورا حتى البحر . وسطحه متشقّق ويحتوي على عدد لا يحصى من القنوات المتمازجة الأحجار اللينة . وعلى بعد بضعة بوصات ، كانت توجد مساكب أو مسارب لتدفّق المياه ، حيث تهطل الأمطار في أحيان نادرة وتجري مياه الوديان وكأنها انهاراً لتصب في البحر . وتبلغ مساحة عرض الدلتا هناك حوالي ستة أميال . وتجري المياه في جزء منها كل عدّة سنوات ، لمدة ساعة أو ساعتين ، أو حتى ليوم أو يومين كاملين . وفي الجزء الأسفل من الدلتا كانت الرطوبة تملأ الجو ، محمية بواسطة وجود الرمال المفرط لتدفع حرارة الشمس ، كما أن شجيرات الشوك والأشجار الطرية الخفيفة استفادت من ذلك وانتعشت . وكانت جذوع أو سيقان بعض تلك الأشجار بارتفاع قدم : ويمكن أن يكون ارتفاع بعض آخر منها نحو اثنتي عشر قدماً . ونبتت تلك الأشجار والأكمات بشكل منعزل ، وفي وضع عنقودي أو في شكل عناقيد ، فأغصانها وفروعها المنخفضة قد جُزّت منم قبل الجمال الجائعة . لذلك فقد بدت وكأنها معتنى بها ، ولها هوائها المتعمّد ، الذي يبدو غريباً في القفر أو البرية ، وخصوصاً في صحراء تهامة التي كانت جرداء حتى هذا اليوم .

وبعد ساعتين من السير ، قال لي طفاس ، إنه توجد هناك ، من حيث يسيل وادي فورا من آخر التلال الغرانيتية ، قرية صغيرة تدعى خريبة ، حيث تحتوي على قنوات مائية متدفقة وآبار وبساتين نخيل ، ومأهولة بعدد صغير من السكان وهم يقومون بزراعة النخيل . كان هذا شيء مهم . فلم نكن نعرف أن مجرى وادي فورا يستخدم كطريق مباشر من قرب المدينة (المنورة) حتى جوار رابغ . وهو يقع إلى أقصى جنوب وشرق موقع فيصل المفترض في التلال حيث يقال أنه كان من الصعب جداً أن يغطيه بقواته . ولم يخبرنا عبدالله أيضاً بوجود

قرية خريبة ، مع أنها تؤثّر مادياً على وضع قرية رابغ ، وذلك بتوفيرها للعدو مكاناً ممكناً للسقاية والتزوّد بالماء ، وكانت آمنة من إمكانية تدخّلنا ، ومن مدى مدافع سفننا الحربية . ومن الممكن للترك أن يحشدوا قواتهم في خريبة بشكل كثيف ليهاجموا لواءنا المفترض في رابغ .

وفي رده على أسئلة إضافية ، أفصح طفاس أنه في قرية « هاجر » ، التي تقع إلى الشرق من رابغ على التلال ، كان هناك أيضاً مصدر للتزوّد بالماء ، وهو يقع بأيدي قبيلة مسروح حرب ، وكانت وقتذاك تضم مركز قيادة حسين مبيرج ، الموالي للأتراك . ومن الممكن ان يقوم الاتراك بخطوتهم التالية من خريبة باتجاه مكة ، تاركين رابغ دون تحرّش أو أذى خلف جناحهم . وهذا يعني أن الطلب لوجود لواء بريطاني لن يفي بالغرض لإنقاذ مكة من الأتراك . ومن اجل تحقيق الهدف فانه سيتطلب وجود قوة قتالية اضافية او القيام بغارات مفاجئة ، إلى نحو عشرين ميلاً ، لكي تُمنع مصادر المياه الثلاث عن قوات العدو .

في غضون ذلك في الصباح الباكر ، امتطينا جمالنا لنسير بخبب راسخ من خلال مجرى النهر الحصوي وبين الأشجار ، متجهين نحو بئر « مستورة » ، وهو أول مرحلة للوصول إلى رابغ ويقع على طريق الحج . وهناك سنتزوّد بالماء ونستريح قليلاً . وكان جملي يشكّل سروراً بالنسبة لي ، حيث أنني لم أستخدم أو أمتطي مثل هذه الدابة من قبل . فلم تكن هناك جمال جيّدة في مصر ، وتلك التي يجلبونها من صحراء سيناء ، لم تكن قوية ومدرّبة للسير بهدوء وروية ، مثل هذه المطايا الجيّدة المتدربّة للأمراء العرب .

ومع ذلك فإن منافعها وفوائدها قد بُدّدت بشكل كبير وقتذاك ، حيث أنها خُصّصت من أجل القيام بالغارات ، والمغيرين يستخدمونها ببراعة ولا غنى لهم عنها ، ولم تخصّص من أجلي ، الذي لا أحسن سوى أن أمتطيها ، وليس لديّ أية معرفة أو تجربة بالإغارة . وكان من السهل أن تجلس على ظهر الجمل دون أن تقع أرضاً ، ولكن من الصعب أن تفهم ما هو سر ومغزى أن تسير بها في رحلات طويلة دون الشعور بالتعب والإرهاق سواء من المتطي أو من المطيّة . وأعطى لي طفاس لمحات عن ذلك اثناء المسير : ففي الحقيقة ، فقد كانت تلك من المواضيع

القليلة التي استطاع أن يتكلّم بها أو أن يمارسها . فالأوامر المشدّدة التي أُعطيت له ليبقيني خارجاً عن الإتصال بالعالم بدت حتى وكأنها أغلقت فمه عن الكلام . وأحسست بالإشفاق عليه ، إلاّ ان تصرفه ذاك آثار اهتمامي .

وقد وجدنا البئر ، في الجانب الشمالي لقرية مستورة تماماً . وكان يوجد بجانبه أحجار لجدران مهدومة كانت عبارة عن كوخ أو سقيفة على ما يبدو ، وكان يوجد بمواجهته أو أمامه بعض المآوي أو المساكن القليلة مسقوفة من أغصان الأشجار وأوراق (سعف) النخيل ، حيث كان يجلس تحتها بضعة من البدو . ولم نقم بتحيّتهم . وبدلاً من ذلك ، تحوّل طفاس باتجاه الجدران المهدومة ، وأنزل الجمال ، وجلست في ظلها في حين قام هو وإبنه عبدالله بسقايتها ، وجلبا الماء للجمال ولي . كان البئر قديماً ، واسعاً ، وحجارته مصفوفة بشكل جيّد ، وحوافه العليا الدائرية (جدرانه) قوية . وكان عمقه حوالي عشرين قدماً ، وهو ملائم للمسافرين والمرتحلين دون أن يستخدموا الحبال لجلب المياه منه ، مثلما كا الأمر معنا ، فباستطاعة المرء أن يضع ويثبت قدميه على الحافة ثم يمدّ يده وفيه الدلو المصنوع من جلد الماعز إلى أسفل ليملئه بالماء .

وقد رمي في البئر الكثير من الحجارة إلى أسفله ، حيث أن نصف قاعة أو أسفله مليء بالحجارة ، ولم يكن الماء فيه كثيراً . وقام عبدالله ، إبن طفاس ، بثني أكمامه ورفعها حتى كتفيه ، ثم قام بالقاء دلوه في البئر ، وكان يخرج كل مرة منه من أربعة إلى خمسة جالونات ثم يقوم بصبها للجمال في أوعية حجرية مخصصة لذلك موجودة بجانب البئر . وكان كل جمل يشرب حوالي خمسة جالونات ، مع أنهم أُشربوا قبل يوم واحد في رابغ . ومن ثم تركناهم يستريحون قليلاً ، في حين جلسنا نحن هادئين ، نتنسّم النسيم الخفيف الآتي من البحر . ودخن عبدالله سيجارة كمكافأة له على جهوده التي قام بها .

وقدِم بعض من رجال قبيلة حرب ، وهم يسوقون قطيع كبير من صغار الجمال ، وبدأوا بسقايتهم ، وقد أرسلوا واحد منهم إلى البئر لكي يملأ وعائهم الجلدي الكبير بالماء ، ثم أخذ الآخرون يشابكون أيديهم مع بعض وهم يهزجون بصوت عالٍ متقطّع . وشاهدناهم دون أن نتدخّل ، حيث أنهم كانوا من قبيلة

مسروح حرب ، ونحن من قبيلة بني هاني (يقصد المؤلف مرافقه طفاس وإبنه عبدالله) ، وفي حين أن القبيلتين كانتا وقتذاك عاقدتا السلّم بينهما ، ومن الممكن أن يجتاز أفرادهما أراضي ومناطق كل منهما ، مع ا ن ذلك كان تسوية مؤقتة فقط وذلك لتعزيز حرب الشرفاء ضد الأتراك ، وأيضاً فقد كان يحمل حسن النيّة في طيّاته ، مع انها قليلة العمق .

وبينما كنا نراقبهم ، قدّم إثنان منهم ، وهما يخبان بطيئاً وسريعاً بجملهما ، متجهان نحونا من الشمال . كانا شابان صغيران . وقد ارتدى أحدهما دشداشة وعباءة فخمتين ، قماشهما من نوع كشمير وكوفية مزخرفة من الحرير الثقيل . أما الآخر فقد كانت ملابسة بسيطة وعادية ، من القطن الأبيض ، وكوفيته من القطن الأحمر . وتوقفا بجانب البئر ، ثم قام الشاب الذي كان يرتدي ملابس فخمة بالقفز من على ظهر جمله برشاقة إلى الأرض دون أن يركع الجمل على ركبتيه ، ورمى بالرسن لمرافقه ، قائلاً ، بلامبالاة ، « إسقهما في حين سأذهب لهناك واستريح » . ثم تمشى وجلس بجانب السور المتداعي ، بعد أن لمحنا ، إلاّ أنه لم يبد اهتماماً أو قلقاً . وقدّم لي سيجارة ملفوفة ، قائلاً ، « يبدو أنكم قادمون من سوريا ؟ » وتجنّبت الإجابة بشكل مؤدب ، قائلاً له بأنه كان من مكة ، ولم يقدّم إجابة مباشرة على ذلك . وتحدّثنا قليلاً عن مسألة عقم نياق قبيلة مسروح حرب .

في غضون ذلك كان الرجل الآخر يقف بجانب البئر هناك ، ممسكاً برسني الجملين ، وربما كان ينتظر رجال قبيلة حرب لينهوا سقاية جمالهم قبل أن يأخذ دوره . وصاح به سيده الشاب ، « ما الأمر ، يا مصطفى ؟ اسقهما في الحال » . وقدّم الخادم ليقول بشكل يائس ، « إنهم لن يدعوني أقوم بذلك» . « لا حول الله ! » صرخ سيده بذلك ، وهب واقفاً وقام بضرب الخادم التعس أربع أو خمس ضربات على رأسه وكتفيه بعصاه الذي يسوق بها الجمل . « إذهب واطلب منهم ذلك . » بدا مصطفى متألماً ، فزعاً ، وغضباناً حيث أنه ظن بأنه سيضرب على خلفه إذا ما أدار ظهره ، وكان ظنه في محلّه ، وأسرع إلى البئر .

وقد تأثّر رجال قبيلة حرب له ، وشعروا بالشفقة نحوه وأفسحوا له مجالاً ،

وتركوا جمليه يشربان من حوضهم أو وعائهم . ثم همسوا له ، « من هو هذا الرجل ؟ » فقال لهم مصطفى ، « إنه ابن عم سيدنا في مكّة » . فأسرعوا في الحال واخرجوا رزمة من احدى سروجهم ، ثم قاموا بنثر محتواها من الاوراق الخضراء وأغصان الأشجار أمام الجملين ، فقد كانوا معتادين على قصّ أو جزّ هذه النبتات والأغصان الخضراء من الشجيرات الكثيفة المتواجدة في الواحات .

وكان الشريف الشاب يشاهدهم برضا . وعندما شبع جمله ، تسلّق عليه ببطء ممسكاً بعنقه دون جهد ظاهر ليصعد على السرج ، حيث سوى نفسه بترو ، وأشار لنا بتحية وداع متملّقة ، سائلاً الله أن يكافئ العرب بسخاء . وتمنوا له رحلة سعيدة ، ثم بدأ السير باتجاه الجنوب ، في حين أحضر عبدالله جمالنا ، وذهبنا نحن باتجاه الشمال . وبعد عشرة دقائق سمعت ضحكة خافتة من طفاس ، ورأيت السرور بادياً ما بين لحيته وشاربه الرماديين .

« ما أمرك ، يا طفاس ؟ » سألته

« يا سيدي ، هل رأيت أولئك الشابان عند البئر ؟ »

« الشريف وخادمه ؟ »

« نعم ؛ ولكن كانا هُما في الحقيقة الشريف علي بن الحسين شيخ قبيلة مدهق ، وابن عمه ، الشريف محسن ، شيخ عشائر حارث ، اللذان هما عدوان لدودان لقبيلة مسروح حرب . فقد خشيا أن يتأخرا أو أن يُبعدا عن الماء إذا ما عرف العرب (رجال قبيلة حرب) بأمرهما . لذلك فقد تظاهرا ليكونا أو ليمثّلا دور السيد والخادم من مكة . ألم تلاحظ كم استعر محسن غضباً عندما قام علي بضربه ؟ إن علي شيطان . فعندما كان عمره أحد عشر عاماً فقط ، فرّ من بيت والده لعند عمه ، وكان يقوم بسلب الحجاج وهم في طريقهم للحج ، ولبث معه لعدة شهور ، لغاية ما أمسك به والده . وكان مع سيدنا فيصل منذ اليوم الأول للمعركة التي جرت في المدينة ، وقاد قبيلة عتيبة في السهول الواقعة حول بئر درويش . فقد كانت معركة على صهوة الجمال جميعها ، وقد أبدى علي مهارة فائقة في القتال ، لم يستطع أي واحد أن يفعل ذلك ، وهو يسرع بجانب جمله ،

ويثب على جمله بيد واحدة ، ويحمل البندقية باليد الأخرى . إن أبناء قبيلة الحارث هم أبناء معارك ونزال » .

لقد كانت تلك المرة الأولى التي يقوم بها الرجل العجوز (طفاس) بالكلام بملء فمه .

(١١)

بينما كان طفاس يتكلّم أصبحنا نسير على سهل لامع منبسط ، وكان أجرداً من الشجر ، ثم اصبحت الرمال تدريجياً وببطء أنعم تحت الأقدام . وكانت الأرض تحتنا تحتوي على مواضع كثيرة من الحجارة والحصى الرمادية . ثم بدأت مساحات الرمال بالازدياد وأصبح وجود الحجارة والحصى نادراً ، لغاية ما أصبح بإمكاننا أن نميّز ألوان الحصى والحجارة سواء كانت حجارة رخامية ، أم متبلورة خضراء ، أم حجارة البازلت البركانية . وأصبح أخيراً لون الرمال بيضاء صافية تقريباً ، منبسطة تحت طبقة أرضية أقسى . ومثل طبيعة الأرض هذه فقد كانت تبدو كمثل السجادة تحت سير أقدام جمالنا . وكانت ذرات الرمال نظيفة ومصقولة ، وتبدو تحت أشعة الشمس مثل حبّات الألماس الصغيرة وتعطي انعكاس شديد جداً، ذلك أنه بعد فترة لم أستطع تحمّل ذلك . وشعرت بالإجهاد وقمت بسحب كوفيتي للأمام لأجعلها تشكّل مظلة على عنيتاي ، ولففت طرفاها تحتهما أيضاً ، مثل شريط الخوذة ، أي غطّيت وجهي كله باستثناء العينين ، لا تقي حرارة الشمس التي كانت تشع وتزداد في أمواج زجاجية على سطح الأرض، وتلفح وجهي على بعد ثمانين ميلاً من أمامنا . وكانت قمة جبل الرضوة الضخمة، الواقع خلف ينبع ، تلوح وتظهر للعيان ثم تختفي في الضباب المنبهر الذي كان في يخفي جسم وشكل الجبل . وبرزت بالقرب من السهل تماماً تلال الحسنا الصغيرة التي لا شكل لها ، والتي بدت وكأنها تسدّ الطريق . وإلى يميننا كانت هناك سلسلة جبال بني أيوب الشاهقة ، المسنّنة والضيّقة مثل حد أو أسنان المنشار ، وهي الحافة الأولى من حزمة أو مجموعة الجبال الواقعة ما بين

صحراء تهامة والسهل الواسع المرتفع حول المدينة (المنورة) . وسلسلة جبال بني أيوب هذه تصبح في اتجاهها الشمالي عبارة عن سلسلة تلال زرقاء أصغر حجماً، تبدو ناعمة في شكلها ، وتصبح الطريق بعدها كالدرج الى أعلى ثم أعلى ، خشنة الملمس، وتصبح الشمس وحرارتها أكثر احمراراً وقرباً ، صعوداً حتى أعلى وسط جبل « صبح » وقمته الغرانيتية المثيرة .

وبعد قليل تحولنا إلى اليمين ، منهين طريق الحج ، ثم سلكنا تقاطعاً قصيراً بمحاذاة أرض مرتفعة تدريجياً منبسطة تتكوّن من حجارة البازلت ، المدفونة في الرمال لغاية ما تظهر رؤوسها على السطح ، وهي مشبعة بالرطوبة تماماً بحيث يمكن أن ينبت العشب الرفيع فوقها ، وتتواجد الشجيرات فوق وتحت المنحدرات، حيث كانت ترعى فيها بضعة خراف وماعز . وهناك أراني طفاس حجراً ، حيث كان عبارة عن علامة لإنتهاء حدود منطقة قبيلة مسروح حرب . وقال لي بسرور بالغ انه أصبح الآن في وطنه (ديرته) ، في أراضي قبيلته ، ويمكن أن تنتهي عندئذ مدة حراسته لي .

إن الرجال نظروا للصحراء على أنها أرض جرداء قاحلة ، تحمل بحرية كل ما تختاره ، ولكن في الحقيقة فإن كل تلة وكل وادي فيها له اولها رجل يعتبر مختص ومطلع بها ويمكنه أن يؤكد بسرعة حق عشريته وقبيلته فيها ، ضد أي إعتداء أو عدوان . وحتى الآبار أو الأشجار يوجد لها أسيادها ، الذين يسمحون للناس ان يوقدوا من أشجارها ويشربوا من آبارها بحريّة ، طالما تطلّبت حاجتهم لذلك ، ولكنهم في نفس الوقت (هؤلاء الأسياد) يدققون بشكل مستمر في كل واحد يحاول أو يحول ملكيتها لحسابه او أن يستغلها أو أن يحول انتاجها لصالحه أو منفعته الخاصة من بين الآخرين . و أن الصحراء تشبه في عطاءها الشيوعية المجنونة ،اذ أن الطبيعة والعناصر المتواجدة فيها هي للاستخدام الحرّ لكل شخص صديق معروف من أجل استخدامها في أغراضه الخاصة وليس أكثر، والنتائج المنطقية هي في تقلّص هذه الرخصة ليقتصر امتيازها على رجال الصحراء، وقسوتهم وصلابتهم بالنسبة للغرباء الغير مزوّدين بالتعريف أو الضمان ، حيث أن الأمن المشترك يكمن في المسؤولية المشتركة للأقارب

والأنساب . فطفاس في أرضه ودياره ، يمكنه أن يحمل عبء المحافظة على سلامتي بشكل طفيف فقط .

لقد أصبحت الوديان معلّمة أو مشقوقة في الارض بشكل حاد ، ويحتوي بطنها أو أرضيتها على الرمال والحصى النظيفين وعلى صخور كبيرة موجودة هنا وهناك جُرفت بواسطة السيول . وكانت توجد هناك أكمات من العشب والنبتات اليابسة ، وتبدو للعين على أنها خضراء ، وهي جيّدة للإشعال واستخدامها كوقود ، مع أنها لا فائدة منها للرعي . ونزلنا الوادي بشكل مضطرّد لغاية ما اتصلنا ثانية بالأثر أو العلامة الرئيسة لطريق الحج . وواصلنا سيرنا على هذا الطريق لغاية غروب الشمس ، عندما لاحت على مرآنا قرية صغيرة اسمها بئر الشيخ . ودخلنا القرية مع حلول الظلام وكانت النيران توقد من أجل تحضير العشاء وسرنا على شارعها العريض المفتوح ثم توقفنا هناك . وذهب طفاس إلى إحدى الأكواخ العشرين البائسة التي تكوّنت منها القرية ، وهمس هناك ببضع كلمات ، وبعد صمت طويل أحضر معه طحيناً ، حيث قام بعجنه مع الماء وصنع منه رغيفاً سمكه بوصتين ومحيطه ثمانية إنشات . ثم قام بدفنه بين رماد القشر المحترق ، التي زوّدته به إمرأة من القرية ، والتي بدا إنه كان يعرفها . و عندما نضجت الكعكة (الرغيف) سحبه من النار وقام بنفضه ليزيل الرماد والغبار عنه ، ثم تشاركنا في أكله سوياً ، في حين ذهب ابنه علي ليشتري تبغاً . وقد قال لي (طفاس وابنه) إن المكان كان يحتوي على بئرين جدرانهما مرصوفين بالحجارة يتواجدان عند أسفل السفح الجنوبي للقرية ، إلاّ أنني شعرت بالإعياء للذهاب لهناك ومشاهدتهما ، حيث أن الإمتطاء الطويل في ذلك اليوم جعل عضلات جسمي الغير معتادة على ذلك متعبة ، كما أن حرارة السهل الذي كنا نسير عليه كانت مؤلمة . فقد كان جلدي متقرّحاً من جرّاء ذلك ، وعيناي متأثرتان من اللمعان والإشعاع الشديدن اللذين كانا يصدران من الرمال الفضيّة ، ومن الحصى المشعة . فالسنتان الأخيرتان اللتان قضيتهما في القاهرة ، وأنا أمارس عملي طيلة النهار وراء الطاولة أو بالتفكير الطويل في مكتب مليء بالضجيج الممل والمستمر ، والزامية التحدّث بأشياء عديدة ، لم يكن هناك جهد جسدي بحاجة لأن يبذل

باستثناء الذهاب كل يوم ما بين المكتب والفندق الذي كنت أقيم فيه . وبالنتيجة فإن حدوث هذا التغيير كان شديد الوطأة ، اذ أن الزمن لم يمنحني فترات تدريجية لأعود نفسي على أشعة الشمس الحارقة المهلكة للجزيرة العربية ، وعلى الامتطاء الطويل الممل للجمل . وكان أمامنا مرحلة أخرى من السير في تلك الليلة ، ويوم بأكمله في الغد قبل أن نبلغ معسكر فيصل .

هذا وقد كنت ممتناً للطعام الذي أعدّه طفاس (رغيف الخبز) وللتسوق الذي قام به عبدالله (شراء التبغ) ، الذي استغرق وقته نحو ساعة ، وساعة اخرى استرحنا بها والتي تشاركنا فيها الرضا ، وتأسفنا على انتهائها ، ثم امتطينا الجمال وسرنا في الظلام الحالك نصعد ودياناً ، ونجتازها مع وجود هبات من الهواء ، التي كانت حارة في الحفر والتجاويف الصعبة ، ولكنها منعشة ونشطه في الأماكن المفتوحة . ولا بدّ أن الأرض تحتنا كانت رملية ، لأن سكون سيرنا كان يستولي على اذنتاي أو سمعي المجهد ، وكان هادئاً ولطيفاً ، حيث كنت أستسلم للنوم دوماً وأنا على السرج ، ثم أصحو بعد دقائق فجأة وبإعياء ، وأنا قابض بإحكام بصورة غريزية على مركز السرج لاحفظ توازني الذي فقدت السيطرة عليه من جرّاء تعثّر خطوات المطيّة (الجمل) بعض الشيء . وقد كان الظلام دامساً ، ولا لون يبدو للأشكال والأشياء أمامي لتركّز عليها عيناي المحدقتان. وبعد مسير طويل توقفنا للاستراحة ، بعد منتصف الليل بوقت طويل، ثم لففت نفسي بعباءتي ونمت في حفرة رملية صغيرة مريحة جداً . وكان طافس هو الذي أنزل جملي على ركبتيه إلى الأرض .

وبعد ثلاث ساعات كنا نتحرّك ونسير ثانية ، وساعدنا وقتئذ ضوء القمر الأخير في تلك الليلة ، وسرنا نحو أسفل وادي «مارد» ، وكان الليل هامداً ، حاراً، ساكناً ، وتقع على جانبيه الجبال ذات الرؤوس الحادة التي بدت سوداء وبيضاء في الهواء المنهك . وكانت هناك أشجار كثيرة . وحلّ الفجر علينا أخيراً ونحن نجتاز ونخرج من الممرات الضيّقة إلى مكان أو سهل واسع والذي كانت تهب أرضه المنبسطة ريح دائرية أو لولبية مشبعة بالغبار . والنهار يكون مقوّياً دوماً، وأصبحنا نرى « بئر ابن حسني » على يميننا تماماً . وهي قرية تحتوي على

بيوت سخيفة ، لونها بني وأبيض ، ومصفوفة بجانب بعضها البعض من أجل الأمن والسلامة ، وبدت مثل الدمى وأكثر وحدانية وانعزالاً من الصحراء نفسها ، ويحيط بها الظلّ الشاسع لجُرف « صبح » الداكن ، الذي يقع خلفها . وكنا ونحن نشاهدها ، نأمل أن نرى حياة أو حركة عند أبوابها ، وكانت الشمس تزداد إشراقاً ، منكسرة على منحدرات الجروف الصخرية الشاهقة ، التي ترتفع آلاف الأقدام فوقنا ، ثم أصبحت تعكس الشعاعات ذات اللون الأبيض مقابل السماء التي كانت ما تزال شاحبة مع زوال الفجر .

وسرنا بمحاذاة الوادي الضخم . وقدم شخص يمتطي جملاً ، وكان عجوزاً ثرثاراً ، قدم من بيوت تلك القرية يخفّ بجمله لينضم إلينا . وقد سمّى نفسه خلف ، وبدا عليه أنه كان ودوداً جداً . وجاءت تحيّته لنا بعد ثرثرة له من غير كلفة ، ثم حاول أن يدفعنا على محادثته . ومع ذلك ، فقد حذر طفاس من صحبته وكان يجيبه باختصار الا ان خلف كان مصراً على الكلام ، واخيراً ، وليوطد نفسه ، انحنى على جيب سرجه وأخذ يبحث وينقّب فيه لغاية ما وجد وعاءً معدنياً مطلي ، كان يحتوي على رغيف طري جداً غير مخمّر ، كالذي أكلناه بالأمس ، إلاّ أنه كان يتجعّد بين الأصابع حيث ما زال ساخناً ، ومشبع بالسمن السائل إلى حدّ أن جزيئاته كانت تتفتّت . وكان مذاقه حلواً وطرياً جداً بين الأصابع كالنشارة . وأكلت منه قليلاً . وكانت هذه أول تجربة لي بذلك ، في حين أن طفاس وعبدالله أخذا يأكلان بنهم ، ولذلك فإن خلف بسخائه بقي نصف جائع . وبحق ، فإنه يعتقد من قبل العرب أن حمل أو التزوّد بالطعام من أجل القيام برحلة قصيرة تستغرق مائة ميل ، كان يعتبر شيئاً من الميوعة . وأصبحنا الآن أصدقاء . وبدأ الحديث مرة ثانية عندما كان خلف يحدّثنا عن القتال الذي نشب مؤخراً ، والتراجع الذي قام به فيصل بالأمس . وبدا أنه انهزم في منطقة «خيف » الواقعة أمام وادي « صفرا » ، وكان موجوداً وقتذاك في « الحمرا » ، وكانت تبعد قليلاً عن مكاننا ، أو على الأقل أن خلف ظنّ أنه كان هناك : ومن الممكن أن نعلم ونتأكد من ذلك عندما نصل « وسطة » ، وهي القرية التالية الواقعة على طريقنا . ولم يكن القتال شديداً ، إلاّ أنه وقعت بضعة إصابات بين أفراد قبيلتي طفاس وخلف ، وذُكرت أسماء وإصابات كل قبيلة .

في غضون ذلك ، نظرت حولي ، مندهشاً أن أجد نفسي في ارض أو منطقة جديدة . فقد تلاشت الرمال وما تبقى من الليلة الماضية ، كما تلاشت منطقة بئر الشيخ . وكنا قطعنا وادياً ، عرضه يتراوح ما بين مائتي إلى خمسمائة يا ردة ، يحتوي على رمال وحصى ناعمين ، وأرضه صلبة ، مع وجود هضبات صغيرة من الحجارة الخضراء على مسافات متقطّعة في وسطه . وكانت هناك أكمة من الأشجار الشائكة ، بعضها ذات جذوع خشبية صمغية ، ارتفاعها يصل إلى أكثر من ثلاثين قدماً ، خضراء بشكل جميل ، وشجر نحيل الأغصان ، وشجر ناعم خفيض ليجعل المنظر بأكمله رائعاً ، حسن الوجود ، شبيه بمتنزه طليق ، وقد أرخت الاشجار بظلالها الناعمة الطويلة في ذلك الصباح الباكر . وكانت الأرض منبسطة ونظيفة جداً ، والحصى ملون جداً ، ألوانه ممتعة ورائعة ولمّاعة جداً مما أعطت إحساساً بالمناظر المصممة طبيعياً ؛ وهذا الشعور أو الإحساس كان يقوى بالخطوط المستقيمة والحادة للتلال . وقد شمخت هذه الجبال على الجانبين بشكل منتظم ، وبلغ ارتفاعها ألف قدم تقريباً ، وهي من الغرانيت البني والصخور السوداء ، عليها بقع قرنفلية ، وبالقدر الغريب فإن هذه التلال المتورّدة والمتوهّجة ارتفعت وحطّت على قواعد من الصخور والأحجار التي تتخلّلها الألياف المتعرّقة والتي ترتفع مئات الأقدام ، والتي يوحي لونها بالطحلب المتنامي الرفيع .

وسرنا على امتداد هذه المنطقة الجميلة لنحو سبعة أميال ، حتى بلغنا مستجمع لمياه الأمطار ، يتخلله جدار من صخر الغرانيت الفضي ، وبدا بعد ذلك عبارة عن ركام لا شكل له ، إلاّ أنه شكّل عائقاً دون شك . وامتد من جرف صخري إلى آخر حتى وصل لغاية جوانب الجبال ، حيث أن منحدراتها أو سفوحها شاهقة الإرتفاع جداً ويصعب تسلّقها . وفي الوسط ، حيث يوجد طريق المرور ، كان يوجد يوجد هناك تطويقان انحباسيان يشبهان المحابس . وسألت خلف عن الغرض من وجود الجدار . فأجابني أنه زار كل من دمشق والقسطنطينية والقاهرة ، وأنه كان لديه العديد من الأصدقاء من بينهم رجال مصر العظام . وهل أعرف أي شخص إنجليزي هناك ؟ فقد كان خلف فضولاً بشأن

مقاصدي ونواياي وتاريخي . وقد حاول أن يقلّد لي بعض العبارات المصرية . وعندما أجبته بلهجة حلبية ، تكلّم بلهجة سورية واضحة كما أطلع عليها وألمّ بها . وقد عرفتها وفهمتها أيضاً ، ثم تحوّل بالحديث نحو السياسة المحلية ، موجهاً أسئلة معيّنة ، بشكل دقيق وغير مباشر ، حول الشريف حسين وأنجاله ، وما اعتقده بشأن ماذا سيقوم به فيصل . لقد كنت أقلّ علماً ومعرفة منه بهذا الصدد . ثم أنقذ طفاس ذلك الموقف وغيّر مجرى الحديث . وعلمنا فيما بعد أن خلف كان من جواسيس الاتراك ويدفع له ، وقد اعتاد أن يرسل تقارير منتظمة عما كان يجري في منطقة بئر ابن الحسني وتحرّكات القوات العربية .

وبعد أن اجتزنا الجدار أصبحنا نسير في مجري وادي صفرا ، وهو وادي مقفر وحصوي يقع ما بين تلال أقل تألقاً . وتجري مياهه وتتفرّع بعيداً نحو الأسفل ، حيث يقع إلى جهة الغرب منه تجمع لأشجار النخيل السمراء ، حيث يقال أنه تقع هناك قرية « جديدة » ، وهي إحدى قرى العبيد في وادي صفرا . وتحولنا نحو اليمين ، واجتزنا مرتفع آخر ، ومن ثم نزلنا منحدر لمسافة بضعة أميال لغاية زاوية أو منعطف جرف صخري طويل . واستدرنا حوله ووجدنا أنفسنا في وادي صفرا ، وهو الوادي الذي كنا نسعى إليه ، وتقع في وسطه قرية كبيرة ، تدعى وسطة . بدت وسطة وكأنها كان تحتوي على شبكة من البيوت ، حتى تكاد تتسلّق جوانب التل ، وأرضها من التراب الطمي الغريني ، وكانت هناك بيوت تقع بين جزر الصخور المتناثرة الواقعة بين القنوات المختلفة المتدفّقة والتي تشكّل جميعها الوادي الأصلي . وواصلنا مسيرنا بين اثنتين أو ثلاثة من هذه الجزر المشكّلة أو المكوّنة ، حتى وصلنا إلى أقصى ضفة الوادي . وكنا في طريقنا نسير على طبقة قاع سيول الشتاء ، على طول امتداد الحصى الأبيض والجلاميد ، المنبسطة تماماً . وفي منتصف الطريق انتقلنا من بستان نخيل يقع على جانب إلى بستان نخيل آخر على الجانب الآخر ، ويبدو على الأرض أثر اندفاع الماء الواضح للسيل ، وربما كان طوله مائتي ياردة وعرضه إثنتي عشر بوصة ، ونبتت على باطنه الرملي ، وعلى جانبي حوافه طبقة من العشب الكثيف والزهور البرية تبلغ مساحتها عشرة أقدام كمرجة خضراء . وتوقفنا عليها للحظة لندع

جمالنا ترخي رؤوسها إلى الأرض لتشرب ما فيها من ماء ، كما أن منظر العشب الأخضر أراح عيوننا بعد عناء يوم طويل شاق من النظر إلى الحصى المشعة ، وعند ذلك نظرت بشكل طوعي إلى أعلى لأرى فيما إذا كان السحاب لم يكن يغطي وجه السماء .

وسرنا إلى أعلى الجدول إلى حديقة والتي كان يندفع منها عدة قنوات رائعة صنعت جوانبها بالحجارة ، ومن ثم تحوّلنا لنسير على طول جدار من الطين للحديقة تحت ظلال أشجار نخيلها ، إلى قرية منعزلة أخرى . وقادنا طفاس على طريقها الصغير (كانت بيوتها منخفضة جداً حيث أمكننا أن نرى من فوق سروجنا سقوفها الطينية) ، وتوقف أمام أكبر بيوتها وقام بالطرق على باب فناءها غير المغلق . وفتح لنا الباب واحد من العبيد ، ثم نزلنا من على جمالنا كل على حدا . وقام طفاس بإيقاف الجمال ، وأرخى أحزمة سروجها ، ثم وضع أمامها حزمة من العشب الأخضر منْ كومة موجودة بجانب الباب لتأكل منها . وقادني إلى غرفة الضيوف في البيت ، وكانت معتمة وجدرانها من الآجر الطيني النظيف ، وسقفها من جذوع النخيل المسقوف بالطين المضغوط . وجلسنا على حصيرة وضعت فوق مصطبة . كان النهار في ذلك الوادي الخانق قد ازداد حرارة بشدة ، وتمددنا على ظهورنا تدريجياً إلى جانب بعضنا البعض . وكان يُسمع طنين النحل المحلّق في الحدائق ، والذباب يحوم فوق وجوهنا المغطّاة ، وكأنه ، يهدهدنا إلى النوم .

(١٢)

قبل أن نصحو من نومنا ، كانت حضرت لنا وجبة طعام تكوّنت من الخبز والتمر ، قام بتحضيرها أهل البيت . كان التمر مقطوفاً حديثاً ، طرياً وحلواً ، لم أتذوّق مثله من قبل . وكان صاحب البيت ، وهو من قبيلة حرب ، ومعه جيرانه بالقرب ، يخدمون فيصل ، وكانت نساؤه وأولاده يرعون الإبل في التلال وقتذاك . وفي أغلب الأحيان ، فإن عرب وادي صفرا كانوا يعيشون في قراهم خمسة شهور في السنة فقط . وفي الفصول الأخرى يترك أمر تولي البساتين للعبيد ، مثل أولئك الصبيان العبيد الذين أحضروا صينية الطعام لنا ، والتي تبدو أطرافهم الغليظة وأجسادهم اللامعة أنهم لم يكونوا ينتمون لتلك الأرض . وقال لي خلف أن هؤلاء السود كانوا من أفريقيا أصلاً ، وجلبوا منها أطفالاً من قبل آبائهم الأسميين الأتراك ، ثم بيعوا خلال مواسم الحج ، في مكة . وعندما يكبرون ويصبحون أقوياء ، كان الواحد منهم يساوي من خمسين إلى ثمانين جنيهاً ، وكانوا يختارون بعناية من قبل مشتريهم ليلائموا الأسعار التي يشترون بها . وأصبح بعضهم خدماً أو حرساً في بيوت أسيادهم ، إلاّ أن غالبيتهم كانوا يرسلون إلى مزارع النخيل الواقعة في تلك الوديان المحمومة والمتدفّقة المياه ، والتي كان مناخها سيئاً جداً بالنسبة للعمّال العرب . ولكنهم ازدهروا هنالك وبنوا لأنفسهم بيوتاً صلبة ، واقترنوا بنساء سوداوات مثلهم ، وقاموا بجميع الأعمال اليدوية في الأراضي والممتلكات . كانوا يتواجدون هناك بأعداد كبيرة ، فعلى سبيل المثال ، كانت هناك ثلاثون قرية لهم متواجدة بجانب بعضها البعض في وادي صفرا ـ لذلك فقد شكّلوا مجتمعاً خاصاً بهم ، وعاشوا حياتهم بسرور

كبير . وكان عملهم شاقاً ، إلاّ أن الإشراف عليهم لم يكن محكماً ، لذلك فقد كانوا يفرون بسهولة . ووضعهم القانوني كان سيئاً ، حيث أنهم لم يكن بإمكانهم التقاضي وفقاً للأحكام العشائرية والقبلية ، أو حتى المثول أمام محاكم الشريف ، إلاّ أن الرأي العام والمصلحة الذاتية منعت ممارسة أية أعمال عنف أو وحشية ضدهم . ومبدأ عقيدة أعتاق أي عبد منهم كان يعتبر عملاً صالحاً ، مما عنى بصورة عملية أنهم كانوا جميعهم تقريباً سينالون الحريّة في النهاية . وقد استطاع المبدعون منهم أن يجنوا ثروة من خلال خدماتهم . والذين رأيتهم منهم كان لهم أملاك ، وأظهروا أنفسهم بأنهم كانوا قانعين بمعيشتهم . وكانوا يزرعون البطيخ ، الكوسا ، الخيار ، العنب والتبغ لحسابهم الخاص ، إضافة إلى زراعة النخيل وإنتاج التمور ، الذي كانوا يرسلون الفائض منه إلى السودان بواسطة المراكب الشراعية ، ويقايضونه هناك بالذرة ، والملابس ووسائل الترفيه من أفريقيا أو أوروبا .

بعد أن انقضى منتصف النهار بحرارته اللاذعة ، امتطينا جمالنا ثانية ، وسرنا بشكل بطيء لغاية ما اختفت بساتين النخيل خلفنا ، اختفت خلف أسوارها المنخفضة المبنية من الطين . وقد حفرت أقنية صغيرة من القناة الحجرية الرئيسية . وكان مصدر الماء تعود ملكيته لمجتمع أو أهالي القرية جميعها . ثم يوزّع بين ملاّك الأراضي لعدة ساعات في اليوم أو الأسبوع حسب الإستخدام التقليدي . وكان الماء مالحاً قليلاً ، حيث كان ملائماً لزراعة أفضل أشجار النخيل، إلاّ أنه كان عذباً تماماً في آبار المياه الخاصة المتواجدة في البساتين . وكانت تلك الآبار متواجدة بكثرة ، وتوجد بها المياه تحت ثلاثة أو أربعة أقدام من السطح .

وقادنا طريقنا إلى دخول القرية الوسطى من تلك القرى المبعثرة ، ودخلنا إلى شارع سوقها . كانت الدكاكين تحتوي على أشياء ضئيلة ، وبدا المكان يوحي بالخراب . فقد كانت قرية الوسطة مزدهرة ومليئة بالسكان (فقد قالوا أنها كانت تحتوي على ألف مسكن) ، ولكن في يوم من الأيام انهدم سور ضخم في وادي صفرا ، فخرب العديد من بساتين النخيل ، وانجرفت أشجار النخيل فيها .

فأغرقت وخربت العديد من الجزر (أو القرى الشبيهة بالجزر) والتي أقيمت عليها المساكن منذ عدة قرون ، فقتلت أو أغرقت العبيد التعسين الذين كانوا يعيشون فيها . فكان من الممكن يعاد نشء أو جيل جديد ، وأن تعاد زراعة الأشجار ، طالما أن الأرض ما زالت قائمة ، بل إن البساتين والمزارع بنيت وزرعت بعناية في التربة التي استفادت من السيول العادية بعد سنوات من العمل . وتلك الموجة من الماء أو السيل العارم الذي بلغ عمقه ثمانية أقدام ، استمر في التدفّق السريع لمدة ثلاثة أيام - مما قلّص مساحات الأراضي الزراعية .

وتأتي بعد مسافة قصيرة من قرية الوسطة قرية الخورما ، وهي قرية ضئيلة فيها بساتين نخيل غنية ، حيث يرفد إليها نهر صغير من الشمال . وخلف «الخورما » يتوسع الوادي شيئاً فشيئاً ، ليصل إلى معدّل أربعمائة ياردة ، وله أرضية مكوّنة من الحصى والرمل الناعمين ، انبسطا بشكل ناعم بفعل أمطار الشتاء . وكانت أسوار القرية مبنية من الصخور الحمراء والسوداء الملساء ، وحوافها وسطحها حادين مثل حدّ السكاكين ، وتعكس أشعة الشمس مثل المعدن . وكانت الأشجار يانعة خضراء والعشب بدا غنياً . ورأينا عندئذ جماعات من جنود فيصل ، وكانت جمالهم المسروجة ترعى في الكلأ . وقبل أن نصل إلى قرية الحمرا كانت كل زاوية أو ركن (أكمة) أو أجمة من الأشجار تشكّل معسكر لجند فيصل . وصاحوا بفرح يحيون طفاس ، الذي جاء للحياة ثانية ، وردّ لهم التحيّة ملوّحاً بيديه ، في حين كان يستعجل انتهاء مهمّته بالنسبة لي .

وأصبحت قرية الحمرا مفتوحة أمامنا من الشمال . لقد بدت القرية تتكوّن من نحو مائة بيت أو مسكن ، مدفونة (واقعة) بين البساتين المحيط بها ركام أو أكوام من التراب يبلغ ارتفاعها نحو عشرين قدماً . واجتزنا جدولاً صغيراً ، وصعدنا إلى ممر يقع بين الأشجار لغاية قمّة إحدى تلك الأكوام الترابية ، حيث أنزلنا جمالنا إلى الأرض بجانب بوابة بيت طويل منخفض . وقال طفاس شيئاً ما لعبد كان يقف هناك وهو يحمل سيفاً ذو مقبض ذهبي . ثم قادني إلى فناء داخلي ، حيث كان يقف في أقصى نهايته ، عند باب أسود لمدخل البيت ، رجلاً يرتدي لباساً أبيضاً ينتظرني بشكل متوتّر . وقد شعرت من أول لمحة له أنه كان

ذلك الرجل الذي جئت من أجله إلى الجزيرة العربية وسعيت من أجل لقاء ـ القائد الذي سيقود الثورة العربية إلى انتصارها الكامل . بدا فيصل طويلاً جداً كالعمود ، نحيلاً جداً ، وهو في لباسه الحريري الأبيض الطويل وكوفيته السمراء اللون وعقاله المذهب اللامع . وكانت جفونه ناعسة ، ولحيته السوداء ووجهه الباهت مثل قناع يستر صفاته ومزاياه الأصلية . وكانت يداه على مقبض حنجرة.

قدّمت التحيّة له . وأفسح الطريق لي الى داخل الغرفة ، وجلس على سجادته بجانب الباب . وعندما جالت عيناي في الغرفة ، رأيت أن تلك الغرفة الصغيرة كانت تضم العديد من الأشخاص الصامتين ، ينظرون إليّ أو إلى فيصل بثبات . وظلّ فيصل يحدّق إلى يديه القابضتين على الخنجر . وأخيراً استعلم مني بلطف كيف كانت الرحلة . وتحدّثت عن الحرّ والعناء ، وسأل كم تبعد المسافة عن رابغ ، وعلّقت بأنني قد أسرعت بمطيتي من أجل التأقلم على ذلك .

« وهل تحب مكاننا هنا في وادي صفرا ؟ » سأل فيصل .

أجبته ، « حسناً ، إلاّ أنها بعيدة جداً عن دمشق . »

وكان لهذه الكلمات وقع كحدّ السيف بينهم . وكان هناك ارتعاش . وتصلّب كل واحد كان موجوداً في جلسته ، والتقط أنفاسه لدقيقة من الصمت . فربما ، كان بعضهم يحلم بانتصار سريع : وربما البعض الآخر ظنّوا أنه كان كانعكاس لهزيمتهم الأخيرة . وفي النهاية حول فيصل عينيه نحوي ، وابتسم لي ، وقال ، « كن شاكراً لله ، إنه يوجد هنا أتراك أقرب إلينا من هناك . » وابتسمنا جميعاً له ، ونهضت واستأذنت بالخروج قليلاً .

(١٣)

تحت أشجار النخيل الطويلة وأغصانها ، وفي مرجة خضراء ناعمة ، كان يوجد هناك معسكراً لجنود مصريين ، مع قائدهم المصري برتبة رائد ، وكان يدعى نافع بيك ، وقد أرسلوا مؤخراً من قبل السير ريجنالد وينجيت لمساعدة الثورة العربية . ونصبوا هناك بطارية مدفعية جبلية وبعض المدافع الرشّاشة ، وكانوا أكثر لطافة رغم الظروف . ونافع نفسه كان لطيفاً ، ودياً ومضيافاً لي بالرغم من ضعف صحته واستيائه من إرساله إلى مكان بعيد جداً في الصحراء ليشترك في حرب غير ضرورية ، حسب رأيه .

فالمصريون ، كونهم أشخاص مشغوفين بحب الوطن والأشياء المريحة ، يجدون الغربة تعاسة دوماً . وفي مثل ذلك الوضع السيء فقد عانوا المشقة من أجل هدف إنساني ، الذي كان أكثر مشقة وصعوبة . وكانوا يحاربون الأتراك ، الذين كانوا يكنون لهم احترام أو اعتبار عاطفي ، لصالح عرب الجزيرة ، الشعب الغريب عنهم والذي يتحدّث بلهجة تختلف عن لهجتهم ، ويبدون أنهم يختلفون تماماً عنهم في شخصيتهم ، وحياتهم القاسية . فقد بدا العرب آنذاك أنهم معادون للحضارة المادية ولا يباركونها بدلاً من أن يقدّروها .

وكان الإنجليز متأكّدين من ذلك التذمّر بين صفوف المصريين ، الذين فقدوا الإيمان بالحرب . والذين لم يكن لديهم إحساس جماعي للقيام بواجبهم تجاه دولتهم ، ولا شعور بالتزام فردي في خوض نضال من أجل إفساح الطريق للإنسانية .

وحضر فيصل ومعه مولود المخلوص ، وهو عربي متحمّس من تكريت في

العراق ، الذي أنزلت رتبته مرّتين خلال خدمته في الجيش التركي ، بسبب ميوله القومية ، وقضى سنتين في المنفى ، في منطقة نجد ، يخدم كسكرتير مع ابن رشيد. وكان يقوم بقيادة وحدة فرسان تركية ، عندما سمع بأخبار الثورة العربية، فتطوّع في جيش الشريف ، وكان أول ضابط نظامي ينضم لقوات الأمير فيصل . وقد أصبح آنذاك معاونة العسكري . وقد شكا مولود بمرارة أن القوات كانت ضعيفة التجهيز جداً . وكان ذلك السبب الرئيسي في محنتهم (هزيمتهم) . فهم يحصلون في الشهر على ثلاثين ألف دولار فقط ، وكمية قليلة من الطحين والأرز ، وقليل من الشعير ، وبضعة بنادق ، وذخيرة غير كافية ، ولا يحصلون على مدافع رشّاشة ، ولا مدافع جبلية ، ولا مساعدة فنية ، ولا معلومات عسكرية .

وأوقفت مولود عند ذلك وقلت له أن مجيئي كان المقصود منه معرفة ما ينقصهم ،وأن أرسل تقريراً بذلك ، ولكن يمكنني أن أعمل وأتعاون معهم فقط إذا أمكنهم أن يشرحوا لي وضعهم العام . ووافق فيصل على ذلك ، وبدأ يستعرض لي تاريخ ثورتهم من بدايتها الأولى .

لقد كان الإندفاع الأول (الهجوم) نحو المدينة عمل يائس . فقد كانت القوات العربية ضعيفة التسليح وقليلة الذخيرة ، أما القوات التركية ، فقد كانت ضخمة ، حيث أن قوات فخري باشا كانت وصلت للتو ، وأيضاً القوات التركية التي كانت سترافق فون ستوتزينجن ، القائد الألماني ، إلى اليمن ، كانت ما تزال في المدينة . وفي شدّة الأزمة أيضاً فقد انشقّت قبيلة بني علي وتخلّت عن دعمها للقوات العربية ، فدُحرت القوات العربية إلى خارج أسوار المدينة . ثم فتحت القوات التركية عليها نيران المدفعية ، ولم تكن القوات العربية تعرف أو تستخدم هذا السلاح الجديد بالنسبة لها ، مما أوقع الذعر والفوضى فيها . وقد كانت القوات التركية تمتلك مدافع ميدان وهاوتزر ، إضافة لتميّزهم ووجودهم على أرض عالية تسمح لهم بمراقبة الوضع والسيطرة عليه ، ثم انسحبت من القتال من جانب القوات العربية كل من قبيلتي عقيل وعتيبة وذهبتا إلى مكان آمن ورفضتا

الرجوع للقتال ثانية . ثم تقدّم فيصل ومعه علي بن الحسين قواتهما في ساحة المعركة ، ليروهم أن قذائف المدفعية المنهمرة لم تكن فتاكة كصوتها المدوي . إلاّ أن الإرتباك بين القوات العربية كان عميقاً .

واقتربت مجموعات من قبيلة بني علي من القيادة التركية وهي تقدّم عرضاً للاستسلام ، إذا ما جنبت قراها الاقتحام والتدمير . ثم قام فخري قائد القوات التركية بخداعهم والفتك بهم ، فبعد أن توقفت قواته عن القصف والأعمال العدوانية ، احاطت قواته بقرية «العوالي» ، ثم أمرها فجأة أن تشن هجوماً عليها وتذبح وتقتل كل شيء حي فيها . وتم اغتصاب وذبح المئات من السكان ، وأُحرقت المنازل ، ثم أشعلت النار بالأحياء والأموات . فقد كانت لدى فخري ذاك تجربة ومعرفة بفنون الذبح والتقتيل ، اكتسبها هو وقواته من خلال مذابح الارمن في الشمال .

إن ذلك النموذج البشع من الحرب أوجد نوعاً من الصدمة في الجزيرة العربية ، فلأول مرة في قواعد الحرب العربية تنتهك حرمة النساء : ولم تصان أرواح الأطفال الصغار جداً ، وأيضاً لم تصان أو تترك الممتلكات دون تدمير . وفهم فيصل ومعه القوات العربية إنهم كانوا يواجهون حرباً من نوع جديد ، فانسحبوا للخلف مؤقتاً ليستجمعوا قواهم ويعدوا خططهم . ولم يعد هنالك مجال للخضوع والتراجع . فنكبة قرية العوالي فتحت الثأر على مصراعيه ، ووضعت فيهم واجب القتال حتى النهاية . ولكن تكشف الوضع بعد ذلك ، مع ضعف السلاح ونقص الذخيرة ، فقد كان من الصعب جداً أن يكسبوا المعركة . لذلك فقد انسحبوا من السهول المحيطة بالمدينة المنورة إلى التلال المحاذية لطريق السلطاني ، حول الرحا وبير عباس ، حيث استراحوا هناك لفترة قليلة ، في حين أرسل فيصل وعلي موفداً إثر موفد إلى رابغ ، قاعدتهم البحرية وقتذاك ، ليستعلما عن موعد وصول الإمدادات والأموال والسلاح إليهما . ولكن لم تصل لهم سوى مؤونة قليلة من الأطعمة ، وبعض البنادق اليابانية فيما بعد ، معظمها معطوب أو محطّم . و لم ترسل أموال ، ولكن من أجل الحفاظ على المعنويات ،

اتبع فيصل خطة ، بأن ملأ صناديقه وخزائنه الخاصة بالحجارة ، وأقفل عليها بشكل محكم ، و وضع عليها حراسه ليحرسوها في النهار ، ثم يدخلها إلى خيمته في الليل بشكل محترس ، ليوهم بأن فيها مالاً وفيراً . وبتلك الطريقة ، فقد حاول الشقيقان فيصل وعلي الحفاظ على قواتهما متماسكة .

وفي نهاية الأمر ، ذهب علي إلى ميناء رابغ ليستطلع أمر الوضع هناك . فوجد أن حسين مبيرج ، شيخ قبيلة مسروح حرب ، قد انحاز إلى جانب الأتراك، لأنهم سيكونو المتصرين (وقد حاول ذلك مرتين معهم من قبل إلاّ أنه لقى أسوأ معاملة من قبل أولئك الأتراك) ، ووفقاً لذلك فقد قرّر الانضمام اليهم وما أن أنزلت الإمدادات و المؤن التي أرسلها البريطانيون إلى البر حتى استولى عليها حسين مبيريج ، وقام بتخزينها بشكل سري في بيوته . وقد قام علي عندما وصل رابغ بإرسال برقيات مستعجلة لأخيه زيد في جدة للإسراع للإنضمام إليه ومعه تعزيزات عسكرية . أما حسين مبيرج ، فبعد أن تملكه الخوف ، إنسل إلى التلال ، كخارج عن القانون . ثم قام الشريفان (علي وزيد) بالاستيلاء على القريتين ، اللتان كانتا تحت سيطرة حسين مبيرج . فوجدا فيهما كميات ضخمة من الأسلحة، وكميات من الأطعمة تكفي قواتهما لمدة شهر . ودفعهما الإغراء بذلك لأن يمكثا في رابغ .

وهذا الوضع جعل فيصل وحيداً في منطقته ، وسرعان ما وجد نفسه منعزلاً ، في وضع سحيق ، مدفوعاً لأن يعتمد على مصادره الأصلية . وقد ضجر من ذلك لبعض الوقت ، إلاّ أنه في شهر آب استطاع أن يستفيد من زيارة الكولونيل ويلسون لميناء ينبع الذي كان سيطر عليه حديثاً ، حيث ذهب فيصل إلى هناك وشرح لويلسون بشكل كامل احتياجاته الملحّة . وقد تأثر ويلسون بحديث الأمير فيصل ، ووعده بأن يرسل إليه في الحال مدافع جبلية وأقصى ما يستطيع من المساعدات ، وقد أرسل له بعد ذلك ضباط وجنود من الحامية المصرية في السودان . وهذا ما فسّر سبب وجود نافع بيك وقواته هناك .

وابتهجت القوات العربية بمقدمهم ، واعتقدوا بأنهم أصبحوا موازين

للقوات التركية آنذاك ، إلا أن المدافع الأربعة التي كانت بحوزة القوات المصرية كان عمرها عشرون سنة ومداها ثلاثة آلاف ياردة فقط ، وطواقمها لم تكن معنوياتهم وتحفزهم للقتال مرتفعة ، وذلك بسبب عدم تحمّسهم للقتال الغير نظامي . ومع ذلك ، فقد مضوا قدماً مع القوات العربية واندفعوا لمهاجمة المواقع التركية ، تدعهم القوات العربية ، لغاية ما شعر القائد التركي فخري بالخطر ، فحضر ليستطلع الجبهة بنفسه ، فعمل على تعزيز الكتيبة التركية المهدّدة في بئر عباس بنحو ثلاثة آلاف جندي . وكان لدى القوات التركية مدافع ميدان وهاوتزر ، إضافة إلى موقعهم المرتفع ا لمتميّز . و بدأوا بتشويش القوات العربية بفتحهم نيران مدافعهم بشكل غير مباشر ، ثم قاموا بتصويب قذيفة نحو خيمة فيصل بينما كان مجتمعاً للتشاور مع قواده في الداخل . وطُلب من المدفعيين المصريين بأن يردوا على إطلاق النار وإسكات مدافع العدو . فأفادوا بأنه لا جدوى من ذلك لأن مدافعهم عديمة الفائدة بهذا المجال ، حيث أنها لا تصل الا الى بعد تسعة آلاف ياردة . فسُخر منهم جراء ذلك ، وبناء عليه فقد تراجعت القوات للخلف ثانية . فلم يكن فيصل بذلك الوضع متشجّعاً للقيام بهجومات إضافية . فقد كان رجاله منهوكين . وفقد العديد من الجمال نتيجة تلك الغارات المكلّفة . ومع تأخر الدعم والإمداد من شقيقه عبدالله في مكة ، وشقيقه علي وأخيه زيد في رابغ ، فقد قرّر أخيراً أن يسحب معظم قواته ، تاركاً بعض جماعات من قبيلة حرب الذين كانوا يعيشون حول منطقة بئر عباس ليبقوا على عنصر الضغط وإعاقة أرتال الإمدادات التركية ووسائل النقل بواسطة شن الغارات المتكرّرة ، تلك التي وجدها نفسه مستحيلة وغير مجدية للاستمرار فيها .

ومع ذلك فلم يكن يخشى من أن القوات التركية ستأتي قدماً لتهاجمه فجأة . فلم يكن يتملكه أي انطباع ليكن لهم ادنى اعتبار أو احترام . وأن تراجعه الأخير إلى قرية الحمرا لم يكن مرغماً : فقد كانت عبارة عن تغطية فقط ، لأنه كان قد سأم من عجزه العسكري الواضح ، وكان أيضاً مصمّماً على منح قواته فترة قليلة من الراحة .

ومع ذلك ، فإن الجانبين كانا لا يزالان يبذلان جهدهما . فتسلّح القوات

التركية جعلها متفوقة جداً على المدى الطويل مما جعل من المستحيل على القوات العربيـة أن تمسك بزمام السيطرة على الوضع آنذاك . ولهذا السبب كـان يجري القتال بالأيدي خلال الليل ، حيث تكون المدافع معـمية لا جدوى منها . وقد وصل لأسمـاعي أنها كـانت مـعارك بدائيـة بشكل غـريب ، تتـخلّلها السبـاب والشتـائم من كلا الطرفين ، مستهلة أو بادئة بجدال ظريف . فبعد مـوجة من الشتائم فقد كانوا يعرفون بأن الذروة ستصل الى حد الاشتباك ، عندما يدعو الأتراك العـرب بشكل مـسعـور على أنهم « إنجليـز » ، ويردون العـرب عليـهم بالصـراخ : « وأنتم ألمان » ، فبـالطبع ، لم يكن هناك ألمان في منطقـة الحجـاز ، وكنت أنا أول إنجليزي أصل لهناك ، إلاّ أن كل فريق منهم أحب أن يستخدم ذلك كاداة للسب والشتم .

وسألت فـيصل عن خططه آنذاك . فـقـال لي أنه ما دامت المدينة (المنورة) واقعة تحت سيطرة الأتراك فإنهم سيظلوا مقيّدين هناك في منطقة الحجاز يرقصون على أنغـام فـخـري ، أي أنهم سيظلوا يكـافـحون ليـخـرجوا القـوات التـركـيـة من المدينة . وكـان في رأيه أن الأتراك كـانوا يهدفـون لإعـادة احتـلال مكة . فـمعظم قواتهم وقتذاك كـانت تتحرّك بأرتال كثيفة ، بحيث يمكنهم أن يتـحرّكوا باتجاه رابغ من عدة طرق يختـارونها مما يبقي العـرب في حـالة استنفار دائم . والدفاع غير الفعّال الذي أبدته القوات العـربية دفاعـاً عن تلال « صبح » أظهر أنهم غير فعالين في هذا المضـمـار . لذلك فـإنه عـندمـا يتـحرّك العـدو فـلا بد لهـم من شن هجـوم معاكس .

وخطّط فـيصل للتراجع إلى منطقة أبعد ، إلى حد وادي ينبع حيث تسكن هناك قبيلة جهينة الكبيرة . وبتجنيد قوات إضافية منهم فإنه سيمكنه الزحف باتجاه الشرق نحو الخط الحديدي الحجازي خلف المدينة ، في اللحظة التي يكـون فـيها شقيقه عبدالله متقدّماً عبر الصحراء ليهاجم المدينة من الشرق . كما كان يأمل أن شقيقه علي سيتوجّه في نفس الوقت من رابغ ، في حين سيتحرّك أخيه زيد إلى وادى صفرا ليشتبك مع القوة التركـية الكبيـرة المتواجـدة في بئر عباس ، ويبقيـها

خارجة عن المعركة الرئيسية . وبهذه الخطّة فإنه يمكن مهاجمة المدينة من كافة الجهات بوقت واحد . ومهما كانت نسبة النجاح في تلك الخطة ، فإن حشد جيوش الأمراء الثلاثة سيسر ويضعف من الاستعداد التركي للهجوم ، ويمنح القوات العربية في رابغ ومنطقة جنوب الحجاز فرصة لتجهيز نفسها من أجل الدفاع الفعّال ، أو شن هجوم معاكس .

أما القائد العسكري مولود ، الذي كان جالساً ينصت لحديثنا الطويل ، وكان قليل الكلام ، فلم يعد بإمكانه أن يمسك نفسه عند ذلك الحدّ ، وصاح قائلاً لي ، « إنك لا تكتب تاريخنا . فالشيء الملحّ أن تقاتل ونقاتل ونقتلهم . فأعطني بطارية مدفعية جبلية من نوع شنيدر ومدافع رشاشة ، وسأنهي الأمر كله لك . فنحن نتكلم ونتكلم ولا نفعل شيئاً » . ووافقته على ذلك بحماس ، فمولود مقاتل عظيم ، اعتبر كسب معركة ما كمعركة مبددة اذا لم يصب ببعض الجروح فيها ليثبت دوره فيها ، فقد شدني اليه بذلك . وكنا نتشاحن بالكلام بينما جلس فيصل جانباً وهو يبتسم ابتسامة عريضة لنا بسرور . كان ذلك الحديث بيننا عبارة عن إجازة بالنسبة له . و قد كان متشجّعاً حتى بمجرّد مجيئي إلى هناك ، فقد كان رجل طبائع وأمزجة ، تراوحت بين المجد واليأس ، وقد أصابه التعب والإنهاك وقتذاك . فقد كان يبدو أنه أكبر من عمره بسنوات ، من عمره الحقيقي آنذاك وهو إحدى وثلاثون سنة ، وكان وجهه نحيلاً جداً ، وعيتاه سوداوتان ، غائرتان قليلاً ، ومحتقنتان . وكان يبدو عليه التفكير والشعور بالمرارة . وكان طويلاً في مظهرة ، وقوراً ونشطاً ، جميلاً في طريقة مشيه ، والوقار الملكي بادياً على وجهه منكبيه . وقد عرف ذلك بالطبع ، فجزء كبير من تعبيره العام كان يتم بالإشارة أو الإيماءة وكانت حركاته عنيفة . وبدا على أنه حار المزاج وحسّاس ، إلى حد غير معقول ، ثمن لا يلبث أن يغيّر من ذلك سريعاً . وبالرغم من أنه بدا ضعيف البنية ، إلاّ أن الشجاعة تحتل مكاناً عظيماً فيه . وسحره الشخصي جعله محبوباً جداً من أتباعه . ولا يمكن للمرء أن يتساءل أبداً فيما إذا كان شكوكاً ، إلاّ أنه فيما بعد يتأكّد منه أن يقابل الثقة بالثقة ، والشك بالشك . وكان مشبعاً بالدهاء والذكاء أكثر من الدعابة .

إن تدربه في محيط السلطان عبدالحميد جعل منه سيداً في الدبلوماسية ،

وخدمته العسكرية مع الأتراك منحته معرفة عملية بالتكتيكات والأساليب الحربية والمدّة التي قضاها من حياته في القسطنطينية وفي البرلمان التركي (مجلس المبعوثان) جعلته يألف المسائل والعادات الأوروبية . وقد كان دقيقاً في الحكم على الرجال . وإذا امتلك القوة لتحقيق أحلامه فإنه كان سيمضي فيها إلى أبعد حد ، حيث أنه سخّر نفسه لعمله وعاش له فقط ، ولكن الخشية أنه كان يطمح أكثر من الواقع والحقيقة . وقد قال لي رجاله ، كيف أنه بعد قتال طويل ، والذي كان فيه مسؤولاً عن نفسه وحمايتها ، وكان يقود المهام والمسؤوليات ، ويشرف عليهم ويشجّعهم ، انهار جسدياً وحمل من ساحة القتال منتصراً ، فاقد الوعي ، والزبد يخرج من بين شفتيه .

لقد كان أكثر وأكثر مما كنا نتأمل ، أكثر وأكثرُ مما يستحق نهجنا أو اسلوبنا المعوج . عند ذاك ، فقد أنجزت رحلتي .

وكان واجبي أن أعود بعدئذ بأقصر طريق إلى مصر ومع تلك الأخبار : وأن المعرفة والمعلومات التي حصلت عليها ذلك المساء تحت شجر النخيل نمت وتبرعمت في فكري وتشعبت إلى آلاف الفروع ، مفعمة بالثمار والأوراق ، كتحت التي جلست واستمعت ورأيت وجهات النظر والآراء ، بينما كان الشفق متعمّقاً ، والليل يرخي سدوله ، لغاية ما قدّمت مجموعة من العبيد مع قطعانها التي كانت ترعى على الكلأ بين جذوع أشجار النخيل وقنواتها . وعدت مع فيصل ومولود من خلال البساتين إلى البيت الصغير ، الذي كان مجلسه فيه مليئاً بالناس المنتظرين ، ودخلنا إلى الغرفة الداخلية الحارة التي تجمع فيها المعارف والأعوان ، وهناك جلسنا سوياً أمام وعاء ساخن يحتوي على الأرز و اللحم ، وضع على بساط الطعام من قبل الخدم من أجل تناول عشائنا .

(١٤)

كم كانت المجموعة (الجماعة) مختلطة ومنوعة ، فقد ضمّت شرفاء ، شخصيات من مكة المكرّمة ، شيوخ قبائل جهينة وعتيبة وعقيل ، شخصيات من العراق ، وقد قصدت أن أطرح بينهم عدة مواضيع ملهبة ومثيرة لأرى مدى التحمّس والإيمان بها دون تأخّر . ودخن فيصل عدد لا يحصى من السجائر ، وأبقى سيطرته على النقاش حتى في آقصى سخونته ، وكان شيئاً جميلاً أن يشاهد وهو يقوم بذلك . وأظهر براعة تامة في ذلك ، وقوة حقيقية باستمالة شعور وإحساس الرجال إلى جانبه . وكان ستورز فعالاً ، بل إنه استعرض قوته في الحديث ، وعرض كافة ذكاءه وتعبيراته المسرحية ، وحركات يديه التي تجعل المخلوقات ترقص . وبدا فيصل أنه يسيطر على رجاله بشكل لا شعوري : فمن الصعب معرفة كيف يطبع أفكاره بهم ، ومن الصعب أن تفهم كيف يطيعونه . إنه كان فناً عظيماً كشأن فن ستورز في هذا المجال ، وهي ميزة مخفية ، ولدت مع فيصل .

لقد أحبّه العرب بشكل كبير : فقد أتاحت فرص اللقاءات تلك المعرفة بوضوح كم كان الشريف حسين وأنجاله أبطالاً في أعين القبائل . وكان الشريف حسين (وكانوا يدعونه بـ سيدنا) شخصية نظيفة ومهذّبة ، ويخفي في مظهره سياسية محنّكة ، وطموحاً عميقاً ، وتطلّعاً عربياً ، وقوة وعناد الشخصية . وأهتمامه في التاريخ الطبيعي قوّى من غرائزه الرياضية ، وجعل منه نسخة جميلة لأمير بدوي ، في حين ان والدته الشركسية الأصل اورثته صفاتاً ليجمع بين

السمات التركية والعربية . وقد ورث ايضاً الحنكة السياسية التي أفادته في تلك الظروف .

ومع أن المدرسة السياسية التركية التي تتلمذ فيها لم تفده كثيراً ، إلاّ أن الشريف حسين كان صادقاً وشريفاً في شبابه ، صريحاً في حديثه . . . ولم يتعلّم أن يكبت كلامه فحسب ، بل أن يستخدم الكلام ليخفي غرضه الشريف ، كما أنه أتقن فن ضبط النفس .

ومثال على حكمته المعبّرة كان في تربيته وتنشئته لأبنائه . فالسلطان العثماني جعلهم يعيشون في القسطنطينية ليتلقوا تعليماً تركياً . وقد ارتأى الشريف حسين أن يكون تعليمهم عاماً وجيداً . وعندما رجعوا إلى الحجاز وهم يحملون لقب أفندية ويرتدون ملابس أوروبية وعادات تركية ، فقد أمرهم والدهم بارتداء الملابس العربية ، وأعاد تأهيلهم باللغة العربية ، واختار لهم رفقاء مكيين (من أهل مكة) ثم أرسلهم إلى البوادي ، مع فرقة من الجمالة ، ليحرسوا طرق الحج .

وقد عودهم على حياة التقشّف ، وشظف العيش ، والخشونة في المأكل والملبس ، وحتى في خشونة السرج الذي يوضع على ظهر الجمل أو الفرس . ولم يدعهم يعودون إلى مكة . بل أبقى عليهم لأشهر طوال وفي كافة الفصول يحرسون الطرق في النهار والليل ، ويكتسبون خبرات الرجال المتنوعة ويتعلّمون الطرق والأساليب الجديدة لركوب الخيل وفن القتال . وسرعان ما تمرّسوا وصلب عودهم ، وأصبحوا واثقي الأنفس ، إضافة لذكائهم ونشاطهم وقوتهم الفطرية .

كان النقاش بعد العشاء مفعماً بالحيوية والنشاط . ومن خلال شخصيتي المنطبعة والمتأثرة بسوريا فقد أبديت تعاطفاً بالنسبة للزعماء العرب الذين أعدموا في دمشق من قبل جمال باشا . فقد هزّني نبأ إعدامهم بشكل حاد : حيث كشفت الصحف بأن هؤلاء الرجال كانوا على اتصال مع حكومات أجنبية ، وأنهم كانوا مستعدين لقبول السيادة (الانتداب) الفرنسية أو البريطانية على بلادهم كثمن

لمساعدتهم . وكان اعدامهم جريمة بحق القومية العربية ، وأن جمال (باشا) قد نفذ فقط أحكام جائرة . وابتسم فيصل عندئذ ، وهو يغمز لي . و قال لي ، « إنك كما ترى ، فنحن الآن بحاجة للارتباط مع البريطانيين . فنحن مسرورون لنكون أصدقاء لهم ، وشاكرين لمساعدتهم لنا ، من أجل مصالحنا المستقبلية . إلاّ أننا لسنا أتباعاً للبريطانيين . وكنا سنكون مرتاحين جداً فيما لو لم يكونوا حلفاء غير متجانسين » .

ورويت لهم قصة عبدالله الرشيد ، عندما كنا في طريقنا نحو قرية الحمرا . فقد كان يروي لي متأوهاً ومستنكراً مجيء البحارة البريطانيين لينزلوا إلى البر كل يوم ويحطوا في رابغ . «فسرعان ما سيمكثون أيام وليال هنا ، ومن ثم سيعيشون دوماً هنا ، ويأخذون البلاد . » ولأدخل السرور إلى نفسه ، فقد قلت له أن هناك ملايين من الإنجليز يتواجدون الآن على البر الفرنسي ، وأن الفرنسيين لا يخشون من ذلك . عند ذلك ، فقد استدار نحوي ، وسأل بازدراء ، فيما إذا كنت أقارن فرنسا بأرض الحجاز !

تأمّل فيصل قليلاً ثم قال ، « إنني لست حجازياً في تنشئتي ، ومع ذلك ، فإنني غيور عليها . وأعلم أيضاً أن البريطانيين لا يريدون الإستيلاء عليها ، ومع ذلك فما بوسعي أن أقول ، عندما استولوا على السودان ، مع أنهم أيضاً لا يريدونها ؟ فهم متلهفون للاستيلاء على الأراضي المقفرة ، ليصلحوها ويبنوها ، ولذلك ، ربما ، في يوم ما ستبدو لهم الجزيرة العربية ثمينة . فأنا وأنت نوايانا حسنة ، وربما هم يكونون مختلفين ، وسواء كان ذلك بدافع الخير او دافع الشر فسيجعل الناس يصرخون بألم . فهل المعدن الخام يعجب باللهب الذي يحوّله إلى شكل آخر ؟ ولا يوجد هناك سبب للأذى ، ولكن الناس الضعفاء جداً ملحون جداً في طلب القليل من المساعدة . وأن عرقنا أو جنسنا سيبقى عاجزاً لغاية ما يقف على أقدامه» .

وقد أدهشني رجال القبائل الذين تناولوا العشاء معنا بفهمهم وحسن اطلاعهم المكثّف للقومية السياسية ، كفكرة مطلقة أمكنهم أن يتفهموها من

الطبقات المتعلّمة في مدن الحجاز ، من اولئك الهندوس ، اليابانيين ، البخاريين ، السودانيين والأتراك ، خارجاً عن التعاطف مع المثاليات العربية ، والذين كانوا في الحقيقة يعانون قليلاً آنذاك من قوة العاطفة المحليّة ، التي انتشرت و امتدت بشكل كبير بعد الخروج فجأة من السيطرة التركية . وقد كان للشريف حسين الحكمة المنطقية ليركّز حواسه على الإعتقاد الفطري للعرب بأنهم كانوا ملح الأرض ومكتفين ذاتياً . عندئذ ، يكون قادراً بتحالفه معنا على دعم هدفه بالمال والسلاح ، مما يضمن ويؤكد نجاحه . وبالطبع ، فإن هذا النجاح لم يكن سهلاً . فتلك الهيئة أو المجموعة العظيمة من الأشراف ، التي كانت تضم نحو ثمانمائة إلى تسعمائة شريف ، قد فهموا واستوعبوا هدفه ومبدأه القومي ، وكانوا رسلاً ناجحين له ، فخورين بنسبهم الوقور للرسول (ص) ، الذي منحهم القوة والسؤدد ليقودوا الرجال ويوجهونهم نحو الهدف النهائي المنشود . وقد اتبعت القبائل دخان تعصبها العرقي . ومن الممكن أن سكان المدن قد تلهفوا لانحسار الحكم العثماني عنهم : حيث أن القبائل كانت مقتنعة بأنها قد أقامت حكومة عربية حرّة ، وأن كل واحدة منها كانت قائمة بذاتها . فقد كانوا مستقلين يتمتعون بحكم أنفسهم ـ وهو اقتناع وحلّ من الممكن أن يؤدي إلى الفوضى ، إذ لم يقوموا بضبط صارم أكثر للرباط العائلي ، وروابط مسؤولية العشيرة . و لكن هذا استلزم أنكار السلطة المركزية . فمن الممكن للشريف أن يحصل على سيادة قانونية خارجية ، إذا ما قام بذلك ، إلاّ أن المسائل الداخلية ستكون حسب العرف او التقليد . والمشكلة للمنظرين الأجانب تكمن في ـ هل دمشق ستحكم الحجاز ، أم أن الحجاز يمكنها أن تحكم دمشق ؟ ولم يتعبهم ذلك مطلقاً ، حيث أنهم لم يحصلوا على ذلك بعد . وأن فكرة الساميين عن القومية كانت تكمن في استقلال القبائل والقرى ، وأن وحدتهم القومية المثالية كانت عرضية متصلة أو مرتبطة بمقاومة الدخيل . ولم تكن السياسات البناءة ، والدولة المنظّمة ، والإمبراطورية الموسعة ، تكمن وراء هدفهم . فقد كانوا يقاتلون للتغلّب على الأمبراطورية ، وليس الفوز بها .

إن شعور السوريين والعراقيين في تلك الجيوش العربية كان غير مباشر .

فقد اعتقدوا أنهم بانخراطهم في القتال ضمن قوات محليّة ، حتى هنا في الحجاز، بأنهم كانوا يدافعون عن الحقوق العامة لكافة العرب من أجل وجودهم القومي ، ودون أن يتخيّلوا إنشاء دولة واحدة ، أو حتى دول متحدّة كونفدرالياً ، وكانوا بالتأكيد يتطلّعون نحو الشمال ، متمنين أن يضيفوا دمشق وبغداد بحكم ذاتي للإنضمام للعائلة العربية (الدولة العربية) . لقد كانوا ضعيفين في مصادرهم المادية ، وحتى بعد نجاحهم سيكونون كذلك ، حيث أن عالمهم كان زراعياً ورعوياً ، دون مصادر معدنية ، ولن يمكنهم أن يكونوا أقوياء في التسلّح الحديث. وبطريقة أخرى ، فإنه يجب علينا أن نتوقف قليلاً قبل أن نخوض في الحديث عن المركز الاستراتيجي للحركات القومية الحديثة في الشرق الأوسط الزاخرة والمفعمة بمثل هذا النشاط .

كانت عقيدة الشريف في القتال قومية ، ولم يكن للتطرّف الديني أثّر فيها . فقد عرفت القبائل العربية أن البريطانيين هم مسيحيون ، وأن البريطانيين كانوا حلفاء لهم . وكان ما يريدونه هو إقامة حكومة تنطق بلغتهم العربية وان يعيشوا بسلام، بعيداً عن ظلم وتعسّف الأتراك .

(١٥)

صحوت مبكّراً في اليوم التالي وكنت من بين قوات فيصل التي خرجت باتجاه «الخيف» ، وحاولت أن أتبيّن ، بنفسي ، شعور ونزعة آرائهم للخطة ، بتلك الاقناعات التي مورست على رؤسائهم الليلة الماضية . وكان الوقت جوهر جهودي ، ذلك أنه كان من الضروري كسب التعبيرات خلال عشرة أيام التي ستكون بشكل عادي ثمرة أسابيع من المشاهدات والملاحظات ، في عادتي السيئة ، فيما يتعلّق بمسألة الطرق الجانبية المنزلقة للأحاسيس . وبشكل طبيعي سأمضي طوال اليوم ، مع الأصوات القريبة المباشرة ، ولكن معمياً عن كل تفصيل ، ومدركاً بشكل عام بأن هناك أشياء حمراء ، أو أشياء رمادية ، أو أشياء واضحة بالنسبة لي . وأن عينتاي اليوم عليها أن تكون متحوّلة مباشرة إلى فكري وعقلي ، ذلك ليمكنني أن ألاحظ شيئاً أو شيئين بوضوح أكثر بواسطة التناقض مع الغموض السابق . فمثل هذه الأشياء تتكوّن وتتشكّل على الدوام تقريباً : الصخور والجبال ، أو أجساد الرجال في السكون والحركة : ليس الأشياء الصغيرة مثل الأزهار والورود ، ولا الخواص من الألوان .

وأيضاً كان هنا الحاجة القوية لمراسل حي . ففي تلك الحرب الرتيبة فإن أدنى عدم انتظام أو فوضى كان يشكّل متعة للجميع ، وكان منهج مكماهون الأقوى هو استغلال الخيال المستتر للأركان العامة . ولقد آمنت بالحركة (الثورة) العربية ، وكنت واثقاً بها ، حتى قبل أن أذهب لهناك ، ذلك أنه تكمن بها فكرة تمزيق الأتراك إلى قطع ، إلاّ أن أناساً آخرين في مصر كان ينقصهم الإيمان والثقة

بها ، ولم يتعلّموا أي شيء عن الذكاء العربي في ميدان المعركة . وبملاحظة شيء ما في روح تلك الرومانسيات على التلال الواقعة حول المدن المقدّسة فقد يمكنني كسب عطف القاهرة (القيادة البريطانية هناك) بالنسبة لمزيد من الإجراءات الضرورية لمساعدتهم .

لقد استقبلني الرجال هناك بفرح وسرور . وحيث كانوا يتمدّدون بجانب كل صخرة ضخمة أو دغل فيه أشجار مثل العقارب الكسولة ، يستريحون ويتظلّلون من عناء الحرّ ، ويستعيدون نشاط أطرافهم القمحية مع برودة جوانب الصخرة المظلّلة . وبسبب ارتدائي ملابسي الكاكي فقد ظنونني ضابطاً تركياً مدرباً فررت إليهم ، وكانوا يسرفون بالمزاح المهذّب ولكن مع إيحاءات واضحة حول كيف يجب أن يعاملونني . كان معظمهم صغارالسن ، ذلك أن سنّ القتال في الحجاز يتراوح ما بين الثانية عشرة إلى الستين ، لكل بالغ عاقل يتقن إطلاق النار وكانوا جميعاً مظاهرهم قاسية ، وألوانهم قاتمة ، وبعضهم لونه أسود . وكانو نحيلي الأجسام ، إلاّ أن بنيتهم متماسكة ، يتحرّكون بنشاط مفعم سوياً ، ممتع بمشاهدته . ولم يبد ممكناً أن الرجال يمكن أن يكونوا أقصى شدّة أو أكثر شدّة فوق رمال الصحراء وفوق الصخور بأقدامهم العارية وتحت حرارة الشمس لساعات طويلة دون أن يشعروا بألم ، ويتسلّقون جبالهم وتلالهم مثل الماعز . وكانت ثيابهم تتكوّن بشكل رئيس من قمصان مهلهلة ، ويرتدون أحياناً سراويل قطنية قصيرة ، وغطاء للرأس غالباً ما يكون لونه أحمر ، يشبه المنديل أو «المنشفة» أو حسبما يتطلّب الأمر . ويضعون حولهم أحزمة تحتوي على امشاط رصاص ، يطلقون منها رصاص فرح عندما يمكنهم ذلك .

كانت نفوسهم صلبة ، ويصيحون بأنه من الممكن أن تستمر الحرب عشرة سنوات . لقد كان أدسم وقت عرفته التلال من قبل . فقد كان الشريف يطعم إضافة للمقاتلين ، عائلاتهم أيضاً ، ويدفع جنيهان في الشهر للرجل المقاتل ، وأربعة جنيهات لقاء أجرة الجمل . ولم يكن هناك شيء قط أو معجزة لتُبقي قبيلة مقاتلة أو جيش قبلي في أرض المعركة لمدة خمسة أشهر . لقد كان من عادتنا أن

نسخر من « الجندي الشرقي » لحبه للمال ، إلاّ أن حملة الحجاز كانت مثالاً جيداً لتظهر محدودات ذلك الإفتراض . فالترك كانوا يقدّمون رشوات ضخمة ، ويحصلون على خدمة ضئيلة ـ وليست خدمة فعالة . وكان العرب يأخذون أموالهم ، ويقدّمون تأكيدات سارة بالتعاون مع الترك لقاء ذلك ، ومع ذلك فإن تلك القبائل تكون في غضون ذلك على إتصال مع فيصل ، الذي كان يحصل على خدمات لقاء دفعه المال . وكان الأتراك يقطعون حناجر سجنائهم بالسكاكين، كما لو أنهم يذبحون الخراف . وكان فيصل يدفع مكافأة مقدارها جنيهاً لقاء كل واحد من أولئك المساجين ، وكان يؤتى له بالكثير من المساجين المعافين ـ الذين لم تقطع رؤوسهم . كما أنه كان يدفع لقاء الإستيلاء على البغال والبنادق .

كانت المجموعات الفعلية المقاتلة تتغيّر باستمرار ، استجابة لطبيعة الظروف. فالعائلة القبلية التي كانت تمتلك بندقية ، فقد كان أبناءها يخدمون بالدور أو التناوب لبضعة أيام لكل واحد منهم . وكان الرجال المتزوّجون يتناوبون ما بين المعسكر وعائلاتهم ، وكانت أحياناً كافة القبيلة تصبح وتأخذ لنفسها استراحة وبالتالي فان الرجال الذين كان يدفع لهم اجوراً اكثر هم اولئك الذين كانوا يُعبئون عند الحاجة؛ وكانت تولي العناية نحو كبار الشيوخ ، وتقدم لهم ا لاموال للحصول على تأييدهم . وتألف جيش فيصل من ثمانية آلاف رجل كانوا ينتظمون في عشرة فيالق هجانة مقاتلون على الجمال والبقية مقاتلون يتواجدون على التلال . وكانوا يخدمون تحت امرة شيوخهم ، وبالقرب من مضاربهم ، ويتدبرون امر طعام وتنقلاتهم . وكان كل شيخ له مائة تابع اسمياً . كما ان الشرفاء كانوا يعتبرون كمجموعة قيادية ، تقديراً لمواقعهم المميزة التي تسموا بهم فوق ا لغيرة والحسد اللذان كانا يعصفان برجال القبائل .

وقد أوقفت العداءات والضغائن الدموية ظاهرياً او اسمياً بين القبائل ، الا انها أوقفت حقيقة في المناطق التي كانت خاضعة للاشراف . فقبائل البيلي وجهينة وعتيبة وعقيل ، كانوا يعيشون ويقاتلون جنباً الى جنب في معسكر فيصل

ومع ذلك ، فان اعضاء القبيلة الواحدة كانوا يخجلون من اعضاء قبيلة اخرى ، وضمن القبيلة ايضاً لم يكن بمقدور احد ان يثق بجاره تماماً .

وغالباً ما يكون توافقهم مرده الى الكره المشترك ضد الترك ، وربما قد يصل بهم الأمر لأن تقع العشائر المتناحرة في قتال ما اثناء تواجدها في ميدان المعركة . وبالتالي فانه لم يكن بامكانهم شن الهجوم . فقد امكن لسرية من الجيش التركي ان تتحدى جيشاً كاملاً منهم ، وان تهزمه ، وتكبده خسائر ، بحيث كان يمكن ان تنهي الحرب بشكل مرعب .

واستنتجت من ذلك ان رجال القبائل كانوا جيدين للدفاع فقط . وتهورهم المكتسب جعلهم بارعين في الغنيمة ، وتخريب ونزع الخطوط الحديدية ، ونهب القوافل إلاّ أنه لم يكن بإمكانهم أن يقودوا معركة ، أو أن يحاربوا كفريق واحد . وإذا تمكّن رجل منهم أن يحارب بشكل جيّد من جرّاء نفسه فإنه يكون بوجه عام جندياً رديئاً ، وأولئك الأبطال منهم بدوا لي أنهم لا يجدون نفعاً في حربنا ؛ ولكن إذا ما قمنا بتقويتهم بمدافع رشاشة خفيفة من نوع لويس ، ليستخدمونها بأنفسهم ، فإنهم من الممكن أن يكونوا قادرين على الدفاع عن تلالهم ويخدمون بفعالية كستار خلفي الذي استطعنا إقامته . وربما كان الأمر في رابغ ، حيث تمكّن رتل متحرّك نظامي عربي من مواجهة قوة تركية (استخدمت فيها حرب العصابات) وهزمتها شرّ هزيمة . ومع مثل تلك القوة من الجنود الحقيقيين ، فإنه كان من الممكن تجنيد رجال القبائل من الحجاز معهم . وكان من الممكن تشكيل جيش نظامي من الجنود والضبّاط المحترفين ، من سوريين وعراقيين ، ومن أبناء المدن والمتواجدين آنذاك في الحجاز ، من الذين تدرّبوا وخدموا في الجيش التركي سابقاً ، ومنهم رجال متميّزون لهم ماض مجيد في القتال ، مثل عزيز المصري أو مولود . فأولئك كان بإمكانهم الحرب بوّاسطة شن الهجمات ، في حين أن رجال القبائل كانوا يقومون بالمناوشات وشن الغارات المتفرّقة على مؤخرة الجيش التركي ، وهي كانت عبارة عن مضايقات لا جدوى منها .

لقد كانت حرب الحجاز ، في غضون ذلك ، تبدو لتكون كواحدة من حرب الدراويش ضد قوات نظامية . لقد كان قتالاً يجري في بلاد ذات تضاريس صخرية ، جبلية وصحراوية مقفرة (مدعمة بعناصر قبلية جبلية شرسة في القتال) ضد عدو مجهّز بكثافة من قبل الألمان قادر على شن حرب عنيفة . وكان حزام التلال المحيطة يشكّل جنة بالنسبة للقناصة ، حيث كان رجال القبائل يتقنون فن القنص . وحيث تمركز على تلك الجبال نحو مائتي أو ثلاثمائة رجل ، كانوا يعرفون مدى الرماية نحوهم والتي يمكن ان تطال أي قسم او فئة منهم ؛ ولأن ايضاً ان سفوح الجبال هذه شاهقة جداً ولا يمكن تسلقها . اما الوديان ، والتي كانت تشكل الطرق من الناحية العملية ، فانها لم تكن تحوي على صدوع وشقوق وممرات ضيقة لأميال واميال ، ويوجد بها احياناً التواءات وتحولات عديدة ، ويبلغ عمقها من الف الى اربعة الآف قدم ، وهي جرداء ، وكل جانب منها يحاط بصخور غرانيتية وبازلتية ورخامية ، وسفوحها ليست ملساء مصقولة ، ولكنها خشنة وحادة وقاسية تشبه المعدن .

لقد بدا لي أنه من المستحيل أنه بدون أن يستخدم الأتراك استمالة وانحياز القبائل الجبلية لهم ، فإنهم لن يستطيعوا شقّ طريقهم من خلالها . وحتى لو أنهم استمالوا تلك القبائل إلى جانبهم ، فإنهم لن يكونوا متأكدين من أن رجال القبائل إلى جانبهم ، فإنهم لن يكونوا متأكدين من أن رجال القبائل الجبلية لن يتحوّلوا ضدهم ثانية ، وسيكون ذلك أسوأ بالنسبة للأتراك ، حيث سيضربون من الخلف ، وتقطع عنهم خطوط المواصلات ، ويصبحون في متاهة . ومع ذلك ، فبدون نيل صداقة القبائل ، فإن الأتراك لن يربحوا سوى الأرض التي كان يقف عليها جنودهم ، وتلك الخطوط الطويلة والمعقّدة من الطرق ستهلك الآلاف من رجالهم خلال أسبوعين ، ولن تترك واحد منهم في الجبهة .

إن المظهر الوحيد المزعج والذي كان ناجحاً جداً بيد الأتراك لافزاع وتخويف العرب به ، كان المدفعية . فعزيز المصري خلال المعارك التركية-

الإيطالية التي دارت في طرابلس قد وجد نفس الرعب من جرّائها ، إلاّ أنه وجد أيضاً أن خطرها متقلّص . وقد أملنا أن يكون دورها متقلصاً هنا أيضاً ، إلاّ أنه في اللحظة الذي كان يطلق فيه المدفع قذيفته فإن كل واحد من الرجال كان يجد له ملاذاً ليختبئ فيه . فقد ظنّوا أن الفعالية المدمّرة لهذا السلاح تنطلق مع ارتداد الصوت العنيف الذي يصدرعند الإطلاق . فهم لم يكونوا خائفين من القذائف المنطلقة ، ولا يخشون الموت كثيراً في الحقيقة : وإنما فقط بالأسلوب المهلك للقذيفة الذي كان لا يطاق .

وبدا لي أن ثقتهم أو روحهم المعنوية لن تستعاد سوى بامتلاك المدافع ، سواء كانت نافعة أو عديمة الجدوى ، ولكنها مدوّية ، من جانبهم ، وقد كان الهدف بالنسبة لهم ابتداءً من فيصل العظيم إلى أدنى جندي في الجيش هو الحصول على المدفعية ، المدفعية ، المدفعية .

لذلك فعندما أبلغتهم عن إنزال قطع مدفعية هاوتزر من عيار خمسة بوصات للبر في رابغ ، فقد هللوا لذلك وابتهجوا . وقد أوجدت مثل هذه الأنباء توازناً واطمئناناً في نفسياتهم وأنستهم تراجعهم الأخير في وادي صفرا . إن المدافع ستكون دون فائدة حقيقية لهم : فقد بدا لي ، في الحقيقة ، أنهم سيضرون أنفسهم بذلك ، حيث أن مصلحتهم تكمن في التحرّك والتخطيط ، وبإعطائهم المدافع ، فإننا أعقنا تحركاتهم وفعاليتهم . وإذا لم نعطهم المدافع فإنهم لن يتحرّكوا .

لقد أثّر في ذلك الوضع . فمع وصول قطع المدفعية ، فقد تغيّر الوضع كلياً من منطقة « أم لج » إلى القنفذة ، التي تبعد مسافة أسبوعين سيراً على الجمال . وأصبح الحماس واضحاً لمحاربة تركيا .

ورأيت فيصل فيما بعد ، ووعدته بأن أبذل قصارى جهدي بالنسبة له . وأبلغته بأن رؤسائي سيقيمون قاعدة في ينبع ، حيث ستنزل فيها الإمدادات والمؤن التي كان يحتاجها لاستخدامه الخاص هو وقواته . وسنحاول أن نزوده

بضباط متطوّعين من بين أسرى الحرب من الذين أُسروا في العراق أو في منطقة قناة السويس . وسنقوم بتشكيل طواقم مدفعية وطواقم مدافع رشّاشة من الرتب والكوادر العسكرية المتواجدة في معسكرات الإعتقال ، وتزويدهم بمدافع جبلية ومدافع رشّاشة خفيفة حيث كان ذلك متوفراً في مصر . وأخيراً ، فإنني سأنصح بأن يرسل ضباط من الجيش البريطاني وخاصة المحترفين منهم ، ليقوموا بمهمة المستشارين وضباط إتصال مع فيصل في الميدان .

وكان حديثنا وقتذاك ساراً وودياً جداً ، وانتهى بشكره الحار ، وتقديم دعوة لي بأن أعود إليه بأسرع وقت ممكن . وشرحت له بأن واجباتي في القاهرة تمنعني من القيام بأعمال ميدانية ، إلاّ أنه ربما يسمح لي رؤسائي بأن أقوم بزيارة ثانية فيما بعد ، وذلك عندما تُلبى احتياجاته ومتطلّباته الحالية وأن تحرز قواته تقدّماً مزدهراً في ساحة الحرب . وفي غضون ذلك ، فإنني سأطالب بإقامة المرافق المطلوبة في ينبع ، أما في مصر ، فإنني سأحاول أن أحصل على المتطلّبات اللازمة بنفسي . وقد قام فيصل على الفور بتعيين أربعة عشر شريفاً لمرافقتي في المسير إلى ينبع . وكانوا جميعهم أقرباء لمحمّد علي بن البداوي ، أمير قبيلة جهينة . حيث كانوا مكلّفين بأن يسلموني سليماً في ينبع للشيخ عبدالقادر العبدو ، حاكم البلدة .

(١٦)

غادرنا قرية الحمرا عند حلول الغسق ، ورجعنا نزولاً الى وادي صفرا لغاية مشارف قرية خورما ، حيث استدرنا نحو اليمين الى جانب الوادي وكان الوادي يحتوي على دغل كثيف بالاشجار حيث سرنا بجمالنا من خلاله بشكل شاق ، محاولين تثبيت اكياس سروجنا لنقيها من التمزق باشواك الاشجار . وبعد ان سرنا مسافة ميلين ، بدأنا بصعود ممر ظفران الضيق ، حيث بدا لنا الطريق حتى في الليل على انه طريق مرصوف ومسوى بشكل منظم . فقد كان ممهداً ، وصُفت الحجارة على جانبيه لتشكل حماية ضد تدفق مياه الامطار اليه . وكانت اجزاء منه متدرجة ، ففي بعض الاحيان يبلغ ارتفاع الدرجة من ستة الى ثمانية اقدام ، مبنية من حجارة كبيرة غير مقطعة ؛ الا انها في كل لفة او التفاف كان يبدو عليها خراباً بليغاً من جراء مياه السيول الجارفة .

وربما كان الصعود انتهى بعد مسافة ميل واحد ؛ وكان الانحدار الشاق على الجانب الآخر بنفس المشقة قريباً . ثم بلغنا السهل ووجدنا انفسنا امام شبكة معقدة من الوديان والتي كان جريانها الرئيسي يشير نحو الجنوب الغربي . وكان السير فيها جيداً لجمالنا . وسرنا نحو سبعة اميال في الظلام ووصلنا الى بئر المورا . وفي بطن الوادي الى اسفل كان يوجد جرف ساحق ، حيث بنيت هناك قلعة صغيرة من احجار مربعة لها طريق ضيق ، وقد بناها امير مملوكي مصري لتكون ممراً لقوافل حجيجة القادمة من ينبع .

توقفنا لقضاء الليلة هناك ، ونمنا لمدة ست ساعات ، وكنا قد عسكرنا بخط

طويل على الطريق ، ومع ذلك فان تلك الاستراحة قطعت مرتان من قبل قوافل لمجموعات اكتشفت معسكرنا المؤقت ذلك . وبعد ذلك سرنا بين سلسلة تلال صغيرة لغاية ما بلغنا وديان رملية ناعمة تتخللها تلال من حجارة بركانية محيطة بنا من كل الجوانب . ولم تكن الحجارة البركانية هناك ذات لون ازرق داكن مثل التي كانت تتواجد في الحقول المحيطة برابغ : فقد كان لونها بنياً كلون الصدأ ، وتكونت باحجام ضخمة وتميزت بسطحها المتدلي المائل ، وقد بدت غريبة الشكل بملمسها الناعم . وكانت الرمال ، في البدء ، مثل البساط تبعد حوالي قدم عن الصخور النارية ، وتقترب تدريجياً . وكانت الجبال تنخفض الى اسفل ، والرمال امامها وعلى ضفتيها وتصبح اكبر انجرافاً . هذا وعندما اصبحت الشمس عالية ومستوية وتلدغ بقسوة ، فقد سرنا على كثبان رملية مقفرة ، ممتدة باتجاه الجنوب لعدة اميال نزولاً من الجبل الى اتجاه البحر الضبابي ، حيث امتد من بعيد وبدا بلون رمادي ازرق من جراء الضباب الحراري البعيد . وكانت الكثبان الرملية ضيقة . وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً اصبحنا نسير على سهل من الرمال البلورية المختلطة بالحصى ، والتي انتشرت بين الاشجار الشائكة ، والتي تخللتها اشجار (الاقاقيا) او اشجار الصمغ العربي . وانطلقنا بسرعة كبيرة في ذلك الممر ، وكنت اشعر ببعض التعب ؛ حيث انني لم اكن ماهراً في قيادة الجمال ، وقد أنهكني ذلك السير ، في حين كان العرق يتصبب من جبهتي وينزلق بنعومة على جفني المتشققين من حرارة الشمس . وقد كان العرق مرحباً به الفعل عندما تسقط قطرة منه من نهاية خصلة الشعر ، لتضرب على الخد الحار كرطمة باردة مفاجئة وغير متوقعة ، الا ان تلك الانعاشات كانت تشكل شيئاً ضئيلاً جداً لتخفف من الم وطأة الحر . وخففنا من سيرنا ، عندما اصبحنا نسير على ارض حصوية (من الحصى) ، وامتدت بشكل اقصى الى بطن وادي سحيق ، ونزلنا اسفلاً على سطح ضحل ، في نتوءات متمازجة باتجاه البحر .

واجتزنا مرتفعاً ، وبدا من جهة بعيده منظر واسع مفتوح ، فقد كانت تلك دلتا وادي ينبع ، الوادي الاوسع لجنوبي الحجاز . وبدت لنا ايكة اوغيضة صغيرة

من الاشجار الشائكة والاشجار ذات الاغصان النحيلة . والى اليمين ، على بعد بضعة اميال الى اعلى الوادي ، ظهر لنا بشكل غير واضح ، بساتين نخيل قرية «نخل مبارك» ، وكانت تلك القرية وبساتين عشيرة بني ابراهيم تابعة لقبيلة جهينة . وفي البعد ، امامنا ، ارتفع جبل رضوة ، الذي يشرف على ينبع ، وكان على بعد اكثر من عشرين ميلاً عنا . وقد رأيناه من جبل ستورة ، ذلك انه يعتبر من اضخم جبال الحجاز ، واكثر روعة ، لانه يرتفع بقمة عالية واضحة واحدة من سهل تهامة . وشعر مرافقي بأنهم اصبحوا في موطنهم وحمايته . هذا وعندما اصبحت رمال الصحراء تتراقص امامنا من جراء الحر الذي لا يطاق، فقد اتخذنا موقعاً تحت ظلال اغصان شجر الصمغ الواقعة على جانب الممر ، واخذنا قسطاً من الراحة والنوم الخفيف في منتصف النهار .

وعند العصر قمنا بسقاية جمالنا من حفرة ذات ماء مالح قليلاً موجودة في بطن الودي ويأتي لها الماء من فرع لجدول صغير ، ونحن نتظلل ببعض الشجيرات النحيلة ، ومن ثم انطلقنا بسرور لمدة ساعتين . وتوقفنا اخيراً لقضاء الليل بسهل تهامة المشهور برماله الكثيفة وحصاته وجباله ، ووديانه الضحلة .

وقام الاشراف باشعال النار من حطب عطري لصنع الخبز وغلي القهوة ، ثم نمنا نوماً لطيفا وهواء البحر البارد يلفح وجوهنا . ونهضنا عند الساعة الثانية صباحاً ، واسرعنا بجمالنا فوق سهل لا شكل له يحتوي على حصى قاسية ورمال رطبة نحو ينبع ، التي بدت لنا باسوارها وابراجها المتواجدة على الصخور المرجانية المحاذية للبحر . وسرنا مباشرة من خلال البوابات التي تؤدي الى شوارع متقوضة وخالية ـ فقد كانت ينبع عبارة عن شبه مدينة ، مدينة ميتة منذ ان افتتح الخط الحديدي الحجازي ـ الى منزل عبد القادر ، وكان احد رجالات فيصل ، وهو شخص حسن الاطلاع ، كفوء ، هادئاً ووقوراً ، والذي كنت قد تراسلت معه عندما كان مديراً للبريد في مكة ، من اجل طبع طوابع خاصة للدولة الجديدة في مصر . وكان نقل الى ينبع آنذاك .

مكثت في منزل عبد القادر ، المطل على ساحة مهجورة ، والتي كانت في

يوم من الايام مركزاً لانطلاق القوافل نحو المدينة ، اربعة ايام منتظراً السفينة التي بدت كما لو أنها اخفقت في موعدها معي . ومع ذلك ، واخيراً ، ظهرت السفينة "صوفا" ، مع قبطانها بويل ، الذي ارجعني الى جدة . وكان ذلك لقائي الاول مع بويل . وقد قام بويل بعمل الكثير منذ البدء بقيام الثورة ، وكان عليه ان يقوم بالمزيد والمزيد في المستقبل ؛ الا انني فشلت في ان اصنع انطباعاً جيداً لعودتي . فقد رحلت بصورة مزرية ولم يكن معي امتعة . والاسوأ من ذلك فقد ارتديت غطاءً للرأس مثل سكان البلاد الاصليين . ولم يستسغ بويل ذلك .

ان اصرارنا على وضع القبعة (بسبب سوء فهم لطرق الوقاية من ضربة شمس) قد ادت بالشرقيين ان يروا دلالة فيها ـ وبعد تفكير طويل فان عقولهم الحكيمة توصلت الى ان المسيحيين وضعوا على رؤوسهم شيئاً شائناً ليكون معترضاً ما بين اعينهم الضعيفة ورؤيا الله لهم . ويعتقد الانجليز بأن ذلك يشكل ضرراً ويستحق ان يصحح بأي ثمن . واذا لم يأخذنا الناس مكرهين ، فانهم لا يجب ان يفهموننا على اية حال . وبما انه قد حدث واعتدت في سوريا قبل الحرب ان ارتدي ملابس عربية كاملة عند الضرورة دون حدوث أية غرابة ، أو الشعور بالقيام بتسوية اجتماعية لقاء ذلك . فالثوب (الدشداشة) كانت مزعجة بالنسبة للهرولة على الدرج ، الا ان غطاء الرأس (الكوفية) كان ملائماً ومريحاً تماماً في مثل ذلك المناخ . لذلك فقد قبلت بارتداء هذه الملابس عندما اكون داخل البلاد ، ويجب علي الآن اتشبث بها تحت " نيران البحرية المحتجة ،(بويل) ، لغاية ما يتاح لي ان اشتري قبعة من اي محل كان .

وفي جدة كانت هناك السفينة "يوريالوس" ، ويقودها الادميرال ديميس ، متجهة الى بور سودان ، وكان من المحتمل آنذاك ان يزور السير روزالين السير ريجينالد وينجيت في الخرطوم . وكان السير ريجبنالد ، كونه سرادر الجيش المصري ، قد سُلم مهام الجانب العسكري البريطاني للثورة العربية بدلاً من السير هنري مكماهون ، الذي استمر بادارة الجانب السياسي ، وكان من الضروري ان اراه ، لانقل اليه انطباعاتي . لذلك فقد التمست من أدميرال السفينة بأن يقلني

في تلك الرحلة ، وان يجد لي مكاناً في قطاره المتجه للخرطوم . وقد قام بمنحي ذلك ، بعد ان وجه لي سلسلة طويلة من الاسئلة .

وقد وجدت ان نشاطه وذكائه الواسع قد انخرطا لمصلحة الثورة العربية منذ بدايتها . كان عليه ان يحضر مرة تلو الاخرى بسفينته الحربية ليقدم المساعدة عندما تصبح الاوضاع خطيرة . وقد بلغت عدد رحلاته نحو شواطيء الجزيرة العربية عشرين مرة ليقوم بتقديم المساعدة البحرية . كما انه قام بتوصيل المساعدات العسكرية كقطع المدفعية والمدافع الرشاشة وانزال المعونات والمساعدات الفنية وكوادرها كذلك الى البر ، في رحلات بحرية غير محدودة ، وكان ذلك يشكل له سرور حقيقي ، وأنجز مهامه على اكمل وجه .

وفي بور سودان رأينا اثنان من الضباط البريطانيين في الجيش المصري ينتظران ليستقلا السفينة الى رابغ . كانا مكلفان بقيادة القوات المصرية في الحجاز ، وان يبذلا جهودهما لمساعدة عزيز المصري بتنظيم القوات العربية النظامية ، التي كان عليها ان تنطلق من رابغ لتنهي الحرب . وكانت تلك اول مرة اتقابل بها مع كل من جويس ودافينبورت ، ذلك الانجليزيان اللذان تدين لهما القضية العربية بدور عظيم لهما . وقد عمل جويس معي لمدة طويلة . وبالنسبة لدافينبورت ، فاننا قد سمعنا عن نجاحاته التي حققها في الجنوب .

وكانت الخرطوم اقل حراً من الجزيرة العربية ، وشجعني ذلك لأن أُطلع السير ريجينالد وينجيت على تقاريري المطولة المكتوبة في تلك الايام التي كنت انتظر فيها في ينبع . وقد ابديت له بان الوضع بدا واعداً تماماً . وان الحاجة او المطلب الرئيس كان تقديم المساعدة الماهرة ، وانه يجب ارسال حملة عسكرية يرافقها بعض الضباط البريطانيين ، يكونون اكفاء من الناحية المهنية وان يتكلموا العربية ، ليكونوا عبارة عن مستشارين فنيين للقادة العرب ، وليبقونا على اتصال حقيقي معهم .

وكان وينجيت مسروراً لسماع وجهة نظر متفائلة . فقد كانت الثورة العربية حلماً له لسنوات . وبينما كنت في الخرطوم ، سنحت له فرصة ليقوم بلعب دور

رئيس فيها ؛ حيث ان الامور وصلت لذروتها ضد السير هنري مكماهون ، وكانت ناجحة بالنسبة له ، عندما انتهى الامر باستدعاء مكماهون الى انجلترا . وأمر السير ريجينالد وينجيت بان يذهب الى مصر ليحل محله . لذلك فبعد يومين او ثلاثة ايام من الراحة قضيتها في الخرطوم ، قرأت أثناءها كتاب " قتل آرثر " ، وانا مستريح في قصر الضيافة هناك ، فقد ذهبت الى القاهرة ، شاعراً بنفسي بأنني شخص مسؤول . وكانت الرحلة البحرية عبر نهر النيل عبارة عن اجازة بالنسبة لي .

كان الوضع في مصر منشغلاً بمسألة رابغ ، فقد ارسلت بعض الطائرات الى هناك ؛ وكان يجري بحث فيما اذا كانت سترسل قوات مكونة من لواء فيما بعد ام لا . وكان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جدة ، الكولونيل بريموند (وهو نظير ويلسون ، ولكن كانت له سلطة اكبر ، وذلك لأنه كان له دور بسيط في نجاح الحروب الفرنسية في افريقيا ، وكان ايضاً رئيس اركان سابق للفيالق الفرنسية التي حاربت في معركة السوم) ، يؤيد بقوة انزال قوات للحلفاء في منطقة الحجاز . وليغرينا بذلك فقد قام باحضار بعض قطع المدفعية ، وبعض المدافع الرشاشة ، وبعض قوات المشاة والفرسان ، وجميعهم كانوا من الكوادر والرتب الجزائرية المسلمة ، ومعهم ضباط فرنسيون ، من اجل ارسالهم للحجاز . وباضافة قوات بريطانية لتلك القوات فان ذلك سيعطي انطباعاً بأنها عبارة عن قوات دولية ، حسب اعتقاده .

وقد سيطر موقف بريموند الخادع فيما يتعلق بالخطر الذي كان يتعلق بشؤون الدولة في الجزيرة العربية ، على السير ريجنالد . وكان وينجيت ، الجنرال البريطاني ، الذي كان يعتبر في الوقت ذاته رئيساً اسمياً للبعثة العسكرية البريطانية في الحجاز ، والتي كانت تتألف في الحقيقة من بضعة ضباط اتصال وخبراء تخزين ومدربين . وفيما لو ان بريموند شق طريقه ، فانه كان سيصبح قائداً عاماً للواء حقيقي مكون من قوات بريطانية وفرنسية ويتمتع بكافة المسؤوليات مع ما يتبع ذلك من مزايا وسلطة . وبالنتيجة فقد كان وينجيت شبه ميالاً للتدخل المباشر ، مما دفعه لارسال برقية لحكومته بهذا الصدد .

وطبقاً لخبرتي فيما يتعلق بالشعور او الاحساس العربي بهذا الشأن ، مما منحني اراء قوية بشأن مسألة رابغ (ففي الحقيقة فقد كانت معظم آرائى قوية) ، فقمت بالكتابة للجنرال كلايتون ، المسؤول عن مكتب الشؤون العربية والذي انتقلت اليه رسمياً آنذاك ، مذكرة شديدة اللهجة للموضوع برمته ، وكان كلايتون مسروراً بوجهة نظري من ان القبائل يمكن ان تدافع عن رابغ عدة شهور فيما لو منحوا المشورة والسلاح ، الا انها ستتبعثر وتتراجع الى خيامها ثانية بالتأكيد حالما يسمعون بنزول قوات اجنبية . علاوة على ذلك ، فان خطط التدخل كانت غير مجدية من الناحية الفنية ، حيث ان قوات بحجم لواء ستكون غير كافية تماماً للدفاع عن الموقع ، ولمنع الاتراك من التزود بالماء من المصادر المجاورة ، ولسد الطريق باتجاه مكة . واتهمت الكولونيل بريموند بأنه يكن نوايا وحوافز خاصة به بهذا الصدد ، لا تتضمن استراتيجية عسكرية ، ولم يأخذ بحسبانه المصالح العربية وأهمية الثورة بالنسبة لنا ؛ وقدمت اقتباسات من اقواله وافعاله التي يقوم بها في الحجاز كدليل ضده . مما منح اتهامتي له لوناً مقبولاً .

وأخذ كلايتون مذكرتي الى السير ارشيبالد موراي ، الذي استساغ بدوره قوتها وحجتها ، وقام على الفور بارسالها الى لندن كدليل وبرهان على عدم جدوى التضحية بقوات قيمة في هذا المجال . وطلبت لندن ايضاحات وتفسيرات بهذا الشأن ؛ وتوضح الجو ببطء ، ومع ذلك فقد امتد الجدال حول مسألة رابغ لشهرين آخرين ، اصبحت معها شعبيتي مع ضباط الاركان البريطانيين في مصر ، بسبب المساعدة المفاجأة التي قدمتها لجروحات السيرارشيبالد ، غريبة وسارة بعض الشيء . واصبحوا مؤدبين معي ، واصبحت ملاحظاً ، باسلوبي اللاذع ، وبشخصيتي . وقد اشاروا كم كان الامر جيداً بالنسبة لهم ليوفروني او يخصصونني في الامور الصعبة للقضية العربية . وقد أُرسل في طلبي لمقابلة القائد العام البريطاني هناك ، ولكن وانا في طريقي اليه أُعترضت من قبل ضابط مساعد كان منتظراً ومهتاجاً ، وقادني اولاً لمقابلة رئيس هيئة الاركان الجنرال ليندن بيل . فهل كان الى ذلك الحد قد شعر ان من واجبه ان يدعم السير ارشيبالد

في نزواته ، ذلك ان الناس كانوا ينظرون اليهما على انهما عدوان لدودان . لذلك فقد كنت مندهشاً ، عندما دخلت عليه ، فقد هب واقفاً ، وانحنى للامام ، وامسكني من كتفي ، وهو يقول مستهجناً ، "انك لن تفزع الآن : فلا تنس ما اقوله لك ! " .

وقد اظهرت تعابير وجهي الارتباك والانذهال ، ثم تحول الى انسان لطيف وجعلني اجلس ، وتحدث بلطف عن جامعة ، اكسفورد ، وعن العلامات والدرجات المنخفضة التي حصل عليها هناك وكم كانت مضحكة ، وعن التقارير التي كتبتها عن الاوضاع في معسكر فيصل ، وعن أمله بأنه من الممكن ان اعود لهناك لاتولى ما بدأته بشكل جيد ، خالطاً هذا الود واللطف بملاحظات حول كم كان القائد العام عصبياً ، وعن الحاجة لوجودي هناك لأقدم له تأكيد الصورة للاحداث والمسائل على ارض الواقع ، وليس اعطاء صورة وردية للوضع ، حيث انهم لا يمكنهم تفهم الاوضاع الا بتلك الطريقة .

كنت مسروراً للغاية ، بيني وبين نفسي ، ووعدته بأن اكون جيداً في مهمتي ، الا انني بينت بأن هدفي كان تأمين اسلحة واعتدة اضافية وضباط مساعدين حسب متطلبات العرب ، وكيف انه من اجل تحقيق هذا الهدف ان اجند كل ما فيه المصلحة من اجل نيل استحسان وموافقة القائد العام . عند ذلك قال لي الجنرال ليندن بيل بأن الامدادات كانت من اختصاصه ، وانه بامكانه ان يفعل كل شيء دون الرجوع لأحد ، وانه فكر بانه يمكن ان يقوم بذلك على الفور . وقد صدقت تصميمه الجديد بأن يفعل كل ما بامكانه من اجلنا . واعتقدت بأنه كان صادقاً وعادلاً معنا .

الجزء الثاني

بدء انطلاقة الثورة والهجوم

من فصل ١٧ ـ ٢٧

لقد دهش رؤساي من تلك الاخبار الطيبة عن الثورة ، بل انهم وعدوا بتقديم العون والمساعدة ، وارسلوني في غضون ذلك ، ضد رغبتي ومشيئتي ، الى الجزيرة العربية . فوصلت معسكر فيصل في اليوم الذي اصبح فيه الترك في مركز دفاعي حول جبل «صبح» .

الا ان القبائل لم تكن مهيأة بعد لشن هجوم كبير ، ورأينا بأن نتبع تكيكاً آخراً جديداً . وكان ان خضنا مغامرة خطرة ، وقبل وصول المساعدة البريطانية الموعودة . فتركنا الاحتكاك بالجيش التركي مباشرة ، وركزنا وكثفنا هجومنا على خط السكة الحديد . وكانت الخطوة الاولى هي الانتقال الى الوجه من اجل تحقيق ذلك .

(١٧)

بعد بضعة ايام طلب مني كلايتون ان اعود الى فيصل في الجزيرة العربية . وكان ذلك ضد رغبتي وعللت ذلك بعدم ملائمتي الكاملة لذلك العمل : وقلت بانني اكره المسؤولية ـ فبشكل واضح ان وظيفة المستشار ستكون عملاً مسؤولاً ـ وانه في حياتي كلها ، فان اهدافي كانت اكثر بهجة بالنسبة لي من الا شخاص ، والمباديء اكثر من الاهداف . لذلك فان واجبي بأن انجح مع الرجال ، وان استميلهم الى أي هدف ، سيكون صعباً بالنسبة لي . انها لم تكن وسائلي : فانني لم اكن ممارساً ذلك الاسلوب من قبل . وانني بعكس الجندي ؛ كرهت الجندية . وبالطبع ، فقد قرأت الكتب المألوفة ، مثل أي دارس آخر في جامعة اكسفورد (قرأت كثيراً جداً من الكتب) لمؤلفين مثل كلاوسوتيز وجوميني ، ماهان وفوش ، التي عنيت واهتمت بالخطط والحملات الحربية ؛ الا انني لم اعتبر نفسي قائداً حقيقياً مهياً للقيام بحملته الحربية .

وفوق كل ذلك ، فقد ذكرت كلايتون بأن السردار قد ابرق الى لندن من اجل الموافقة على ارسال ضباط نظاميين معينين واكفاء للاشراف على وتوجيه الحرب العربية . وكان الجواب انه من الممكن ان يستغرق ذلك اشهراً ليصلوا الى هناك ، وفي غضون ذلك فان فيصل يجب ان يكون متصلاً بنا ، وان متطلباته واحتياجاته قد وصلت لمصر . لذلك فقد كان علي ان اذهب تاركاً للآخرين النشرة العربية التي كنت احررها واسستها بنفسي ، والخرئط التي احببت ان ارسمها ، وملف متغيرات الحرب المتعلقة بالجيش التركي ، فجميعها كانت نشاطات ممتعة وكنت متدرباً عليها ، ولأقوم بدور لم اشعر برغبة وميل له . وعندما ستنجح

«ثورتنا» فان المشاهدين سيمتدحون ويصفقون لقيادتها : ولكن وراء الستار تكمن كافة شوائب الاشراف الهاوي ، النشاطات التجريبية ، الانشقاقات ، وغرابة الاطوار .

كانت رحلتي الى ينبع ، التي اصبحت وقتذاك القاعدة الخاصة لجيش فيصل ، الى حيث كان الضابط غارلاند يقوم لوحدة بتدريب القوات العربية على كيفية نسف وتدمير الخطوط الحديدية بالديناميت ، وكيف تقوم بخزن الاعتدة الحربية حسب الطرق المنظمة . وكان النشاط الاول هو الا فضل . فقد كان جارلاند باحثاً في الفيزياء ، وله خبرة ومعرفة عملية لعدة سنوات في امور التفجيرات . وكانت له وسائله واساليبه الخاصة في تلغيم القطارات وتدمير اعمدة التلغراف وتقطيع المعادن ؛ وكانت معرفته باللغة العربية وتحرره من نظريات مدرسة الالغام العادية قد مكنته من تعليم وتدريب فن التدمير للبدو الاميين بطريقة سريعة وجاهزة . وقد اعجب به تلاميذه .

وعلمني بشكل عرضي على طريقة التفجير العالي الشدة . وعالجت نظريات الالغام ، معتبراً ذلك سراً مقدساً ، الا ان جارلاند كان يضع اداة التفجير في جيبه ، ومعها خيط فتيل التفجير ، والصمام وفتيل المفرقعة ، ثم يقفز على جمله بابتهاج ليتجه نحو الحجاز . وكانت صحته سيئة وجعله الطقس هناك مريضاً باستمرار . وسبب له ضعف قلبه ازمات ومشاكل صحية بعد كل نشاط كان يقوم به ، الا انه عالج تلك المتاعب بحرية كما كان يفعل مع ادوات التفجير ، وقاوم المرض لغاية ما فجر اول قطار وقلبه عن خطه ودمر اول كيبل كهربائي في الجزيرة العربية . وتوفي بعد ذلك بوقت قصير .

لقد تغيرت الامور في الحجاز بشكل جيد بعد انقضاء شهر ، من مغادرتي لها . وبعد ان واصل خطته السابقة ، تحرك فيصل الى وادي ينبع ، وكان يحاول ان يجعل مؤخرة جيشه آمنة قبل ان يمضي قدماً ليهاجم ويدمر السكة الحديدية بشكل كبير . وكان اخيه زيد قد تقدم من رابغ ، ليريحه من المتاعب التي كانت تشكله له قبائل حرب المنشقة ، حيث تحرك زيد الى وادي صفرا ، كمساعد

للشريف علي . وكانت القبائل المتقدمة ، المؤيدة لفيصل ، تقوم بالاغارة على خطوط المواصلات التركية الواقعة ما بين المدينة وبئر عباس . وكانوا يرسلون لفيصل في كل يوم قافلة صغيرة من الجمال المستولى عليها اثر كل اشتباك ، او اسرى ، أو فارين من الجيش التركي .

وقد هُزت بلدة رابغ بظهور الطائرات التركية فوقها لأول مرة ، وتبع ذلك وصول اربع طائرات بريطانية ، وعربات مصفحة ، بقيادة الميجور روس ، الذي كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ، وكان قائداً رائعاً فريداً من نوعه . ووصل المزيد من المدافع ، اسبوعاً بعد اسبوع ، لغاية ما اصبح عددها ثلاثة وعشرون مدفعاً ، معظمها من النوع القديم . وكان لدى الشريف علي ثلاثة الاف جندي مشاة عربي ؛ كان الفان منهم نظاميون ، تحت قيادة عزيز المصري . وكان منضم لهم تسعمائة من الهجانة ، وثلاثمائة من القوات المصرية . وكانت القوات العربية قد وعدت بوصول مدفعيين فرنسيين .

وتحرك الشريف عبدالله من مكة ، في الثاني عشر من تشرين الثاني . وبعد اسبوعين كانت قواته تتواجد حيث يجب ان تكون ، في الجنوب ، الشرق ، وشمال شرق المدينة ، قادرة على قطع الامدادات التركية من القصيم والكويت . وكان لدى عبدالله حوالي اربعة الاف رجل ، الا ان قواته لم يكن لديها الا ثلاثة مدافع رشاشة ، وعشرة مدافع جبلية غير فعالة استولي عليها في الطائف ومكة . وبالنتيجة فان قواته لم تكن قوية تماماً لتنفيذ خطته المتقدمة بشن هجوم على المدينة مع شقيقيه علي وفيصل . وكان بامكانه فقط القيام بحصارها ، ولهذا الغرض فقد اقام له موقعاً في "حنيكه" ، وكان مكاناً مهجوراً ، يبعد حوالي ثمانية اميال الى شمال شرق المدينة .

كان امر مستودعات الذخيرة في قاعدة ينبع يعالج بشكل حسن . وقد ترك جارلاند امر تدقيقها والاشراف عليها وتنظيمها لعبد القادر ، حاكم ينبع التابع لفيصل ، الذي كان نظامياً وسريعاً في عمله . وكانت كفاءته تشكل راحة عظيمة لنا ، حيث ان ذلك مكننا من توجيه انتباهنا الى امور اخرى اكثر أهمية . وكان

فيصل ينظم قواته ، المكونه من رجال مختلفين ، في كتائب ، كتقليد غير منظم للنموذج الجديد لجيش عزيز المصري في رابغ . وقام جارلاند بتنظيم الفئات الناسفة ، مدافع الميدان ، المدافع الرشاشة المصلحة ، العربات المدرعة ، الخيالة ، وكان يقوم بتصليحها جميعاً . وكان الشعور العام نشطاً وواثقاً .

ان فيصل ، الذي لم يكن قد تحرك بعد نحو الوجه نظراً لأهميتها ، كان يفكر بالقيام بحملة ضد قبيلة جهينة . في غضون ذلك كان على اتصال مع قبيلة بيلي ، وهي قبيلة كبيرة العدد مركزها في منطقة الوجه ، وقد أمل بأن يحصل على مساندتها . وكان شيخ مشايخها ، سليمان الريفادا ، انتهازياً ، وعدائياً في الحقيقة ؛ حيث ان الاتراك جعلوه باشا وقلدوه وساماً ، الا ان ابن عمه حميد كان مع جيش الشريف ، وكان وقتذاك قد استولى على قافلة لا بأس بها تتكون من سبعين جملاً وهي في طريقها من "العلا" ، وهي محملة بالذخائر والامدادات ، الى الحامية التركية في الوجه . وما ان بدأت ببذل جهودي نحو الشيخ خيف حسين ليقنع فيصل بتنفيذ خطة الاستيلاء على الوجه ، حتى تلقينا انباءً عن كمين لقافلة استطلاع تركية بالقرب من بير ابن حساني . حيث ان فرسانهم وهجانتهم الاستطلاعية توغلت عميقاً الى داخل الجبال ، وان القوات العربية استولت عليهم واسرتهم . لذلك فان الوضع اصبح افضل وافضل بعد ذلك .

(١٨)

لقد بدأت مسيري مع كافل اوضامن رحلتي ، الشريف عبد الكريم البداوي، وهو اخ غير شقيق لمحمد البداوي ، امير قبيلة جهينة، ولكن مما اثار استغرابي ، هو انه كان حبشياً . وقد قالوا لي فيما بعد بأن أمه كانت جارية تزوجها امير القبيلة المسن السابق في أواخر حياته . كان عبد الكريم متوسط القامة، نحيلاً واسوداً ، لكنه لطيف المعشر ، عمره ستة وعشرون عاماً ، مع انه بدا اصغر من عمره وله خصلة شعر رفيعة على ذقنه الحادة . وكان مستاءً ونشطاً ومرحاً . وقد كان يكره الاتراك ، الذين احتقروه للونه (اما العرب فانهم لم يكن لهم شعور مضاد ضد الافارقة سوى الشيء الضئيل ، اما ما كان يثير عدم استساغتهم فهو الجنس الهندي) . وكان عبد الكريم دمثاً وسعيداً معي . ورافقنا معه ثلاثة او اربعة من رجاله ، جميعهم مجهزون جيداً، وقد قمنا برحلة سريعة ، حيث ان عبد الكريم كان هجاناً مشهوراً ، وكان يفخر بأنه يسير بجمله بسرعة ثلاثة اضعاف عن السرعة العادية. وكان الطقس بارداً وغائماً وقتذاك ، وعلى وشك هطول امطار، ومع ذلك فانه لم يكن لدي اعتراض على الرحلة .

وسرنا لنحو ثلاثةساعات متواصلة . ثم توقفنا لنأكل الخبز ونشرب القهوة لغاية غروب الشمس ، في حين كان عبد الكريم يتصارع مع احد رجاله . وعندما اصابه الاعياء جلس على البساط ، ثم اخذوا يرون القصص والنكات ، لغاية ما وصل بهم الأمر لأن ينهضوا ويرقصوا . فقد كان كل شيء حراً طليقاً ، والمزاج جيداً ، ولا شيء يدعو للوقار .

وعندما تابعنا سيرنا لمدة ساعة عند حلول الظلام ، فقد بلغنا نهاية صحراء

تهامة ، واصبحنا نسير على ارض رملية منخفضة تتخللها الصخور . فقبل شهر عندما جئنا من قرية الحمرا ، فقد اجتزنا من الجنوب ، اما الآن فاننا نقطعها ، ذاهبين الى وادي اغيدا ، وهو وادي ضيق ، ملتو او لولبي ، عبارة عن وادي رملي يقع بين الجبال . ولأنه كانت تجري فيه مياه السيول قبل بضعة ايام ، فقد كان السير فيه ثابتاً بالنسبة لجمالنا المحملة ، الا ان النزول اليه كان سحيقاً وكان علينا ان نسير بجمالنا وكأننا نسير على اقدامنا . وهذا الوضع أسرني ، الا انه اغضب عبد الكريم كثيراً . وبعد ساعة من الزمن وصلنا مستجمعاً من مياه الامطار ، فاسرع بمطيته ثانية قدما وقادنا نحو طريق رملية ، حيث انبسطت الارض تحتنا ، ثم وصلنا الى مزارع نخيل مبارك ، وكانت عبارة عن بساتين نخيل رئيسة لقبيلة جهينة .

وما ان اقتربنا حتى رأينا من خلال اشجار النخيل شعل من النيران المضيئة ، في حين كانت تسمع صدى اصوات رجال يصرخون في الظلام ، بينما كانت مجموعات اخرى كبيرة من الرجال تتجه صوب الضجيج لتنضم لرفاقها . وبما اننا سمعنا في ينبع ان مزارع نخل مبارك كانت مهجورة ، لذلك فان تلك الجلبة كانت تعني ان شيئاً غريباً قد حدث ، وربما كانت حركة معادية . فزحفنا بهدوء مجتازين نهاية بستان النخيل وسرنا على طول طريق ضيق يقع ما بين جدران عالية من الطين ، الى نحو مجموعة من البيوت الساكنة . ثم قام عبد الكريم بدفع باب فناء اول بيت على يسارنا ، وادخل الجمال اليه ، واركعها الى الارض بين الجدران بحيث لا يمكن رؤيتها . ثم تناول بندقيته وانسل خارجاً الى الشارع متوجهاً نحو الضجيج ليستكشف ماذا كان يحدث . وانتظرناه هناك ، وكان العرق من جراء رحلتنا يتجفف ببطء في ملابسنا ونحن جالسين في تلك الليلة القارصة ، ونحن نشاهد .

وعاد بعد نصف ساعة ليخبرنا بأن فيصل قد وصل مع هجانته للتو ، وان علينا ان نذهب لننضم اليه هناك . لذلك فقد اخرجنا جمالنا وامتطيناها ؛ ثم سرنا بين خط آخر من البيوت ، وكان يقع على يميننا بستان نخيل . وكانت نهايته

تمتلىء بجمع غفير من العرب مع جمالهم ، مختلطين مع بعضهم بفوضى كبيرة ، وكانوا جميعهم يصرخون بصوت عال . واندفعنا من خلالهم ، ثم نزلنا الى وادي ينبع ، وهو وادي عريض فسيح ، وكان بامكاننا ان نرى شعل النيران من على بعد كبير منه . كما ان ذلك الوادي كان بطنه او ارضه رطبة وندية ، بسبب السيول الضحلة التي جرت فيه قبل يومين ، وقد غطى الطين احجاره ايضاً . ووجدت جمالنا ان الارض كانت منزلقة من تحت اقدامها فبدأت بالتحرك والسير بخوف .

اتيحت لنا فرصة لمشاهدة حشود جيش فيصل ، يملأون الوادي من جميع الجوانب وكانت هناك الاف من نيران الشجر الشائك ، وتجمعت حواليها مجموعات من العرب يحضرون القهوة او يأكلون ، او نائمين وهم ملفحين بعبآتهم مثل الاموات ، مقتربين من بعض بين الجمال . وكان منظر الجمال لا يوصف ، فبعضها كان هابطاً الى الارض، وبعضها مربوطاً بالارض ، وبعضها قادم ، والبعض منها كبير السن يثب على ثلاثة ارجل لينضم اليها ، وبعضها يزمجر من الجوع ،والاهتياج . وكانت الدوريات قد ذهبت خارجاً ، والقوافل قد افرغت حمولاتها ، وكانت هناك عشرات من البغال المصرية تنهق بغضب وهي متواجدة في منتصف الساحة . وشققنا طريقنا وسط ذلك الضجيج والجلبة ، وهناك في بقعة هادئة بمنتصف بطن الوادي وجدنا الشريف (الامير) فيصل . فأوقفنا جمالنا بالقرب منه . وكان فيصل يجلس على البساط ، الذي فرش على احجار الوادي ، بين الشريف شرف ، قائمقام الطائف ، وابن عمه ، ومولود ، الضابط العراقي ، والذي كان يشغل آنذاك مساعده العسكري . وكان يركع امامه سكرتيره وهو يتلقى منه آوامر كتابية يمليها عليه بصوت عال ، وكان يقف فوقه عبداً حاملاً مصباح ليضيء له . وكانت تلك ليلة عديمةً الريح ، والهواء ثقيل ، فالمشعل الذي أُضيء كان ثابتاً لا يحركه شيء .

ورحب بي فيصل بهدوء كعادته ، وابتسامة ، لغاية ما فرغ من انهاء املائه، وبعد ذلك اعتذر على استقبالي المشوش ، واشار الى حراسه بأن يتراجعوا للخلف لاخلاء الجو للتحدث . وما ان تراجعوا للخلف ومعهم الحضور ، حتى

وثب جمل شرس الى المجال المفتوح امامنا ، مزمجراً وهو مندفع . وامسك مولود برأسه ليدفعه الى الخلف ، الا انه بدلاً من ذلك دفعه الجمل جانباً ، وحلت اربطة حمولته المكونه من اكياس تحتوي على تبن ، فتناثرت على الشريف شرف الصامت ، وعلى المصباح ، وعلي . وقال فيصل بهدوء "الحمد لله ، انها لم تكن حمولة من السمنة او اكياس من الذهب" . ومن ثم شرح لي ما حدث من الامور الغير المتوقعة خلال الاربع والعشرين ساعة الاخيرة على جبهة القتال .

فقد انسلت القوات التركية من حول حاجز وعائق القوات العربية المتواجده في وادي صفرا من طريق جانبي في الجبال ، واوقفت تراجعها . وتملك رجال قبيلة حرب ، الذين فوجئوا بوجود الاتراك ، الذعر وفروا ومعهم غنائمهم جماعات وفرادى ، وهم قلقون ليلحقوا بعائلاتهم خوفاً من التهديد التركي . وتقدمت القوات التركية الى الوادي الفارغ واجتازت ممر ضيفران الى بئر سعيد ، حيث كان غالب بيك ، قائدها ، على وشك القاء القبض على الامير زيد وهو نائم في خيمته . ومع ذلك ، فقد حُذر في الوقت المناسب . وبمساعدة الشريف عبد الله ابن ثواب ، وهو قائد قديم من قبيلة حارث ، فقد استطاع الامير زيد ان يشغل قوات العدو لمدة كافية لحين ما حملت بعض الخيم والامتعة على الجمال وسُيرت بعيداً . ومن ثم نجا بنفسه ؛ الا ان قواته اضطرت ان تسير هائمة طيلة الليل باتجاه ينبع .

وبناء على ذلك فان الطريق الى ينبع اصبح مفتوحاً امام الاتراك ، لذلك فقد اسرع فيصل الى هنا ليصل قبل ساعة من وصولنا فقط ، ومعه خمسة الاف رجل ، وذلك ليحمي قاعدته ، ولغاية ما يمكن ترتيب وضع دفاعي ملائم . وقد انهار جهازه التجسسي . فرجال قبيلة حرب ، الذين تولوا أمر ذلك ، فقدوا فطنتهم في الظلام ، فقد كانوا يوردون تقارير واخبار متناقضة من جهة لأخرى حول قوة الاتراك وتحركاتهم ونواياهم . ولم تكن لديه اية فكرة فيما اذا كانوا (لاتراك) سيهاجمون ينبع أو ان يكونوا قانعين بالاستيلاء على الممرات الممتدة من

وادي ينبع الى وادي صفرا في حين يقذفون بغالبية قواتهم الى الساحل باتجاه رابغ ومكة . وسيكون الوضع خطيراً بكلتا الحالتين : وافضل شيء يمكن ان يحدث سيكون اذا ما جلب انتبهاهم وجود فيصل هنا ، ويشغلهم عدة ايام في محاولة الاشتباك مع جيشه في حين سيجري تقوية حامية ينبع . وفي غضون ذلك ، فقد كان الامير فيصل يقوم بتسيير الامور بكل ما يستطيع ، وبسرور تماماً ، لذلك فقد جلست ارضاً استمع الى الاخبار الواردة ؛ او الى الالتماسات والعرائض المقدمة ، او الشكاوي والصعوبات التي تجلب اليه ويقوم هو بحلها وتسويتها بشكل مختصر .

وكان الشريف شرف يجلس الى جانبي وهو منشغلاً بتنظيف اسنانه بالمسواك ، ويتحدث مرة او مرتين كل ساعة ليعيد تأكيد شيء ما ملح . وكان مولود يميل من فوقي في كل مرة ليشير الى فيصل حول تقرير وارد ، بينما كنا نحن نناقش احتمال شن هجوم معاكس على الاتراك .

واستمر ذلك الوضع لغاية ما بعد الساعة الرابعة صباحاً . واصبح الطقس بارداً جداً حيث ان رطوبة الوادي ازدادت من خلال البساط الذي جلسنا عليه ودخلت من خلال ملابسنا الى اجسادنا . وبدأ المعسكر بالهدوء تدريجياً حيث ان الرجال المرهقون ذهبوا مع دوابهم فراداً فراداً ليناموا ؛ وتجمعت غشاوة بيضاء فوقهم من جراء اعمدة الدخان البطيئة الصادرة من المشاعل التي اخذت بالانطفاء . وبرز على الفور من خلفنا ، جبل الرضوة ، وبدا شاهقاً وعالياً اكثر من قبل .

وفرغ فيصل اخيراً من الامور الملحة وتناولنا بعض التمر ، مما اكسبنا بعض الراحة ، ثم استلقينا على البساط الرطب . وعندما كنت متمدداً هناك وانا ارتجف من البرد ، رأيت حراس فيصل يزحفون ويغطونه بعبآتهم برفق ، عندما تأكدوا بأنه كان نائماً .

ونهضنا بعد ساعة وكنا نشعر بالبرد الشديد ، فقد كان الجو بارداً جداً بحيث لم نستطع من الاستمرار بالنوم . وأوقد العبيد النار من جذوع النخيل ليدفئوننا ،

في حين قمت انا وشرف بالبحث عن بعض الطعام والوقود . وكانت الرسل ما تزال ترد من كافة الاتجاهات ومعها الشائعات الشريرة بهجوم وشيك من قبل الاتراك ؛ ولم تكن الامور في المعسكر بعيدة عن الذعر . لذلك فقد قرر فيصل ان نتحرك الى موقع آخر . بسبب ؛ اولاً ، اننا سنغمر بالمياه في ذلك الوادي اذا ما هطلت الامطار ونزلت السيول من الجبال ؛ وثانياً ، لشغل افكار الرجال وازالة القلق من نفوسهم .

وعندما بدأت الطبول بالقرع ، حملت الجمال على الفور وبسرعة . وبعد اعطاء الاشارة الثانية صعد وامتطى كل واحد جمله وانحاز به اما الى اليمين أو الشمال ، تاركين مسافة واسعة ليتاح لفيصل ان يسير بفرسه ، حيث كان شرف على مقربة منه ، ومن ثم علي ، وحامل الراية او اللواء ، وهو رجل رائع من نجد، ووجه كان يشبه وجه الصقر وخصل وجدائل شعره تتدلى على صدغيه . وكان علي يرتدي ملابس مبهرجة ، ويركب جملاً طويلاً . وكان يسير بجانبه جميع الحاشية من الاشراف والشيوخ والحراس ـ وانا نفسي ـ وكنا نسير بعجلة واضطراب . وكان الحرس مكوناً من ثمانمائة رجل في ذلك الصباح .

وسار فيصل بفرسه صعوداً ونزولاً باحثاً عن مكان ليعسكر فيه ، واخيراً توقف الى ابعد جانب من وادي صغير مفتوح يقع الى شمال قرية نخيل مبارك تماماً ؛ حيث كانت بيوت القرية مدفونة او مغمورة بين الاشجار ، ذلك ان بضعة منها فقط يمكن ان ترى من الخارج . وعلى الضفة الجنوبية من ذلك الوادي ، وتحت بعض الهضاب الصخرية الصغيرة ، اقام فيصل خيمتيه الواسعتين . كما كان لشرف خيمته الشخصية ايضاً ؛ وجاء بعض القواد ومكثوا معنا . كما اقام الحراس مرافقهم الخاصة بهم ؛ اما رجال المدفعية المصريين فقد عسكروا في مكان منخفض عن مكاننا ، واقاموا خيمهم بصف جميل متناسق ، ليبدو وضعهم عسكرياً . لذلك فانه في غضون فترة وجيزة كنا مزدحمين في ذلك الموقع ، اذ من الصعب عرض ذلك بالتفصيل .

(١٩)

مكثت هناك يومان ، قضيت معظم اوقاتهما برفقة فيصل ، واكتسبت خبرة عميقة من اسلوب قيادته ، وخاصة في مثل ذلك الوضع ، الذي كان يعاني فيه الرجال من ثقل معنوياتهم بسبب ندرة التقارير الواردة حول تحركات العدو ، ومن انهزام بعض فصائل قبيلة حرب . وكان فيصل يبذل قصارى جهده ليرفع من روحهم المعنوية ، ويحاول ان يعزز الثقة في كل واحد منهم يمكن ان يصل اليه . وكان يتواصل مع كافة الذين كانوا يقفون خارج خيمته وينتظر ويسمع ملاحظاتهم ، وينظر في امورهم ومطالبهم ، وحتى عندما كان يأتي رجال في مجموعات ويبثون همومهم وكربهم في ابيات من الشعر ، وينشدون بها من حولنا في الظلام فقد كان يستمع اليهم دوماً . واذا لم يسوي الامر أو المسألة بنفسه ، فانه كان يستدعي شرف او فايز ليرتبوا الامر كله . فهذا الصبر كان يعتبر درساً وانموذجاً أمثل بالنسبة لي عما عنته القيادة او الزعامة الاصيلة في الجزيرة العربية .

وبدا ضبط النفس عند فيصل عظيماً على نحو متساو . فعندما قدم مرزوق التخيمي ، من عند زيد ليشرح له القصة المخجلة لهزيمتهم ، ضحك له فيصل امام الملأ وارسله لينتظر جانباً ، بينما كان يقابل مشايخ قبيلتي حرب وعقيل الذين كانوا مسؤولين بشكل اساسي عن حدوث الكارثة بسبب اهمالهم . وقد قام بجمعهم وتحدث اليهم بلطف ، معاتباً اياهم على قيامهم بهذا الشيء او ذاك ، او بسبب تسببهم في الخسائر . ومن ثم دعا مرزوق ثانية الى خيمته ثم ارخى ستارة

خيمته : وهي اشارة بأن هناك عمل خاص كان ينبغي ان ينجز . وظننت ان اسم فيصل هو (مضاء او حد السيف الذي يهوي بالضربة القاضية) لذلك فقد خشيت من المشهد ، ولكن بدلاً من ذلك فسح مجالاً او مكاناً لمرزوق على بساطه ، وقال له ، «هيا ! اخبرنا عن المزيد من لياليك ومعجزاتك في المعركة ؛ وامتعنا بذلك». وفوجيء مرزوق ، الذي بدا حسن الطلعة وذكياً ، بذلك الوضع ، ثم بدأ بسرد قصته باسهاب ، وحدثنا عن قتال زيد ، وعن ارهاب ابن ثواب ، وان الحسين الحارثي فقد اوعية قهوته .

كان لدى فيصل في كلامه نبرة موسيقية غنية ، اعتاد ان يستخدمها بعناية للتأثير على رجاله . وكان يتحدث معهم بلهجة قبلية ، ولكن بأسلوب متأن ودقيق ، وكان يختار كلماته وعباراته بعناية . وربما كانت افكاره تتحرك وتسبقَ نطقه بالكلام قليلاً ، كما ان العبارات التي كان يختارها غالباً ما تكون بسيطة ، بحيث تعطي تأثير عاطفي ومخلص . وبدا من الممكن للواحد من خلال استعراض عباراته ، ان يرى الصفاء والروح القوية تشع منها .

كما انه كان في اوقات اخرى مليئاً بروح الدعابة ـ وهو شيء ثابت لحسن نية العربي . فقد قال في احدى الليالي لشيوخ الرفاعة عندما ارسلهم قدماً لاحتلال سهل ذلك الجزء من بير الفجير ، وهي منطقة مليئة بالاشجار والسبخات واماكن تجمع مياه الامطار ، فقد قال لهم بلطف من ان الاتراك سيأتون اليها ، وانه من واجبهم ان يهزموهم وينتصروا عليهم ويمنحوا نصرهم لله ، مضيفاً بأنه سيكون من المستحيل تحقيق ذلك اذا ما استسلموا للنوم . ثم اخذ الرجال المسنون ـ فكبار السن في الجزيرة العربية يطيلون بحث الامر اكثر من الشباب ـ ينخرطون بحديث ممتع ، وبعد ذلك قالوا له ، ان الله سيمنحه النصر تلو النصر ، وانهم دعوا الله ان يطيل في عمره ليحقق عدداً من الانتصارات التي لا مثيل لها . وما كان افضل من ذلك ، انهم ظلوا يراقبون طيلة الليل ، وهم مسلحون بقوة نصحهم وتحذيره لهم . كان مجرى الحياه او روتين الحياة بسيطاً في المعسكر . فقبل بدء يوم جديد كان إمام الجيش يصعد الى قمة تلة صغيرة ثم يؤذن للصلاة بصوت عال وكان

صوته خشناً وقوياً . وكنا نصحو من سباتنا ، سواء الذي كان يصلي منا او لا يصلي . وما ان ينهي الامام آذانه ، حتى يقوم امام فيصل ليؤذن بصوت ناعم وموسيقي وهو يقف امام خيمته . وخلال دقيقة ، يأتي احد خدام فيصل الخمسة الى خيمة شرف وإلي ومعه القهوة الحلوة . فوضع السكر في الفنجان الاول صباحاً كان يعتبر ملائماً في الفجر القارص .

وبعد ساعة او نحو ذلك ، ترفع ستارة خيمة فيصل ؛ ويكون ذلك بمثابة دعوة للمدعوين بالحضور . ويكون متواجد هناك اربعة او خمسة من الحضور ؛ وبعد سماع اخبار الصباح ، تحضر صينية او طبق الفطور . وكان غالباً ما يتكون من تمور وادي ينبع ؛ وفي بعض الاحيان كانت والدة فيصل (الشركسية الاصل) ترسل له صندوقاً او علبة تحتوي على قطع الكيك من مكة . وفي احيان اخرى ، يصنع لنا الخادم هجرس ، بسكويتاً غريباً ، او طعاماً مكوناً من الحبوب على طريقته الخاصة . وبعد تناول الفطور كنا نقوم بشرب القهوة المرة والشاي الحلو ، بينما يكون فيصل منشغلاً باملاء مراسلاته على سكرتيريه . وكان فايز الغصين واحداً منهم ، وكان الامام واحداً آخراً ، وكان ذا وجه حزين ، مشهوراً في الجيش بالمظلة التي كانت توضع على سرج مطيته . وكان نادراً ما يستقبل فيصل احد ما في خيمته تلك ، حيث ان تلك الخيمة كانت مخصصة لاستخدامه الخاص . وكانت تلك عبارة عن خيمة عادية ، تحتوي على سرير ، وعلى بساط كردي جيد وسجادة صلاة شيرازية قديمة الصنع ، كان فيصل يصلي عليها .

وحوالي الساعة الثامنة صباحاً ، كان فيصل يرتدي لباسه الرسمي ويضع خنجره ثم يمشي نحو خيمة الاستقبال والتي كانت مفروشة بشكل مهيب . وكان يجلس في صدر الخيمة ، وكنا نحن نحيط به بشبه دائرة ، والحراس والعبيد يحيطون بالخيمة من جميع الاتجاهات ، ويقومون بخدماتهم على التتابع . ويستمر النشاط حتى ساعة متأخرة من الظهر ، اذا ما دعت الضرورة لذلك ، الى ان يقرر الأمير النهوض ومغادرة الخيمة .

كنا نجتمع نحن ، الذين اعتبرنا كأهل البيت ، مع أي ضيوف آخرين ، في

خيمة الجلوس ؛ ثم يأتي الخادمان هجرس وسالم بصينية الغداء ، وكان يتواجد عليها اطباق متنوعة حسبما كانت تسمح به الظروف . وكان فيصل كثير التدخين، الا انه قليل الاكل جداً ، وقد اعتاد ان يتظاهر بالأكل معنا وهو يجول بملعقته في اطباق الفاصولياء ، العدس ، السبانخ والارز ، وبطبق الحلوى ، لغاية ما يشعر اننا شبعنا تماماً ، عندها كان يشير بيده ، فترفع الصينية على الفور ، ويسرع خدم آخرون ليصبوا الماء على ايدينا خارج الخيمة لنغسلها . وكان احياناً يتواجد ضيوف بدينون ، مثل محمد ابن شفية ، يبدون شكوى مضحكة من وجبات الامير السريعة والشهية ، لذلك فقد كان يحضر لهم طعاماً خاصاً بهم عندما يأتون . وكنا نتحدث قليلاً بعد الغداء ، بينما نشرب فنجانان من القهوة ، ونحتسي كأسان من الشاي الاخضر . ثم في الساعة الثانية من بعد الظهر ترخى ستارة باب خيمة الجلوس ، مشيرة الى ان فيصل يكون نائماً ، او انه يقرأ ، او يقوم بعمل خاص به . وكان بعد ذلك يجلس ثانية في خيمة الاستقبال لغاية ما ينتهي من كل واحد اراد مقابلته . ولم أر عربياً غادر خيمته وهو غير راض أو غضباناً ـ حيث انه كان من عادته ان يرضي الجميع ويحافظ على علاقات طيّبه معهم .

واذا كان هناك وقت بعد التشرف بمقابلته ، فانه كان يتمشى مع اصدقائه ، ويتحدث عن الجياد أو المزروعات ، و ينظر الى الجمال ، او يسأل بعض الناس عن اسماء الاماكن المرئية من بعيد . وكانت تؤدى صلاة المغرب جماعة . وبعدها كان يقابل افراداً من الناس في خيمة الجلوس ، ثم يقوم بوضع خطط الاستطلاعات وعمل الدوريات الليلية بعد حلول الظلام . وتكون وجبة العشاء ما بين الساعة السادسة والسابعة .

ويدعى الجميع من المتواجدين في خيمة القيادة من قبل الخدم ، لتناول طعام العشاء . ويكون العشاء مشابهاً للغداء ، باستثناء طبق كبير مكون من اللحم والارز (المنسف) ، الذي كان يثير شهية الحاضرين . وكنا نجلس صامتين ونحن نشاهد حتى يتم اكل ما في الطبق .

ومع هذه الوجبة كان يومنا ينتهي ، ثم يحضر الخدم صينية عليها اكواب الشاي لقضاء بعض الوقت في احتسائه . ولم يكن فيصل يأوى الى فراشه لغاية وقت متأخر من الليل ، ولم يظهر ابدا في يوم ما رغبته في ان نغادر بسرعة . وكان من عادته في المساء ان يسترخي ما امكنه ذلك ويتجنب القيام بأي عمل . او ان يرسل في طلب بعض الشيوخ المحليين ، في المنطقة التي كان يحط بها ، ليروي له قصص حيه او منطقته ، واحداث قبيلته التاريخية ونسبها ؛ او يقوم شعراء قبليون بالقاء اشعارهم المروية ؛ وهي اشعار تقليدية طويلة ، يتعرض فيها الشاعر لاحداث عن اجيال متعاقبة من قبيلته . وكان فيصل مغرماً جداً بالشعر العربي ، وغالباً ما كان يحكم على جودة القاء الشعر كما يكافيء اصحاب الشعر الافضل . وكان نادراً ما يلعب الشطرنج . واحياناً ، وربما ليفيدني بذلك ، كان يروي القصص عما شاهده في سوريا ، ومقتطفات من التاريخ السري التركي ، او الامور العائلية . فقد تعلمت الكثير من الرجال والتجمعات المتواجدة في الحجاز من خلال الاقوال والقصص والاحاديث التي كانوا يرونها .

(٢٠)

سألني فيصل بصورة مفاجئة فيما اذا كنت راغباً بارتداء الملابس العربية مثله اثناء تواجدي في المعسكر . لقد وجدت ان ذلك افضل من جانبي ، حيث انها كانت ملابس مريحة وفضلا على انها تبقي على الزي العربي موحداً في المعسكر، ويجب علي ان افعل ذلك اضافة الى ان رجال القبائل سيعرفون كيف يتعاملوا معي . فان ارتداء الكاكي في مفهومهم ومن خلال تجربتهم كان يخص الضباط الترك ، الذين يأخذون حذرهم منهم اذا ما قابلوهم . واذا ما ارتديت الملابس او الزي الملكي ، فانهم يتصرفون معي كما لو انني واحد من القواد حقيقة ؛ وانه يمكنني ان ادخل واخرج من خيمة فيصل دون حدوث اية حساسية، التي كان عليه ان يوضحها او يفسرها في كل مرة عندما يكون عنده غرباء او ضيوف .

لقد وافقت على الفور ، بسرور بالغ ؛ حيث كان اللباس الرسمي العسكري بغيضاً عند ركوب الجمال ، او عند الجلوس على الارض، او لقضاء الحاجة على الطريقة العربية ، التي يكون فيها المرء محتشماً واكثر نظافة في الصحراء ، وقد تعلمت ذلك قبل نشوب الحرب . وكان الخادم هجرس مسروراً جداً بذلك ، وبذل قصارى جهده ليظهرني في اللباس العربي الابيض الحربي الرائع والمزخرف ، والمعد لملابس الزفاف ، والذي ارسل لفيصل مؤخراً (هل كان ذلك تلميحاً؟) من قبل عمته في مكة . وقد تمشيت بتلك الملابس الجديدة حول بساتين النخيل المتواجدة في قريتي مبارك وبروقة ، لأعود نفسي على الشعور بارتدائها .

تلك القريتان كانتا صغيرتان تسران بمناظرهما ، بنيت بيوتهما من الطين وتحيط بهما بساتين النخيل . وكانت قرية نخيل مبارك تقع على الشمال ، في حين كانت قرية بروقة تقع الى الجنوب تماماً على جانب وادي شائك . وكانت البيوت صغيرة ، وفي داخل كل بيت ، كانت الجدران من الطين النظيف ، نظيفة جداً وباردة ، وفرشت ارضها بحصيرة او اكثر ، وهاون (مهباج) للقهوة ، وأواني وصواني للطعام . وكانت الطرق مظللة باشجار جيدة النمو . وكان ارتفاع الاسوار الترابية المحيطة بالمناطق المزروعة حوالي خمسين قدماً ، وكان في معظم اجزاءه قد شُكل بشكل مصطنع من فائض التراب الذي أُزيل من حول الاشجار ، ومن بقايا اتربة البيوت ومن الحجارة التي جمعت من الوادي .

وكانت الضفاف مبنية لتحمي المحاصيل من الفيضانات او السيول . حيث ان سيل وادي ينبع كان سيملأ البساتين بمياهه قريباً ، وكانت المصطبات الضيقة مقسمة او مجزئة بسياجات من اغصان النخيل او بواسطة جدران طينية ، تتخللها جداول ضيقة او صغيرة من المياه العذبة تسيل قنوات محيطة بها . وكان كل مدخل بستان يمر من فوق الماء ، وقد بني فوقه جسر من جذوع النخيل ليكون ممراًللدواب والجمال . وكانت لكل مصطبة من الارض الزراعية منفذاً للماء يصل اليها وقد سد بالتراب ، وعندما يراد سقيها فانه يزال ليسيل فيه الماء . وكانت اشجار النخيل مزروعة بصف و شكل منتظم وتولى عناية كبيرة ، حيث كانت تشكل ثمارها المحصول الرئيسي ، كما زرع بينها الشعير ، الفجل ، الكوسا ، الخيار ، التبغ وشجر الحناء . كما ان بعض القرويين في اعلى وادي ينبع كانوا يزرعون بعض اشجار الكرمة .

كان مكوث فيصل في قرية نخل مبارك يمكن ان يكون لوقت قصير حسبما كانت تقتضيه طبيعة الظروف ، لذلك فقد شعرت انه كان من الافضل لي ان اعود الى ينبع ، لافكر بصورة جدية حول دفاعنا البرمائي عن ذلك الميناء ، فالاسطول البريطاني وعد بتقديم كل مساعدة في سبيل ذلك . وقد منحني فيصل جملاً ممتازاً يلائم تلك الرحلة . وسرنا من خلال جبال اغيدا سالكين طريق جديد ، عبر

وادي المصاريح ، وذلك لندرة مرور دوريات تركية من هناك . كان يرافقني بدر بن شفية ، وقطعنا مسافة جيدة استغرقت ستة ساعات ، فبلغنا ينبع قبل الفجر . ولكوني كنت تعباً ومرهقاً بعد ثلاثة ايام شاقة من النوم القليل بين التنبيهات والتحذيرات المستمرة والاحداث المثيرة ، فقد ذهبت مباشرة الى منزل جارلاند الخاوي (فقد كان يعيش على متن سفينة راسية في الميناء) ورحت بنوم عميق على مقعد طويل . ولكن بعد ذلك دُعيت ثانية مع اخبار تقول ان الشريف زيد كان قادماً ، ونزلت الى الاسوار لأرى القوة المنسحبة . كان هناك حوالي ثمانمائة رجل منهم يسيرون بهدوء . وكان زيد نفسه يبدو غير مبال . وما ان دخل البلدة حتى استدار نحو عبد القادر ، حاكم البلدة ، الذي كان يّسير بجانبه ، وصرخ فيه قائلاً ، «لماذا تبدو بلدتك مُخربة ! ينبغي ان ارسل برقية لوالدي ليرسل اربعين بناءً ليصلحوا المباني العامة» . وقد قام بذلك بالفعل . وارسلت انا برقية بدوري الى الكابتن بويل ابلغه فيها بأن ينبع كانت مهددة بشدة ، وقد اجابني بويل على الفور بأن اسطوله سيكون هناك بالوقت المناسب ، ان لم يكن باسرع وقت ممكن . وقد كان هذا الاستعداد كفرصة للعزاء ؛ وجاءت اخبار اسوأ في اليوم التالي . فالاتراك بطرحهم قوات قوية قدماً من بير سعيد بمواجهة قرية نخل مبارك ، كانت سدت وصول تعزيزات لفيصل ، في حين كانت قواته غير مستقرة كذلك . وبعد قتال قصير ، استطاع فيصل كسر الطوق ، وتخلى عن موقعه ، وتراجع الى هنا (الى ينبع) . لقد بدا ان حربنا تدخل مرحلتها النهائية . فتناولت كاميرتي ، والتقطت صورة جميلة من متراس بوابة المدينة للاخوان القادمين . كان فيصل قادماً ومعه حوالي الفين من رجاله ، ولكن لم يكن موجوداً معه رجال قبيلة جهينة . وبدا الأمر كما لو ان خيانة قد وقعت ، وكان هناك فرار حقيقي للقبائل .

ودعيت على الفور الى منزله وسرد لي ما حدث . فقد قدم الاتراك بقوة مؤلفة من ثلاثة كتائب وعدد من قوات المشاة المحمولة على البغال والجمال وكانوا تحت قيادة غالب بيك ، الذي قاد قواته بمهارة عظيمة ، متصرفاً كما لو انه كان تحت عين وانتباه قائد الفيالق . وقد رافق فخري باشا الحملة بشكل خاص ، وكان

دليله ومرشده ورسوله مع العرب دخيل الله القاضي ، قاضي قبيلة جهينة ، ومنافس الشريف محمد علي البداوي ، وكان يعتبر الرجل الثاني في القبيلة من بعده . فقد اجتازت القوات التركية وادي ينبع حتى وصلت الى بساتين نخيل بروقة في مستهل تقدمهم ، وهكذا فقد هددوا طريق المواصلات العربية مع ينبع كما كانوا ايضاً قادرين على قصف قرية نخل مبارك بحرية بقطع مدفعيتهم السبعة التي كانت معهم . ولم يكن فيصل ليفزع من ذلك ، بل انه قام بدفع رجال قبيلة جهينة الى نحو جناحه الايسر لينزلوا الى الوادي الكبير هناك . وابقى على مركز جناحه الايمن بقواته ، ثم ارسل المدفعية المصرية لتأخذ موقع لها في جبل اغيدا ، لتفوت على القوات التركية فرصة الاستيلاء عليه . ومن ثم فتح نيران مدفعي الهاون اللذان كان بحوزته على القوات التركية .

وكان راسم ، وهو ضابط سوري ، الذي كان سابقاً قائدا لبطارية مدفعية تركية ، هو الذي يقوم بالعمل على هذين المدفعين ، وكان يؤدي عملاً رائعاً بهما . وقد ارسلا هذا المدفعان كهبة من مصر . وعلى اية حال ، فقد كانا قديمان لكنهما صالحان للاستخدام ، تماماً ، مثلهما مثل الستين الف بندقية التي زود بها الشريف (حسين) ، القديمة والتي كانت من بقايا حملة او معركة غاليبولي . لذلك فلم يكن لدى راسم بمدفعيته جهازي تسديد ، ولا جهازي تعيين وتقدير المدى ، ولا لوحتي تقدير المدى ، ولا قوة نيران عالية .

وكانت المسافة بينه وبين الهدف نحو ستة الاف ياردة ، الا ان قذائفه كانت من النوع القديم التي تعود الى ايام حرب البوير ، كثيرة الشظايا الخضراء حين انفجارها ، وتكون احياناً قصيرة المدى في الجو ، ومتبددة احياناً . ومع ذلك ، فانه لم يكن بيده حيله سوى ان يبدد ذخيرته ا ذا ما سارت الا مور نحو الاسوأ . لذلك فقد أخذ يطلق قذائفه بسرعة ، وهو يصرخ بفرح ، بذلك الاسلوب الحربي ؛ كما ان رجال القبائل كانواينظرون الى ذلك القائد بفرح عظيم ، وقال احدهم ، «يا الله انها مدافع حقيقة : بضجيجها» . واقسم راسم ان الاتراك كانوا يُقتلون باعداد كبيرة ، مما شحن القوات العربية لتندفع بحماس قدماً .

وسارت الامور بشكل جيد ؛ وتملك فيصل الأمل بأن يحرز نجاحاً حاسماً، ولكن اضطرب جناحه الايسر ، وتوقف ، واخيراً حولوا واداروا ظهورهم للعدو وانسحبوا بشكل صاخب الى ارض المعسكر . واسرع فيصل ، الذي كان يتواجد في الوسط ، بفرسه نحو راسم وصرخ قائلاً بأن رجال قبيلة جهينة قد انسحبوا من المعركة وان عليه ان ينقذ المدفعين . فانسحب راسم مع مجموعته الى وادي اغيدا، حيث كانت طواقم المدفعية المصرية هناك . وتبعه رجال قبال عقيل وعبطان، ورجال ابن شفية ، وحرب وبياشه . وكان بالمؤخرة فيصل ومعه حاشيته، ثم نزلوا جميعاً باتجاه ينبع ، تاركين رجال قبيلة جهينة مع الاتراك في ساحة المعركة .

وعندما كنت لا ازال اسمع بتلك النهاية الحزينة والعن واياه الاخوة الخونة من البدّواي ، كان هناك طرقاً على الباب ، واندفع عبد الكريم من خلال الحراس الى الداخل ، وارتفع الى المنصة التي كان يجلس عليها فيصل ، ثم قبل مقدمة ثوبه (دشداشة) وجلس الى جانبنا . وقال فيصل وهو يحدق به ، «كيف كان ذلك؟» وشرح عبد الكريم فزعهم عندما رأوا انسحاب فيصل المفاجيء . وكيف أنه وهو واخيه ومعهم رجالهم الاشداء قد حاربوا الاتراك طيلة الليل لوحدهم ، دون ان يكون لديهم مدفعية ، لغاية ما اصبح لا يمكن الدفاع عن بساتين النخيل ، وهم ايضاً دفعوا من خلال وادي اغيدا . وان شقيقه ومعه نصف رجال القبيلة ، كانوا في طريقهم لدخول بوابة البلدة . اما الآخرون فقد تراجعوا الى وادي ينبع اجل الحصول على الماء .

وسأله فيصل ، «ولما تراجعتم الى ارض المعسكر الذي كان يقع خلفنا ، اثناء المعركة ؟» فاجاب عبد الكريم «لنأخذ فقط فنجاناً من القهوة ، فقد حاربنا من مطلع الشمس لغاية الغروب : حيث كنا مرهقين وعطشى» . وملنا انا وفيصل الى ا لخلف واخذنا نضحك ؛ ومن ثم ذهبنا لنرى ماذا يمكن فعله لانقاذ البلدة .

كانت الخطوة الاولى سهلة . فقد ارسلنا كافة رجال قبيلة جهينة رجوعاً الى وادي ينبع مع آخرين ليحتشدوا في منطقة «الخيف» ، وأمرناهم ان يبقوا على

ضغط ثابت على خط الاتصالات و المواصلات التركي . وكانوا مكلفين ايضاً بتجريد مجموعات منهم ليقوموا باعمال القنص على جبال اغيدا . فهذا التحول سيشغل الكثير من القوات التركية يستنزفها ، وبذلك فلن يكونوا قادرين على دفع قوات كبيرة الى المدافعين عن ينبع ، الذين تمتعوا ايضاً بموقع جيد . فقد كان موقع البلدة استراتيجياً ، حيث تحيط بها مياه البحر من جانبين ، وهي في موقع يرتفع نحو عشرين قدماً عن سطح البحر . والجانبان الآخران منها يشرفان على امتدادات رمليه منبسطة لعدة اميال ، وامامهما ارض مكشوفة ، ولايوجد بها ماء عذب على اية حال . وسيكون الدفاع عنهما منيعاً بواسطة نيران المدفعية والمدافع الرشاشة .

كانت قطع المدفعية تصل كل دقيقة تقريباً ؛ وبالنسبة لبويل ، وكالمعتاد فان افعاله كان تسبق كلماته ، فقد قام بحشد خمسة سفن حربية الى جانبنا في اقل من اربع وعشرين ساعة . ووضع سفينة رصد (ام - ٣١) ، في نهاية الجزء الجنوبي - الشرقي من الميناء ، حيث كان باستطاعتها ان تصوب نحو التقدم التركي بمدافعها من عيار ستة بوصات . كان قبطانها ، كروكر ، قلقاً جداً على استخدام مثل تلك المدافع . وكانت السفن الاكبر حجماً يمكن ان تطلق مدافعها من فوق البلدة بمدى اطول ، او ان تطلق نيرانها من الجانب الجنوبي للميناء . وكانت كشافات السفينتين «دوفرين» و «ام - ٣١» تضييء السهل المترامي خلف البلدة .

وقد سر العرب بوجود عدد من السفن الحربية في الميناء ، التي كانت مستعدة لتؤدي دورها . وقد منحتنا أمل جيد بحيث لم يعد هناك المزيد من الرعب . ولكن لطمأنتهم اكثر فقد احتاجوا الى بعض انواع الاستحكامات الدفاعية ، الى نمط يعود للقرون الوسطى ؛ حيث انه لم يكن من المستحسن حفر الخنادق ، اما لكون الارض كانت صخرية مرجانية ، او الى انهم لم تكن لديهم تجربة حفر الخنادق ومن الممكن ان لا يمنحهم ذلك ثقة . لذلك فقد قمنا بعمل جدار حجري ، وخلفه جدار حجري آخر ، ثم ملئنا بينهما بالتراب وجعلناه عالياً ليكون على شكل حصن ، وليكون على مستوى تصويب البندقية بالنسبة للمقاتل ، كما ان يكون مانعاً ضد المدافع الجبلية التركية . ووضعنا خارج الجدار

او السور اسلاك شائكة وضعت بين احواض او حاويات تجمع مياه الامطار . ثم وضعت المدافع الرشاشة في زوايا مناسبة جداً ، أُديرت من قبل مدفعيي فيصل النظاميين . اما القوات المصرية ، فانها أُعطيت دوراً في الخطة مثلها مثل أية وحدة عسكرية اخرى ، وكانوا مسرورين بدورهم . وكان جارلاند يعتبر رئيس المهندسين والمستشار الرئيسي في الخطة .

بعد غروب الشمس ساد البلدة الهدوء والتوتر . فقد كان يعم البلدة طيلة النهار الصراخ وطلقات الفرح وصياح العمال وهم يقومون باقامة الجدار الدفاعي، ولكن عندما حل الظلام ، ذهبوا جميعهم ليتناولوا طعامهم ويركنون للراحة . وكل واحد تقريباً في تلك الليلة كان يقظاً . فقد كان هناك تحذير بهجوم وشيك عند الساعة الحادية عشر ليلاً . فمواقعنا الخارجية قد رصدت العدو على بعد ثلاثة اميال من البلدة . وذهب جارلاند ، ومعه المنادي ، ليتجولا من خلال بضعة شوارع ، لمناداة افراد الحامية . وخرج المقاتلون مباشرة وذهبوا الى مواقعهم بسكون تام دون ان يحدثوا جلبة او يطلقوا عيارات نارية . واعطى البحارة المتواجدين في منارة الميناء اشارة تحذير للسفن الحربية الراسية ، التي بدأت كشافاتها مجتمعة بتسليط اضوائها ببطء على السهل بخطوط متقاطعة معقدة ، حيث لابد ان تقطع من هناك القوة المهاجمة . ومع ذلك ، فلم تعط اية اشارة ولم يكن هناك سبب لاطلاق النار .

بعدئذ ، اخبرني الشيخ دخيل الله انه قد ارشد الاتراك ليتجهوا الى اسفل يقتحموا ينبع عند حلول الظلام ، حيث من الممكن ان يفاجئوا جيش فيصل ويقضوا عليه ؛ الا ان الخوف تملكهم وأعجزهم ، بسبب السكون الذي عم المنطقة واضواء السفن الكشافة الآتية من جميع انحاء الميناء ، ومع الخطوط المخيفة للاضواء الكاشفة التي كانت تكشف المنحدر الاجرد الذي كان عليهم ان يجتازوه . لذلك فقد تراجعوا ؛ واعتقدت في تلك الليلة ، ان الاتراك قد خسروا معركتهم . وذهبت الى السفينة «صوفا» ، لأخلد الى الراحة وانام نوماً عميقاً في آخر الأمر . هذا وكنت ممتناً للحصافة والذكاء ، والطريقة التي تم التعامل بها مع الاتراك ، مع انه كان من الممكن ان نحقق انتصاراً رائعاً . وكنت مستعداً بعد ذلك لأن احصل على استراحة لمدة ثمانية ساعات متتالية دون انقطاع .

(٢١)

مـرت الازمة في اليـوم التـالي ؛ فقـد فـشل الاتراك بشكل واضح . وكـان رجال قـبيلة جهينـة نشطون في موقـعهم بجانب وادي ينبع . واصبـحت جهـود جارلاند الهندسـية حول البلدة معبـرة . كـما ان السير ارشيبالد موراي ، الذي ناشـده فـيـصل بأن يقـوم بحـشـودات عـسكرية في سـيناء لمنع وصـول امـدادات وتعـزيزات عـسكرية اخرى للاتراك في المدينة ، قـد اسـتجـاب لذلك وارسل رداً مشجعاً . بذلك تنفس كل واحد الصعداء ، وبعد بضعة ايام غرقت السفن الحربية البريطانية تحت قيادة بويل في البحر ، وقد وعد بويل بعمل حشد آخر من السفن في حال ورود تحذير آخر ؛ وانا بدوري انتهزت الفرصة لاذهب الى رابغ ، حيث قـابلت هناك الكولونيل بريموند ، القائد العظيم الملتحي ورئيس البعثة العسكرية الفـرنسـية ، والجندي الحقـيـقي الوحـيد (الاجنبي) في الحـجاز . وكـان لا يزال مستخدماً كتيبته الفرنسية في منطقة قناة السويس كعامل او محفز لتحريك لواء انجليزي الى رابغ ؛ وحيث انه كـان يساوره الشك في انني كنت اعارض كلية مثل ذلك الأمر ، لذلك فقد بذل جهداً ليحولني عن موقفي .

ومن خلال النقاش الذي تبع ، فقد قلت ان هناك حاجة ملحة لشن هجوم على المدينة ؛ حيث اعتقـدت ، ومعي بقية البريطانيين ، بأن سقـوط المدينة كان يعتبر تمهيداً ضرورياً لأي تقدم آخر للثورة العربية ، ولكنه انتقدني بشكل لاذع ، قائلاً انه ليس امراً حكيماً بالنسبة للعرب بأن يستولوا على المدينة . فمن وجهة نظره ، ان الحركة (الثورة) العربية قد حققت اقصى فائدة من حدوث الثورة في

مكة فحسب ، وان العمليات العسكرية ضد الاتراك كان من الافضل ان تكون دون مساعدة بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد رغب بانزال قوات حليفة في رابغ ، لأنها سوف تخمد حماس القبائل تجاه الثورة وتجعلهم ينظرون اليها بعين الشك . وعندئذ فستكون القوات الاجنبية المدافع الرئيس عنها ، لغاية انتهاء الحرب عندما تهزم تركيا ، حينذاك فان القوى المنتصرة ستنتزع المدينة بموجب معاهدة مع السلطان ، وتحولها للشريف حسين ، مع منح الحجاز حكماً ذاتياً ، وتقديمها كمكفأة له على جهوده .

ولم اشاركه الرأي بذلك ، وبينت له عدم الجدوى من وجود قوة حليفة صغيرة ، وانني اخالف رأيه باختصار . ووضعت كافة ثقلي في سبيل شن هجوم فوري على المدينة ، وكنت نصحت فيصل بالاستيلاء على الوجه ، وذلك من اجل اطالة تهديده لخط السكة الحديدية . وباختصار . كان رأي او وجهة نظري ، ان الثورة العربية لن تبرر وجودها اذا لم يكن لديها الحماس لدفع المقاتلين العرب باتجاه دمشق . كان ذلك غير مرحب به من بريموند ، اذ ان معاهدة سايكس ـ بيكو لعام ١٩١٦ ، بين فرنسا وبريطانيا كانت رسمت من قبل سايكس لتحقيق احتمالية انشاء دويلات عربية مستقلة في دمشق ، حلب والموصل ، اضافة ملحقاتها من المناطق والاقاليم وضعها تحت الاشراف التام غير المقيد لفرنسا . ولم يكن سايكس ولا بيكو يعتقدان بأن الأمر يمكن تحقيقه فعلياً ، ولكنني عرفت بأن الأمر كان ممكناً ، واعتقدت انه بعد ذلك ، ان الثورة العربية النشطة ستمنع حدوث هذا الأمر ـ سواء من قبلنا اومن قبل الآخرين .

وحاول بريموند ان يستخدم مهارته الفنية أو التقنية ، وأكد لي ، وبشرفه العسكري كضابط اركان ، انه بالنسبة لفيصل ، فيما لو غادر ينبع وذهب الى الوجه ، فان ذلك سيعتبر انتحاراً عسكرياً . الا انني لم اجد قوة وتأثير في حججه التي كان يدور ويلف بها علي ؛ وقد عبرت له عن ذلك . وكانت تلك المقابلة غريبة ، ما بين جندي قديم وشاب يرتدي لباساً خيالياً مزخرفاً ، وقد خلفت انطباعاً سيئاً في ذاكرتي . وكان الكولونيل بريموند ، مثله مثل ابناء وطنه ، واقعياً

في الحب ، وفي الحرب . وحتى في حالات الشعر الفرنسي فانه لا سبيل الى تخليصه من اسلوب النثر ، والذي يفهم بالقاء الضوء مباشرة على العقل والفهم، وليس فيه الخيال والغموض ، كما هو الامر بالنسبة لاسلوب الشعر البريطاني : لذلك فان العنصرين (البريطاني والفرنسي) عملا بضعف سوية ، ودون تفاهم . ومع ذلك، فقد احجمت تماماً عن البوح بأي شيء من تلك المحادثة لأي شخص عربي، الا انني ارسلت تفصيلاً كاملاً بهذا الصدد الى الكولونيل ويلسون ، الذي كان سيحضر قريباً ليجتمع بفيصل من اجل مناقشة الهجوم المتوقع على الوجه .

وقبل ان يصل ويلسون ، فان مركز الخطر التركي كان تغير على نحو مفاجيء . فقد رأي فخري باشا انه لا أمل له في الهجوم على ينبع ، او حتى ملاحقه رجال القبائل في منطقة «خيف حسين» . كما انه جرى قصف قواته بشكل عنيف في قرية نخل مبارك من قبل طائرتين بحريتين بريطانيتين ، اللتاز حلقتا بصعوبة فوق الصحراء وقصفتا تجمع العدو في طلعتين ، بالرغم من اطلاق القذائف المضادة عليهما .

ونتيجة لذلك ، فقد قرر التراجع بسرعة الى "بير سعيد" ، تاركاً قوة صغيرة هناك لتتبع رجال قبيلة جهينة ، وتحرك نزولاً الى طريق السلطاني باتجاه رابغ ومعه غالبية قواته . وكانت تلك التغييرات فرضتها دون شك النشاط غير العادي الذي قام به الشريف علي في رابغ . اذ ان علي ما ان سمع بتراجع زيد حتى ارسل له تعزيزات ومدافع ؛ وعندما تراجع فيصل نفسه ، فقد قرر التحرك شمالاً بكامل جيشه ، ليهاجم الاتراك في وادي صفرا وابعادهم عن ينبع . وكان لدى علي حوالي سبعة الاف رجل ؛ وشعر فيصل انه اذا ما تزامن التحرك في نفس الوقت الى جانبه ، فان قوات فخري ستدمر بين الجبال . لذلك فقد ابرق الى شقيقه علي ، مقترحاً عليه ذلك ، وطالباً منه تأخير تحركه لبضعة ايام لغاية ما يكون رجاله مستعدين .

الا ان علياً كان جهز نفسه ولم يتمكن من الانتظار . لذلك فقد دفع فيصل

باخيه زيد الى قرية مسحالي في وادي ينبع ليجري الاستعدادات هناك . وعندما تم ذلك ، فقد ارسل زيد للاستيلاء على "بير سعيد" ، وانجز ذلك بنجاح ومن ثم امر رجال قبيلة جهينة بالمضي قدماً من اجل تقديم الدعم . الا انهم اعترضوا على ذلك ؛ اذ ان ابن البداوي اصبح يغار من قوة فيصل المتنامية بين رجال قبيلته، واراد ان يبقى نفسه على انه شخص لا غنى عنه . وعلى الفور توجه فيصل بجواده الى قرية نخل مبارك ، اقنع رجال قبيلة جهينة في ليلة واحدة بأنه كان زعيمهم . وفي صباح اليوم التالي كانوا جميعهم يتحركون، في حين ذهب فيصل ليحشد رجال قبيلة حرب في ممر طاشا وذلك لاعتراض التراجع التركي من وادي صفرا. وكان لديه حوالي ستة الاف رجل ؛ واذا ما بلغ علي الضفة الجنوبية للوادي ، فان القوات التركية الضعيفة ستكون بين فكي كماشة هناك .

ولسوءالحظ فان ذلك لم يحدث . فعندما كان في تحركه فعلياً فقد سمع اخباراً من علي تقول ، انه بعدما تم الاستيلاء على بير ابن حساني سلمياً ، فقد تضعضع رجاله عند سماع تقارير كاذبة عن حدوث تراجع في موقف قبيلة صبح، فتم التراجع سريعاً وبغير انتظام الى رابغ .

وفي هذا التوقف المشؤوم ، وصل الكولونيل ويلسون الى ينبع لحثنا على القيام بعلمية فورية ضد الوجه . وتم وضع خطة معدلة ، حيث تقرر فيها ان يتقدم فيصل بكامل قواته نحو الوجه مدعوماً بأقصى مساندة بحرية من الاسطول . فهذه القوة ستضمن نجاح الخلية تماماً ، بيد انها ستترك ينبع فارغة دون دفاع . الا ان فيصل لم يكن ليتخذ مثل تلك المخاطرة المميتة . فقد بين انها كانت غير معقولة، ذلك ان القوات التركية بجواره كانت ما تزال متحركة ؛ وان قوات علي كانت متضعضعة ، ومن الغير محتمل حتى ان تدافع عن رابغ ضد هجوم خطير قد يقوم به الاتراك . وبما ان رابغ كانت تعتبر كحصن لمكة ، فانه لو رأى (الامير علي) مثل ذلك يحدث فان لا بد وان يتخلى عن ينبع ويندفع هو ورجاله ليقاتلوا حتى الموت على شاطيء رابغ .

ولأعادة الاطمئنان اليه ، فقد صور له ويلسون وضع القوات في رابغ بأنه

كان قوياً وصحياً . واختبر فيصل اخلاصه بطلبه منه بأن يتعهد له شخصياً بأن تساند قوة بحرية بريطانية حامية رابغ ، وتقاوم هجوم العدو ، اذاما حدث ، لغاية ما يتم الاستيلاء على الوجه . وتدبر ويلسون أمر المساندة البحرية وهو على ظهر السفينة «دوفرين» (التي كنا نتباحث عليها آنذاك) ، وقدم لفيصل باحترام الضمانة المطلوبة : لقد كانت مقامرة حكيمة ، حيث انه بدونها لم يكن فيصل ليتحرك ؛ ويتم ذلك التحول نحو الوجه ، فقد كان ذلك هو الهجوم الوحيد لاظهار قوة العرب ، وآخر فرصة لهم لضمان حصار مقنع للمدينة ، وايضاً لمنع استيلاء القوات التركية على مكة . وبعد بضعة ايام قوى ويلسون من موقفه وذلك بارسال اوامر مباشرة لفيصل من والده الشريف ، ليتحرك نحو الوجه على الفور ، ومعه كل ما يتوفر من قوات .

في غضون ذلك ، ساء الوضع في رابغ ، فالقوات العدوة التي كانت متواجدة في وادي صفرا وعلى طريق السلطاني كانت تقدر بنحو خمسة الاف رجل . وكانت فرع قبيلة حرب في الشمال تزودهم بالمؤنة من بساتين النخيل . وفرع قبيلة حرب في الجنوب ، اولئك الذين كانوا يتبعون حسين مبيرج ، ينتظرون تقدم القوات التركية ليقوموا بالهجوم على مؤخرة القوات العربية . وقُرر خلال اجتماع عقد ما بين ويلسون ، بريموند ، جويس ، روس واخرين ، في رابغ عشية عيد الميلاد ، اقامة موقع صغير بجانب مهبط الطائرات المتواجد على الشاطيء ، قادر على استيعاب مدافع سفينة حربية تدار من قبل المصريين . وكان على فيلق الطيران ورجال البحرية ان يقوموا بذلك خلال ساعات . فالقوات التركية كانت تتقدم خطوة خطوة ، الموقع لم يكن قادراً في وضعه ذاك ان يقاوم كتيبة جيدة التجهيز مدعومة بمدفعية ميدان .

ومع ذلك ، فقد كان فخري باشا بطيئاً جداً في تحركه . فهو لم يجتاز "بير الشيخ" بأية قوة لغاية اواخر شهر كانون الثاني (١٩١٧) ، وبعد سبعة ايام كان ما يزال غير مستعد للهجوم على خريبة ، حيث كان للشريف علي هناك موقع

يتواجد فيه بضعة مئات من الرجال . وكانت دورياته على اطلاع بذلك ، وكان الهجوم التركي متوقعاً يومياً ، ولكنه كان يؤجل بصورة متتابعة .

وفي الحقيقة فان الاتراك كانوا يواجهون مصاعب غير متوقعة او محسوبة . فقد كانت قيادتهم تواجه نسبة كبيرة من الرجال المرضى ، وازدياد ضعف الدواب لديهم ، سواءً من كثرة تحميلها او من نقص العلف لاطعامها . كما ان نشاط رجال القبائل خلفهم كان يقلقهم ويشوشهم . فمن الممكن احيانا ان تنسحب قبائل من الصف العربي ، الا انهم مع ذلك لا يصبحون ملتزمين بشيء تجاه الاتراك ، الذين سرعان ما يجدون انفسهم بانهم في بلد معاد . والغارات القبلية التي شنت عليهم خلال الاسبوعين الاولين من شهر كانونَ الثاني سببت لهم خسائر يومية لنحو اربعين جملاً وعشرين قتيلاً وجريحاً ، مع استنزاف المؤن والذخيرة .

وكانت تلك الغارات تحدث في أي موقع او نقطة ممتدة من عشرة اميال باتجاه البحر نحو المدينة والى نحو سبعين ميلاً من خلال الجبال . لذلك فقد كانت تواجه القوات التركية ، التي كان نصف تجهيزها من العتاد الالماني ، مشاكل جمة ، وخاصة مع عدم وجود طرق مواصلات ممهدة ، كما انه كان عليهم ان يتقدموا من خلال العداء المحيط بهم من كل جانب .

لقد كان الوضع غير واعد بالنسبة للقوات التركية ، ذلك ان فخري باشا كان نصف مسرور ، عندما غيرت التحركات المفاجئة لقوات عبدالله وفيصل في الايام الاخيرة لعام ١٩١٦ ، المفهوم الاستراتيجي للحرب في منطقة الحجاز ، وعجلت في مجريات الحرب ، أو في الاسراع بها (بعد الثامن عشر من كانون الثاني ١٩١٧) راجعاً عن طريق السلطاني وفارا ، وسالكاً وادي صفرا ، ليقيم خط دفاعي على مقربة من اسوار المدينة ؛ ذلك الخط الذي ثبت لغاية ما وضعت الهدنة نهاية للحرب ، واجبرت تركيا على تسليم المدينة (المنورة) وحاميتها العاجزة .

(٢٢)

كان فيصل رجلاً عاملاً بشكل رائع ، يقوم بالعمل بكل جوانحه عندما يكون مقتنعاً به . وقد حافظ على كلمته ووعده بأن يتوجه الى الوجه ؛ لذلك فقد سرت انا وهو سوياً في اليوم الاول من السنة الجديدة على اعتبار ما عنى هذا التحرك بالنسبة لنا وللترك . وسرنا تحيط من حولنا الى وادي ينبع بساتين النخيل الممتدة عدة اميال ، وكنا نتظلل بجذوعها من الشمس والمطر ، او حتى نستخدمها كطعام للجمال . وكان عدد رجالنا نحو ستة الاف رجل يتحلقون حول مواقد النيران والتي كان تتواجد عليها دلال القهوة ، عندما كانوا يأخذون قسطاً من الراحة ، وهم جالسون على الارض الحجرية دون اكتراث ، لان طبيعتهم او تكوينهم الجسدي جعلهم مؤهلين لذلك ، كانوا هادئين بل واثقين من انفسهم . وبالرغم من ان بعضهم من الذين خدموا فيصل منذ ستة اشهر أو اكثر ، قد فقدوا حراره الحماس الاصلي لديهم ، الامر الذي اثارني عندما كنا في قرية الحمرا ؛ الا انهم اكتسبوا التجربة وظلو محتفظين بقوتهم واصبحوا اكثر أهمية بالنسبة لنا . فاصبحت وطنيتهم الآن اكثر وعياً ؛ واصبح حضورهم منتظماً اكثر ، وذلك كلما زاد بعدهم عن مسقط رأسهم أو بيوتهم وعائلاتهم ، ولكن الاستقلال القبلي كان لايزال محافظاً عليه ؛ الا انهم حققوا روتيناً لطيفاً سواء في المعسكر او اثناء السير والتحرك . وعندما حضر الشريف اصطفوا في صف طويل وأدوا له التحية العسكرية . ولم يكونوا يزيتون او يشحمون بنادقهم ، فقد كانوا يخشون

ان تلتصق بها الرمال ، كما كانوا يقولون ، ولم يكن لديهم زيتاً ايضاً ، وكان من الافضل لهم ان يمسحوها ؛ الا انهم كانوا يحافظون على سلاحهم ، وكان باستطاعة البعض منهم ان يطلق النار الى مدى بعيد .

ولم يكونوا منتظمين في حشوداتهم ، حيث انه لم تكن لديهم روح التعاون ، او الانضباط اوالثقة المشتركة . وكلما كان تشكيل او تكوين الوحدة صغيراً كلما كان ادائها افضل ، وكان هناك الف منهم عبارة عن رعاع ، غير فعالين حتى ضد سرية تركية مدربة ، الا ان ثلاثة أو اربعة مقاتلين عرب يتواجدون على الجبال فبامكانهم ايقاف عشرة مقاتلين اتراك . وقد لاحظ نابليون بونابرت ذلك ، عندما غزا مصر ، على مقاتلي المماليك . وكنا مع ذلك تلهث لنحول ممارستنا السريعة الى مبدأ : فقد كان تكتيكنا تجريبياً منتزعاً بالوسائل الاولى لتجنب الصعوبة . الا اننا كنا نتعلم مثل رجالنا .

ومنذ معركة نخل مبارك فقد اهملنا وضع ترتيب الكتيبة او الوحدة المصرية وجعلناها غير منتظمة . وحولنا الضباط والجنود المصريين الى وحدة اخرى ، بعد تحويل اسلحتهم ومعداتهم الى راسم ، مدفعي فيصل ، والى عبد الله الدليمي ضابط مدفعه الرشاش . فقاما بتشكيل سرايا مقاتلة عربية ، مكونة من سوريين وعراقيين ، من الضباط المدربيين الذين فروا من الجيش التركي . وقد اقتطع مولود ، المعاون العسكري خمسين بغلاً من وحدتي وضع عليها خمسون مقاتلاً متدرباً ، وقال لهم بأنهم اصبحوا فرساناً . فقد وكان ضابطاً صارماً ، وولد ليكون ضابطاً ، وبواسطة تدريباته الشاقة جعل من الرجال الذين لا يتقنون ركوب البغال جنوداً اكفاء مطيعين بشكل فوري وقادرين على شن هجوم نظامي ، كانوا عبارة عن معجزات بين صفوف المقاتلين العرب . وابرقنا بطلب خمسين بغلاً اضافياً وذلك لمضاعفة قوة المشاه المحمولة ، حيث ان أهمية مثل تلك الوحدة الشديدة من اجل القيام بعمليات الاستطلاع كانت واضحة وملحة .

كانت خطوة فيصل بأخذ كامل قبيلة جهينة معه الى الوجه ، مضيفاً اليهم اعداد كافية من رجال قبائل حرب وبيلي وعتيبة وعقيل توحي بأن يضم الحشد

العديد من الشخصيات القبلية ، وقد اردنا من هذه المسيرة ، والتي ستكون في طريقها عملاً وثيقاً بالحرب في جنوبي الحجاز ، ولنشر الشائعات في طول الجزء العربي للجزيرة العربية وعرضه . وكانت اكبر عملية للعرب في ذاكرتهم ؛ مبعدين عنها اولئك الذين كانوا يتعصبون لبيوتهم ومناطقهم ، لاشعارهم بأن العالم قد تغير في الحقيقة ، لذلك فانه لن يكون هنالك المزيد من الهروبات والفرارات السخيفة والغيرة القبلية من خلف ظهورنا في المستقبل ، ليعيقنا ويعوقنا في مشاكل ومسائل عائلية عندما نكون في ساحة القتال .

وبذلك لم نكن نتوقع معارضة فورية ، وقد اقلقنا انفسنا بان اخذنامعنا هذا الحشد الغير طيع الى الوجه ، بالرغم من التجربة في هذا الصدد ، وذلك لانه لن يكون هناك قتال حقيقي بالفعل . فقد كانت لدينا تخمينات غير ملموسة من جانبنا . ففي المقام الاول ، فان الاتراك قد انهمكوا انذاك في حشد قوتهم الاضافية للهجوم على رابغ ، أو بدلاً من ذلك توسيع منطقة سيطرتهم ، وذلك لكي يهاجموا رابغ . وسيستغرق ذلك منهم اياماً ليتحولوا راجعين الى الشمال . عندئذ سيكون الاتراك اغبياء ، وسنعتمد على عدم سماعهم او علمهم بتحركنا وعلى عدم تصديقهم ذلك للوهلة الاولى ، ولايبحثون الخيارات في خططهم ألا لغاية وقت متأخر ، واذا ما اكملنا مسيرنا في ثلاثة اسابيع فانه من المحتمل ان نستولي على حامية الوجه التركية على حين غرة . واخيراً كان من الممكن ان نطور عمليات الغزو لقبيلة حرب الى عمليات واعية وذلك بأخذ الغنائم بعد القيام بالغارات على بعض القوات التركية ، اذا امكن ، وذلك لكي يكون دعماً ذاتياً ، ولكن بصورة رئيسية لجعل اكبر عدد من المواقع التركية تأخذ مواقع دفاعية وليس هجومية . ووافق الامير زيد ان يذهب الى رابغ لينظم عمليات الكر والفر في مؤخرة القوات التركية ، وقد اعطيته رسالة الى قبطان السفينة دوفرين ، سفينة حراسه ينبع ، حيث سيضمن له ممراً سريعاً بواسطة كشافات سفينة ، اذ انه كل الذي ماعرفه عن خطة الاستيلاء على الوجه قد جعله متلهفاً لتقديم المساعدة .

وللتدريب ولكي يكون لي باعاً في فن الاغارة فقد اخذت مجموعة من عشيرة المحاميد من نخل مبارك ، في اليوم الثاني من عام ١٩١٧ . وعندما حل الظلام ترجلنا عن جمالنا ، وتركناها مع عشرة من الحراس ليقوموا بحراستها ضد هجوم دورية تركية محتمل . وتسلقنا بقيتنا جبل ظفران ، وهو تسلق مزعج ومؤلم ، حيث ان سفوح الجبال هناك كانت حادة كالسكاكين ، الا انه كان يتواجد بها فجوات ولكنها قابلة للتكسر بسرعة .

وكانت قمة جبل ظفران باردة ورطبة ، ومكثنا فوقه لغاية الفجر ، ثم بعثرنا انفسنا على صخور الجبل ، ورأينا اخيراً مجموعة من الخيام تبعد حوالي ثلاثمائة ياردة الى اليمين من اسلفنا ، خلف الجبل ، ولم يكن بامكاننا ان نحصل على منظر كامل للموقع لذلك فقد قمنا باطلاق النار على رؤرسهم ، فاسرعت مجموعة من الاتراك ، الذين كانوا في الموقع مذعورة للاختباء في خنادقهم وقد كانوا اهدافاً سريعة جداً ، ومن المحتمل انهم عانوا قليلاً ، وبالمقابل فانهم فتحوا النار بصورة عشوائية في كل الاتجاهات وعملوا جلبة مفزعة كما لو انهم كانوا يعطون اشارة للقوة التركية المتوجدة في قرية الحمرا لتقوم بمساعدتهم . وبما ان القوات العدوة كانت تتألف من نحو عشرة افراد فان قدوم تعزيزات اليها كان سيمنعنا من التراجع والانسحاب . لذلك فقد تراجعنا بروية لغاية ما تمكنا من الاندفاع اسفلاً الى اول الوادي حيث انقضضنا على اثنين من الجنود الاتراك الذين كانوا يؤودن تمارينهم الصباحية وقدناهم امامنا ، فقد كان من الممكن ان نستفيد من معلومات لديهما .

كان فيصل لايزال برماً من تخليه عن ينبع ، القاعدة التي لاغنى عنها بالنسبة له ، والميناء الثاني للحجاز . وعندما اخذنا بوضع خطط ووسائل اضافية لمنع الاتراك من احتلالها ، تذكرنا فجأة الشريف (الامير) عبدالله المتواجد في "حنيكة" ، فقد كان لديه خمسة الاف مقاتل غير نظامي وبضعة مدافع ميدان ومدافع رشاشة ، وشهرته ونجاحه بحصار الطائف ، وبدا لنا انه من المخجل ان نتركه يضيع الوقت وسط البادية المقفرة . وكانت الفكرة الاولى هي انه من الممكن ان يتحرك الى منطقة خيبر ليهدد خط السكة الحديدية في جنوب المدينة ،

الا ان فيصل حسن خطتي او وسعها ، بتذكرة وادي العيص ، وهو الوادي الشهير بينابيعه وقرى النخيل فيه ، المتدفقة من خلال جبال جهينة المنيعة ، ويمر من خلف جبل الرضوة في اتجاه الشرق الى وادي حمده بالقرب من الحدية . ويقع ذلك الوادي على مسافة مائة كيلومتر الى شمال المدينة ، ويشكل تهديد مباشر لخطوط مواصلات فخري باشا الحديدية مع دمشق . ويمكن للشريف عبدالله ان يبقى على حصار منظم للمدينة من الشرق ضد القوافل القادمة من الخليج (الفارسي) العربي .

وهو ايضاً يقع بالقرب من ينبع ، حيث من الممكن ان يزوده هناك بالذخيرة والمؤن وكان ذلك الاقتراح عبارة عن الهام بشكل واضح ، وقد ارسلنا رجا الخلوي في الحال ليخبر عبدالله بذلك . وبعد ان تأكدنا تبني فيصل لتلك الخطة قمنا بعد ذلك بحثه للتحرك من وادي ينبع باتجاه الشمال كخطوة اولى نحو الوجه، دون الانتظار لتلقي الرد من الشريف عبدالله .

(٢٣)

وافق فيصل على ذلك وسلكنا طريقاً عالياً واسعاً من خلال وادي المصاريح، الى «العويص» ، وكانت عبارة عن مجموعة من الآبار تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً عن شمال ينبع . كان منظر الجبال جميلاً ، فامطار شهر كانون الاول كانت وافرة ، والشمس الدافئة التي أتت بعدها جعلت الارض تبدو وكأنها ربيعية ، لذلك فقد نبتت الاعشاب الرفيعة في الاماكن المستوية والتجاويف . وظهرت الاعشاب والنباتات من بين الاحجار ، واذا ما أومأ الواحد من على سرجه ونظر الى اسفل ، فانه لم يكن ليرى لوناً جديداً للارض ؛ ولكن اذا ما نظر للامام من عن بعد فانه يمكنه ان يشعر بالنداوة الحية للعشب الاخضر الشاحب هنا وهناك على سطح الصخور الارجوانية والاردوازية (ازرق شاحب او رمادي) وفي اماكن اخرى فقد نما العشب بغزارة مما اتاح فرصة ثمنية لجمالنا بان تقوم بجزه .

وجاءت اشارة البدء بالتحرك ، ولكن الينا والى رجال قبيلة عقيل فقط . اما الوحدات الاخرى من الجيش فقد كانت واقفة بجانب جمالها ، واصطفت على جانب طريقنا . وعندما مر فيصل بالقرب منها ادت له التحية بسكون . ورد عليهم بسرور قائلاً " السلام عليكم " ، ورد عليه كل شيخ قبيلة بالسلام ، وعندما مررنا امتطوا جميعهم جمالهم ، وهكذا فقد سار من خلفنا خط طويل من الرجال والجمال سائرين على طول الممر الضيق الذي سلكناه .

كانت تحيات فيصل هي الصوت الوحيد الصادر قبل ان نبلغ ذروة أو آخر

الممر حيث اصبح الوادي مفتوحاً امامنا ، واصبحت الارض من تحتنا ملساء وناعمة . ولكن كان يتواجد هناك ابن دخيل شيخ قبيلة الرس العتيد الذي حفز قبيلة عقيل لمساعدة تركيا قبل سنتين ، ومن ثم دفعها معه لمؤازرة الشريف حسين عندما قامت الثورة . فتبع هو ورجاله رتلنا وجعل الطبول تضرب ، وكان كل واحد منهم ينشد بصوت عال تحية للامير فيصل وعائلته .

اصبح الركب رائعاً وملوناً فقد كان في المقدمة الامير فيصل بلباسه الابيض، ومن ثم الشريف شرف يسير عن يمينه بكوفيته الحمراء وعباءته الصفراء. وأنا عن يساره بلباسي الابيض والقرمزي ، وكان يسير خلفنا حاملي الرايات وخلفهم حاملي الطبول وهم يضربون عليها ، وخلفهم حشد او طابور طويل من الهجانة ، فقد كان الرجال يرتدون الواناً متنوعة وهم يسيرون على جمالهم المزينة بالوان بهية . وملئنا الوادي حتى ضفتيه بتدفقنا البهي .

وعند مدخل وادي المصاريح حضر رسول ومعه رسائل لفيصل من عبد القادر ، حاكم ينبع . كان من بينها رسالة لي صادرة من السفينة دوفرين قبل ثلاثة ايام ، جاء فيها انه لن يسمح لزيد بأن يصعد اليها لغاية ما احضر لهناك واشرح لهم الوضع بالتفصيل . وكانت السفينة تتواجد حينذاك في «الشرم» ، وهو مكان يبعد ثمانية اميال عن الميناء ، حيث يمكن لضباط السفينة ان يلعبوا الكركيت على الشاطىء دون مضايقة هناك . وبالطبع فقد انقطعت اخبارنا عنهم ولم يكونوا على علم بتحركاتنا .

وكان علي على مايبدو ان ارجع لهناك وأسوي الامور . وارسل معي فيصل بعض الرجال من قبيلة عقيل . واسرعنا عائدين الى ينبع ، ووصلت الى هناك بعد ثلاث ساعات . فقد اعطاني فيصل ناقة سريعة (وكانت هدية من امير نجد الى والده) ، كانت دابة رائعة جداً وعنيفة لم امتطي مثلها من قبل ، وقد نفقت فيما بعد على طريق العقبة ، بسبب شدة التعب و مرض الجرب الذي اصابها .

وعندما وصلت ينبع لم تكن الامور كما توقعت . فقد صعد زيد على

السفينة دوفرين التي كانت بدأت تتجه نحو رابغ ، لذلك فقد جلست لأخمن ما كنا بحاجة اليه من مساعدة الاسطول لنا في سيرنا نحو الوجه ، ولتخمين وسائل النقل التي نحتاجها . فقد وعد فيصل ان ينتظر عند واحة (وجه العيص) لغاية مايتلقى تقريراً مني بأن كل شيء كان جاهزاً .

كانت المسألة الاولى هي النزاع مابين القوتين المدنية والعسكرية ، فعبد القادر الحاكم المزاجي لينبع ، اضطرب في واجباته ومسؤولياته وذلك مع ازدياد حجم قاعدتنا العسكرية هناك ، لغاية ماأوكل اليه فيصل آمرية الشؤون العسكرية هناك ، وأوكل الى توفيق بيك وهو سوري من حمص ، أمر العناية بمستودعات الصيانة ، ولسوء الحظ فانه لم يكن هناك مأمور أوفني ليصُرف عمل ورشات او مستودعات الصيانة . وفي ذلك الصباح فقد اختلفا وتنازعا حول تفريغ صناديق الاسلحة من المستودعات . فأقفل عبد القادر المستودع وذهب لتناول الغداء ، وحضر نوفيق الي موقع المستودع على رصيف الميناء ومعه مدفع رشاش ومطرقة وكسر باب المستودع ، وذهب عبد القادر بدوره الى الزورق اسبيغل الراسي في الميناء وصعد اليه و قال لقبطانه ان قد قدم ليمكث فيه ، واحضر له خادمه الطعام من البر ، ونام تلك الليلة على سرير عسكري موجود على ظهر المركب .

كنت اريد الإسراع في حل الامر لذلك فقد بدأت بحل المعضلة ، وذلك بجعل عبد الكريم يكتب لفيصل عن قرراه وان يجعل توفيق يسلم المستودع لي . واحضرنا سفينة ترولة الى جانب مركب شراعي ، وذلك حتى يمكن لعبد القادر ان يوافق على تحميل الصناديق اليها . و اخيراً سمح لتوفيق بأن يصعد على زورق الحراسة اسبيغل من اجل ايجاد حل مؤقت ، وقد ادى توفيق التحية لحرس الزورق عند مدخله ، وابتهج وجهه وقال ، «هذه السفينة (الزورق) اسرتني في قورنا» ، وكان يشير بذلك الى اشتباك حدث بين هذا الزورق مع زورق حربي تركي يدعى "مرماريس" ، حيث اغرق من قبل من الزورق اسبيغل في نهر دجلة ، وتأثر عبد القادر بالأمر مثل توفيق وتوقف النزاع عندئذ .

وحضر شرف الى ينبع في اليوم التالي ليحل محل فيصل كأمير لها . وكان

رجلاً قوياً ، وربما كان اكثر قدرة من جميع الاشراف في الجيش ، الا انه كان مجرداً من الطموح ؛ وكان يعمل بدافع الواجب وليس بدافع الحافز ، وكان ثرياً وتسلم لعدة سنوات منصب قاضي القضاه في بلاط الشريف حسين ، وكان يعرف ويعالج مسائل رجال القبائل أفضل من أي واحد آخر . وكانوا يخشونه ، حيث انه كان شديداً ونزيهاً ، وظهر على وجهه الصلابة والقوة ، وقد وجدت العمل جيداً معه ، حيث كانت افكاره نظيفة ، وكان حكيماً ولطيفاً وتنطبع على وجهه ابتسامة لطيفة .

وقد اتفقنا على خطورة وقوع بلدة ينبع في ايدي الاتراك ، في حين انه لابد من الاستيلاء على الوجه ، وانه سيكون من الحكمة ان يجري تفريغ المستودعات . وأتاح لي بويل فرصة باشارته انه قد يوفر اما السفينة دوفرين او هاردينغ للقيام بعمليات النقل ، ورديت عليه بأنه بما ان المصاعب كانت كبيرة وشديدة فانني افضل السفينة هاردينغ ، فقد كانت سفينة لنقل القوات فسطحها او ظهرها منخفضاً وفسيحاً ويقترب من مستوى سطح المرسى . وسيتم فتح بوابتها لنا ، ثم نقوم مباشرة بنقل ثمانية الاف بندقية ، وثلاثة ملايين طلقة ذخيرة معبأة في صناديق ، والاف من القذائف ، وكميات من الارز والطحين وعتاد والبسة عسكرية ، ومواد متفجرة وكل كميات محروقاتنا وغيرها . وستوضع فيها بشكل عشوائي دون ترتيب كما توضع الرسائل في صندوق البريد ، ويمكن ان تستوعب كل ذلك في وقت لايذكر .

وجاء بويل باخبار سارة ، فقد وعد بأن تقوم السفينة هاردينغ التي كانت تعتبر كسفينة مستودع عائمة بأن تقوم بأنزال الاطعمة والماء اينما كانت الحاجة اليها الى البر ، وهذا يحل المشكلة الرئيسية . فالاسطول البريطاني كان يتجمع آنذاك . وسيحضر نصف الاسطول البريطاني في البحر الاحمر ، وكان ادميرال الاسطول قد وضع السفن الحربية في حالة تأهب .

وأملت بيني وبين نفسي ، بان لا يكون هناك قتالاً حقيقياً . فقد كان لدى فيصل حوالي عشرة الاف رجل كانوا كافين بأن يملأوا جميع مناطق قبيلة البيلي

بقوات مسلحة وان يوقفوا كل شئ مهما كان وزنه أو ثقله . وقد عرف رجال قبيلة البيلي ذلك ، لذلك فقد اظهورا وابدوا ولائهم للشريف انذاك ، وتحولوا تماماً نحو الحركة او الثورة العربية .

كان من الموكد باننا سنستولي على وجه ، ولكن كان الخوف من ان يهلك عدد من ضيوف فيصل في الطريق من جراء الجوع اوالعطش . وكان التزويد بالمؤن من مسؤولياتي وعملي ، ومع ذلك فان اهالي بلدة ام لج ، الواقعة في منتصف الطريق ، كانوا ودودين ، ولم يحدث أي شى مأساوي ، لذلك فقد ارسلنا رسالة مختصرة لفيصل بأن كل شئ كان جاهزاً ، ثم غادر بعدها "وجه العويص" ، في نفس اليوم الذي اجاب فيه عبدالله بترحيبه بالتوجه الى "العيص" ووعد بالتحرك على الفور . وفي نفس اليوم وردت اخبار اراحتني ، فقد أُرسل الكولونيل نيوكمب ، وهو من الجيش البريطاني النظامي ، الى الحجاز كرئيس لبعثتنا العسكرية هناك ، وانه وصل الى مصر آنذاك ، وان ضابطي اركانه او مساعديه ، كوكس وفيكري ، كانوا في طريقهم بالفعل للانضمام لهذه البعثة .

واخذني بويل بواسطة السفينة "سوفا" الى "ام ليج" ونزلنا الى البر لنسطلع الاخبار ، واخبرنا شيخها بأنه من المتوقع ان يصل فيصل في ذلك اليوم الى "بير الوحيدي" ، وكان مركزاً للتزود بالماء . وقمنا بارسال برقيه له من هناك ، ثم مشينا الى الحصن الذي قام بويل بقصفه قبل بضعة اشهر بواسطة السفينة الحربية فوكس . وكانت عبارة عن ثكنة مخربة ونظر بويل الي الانقاض وقال : "انني خجل من نفسي لتدمير مثل هذا الموقع التافه" . فقد كان ضابطاً محترفاً تماماً ، يقظا وعمليا وغير متسامح احياناً مع الاشياء الصغيرة ومع الناس . فالرجال من ذووي الشعور الحمراء هم نادراً مايكونون صبورين . فقد كان "جينجر (ويعني الزنجبيل) بويل" كما كانوا يدعونه ، حار المزاج . وبينما كنا ننظر من اعلى الخراب اربعة قدم رجال مسنون من القرية وقالوا لنا انه منذ بضعة اشهر قدمت سفينة حربية من البحر وقامت بتدمير حصنهم ، وانهم بحاجة الآن لاعادة بنائها من اجل دعم الحكومة العربية . وهل يمكن لتلك السفينة التي دمرته

بأن تساعد في جلب المواد لاعادة بناءه وكان بويل برماً بحديثهم الطويل ، وقال لي بحدة ، " ماهذا ؟ ماذا يريدون ؟ . فقلت له ، " لاشيء ، انهم يقومون بوصف تأثير القصف العنيف الذي قامت به السفينة فوكس " . فظر بويل حوله للحظة وابتسم باشمئزاز قائلاً " : انها قضية تافهة " .

في اليوم التالي وصل فايكري . كان ضابطاً مدفعياً ، وقد اكتسب فهم اللغة العربية اثناء خدمته في السودان التي دامت عشرة سنوات ، تعلم اثناءها اللغة العربية الفصحى والعامية ، لذلك فقد كان ذلك شيئاً جيداً ويغنينا جميعاً عن الاستعانة بمترجم . ورتبنا بان نذهب سوية مع بويل الى معسكر فيصل من اجل اعداد برنامج ووقت محدد للهجوم على الوجه ، وانهمكنا بعد الغداء ، الانجليز والعرب بالعمل ومناقشة ما تبقى من المسير الى الوجه .

وقررنا ان نقسم الجيش الى قسمين ، وانهما يجب ان يتبعا بشكل مستقل او منفصل الى مكان حشدنا الواقع في منطقة ابو زريبات ، الا انه لن يكون هناك مصدر للماء ، مع ان بويل وافق بأن تقوم السفينة هاردينغ بتزويدنا بنحو عشرين طناً من المياه وانزالها على الشاطئ ، وبذلك سوي الامر . وبالنسبة للهجوم على الوجه ، فقد قدمنا لبويل مجموعة تتألف من عدة مئات من رجال عدة مئات من رجال قبيلتي حرب وجهينة ورجال آخرين تحت قيادة صالح ابن شفية الشاب الزنجي الشجاع . فوافق على ذلك وقرر تحميلهم على السفينة هاردينغ ، وكان سيتم انزالهم مع المجموعة البحرية الاخرى الى الجنوب من بلدة الوجه ، حيث لم يكن هناك موقع للاتراك يمكن ان يمنع عمليةالانزال ، وتكون الوجه وميناءها واقعة امامهم .

كان لدى بويل ستة سفن حربيةعلى الاقل ، وعليها خمسون مدفعاً لتقوم بشغل افكار الاتراك ، اضافة للطائرات البحرية التي ستقوم بتوجيه مدافع السفن نحو اهدافها ، وكنا سنكون في منطقة ابو زريبات في العشرين من كانون ثان (١٩١٧) ؛ وفي منطقة حبان لتلقي المياه من السفينة هاردينغ في الثاني والعشرين من الشهر ؛ ويجب ان تنزل مجموعة قوات الانزال الى الشاطئ في فجر الثالث والعشرين منه ، وتقوم قواتنا البرية بسد جميع الطرق لمنع الفرار من البلدة .

كانت الاخبار الآتية من رابغ جيدة ؛ ولم يقم الاتراك بأية محاولة للاستفادة من خلو ينبع من القوات العربية . كانت تلك اخطارنا ، ولكن مع ذلك كنا متشجعين ، وكان عبدالله قد وصل الى العيص تقريباً ، ونحن كنا في منتصف الطريق الي الوجه .

فقد انتقلت المبادرة الى العرب ، وكنت مسروراً جداً ذلك انني في لحظة فقدت السيطرة على نفسي ، وقلت بابتهاج باننا في خلال سنة فسنقرع (نصل) ابواب دمشق . وقد اثار ذلك غضب بويل وغيره من كبار الضباط وشجبوا تخيلاتي ، ولكن مع ذلك فان غضبهم وحنقهم كان غبياً ، فانه لم يكن حلماً مستحيلاً ، ذلك انه بعد خمسة اشهر كنت في دمشق ، وبعد ذلك بسنة كنت حاكمها الفعلي .

لقد خاب ظني بفايكري ، وقد اغضبته . فقد عرف بانني غير كفوء من الناحية العسكرية ، واعتبرني بأنني سخيف من الناحية السياسية . وعرفت بأنه كان عسكرياً متدرباً ومحتاجة اليه قضيتنا ، ومع ذلك فقد بدا معمياً عن معرفة قوتها . وقد جنى العرب الخيبة تقريباً من جراء تعامي المستشارين الاوروبيين ، الذين لم يمكنهم فهم ان الثورة لم تكن حرباً . ففي الحقيقة فقد كانت اكثر من حركة مسالمة ايضاً ، وربما كانت ضربة او انتفاضة قومية . ومن خلال اتحاد العرب الساميين في تسخير قدراتهم الفكرية والعسكرية ، ووضعها في ايادي ماهرة ، فانهم لن يكونوا في دمشق فحسب ، وانما في القسطنطنينة ، التي بُلغت في عام ١٩١٨ .

(٢٤)

في الصباح الباكر من اليوم التالي ، شاهدت السفينة هاردينغ وهي تفرغ حمولتها دون عائق ، فذهبت الى الشاطئ لأرى الشيخ يوسف ، فوجدته يساعد قوة شرطة بيشة ، ومعهم القرويون المفزوعين ومجموعة من رجال مولود كبار السن وهم يقومون بعمل المتاريس والحواجز السريعة عند نهاية الشارع الرئيسي . وقد ابلغني بأن خمسين بغلاً طليقاً ، دون ان يكون عليها كوابح او أرسن ، ق انطلقت على الشاطئ ذلك الصباح دون كابح من السفينة التي كانت تقلها وشاء الحظ ان توقف في السوق . لذلك فقد جرى تحصين منافذ البلدة ، وانهم سيبقون هناك حول دكاكين السوق لغاية مايرسل مولود ، التي أُحضرت له ، من يأخذها الى البادية . وكانت تلك الدفعة الثانية من البغال الخمسين التي خصصت للوحدة الخاصة التي ستستخدمها . ولحسن الحظ فقد كان هناك فائضاً من الحبال واللجام على السفينة هاردينغ لاستخدامها في ضبط البغال . هذا وتم فتح دكاكين السوق عند الظهر ثانية ، وتم دفع ماسببته من اضرار للمتضررين .

وذهبت الى معسكر فيصل الذي كان منشغلاً ، كان بعض افراد القبائل يتسلمون اجورهم الشهرية ، وحصل جميعهم على مؤونة طعام لمدة ثمانية ايام ، كما تم تخزين الخيام والامتعة الثقيلة ، والقيام بأخر الترتيبات من اجل التحرك . وجلست لاستمع الى ثرثرة الجمع المكون من ، فيصل الغصين ، الشيخ البدوي ، الموظف التركي ، ومؤرخ مجازر الأرمن ، وهو يشغل الآن سكرتيراً للامير فيصل ؛ ونسيب البكري ، من ملاك الاراضي في دمشق ، ومضيف فيصل في

دمشق ، وكان منفياً عن بلده ومحكوم عليه بالاعدام غيابياً ؛ وسامي شقيق نسيب وهو متخرج من مدرسة (كلية) الحقوق ، وكان يشغل مساعد مأمور الصرف ؛ شفيق العير ، الصحفي السابق وكان يشغل وظيفة مساعد السكرتير ، وكان ذا وجه صغير ابيض ويتكلم بهمس ومخلصاً في وطنيته .

وكان هناك ا يضاً ، حسن شرف طبيب القيادة ، وهو رجل نبيل لم يضع حياته فحسب في خدمة القضية العربية بل ايضاً وضع جميع ما يملكه في سبيلها ، وكان حزيناً من عدم توفر وايجاد الادوية الكافية لديه . وكان يقول له شفيق العير مازحاً "هل تتوقع ان تكون الثورة مريحة؟" وكان حديثهما البائس المتناقض لاسلوبهما يسرنا .

وتحدثنا مع فيصل في المساء بخصوص مراحل الزحف القادم . كانت المرحلة الاولية قصيرة : الزحف الى "السمنا" ، حيث ستكون هناك بساتين النخيل وابار وفيرة من المياه . وبعد ذلك كانت هناك خيارات من الطرق ، ستقرر فقط بعد ان يعود كشافتنا ومستطليعنا بتقاريرعن مستجمعات او برك مياه الامطار ، واذا ماسلكنا الطريق الساحلي ، الطريق المباشر ، فانه سيكون هناك مسير لمسافة ستين ميلاً على ارض قاحلة جافة لغاية الوصول لأول بئر ماء . وسيجد المترجلون من المشاة في جيشنا مشقة ومسافة طويلة .

وقدرت قواتنا المتواجدة في "بير الوهيدا" ا بنحو خمسة الاف ومائة ممتطي جمل ، وخمسة الاف وثلاثمائة رجل مترجل على الاقدام ، ومعهم اربعة مدافع كروب جبلية وعشرة مدافع رشاشة . وبالنسبة للنقليات فقد كان لدينا ثلاثمائة وثمانين جملاً يحملون الامتعة . وقد كان كل شئ اقل من معدل ما كان لدى الترك . وحدد وقت مسيرنا بعد ظهر اليوم الثامن عشر من كانون الثاني (١٩١٧) ، وبحلول موعد الغداء تحديداً ، فقد فرغ فيصل من عمله . وكنا مجموعة سعيدة ؛ ففيصل اخذ قسطاً من الراحة والاسترخاء بعد القيام بمسؤلياته ، وعبد الكريم لم يكن جاداً ابداً ، و شريف جبر ، نسيب وسامي ،

شفيق وحسن شرف وأنا ، ذهبنا جميعاً الى جمالنا ، حيث كانت مجمعة بشكل دائري وقمنا بوضع سراجها وتحميلها . وقام ابن دخيل بقرع الطبل سبعة او ثمانية مرات ، واصبح كل شئ هادئاً ومتأهباً ، وشاهدنا فيصل وهو ينهض عن بساطه ، حيث انهى حديثه مع عبد الكريم ، ثم صعد على سرج الجمل وقال بصوت عال "توكلنا على الله" . واطلق الخادم الجمل فنهض واقفاً ، وسوى فيصل من جلسته عليه .

وما ان تحرك جمله حتى قفزنا جميعنا على جمالنا ، ونهض الجميع ، وكانت بعض الجمال ترغى ، الا ان معظمها كان هادئاً . وكانت الجمال والنياق المدربة هي المجدية في المسير ، اما الصغير منها ، او الضعيف ، فهي التي كانت تتعثر في الطريق . فالبدو المعتدين بانفسهم لايركبون مثل هذه الجمال ، حيث من الممكن ان يؤدي ضجيجها وتعثرها الى التسبب بمتاعب لهم وخصوصاً في الليل او من هجوم مباغت . ثم نظرنا الى اين كان فيصل ، وقمنا بتحويل جمال نحوه لغاية ما اصبحنا في صف بجانبه . وجاء ابن دخيل ، وبعد ان القى نظر على المكان واتجاه المسير ، اصدر امراً قصيراً لرجال قبائل عقيل ليكونوا في جناحينا الايمن والايسر على بعد مائتي او ثلاثمائة ياردة ، وكانت الجمال تسير واحداً اثر الآخر في صف منتظم طويل .

كان رجال عقيل اولئك من سكان المدن ، أما شباب قبيلة عنيزة ورجال قبيلة بريده او الرس ، من الذين تعاقدوا للخدمة في الجيش النظامي كهجانة لمدة سنة ، كانوا شباباً صغاراً تبلغ اعمارهم ما بين السادسة عشر الى الخمسة والعشرين سنة . وهم اتباع لطيفي المعشر ، ذووي عيون كبيرة مشرقة ، قليلوا التعليم متحررون اذكياء ورفقتهم جيدة في الطريق . ونادراً ما يكون بينهم ثقيل الدم . وحتى في سباتهم او نومهم (حيث ان معظم وجوه الاوربين في تلك الحالة ، تكون وجوههم فارغة من الحياة) ، فان هؤلاء الشبان يظلوا رائعي المظهر ووسيمين ، ويتحدثون لغة عربية دقيقة ومرنة ، وكانوا متألقين في سلوكهم

وعاداتهم ، وطاعتهم وتعقلهم الفكري جعلهم يعتنون بأنفسهم وبسادتهم دون تعليمات متكررة . وكان اباهم يعتنون بالجمال لذلك فقد مارسوا هذه المهنة منذ طفولتهم ، وبالتالي فقد كانوا يتجولون بالجمال ، مثلهم مثل البدو ؛ في حين ان النعومة المتأصلة في طبيعتهم جعلتهم طيعين متسامحين ازاء القسوة والعقاب الجسدي ، اللذان يعتبران في الشرق كنوع من التهذيب . وكانوا بشكل اساسي طيعين ؛ ومع ذلك ، لديهم طبيعة الجنود ويقاتلون بشجاعة وروية مستخدمين عقولهم عندما يقادون بشكل مألوف .

ولكونهم لاينتمون الى قبيلة بدوية فهم لم يكن لهم اعداء او اعداء الأخذ بالثأر ، بل انهم يتجولون بحرية في الصحراء ، وهم يتاجرون او يحملون السلع لبيعها او مقايضتها . ومع ان محاصيل الصحراء كانت ضئيلة ، الا انها كانت كافية لاغرائهم بالخروج اليها ، حيث ان اوضاعهم المعيشية الداخلية كانت غير مريحة . فالوهابيون ، وهم اتباع صاحب مذهب متشدد ، كانوا فرضوا احكامهم الصارمة علي منطقة القصيم المتحضرة ، اللينة . وعليه فانه لم يكن في القصيم سوى الشيء الضئيل من الضيافة بالقهوة ، وكثيراً من الصلاة والصوم ، وحظر التدخين ، ولم تكن هناك ملابس حريرية ، ولاكوفيات مقصبة او كوفيات مذهبة او مظاهر الزينة للنساء ، فكل شيء كان متزمتاً .

لقد كانت ظاهرة طبيعية ، نشأت على مراحل متقطعة منذ اكثر من قرن ، من عقائد زهد وتقشف في وسط الجزيرة العربية ، فدوماً ما يجد الورعون او الاتقياء عقائد جيرانهم مشتتة بامور غيراساسية ، مما يصبح معه لغير الاتقياء ان يصبحوا متعدي الخيال لواعظيهم . ومرة ثانية وثانية فانهم قد نهضوا ، واخذوا زمام وامتلاك روح وجسد القبائل ، ودفعوا بانفسهم الى قطع وفتات ، وتحولوا الى ساميين متحضرين وتجار ورجال شهوانيين في عالمهم . وفيما يتعلق بامتلاكاتهم المريحة ، فان العقائد الجديدة قد انحسرت وتدفقت مثل المد او تغيرات الفصول ، كل حركة مع بذور الموت المبكر في وصولها او بلوغها

الصحيح او الملائم . ودون شك فانهم لابد وان يعود ليفكروا طويلاً بأمور الشمس ، القمر ، الريح ، التي تعمل في الفراغ المفتوح للفضاء والكون ويقيمونها بعقول اهل الصحراء دون عجلة او ارهاق .

ومع ذلك فانه في عصر ذلك اليوم فان رجال قبيلة عقيل لم يكونوا يفكروا سوى بنا . وعندما وزعهم ابن دخيل ليكونوا على جناحي الجيش الايمن والايسر، فانهم قاموا بذلك بحماس . ثم جاءت اشارة بواسطة قرع الطبل ، فأطل شاعر من الجناح الايمن لينشد قصيدة صغيرة تألفت من بيتين من الشعر ، واستمع الشبان الذين كانوا يسيرون في الجناح الايمن الى القصيدة وحفظوها ، ثم اخذوا يرددونها سوياً مرة ومرتين وثلاثاً بفخر ورضا . ثم اخذ الجناح الايمن يردد هذين البيتين ثم ما لبث ان تبعهم الحراس في الوسط ، واخذوا يرددون ذلك وكانهم كورس ، مع قرع الطبول المشاركة وكان مقطعها كالاتي :

لقد فقدت بريطانيا ، وفقدت فرنسا ،

ولقد فقدت روما ، والأسوأ ، من ذلك لقد خسرت لاليج (Lalage) .

انها فقط نجد التي خسروها ونساء "معابدا" ، وان مستقبلهم يمتد من جدة حتى السويس . ومع ذلك فقد كانت قصيدة جيدة ، لها وزن ايقاعي محبب للجمال، لذلك فقد كانت تومئ برؤوسها ، وتمد اعناقها وكأنها تترنم مع موسيقى الاغنية لغاية ما انتهت .

وكانت مسيرتنا في ذلك اليوم سهلة ومريحة بالنسبة للجمال ، حيث انها كانت تسير فوق ارض رملية منبسطة ، ولاتحتوي على الكثير من الكثبان الرملية . وبعد ذلك ونحن نسير علي ارض فسيحة ، قدم فارسان من جهة اليسار ليحيوا الامير فيصل . وعرفت الاول منهما ، وكان محمد علي البداوي ، امير قبيلة جهينة ، الا ان الاخر كان غريباً عني . وعندما اقترب اكثر رأيته في لباس الكاكي الرسمي مرتدياً فوقه عباءة وكوفية ، منحرفة كثيراً . وبعدئذ بدا لي تماماً ، انه كان نيوكمب ذا الوجه المتسلخ المتقشر الاحمر ، والعينتان المجهدتان والفم المتقد

المنطبع عليه ابتسامة هزلية . فقد وصل الى "ام ليج" في صباح ذلك اليوم ، وسمع باننا كنا نغادر ونتحرك للتو ، فأخذ اسرع جواد لدى الشيخ يوسف ولحق بنا . وقدمت له جملي الاضافي ، كما قمت بتعريفه لفيصل ، الذي حياه وكأنه صديق دراسة قديم ، وانخرطا في الحال بالحديث في لب الامور ، وبالاقتراحات والمشاورات والتخطيط بسرعة خفيفة . وكانت سرعة مبادرة نيوكمب وافرة ، اضافة الى الانتعاش في ذلك اليوم والسعادة التي عمت الجيش ، مما منحنا الجلد في المسير وازالت شكوك المستقبل من امامنا .

واجتزنا منطقة الغواشيا ، التي شملت على بساتين النخيل . ومن ثم سرنا فوق حقل من الحجارة البركانية بسهولة ، وذلك لان قسوتها قد انغرست في الرمال بشكل عميق تماماً لتجعلها ملساء ، الا انها ليست عميقة تماماً لتكون ناعمة جداً . وبعد ساعة وصلنا فجأة الى مرتفع يطل على وادي واسع ارضه من الحجارة المستديرة . كان هذا وادي "سمنا" ، وانحدرنا اليه ، من خلال مصاطب شجر النخيل .

كانت الريح تلحق بمسيرنا ، هذا وكان بطن الوادي يبدو هادئاً جداً ودافئاً في وسطه الرملي الفسيح . وكان هناك الماء وعلينا ان نتوقف لغاية ما يعود الكشافة من استطلاع ومعرفة برك او مستجمعات مياه الامطار امامنا ونستمع الى ما ينصح به عبد القادر ، رئيس مرشدينا ، بهذا الصدد . قد سرنا مسافة اربعمائة ياردة مجتازين الوادي ولغاية مابلغنا اعلى السفوح لنكون آمنين من السيول الجارفة . وهناك ربت فيصل على عنق ناقته لغاية ما ركعت على ركبتيها ، ثم سوت من نفسها ، وفرش هجرس البساط لنا ، وجلسنا مع الاشراف الآخرين نتمازح في حين جري تحضير القهوة الساخنة . وسردت لفيصل ما كان يفعله ابراهيم باشا ، زعيم الاكراد في شمال العراق فعندما كان ينوي المسير ، كانت نساؤه تنهض قبل الفجر ويقمن بحل الخيام دون ضجة ، ثم يقمن بتحميل الامتعة على الجمال ، ومن ثم يسرن بها ، وعندما يصحو الباشا يجد نفسه وحيداً على فراشه وهو في الهواء الطلق ، بعد ان يكون قد قضى ليلته مستلقياً في داخل

خيمته الوفيرة . وينهض بتثاقل ويشرب قهوته ، وبعد ذلك تحضر الخيول ، ويسيروا باتجاه ارض التخييم الجديدة ، ولكنه اذا ماشعر بالعطش اثناء المسير فانه كان يشير باصابعه لخدمه ، وسرعان ما يأتي خادم القهوة وهو على جواده ليسير بجانبه ومعه دلال القهوة جاهزة وهي على المنقل الذي يحتوي على الجمر ، وهو موضوع على سرج الفرس ليقوم بتقديم كوب من القهوة وهم اثناء المسير دون ان يتوقفوا للحظة . وعند غروب الشمس ، فانهم كانوا يجدون النساء بانتظارهم في خيام منصوبة ، كما كانت في مساء الامس .

كان الطقس في ذلك اليوم متلبداً ، وسرت انا ونيوكمب مطاطئي رأسينا لنتحدث سوية . وتحدثنا عما كنا نأمله ، وما كنا نريده . انها كانت نفس الامور ، واتيحت لنا الفرصة لنلاحظ ونشاهد وادي سمنا وبساتين نخيله الجملية ،التي كانت تتناثر بينها الاكواخ المبنية من القصب وسعف النخيل ، لتأوي اصحاب البساتين وعائلاتهم في اوقات جني المحاصيل . وكان يوجد في البساتين المنخفضة وفي بطن الوادي بالضبط ابار محاطة او مسورة بخشب ، التي ، كما كانوا يقولون ، كان ماءها عذب و مياهها لا تنضب ابداً ، الا انها مع ذلك خفيفة التدفق ، فقد يستغرق الامر ليلة كاملة لسقاية كافة جمالنا منها .

وقام فيصل بكتابه رسائل من وادي سمنا الى خمسة وعشرين شيخاً من قبائل البيلي والحويطات وبني عطية قائلاً لهم فيها بأن جيشه سيكون متجهاً نحو الوجه ، وانه ينبغي عليهم ان يلحقوا به لهناك . وعاد كشافتنا ليفيدوا بانه كان يوجد هناك بركتان او مستجمعان من الماء امامنا ، على الطريق الساحلي . وبعد ان استفسرنا منهم ، قررنا ارسال اربعة اجزاء من الجيش في ذلك الطريق ، وخمسة اجزاء اخرى ليسلكوا الطريق الجبلي ، وبتلك الوسيلة كما اعتقدنا ، فاننا سنصل في اسرع وقت وأسلم حال الى "ابو زريبات" .

ولم يكن الطريق سهلاً لنقرر مدي سرعتنا ، مع وجود المساعدة الضئيلة لوحدة استكشافنا . فقد بدوا بأنهم لايستطيعون تحديد الوقت بالضبط لسيرنا مع الاجزاء الاخري من الجيش . وقد يحدث من جراء ذلك تأخير وفوضى وجوع

وعطش بين افراد الحملة . وكان من الممكن تجنب ذلك باستطلاعنا الطريق مسبقاً .

وعندما انتهى العمل ، ذهبت انا ونيوكمب لننام في الخيمة الخاصة التي منحنا اياها فيصل ، والتي قمنا بنصبها على اعلى سفح الجبل . وهناك وجدنا بانتظارنا عبد الكريم ، والشريف البداوي الشاب ، وهو ملفح رأسه بعباءته ، حيث كان المساء قارصاً ويتوقع هطول الامطار . فقد أتى ليطلب مني اعطاءه بغلاً ، ومعه سرجه ولجامه . وكان يعني بذلك ، من احدى البغال التي انزلت في ينبع والتي احضرت لمولود .

واحببت ان اتلاعب بتشوقه ، لذلك فقد قلت له بأن يطلب مني ذلك عندما ننجح بالوصول الى الوجه ، وكان راضياً بذلك . وكنا بحاجة ماسة للنوم ، واخيراً نهض ليذهب . ولكن صدف وان نظر الى اتجاه الوادي ، ورأى نيران الخيام الباهتة المتبعثرة للمعسكر . ودعاني لاشاهد ذلك المنظر ولوح بيده وقال بشبه حزن ، "اننا لم نعد بدواً رحلاً ، وانما شعباً" .

وكان فخوراً ايضاً ، حيث اعتبر التقدم نحو الوجه من اكبر مجهوداتهم . فلأول مرة يحدث ان يتنقل ويسير رجال القبائل ، ومعهم السلاح والطعام لمسافة مائتي ميل ، ويتركون مضاربهم ومناطقهم ، لينتقلوا الى ارض اخرى دون ان يتملكهم امل او رغبة في السلب والنهب او الاغارة او الأخذ بالثأر ، لقد كان عبد الكريم مسروراً بأن قبيلته قد اظهرت هذه الروح من الخدمة ، الا انه كان آسفاً ايضاً ، لانه بالنسبة له ، فان مبهجات الحياة كانت هي الجمل السريع ، وافضل الاسلحة ، والغارة القصيرة على الجوار لأخذ الغنائم . وان الانجاز التدريجي لطموح فيصل كان بجعل مثل تلك المبهجات اقل واقل سهولة بالنسبة للذي يقوم بها .

(٢٥)

امطرت السماء بشكل متواصل خلال الصباح ، وكنا مسرورين لنرى المزيد من الماء يأتي الينا ، وكنا مرتاحين جداً في خيامنا المنصوبة في وادي سمنا . لذلك فقد اخرنا مباشرتنا بالمسير لغاية بزوغ الشمس ثانية في وقت مبكر من العصر . ومن ثم سرنا باتجاه الغرب . ومر بجانبنا اولاً رجال قبيلة عقيل . ومن ثم مر بعدهم عبد الكريم وكان يقود رجاله من قبيلة "جوفه" ، وكان نحو سبعمائة منهم يركبون الجمال ، ويتبعهم اكثر من ذلك العدد رجال مترجلون يمشون على الاقدام . وكانوا يرتدون الثياب البيضاء يضعون على رؤوسهم غطاءً للرأس قطني مخطط باسود ، وكانوا يلوحون باغصان النخيل بدلاً من الاعلام .

وتبعهم الشريف محمد علي ابو الشرين ، وكان شيخاً هرماً ذا لحية رمادية مجعدة طويلة ، منتصباً على جمله . وكان معه ثلاثمائة من الهجانة ، من اشراف عشيرة العيشي (التابعة لقبيلة جهينة) . وكانوا يرتدون عباءات سوداء ، يحملون السيوف ، وكل واحد منهم كان معه خادم يجلس داخل المذيلة بمؤخرة الجمل ليساعده في تقديم السلاح له اثناء القتال ، وليعتني بجمله ويعد له الطعام اثناء المسير . وكانت ملابس اولئك الخدم مزرية لتتلائم مع فقر اسيادهم . وكانت مياه وادي سمنا كشيء شافي بالنسبة لجمالنا ودوابنا ، حيث أخذت تغب من تلك المياه .

وسار خلف الاشراف آخر وحدة قبلية ، وهي قبيلة "الرفعه" ، بقيادة عودة بن زويد ، وهو الذي قام بالغارة على بعثة "ستوتزينجن" الالمانية سابقاً ورمى باجهزتها اللاسلكية مع مشغليها الهنود الى البحر في ينبع . وكنا قضي

عدة ساعات لنسحبها من الميناء ، لأن سمك القرش لم يستطيع التهامها . وكان عودة لايزال يرتدي معطف ضابط الماني طويل من الفرو ، وثوباً يلائم قليلاً ذلك المناخ ولكنه ، كما كان يصر على القول ، انه كان يشكل غنيمة هامة بالنسبة له . وكان لديه نحو الف رجل ، ثلاثة ارباعهم كانوا يمشون على الاقدام . وسار بعده راسم ، القائد المدفعي ومعه مدافعه الاربعة من نوع كروب تجرها البغال ، وكانت على حالتها تماماً كما اخذناها من القوات المصرية .

كان راسم دمشقي متهكم او ساخر ، وكان يثير الضحك عند حدوث كل أزمة كما انه كان يأخذ الامور بتهكم عندما تسير بشكل حسن . وكان هناك في غضون ذلك تذمر مقيت من قبل عبدالله الدليمي ، المسؤول عن المدافع الرشاشة، والسريع البديهة ، والسطحي ، الاانه كان ضابطاً رائعاً ، ومن النوع المحترف الى حد بعيد ، والذي كان يسعد بأن يطور بعض الضغينة ضد راسم لغاية ما يثير فيصل او يثيرني عليه . وقد ساعدته في ذلك اليوم بأن ابتسمت لراسم ونحن في مسيرنا . كان ينظر الى جذوع الشجر المغسولة من مياه الامطار، وكان مهتماً ايضاً ببعض البدو وهم يلاحقون ارنباً خرج من وكره او طيراً او سحلية . وقال بانه هو ايضاً سيصبح شبه بدوي عما قريب .

وقام رجل بمحاولة اطلاق النار على ارنب بري لاصطياده من على سرجه، الا ان فيصل منع ذلك حتى لايتسبب الحاق اذى بأحد . وكنا نضحك من الجلبة او الضجيج الذي كان يصدر عن الحشد الزاحف ؛ فقد كان هناك صراخ الرجال والجمال يصدر بعنف . وكان فيصل سعيداً بأن يري جيشه وقد حصل على كمية كبيرة من لحوم الصيد ، الا انه كان يمقت عادة رجال جهينة الذين كانوا يأكلون لحوم السحالي واليربوع بشهية دون خجل . واصبحنا نسير على ارض رملية منبسطة ، بين الاشجار الشائكة والتي كان حجمها كبيراً ومتنامياً ، لغاية ما وصلنا الى ساحل البحر ، واستدرنا باتجاه الشمال ، وسرنا على طريق فسيح واضح . كان ذلك طريق الحجاج المصريين . وكان يبعد خمسين ياردة عن البحر، وسرنا عليه لغاية ما اشار لنا فيصل بالتوقف ، فنزلنا عن جمالنا واخذنا نمطط اجسامنا ، ومنا من جلس ومنا من ذهب الى البحر واخذ يسبح فيه .

وقدم لنا العشاء . وكان رجال جهينة قد اصطادوا غزالاً برياً لتقديمه لفيصل في العشاء . وقد وجدنا ان لحم الغزال كان من افضل لحوم الحيوانات الأخرى في الصحرا ، لأن هذا الحيوان ، مع انه يعيش على الارض القاحلة ويشرب من مياه الحفر فقد بدا لحمه طرياً ولزجاً على الدوام .

وكانت وجبة الطعام جيدة كما توقعناها ، وذهبنا للنوم مبكراً ، ولكن ما ان تمددت انا ونيوكمب في خيمتنا حتى اخذنا نستذكر متعة المسير وما حدث فيها من امور عجيبة ؛ ومن سرعة الجمال ، واطلاق النار ، والصياح .

وبينما نحن كذلك اطل خادم براسه من باب الخيمة ، وقال وهو يلهث ، "خبر مهم ، لقد أُسر شريف بيك" . ونهضت بسرعة واسرعت نحو الجمع المحتشد في خيمة فيصل التي كانت تغص بالاصدقاء والخدم . وكان فيصل جالساً والفرح يشع من عينيه والى جانبه رجا ، الرجل القبلي الذي ارسله فيصل الى عبدالله ليتحرك نحو وادي العيص . وعندما شاهدني وقف وصاح لي من بين الاصوات قائلاً "لقد أسر عبدالله اشرف بيك" . عندها فقط عرفت مدى أهمية الحدث . كان اشرف مغامراً سيء السمعة ينتمي لطبقة سياسية منخفضة . وكان في شبابه عبارة عن قاطع طريق ، يقوم بذلك بالقرب من قريته «سميرنا» التركية . الا انه اصبح ثورياً مع السنوات . وعندما القى السلطان عبد الحميد القبض عليه في آخر الامر ، قام بنفيه الى المدينة لمدة خمس سنوات ، وكان في البدء محبوساً هناك في بيت ، الا انه في احدى الايام استطاع كسر احد النوافذ وفر الى حي الامير شهّاد في العوالي . وكان شهاد كالعادة على عداء مع الاتراك ، فمنحه اللجوء عنده ، الا ان اشرف وجد الحياة كئيبة هناك وتمكن في النهاية من أخذ فرس قوي ، وتوجه الى احدى الثكنات العسكرية التركية ، وهناك وجد في ساحة الثكنة ضابطاً يقوم بتدريب سرية من الجندرمه ، وكان ذلك الضابط ابناً لعدوه الحاكم . فقفز عليه وأوقعه على الارض ، ومن ثم وضعه على فرسه وانطلق به ، قبل ان يفيق الجندرمة من دهشتهم ، ولم يتمكنوا من الامساك به .

وأخذه الى جبل أُحد ، وكان مكاناً مقفراً غير مأهول ، ثم ساقه امامه

وحمله مؤنة وماءً وكان يدعوه بحماره . ومن اجل ان يخلص ابنه ، فقد قام الباشا الحاكم بتقديم عهد له بحصوله على حريته وتقديم خمسة الاف جنيه له . فاستخدمها في شراء جمال وخيمة ، وتزوج . وكان يتنقل بين القبائل لغاية ما قامت ثورة تركيا الفتاه (الاتحاديين) . عندئذ ظهر ثانية في القسطنطينية واصبح مرحباً به ، وقام بمجازر انور باشا ، ثم عين مفتشاً للملاجئ الفقراء في مقدونيا ، وتقاعد بعد سنة وقد جنى ثروة كبيرة من جراء ذلك .

وعندما اندلعت الحرب ذهب الى المدينة ومعه امواله ، ومعه رسائل من السلطان الى جهات عربية محايدة ، ومهمة فتح وسائل اتصالات مع الثكنة العسكرية المعزولة في اليمن . واثناء مسيره في المرحلة الاولي من رحلته فقد تصادف ذلك مع اجتياز عبدالله في طريقه الى وادي العيص ، وبالقرب من خيبر ، صدف ان اوقف رجال اشرف بعضاً من رجال عبدالله وقاموا باستجوابهم فقالوا انهم كانوا من قبيلة "حيثم" ، وانهم كانوا ضمن قافلة امداد لجيش عبدالله ذاهبة للمدينة ، فاطلق اشرف سراح واحد منهم ومعه اوامر بأن يحضر بقية رفاقة من اجل التدقيق بذلك . وذهب ذلك الرجل واخبر عبدالله بأن هناك معسكراً للجند موجود على التلة .

وارتبك عبدالله من ذلك وارسل خياله لاستطلاع الامر ، وبعد دقيقة فوجئوا بطلقات مدفع رشاش تهوي عليهم . فاستنتج عبدالله ان الاتراك قد ارسلوا طابوراً طياراً ليفاجئه ، فأمر رجاله بأن يتصدوا له ، فانقضوا على المدفع الرشاش ، بعد حدوث بضعة اصابات فيهم ، وبعثروا الاتراك . وفر اشرف راكضاً على اقدامه الى قمة الجبل ، وقدم عبدالله جائزة مقدارها الف جنيه لمن يقبض عليه ، ومع اقتراب الغروب القي القبض عليه جريحاً ، وقد قبض عليه الشريف فوزان الحارثي ، بعد قتال عنيف . وكانت حمولة اشرف التي تم الاستيلاد عليها تقدر بحوالي عشرين الف جنيه ، واثواب ثمينة ، وهدايا قيمة ، وبعض الاوراق المهمة وحمولة بضعة جمال من البنادق والمسدسات . وارسل عبدالله رسالة لفخري باشا (يعلمه فيها عن عملية الاستيلاء) ، وانه سيقوم بأزالة اعمدة التلغراف في الليلة القادمة عندما يجتاز خط السكة الحديدية

في طريقه الغير معوق الى وادي العيص . وتركه (الرجل الذي اوفد من قبل الامير عبدالله) رجا هناك معسكراً بهدوء وطمأنينة، كما افاد بذلك . وكانت تلك الاخبار سارة من ناحيتين بالنسبة لنا .

وانسل من بين الحشد المبتهج شاعر حزين اسمه ايمان ، ليلقي قصيدة يشيد فيها ببطولات عبدالله وفيصل ، ومن ثم كوفئ بنقود ذهبية لقاء ذلك . ولاحظ فيصل خنجراً على حزام رجا . فقال له رجا انه من غنائم اشرف ورمى له فيصل بخنجره ، وسحب منه ذلك الخنجر ليعطيه في النهاية للكونيل ويلسون . وسأله فيصل "ماذا قال شقيقي لأشرف؟" . فقال رجا انه سأله ، "هل كل هذا المال جنيته من ضيافتنا لك ؟" ، فاجابه اشرف "يمكنني ان اقاتل ، من اجل المال ، فيما لوكنت على خطأء ام صواب" .

واصبح الوضع العسكري يدعوا للتفاؤل مع زحف عبدالله الى العيص ، ومع ضغط موراي بقواته في سيناء . واقترب فيصل من الوجه ، وتواجد عبدالله مابين الوجه والمدينة ، وعليه فقد اصبح وضع القوات التركية في الجزيرة العربية دفاعياً فقط . فقد تحول جذر سوء طالعنا ، وكانت الوجوه مستبشرة والابتهاج يعم المعسكر لغاية طلوع الفجر .

كان مسيرنا سهلاً في اليوم التالي ، وبعد ذلك تناولنا فطورنا ، عندما وجدنا بعض برك الماء الصغيرة ، في وادي اجرد ينحدر بين جبال الصخور، وهي ثلاثة جبال رائعة صخورها من الغرانيت . وكانت رحلتنا ميسرة ، حيث ان الطقس كان بارداً ، وكان لنا نحن الانجليزيان ، انا ونيوكمب خيمتنا الخاصة بنا، نستريح بها لوحدنا . فقد كان الأمر الذي يتعب بالصحراء هو العيش دوماً ضمن مجموعة . وكل مجموعة تسمع وترى كل مايفعل بين افرادها . فلم يكن هناك فروقات طبيعية او تقليدية بين ابناء العرب ، باستثناء السلطة الغير مدركة التي تمنح لشيخ القبيلة بسبب مناقبة . وقد اطلعوني بأنه لايمكن لأي رجل ان يصبح زعيماً لهم مالم يأكل من طعامهم ويرتدي لباسهم ، ويعيش بمستوى معيشتهم ، اضافة لأن يظهر نفسه على احسن وجه .

وسرنا في صباح اليوم التالي باتجاه وادي ابو زريبات ، وكانت الشمس مشرقة والسماء صافية . واجتزنا بين جبال كلسية حادة متآكلة الجوانب ، وكان البحر يبعد عنا نحو ثمانية اميال باتجاه الغرب ،الا انه كان غير مرئي .

وتوقفنا قليلاً وبدأنا نشعر انه كان يقع امامنا منخفض عميق ؛ ولم نجتاز ذلك لغاية الساعة الثانية من بعد الظهر ، عندما بلغنا وادي حمده ، وتركنا الجبال خلفنا، وكانت تنتشر على جهته الشمالية ـ الغربية دلتا عظيمة حيث يصب اليها وادي حمده عشرين جدولاً . ورأينا خطوطاً سوداء ، كانت عبارة عن قنوات لمجاري مياه جافة تسير ملتوية من سفوح الجبال الواقعة تحتنا لغاية ما تصبح غير مرئية ،و لتتصل بالبحر الغير مرئي . وبرز بجانب وادي حمده جبل مزدوج ، هو جبل الرال ، الرائع والمميز .

ونزلنا السفوح والمنحدرات المفروشة بالحصى ، والارض الجرداء التي ندر العشب بها ، لغاية الساعة الثالثة من بعد الظهر عندما دخلنا الوادي نفسه ، وكان اتساع او عرض الوادي حوالي ميل ، وهو مليء بالاكمات والدغل (غابات صغيرة) ، وكانت رماله جافة لم تسر فيها المياه منذ وقت طويل ، وانغرست اقدام الدواب في رمال بطن الوادي ، ومما زاد الامر سوءاً ان هبت الرياح الرملية بموجات كثيفة .

وازداد الامر صعوبة بالنسبة للجحافل التي تسير خلفنا ، واصبحت الدغل والاكمات في بطن الوادي تشكل عائقاً لنا ولدوابنا ، وقد قمنا بلف نفسنا بعباءاتنا جيداً حتى لا نحتك باغصان الاشجار ، واحنينا رؤوسنا الى اسفل لنستطلع طريقنا ونشقه بين الشجار ، كمثل قصب في عاصفة ، فقد كان الغبار يعمي ويخنق ، وكانت تصدر من رجالنا الصرخات والضحكات ، مما جعل الامر عبارة عن مغامرة نادرة .

(٢٦)

قبل ان نصل الى نهاية الوادي تماماً اصبحت الارض واضحة فجأة ، وكانت ارضها طينية ، حيث تواجدت هناك بركة ماء عميقة بنية اللون ، يبلغ طولها ثمانين ياردة وعرضها خمسة عشر ياردة ، فقد كانت تلك من المياه المتدفقة من وادي ابو الزربيات ، وكان ذلك هدفنا . وسرنا بضعة ياردات اخرى الى الامام ، وبلغنا الضفة الشمالية المفتوحة حيث اشار فيصل الى اقامة المعسكر هناك لقد كان سهلاً فسيحاً ارضه من الرمال وحجارة الصوان ، ممتداً حتى سفح جبل الرال ، وتكفي مساحته لايواء كافة الجيوش او الفيالق العربية . لذلك فقد اوقفنا جمالنا هناك وقام الخدم بتفريغ حمولتها ونصب الخيام ، ثم استطلعنا ماذا حل بالبغال ، حيث كانت عطشى بعد ذلك اليوم من المسير الطويل ، وكانت سعيدة بوجود الماء الذي اخذت تغب منه . وزاد من السعادة وفرة الوقود لدينا ، فينبغي في مثل ذلك الطقس اشعال النيران للدفء بها ، وخاصة عند المساء ، حيث نفذ البرد من خلال عباءاتنا ومن وتحت اقدامنا .

لقد كانت ليلة حالكة غير مقمرة ، الا انه كانت هناك نجوم متلألئة فوق الضباب . ومن فوق رابية صغيرة بالقرب من خيمتنا نظرنا وشاهدنا الموجات المتحركة من الضباب في السماء ، كما ظهرت من هناك رؤوس او قمم الخيم ، وخطوط من الدخان الصادر عن تلك الخيم ترتفع عالياً في الهواء النظيف ، كما لو انها مندفعة من قبل ضجيج الجيش الغير مرئي . وقد صححني الشيخ عودة بن زويد بشكل جاد عندما قلت ذلك له ، قائلاً لي ، "انه ليس جيشاً وانما عا.

يتحرك نحو الوجه" . وكنت مبتهجاً بسبب اصراره على ذلك ، لاننا كنا نحن الذين اوجدنا ذلك الشعور ، عندما اقلقنا انفسنا بذلك الحشد من الرجال لذلك المسير الشاق .

وبدأ رجال قبيلة البيلي بالقدوم الينا بخجل ذلك المساء وأخذوا يقسمون ولاء الاخلاص امام فيصل ، اذ كان وادي حمده من ضمن حدود منطقتهم . كان من بينهم حميد الرفيدة وهو ممتطي مع عدد كبير من افراد قبيلته ليقدم الولاء واحتراماته لفيصل . وابلغنا ان ابن عمه سليمان باشا ، شيخ مشايخ القبيلة ، كان موجوداً في منطقة "ابو عجاج" التي تبعد خمسة عشر ميلاً الى شمالنا ، وهو يحاول بيأس من اجل مصلحته تغير آرائهم وافكارهم . ومن ثم حضر ، ودون سابق انذار ، الشريف ناصر من المدينة ، فقام فيصل وعانقه ، واجلسه بجانبه .

كان الشريف ناصر يخلق انطباعاً رائعاً ، فالكثير عما سمعناه عنه ، والكثير مما كنا نتوقعه منه ، كان حقيقة ؛ فقد كان فاتحاً للطرق ، ورائداً لتحرك فيصل ، وهو الذي بدأ بالثورة في المدينة المنورة ، وهو الذي اطلق رصاصتنا الاخيرة في منطقة المسلمية التي تقع بعد مدينة حلب ، في اليوم الذي طلبت فيه تركياً عقد الهدنة ، وكل مايمكن ان يقال عنه من البداية حتى النهاية سوى انه كان جيداً .

وكان شقيقاً لشهّاد ، امير المدينة انذاك ، وكانت عائلته منحدرة من سلالة الحسين بن علي بن علي بن ابي طالب ، والمنحدورن من سلالة الحسين هم الذين يعتبرون اشرافاً ، وليس السادة . وكانوا اولئك من الشيعة ، ومنذ ايام حادثة كربلاء ، وكانوا يعتبرون في منطقة الحجاز في المرتبة الثانية بعد امراء مكة . وكان الشريف ناصر مولعاً بالبساتين وقضى فيها معظم طفولته وصباه . وكان يبلغ من العمر آنذاك سبعة وعشرين عاماً . وكانت جبهته عريضة متلائمة مع عينتاه الدقيقتان ، وفمه وذقنه صغيران ، وكان الشعر الأسود واضحاً على ذقنه .

كان قد قدم الى هنا منذ شهرين ، قاصداً الوجه وكانت آخر الاخبار لديه ،

ان المواقع التركية الخارجية المتنقلة امام طريقنا قد سحبت في ذلك الصباح باتجاه الموقع الدفاعي الرئيس .

ونمنا لغاية وقت متأخر من اليوم التالي ، ثم صحونا لننخرط بحديث لعدة ساعات ، وكان فيصل يتولى الحديث في معظمها ، وكان ناصر يساعده كرجل ثاني للقيادة وجلس الاخوة البداوية ليساعدوا بالحديث . وكان ذلك اليوم مشرقاً ودافئاً ، مما ينذر بانه كان سيكون حاراً . وتجولت انا ونيوكمب عند مكان السقاية ، لنشاهد الرجال ، وورود اعداد مستمرة من القادمين الجدد . ومن ثم ظهرت سحابة ضخمة من الغبار قادمة من جهة الشرق لتكشف عن مجموعة كبيرة من الرجال . ورجعنا الى خيامنا لنرى انه كان مرزوق التخيمي وهو يقود رجال عشيرته من قبيلة جهينة . وقد ازعجوننا بغبارهم ، وكان عشرة شيوخ منهم يحملون علماً كبيراً احمراً وعلماً ابيضاً كبيراً ايضاً ، وهم يشهرون سيوفهم ويحومون حول خيامنا ، ولم نكن معجبين لابتجوالهم ولابجيادهم ، ربما لانهم كانوا مصدر ازعاج لنا . وعند الظهر قدم ولد (ابن) محمود حرب ، ومعه مجموعة من رجال ابن شفيعة ، وكان عددهم ثلاثمائة رجل ، وبقيادة صالح ومحمد بن شفيعة ، وكان محمد بديناً وعادياً ، قصير القامة ، يبلغ الخامسة والخمسين من العمر ، مفعم بالنشاط . وكان يريد بشكل سريع ان يكون له دور في الجيش العربي ، لذلك فقد كان عليه ان يقوم بنشاط عملي من اجل ذلك . وكان رجاله يتألفون من مشردي وادي ينبع ، من الذين لا اراضي ولا عائلات لهم ، او من الرجال العاملين في ينبع ، الذين لايرتبطون بشيء ، وكانوا اكثر طوعاً وانصياعاً .

وكان تبقى لنا يومان فقط على موعد وصول الاسطول للساحل ، وقرر نيوكمب ان يسير قدماً في تلك الليلة الى منطقة الحبان ، وهناك كان سيتقابل مع بويل ويشرح له بأنه ينبغي ان يؤخر موعد وصول السفينة هاردينغ ، الا انه سيكون مسروراً اذا ما تمكنت من العودة الى هناك في ليلة الرابع والعشرين من كانون الثاني ، عندما نكون وصلنا لهناك ، ونكون بحاجة للماء . وكان ايضاً يريد ان يعرف فيما اذا كان بالامكان تأخير هجوم الاسطول لغاية يوم الخامس والعشرين وذلك لاتمام الخطة المشتركة .

وقدم بعد حلول الظلام رسول من قبل سليمان الريفادا ، ومعه جمل كهدية لفيصل ليحفظه اذا كان صديقاً ، او يعيده اذا ما كان عدواً ، وكان فيصل مغتاظاً من ذلك ، واعلن عن استنكاره وعدم فهمه لذلك الرجل الواهن غير الفعال . وعلق ناصر على ذلك قائلاً ، "ذلك لانه يأكل لحم السمك ، ولحم السمك ينفخ او يضخم الرأس ، مما يؤثر على تصرف الشخص" . وضحك الرجال السوريون والعراقيون ورجال جده وينبع بصوت عال ، ليظهروا بانهم لا يشاركون الشريف ناصر في اعتقاده أو رأيه ذاك ، وانه لاَحرج من اكل لحوم الدجاج والسمك والبيض . وقال فيصل له مازحاً "لقد أهنت الجميع ، فنحن نحب لحم السمك" . واحتج آخرون بقولهم "اننا ننبذه ، ونتوكل على الله" ، وتدخل مرزوق وقال ، "ان سليمان غير طبيعي المولد فهو ليس بنيء (خام) ولا ناضج" .

وفي الصباح الباكر سرنا بغير انتظام لمدة ثلاث ساعات من وادي حمده . ثم اجتزنا منطقة مهجورة وساكنة . وكان ذلك اليوم بارداً ، وتهب الرياح من الشمال لتلفح وجوهنا ، نحن نتجه الي الطريق الساحلي الرمادي ، وسمعنا ونحن نسير صوت اطلاق نار كثيف متقطع صادر من اتجاه الوجه ، وخشينا ان يكون الاسطول قد فقد صبره وتصرف بدوننا ، ومع ذلك فقد تابعنا مسيرنا بشكل حثيث . ثم مالبثنا اخيراً ان عاودنا الدخول ثانية الى وادي حمده من جهة القورنا ، التي كانت ارضها طينية صلبة ، فقررنا النزول هناك لاقامة معسكر مؤقت .

وبينما نحن نوطن انفسنا هناك حدث اندفاع وجلبة عظيمة فجأة ، فقد كانت هناك جمال ترعى من جهة الشرق ، وسرعان ما اندفع رجال قبيلة جهينة ليستولوا عليها ويحضروها . كان فيصل حانقاً وصرخ بهم ان يتوقفوا عن ذلك ، الا انهم كانوا منتشين جداً ولا يمكنهم سماعه . ثم انتزع بندقيته ، واطلق النار على اقرب رجل منهم ، الذي من شده الخوف تدحرج عن سرجه ، وسرعان ما انتبه الآخرون وتوقفوا . وأمر فيصل باحضارهم امامه ، وقام بتوبيخ المسؤولين عن ذلك ثم امر بتسليم الجمال لاصحابها من قبيلة البيلي ، وهو لو لم يفعل

ذلك، فقد كان من الممكن ان تنشب حرب خاصة بين قبيلتي جهينة والبيلي، وتمتد آثارها لتؤثر على حملة الوجه . فقد كان نجاحنا يكمن في الابتعاد عن مثل هذه التفاهات .

وسرنا في صباح اليوم التالي نحو الساحل لنصعد في الساعة الرابعة الى الحبانة ، وكانت السفينة هاردينغ راسية هناك ، ومن اجل راحتنا وانزال الماء العذب منها الى الشاطئ ، وكان الماء ينقل بواسطة قارب مع وجود امواج البحر الهائجة الخطرة . وقمنا بسقاية البغال اولاً ، ومن ثم تركنا الماء للرجال المترجلين، الذين كانوا يمشون على الاقدام ، والعطشى ، الا انها كانت ليلة صعبة وكان الرجال المعانون يتنافسون في الحصول على صفائح الماء من خلال الاضواء الكاشفة للسفينة ، آملين في الحصول على مياه شرب اضافية ،اذا ما امكن للبحارة ان يحضروا المزيد منها . وصعدت على ظهر السفينة وسمعت ان هجوم الاسطول كان بدأ مع عدم وصول الجيش الى هناك ، حيث ان بويل قد خشي من ان يفر الاتراك فيما لو انتظر . ولكن في الواقع انه في اليوم الذي وصلنا فيه الى وادي ابو زريبات ، فان احمد توفيق بيك ، الحاكم التركي للوجه آنذاك ، كان قد خطب في افراد حامية الوجه بأنه يجب الاحتفاظ بها لآخر قطرة من الدماء ، ومن ثم وعند حلول الظلام ركب جمله وانطلق نحو سكة الحديد مع بضعة افراد من رجاله . وقرر رجال المشاه الاتراك الآخرين والمتبقين في الحامية ، وكان عددهم مائتي جندي ،ان يقاوموا أي انزال بري من البحر ، الا انهم لم يتمكنوا من الصمود امام القصف الكثيف من البحر ، ولم يكن هناك جدوى من احتفاظهم بمواقعهم ، وتم احتلال بلدة الوجه من قبل القوات البحرية ورجال صالح بن شفيعة العرب ، وهذا لم تكن تعرفه السفينة هاردينغ بعد .

(٢٧)

ان الشائعات المفيدة ابهجت الجيش ، الذي بدأ بالمسير حثيثاً باتجاه الشمال بعد منتصف الليل بوقت قليل . وعند الفجر تحشدنا على شكل فرق عسكرية مختلفة في وادي "الميه" ، الذي يبعد عشرين ميلاً الى الجنوب من الوجه ، وقد تقابلت الطلائع المتقدمة مع فلول القوات التركية ، التي حاولت مجموعة منها المقاومة قليلاً . وترجل رجال قبيلة عقيل ليجردوا انفسهم من عباءاتهم وكوفياتهم وقمصانهم ، وليصبحوا شبه عراه ، وقد قالوا ان ذلك يضمن لهم جروحاً نظيفة اذا ما اصيبوا اثناء المعركة ، اضافة الى ان ملابسهم لن تتعرض للتمزق والتلف . وكان ابن دخيل ، الذي كان يقودهم ، قد ضمن قيادتهم وطاعتهم التامة ، وكانوا يتقدمون الجيش في مجموعات وسرايا ، متباعدة عن بعضها البعض لاربعة او خمسة ياردات .

وكان شيئاً جميلاً مشاهدة اولئك الرجال ذوي البشرة البنية الصافية ، ومنهم من كانوا متقدمين وهم يحملون الاعلام في طليعة الجيش . وكانوا يغذون سيرهم بثبات ، ويتسلقون الجبال والمرتفعات دون ان يطلقوا طلقة واحدة . ومع ذلك فقد عرفنا نحن ان العمل اوالوضع العسكري قد أُنهي لصالحنا ، وتوجهنا قدماً لنجد ان الفتى صالح ، ولد ابن شفيعة ، قد استولى على البلدة (الوجه) . وابلغنا بأن الخسائر بلغت حوالي عشرين قتيلاً ، وعلمنا فيما بعد ان ملازماً في سلاح الجو البريطاني اصيب بجراح خطيرة اثناء عملية الاستطلاع بطائراته ، وان واحداً من القوات البحرية قد أُصيب بجرح بسيط في قدمه .

وكان فايكري الذي ادار المعركة راضياً بذلك ،الا انني لم استطع ان اشاركه رضاه . فانه بالنسبة لي ، كان العمل الحربي الذي جرى غير ضروري وايضاً الخسائر التي حدثت . وكنت غير قادر على اتخاذ وجهة نظر محترفة من ان كافة الاعمال الناجحة التي انجزت كانت تشكل مكاسب لنا . فان قواتنا الثائرة لم تكن عبارة عن مواد مثل الجنود ، او عبارة عن جنود محترفين ، بل كانوا عبارة عن اصدقاء لنا ، يثقون بقيادتنا ، ونحن لم نكن في القيادة بوضع منتظم وانما كنا نعتمد على توجيه الدعوة للمشاركة في القتال . وكان رجالنا من المتطوعين والافراد والرجال المحلين (رجال القبائل) ، ومن الاقارب ، ذلك انه لو قتل واحد منا لسبب حزناً شخصياً للعديد من افراد هذا الجيش . وحتى من وجهة النظر العسكرية الخالصة فان ذلك الهجوم على الوجه بدا لي عبارة عن عملية غزو من اجل النهب والسلب .

فلو ترك اولئك الجنود الاتراك ، وكان عددهم مائتين في الوجه محاصرين ، بدون وسائل نقل او طعام ، وحيدين لعدةايام ، فلا بد انهم كانوا سيستسلمون ولم يكن ذلك كلف حياة أي واحد عربي ، فقد اردنا الوجه لتكون قاعدة لنا ضد سكة الحديد ولتوسيع جبهتنا الحربية ايضاً ، لذلك فان عملية التدمير والقتل التي حدثت كانت عملاً طائشاً واستهتاراً .

كانت البلدة مدمرة بشكل مزعج . وقد حذر اهلها من قبل فيصل من أن يقوموا بالمقاومة ، ونصحهم اما بالانضمام لقوات الثورة او أن ينصرفوا ويبتعدوا . وكان معظم الاهالي من المصريين الذين كانوا يفضلون الاتراك عنا ، وقرروا ان ينتظروا ليروا ماذا سيحدث بعد ذلك . وكان رجال شفيعة وبياشه اقتحموا البيوت ليجدوا فيها غنائم كثيرة . وقاموا بسرقة الدكاكين والمحال ، وكسروا الابواب وفتشوا كل غرفة ، كما حطموا الخزائن والصناديق الخشبية ، ومزقوا الوسائد والفراش بحثاً عن كنز مخبأ ؛ في حين احدثت قذائف الاسطول فجوات كبيرة في كل جدار او مبنى .

كانت الصعوبة الرئيسة التي تواجهنا هي انزال المؤن الى الشاطئ ، فقد اغرقت السفينة الحربية فوكس بمدافعها كافة القوراب الخفيفة أو أي نوع من

المراكب ؛ الا ان السفينة الداهية هاردينع اندفعت الى داخل الميناء (الذي كان عريضاً بما فيه الكفاية الا انه قصيراً جداً) ، وقامت بانزال المؤن والامدادات في قواربها الخاصة بها لنقلها الى الشاطئ . وقمنا بتشغيل مجموعة من رجال ابن شفيعة المتعبين في عملية نقل الاغذية ، حيث قاموا بنقل كمية كافية منها لسد الاحتياجات مؤقتاً . وعاد اهالي البلدة الجائعين الذين كانوا حانقين على الوضع التي آلت اليه ممتلكاتهم ، وصبوا انتقامهم بنهب كل شئ غير محروس ، حتى انهم قاموا بتمزيق اكياس الارز الموجودة على الشاطئ وقاموا بملء اطراف اثوابهم منها ليسرعوا بها . ولوضع حد لذلك ، فقد قام فيصل بتصحيح الوضع ، وذلك بتعيينه مولود ، الرجل الصارم ، حاكماً للبلدة ، الذي قام بنشر رجاله الاشداء في البلدة لحفظ النظام والقضاء على الفوضى ، وبعد ذلك اصبحت الوجه بلدة هادئة .

وحتى خلال الايام التي سبقت سفري الى القاهرة ، فقد بدأت فوائد ومكاسب مسيرنا المشهود الى الوجه تتوارد وتؤتي ثمارها . فقد اصبحت الثورة العربية آنذاك مسيطرة على غرب الجزيرة العربية دون منازع ، وتجاوزت مرحلة الخطر التي كانت تحيق بها . وانتهت مسألة رابغ المطولة ؛ وتعلمنا دورساً من الوضع الذي حدث في الوجه . وسويت كافة الامور بهدوء ، بعد ان بدا لنا ان العشرين رجلاً المأسوف عليهم ، والذين سقطوا قتلى على شوراع الوجه لم يكن شيئاً مرعباً ، وان عدم صبر فايكري ربما كان مبرراً .

الجزء الثالث

نتائج الاستيلاء على الوجه

من فصل ٢٨ ـ ٣٨

كان لاحتلال الوجه تأثير فعال ومباشر على الاتراك ، الذين تخلوا عن تقدمهم باتجاه مكة ليقوموا بالدفاع السلبي عن المدينة وخطها الحديدي . وقام خبرائنا بوضع الخطط للهجوم عليهم . ورأى الالمان الخطر يحيق من كل جانب ، فحثوا انور باشا على اصدار اوامره بتفريغ المدينة من القوات التركية . وحثنا السير ارشيبالد موراي على وضع خطة هجوم مطولة لتدمير العدو المتقهقر .

وسرعان ما كان فيصل مستعداً ليأخذ دوره ، وذهبت انا بدوري الى عبدالله من اجل الحصول عل تعاونه بهذا الشأن ، وفي طريق عودتي وقعت مريضاً . وبينما كنت مستلقياً وحيداً دون مساعدة اخذت افكر وخطرت لي افكار حول الحملة او المعركة القادمة . وأدى بي التفكير الى الاعتقاد بأن افعالنا وممارساتنا الراهنة كانت افضل من نظرياتنا .

لذلك فعندما شفيت من مرضي ، لم اقم بعمل كبيرلتدمير السكة الحديدية ، وانما عدت راجعاً الى الوجه بافكار جديدة . وحاولت ان اجعل الآخرين يقبلون بها ، وان يتبنوها كمبدأ حاكم ؛ وان يشددوا عليها حتى قبل استئناف القتال . وكانوا يفضلون هدفاً محدوداً ومباشراً . لذلك فقد قررت ان انسل وحيداً الى العقبة لأختبر مدى فعالية نظريتي .

(٢٨)

كانت السلطات البريطانية في القاهرة متحمسة ، ووعدت بتقديم المال والبنادق ، والبغال ، والمزيد من المدافع الرشاشة ، والمدافع الجبلية ؛ الا ان هذه الاخيرة لم نحصل عليها مطلقاً . فمسألة الحصول على المدافع كانت مصدر عذاب ابدي لنا . ولأن طبيعة وتضاريس البلاد (الجزيرة العربية) هي جبلية صحراوية فان مدافع الميدان كان غير مجدية بالنسبة لنا ، كما ان الجيش البريطاني لم يكن لديه مدافع جبلية ، باستثناء مدافع هندية من عيار عشرة باوندات (أرطال) ، والتي كانت قابلة للاستخدام فقط ضد الاقواس والرماح . وكان لدى بريموند مدافع جبلية ممتازة من نوع شنيدر متواجدة في منطقة القناة ، ومعها طواقمها من الجزائريين ، بيد انه كان يعتبرها كشرط له لتحريك قوات حليفة الى الجزيرة العربية . وعندما طلبنا منه ان يرسلها الينا سواء مع او بدون طواقمها ، فقد كان يجيب اما بأن العرب لن يعاملوا طواقمها بشكل لائق ، او انهم لن يستخدموها تماماً او بشكل فعال . وكان الثمن لقاء ذلك ارسال لواء بريطاني الى رابغ ، ولم نكن على استعداد لدفع الثمن ، او القيام بذلك .

وكان يخشى من جعل الجيش العربي جيشاً هائلاً ـ وهي ذريعة يمكن فهمها . الا ان موقف الحكومة البريطانية كان غير قابل للاستيعاب . ومع ذلك فهي لم تكن سيئة النية لانها اعطتنا كل شيء اخر احتجناه أو اردناه ، ولم تكن ايضاً شحيحة ، اذ ان مجمل مساعدتها سواء المادية ام المالية ، تجاوزت عشرة ملايين جنيه ، واعتقدت بأن ذلك كان غير كاف ، وغير متواز مع العديد من المعارك التي جرت . فمن الناحية الفنية لم يكن بامكاننا ان نسكت المدفعية التركية

لان مدافعها تفوقت على مدافعنا بثلاثة أو اربعة الاف ياردة من حيث المدى . وفي النهاية فقد استفدنا من بطاريات المدفعية التي احتفظ بها بريموند لمدة سنة في منطقة قناة السويس . فقد أمر خلفه الميجور كوس ، بتحويل تلك المدافع المعزولة الينا وقد استطعنا بواسطها من دخول دمشق . وكانت تلك المدافع خلال تواجدها في السويس تشكل برهان ساكن ، لكل ضابط عربي مر من هناك ، على مدى الحقد الفرنسي على الثورة العربية .

وحصلنا على تعزيز كبير لقضيتنا ، وذلك بانضمام جعفر العسكري لصفوف الثورة ، وهو ضابط بغدادي خدم في الجيش التركي . فبعد ان قام بخدمة مميزة في الجيشين التركي والالماني ، فقد أُختير جعفر من قبل انور باشا ليقوم بتنظيم وقيادة قوات الشيخ السنوسي في ليبيا . فذهب الى هناك بواسطة غواصة ، وشكل قوة شرسة من الرجال ، وأظهروا مقدرة تكتيكية ضد البريطانيين في معركتين ، ومن ثم أُسر ونقل الى القلعة في القاهرة هو وضباط اسرى آخرين . وحاول الفرار ذات ليلة ، الا انه عُثر عليه بعد ان وقع في حفرة مائية وكُسر كاحله ، فتم القاء القبض عليه . وقرأ وهو مقيم في المستشفى ، في احدى الايام ، بصحيفة عربية عن ثورة الشريف ، وعن الاعدامات التي قام بها الاتراك ضد القوميين العرب - من اصدقائه - فأدرك بأنه كان في الجانب الخطأ . وكان فيصل سمع عنه ، وبالطبع ، اراده ليصبح القائد العام لقواته ، اذ كان تحسينها وقتذاك يعتبر من جهودنا واهدافنا الرئيسة . وكنا نعرف ان جعفر كان من الرجال القلائل الذين كانوا يتمتعون بسمعة ومسؤولية جيدتين ويمكنه التغلب على المصاعب التي كانت تواجه الجيش .

كان هناك في القاهرة تأييدات من قبل الشخصيات البريطانية مثل هوغارت ، جورج لويد ، ستورز وديدس ، والعديد من الاصدقاء القدامى . وكان من خلفهم ايضاً رجال الوسط العربي من المتمنين الخير للثورة ، والذين ازدادوا بشكل غريب وقتذاك . وازدادت المطالبة داخل الجيش البريطاني بالمزيد من المشاركة في قوات الثورة بسبب المنافع والفوائد التي اظهرتها . ووقف ليندن بيل صديقاً لنا بثبات ، وأقسم بأن العرب اصبحوا يتبعون اسلوباً ونهجاً

جديدين . وادراك السير ارشيبالد بصدمة مفاجئة من انه كان هناك المزيد من القوات التركية التي تحارب العرب اكثر من التي كانت تحاربه ، وبدأ يتذكر كيف انه كان دوماً يفضل قيام الثورة العربية . واصبح الادميرال ويميس على استعداد لأن يقدم المساعدة آنذاك عما كان عليه من قبل في الايام العصيبة التي مرت بها رابغ . وكان السير ريجينالد وينجيت ، المندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك سعيداً بنجاح العمل (الثورة) التي دافع عنه لسنوات ، وقد نغصت عليه سعادته تلك لأن مكماهون هو الذي كان يعود اليه الفضل في اتخاذ المخاطرة الفعلية بهذا الصدد ، وقد انتقل من هناك قبل ان يري ازدهارها قد بدأ ، ومع ذلك فقد كان ذلك بسبب غلطة وينيجت .

وفي وسط تلك الآراء والاتجاهات ، حدثت مفاجئة غليظة لي ، فقد قدم الكولونيل بريموند ليهتئني بالاستيلاء الوجه ، قائلاً بانه كان واثقاً من موهبتي وشجاعتي العسكرية ، وانه كان يتوقع مساعدتي لتوسيع نجاحنا ، فقد اراد الاستيلاء على العقبة بقوة انجلو - فرنسية وبمساعدة الاسطول . وقد بين أهمية العقبة ، الميناء التركي الوحيد المتبقي على البحر الاحمر والاقرب الى قناة السويس ، والاقرب الى خط سكة حديد الحجاز ، والتي تقع على يسار خاصرة الجيش البريطاني في بئر السبع ، مقترحاً احتلالها بقوة مؤلفة من لواء ، الذي يجب ان يتقدم الى وادي العتم مخترقاً بلدة معان . وبدأ يتوسع في وصفه لطبيعة الارض هناك . وقلت له بانني اعرف العقبة منذ ما قبل الحرب ، وشعرت بأن خطته كانت مستحيلة التحقيق من الناحية الفنية ، فقد كان بامكاننا احتلال ساحل الخليج ، الا ا ن قواتنا هناك سيكون وضعها كالذي حدث في غاليبولي ، حيث ستكون تحت مراقبة ورحمة المدافع التركية المنصوبة على الجبال الساحلية ، وهذه الجبال الغرانيتية التي ترتفع الاف الاقدام ، كان من المتعذر اجتيازها بفوات كثيفة ، فممراتها ضيقة جداً ، وستحدث بنا خسائر باهظة في حال الهجوم من هناك . فقد كانت وجهة نظري ان العقبة كانت أهميتها شاملة واكثر عما تحدث به ، وسيكون من الافضل الاستيلاء عليها بقوات عربية غير نظامية تزحف من الداخل دون مساعدة الاسطول البريطاني .

ولم يقل لي بريموند (الا انني كنت اعـرف نواياه) بانه كـان يرمي من وراء الانزال في العقـبة ليوقف تقدم قـوات الثورة العربية ، و بأنه كـان يهـدف وضع قوات مشتركة حليفة امامهم (كالذي اقترحه في رابغ) ، وذلك حتى يقيد القوات العربية في الجزيرة العربية ، ويجعلها تضيع وقتها وجهودها من اجل الاستيلاء على المدينة . وكنت انا بدوري ، لم اطلع بريموند (الا انه كـان يعلم ذلك) على نواياي في تقدم القـوات العربيـة سريعـاً نحو دمشق . وكـان ذلك التـلاعب الصبياني يفرحني ، لانه يخفي وراءه اهداف حيوية ، الا انه في نهاية الامر انهى كـلامه بقـوله ، انه على اية حال ، سيذهب الى فيصل في الوجـه ليضع الخطة امامه .

ولم يكن علي وقتذاك ان احذر فيصل من ان هدف بريموند كان سياسياً ، فقد كـان نيوكمب في الوجه ، ومعه رغبته القوية بالتحرك . ولم يكن علينا ان نتحدث حول مشكلة العقبة . فلم يكن لفيصل فكرة عن طبيعتها وتضاريسها الجغرافية ولا عن قبائلها . فالتحمس والجهل بها سيمنحان اهتماماً مفضلاً لذلك العرض والاقتراح . وبدا لي انه من الافضل ان اسرع الى هناك وأضع ثقلي . لذلك فقد توجهت عصر ذلك اليوم الى السويس وابحرت الى الجزيرة العربية في الليل ، فوصلت الوجه بعد يومين ، لأوضح موقفي ، ذلك عندما يحضر بريموند بعد عشرة ايام ويفتح قلبه بما لديه ، أو جزء منه ، لفيصل ، فان خطته وتكتيكاته سترد اليه مع اجراء تحسينات عليها .

واستهل ذلك الفرنسي مبادرته بتقديم ستة مدافع اتوماتيكية كـاملة مع مدربها . وكانت هذه هدية رفيعة ، الا ان فيصل انتهز الفرصة ليطلب منه زيادة سخائه ، ولاحضار بطارية من المدافع الجبلية السريعة الموجودة في السويس ، مفسراً ذلك بانه كان آسفاً لترك منطقة ينبع متوجهاً الى الوجه ، حيث كانت الوجه بعيدة جداً عن هدفه ـ أي المدينة ـ ، الا انه كان من المستحيل بالنسبة له في الحقيقة ان يهاجم الاتراك (الذين كان لديهم مدفعية فرنسية الصنع) بالبنادق او المدافع القديمة التي زود بها من قبل الجيش البريطاني ، ولم تكن لدى رجاله المهارة الفنية المطلوبة لجعل المعدات القديمة تنتصر على المعدات الحديثة . وكان

عليه ان يستغل مصادره المتوفرة فقط ـ عدد الرجال والتحرك ـ ، ومالم يكن بالامكان ان تكون معداته محسنة ، فانه لم يكن هناك قول الى متى يمكن ان تدوم استطالة او اطالة جبهته القتالية هناك .

وحاول بريموند بدوره ان يصغر من موضوع المدافع ، حيث قال بانها عديمة الجدوى في حرب الحجاز (وهذا صحيح تماماً ، من الناحية العملية) . ولكن يمكن انهاء الحرب في الحال ، اذا ما جعل فيصل رجاله يتسلقون حول المنطقة مثل "الماعز" وينسفون خط السكة الحديد . واصبح فيصل غضباناً من الاستعارة التي عبر بها بريموند (وهو تعبير غير مؤدب في اللغة العربية) . ونظر الى بريموند مستهجناً ، وسأله اذا ما حاول من قبل ان يجعل نفسه "كعنزة" . ثم اشار بريموند بتودد الى مسألة العقبة ، والى الخطر الحقيقي بالنسبة للعرب من بقاء الاتراك هناك ، مصراً على ان البريطانين ، الذين كان لديهم وسائل لشن مثل تلك الحملة ، يجب ان يدفعوا قدماً ليباشروا بذلك . وقدم له فيصل في اجابته مخطط جغرافي عن تضاريس العقبة (قمت باعداء جزء منه بنفسي) ، وشرح له الصعوبات القبلية ومشكلة التموين ، فكل هذه النقاط تجعل منها عائقاً جاداً . وختم حديثه بالقول ، انه بعد الذي حدث من الاضطراب والتشوش في رابغ ، فيما يتعلق بالقوات الحليفة ، فانه ليس لديه نية في ان يواجه السير ارشيبالد موراي بطلب آخر من هذا النوع ، . وكان على بريموند ان ينسحب من المعركة بماء وجه ، وهو ينظر إلي شزراً ، في حين جلست هناك وأنا ابتسم بازدراء . فتوسل الى فيصل بأن يصر على احضار المدرعات البريطانية المتواجدة في منطقة السويس ، وان ترسل الى الوجه ، بيد انه حتى هذه المكيدة ارتدت الى نحره ، حيث انها كانت في طريقها لهناك ! وبعد ان ذهب عدت الى القاهرة لقضاء اسبوع ممتع هناك ، حيث بذلت اقصى جهدي ، وقد وافقني موراي على خطتي ، وكان أوكل او خصص لواء توليباردين من اجل حملة العقبة . ومن ثم رجعت الى الوجه .

(٢٩)

كانت الحياة في الوجه مثيرة ، وقد كان علينا ان نقيم معسكرنا بنظام . واختار فيصل موقعاً لخيامه (وكانت عبارة عن مجموعة من خيام المعيشة ، الاستقبال ، القيادة ، الضيافة ، وخيام الخدم) يبعد ميلاً عن البحر ، وعلى حافة صخور بركانية التي كانت تمتد من الساحل لغاية المنحدر السحيق الذي يواجه الوديان الفسيحة من الشرق والجنوب . وكانت خيام الجنود ورجال القبائل متجمعة في تلك الوديان الرملية ، تاركين المناخ القارس لنا ، والذي كان ممتعاً جداً في المساء بالنسبة لنا ، الذين نخيم في الجنوب . بحيث كنا عندما يهب النسيم من البحر ، نتذمر من حفيف الامواج ، الضعيفة والبعيدة ، مثل صدى اصوات حركة السير في شوارع لندن الفرعية .

وكانت تقع تحتنا مباشرة خيام رجال قبيلة عقيل التي نصبت بصورة غير منتظمة . والى الجنوب منها كانت توجد قطع مدفعية راسم ، وبجانبها مدافع عبدالله الرشاشة ، وهي في صفوف منتظمة ومعها دوابها منتشرة . وكان الى البعيد عنا يوجد السوق ، الذي كانت تعرض فيه السلع على الارض ، وخيام رجال القبائل كانت مبعثرة هنا وهناك وتملأ كل اخدود او مكان لايتعرض للهواء . وكانت البلدة تقع خلف آخر خيمة لهم ، وتظهر فيها مجموعات من الجمال تأتي وتذهب من خلال اشجار النخيل المنتشرة القريبة ، والتي كانت تحتوي بينها على ابار عديدة ، وكانت تظهر في الخلف سفوح الجبال وسلسة من الصخور العنقودية كالقلاع المهدومة ممتدة في الافق على طول امتداد الساحل .

وكما كان وضع التخييم في الوجه ، كل مجموعة من الخيام مبتعدة عن الاخرى ، فقد كنت اقضي وقتي متنقلاً بينها جيئة وذهاباً ، فتارة الى خيام فيصل ، وتارة الي الخيام الانجليزية ، وتارة الى خيام القوات المصرية وتارة اذهب الي البلدة ، او الى الميناء أو الى مركز اللاسلكي ، وهكذا فقد كنت امشي طيلة النهار الى اعلى والى اسفل دون تعب او كلل في تلك الممرات ذات الارض الصخرية المرجانية ، وانا انتعل صندلاً او حافياً ، مُقسياً قدماي ، معوداً اياها على السير على تلك الارض الحارقة والحادة دون الم ، وحتى أعود جسدي على محاولات أو امور اعظم .

كان العرب يتساءلون ويستغربون لماذا لا امتطي جواداً ، فكنت اربكهم بكلام غير قابل للاستيعاب من انني كنت اعود نفسي علي الحياة القاسية ، أو اعترف لهم بانني كنت افضل المشي على الركوب ، وذلك من اجل توفير جهد الدواب . ومع ذلك فان الذريعة الاولى كانت صحيحة والثانية ايضاً كانت صحيحة . كان هنالك شئ مؤذ لكبريائي ، وكريه ، نشأ عند رؤية هذه الانماط المنخفضة للحياة ، فوجودها ضرب انعكاساً متذللاً على جنسنا البشري .

كان فيصل مشغولاً طيلة النهار والليل بالامور السياسية ، التي لم يكن بامكاننا سوى المساهمة بالشئ القليل فيها . وفي خارج الخيام ، كان الجميع مشغولين بأمورهم ويسلوننا باستعراضاتهم ، وباطلاق نار الابتهاج ، ومسيرات الانتصار . وايضاً كانت تقع حوادث من جراء ذلك ، فبينما في احدى المرات ، كانت مجموعة من الناس يلعبون خلف خيامنا انفجرت بهم قنبلة طائرة بحرية ، من مخلفات الهجوم على البلدة ، فتناثرت اوصالهم واطرافهم حول خيام المعسكر ، و.شقت دمائهم اقمشة الخيام وانطبعت عليها . فامر فيصل بتغيير الخيام وازالة اشلاء القتلى . وفي يوم آخر شبت النار في احدى الخيام ، واصابت ثلاثة من الضيوف بجروح ، فتجمع حشد حولها واخذوا يزمجرون بالضحك لغاية ما أخمدت النار ، ثم اسعفنا المصابين . وفي اليوم الثالث ، جرحت فرس من جراء اصابتها بطلقة فرح ، وثقبت عدة خيم من جراء ذلك .

وفي احدى الليالي تمرد رجال ضد قائدهم ابن دخيل وذلك لتغريمهم بالمال الى حد كبير وجلدهم بالسياط بشكل شديد . فاقتحموا خيمته وهم يصرخون

ويطلقون النار واخذوا يقذفون باغراضه خارجاً ويضربون خدمه ، ولم يكن ذلك كافياً ليشفوا غليلهم ، فتذكروا ماحدث بينبع فذهبوا ليقتلوا ابن ذخيل . ورأى فيصل من على بعد مشاعلهم فانطلق حافي القدمين ليتواجد بينهم ، ويقوم بمنعهم وهو حانق بالغضب ، ثم لحق به الفرسان والحراس وهم يشهرون سيوفهم ، وحدث قتال اسفر عنه قتل اثنان وجرح ثلاثين . وفي اليوم التالي انتقل ابن دخيل من موقعه .

كان موراي قدم لنا عربتان مدرعتان من نوع رولزريس ، كانتا جردتا من الحملة العسكرية في شرق افريقيا ، وكان طواقمهما من البريطانيين ، الا ان وجودهم في الوجه جعل الامور اكثر صعوبة بالنسبة لنا ، لأن الطعام الذي كنا نأكله والماء الذي كنا نشربه لم يكن صحياً من وجهة النظر الطبية ، الا ان اولئك الانجليز كانوا مسرورين بوجودهم هناك . وقد واجهتهم صعوبة في السواقة في البدء ، الا انهم مع مرور الوقت اصبحوا مهرة على السواقة على رمال الصحراء وعلى تضاريسها ، وقد احب العرب هاتين اللعبتين (السيارتين) الجديدتين ، واطلقوا عليهما اسم الجياد الشيطانية .

كما ان الاسطول اضاف شيئاً عظيماً لمنفعتنا في الوجه ، فقد ارسلت السفينة "اسبيغل" من قبل بويل لتكون كسفينة محطةاو مركز ، ومعها اوامر لتقديم أي شئ لنا ولتقوم بالتعاون حسبما يطلب الكولونيل نيوكمب من امور . وكان قائدها فتزموريس ذا روح مضيافة ، ويجد متعة بالعمل معنا على الشاطئ ، وقد ساعدنا في العديد من الامور ، أهمها في امور الاشارة واللاسلكي ، حيث انه كان خبيراً في اللاسلكي . وفي احدى الأيام قدمت السفينة "نورث بروك" وانزلت من على متنها جهاز ارسال عسكري ، مركب على شاحنة خفيفة . وحيث انه لم يكن بامكاننا تشغيلها ، فقد اسرع فتزموريس ومعه نصف طاقمه ، وحركوا الشاحنة الى موقع ملائم ، وقاموا بتركيب الجهاز بطريقة محترفة ، ومن ثم قاموا بتشغيله . وقبل الغروب كان يتصل مع السفينة نورث بروك المندهشة من ذلك ، ويجري محادثة طويلة مع قائدها . وزادت تلك المحطة اللاسيكة من فعالية قاعدة الوجه ، وكانت تشغل ليلاً ونهاراً ، مالئة منطقة البحر الاحمر بالبرقيات والرسائل اللاسلكية المرسلة بثلاث لغات ، وبعشرين نوعاً مختلفاً من رموز الشيفرة العسكرية .

(٣٠)

كان فخري باشا لايزال يلعب لعبتنا ، وقد أمر ببناء خنادق وخط تحصينات حول المدينة ، بحيث تكون قوية بما فيه الكفاية ليكون من المستحيل قصفها من قبل العرب . (فمثل تلك المحاولة لم تجر ابداً ولم يفكر بها حتى) . ووزعت القوات الاخرى على طول امتداد خط السكة الحديد على شكل حاميات قوية في كافة محطات المياه الواقعة مابين المدينة وتبوك ، وفي مواقع اصغر حجماً بين هذه الحاميات ، ذلك حتى تتمكن الدوريات اليومية ان تضمن تقفي الأثر وباختصار ، فقد تقهقر ليتخذ وضعاً دفاعياً لايمكن تخيله . وذهب جارلاند الى الاتجاه الجنوبي الشرقي من الوجه ، ونيوكمب الى الاتجاه الشمال الشرقي ليضعوا المتفجرات في حفر لتدمر السكة الحديد والجسور ، ويضعون الالغام الاتوماتيكية لتدمير القطارات . وانتقل العرب من مرحلة الشك الى مرحلة التفاؤل الشديد ، وكانوا واعدون بخدمة ومساعدة نموذجية . وقام فيصل بتجنيد رجال قبيلتي البيلي والمواهب ، الذين جعلوه سيدا على المنطقة الممتدة مابين خط السكة الحديد والبحر ، ومن ثم ارسل رجال قبيلة جهينة الى عبدالله الموجود في وادي العيص .

وامكنه آنذاك ان يستعد للتعامل بشكل معقول مع الخط الحديدي الحجازي ، ولكن بطريقة عملية افضل ، وقد التمسته اولاً بأن يتأخر أو يؤخر وجوده في الوجه ، وان يقوم بعمل تحرك وحشد كثيفين بين القبائل التي تقيم او تتواجد خلفنا ، ذلك انه من الممكن ان تمتد وتتوسع ثورتنا في المستقبل . ويمكن ايضاً ان يهدد خط السكة الحديد من منطقة تبوك باتجاه الشمال حتى معان . فقد

كانت رؤيتي لنهج واسلوب الثورة او الحرب العربية عمياء جزئياً . وبما ان فيصل اراد لحسن الحظ ان يغير من عقول الرجال بدلاً من تدمير الخطوط الحديدية ، فان الهدف مضى بشكل افضل .

وابتدأ بجيرانه الشماليين من الحويطات الذين كانوا يسكنون الساحل . وبعد ذلك ارسل الى بني عطية الرجال الاشداء الذين كانوا يتواجدون في منطقة الشمال شرق ، وحصل على خطوة عظيمة عندما حضر زعيمهم عاصى بن عطية وادى امامه قسم الولاء . وكان حافزه الرئيسي في ذلك هو غيرته من اخوانه ، ذلك اننا لم نكن نتوقع منه تقديم مساعدة نشطة ، الا ان الخبز والملح معه منحنا حرية التحرك عبر اراضي قبيلته . وكانت تقع في الخلف منه قبائل تدين بالطاعة والولاء لنوري الشعلان ، شيخ مشايخ او امير قبائل الرولا ، وكان يأتي في المرتبة الرابعة بعد الشريف حسين وابن سعود وابن رشيد في الجزيرة العربية .

كان نوري الشعلان شيخاً مسناً ، حكم رجال قبيلة عنزه لمدة ثلاثين سنة ، وكان هوايضاً زعيماً لقبائل الرولا ، الاانه لم يكن يفضلهم ، ولم يكن ايضاً ذا باع في الحرب ، وقد استطاع ان يستمد ويحصل على الزعامة بواسطة قوة شخصيته . وليحصل على ذلك فقد قام بقتل شقيقين له . واضاف الى زعامته فيما بعد قبيلة الشرارات وعدد آخر من القبائل ، وكانت كلمته بمثابة القانون المطلق في المناطق التي كانت تابعة له . كما انه لم تكن لديه دبلوماسية الشيخ العادي ، فقد تصدر منه كلمة واحدة وتنتهي المعارضة ضده ، او ينتهي معارضيه . ولحسن الحظ ، فقد كان هذا هيناً . فقد أمن فيصل ذلك منذ سنوات ، ابقى عليه من خلال تبادل الهدايا معه ، عندما كان في المدينة وفي ينبع ، والآن يقوم بذلك من الوجه ، حيث ارسل فايز الغصين اليه . والذي عاد ومعه هدايا قيمة محمولة على عدة مئات من الجمال القوية . وقد كان نوري بالطبع مازال مبقياً على علاقته الودية مع الاتراك . فقد كانت كل من دمشق وبغداد مركزي اسواقه ، وكان بامكانهم ان يجعلوا قبيلته نصف جائعة خلال ثلاثة اشهر ، اذا ما شكّوا فيه ، الا اننا كنا نعلم انه عندما تحين اللحظة فانه لابد وان يقدم مساعدته العسكرية لنا . ولغاية مايحين ذلك الوقت فلا بأس من الابقاء على بعض علاقاته مع الترك .

ان تعاونه يمكن ان يفتح امامنا وادي سرحان ، وهو طريق شهير وملائم للتخييم ، ويوجد به سلسلة من حفر المياه والآبار، وهو يمتد في سلسة من الانخفاضات تبدأ من الجوف ، التي كانت بمثابة عاصمة لنوري ، في الشمال شرق ، وباتجاه الشمال حتى الازرق ، وبالقرب من جبل (الدروز) العرب ، في سوريا . وكنا بحاجة لأن نمر بحرية في وادي السرحان لنصل الى قبيلة الحويطات الشرقية التي كان زعيمها عودة ابو تايه يعتبر من اعظم المقاتلين في شمالي الجزيرة العربية . وبواسطة وسائل عودة فقد يمكننا السيطرة على كافة القبائل المتواجدة من معان الى العقبة ، بحيث يمكننا بمساعدتهم لنا الاستيلاء على العقبة وجبالها وطرد الحاميات التركية منها . وبمساعدته فقط ، يمكننا ان نندفع من الوجه في رحلة شاقة وطويلة الى معان . ومنذ ان كنا في ينبع فقد ابقينا على اتصال طويل معه ونحن نحاول كسبه الى جانبنا .

وقمنا في سبيل ذلك بخطوة كبيرة للامام من الوجه . فقد وصل الينا ابن زعل ، وهو ابن عم عودة ابو تايه ، والزعيم الحربي للقبيلة ، في السابع عشر من شباط ، حيث كان يوماً مشهوداً بالنسبة لنا . قدم الينا عند الفجر ومعه خمسة من زعماء الشرارات من صحراء شرق تبوك ، وكانوا يحضرون معهم هدية عبارة عن بيض النعام العربية المتوفرة بشكل نادر في منطقتهم . وقدم بعدهم ضيف الله ابو طيور ، وهو ابن عم حمد ابن جازي ، وكان يعتبر حاكماً وشيخاً اعلى لحويطات الوسط في منطقة معان ، وكانوا يعتبرون مقاتلون رائعين ، الا ان هناك عداءات دموية مع ابناء عمومتهم ، وذلك بسبب الصراع القديم بين عودة ابو تايه وحمد ابو تايه . وكنا فخورين بقدومهم ورؤيتهم لتحيتنا ، ومع ذلك فلم نكن قانعين ، اذ انهم كانوا اقل ملائمة من ابو تايه بالنسبة لهجومنا الهادف ضد العقبة .

وقدم بعدهم ابن عم نواف ، الابن الاكبر لنوري الشعلان ، ومعه جواداً ارسل كهدية من نواف لفيصل . وكانت عشيرة الشعلان على عداء مع عشيرة الجازي ، وينظر كل منهم بحقد الى الآخر لذلك فقد قمنا بفصلهم عن بعض في الخيام . وجاء بعدهم الشيخ ابو تجيجه زعيم قبيلة حويطات الساحل . وبتأييده لنا فقد تم اغلاق المنفذين التركيين على البحر الاحمر ، وهما دهبا ومويله،

اللذان كانا يقعان ضمن اراضيه . وأُفسح له مكاناً على بساط فيصل ، وقُدم له احر الشكر على النشاط الذي قامت به قبيلته ، مما جعلنا نقترب من حدود العقبة. وعند العصر قدم ابن زعل ومعه عشرة شيوخ من اتباع عودة ابو تايه . وقام بتقبيل يد فيصل مرتين ، مرة من اجل عودة ابو تايه ، ومرة من اجله ، ثم جلس واعلن بانه قدم من طرف عودة ليقدم سلاماته وتحياته وليتلقى الاوامر . فقام فيصل بسياسته الحكيمه ، وهو يضبط غبطته ، بتقديمه بشكل وقور الى خصومه رجال حويطات الجازي . وتعامل معهم ابن زعل بشكل فاتر ، وعقدنا معه فيما بعد محادثات خاصة مطولة ، وحمّلناه هدايا ثمينة ، ووعوداً أثمن ، ومعه رسالة خاصة من فيصل الى عودة يقول فيها بأنه لن يطمئن فكره لغاية ما يمكن ان يراه وجهاً لوجه في "الوجه" ، فقد كان اسم عودة مشهوراً بالفروسية ، الا انه لم يكن معروفاً لدينا . وبما ان مسألة العقبة كانت حيوية جداً بالنسبة لنا ، فانه لم يكن بالامكان حدوث أي خطأ بهذا الصدد . فينبغي عليه ان يأتي ذلك حتى يمكننا ان نقيمه ، ونقوم بصياغة خططنا المستقبلية فعلياً في حضوره ، وبمساعدته.

وباستثناء كل تلك الاحداث التي كانت سعيدة ، فان ذلك اليوم لم يكن مختلفاً بشكل جوهري عن كل يوم كان يقضيه فيصل هناك . الا ان تسارع الاحداث والاخبار جعلت يومياتي ومذكراتي مليئة وسمينة . فقد كانت الطريق المؤدية الى الوجه مكتظة بالوفود والمبعوثين والمتطوعين وبالشيوخ الكبار وهم قادمون ليقدموا ويؤدوا قسم الولاء لفيصل . وقد اوجد فيصل نمطاً جديداً من القسم ، يحلف به على القرآن ويؤدى بين يديه ، وذلك بأن يقسم الموالي "بأن يلبث وينتظر عندما ينتظر هو (فيصل) ، وان يسير معه عندما يسير ويرتحل ، وان لايقوم باطاعة أي امر تركي ، وان يتعامل بلطف مع كافةالذين يتكلمون العربية (سواء كانوا من العراقيين ، الحلبيين ، الدمشقيين ، او غيرهم من اصحاب الدماء العربية النقية) وان يضع شعار الاستقلال فوق جميع مصالحه ، العائلية والحياتية" .

ثم بدأ ايضاً بمقابلتهم ومواجهتم على الفور ، عندما يكونون امامه ، مع

اعدائهم وخصومهم القبليون ، ويسوي خصوماتهم ونزاعاتهم . وكان هناك حساب للربح والخسارة مع ما كان يقوم به فيصل بالتوسط بين المتنازعين . وغالباً ما كان يقوم بدفع ثمن مشاركته أو توسطه من ماله الخاص ، ليدفع عقد المصالحة بينهم قدماً . وقد عمل فيصل خلال سنتين يومياً ودون كلل ، ليضع الامور في نصابها ويجمع شمل القبائل العربية المتفرقة والمشتته ، وذلك ليخلق مجتمع عربي واحد ، وان يجمعهم ويربطهم في بوتقة واحدة من اجل شن الحرب ضد الاتراك . لذلك لم يعد هناك وجود لعداء دموي في أي من المناطق التي كان يجتازها او يحط بها . وكان هو عبارة عن محكمة استئناف ، مطلقة ودون منازع ، بالنسبة لقبائل غرب الجزيرة العربية .

وقد أظهر نفسه بانه مستحق لهذا الانجاز . وهو لم يصدر مطلقاً قراراً جزئياً ، ولاقراراً لايطبق عملياً ، بحيث يمكن ان يؤدي الى التشوش والفوضى . ولم يكن لأي عربي أن يطعن باحكامه ، أو ان يشك بحكمته وكفاءته في الامور باستخدام تكتيكه ، وذاكرته العجيبة ، فقد حصل على السيطرة والسلطة على كافة القبائل المنتشرة من المدينة الى دمشق وما وراءها . واصبحت الثورة العربية في افضل معناها القومي ، اذ ان جميع العرب كانوا يدا واحدة لمصلحة مشتركة ، ووضعوا مصالحهم الخاصة جانباً ، وتم بواسطة هذه الحركة او الثورة ، وبواسطة التطبيق الصحيح والمقدرة الصحيحة ، تحقيق الانتصار .

(٣١)

وردت برقية مستعجلة من كلايتون من القاهرة وسط هذا الزخم المبهج من العمل ومعها تعليمات بالانتظار في الوجه لمدة يومين ، وانتظار وصول السفينة «نور البحر» ، وهي سفينة دورية مصرية ، حيث كانت تحمل اخباراً لنا . ووصلت السفينة في اليوم المحدد ، ونزل من على متنها البريطاني ما كروي ، الذين قام باعطائي نسخة من برقية تعليمات طويلة مرسلة من جمال باشا الى فخري باشا في المدينة . وكانت تلك التعليمات واردة من انور باشا وهيئة الاركان الالمانية في القسطنطينية ، يأمر فيها بالتخلي التدريجي عن المدينة ، واجلاء القوات التركية منها بالمسير الطويل ، اولاً الى منطقة الحدية ، ثم الى العلا ، ومن ثم الى تبوك ، واخيراً لتصل الى معان ، حيث يمكنها ان تقيم هناك موقعاً محصناً .

وكانت تلك الخطوة او التحرك ملائمة بشكل ممتاز ، الا ان القوات المصرية كانت قلقة من توقع خمسة وعشرين الف جندي اناضولي (تركي) ، ومعهم فيالق مدفيعة غير عادية ، فجأة على جبهة بئر السبع . وقد اخبرني كلايتون في رسالته ان تؤخذ وتعامل التطورات الراهنة بعناية فائقة ، وان يوفر كل جهد لاحتلال المدينة ، أو ان تدمر الحامية التركية هناك عندما ينسحبون منها . وكان نيوكمب على اتصال ايضاً ، يقوم بسلسلة نشطة من التدميرات ، لذلك فقد وقعت مسؤولية تلك الخطة علي . وخشيت ان يكون قد فاتنا الكثير ، حيث ان

تلك البرقية كان مضى عليها عدة ايام ، وان اجلاء او انسحاب القوات التركية كان بدأ .

واطلعنا فيصل على الوضع بصراحة ، فمصالح الحلفاء في هذه الحالة تتطلب التضحية ، او على الاقل تأجيل المصلحة (الخطة) العربية الحالية . ووقف ، كعادته ، ووافق فوراً على ان يبذل اقصى جهده . وقمنا بعمل خطة حسب مصادرنا الممكنة والعمل على تحريكها فيما يتعلق بالخط الحديدي ، وتدميره . وكان على الشريف مستور ، حسب الخطة ، وكان رجلاً مخلصاً وهادئاً ، ومعه راسم ، ومجموعة من رجال القبائل وقوة مشاة محمولة على البغال ، ومدفع ميدان ، ان يتوجهوا مباشرة الى منطقة الفجير التي تقع الى الشمال من وادي العيص ، ليقيموا هناك موقعنا الاول باتجاه سكة الحديد ، من ناحية المنطقة الشمالية التي كان يعسكر فيها عبدالله بقواته . وانيطت بعلي بن الحسين ، وهو من جده ، مهمة موقع مستور ، وأوكلنا الى الشريف ناصر بأن يمكث قريباً ايضاً هو ورجاله ليقدموا المساعدة اذا مالزم الامر . ثم ارسلت الى نيوكمب لياتي من اجل تلقي اخباراً . وكان على محمد علي ان يتحرك من " دهابه " الى واحة قريبة من تبوك ، ذلك حتى اذا ما كان انسحاب الاتراك قطع شوطاً بعيداً بأن نكون مستعدين لذلك . وهكذا فان جبهتنا التي تمتد نحو خمسين ميلاً تكون مستعدة للهجوم ، في حين ان فيصل نفسه ، في الوجه كان مستعداً لتقديم أية مساعدة لأي قطاع يكون بحاجة له .

وكان دوري يتضمن بأن اذهب الى عبدالله لاطلعه على الوضع ، وان يكون مستعداً لمهاجمة القوات التركية مباشرة عند مرورها . وكنت آمل بأن نقوم باعاقة تقدمهم ، وذلك بالقيام بعدة غارات صغيرة على طول هذا الخط الطويل ، مما يشوشهم ويعيقهم . وكانت القوات التركية المتواجدة في المدينة ، لاتملك سوى القليل من الدواب اللازمة لعملية النقل . لذلك فقد امرهم انور باشا (القائد العام للقوات التركية آنذاك) بأن يضعوا المدافع والمؤن في القطارات ، وان تسير مع تلك القطارات ارتالهم من الجند سوية ، تسير بشكل حثيث مع القطارات . وكانت تلك تعتبر عملية لم يسبق لها مثيل ، واذا ما اتيح لنا عشرة ايام لاتخاذ مواقعنا ، فانه لابد وان تسنح لنا فرصة القضاء عليهم جميعاً .

وغادرت الوجه في اليوم التالي ، وكنت مريضاً وفي وضع غير ملائم للمسير الطويل ، في حين اختار لي فيصل مع كثرة مشاغله مجموعة من الرجال ليرافقوني ، وكان عددهم اربعة ، الا انهم لم يكونوا ملائمين ايضاً لمثل تلك الرحلة . وسرنا لمدة اربعة ساعات ثم توقفنا لننام ، وفي اليوم التالي قطعنا مرحلتين من المسير ، كل منها لمدة خمسة ساعات ، ثم خيمنا في وادي ابو الزريبات . وكانت بركة مائه الكبيرة هناك اصبحت مالحة جداً وغير ملائمة او صالحة للشرب ، وكان كما قيل لي يتواجد بالقرب بئراً كانت مياهه صالحة للشرب ، الا انني لم اسعى اليه لانني كنت اعاني من شدة الحمي والحرارة ، وكنت تعباً .

وقبل فجر ذلك اليوم سرنا لنجتاز وادي حمده ، ثم مالبثنا ان اخطأنا الطريق . وعندما انقضى النهار عدلنا من اتجاه مسيرنا واجتزنا مستجمعاً للمياه لننزل الى "الخُبت" ، وهو سهل ممتد حتى "الصخور" ، وهي مجموعة من الجبال الغرانيتية والتي كانت بارزة على طريقنا من "ام لج" . وكانت الارض خصبة بنبات الحنظل حيث بدت ثمارها ونباتاتها مبهجة . وقال أحد مرافقي وهو من قبيلة جهينة ان هذه النباتات هي طعام ممتاز للخيول ، كما انها تمنعهم من العطش لعدة ساعات . وقال آخر انه لودهن باطن قدمه بعصير ثمارها لاستطاع ان يتحرك ويمشي بفعالية ، الا انهم وافقوا جميعهم ، بأن هذه النبتة هي عديمة الفائدة او انها سامة لتستعمل كعلف للجمال .

وهذا الكلام امتد بنا حتى اجتزنا "الخُبت" ، وكانت هناك مسافة ثلاثة اميال من الحديث السار ، وسرنا من خلال سلسلة جبال منخفضة الى سلسلة جبال اصفر . واصبحنا نرى الصخور كل اثنتين متلازمتان مع بعض حتى ناحية الشمال شرق ، الى حيث تتواجد كومة ضخمة من الصخور البركانية الرمادية الضاربة الى اللون الاحمر ، حيث كانت تقي من الشمس الحارقة ومن لدغ وكشط الرياح الرملية . وكانت منطقة الصخور الثالثة ، التي كانت منتصبة لوحدها تقريباً ، كانت عبارة عن صخور وهمية مما اثارت فضولي . وكان ترى عن قرب كما لو انها دفنت عميقاً في الارض ، وكانت لونها بنياً . وكانت

واجهتيها الجنوبية والشرقية ناعمتان تماماً ، وقمتاها مصقولتان وتشعان ؛ وباختصار فانها جميعها من اغرب الجبال في منطقة الحجاز ، التي تعتبر بلاد الجبال الغريبة . وسرنا بروية باتجاهها ، ومن خلال رذاذ خفيف من المطر الذي كان يأتي بصورة غريبة وجميلة مجتازاً اشعة الشمس . وقادنا طريقنا في المرور ما بين الصحارى والصخور لنمر خلال ممر ضيق ارضه رملية ، وجدرانه عالية من الصخور ، وكانت حافة نهاية الممر حادة كالسكين ، ومنها نزلنا الى فجوة رصفت ارضها بجلمود (صخرة كبيرة) والتي سويت بواسطة المسير عليها من عدة اجيال من رجال القبائل الذين اعتادوا على استخدام هذا الممر . ثم بعد ذلك خرجنا الى منطقة فسيحة ، توجد بها نتؤات صخرية هنا وهناك ، ورمال فضية ناعمة التي كانت ماتزال رطبة من جراء القنوات والسيول المائية ، ويؤدي مجراها باتجاه "الحيران" .

ثم دخلنا الى ارض غرانيتية مقفرة ، تتخللها الروابي ، وكانت جمالنا مترددة في السير عليها . وبعد العصر مباشرة وصلنا الى وادي فسيح ذو اشجار وأخذنا ننزل اليه بروية وحذر . وسرنا فيه لمدة ساعة بشكل مريح لغاية ماتعرضنا لمتاعب ثانية ، حيث اضطررنا للترجل وقيادة دوابنا من خلال ممر جبلي رصفت درجاته بقطع من الصخور التي اصبحت مصقولة على مر السنين الطويلة من المرور بالاقدام عليه ، الا انه كان خطراً جداً خلال الطقس الرطب اوالماطر ، وقادنا ذلك لنسير خلف جبال ضخمة ، ومن ثم ننحدر الى وديان صغيرة . ومن ثم في طريق صخري متعرج . وبعد خمسة عشر دقيقة من المسير فيه كنا مسرورين لنصل الى مرتفع عال والذي قام المسافرون السابقون بطبع ذكرياتهم وملاحظاتهم على صخوره . وهي شبيهة بالنصب الجانبية التي وضعت على طريق "المستورة" ، في رحلتي الاولى للجزيرة العربية ، التي قمت بها من رابغ الى فيصل في قرية الحمراء .

وتوقفنا لنضيف ملاحظة للذكرى الى الملاحظات العديدة ، ومن ثم نزلنا بطريق رملي الى وادي حنبق ، وهو وادي فسيح وفيه اشجار كثيفة . وكان سطحه او بطنه ابيضاً نظيفاً وله مناظر جميلة عن بعد ، وفيه عشب اخضر متنامي ، وتوقفنا هناك لمدة نصف ساعة لنجعل دوابنا الجائعة تأكل من عشبة اليانع .

ومن ثم اجتزنا الوادي الى تفرع او طريق فرعي ضخم يقابلنا . كان ذلك وادي قيطان ، الجميل ايضاً . وقد نبتت فيه الاعشاب والاشجار بين الصخور ، وكان يقع على اليمين جبال منخفضة ، وعلى اليسار مرتفعات عالية تدعى " الجدوة " وهي متساوية القمم وصخورها غرانيتية حمراء .

وخيمنا هناك اخيراً ، وعندما حلت الجمال وسيقت لترعى ، استلقيت بجانب الصخور واخذت قسطاً من الراحة . كان جسدي متألماً جداً مع الم في الرأس ودرجة حرارة عالية ، ومايرافقها من آلام الدزنتاريا الحادة ، التي كانت تؤلمني طيلة المسير ، كما سببت لي المزيد من الاجهاد عندما تسلقنا المرتفعات واستنفذت الكثير من قوتي . ان هذا النوع من الدزنتاريا الساحلية للجزيرة العربية تسبب الاماً كضرب المطارق كما تحطم ضحيتها لبضعة ساعات ، وبعدها تنهي نوبتها او تأثيراتها الشديدة ، الا انها تترك الانسان مجهداً ومتعباً للغاية ، ومعرضاً لعدةاسابيع للاصابة بانهيارات عصبية مفاجئة .

كان رفقائي يتشاجرون طيلة النهار ، وبينما كنت مستلقياً بجانب صخرة أُطلقت رصاصة . الا انني لم أُعر انتباهاً لذلك ، حيث انه كانت هناك ارانب برية وطيور في الوادي ، وربما ان احداً منهم اراد اصطيادها ؛ الا انه بعد برهة نبهني سليمان ، احد مرافقي وجعلني اتبعه باجتياز الوادي الى مقابل فجوة في الصخور ، حيث كان واحد من رجال قبيلة عقيل ، من بريده ، مستلقياً ميتاً وعلى صدغه اثار طلقة . ولابد ان النار اطلقت عليه عن قرب لانه قتل من طلقة واحدة . وكان الرجال الآخرين من قبيلة عقيل يفرون بشكل مذعور وعندما استفسرت منهم عن الامر ، قال لي رئيسهم ، ان حمد البربري ، هو الذي ارتكب عملية القتل . وشككت على الفور بسليمان ، لان هناك نزاع مابين قبيلتي عبطان وعقيل والذي اشتعل بينهما في ينبع والوجه ، الا ان علي ، رئيسهم ، أكد لي بأن سليمان كان معه على بعد ثلاثمائة ياردة في اعلى الوادي حيث كانا يقومان بجمع الحطب ، عندما أطلقت النار . وارسلتهم جميعاً للبحث عن حمد ، وعدت لاستلقى وانا اشعر بأن الذي حدث قد زاد من مصاعبي والآمي في ذلك اليوم اكثر من كافة الايام الاخرى .

وبينما كنت مستلقياً هناك سمعت حفيفاً ، ففتحت عيناي ببطء لأجد حمد وهو يريد ان يأخذ سرجه بينما كان يدير ظهره لي . فوضعت بندقيتي في ظهره ومن ثم هددته بالقتل ان لم يصغ بندقيته جانباً . فقام بوضع بندقيته على الارض، وبقي تحت رحمتي لغاية ما قدم الاخرون . وعقدنا له محاكمة على الفور و بعد برهة اعترف حمد بانه كان هو وسالم القتيل يتناوشان بالكلام ، ثم مالبث ان استبد به الغضب فقام بقتله فجأة . وانتهى تحقيقنا معه عند ذلك . وطلب رجال قبيلة عقيل ، الذين كانوا اقرباءً للرجل القتيل ، الدم بالدم ، وأيدهم الآخرون في ذلك ؛ وحاولت عبثاً ان اتحدث مع علي . فقد كان رأسي يشتعل بالحرارة ولم يكن باستطاعتي التفكير .

وفجأة برز امامي امراً مرعباً ، حيث انه كان هناك مغاربة بربر اخرين في جيشنا ، واذا ما قام رجال قبيلة عقيل بقتل واحد منهم كأخذ بالثأر ، فان وحدة جيشنا سوف تتأثر بذلك وتتعرض للخطر . فلا بد ان يكون هناك اعدام رسمي ، وقلت لحمد اخيراً ، وبشكل يائس ، بانه يجب ان يموت عقاباً له ، ووضعت عبء قتله على نفسي . فلربما قد لايعتبروني مؤهلاً للأخذ بالثأر او حيادياً . فعلى الاقل لن يكون من الممكن ان يكون هناك اخذ بالثأر او الانتقام من اتباعي ، حيث انني كنت غريباً ولااقارب لي هناك .

وطلبت منه ان يتجه الى آخر حافة (ضفة) الوادي عند جدرانه الحجرية ، ووقفت مقابله هناك ومنحته بضعة دقائق قضاها وهو يبكي منبطحاً على الارض، ومن ثم جعلته ينهض واطلقت النار على صدره . فسقط على الاعشاب المائية والدماء تتدفق من ثيابه وهو يترنح ملتوياً لغاية مااقترب من المكان الذي كنت اقف فيه . واطلقت عليه النار ثانية ، الا انها اصابت رسغه فقط ، ثم اخذ يستنجد بصوت منخفض ، واستلقى بعد ذلك على ظهره واصبح بمواجهتي، فملت الى الامام واطلقت عليه للمرة الاخيرة طلقة اصابت اعلى رقبته ، وارتعش جسده قليلاً ، وناديت على رجال عقيل الذين قاموا بدفنه في ارض الاخدود . وقد اصابني الارق طيلة تلك الليلة وبقيت مستيقظاً لغاية ساعات ماقبل الفجر ، ثم قمت بايقاظ الرجال لنتابع مسيرنا ونخرج من وادي القيطان ، ثم جهزوا جملي ورفعوني على السرج .

(٣٢)

اجتزنا ممراً قصيراً شديد الانحدار لنخرج من وادي القيطان ، ومن ثم لنتحول جانباً الى وادي الريمي ، وهو وادي يرفد اليه الماء ، وذلك للحصول على الماء . ولم تكن هناك آبار حقيقة ، وانما فقط فجوات ينساب منها الماء من خلال صخور الوادي. وقمنا بتعبئة قربنا الجلدية بالماء ، ثم قام ارسلان ، وهو سوري بصنع الخبز ، واسترحنا لمدة ساعتين ومن ثم تابعنا مسيرنا لنمر في وادي العمق ، وهو وادي اخضر سهل يجعل السير مريحاً علية بالنسبة للجمال .

وبعد ان اجتزناه سرنا على اكوام من الاحجار الغرانيتية واجتزنا ممراً ضيقاً الى اعلى يشبه الدرج ، الا ان حجارته كانت مكسرة وملتوية وصعبة على الجمال، وكان ممراً قصيراً . وبعد ذلك اصبحنا نسير في واد فسيح لمدة ساعة ، وتقع على جانبه الايمن جبال منخفضة وعلى جانبه الايسر جِّبال عالية ، وكانت هناك برك او مستجمعات من المياه بين صخور . وكانت تتواجد هناك خيام نصبت تحت الاشجار على ارض منبسطة ، والخصوبة على سفوحه كانت كثيفة، وترعى عليها قطعان الغنم والماعز ، وحصلنا على الحليب من بعض العربان ؛ فأول حليب ماعز شربته كان أُعطي لي من قبل بعض رجال قبيلة عقيل خلال سنتي القحط .

كان نهاية مسار الوادي مروعاً في منظره والنزول من خلفه الى وادي المراخ خطراً تقريباً ، الا ان المناظر الخلابة من القمة عوضتنا عن ذلك . وكان وادي المراخ فسيحاً وطريقه سالمه او مأمونة ، تسير بين جدارين مستقيمين ومنتظمين من

الجبال حتى تقاطع وديان من اليسار والشمال والامام لتبدو وكأنها تلتقي . وهناك اكوام مصطنعة من الحجارة كومت حول الممر او الطريق . وما ان دخلنا الوادي حتى رأينا اسواراً من الجبال الرمادية تميل الى الخلف على كلا الجانبين في شبه دائرة . وامامنا الى الجنوب كان المنعطف مقطوع او مجتاز بجدار مستقيم من حجارة اللافا الحممية الزرقاء السوداء ، قائمة او مصفوفة خلف دغل من الاشجار الشائكة . واتجهنا الى هناك لنستظل بها ، ولنستظل من شر الهواء الحار بحثاً عن البرودة المتظاهرة .

وكان النهار في ذروته شديد الحرارة ، مما زاد في ضعفي ووهني والالم في رأسي ، وكانت الريح المحمومة تنفح وتضغط مثل الايادي اللاذعة على وجوهنا وتحرق عيوننا . وجعلني الالم اتنفس من فمي في لهاث ، وشقق الريح شفتاي وجفف حلقي لغاية ما اصبح الكلام صعباً علي ، واصبح شرب الماء معه مؤلماً ، ومع ذلك فقد كنت محتاجاً لأن اشرب على الدوام ، حيث ان الظمأ لايدعني هادئاً وان احصل على الطمأنينة التي انشدها . وكان الذباب ايضاً مصدر ازعاج اخر .

كانت ارض بطن الوادي تتكون من الحصى الناعم والرمل الابيض . وكان سطح الارض يبدو وكأنه يتراقص عندما يقوم الريح بتحريك رؤوس الاعشاب القصيرة الخشنة جيئة وذهاباً . والجمال تحب اكل مثل هذه الاعشاب التي تنمو على شكل خصل ، ويبلغ علوها ستة عشر بوصة ، وقد قامت بجز (اكل) كميات كبيرة من هذا العشب لغاية ما قام الرجال بجمعها . وللحظة فقد كرهت الدواب ، لأنها اذا ما اكلت كثيراً فانه يصدر من تنفسها رائحة نتنة ، هذا ناهيك عن اشترارها وطحنها للطعام بصورة مستمرة .

واستقليت هناك بحالة غضب ، وقمت بالقاء الحجارة لأعبر عن غضبي ، حيث ان الالم والحرارة كانا استبدا بي . وذهب الرجال لاشعال النار من اجل شواء غزال كان اصطاده احد الرجال ؛ وادركت بانني لوكنت في صحتي وعافيتي لكنت سعيداً ومسروراً بمناظر الجبال الغريبة الشكل والوانها المشرقة .

وبعد ان تناول الرجال طعامهم ، امتطينا جمالنا ثانية ، وصعدنا بسهولة ،

المرحلة الاولى من الطريق ذو الحجارة البركانية . وكان قصيراً ، والمرحلة الثانية ايضاً كانت كذلك ، وفي القمة امتدت هناك مصطبة واسعة تتكون من الرمال الطمية الغرينية مع الحصى بداخلها . ثم استدرنا الى الشرق بعد ان قطعنا بضعة مراحل لنصل الى وادي "الغارة" .

كانت ارض وادي الغارة من الحجارة الغرانيتيه تتخللها منخفضات ضيقة وعميقة . وتجري فيها المياه عند هطول الامطار وغالباً ما تكون منحدره من الجبال. وكان سطحه (سطح ارضه) مليئاً بشظايا الحجارة مما يصعب السير عليه ويجعله ممراً مؤلماً وغير ملائم للجمال .

وكافحنا بالمسير على طول ذلك لعدة ساعات ، ونحن نسير ببطء ، وكانت جمالنا تجفل عند كل خطوة تخطوها فوق الحواف الحادة التي تنزلق تحت اقدامها. وكانت الممرات ترى فقط بواسطة المنحنيات على طول خطها ، وبواسطة السطوح الاكثر زرقة للاحجارالمصقولة ، ومن المستحيل المرور عليها بعد حلول الظلام ، كما يعتقد ذلك ،حيث اننا خاطرنا بان تكسر ارجل دوابنا في كل مرة كنا نحثها على السير عليها . وقبل الساعة الخامسة من بعد العصر ، مع ذلك اصبحت الطريق امامنا اكثر وضوحاً والارض ملائمة لسير الدواب عليها ، واصبحت المسافات مفتوحة امامنا ، وكان يوجد فيها عدد من خيام البدو ، التي ما أن رآنا اصحابها حتى اسرعوا الينا وامسكوا بأرسن جمالنا ليقودها ويدفعوننا لضيافتهم .

فقد كانوا من رجال الشيخ فهد الحنشا ، الشيخ كبير السن الثرثار ، والمحارب الذي سار معنا الى الوجه ، وكان ايضاً مع جارلاند في المناسبة الكبيرة عندما قام بتفجير اول لغم أتوماتيكي بنجاح تحت قطار محمل بالقوات التركية بالقرب من محطة القويرة . واصر الشيخ على أن ادخل خيمته واسترخ بها وقدم لي وعاء اثر وعاء من حليب الناقة تخللها اسئلة عديدة عن اوروبا ، وعن قبيلتي في بلادي وعن رعي وتربية الجمال الانجليزية ، وعن الحرب في الحجاز والحروب في كل مكان ، في مصر ودمشق ، وكيف كان حال فيصل ، ولماذا نسعى لمقابلة عبدالله ، ولماذا اظل مسيحياً بشكل ضال ، في حين انهم يريدون ان يرحبوا بي بالدخول في الاسلام ؟

ومكثنا هكذا لساعات طويلة لغاية الساعة العاشرة ليلاً ، عندها احضر العشاء المكون من لحم الغنم والارز . واكلت حسبما تتطلبه التقاليد ، ثم لففت نفسي بعباءتي ونمت ، حيث كان جسدي منهكاً ، بعد تلك الساعات السيئة من المسير الذي لايتصور ، رغم وجود البراغيث والقمل داخل الخيمة . وبسبب مرضي ، فقد حلمت احلاماً مزعجة طيلة الليل ، ورأيت نفسي هائماً عارياً في الصحراء على الصخور البركانية ، وكان يلاحقني بشكل مرعب شبح البربري الميت بشكل دائم .

وصحونا باكراً في الصباح وثيابنا مليئة بالحشرات المؤذية . وبعد ان شربت وعائين من الحليب المقدم من الشيخ فهد ، اصبحت قادراً على المشي دون مساعدة الى ناقتي وصعدت عليها بنشاط . وسرنا حتى آخر مرحلة من وادي "الغارة" الى ان بلغنا ذروته ، الواقعة بين فوهات بركانية خامدة ، ومن ثم تحولنا الى فرع وادي ، ينتهي بقمة صخرية عالية ، وقمنا بسحب جمالنا الى اعلى .

ونزلنا خلفه الى وادي "المورمية" ، الذي كان بطنه من الرمل الناعم ، السهل السير عليه . وسرنا فيه ، ومن ثم اجتزنا ممراً لنجد ان الارض اصبحت مليئة بالحجارة البركانية ، تتخللها اشجار مورقة ومروج من العشب الحقيقي وبينها الازهار البرية ، وكانت تشكل افضل غذاء لدوابنا ، ثم تبعه منظر اخضر اكثر روعة ، ومن ثم غيرت الاحجار البركانية من شكلها ، فقد اصبحت على شكل اكوام كبيرة من الحجارة ، وكانت كبيرة بحجم الجماجم ، او بحجم كف اليد ، مما كان من المستحيل المشي عليها بواسطة الاقدام الحافية .

وقادنا مستجمع مياه آخر الى مكان او منطقة مفتوحة حيث كان افراد من قبيلة جهينة قد استصلحوا فيها بضعة هكتارات بين الاشجار الكثيفة الخفيضة ، كما قالوا بأن هناك العديد من الحقول تقع بالجوار ، وهي تعتبر شاهد ساكن على شجاعة واصرار العرب على شق طريقهم في الحياة . وكان ذلك يدعى بوادي "الشيفت" ، وكان يأتي بعده سيل او اكوام اخرى من الحجارة البركانية ، والتي كانت من اسوأ ما واجهت ورايت . وكان يقطعه ممر وهمي ملتوٍ . وفقدنا في

ذلك الممر احد جمالنا ، الذي كسرت ساقة الامامية ، عندما وقع في حفرة ، وكانت تتواجد هناك العديد من الهياكل العظمية للجمال مما يعني باننا لم نكن الوحيدين الذين عانينا من سوء الطالع في ذلك الممر . ومع ذلك فقد انهينا شوطنا من السير على الحجارة البركانية ، حسبما افاد بذلك مرشدنا ، ومن ثم مضينا قدماً على طول الوديان السهلة ، وانهينا ذلك بالمسير على سفح لين لغاية الغسق . وكان المسير جيداً وقد انعشتني برودة ذلك النهار جداً ذلك اننا لم نتوقف عن المسير عندما حل الليل كعادتنا ، بل اندفعنا نسير لمدة ساعة اخرى لنجتاز حوض وادي "المورمية" ولندخل الي حوض وادي العيص وهناك توقفنا لنقيم اخر مخيم لنا على الارض الفسيحة .

وسررت لاننا اقتربنا من هدفنا ، الا ان وطأة الحمي كانت شديدة علي ، وكنت خائفاً ان اكون ماضياً لاصبح مريضاً حقيقة ، ومن توقع ان اقع بين ايدي المعالجين من رجال القبائل ، فذلك وضع لم يكن ليسر . فعلاجهم لكل الامراض كانت بكي جسد المريض في بضعة مواضع لتكون مكملة للجزء المصاب كما يعتقدون . وكان ذلك يسبب الماً وعذاباً لا يصدق ، كما ان الذين يقومون بالكي لا يعيرون أي اهتمام لألم وعذاب الرجل المريض .

وكان المسير في صباح اليوم التالي سهلاً ، حيث سرنا فوق وديان مفترحة لغاية ما وصلنا وادي العيص . فوصلنا اولاً الى نقطة ابو مرخه ، وهو اقرب مكان للسقاية ويبعد بضعة دقائق فقط عن مخيم الشريف (الامير) عبدالله . وكان ترك مخيمة السابق في بئر العمري ، في اسفل الوادي كما كان ترك من قبل مخيمة في المربع ، لان طبيعة ارضه كانت قاسية وشديدة بالنسبة لرجاله ودوابه . وقمت بتسليمه الرسائل والوثائق المرسلة من قبل فيصل ، شارحاً له الوضع في المدينة ، والحاجة الماسة للاسراع بمحاصرة خط السكة الحديد . ومن ثم قلت له بانني متعب قليلاً بعد الرحلة التي قمت بها ، وان يسمح لي بأن اذهب لاستريح وانام لفترة . فأمر بنصب خيمة لي بجانب فسطاطه الكبير ، فذهبت لاستريح فيها اخيراً . وكان ذلك بعد كفاح مرير من المسير على الجمل لاصل الى هنا اخيراً؛ والآن فان التوتر والاجهاد قد انتهيا مع تنفيذ المهمة ، وشعرت بانني ساقع في المرض .

(٣٣)

قضيت عشرة ايام مستلقياً في تلك الخيمة ، حيث كنت اعاني من الضعف الجسدي . وكالعادة في مثل تلك الظروف فان فكري اصبح صافياً ، واصبحت احاسيسي اكثر دقة ، وبدأت افكر اخيراً بشكل متوال بالثورة العربية ، كواجب مألوف ارتاح له ضد الالم . وقد كنت افكر بذلك الامّر منذ وقت طويل ، الا انه عند اول نزول لي على ارض الحجاز فقد كانت هناك صرخة حاجة والحاح من اجل العمل ، وقد قمنا بما بدا انه الافضل ، دون ان نخوض في التساؤل ، ولابصياغة ما كنا نريده حقيقة في نهاية كل هذا . وهكذا فانه أسيء استخدام الغريزة بدون قاعدة المعرفة السابقة ، والانعكاس كان له حدس متنامي ، لطيف ، واصبح الآن يبيض من ثقتي ؛ لذلك فانه في هذا التراخي او الكسل المفروض بحثت عن معادلة بين ما قرأته من الكتب وتحركاتي . وقضيت الفترات المتقطعة من نومي الغير مريح والاحلام التي كانت تنتابني في جني تشوشنا الحالي .

وكما رأيت فقد كنت لسوء الحظ في قيادة الحملة التي كنت احبها ، دون ان اكون متدرباً عسكرياً . فمن الناحية النظرية العسكرية ، فقد تعلمت في اكسفورد ، وقرأت عن النظريات والعمليات العسكرية ابتداءً من نابليون حتى كلوسوتيز ومدرسته ، وقرأت لمولتكة ، وللقواد الفرنسين الحالين . وكانوا جميعهم يبدون ليكونوا في جانب واحد . وبعد ان قرأت في كتب جوميني و ويلسن ، فقد وجدت فيها مبادئ اوسع . ومع ذلك فان كلاسوتيز كان من الناحية الفكرية سيداً اكثر ، فقد تقبلت حسميته ، لغاية ما اقرفتني المقارنة ما بين

كـوهن وفـوشـه ، واقلقـتني شـهـرتهـمـا ، مما جـعلني انتـقـد كـافـة فلسفتهما، ونظرياتهما. على اية حال ، فان اهتمامي كان مجرداً ، اهتم بنظرية وفلسفة الحرب ، خصوصاً من الجانب الميتافيزيقي .

والآن في الميدان وعلى ارض الواقع فكل شيء كان ملموساً وبشكل خاص المشكلة المقبلة للمدينة ، ولأحول انتباهي عن ذلك ، فقد بدأت استذكر المبادئ الاساسية لأرادة الحرب العلمية الحديثة . الا انها لم تكن ملائمة ، مما ازعجني ذلك . فوقتئذ كانت مسألة المدينة تستحوذ علينا جميعاً ، الا انني كنت مريضاً آنذاك ، ولم تكن صورتها واضحة تماماً لي ، فيما اذا كنا قريبين منها ام لا ، او فيما اذا كانت عيناي محجوبتان عن البدء بالهدف . وصحوت يوماً بعد العصر من سبات في يوم حار ، والعرق يتصبب مني والذباب يحوم فوقي ، وتساءلت ماهي مصلحتنا بالهجوم على المدينة ؟ فقد كان ذلك يؤرقنا عندما كنا في ينبع ، وكان الاتراك ينوون الهجوم على مكة ، ولكن غيرنا من ذلك كله عندما زحفنا على الوجه . واليوم نحن نقوم بحصار الخط الحديدي ، وانهم يدافعون عنه فحسب . وقلصت حامية المدينة التركية الى حجم غير دفاعي ، وكانوا يتخندقون في التحصينات مدمرين بذلك قوتهم الذاتية على التحرك ، وذلك بصب كافة اهتمامهم على خط المواصلات الذي لم يعد ذو جدوي بالنسبة لهم ، فقد ذهبنا وبعثرنا قوتهم التي كانت تؤذينا . ومع ذلك فاننا اردنا ان نحتل المدينة ، التي لم تكن تشكل قاعدة لنا مثل الوجه ، ولاتهديد مثل وادي العيص ، فلماذا بحق الارض نريد الاستيلاء عليها ؟

كان المعسكر الذي كنت اقيم فيه يشهد نشاطاً وضجيجاً بعد ساعات مابعد الظهر ، وكانت اشعة الشمس ترسم خيوطاً صفراء على شادر الخيمة التي كنت أقيم فيها . وكنت اسمع صهيل الجياد في الخارج وهي تكافح امواج الذباب حيث كانت تقف تحت ظلال الاشجار ، وكنت اسمع تململ الجمال ايضاً ، وصوت قرع هاونات (مهابيج) القهوة . ومع ذلك العبء بدأت اقرع هدف الحرب في رأسي ، وكيفية القضاء على القوات المسلحة للعدو في عملية واحدة، او معركة واحدة . فالنصر يمكن ان يشترى بالدم فقط . وكان هذا قول صعب

بالنسبة لنا ، حيث انه لم يكن لدى العرب قوات منظمة ، كما انهم لايتحملون الخسائر . وبدا لي ان نظرية فون دير جولتز كانت اعمق من الناحية العسكرية ، والتي تقول انه ليس من الضروري سحق العدو ، ولكن تحطيم شجاعته ، وايضاً لم يكن من المتوقع ان نحطم شجاعة أية جهة . وغضضت النظر عن كل ذلك ، حيث اننا كنا ماضين بثبات لكسب حربنا . فقد تم تحرير مئات الاميال الواقعة حول الحجاز . فهل كانت النكتة المستفزة لفايكري ، حين قال ان الثورة تشبه السلام اكثر مما تشبه الحرب ، قد حملت في طياتها الكثير من الحقيقة اكثر من التهور او الخيال ؟ فربما تشكل الحرب الحكم المطلق ، الا انه بالنسبة للسلام فعلى الاغلب ان يكون صالحاً تماماً . واذا ما احكمنا ذلك ، فانه لن يكون بوسع الاتراك ان يفعلوا شيئاً ضدنا الى ما لانهاية . وكنت ابعد الذباب عن وجهي بصبر وأنا افكر ، مقتنعاً بأن حرب الحجاز قد كسبت ، وخلصت الى انها كسبت وأنهت منذ اليوم الذي استولينا فيه على الوجه ، اذا ما كان لدينا حس لفهم ذلك . ومن ثم فقد قطعت خيط تفكيري مرة ثانية لاستمع ، فقد ازدادت الطلقات النارية واصبحت على شكل وابل طويل . وتوقفت و هيأت اذنتاي لاسمع اصوات اخرى التي كنت اعلم بأنها ستتبع ، وتأكدت تماماً بعد ان جاء صوت قطع السكون كمثل سحب القماش على صخور الصوان ، حول الجدران الرفيعة التي تحيط بخيمتي ، وحدث توقف قليل ، في حين كان راكبوا الجمال ينهضونها ، ومن ثم يجعلونها تركع على الارض ثانية .

كانت تركع دون ضجيج وقمت بتوقيت ذلك في مخيلتي ؛ التردد اولاً حيث كانت الجمال تنظر اسفلاً ، وتتحسس الارض باحدي ارجلها بحثاً عن مكان ناعم ، ومن ثم تهبط على ارجلها الامامية الى الارض ، ومن ثم تحاول ان تدفن ارجلها في التراب البارد لتقي نفسها الحر ، في حين كان راكبوها ، يتركونها مسرعين وهم حفاة سواء الى خيمة القهوة او الى خيمة عبدالله ، حسبما كانت تستدعيه حالتهم . وتظل الجمال مرتاحه هناك ، وهي تقوم بلي ذيولها بعدم ارتياح لغاية مايفرغ اسيادها ويتحولوا للاعتناء بها .

وقمت بعمل بداية مريحة لعقيدة قتالية ، الا انها تركت جانباً لايجاد هدف

بديل ووسائل للحرب . فقد بدت حربنا لاتتشابه مع نظرية فوش القتالية ؛ واستذكرت ذلك لأرى اختلاف مابين نظريته ونظريتنا . ففي نظريته الحديثة للحرب ـ الحرب المطلقة كما يدعوها فانه لابد ان تكون هناك دولتان محترفتان متضاربتان او مختلفتان في النهج والفلسفة القتالية تضعهما لاختبار قوتهما . فمن الناحية الفلسفية ، فقد كان ذلك غريباً ، حين تكون الآراء قابلة للجدل ، فان القناعات او الاقتناعات تكون محتاجة لتعالج ، ويمكن ان ينتهي القتال فقط عندما لا يكون لمساندي او داعمي المبدأ اللامادي او المعنوي مزيداً من وسائل المقاومة ضد مساندي او داعي الجانب الآخر . وهذا يبدو كمثل اعادة الحروب الدينية الى القرن العشرين ، ويكون هدفها المنطقي التدمير التام لاحدى عقيدتين ، والتي يعتقد ابطالها بأن حكم الله هو الذي سيسود . وهذا يمكن او من الممكن ان ينطبق على فرنسا والمانيا ، الا انه لن ينطبق على بريطانيا ، كما ان هذه الفلسفة لاتنطبق ايضاً على الجيش العربي ، فالجهود التي بذلت لجعل رجالنا يكرهون العدو غالباً ما جعلتهم يكرهون القتال . وقد تطرق فوش ، في الحقيقة ، الى ذلك حين قال ان مثل هذه الحرب تعتمد على تجنيد الحشود الضخمة ، وهذا مستحيل بالنسبة للجيوش المحترفة ، في حين ان تنظيم الجيش القديم لايزال يتبع النموذج البريطاني ، في اساليبه ونهجه ، وقد بدا بالنسبة لي ان نظرية فوش في الحرب هي نظرية ابادة وافناء ، ويمكن اطلاق عليها اسم "الحرب القاتلة" . اما بالنسبة لكلا سوتيز ، فقد استعرض كافة انواع الحرب . . كالحروب الشخصية ، المنازلات المشتركة ، لاسباب التنافس على الحكم ، وحروب الطرد والابعاد و الابعاد والطرد السياسي والحروب التجارية ، لاهداف تجارية . . . انهما حربان بدتا نادرتين على حد سواء ، فغالبا لاتعرف فيها الاطراف اهدافها الحقيقة وتتخبط لغاية ماتسيطر الاحداث على مجرياتها .

لقد تساءلت لماذا اراد فيصل محاربة الاتراك من كافة الاراضي الناطقة باللغة العربية في أسيا . فنموذجهم لنيل الحرية يمكن ان يمارس بهذه الطريقة فقط . ويمكننا لملاحقة اهداف معينة ان نقتل الاتراك ، لاننا نكرههم كثيراً جداً ، الا ان القتل ليس اولم يكن هدفاً بحد ذاته . واذا ماخرج الاتراك بهدوء فان

الحرب ستنتهي ، واذا لم يفعلوا ذلك . فاننا سنحثهم او نحاول ان ندفعهم خارجاً . واذا ما اخفق الاسلوب الاخير ، فانه يجب علينا ان نجبرعلى انتهاج الاسلوب الدموي اليائس وشن اقصى حروب القتل ، حيث ان العرب يقاتلون من اجل نيل الحرية ، التي يتوقون اليها .

عند تلك النقطة ، وأنا افكر ، ازاح احد العبيد ستار باب خيمتي ، وقال لي ان الامير يريدني ، لذلك فقد كافحت لارتدي المزيد من الملابس ومشيت متثاقلاً الى خيمته الكبيرة لاستطلع رأيه ودوافعه . وكان مكاناً مريحاً وقد فرشت ارض الخيمة بالسجاد الفاخر . وكان الامير عبدالله يقضي معظم وقته في تلك الخيمة ، بين رجاله وضيوفه ، وقد شهدت هناك محادثة مطولة بينه وبين عدة شيوخ ، كان من بينهم الشيخ فهران العيدا ، وكان الحديث يدور حول الاتراك وحكمهم ، وضرورة اخراجهم من البلاد العربية .

في اليوم التالي ، واصلت تفكيري بالامور لتطغى علي عوارض الحمى التي انتابتني ، وكان الامر الأول الذي يشوشني هو التناقض ما بين الاستراتيجة والهدف في الحرب ، والتكتيكات والوسائل تجاه الهدف الاستراتيجي والخطوات ، المعنية لدرجاتها ، وبدت جميعها كوجهة نظر فحسب التي يمكن من خلالها ان تتأمل وتفكر بعناصر الحرب ، وبالعناصر الجبرية لعناصر الامور؛ والعنصر البيولوجي (الاحيائي) للحياة ، والعنصر النفسي للافكار.

وقد بدا لي العنصر الجبري وكأنه علم خالص ، خاضعاً لقانون الرياضيات ، غير بشري . فهو يبحث بالمتقلبات او المتغيرات المعروفة ، كالحالات والاوضاع الثابتة ، والفراغ والوقت ، ويتجاهل اشياء وامورا مثل الجبال والتضاريس والمناخ وخطوط السكك الحديدية ، وانواع البشر ، انه اذن عنصر مناخي بشكل اساسي .

وكانت هناك بداية تبدو رنانة ، فافكاري المعادية للافكار التجريدية ، وجدت لها ملجأ في الجزيرة العربية ثانية . فبترجمته الى العربية ، فان العامل الجبري يمكن ان يحتل اولاً الحساب او التخمين العملي للمنطقة التي نرغب بالتعامل معها . وبدأت أعد كم هناك من الاميال التي سنجتازها في القتال ،

ستين ثمانين ، مائة ، وربما يكون مائة وأربعين الف ميل مربع . فكيف للاتراك عندئذ ان يدافعوا عن كل ذلك ؟ انها ستكون بواسطة خطوط التحصينات حول مواقعهم، دون شك ، هذا اذا ما هجمنا بجيش يحمل الرايات ، لكن لنفترض باننا (كما يمكن ان نكون) سنكون عبارة عن عامل مؤثر كمثل اعلى. كشيء غير ملموس ،و منيع ، دون جبهة أو مؤخرة ، نتحرك ونغير مواقعنا كمثل الغاز ؟ فالجيوش النظامية هي مثل النباتات ، غير متحركة ثابتة الجذور ، متغذية من خلال سيقانها الطويلة حتى الرأس ، فينبغي ويمكننا ان نكون كالبخار نهب متى نشاء . وان ممالكنا تكمن في عقل كل رجل منا ؛ كما اردنا لاشيء ان يعيش مادياً، لذلك فلايمكننا ان نقدم شيئاً مادياً للقتل . فبدا الأمر كجندي نظامي يمكن ان يكون عاجزاً دون هدف ، يمتلك فقط ما هو جالس عليه ، وخاضعاً فقط ، بواسطة الاوامر ، لما يمكنه ان يسدد بندقيته اليه .

ومن ثم فقد قمت بحساب او تخمين كم كان سيلزمهم من الرجال ليحتفظوا بكل هذه المساحة من الارض ليحفظوها من هجومنا في العمق ، فالعصيان قد توغل واستشرى في كل ميل غير مستولى عليه من هؤلاء الاميال المائة الف المربعة . فانني اعرف الجيش التركي بالضبط ، وحتى بقدرتهم على توسعهم وامتدادهم الحالي بالمواقع ، وذلك بواسطة الطائرات الحربية والمدافع والقطارات المدرعة (التي تجعل من الارض الواسعة عبارة عن ساحة معركة مصغرة) ، فما زالوا كما بدا على انهم بحاجة لموقع محصن في كل اربعة اميال مربعة ، وكل موقع سيكون محتاجاً لما يقل عن عشرين رجل لذلك ، فانهم سيحتاجون الى ستمائة الف رجل ليواجهوا كافة العرب الثائرين والغاضبين ، مرتبطين بالمتحمسين والمستعدين للقتال .

فكم من المتحمسين للقتال (المقاتلين) لدينا الآن ؟ ان لدينا في الوقت الحاضر نحو خمسين الف مقاتل ، ملائمين للوقت الراهن . واذا ما ادركنا ان موادنا الخام متلائمة معهم ، ومن ثم هناك المناخ والتضاريس ، السكة الحديد ، الصحراء والاسلحة التقنية ، كلها او جميعها عوامل مساندة لجانبنا ومصلحتنا ، فالاتراك كانوا اغبياء ، والالمان من خلفهم هم عقائديون . فهم سيعتقدون ان

الثورة هي شيء مطلق مثل الحرب ، ويتعاملوا معها على انها تشبه الحرب . فالتشابه الجزئي في الامور الانسانية هو سراب ؛ على اية حال، والحرب عن الثورة هو أمر بطيء جداً ومتعذر ، كمثل شرب الحساء بالسكين .

كان هذا كاف للعنصر المادي ؛ لذلك فقد سررت بملائمة العامل الحسابي ، ومن ثم غصت في طبيعة العامل الاحيائي في القيادة . وبدت مراحلها لتكون نقطة منهارة او محطمة سواء في الحياة أو الموت ، في البلى والتمزق . وان فلاسفة الحرب قد جعلوا منه فناً تماماً ، وقد ابرزوا مادة فيه ، "اراقة الدم" ، لتصبح اساسية ، ولتصبح انسانية في المعركة ، وهو عمل يتصل بكل جانب من جسدنا ، ودافئاً جداً . انه خط من التنوعية . فالانسان مثابر مثل الخميرة من خلال تقديراته وتخميناتة ،بأن يجعلها غير نظامية .

ان هذه العناصر هي حساسة وغير منطقية ، والجنرالات يحصنون انفسهم باداة الاحتياطي ، وهي تشكل اهمية متوسطة لفنهم او مهارتهم . فقد قال جولتز انه اذا ما عرفت قوة العدو عندما يكون منتشراً تماماً ، فعندئذ يمكنك ان تحل هذه القوة مع احتياطيها ، الا ان هذا لاينطبق مطلقاً فاحتمالية حدوث ذلك هو موجود دوماً في فكر الجنرالات فيقوم جيش الاحتياط بمواجهة ذلك لا شعورياً .

كانت النظرية التي وجدتها ملائمة لتكتيكاتنا في الحرب ، وهي ضرب وابادة مصادر العدو الاصلية . فالمواد والمعدات هي نادرة ونفيسة في تركيا آنذاك، والانسان يعتبر اقل شأناً من المعدات ، فدورنا كان تدمير مصادر العدو ، وليس الجيش التركي ، فتدمير جسر تركي او سكة حديد ، أله او مدفع ، كان اكثر فائدة بالنسبة لنا من موت احد الاتراك . وفي الجيش العربي وقتذاك ، فقد كنا بحاجة لكل من المواد والرجال ، فالحكومات تنظر الى الرجال كحشد فقط ؛ الا ان رجالنا ، كانوا غير منتظمين ، ولم يكونوا منظمين في تشكيلات قتالية ، وانما كانوا افراداً ، لذلك فقد كانت الخسائر عبارة عن فقاعة في ماء يمكن ان تحدث فجوة ضئيلة . ومع ذلك فانه لم يكن بمقدورنا ان نتحمل خسائر في الارواح . وكان من الاسهل تعويض المواد والمعدات . وكان من سياستنا الواضحة ان نكون متفوقين في بعض الجوانب الملموسة ، كالمعدات العسكرية ،

او أي شيء يمكن ان يكون حاسماً ، ويمكن ان نكون متفوقين في المعدات في مرحلة ما او في خطة مهيمنة ؛ ومن اجل كل من الاشياء (المواد) والرجال فيمكننا ان نمنح عقيدتنا جانب سلبي ملتو ؛ من اجل مصلحة رخيصة ، ونكون ضعفاء اكثر من العدو في كل مكان باستثناء في تلك النقطة الواحدة أو الامر . وسيكون دوماً قرار ماهو خطير بيدنا نحن . فمعظم الحروب كانت حروب اتصالات ، أي ان كلا القوتين تنخرط في قتال متصل وذلك لتجنب المفاجأة التكتيكية . اما حربنا فيجب ان تكون نوعاً او ضرباً من الانفصال او الانعزال ، وكان علينا احتواء العدو بواسطة الصحراء الساكنة الشاسعة ، ولانظهر او نكشف انفسنا لغاية ما نهاجم ، ويمكن ان يكون الهجوم خاطفاً ، ليس موجهاً ضد العدو مباشرة ، وانما ضد مؤنه وامداداته ؛ لذلك فانه لن يسعي سواء لاختبار قوته او ضعفه ، بل لمواده التي يمكن الوصول اليها . وفي عملية قطع او تدمير السكة الحديد ، فينبغي ان يكون في مكان فارغ وبعيد للسكة ، وكلما كان فارغاً ومنعزلاً ، كلما اصبح النجاح التكتيكي اعظم ، كما يمكننا ان نحول معدلنا الى قاعدة (وليس قانوناً ، حيث ان الحرب لايوجد لها قوانين) . وان نطور عادة عدم احتكاكنا بالعدو . وهذا سيتوافق اوسيتلائم مع سعينا لعدم توفير أي هدف كائن . وكثير من الاتراك على جبهتنا لم تكن لديهم فرصة ان يطلقوا النار علينا ، ولم نكن نحن مطلقاً في موقع او وضع دفاعي باستثناء وقوع حادث ما او خطأ .

ان النتيجة الطبيعية لمثل تلك القاعدة او المبدأ كان "ذكياً" تماماً ، ذلك انه امكننا ان نخطط بثقة ويقين . وينبغي ان يكون العامل أو الهدف الرئيسي هو رأس الجنرال ، وان لايترك أي مجال او فرصة لتحقيق هذا الهدف . واذا ما بنيت المعنويات على المعرفة ، فقد تكسر وتحطم بواسطة الجهل . وعندما نعرف كل شيء عن العدو فاننا سنكون مرتاحين وينبغي علينا احتواء المزيد من الالام من خلال الخدمة والنشاط الحربي .

لقد وصلت الى هدفي اخيراً ، فالعامل الجبري (الرياضيات) قد ترجم الى مبادئ تلائم القتال في الجزيرة العربية ، مثل القفازات في اليد . وهو يعد ويبشر بالنصر . اما العامل البيولوجي او الاحيائي فقد أملي او فرض علينا خطأ تكتيكياً متوافق جداً مع رجال القبائل .

ويبـقى هناك العنصـر أو العـامل النفـسي لبناء وتكوين شكل مناسب لوضعنا . لذلك فقد رجعت الى كسينوفون واقتبست منه تعبيره "التأهبات" .

ان جهاز "دعايتنا" (اعلامنا) كان وليد ساعته ، وكان يعتني برفع الروح المعنوية ، ويمكن ان يستغل في النشاط العسكري ، ويحول لتحقيق هدف معين . وكان يعتمد على الذكاء والدهاء اكثر منه على التكتيكات ، لانه متعامل مع امور واشياء لايمكن ضبطها ، ذات اهدا ف غير قادرة على توجيه اوامر مباشرة . وكانت تأخذ بالاعتبار مدى او طاقة مزاج رجالنا ، ومدى تعقيداتهم في الامور وتحولاتهم وتغيراتهم ، واستصلاح وتهيئة ما يمكن للاستفادة منه في تحقيق هدفنا ، وكان علينا ان نرتب افكارهم لكي تتلائم مع خوض المعركة بعناية وبشكل رسمي تماماً كما يقوم به الضباط من ترتيب انفسهم ولباسهم . ولايأتي ترتيب افكار رجالنا في المقام الاول فقط ، وانما ينبغي علينا ايضاً ان نرتب افكار العدو ، وذلك لكي يمكننا من الوصول اليه ؛ ومن ثم يأتي دور ترتيب افكار الامة التي تساندنا من الخلف ، من خلف خطوط النار ، اذ ان اكثر من نصف نتيجة الحرب تمر من هناك في الخلف ؛ ومن ثم فان آراء وافكار الدولة العدوة تنتظر ورود الحكم ، وآراء الجهات المحايدة تنتظر ، حلقة بعد حلقة او خلف حلقة .

وكانت هناك العديد من التقيدات المادية المذلة ، الا انه لاتوجد مستحيلات معنوية ، لذلك فقد كان مجال انشطتنا التحولية أو التغييرية غير مقيدة . وعليه فيجب ان نعتمد على وسائلنا للانتصار على الجبهة العربية بشكل رئيس ، وان التجدد فيه كان من مصلحتنا . فالصحافة المطبوعة ، وكل وسيلة اعلامية حديثة ـ اكتشفت اسلوباً او نهجاً للاتصال مفضلة العنصر الفكري على الجسدي . وقمنا بتعليم الجنود مبادئ فن الحرب في جو ومناخ القرن العشرين ، وتلقي السلاح واستخدامه دون ان يلحقوا الاذي بأنفسهم . وبالنسبة للضابط النظامي ، ومع ما كان يحمله من تقليد عسكري يعود لاربعة اجيال من الخدمة ، فان السلاح القديم كان يعتبر مشرفاً جداً بالنسبة له . وكما كنا نادراً مانقلق انفسنا بما كان يقوم به رجالنا ، الا اننا كنا دوماً نهتم بما كانوا يفكرون به ، فان العامل التغييري او التحويلي سيكون معتبراً بالنسبة لنا . وفي اوروبا فانه كان يطرح

جانباً بعض الشيء ويعهد به الى رجال من خارج هيئة الاركان . اما في أسيا فان العناصر النظامية هي ضعيفة جداً ذلك ان العناصر الغير نظاميه لايمكنها ان تدع السلاح الخارق يصيبه الصدأ او ان لايستخدم .

ان المعارك في الجزيرة العربية كانت تسير بشكل خاطئ ، حيث اننا كنا نستفيد فقط من الذخيرة التي يخلفها العدو ، او التي نستولي عليها . وقد قال نابليون انه من النادر ان تجد جنرالات (قواد) راغبين بخوض المعارك ، الا ان لعنة هذه الحرب كانت ان هناك فرصة ضئيلة لتفعل اي شئ آخر . ويطلعنا ساكس بأن المعارك الغير عقلانية تعتبر مأوى للاغبياء ، وبدلاً من ذلك فقد بدت لي انها كانت عبارة عن عبء ثقيل على الطرف أو الجانب الذي يعتبر نفسه اضعف ، والاخطار يجعل منها أمراً متعذر اجتنابه به سواء بالنسبة للنقص في مساحة الارض أو بالحاجة للدفاع عن الاملاك المادية الاعز لديه من حياة الجنود . اننا لم يكن لدينا مواداً لنخاف على فقدانها ، لذلك فان افضل خط مثالي لنا هو اننا لم نكن لندافع او في موقع الدفاع عن شيء معين بل الهجوم . وان اوراقنا (او ضاعنا) كانت مسرعة ومتزامنه ، ولم نكن قوة ضاربة بعد ، فقد كان اختراع وسيلة لتعليب لحم البقر مفيد اكثر بالنسبة لنا من اختراع البارود ، الا ان ذلك منحنا قوة استراتيجة بدلاً من قوة تكتيكية ، حيث ان ذلك في مدى او نطاق الجزيرة العربية يعتبر اكبر من عنصر القوة ، فالمسافة اعظم من قوة الجيوش .

لقد مضى علي وانا مستلقي في تلك الخيمة المنعزلة ثمانية ايام حتى الآن ، وانا مبقي على او محتفظ بافكاري العامة لغاية ما دفع عقلي للعمل بواسطة جهد الارادة ، ومن ثم اذهب في نوم خفيف عندما يسترخي ذلك الجهد . وذهبت الحمى عني ، فالدزنتاريا توقفت . ومع استعادتي لقوتي فان الحاضر اصبح فعلياً وقائماً مرة ثانية بالنسبة لي ، واصبحت الحقائق ملموسة ووثيقة الصلة بالموضوع تدفع بنفسها الى تفكيراتي الحالمة ؛ وعقلي او فكري الغير مترابط قد حمل جانباً باتجاه كافة هذه الطرق للنجاه . لذلك فقد اسرعت الى خط مبادئ الوهمية ، وذلك لامتلكها مرة بدقة قبل ان تبددها قوتي .

وبدا لي الامر مبرهنا عليه من ان ثورتنا كانت لها قاعدة من المتعذر مهاجمتها أو القضاء عليها ، ليست محروسة من الهجوم فحسب ، بل ومن خشية الهجوم عليها . وكان لها عدو متقدم مسيطر على مساحة عظيمة من الارض ، وله فيها مواقع وتحصينات قوية ، ولها شعب او سكان ودودين متعاطفين معه تماماً . والثوار النشطاء يتمتعون بمناقب السرية وضبط النفس ، وخاصيات السرعة ، والجلد والاحتمال والاستقلالية في طرق وشريانات الامدادات . ولها معدات تقنية وفنية كافية لشل خطوط مواصلات العدو . وسيكتمل الامرعندما نعلم مواطنينا على الموت في سبيل هدف الحرية . فوجود العدو على تلك الارض كان ثانوياً او هامشياً . والنصر النهائي بدا مؤكداً ، اذا ما استمرت الحرب طويلة تماماً بالنسبة لنا لننجزها او نختتمها بنجاح .

(٣٤)

اصبحت بشكل جلي اتمتع بصحة جيدة ثانية ، وتذكرت السبب او المهمة التي جئت من اجلها الى وادي العيص . والاتراك قاصدون للانسحاب من المدينة ، كما ان السير ارشيبالد موراي اراد منا ان نهاجم بشكل محترف ، وكان شيئاً مزعجاً ومضايقاً انه كان عليه ان يأتي من مصر ليتدخل ويطلب منا القيام بنشاطات غريبة . ومع ذلك فقد كان البريطانيون يمثلون الجانب الاكبر ، وكان العرب يتظللون بظلهم ، وكنا نرتبط بالسير ارشيبالد موراي ، ولابد ان نعمل معه ، الى درجة التضحية بمصالحنا الغير اساسية بالنسبة له ، وحتى اذا لم تكن متساوية ، وفي نفس الوقت فانه لم يكن بوسعنا ان نعمل على قدم المساواه . فقوات فيصل كانت تعمل بطلاقة وحرية كالغاز ، اما جيش السير ارشيبالد فانه كان من المحتمل انه من اكثر الجيوش بطأً وثقلاً في العالم ، وكان عليه ان يدفعه للامام بشكل مجهد . وكان مما يدعو للسخرية الافتراض انه من الممكن ان يجعل التقدم بسرعة كما هو الحال بالنسبة لقوات الثورة العربية ، مع ما تحمله من مفاهيم اخلاقية ، وحتى انه من المشكوك فيه ان يستوعب هذه المفاهيم ، ومع ذلك فربما باعاقة (نسف) الخط الحديدي فانه بوسعنا اخافة الاتراك وتراجعهم عن الانسحاب من المدينة ، واعطائهم سبباً ليبقوا فيها في وضع دفاعي ، وهي نتيجة تخدم بشكل عال عالق كل من المصالح العربية والبريطانية على حد سواء . ومع ذلك فانه من المحتمل ان لايحدث ذلك .

ووفقاً لذلك فقد اتجهت الى خيمة عبدالله ، مبلغاً اياه عن شفائي كاملاً ،

وعن طموحي للقيام بشيء ما ضد الخط الحديدي الحجاري ، فقد كان لدينا الرجال ، المدافع ، المدافع الراشة ، المتفجرات والالغام الاتوماتيكية ، وهذا كاف لانجاز المهمة الرئيسة . وتقرر ان نقوم بالعملية انا والشريف شاكر ابن عم الامير عبدالله والرجل الثاني في قيادته . وكان الشريف شاكر متحمساً جداً للفكرة ، كما انه كان متحمساً لاشراك رجال من قبيلة عتيبة التي كان يعتبرها من افضل القبائل ، لذلك فقد كان معظم الرجال الذين اشركناهم في العملية من قبيلة عتيبة . ومن ثم فكرنا بانه يمكننا ان نأخذ معنا مدفع جبلي ، وكان واحداً من مدافع الوحدة المصرية التي ارسلت من قبل فيصل الى عبدالله من الوجه كهدية .

ووعد الشريف شاكر ان يقوم بجمع الرجال وتشكيل القوة اللازمة ، ووافقت على ذلك وقلت بانه يجب علي ان اذهب اولاً ، وان ابحث عن هدف معين للسكة الحديد من اجل نسفه ، وكان المكان الأقرب والاكبر هو في محطة "ابا النعام" . وذهب معي "راحو" ، وكان ضابطاً جزائرياً يخدم في الجيش الفرنسي ، وعضوا في بعثة بريموند العسكرية ، وكان رفيقاً مكداً وشريفاً . ورافقنا كدليل ومرشد ، محمد القدحي ، الذي كان والده دخيل الله ، قاضياً لقبيلة جهينة ، والذي قام بارشاد الاتراك نحو ينبع في شهر كانون الاول الماضي . كان محمد يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، ذا طبيعة صلبه وساكنه . كما رافقنا الشريف فوزان الحارث ، وكان محارباً مشهوراً ، وهو الذي القى القبض على أشرف (التركي) في منطقة جانبيلا ، وكان معنا ايضاً حوالي عشرين رجلاً من قبيلة عتيبة وخمسة او ستة من رجال جهينة المغامرين .

غادرنا في السادس والعشرين من شهر اذار ، وكان هو اليوم الذي هاجم فيه السير ارشيبالد مدينة غزة . وسرنا الى وادي العيص ؛ ولكن بعد ثلاثة ساعات من المسير فقد اثرت حرارة الطقس الشديدة علي بشكل كبير ، وتوقفنا لنستريح تحت شجرة كبيرة ولنقضي بضعة ساعات منتصف النهار . وكان هناك هواءً بارداً يأتي من جهة الشرق ، ونحن نستظل تحت تلك الشجرة الضخمة ، والذباب قليل جداً . وزخر وادي العيص باشجار الزعرور الشائكة وبالاعشاب ،

وكان هوائه مشبعاً بالفراشات البيضاء وعطر وعبق الازهار البرية ، لذلك فاننا لم نصعد او نركب جمالنا لغاية وقت متأخر من بعد العصر ، ومن ثم قمنا بمسير قصير فقط ، تاركين وادي العيص خلفنا من جهة اليمين ، وقد بدا لنا انه كانت توجد هناك قرى في ذلك الجزء ، من خلال الاطلال والسواقي المهجورة للمياه التي كانت تستخدم لري البساتين ، الا انها كانت وقتذاك مقفرة .

وفي صباح اليوم التالي استأنفنا مسيرنا ساعتين حول جبل سدر وصولاً الى وادي الطرة ، وهو وادي تاريخي ، متصل بممر سهل بوادي ينبع . وقضينا منتصف ذلك النهار ايضاً تحت ظلال شجرة ، ومن ثم تابعنا مسيرنا بطريق ملتو لمدة ساعتين اخريتين ، ومن ثم عسكرنا هناك بعد حلول الظلام . ولسوء حظي فقد لدغني عقرب بشكل شديد في يدي اليسرى بينما كنت مستلقياً لانام . واصبحت يدي متصلبة ومتقرحة .

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي ، وبعد قضاء ليلة طويلة ، تابعنا مسيرنا ، واجتزنا ممرات الجبال الاخيرة لنخرج الى منطقة الجرف ، وهو مكان مفتوح فسيح يتجه جنوباً نحو جبل عنطار ، الذي توجد على قمته قلعة أو حصن ، مما تجعل منها علامة مميزة . ثم سرنا نصف تحويلة الى اليمين لنسير في ظلال جبال منخفضة والتي تحجب وادي حمده ، الذي يمر من بطنه خط السكة الحديد . وسرنا من خلف هذه الجبال باتجاه الجنوب لغاية مابلغنا بمواجهة منطقة " ابا النعام " وهناك توقفنا واقمنا معسكرنا ، وكنا قريبين من العدو الا اننا آمنين تماماً .

وكانت قمة الجبل تهيمن او تشرف علي موقع العدو ، لذلك فقد تسلقناه قبل الغروب وذلك لالقاء نظرة اولية على المحطة .

وربما كان ارتفاع الجبل نحو ستمائة قدم ، وقد صعدت اليه على عدة مراحل ، كنت استريح فيها ، الا ان المنظر او المشهد من فوق قمته كان جيداً ، فقد كان خط السكة الحديد يبعد عنه نحو ثلاثة اميال ، واحتوت المحطة على برج مستدير للماء ، وابنية اخرى ، وكانت توجد هناك خنادق واكواخ

واستحكامات، الا انه لم يوجد اثر لمدفعية ، وامكننا ان نرصد حوالي ثلاثمائة رجل .

وسمعنا ان الاتراك كانوا يسيرون دوريات الى الجوار بشكل نشط في الليل ، لذلك فقد ارسلنا اثنان من رجالنا ليقتربا من الموقع ويقومان باطلاق بضعة عيارات من الرصاص بعد حلول الليل ، فكان العدو يعتقد بأن ذلك كان تمهيداً لشن هجوم ، فيستعد في تحصياته طيلة الليل ، في حين كنا نحن نستمتع بنوم مريح ، الا ان الهواء البارد كان يوقظنا من نومنا مبكراً مع هبوب الرياح المتواصلة من خلال منطقة الجرف والذي كان يئز بين الاشجار المحيطة بمعسكرنا .

كنا ننبطح مثل السحالي بين الاعشاب الطويلة المحيطة بها الاحجار على اعلى قمة الجبل ونشاهد استعراض حامية المحطة . كانوا ثلاثمائة وتسعة وتسعين جندي مشاه ، يبدرن كالالعاب الصغيرة ، ويسرعون عندما يزعق البوق ، ليصطفوا في صفوف ثابتة امام المبني الاسود ، ثم يتفرقون ، وبعد بضعة دقائق يظهر دخان نار موقد الطبخ . ونحن هكذا ، اتى نحونا قطيع من الماعز والغنم يقوده صبي . وقبل ان يصل الينا سمع صفير عال في اسفل الوادي من جهة الشمال ، فاذا هو قطار بدا يسير ببطء يصدر منه دخّان ابيض ، ثم توقف امام المحطة ، وما أن رآنا الغلام الراعي حتى دفع قطيعه وهرول مسرعاً نحو الجهة الغربية للجبل بحثاً عن مكان افضل للرعي . وارسلنا اثنان من رجالنا في اثره وامسكوا به . وكان ذلك الراعي من ابناء المنبوذين في الصحراء الذين يرسلون ابنائهم بشكل عام ليستأجروا ويخدموا كرعيان للقبائل المحيطة بهم . وكان ذلك الراعي يصرخ باستمرار وراء غنمه ، وقد حاول ان يفر وهو يري قطيعه يسرح ويتبعثر على سفح الجبل ، وفي نهاية الامر فقد الرجال صبرهم فاوثقوه باحكام، عندها صرخ بألم ظاناً بانهم سيقتلونه .

وقد قام فوزان بضجة كبيرة ليجعله هادئاً ، ومن ثم استجوبه بخصوص اسياده الاتراك ، الا ان كافة افكاره كانت مركزة على قطيعه ؛ وكان يلاحقها بعينيه بشكل بائس في حين كانت الدموع تنهمر من وجهه المتسخ .

لقد كانت طبقة الرعاة طبقة منعزلة . فبالنسبة للعربي العادي فان المأوى أو البيت عبارة عن جامعة ، حيث يمر العالم من خلاله وحيث يمكن ان يسمعوا منه افضل الحديث واخبار القبائل ، واشعارها وقصصها التاريخية ، وحكايات الحب ، والقضايا القانونية وعقد الصفقات ، وبالاستمرار في المشاركة في المجالس البيتية فانه ينشأ هناك اسياد التعبير (الادباء) ، والجدالون والخطباء . فكل ذلك قد فقده الرعاة .

فهم منذ طفولتهم يتبعون مناديهم او قدرهم الذي يدفع بهم في جميع الفصول ، ليلاً ونهاراً ، الى الجبال والتلال طارحاً بهم الى العزلة والرفقة المتوحشة . وفي تلك البراري ، وبين احضان الطبيعة الجافة ، ينشئون هناك بشكل طبيعي ، ولايعرفون شيئاً عن الانسان وشؤونه ، ويجدون صعوبة في التحدث بكلام عادي ، الا ان لديهم فطنه وفريسه في المزروعات والنباتات ، والحيوانات المتوحشة وعادات وسلوك قطعانهم ، التي يعتبر حليبها مصدر طعامهم وقوتهم الاساسي . واصبحت رجولتهم حزينة وكئيبة ، في حين ان بضعة منهم تحولوا الى متوحشين بشكل خطر ، وتحولوا الى مايشبه البهائم في غرائزهم وعواطفهم .

ومضت اربعة ساعات والراعي موثوق اليدين ومتحفظ عليه ، وما لبث الشمس ان اصبحت في عيوننا ، فوضعنا عباءاتنا على رؤوسنا لنحجب بعضاً من اشعتها عنا ، وقد منحني الوضع المريح على قمة الجبل بعض الاهتمامات الحسية التي فقدتها عندما كنت مريضاً ، فقد اصبحت قادراً مرة ثانية على ملاحظة جمال المنظر من على قمة الجبل باحجاره القاسية ، وجوانب صخوره وسفوحه ومنحدراته حتى القاعدة برمالها الخفيفة الجافة . وكانت الحجارة ذاتها مشعة ومتلألئة ، صفراء ، محروقة باشعة الشمس ، معدنية الحواف ، وهشة ، وتنشطر لتصبح الوانها حمراء او خضراء او بنية وفقاً لما تكون عليه حالتها . وكانت تمتد امامنا من كل جهة اماكن لطيفة تنتشر فيها غابات صغيرة من اشجار الزعرور ، وكانت هناك مرجات متفرقة من الاعشاب والازهار البرية .

كانت تلك تشكل اماكن ممتازة للرعي ، وهناك في الوادي كانت توجد مساحات اكبر من العشب ينمو طويلاً ومخضراً الا انه سرعان مايتحول الى اللون الاصفر ويصبح يابساً بفعل اشعة الشمس ، وينمو بكثافة في كافة جوانب بطن الوادي وبين اشجار الزعرور الشائكة ، التي يبلغ ارتفاع بعضها حوالي اربعين قدماً ، وكانت اشجار السدر بثمارها السكرية الجافة نادرة الوجود هناك . وكثرت الاشجار النحيلة ذات اللون البني ، الطويلة السيقان ، وانواع اخرى من الاعشاب وبعض الازهار البرية ، حول معسكرنا . وجعلت منه عينة غنية للاخضرار في اراضي الحجاز المرتفعة .

وعند حلول الظلام نزلنا الجبل ثانية ومعنا الراعي الاسير ، وما امكننا من جمع بعض قطيعه . وكان سيلحق بنا في تلك الليلة الجزء الرئيسي من القوة ، لذلك فقد تجولت انا وفوزان خارجاً مجتازين السهل في الظلام لغاية ماعثرنا على موقع ممتاز لنصب المدفع عليه ، يقع بين سفحين منخفضين ولايبعد سوى الفي ياردة عن محطة سكة الحديد . وعند عودتنا ، وكنا متعبين جداً ، كانت هناك نيران مشتعله بين الاشجار ، فقد وصل الشريف شاكر ، وكان رجاله ورجالنا يقومون بشي لحم الماعز بسرور ، وكان الراعي موثوق اليدين قد وضع خلف خيمتي ، لانه قد اصابه الذعر عندما ذبحت بعض مواشيه بصورة غير قانونية من اجل شيها ، فقد رفض ان يأكل منها ، وقمنا نحن باجباره على اكل الخبز والارز مهددينه بالعقاب اذا ما أهان ضيافتنا له . وحاولوا ان يقنعوه باننا سنحتل المحطة في اليوم التالي ونقتل اسياده الاتراك ، الا انه لم يطمئن ويرتاح ، وبعد ذلك وخشية من ان يفر فقد ربط وأوثق بشجرة .

وبعد العشاء اطلعني الشريف شاكر بأنه قد احضر معه ثلاثمائة رجل بدلاً من ثمانمائة او تسعمائة رجل المتفق عليهم . ومع ذلك فقد كانت تلك المعركة تخصه ، ولذلك فقد قمنا باجراء تعديل على الخطة . وبناء عليه فاننا لن نستولى على المحطة ، وبدلاً من ذلك فاننا سنبث الذعر بينهم بواسطة قصفهم بالمدفعية ، في حين نقوم بتلغيم خط السكة الحديد من الشمال والجنوب ، على أمل ان نوقع

ذلك القطار الواقف في الشرك . ووفقاً لذلك فقد اخترنا من اجل ذلك جزءاً مما تدربنا عليه لاسلوب جارلاند ، الذي كان يتحتم علينا ان نقوم بتفجير الجزء الشمالي من الجسر المار فوقه خط السكة الحديد ، عند الفجر ، وذلك لنغطي ذلك الاتجاه ، في حين اذهب انا ومعي مواد عالية التفجير ومدفع رشاش مع طاقمه لوضع لغم في الجزء الجنوبي من المحطة ، وهو الاتجاه المحتمل الذي سيلتمس منه الاتراك طلب مساعدة او نجدة طارئة .

وارشدنا محمد القاضي الى جزء مهجور من الخط الحديدي ، قبل منتصف الليل ، وترجلت عن راحلتي وقمت بتحسس خط السكة لأول مرة منذ بداية الحرب . ومن ثم وخلال ساعة ، فقد قمنا بوضع اللغم ، وكانت زنته عشرين رطلاً انجليزياً من المواد المتفجرة ، وبعد ذلك قمنا بنصب المدفع الرشاش في دغل يجري من خلاله جدول او غدير ، ويبعد نحو اربعمائة ياردة عن نقطة مسيطرة عليها جداً حيث كنا نأمل بأن ينقلب فيها القطار ويخرج عن خطة ، وكان على الطاقم ان يختبئوا هناك ؛ في حين نذهب نحن لقطع خطوط التلغراف ، حتى لاتصل اليهم أية نجدة او تعزيزات .

لذلك فقد سرنا مسافة نصف ساعة أخرى ، ومن ثم تحولنا الى خط التلغراف . وكنا محظوظين مرة ثانية لان نقوم بالعمل في مكان منعزل ، الا ان بعض الرجال لم يتمكنوا من تسلق عمود سلك التلغراف ، وقمت انا وكافحت بنفسي من اجل ذلك . فقد كان ذلك شاقاً علي بعد المرض الذي اصابني ، وعندما قمت بقطع السلك الثالث فقد تخلخل العلمود مما افقدني توازني ، فانزلقت اسفلاً لاقع على كتفي محمد ، الذي اسرع ليتلافى سقوطي . واستغرق منا الامر بضعة دقائق لالتقاط انفاسنا ، ولكن بعد ذلك كنا قادرين على ركوب جمالنا ثانية ، ووصلنا الى المعسكر اخيراً حيث كان الآخرون يستعدون للمضي قدماً .

لقد استغرق وضع اللغم مدة اربعة ساعات ، وهي مدة اطول مما خططنا له ، ووضعنا هذا التأخير في مأزق سواء لانه لم يعد بامكاننا ان نأخذ قسطاً من

الراحة ، او ان ندع الجزء الاكبر او الرئيس من قواتنا تسير بدوننا . واخيراً وبموافقة الشريف شاكر فقد جعلناهم يذهبوا ، ومن ثم استلقينا تحت الاشجار لأخذ قسطاً من النوم ، الذي بدونه كنت سانهار تماماً من التعب ، وكان الوقت يقترب من الفجر . وبعد ساعة هبت ريح عاتية اثرت على الاشجار والدواب على حد سواء ، وحتى جعلت الرجال النيام تضطرب . واستيقظ محمد الذي كان متشوقاً للقتال ، ومن اجل ان يوقظني فقد أخذ يؤذن لصلاة الفجر في أذني ، فشكل ذلك لي اضطراباً في الاحلام ، فنهضت وفركت عيني من الغبار العالق باجفاني ، وعندما تنازعنا بين الصلاة والنوم ، فقد خلص الى القول بأنه لن تكون هناك معركة او قتال في كل يوم ، وقد اقتنعت بذلك وركبنا جمالنا لنلحق بقواتنا ، وذلك بعد ان حللنا وثاق الراعي ، ونصحناه بأن ينتظرنا حتى نعود .

وشققنا طريقنا بسهولة ، وما ان وصلنا حتى كانت المدافع تفتح نيرانها على الموقع التركي . وقد قامت بعمل ممتاز ، فحطمت سطح احد المبنين ، وسببت خراباً في المبنى الآخر ، وضربت خزان الماء واحدثت فجوة فيه ، واصابت قذيفة اخرى القاطرة الامامية للقطار ، واشعلت فيها النار بشكل كثيف ، ومن ثم شاهدناها وهي تقترب من اللغم وعندما اصبحت فوقه انفجر بها فصدر عن ذلك سحابة من الغبار ودوي انفجار ، ومن ثم توقفت هامدة . وكان الخراب في الجزء الامامي منها ، وعندما قفز سائق القطار منها ، فقد كنا ننتظر عبثاً ان يقوم طاقم المدفع الرشاش بفتح النار ، الا اننا علمنا فيما بعد ان طاقمه ، كانوا خائفين من وجودهم لوحدهم ، لذلك فقد قاموا برفعه وساروا للانضمام الينا عندما بدأنا باطلاق النار . واقتحم المقاتلون العرب المحطة ، تحت غطاء من القصف المدفعي ، في حين قمنا بتأنيب طاقم المدفع الرشاش على فعلتهم ، وشكلت سحب الدخان المتصاعدة من المحطة غطاءً لرجالنا في تقدمهم حيث قاموا اولاً بابادة الموقع ا لمتقدم ، واستولوا على موقع آخر . وسحب الاتراك ما تبقى من قوتهم نحو الموقع الرئيسي ، وتركزوا في تحصيناتهم بانتظار الهجوم اذ ان

روحهم المعنوية كانت منهارة ، كما اننا لم نكن ننوي الاستيلاء على الموقع ، وكان بامكاننا الاستيلاء عليه لو تواجد معنا بعضاً من رجال فيصل الاشداء .

وبما ان اعمدة الدخان الكثيف كانت تتصاعد نتيجة لاحتراق خيام وشاحنات الموقع ؛ فان ذلك منعنا من التركيز في اطلاق النار ، فتوقعنا عن ذلك ، وكانت نتيجة الهجوم اسر ثلاثين تركياً ، وبعض الغنائم من الدواب ؛ وقتل وجرح نحو سبعين جندياً من قوة الحامية التركية ، وجرح لنا جندي ، ونتج عن ذلك وقف تسيير القطارات على السكة الحديد لمدة ثلاثة ايام . لذلك فقد حققنا نجاحاً لا بأس به .

(٣٥)

تركنا خلفنا مجموعتان من الجند لترابط في الجوار ولتقوم بالمزيد من التدمير لخط السكة الحديد في اليوم التالي وبعده ، في حين سرنا نحن الى معسكر الامير عبدالله ، وكان ذلك في اليوم الاول من نيسان . وكان الشريف شاكر رائعاً في تصرفه ، حيث قام باستعراض قوته عندما دخلنا المعسكر ، وقام رجاله باطلاق الاف العيارات النارية على شرف انتصاره الجزئي . مما جعل المعسكر برمته يقيم احتفالاً ابتهاجاً بتلك المناسبة .

وفي المساء ذهبت لاتجول في دغل من اشجار الزعرور الذي يقع خلف الخيام لغاية ما بدأت ارى من خلال الجذوع الكثيفة للاشجار اضواء المشاعل وقرع الطبول المتناغم وأيدي رجال القبائل تصفق وهم ينشدون بشكل جماعي . واقتربت اكثر بهدوء لاري مئات من رجال قبيلة عتيبة يحيطون بالشريف شاكر ، الذي كان يؤدي رقصه بدوية على صوت نشيدهم . ثم قام هو بالأنشاد وهم يرددون وراءه . وكانت تتواجد هناك ايضاً قبائل غريبة اخرى تشاهد الاحتفال .

في صباح اليوم التالي قررنا ان نقوم بزيارة اخرى الى خط السكة الحديد ، ومن اجل انجاز تام لعملية تفجير الخط في محطة ابا النعام . وقال لي دخيل الله بانه يريد ان يذهب معي ، وكان كبيراً في السن ، لأن عملية تفجير القطار قد استحوذت عليه . ورافقنا ايضاً نحو اربعين رجلاً من قبيلة جهينة ، الذين بدو لي انهم اشد من رجال قبيلة عتيبة ، ومع ذلك فان احد شيوخ قبيلة عتيبة واسمه

سلطان العبدو، وكان من المقربين للامير عبدالله والشريف شاكر ، رفض ان يتخلف عن مرافقتنا . وكان مقاتلاً جيداً ، وخاض عدة معارك ، وتمتع بروح الدعابة والنكتة وكان ذا بنية قوية وطويل القامة ، وعمره ستة وعشرون عاماً .

واخذنا معنا مدفع رشاش وطاقمه المؤلف من ثلاثة عشر رجلاً . وسرنا في وادي العيص حتى نقطة التقائه مع وادي حمده ، وقد وجدناه مليئاً بالاخضرار . ومن ثم سرنا في سهل واسع يتفرع منه ثلاثة وديان هي توبجا ، العيص وجزيل وكان يوماً حاراً ، فتوقفنا عند الظهر في مكان نبتت فيه الاعشاب الطرية والازهار . وكان مفرحاً لجمالنا التي اخذت تجز منها .

واصبح النهار اكثر حرارة ، واشعة الشمس اكثر اقتراباً منا ، دون ان تكون هناك رياح . وكانت قدماي العاريتان لاتتحملان حرارة الارض ، لذلك فقد انتعلت صندلاً لاتمشى به ، ورجال قبيلة جهينة يتسلون بمشاهدتي ، الذين لاتؤثر حرارةالارض باقدامهم .

ويبدو انه كان هناك رعداً في الصباح قد اثر عل قمتي جبلي سرد وجاسم ، اللذان لفهما بخار ازرق داكن واصفر ، والذي بدا وكأنه غير متحرك . واخيراً فقد رأيت ذلك الجزء من السحابة الصفراء فوق جبل سرد تأتي ببط باتجاهنا مثيرة موجات من الغبار امامها ، وكانت السحابة عالية بعلو الجبل ، وعندما اقتربت هبت موجتين من الغبار ، واحدة في اليمين واخرى في الشمال ، واستطلع دخيل الله قدماً ليجد ملاذاً لنا ، الا انه لم يتيسر له ذلك فحذرني بأن العاصفة ستكون شديدة .

وعندم دنت منا فقد تغيرت الرياح التي كانت تلفح وجوهنا بهواء ساخن ، فجأة ، وبعد انتظار دقيقة ، فقد هبت موجة باردة ورطبة من خلفنا . كما انها ازدادت عنفاً ، وفي نفس الوقت اختفت الشمس ، وغطيت بطبقة صفراء كثيفة من الهواء فوق رؤوسنا . ووقفنا هناك بوضع رهيب ومتشنج . وكان هناك جدار من السحب البنية الآتية من الجبال تقترب منا ، وتندفع نحونا وهي تزأر . وبعد ثلاث دقائق ضربتنا واحاطتنا بغلاف او غطاء من الغبار وبذرات الرمال ،

وأخذت تقوم بموجات ملتوية ولولبية بشكل عنيف ، ومن ثم تتقدم باتجاه الشرق بسرعة العاصفة الهوجاء .

وجعلنا جمالنا تسير من خلفنا لتحجب عنا شيئاً من تلك العاصفة ، الا انها كانت تضربنا وتلفنا من كافة الجهات والجمال تتمايل يميناً ويساراً من خلفنا . وكانت الجمال احياناً تلتف دوره كامله ، في حين كنا نتشبث بها بشكل يائس ، في حين كانت النباتات والاشجار الصغيرة تقتلع من جذروها بفعل العاصفة ، وتندفع باتجاهنا او تنقذف من فوق رؤوسنا بقوة شديدة ، الا اننا كنا نستطيع الرؤيا على بعد سبعة او ثمانية اقدام من كل جهة من الجهات ،ولم نكن نعرف ابداً فيما اذا كنا سنواجه شجرة طائرة امامنا او موجة مندفعة من الحصى ، او تدفق من كتل الاعشاب المشبعة بالغبار .

استمرت هذه العاصفة لمدة ثمانية عشر دقيقة ، ومن ثم اجتازتنا فجأة كما جاءت فجأة . وتبعثر فريقنا في مساحة ميل مربع أو اكثر ، وقبل ان يكون بوسعنا التجمع ثانية ، كانت ملابسنا وجمالنا مغطاه بالغبار ، الغبار الاصفر الكثيف من رؤوسنا حتى اقدامنا ، ومن ثم هطلت امطار شديدة وأخذ الوادي يمتلىء بالمياه ، وحثنا دخيل الله بأن نجتازه بسرعة . ثم هبت الرياح مرة ثانية ، وهذه المرة من الشمال ، وكان المطر يندفع بواسطتها كمثل رذاذ شديد . والمطر تعصف بعباءاتنا وتصل من خلال ملابسنا الى اجسادنا ، فتسبب لنا برودة شديدة تخترق العظام .

وبلغنا حد الجبل عند العصر ، الا اننا وجدنا الوادي مقفراً واجرداً ، و ابرد مناخاً من قبل . وبعد ان سرنا لثلاثة او اربعة اميال توقفنا ، وتسلقنا جرفاً ضخماً لنرى خط السكة الحديد الذي ، كما قالوا ، كان يمتد خلفه . وكانت الرياح شديدة بحيث لم نتمكن من التشبث بالصخور لتسلقها ، فخلعت عباءتي وبعض ملابسي واصبحت نصف عارياً لاتمكن من تسلق الصخور بشكل اسهل . الا ان هذا الجهد ذهب سدي ، فقد كان الهواء والريح ثقيلين جداً بحيث لم يمكنني تركيز المراقبة . لذلك فقد نزلت ثانية وارتديت ملابسي ، وفي طريق عودتنا فاننا لم نجن من تلك الرحلة سوى المعاناة .

وعندما رجعنا كانت يداي ورجلاي متضعضعة جداً فاستلقيت وانا ارتجف

من البرد لاستريح لمدة ساعة او أكثر ، بينما ذهب الآخرون لدفن الرجل الميت في جانب الوادي . وهو خادم سلطان ، من قبيلة عتيبة ، الذي اصر أن يتسلق الجرف معنا ، فانزلقت قدماه فوقع من اعلى الصخور ليلقى مصيره . وعند عودتهم قابلوا فجأة رجل يعلو جملاً ، اعترض طريقهم . ثم اطلق النار عليهم فردوا عليه باطلاق النار ، ومن ثم اختفى في الظلام . وكان مثل هذا العمل يقلقنا حيث اننا كنا نعتمد على عنصر المفاجأة لمهاجمة الاتراك ، الذي اعتبرناه حليفنا . وأملنا فقط بأن لايذهب ذلك المجهول الذي اطلق النار ويحذر الاتراك، بأن هناك مهاجمين في الجوار .

ثم علونا جمالنا ثانية لنصبح اقرب ثانية من خط السكة الحديد . الا انه ما ان بدأنا المسير حتى أتانا الريح باصوات الابواق التركية المستخدمة لدعوة الجنود لتناول الطعام ، أتية من بطن الوادي . ووجه دخيل الله اذنه باتجاه الصوت ، وفهم انه كانت تقع هناك محطة "مدحرج" ، وكانت عبارة عن محطة صغيرة تقع الى اسفل من مكان تواجدنا . لذلك فقد انجذبنا نحو الصوت المكروه ، المكروه لانه كان يعلن عن موعد العشاء وعن الاستراحة في الخيام ، في حين كنا نحن في العراء دون مأوى . وبدا اننا لم نكن لنستطيع في تلك الليلة ان نوقد ناراً لصنع الخبز من الطحين والماء الموجدين في سروجنا ، وبالتالي فسنذهب جائعين .

ولم نبلغ خط سكة الحديد لغاية الساعة العاشرة ليلاً ، وقد تمكنا من ايجاد مكان ملائم هناك لنصب المدفع الرشاش . ووضعت اللغم بصورة عشوائية ، ليتبين لي فيما بعد انني وضعته عند الاشارة (اللافتة) التي تفيد بأن المسافة من هناك تبعد (١١٢١) كيلوا متراً عن دمشق . وكان اللغم مركباً ، ومشحوناً بعدة رؤوس متفجرة ليفجر ما مساحته ثلاثين ياردة وقد املنا بهذه الطريقة بأن تدمر القاطرة الامامية للقطار سواء كانت متجهة شمالاً او جنوباً . واستغرق دفن او زرع اللغم نحو اربعة ساعات ، اذ ان ماء المطر كان قد لبد سطح الارض ، كما ان اقدامنا قد أحدثت آثاراً على الارض المنبسطة . وكانت كثيفة جداً ، كما لو ان

مجموعة كبيرة من الفيلة كانت ترقص هناك ، ولاخفاء هذه الاثار والعلامات فاننا قمنا بالمشي لمسافة اربعمائة يادرة لتغطية اثار الاقدام ، وقد استعنا بجمالنا ايضاً لهذا الغرض، لغاية مابدا المكان كما لو ان نصف جيشاً كان اجتاز الوادي ، كما ان مكان اللغم لم يكن افضل ولااسوأ من بقية الامر . ومن ثم فقد رجعنا خلفاً الى مكان آمن لنختبئ خلف بعض الروابي ، وننتظر هناك حتى طلوع يوم جديد . وكان البرد شديداً . واسناننا تصطك ببعض من شدة البرد ، ونرتجف لاشعورياً. وعند الفجر اختفت الغيوم ، واشرقت الشمس ساطعة على الجبال التي يقع خلفها خط السكة الحديد . وتولى دخيل الله ، الذي كان يعتبر مرشدنا خلال الليل ، مسؤوليته وقام بارسالنا فراداً وازواجاً الى امكنة اختفاء قريبة . وقام هو نفسه بتسلق الجبل قبلنا ليشاهد الاحداث (السكة الحديد) من هناك ، ومن خلال نظارتيه . وكنت اصلي من اجل ان لاتحدث امور طارئة لغاية ماتدفء الشمس اوصالي وتمنحني القوة ، اذ ان ارتعاش البرد كان مسيطراً علي تماماً ، ومع ذلك فانه سرعان ماتحسن الوضع وازدادت حرارة الشمس ، وجفت ملابسي ، ومع حلول الظهر فقد اصبح الطقس حاراً ، واصبحنا نبحث عن مكان لنستظل فيه ونخفف من ملابسنا .

وكان في بدء الامر، عند الساعة السادسة صباحاً ، عندما افاد دخيل الله بأن هناك شاحنة كانت قادمة من الجنوب ، ومرت فوق الكمين (اللغم) دون ان ينفجر ، وكان ذلك مدعاة سرور لي ، حيث ان اللغم لم يكن لينفجر سوى بحمولة ثقيلة جداً ، وليس بشاحنة كانت تقل خمسة عسكريين فقط . ومن ثم قدم من محطة مدحرج ستون رجلاً ، وهذا اقلقنا لغاية مارأيناهم يقومون بتبديل خمسة اعمدة تلغراف حطمت من قبل العاصفة التي اجتاحت المنطقة بالامس . ومن ثم عند الساعة السابعة والنصف صباحاً قدمت دورية مؤلفة من احدى عشر رجلاً نحو خط السكة الحديد ، واخذ اثنان منهم يقومان بتفتيش الخط بعناية ، وثلاثة منهم بتتبع اثار الاقدام المتواجدة على الرمال ، وواحد بدا عليه انه كان ضابطاً يتمشى على خط السكة الحديد دون ان يقوم بعمل شئ ما .

ومع ذلك فانهم تمكنوا من ايجاد شئ ما ، عندما اجتازوا اثار اقدامنا عند

الكيلو متر (١١٢١) . فتركزوا هناك ، واخذوا يحدقون بالارض ، ويروحون جيئة وذهاباً ، وهم يبعثرون الحصى . ومضى وقت البحث بتثاقل بالنسبة لنا ، الا ان اللغم كان مخبئاً بشكل جيد ، ذلك انهم في اخر الأمر تحولوا وهم قانعين باتجاه الجنوب ، حيث تقابلوا مع دورية تركية آتية من محطة "الحدية" ، وجلس الفريقان (الدوريتان) سوية تحت ظل جسر ، واستراحوا هناك من عملهم المضني. في غصون ذلك قدم قطار بحمولة ثقيلة من جهة الجنوب ، وكانت قاطراته تقل نساء واطفالاً من المدينة ، وكانوا من المدنيين الذين يجلون من المدينة (المنورة) الى دمشق ، ومعهم امتعتهم ، ومر القطار فوق الشحنات الناسفة دون ان تنفجر ، فاشتعلت غضباً ، لان عملي لم يثمر ، الا انني «كعسكري» فقد استرحت عميقاً ، لان قتل النساء والاطفال لم يكن من اهدافنا . واسرع الرجال الى قمة الجبل حيث كنت انا ودخيل الله مختبئان هناك ، عندما سمعوا القطار قادماً وحتى يروه ينفجر الى اجزاء . وكان ذلك ملفتاً لنظر الاتراك الذين تراجع جندهم الى محطة مدحرج ، واخذوا يطلقون نيران بنادقهم من على بعد خمسة الاف ياردة ، ولابد انهم اتصلوا بمحطة الحدية ، التي كانت تبعد نحو ستة اميال ، الا انهم لم يقوموا باطلاق النار من هناك لان المسافة كانت بعيدة .

ولم يسبب لنا رصاص البنادق أذى ، الا ان اكتشاف مخبئنا كان إمراً غير سار ، ففي موقع محطة مدحرج كان يتواجد هناك مائتي جندي تركي ، وفي محطة الحدية نحو الف ومائة جندي ، وكان انسحابنا يمر عبر سهل وادي حمده حيث يتواجد هناك موقع محطة الحدية . ومن الممكن ان تقوم قواتهم المحمولة بملاحقتنا من هناك ، وكان لدى رجالنا من قبيلة جهينة جمال جيدة في العدو ، الا ان المدفع الرشاش ، وكان الماني الصنع استولي عليه من الاتراك ، ثقيل الحمولة بالنسبة للبغل النحيل الذي كان يحمله . وكان الخدم معنا يمشون على الاقدام ، او على بغال اخرى : فاقصى سرعة لهم كانت ستة اميال في الساعة فقط والسلاح الذي كان معهم لايوفي بالدفاع عنهم . ولذلك وبعد ان عقدنا مجلس حرب عدنا ادراجنا معهم لمتنصف الطريق حتى الجبال ، وهناك

تركناهم. مع خمسين رجلاً من قبيلة جهينة ، باتجاه وادي العيص .

وجعلنا هذا نتحرك بسهولة ، وقمت انا ودخيل الله ، سلطان ومحمد وبقية فريقنا لالقاء نظرة اخرى على خط السكة الحديد . وكانت اشعة الشمس حينئذ قاسية جداً ، مع هبوب رياح ساخنة آتية من الجنوب تلفح وجوهنا . وعند الساعة العاشرة صباحاً نزلنا لنستريح تحت ظلال اشجار وافرة ، حيث قمنا باعداد الخبز من اجل الغداء ، وكان المنظر لطيفاً ونحن نستظل تحت الاشجار التي يتلاعب الهواء باغصانها جيئة وذهاباً . كما ان نزهتنا كانت تزعج الاتراك ، الذين كانوا يطلقون النار علينا بشكل مستمر ابتداءً من وسط النهار ولغاية المساء ، في حين كنا نحن ننام بالدور .

وحوالي الساعة الخامسة نهضنا بهدوء ، واعتلينا جمالناوسرنا ببطء لنجتاز الوادي الفسيح باتجاه خط السكة الحديد . عندئذ قام موقع محطة مدحرج بتجديد اطلاق النار ، وتبعه موقع محطة الحدية . الا اننا لم نعبأ بذلك ، ولذلك عندما بلغنا خط السكة الحديد ، انزلنا جمالنا للارض ، ومن ثم قمنا بتأدية صلاة المغرب بهدوء ونحن على السكة الحديد ، وكان امامنا هو دخيل الله ، ومن المحتمل انها كنت اول صلاة لرجال قبيلة جهينة منذ سنة تقريباً ، وبالنسبة لي فقد كنت مبتدأً . وتوقف الاتراك عن اطلاق النار وهم في حالة انذهال . وكانت تلك اول وآخر مرة اصلي فيها كمسلم في الجزيرة العربية .

وبعد تأدية الصلاة فانه لم يكن الظلام قد حل حتى نقوم بعملنا ، لذلك فقد جلسنا بشكل مستدير فوق الجسر وأخذنا ندخن ، ولغاية حلول الظلام ، عندها حاولت ان اذهب بنفسي وانبش مكان اللغم لاستعلم فقط ، لماذا اخفق بالانفجار .

ومع ذلك فقد لحق بي رجال حهينة المهتمون بالامر مثلي . وقد عوقني ذلك في عملي ، ولبثت ساعة كاملة وانا ابحث عن مكان اخفاء اللغم ، ومما زاد في اعاقتي انني كنت ابحث عنه في الليل . واخيراً وجدته ، فخمنت ان السبب اما كان من عدم وضعي له بشكل جيد ، او ان سطح الارض قد هبط قليلاً

ليغوص اللغم في التراب اكثر ، وذلك بفعل مياه الامطار . وقمت بتثبيته جيداً في مكانه ، ومن ثم ، ولنوضح انفسنا تماماً للعدو ، فقد بدأنا القيام بتلغيم خط السكة الحديد ، واستطعنا زرع الغام في جزء كبير منها . وفي حين كان الرجال يقومون بزرع وتثبيت الشحنات الناسفة ، كنت انا اقوم بتعليم محمد كيف يتسلق اعمدة التلغراف؛ وقمنا معاً بقطع الاسلاك وطرح الاعمدة الى الارض . وكل ذلك جرى بسرعة خشية ان يلحق بنا الاتراك ، وعندما انتهت تفجيراتنا اسرعنا عائدين مثل الارانب البرية الى جمالنا ، وامتطيناها وسرنا دون توقف نزولاً الى سهل وادي حمده . وهناك اصبحنا في وضع آمن ، الا ان دخيل الله كان مسروراً جداً بالعمل الذي قمنا به ، فما ان اصبحنا على منبسط رملي حتى أخذ يخب سريعاً بجمله ، فأخذنا نعدو خلفه بشكل جنوني من خلال ضوء القمر . وسرنا هكذا لنحو ثلاث ساعات ثم توقفنا على الطريق الذي يؤدي الى المعسكر . وعند الصباح نمنا طويلاً بكسل ، وتناولنا الافطار عند بئر ربيعان ، وهو اول بئر يقع في وادي العيص ، وبعد ذلك اخذنا ندخن ونتحدث ، وكنا على وشك احضار جمالنا عندما سمعنا فجأة صوت دوي انفجار شديد عن بعد آتيا من جهة سكة الحديد خلفنا . وتساءلنا فيما اذا كان اللغم قد اكتشف او انه ادى مهمته ، وتركنا خلفنا مجموعة كشافة او استطلاع لتفيدنا بما حدث ، وتابعنا مسيرنا ببطء، لأن الارض كانت ضحلة في وادي العيص بفعل مياه الامطار التي هطلت منذ يومين .

وبسبب لطافة الجو ومسيرنا السهل وسماع ماسيفيدنا به كشافتنا قريباً ، فقد كان وضعنا يدعو للابتهاج . وبسبب ما لاقيناه بالامس من برد وتعب ، فقد قررنا ان نقضي الليل في منطقة "ابو مرخا" . لذلك فعند غروب الشمس اخترنا مصطبة جافة تقع في الوادي لننام عليها ، وقمت بتحريك جملي الى مسافة اعلى، واستدرت لاشاهد الرجال بالاسفل وهم على جمالهم كمثل الثماثيل النحاسية تحت ضوء شمس المغيب : فقد بدو لي وكأنهم كانوا يحترقون بلهب داخلي .

وقبل ان يجهز الخبز من اجل العشاء، وصل الكشافة ليخبروننا بأن الالغام

قد انفجرت تحت عجلات قطار قادم . وكان ذلك ما املناه ، فسرنا عائدين الى معسكر الامير عبدالله في صباح اليوم التالي ، ونحن ننشد في الطريق . وقد اثبتنا بذلك ان وضع اللغم بشكل جيد سيؤدي الى انفجاره ، وان وضع اللغم ايضاً بشكل جيد كان يصعب حتى على واضعه ان يكتشفه . فهذه الامور كانت مهمة ؛ فلم يعد هناك الآن نيوكمب ، ولاجارلاند ولاهوربني ، ليقوموا بمساعدتنا على فن واسلوب تدمير السكة الحديد ، وان الالغام كانت افضل سلاح يكتشف ليجعل خسائر عدونا التركي مكلفة .

(٣٦)

كان الامير عبدالله كريماً ولطيفاً معي ، الا انني لم استطع أن أتاقلم مع معسكره ، وربما كان هذا راجع الى انني لم اكن اجتماعياً في نزعتي. وكان عبدالله يقضي معظم وقته في خيمته الكبيرة ، يستمع فيها الى شكاوي ومنازعات الناس ، ويقرأ الصحف ويتسامر مع اصدقائه ، واحياناً كان يمتطي جواده لبعض الوقت ويقوم باطلاق النار . وكان هو واصدقائه شاكر وفوزان وغيرهم يحبوا ان يداعبو محمد حسان ويتبادلو النكات معه . كما ان الامير عبدالله قد شغف بالشعر العربي ، وكان قارئاً جيداً ، وكان الشعراء المحليين يقوم بالقاء الشعر بين يديه فيكافئهم اذا ما ابدعوا . كما اهتم بالتاريخ والادب ، وكان يحكم في النزاعات اللغوية .

كان عبد الله يولى اهتماماً كبيراً بالحرب الدائرة آنذاك على الساحة الاوروبية، ويقرأ اخبارها بعناية في الصحف . كما انه كان مطلعاً بالسياسة الغربية، ويعلم اسماء معظم السياسين الاوروبين . وابديت له ملاحظتي ثانية كم ان الظروف كانت مريحة من اننا لازال لدينا ملك في بريطانيا يحافظ على سمعه بلاده في هذا الجزء من العالم في أسيا . مما يجعل المجتمعات القديمة ، ومن ضمنها المجتمع العربي ، تشعر بالأمن المشرف عندما تتعامل معنا . واصبحت مع مرور الوقت اعرف مزاج وطبائع الامير عبدالله عن قرب . وكان من الذكاء والفراسة الى حد جعله يعرف الرجال من انطباعاتهم ومن تعابيرهم واستفساراتهم . ويعرفهم اذا ما كانوا مترددين اوصادقين او غير صادقين في حديثهم وتعاملهم .

دخلت عليه ذات يوم لاجده جالساً بحالة غضب وقد توردت وجنتاه ، فقد تسلم رسالة بواسطة معلمه القديم ، السيرجنت بروست ، من الكولونيل بريموند اشار فيها الى ان البرنطانيين كانوا يسعون لتقييد تحرك العرب على كافة الاتجاهات - في عدن وغزة وبغداد ، وكان بريموند يأمل من ذلك ان يتفهم ويدرك عبدالله هذا الوضع . وسألني باهتياج ما هو رأي بذلك . فاجبته بتعبير لطيف بأنني آمل منه بأن لايحكم او يشك بصدقنا واخلاصنا من خلال الرسائل الخاصة التي تغتاب الحلفاء ، وقد اسره هذا الرد ، وقال انه كان يعرف باننا كنا مخلصين حيث انه لو كان الامر غير ذلك لما ارسلنا البعثة العسكرية الموجودة في جدة والتي يقودها الكولونيل ويلسون . الا انه لم يكن يعرف ان الاخلاص يمكن ان يتغير ، وان ويلسون ايضاً كان مستعداً لأن يتغير بسرعة وان يثير الشك من حوله .

ان ويلسون لم يكن ليتكلم حتى نصف الحقيقة . فاذا ماصدرت تعليمات لابلاغ الملك (الشريف حسين بن علي) بالطرق الدبلوماسية من ان المساعدة الشهرية لايمكن ان تزاد في الوقت الراهن ، فانه سرعان مايهاتف مكة ليقول "ياسيدي لايوجد هناك نقود اخرى" . ومع ذلك فانه لم يكن قادراً على اتقان الكذب ، الا انه كان يعرف تماماً انها أسوأ مناورة ضد لاعبين من الذين مرت حياتهم في ضباب كثيف من الخداعات ، والذين كانت ادراكاتهم من النوع الادق . فقد اظهر الزعماء العرب تمامية الغريزة وثقة بالحدس .

كان الشريف شاكر شخصية بارزة في حاشية الامير عبدالله . وكان شاكر في التاسعة والعشرين من عمره ، وكان منذ صباه رفيقاً للامراء الاربعة وقد ولد من ام شركسية ، وجدته ايضاً كانت شركسية . وقد ورث عنهما رقة البشرة ، الا انه كان يتواجد على وجهه آثار الجدري . وكان ذا قامه طويله ، نحيلاً ، عيناه كبيرتان ومشعتان وصوته حاداً ، ولكن لطيفاً اذا ماصرخ او نادى ، وكان اسلوبه في الحديث صريحاً جاداً ، ومهيباً ، مع تمتعه بروح الدعابة ، ويقهقه في حالة الضحك .

وكان حراً وطليقاً في الحديث ، وبدا وكأنه لم يكن يحسب حساباً لاحد على الارض سوى للملك (الشريف) حسين . ولباسه كان بسيطاً ، الا انه نظيفاً

جداً ، وكان كمثل عبدالله ، يستخدم المسواك بكثرة ، الا انه لم يكن ليبدي اهتماماً بالكتب ويزعج رأسه بالتأمل ، ومع ذلك كان ذكياً ومهتماً بالحديث . وكان ورعاً وتقياً من الناحية الدينية ، يؤدي الصلاة بلا انقطاع .

وفي الحرب كان رجل النزال . فاعماله البطولية جعلته محبوباً لدى القبائل، وكان هو بدوره يصف نفسه على انه بدوي ، وانه عتيبي (من قبيلة عتيبة) ، ويقوم بتقليدهم . كما يقوم بتضفير شعره ليرسله على جانبي وجهه ، ويبقي عليه مزيتاً . وكان يمتلك خيولاً وجمالاً رائعة ، وأعتبر من اشد الفرسان في الجزيرة العربية ، مستعداً للسباق في أي وقت .

لقد اعطاني الشريف شاكر احساساً وانطباعاً انه كان يستخدم طاقة ملاءمة ليطيل جهده ، الا انه كان هناك اتزاناً وانضباطاً في تصرفه وسلوكه . وقد استخدمه الشريف حسين بالقيام في مهمات دبلوماسية الى القاهرة ماقبل الحرب ليقوم بترتيب اعمال خاصة مع خديوي مصر . وكان الامير عبدالله يكن له اعجاباً غير محدود .

(٣٧)

كان هناك فريقان من قواتنا يقومان بالعمل على سكة الحديد ، على أمل ان يقوموا ببعض التدمير في كل يوم او نحو ذلك . فبتخريب عدة قطارات واعاقة عملية اخلاء الحامية التركية في المدينة كان سيخدم مصالح البريطانيين والعرب على حد سواء . لذلك فقد كان عملي في وادي العيص ينجز بشكل كاف وجيد.

وكان علي ان اتوجه شمالاً ثانية . وكان عبدالله يدعني اقوم بما اريد عمله. وغادرنا في صباح العاشر من نيسان ، بعد ان ودعنا عبدالله بتمنياته الطيبة لنا . كان يرافقني ثلاثة من رجال قبيلة عقيل ، وارسلان ، الرجل السوري الذي كان يبدو قلقاً بالملابس العربية ، وبالعادات والتقاليد البدوية . وكان يقود جمله بشكل مخز وهو مضطرب طيلة الطريق ، الا انه برر نفسه بقوله انه لا يوجد رجلٌ انيق في دمشق يقود جملاً ، ويعبر عن ذلك بدعابة ، انه في الجزيرة العربية لا أحد سوى شخص دمشقي يقود جملاً سيئاً مثل جمله . وكان محمد القدحي هو دليلنا ومرشدنا في تلك الرحلة ، اضافة لستة رجال من قبيلة جهينة .

وسرنا الى وادي طليح ، الا اننا تفرعنا منه نحو اليمين ، متجنبين صخور اللافا البركانية . ولم نأخذ معنا طعاماً ، لذلك فقد توقفنا عند بعض الخيام من اجل ضيافتهم من الارز والحليب . وكان موسم الربيع في التلال هو وقت وموسم الوفرة والماعز والجمال ، وكل واحد كان لديه مؤونة جيدة . وسرنا بعد ذلك في طقس شبيه بايام الصيف في انجلترا لمدة خمسة ساعات نزولاً الى وادي ضيق ، وهو وادي عثمان الملتوي بين الجبال الا ان طريقه كان سهلاً . وكان آخر

جزء من المسير بعد حلول الليل ، وعندما توقفنا افتقدنا ارسلان . فقمنا باطلاق عدة صليات من الرصاص واشعلنا النار على امل ان يلحق بنا ، الا انه لم تكن هنالك اية اشارة لغاية الفجر ، فرجع رجال جهينة للبحث عنه في عملية بحث مشكوك فيها . ومع ذلك فقد كان لايبعد سوى ميلاً عنا ، وهو مستغرق في نوم عميق .

وبعد مسير قصير لمدة ساعة توقفنا عند خيام زوجة دخيل الله ، من اجل تناول وجبة طعام . واستغل محمد دخيل الله الفرصة ليأخذ حماماً ويقوم بعدذلك بتجديل شعره الوافر ، وينظف ملابسه . واستغرق اعداد الطعام وقتاً طويلاً ولم يقدم لنا لغاية الظهر تقريباً ، عندما أُحضر اخيراً ؛ وكان يتكون من ارز ولحم وضع في وعاء (سدر) كبير ، وقام محمد الذي شعر ان من واجبه القيام بالضيافة نحوي بملء وعاء نحاسي بالارز واللحم ليقدمه لي . وكانت والدة محمد تنظر بفضول تام نحوي . وقامت بتوجيه الاسئلة لي حول وضع النساء في القبائل المسيحية وطريقتهن في الحياة ، وكانت مندهشة من لون بشرتي البيضاء ، وعيناي الزرقاوتان المخيفتان اللتان بدتا ، كما قالت ، كالسماء تشع من خلال حدقتي العين لجمجمة فارغة .

كان وادي عثمان في ذلك اليوم غير منتظم في جريانه ، متوسعاً بالمياه ببطء ، وبعد ساعتين ونصف اصبح ملتوياً فجأة نحو اليمين من خلال فجوة ، فوجدنا انفسنا في وادي حمده في بقعة ضيقة ، ذات ممر ضيق محاطاً بالصخور . وكالعادة ، فان حواف بطن الوادي كانت تتكون من الرمال الجرداء ، وفي الوسط انتصبت الاشجار ذات الاغصان والجذوع الرفيعة الحادة . وكانت تبدو امامنا برك من الماء العذب ، واكبر واحدة منها تقدر طولها بنحو ثلاثمائة قدم ، وعميقة بشكل حاد . وقال محمد ان مياهها ستظل قائمة لغاية انتهاء السنة ، الا انها سرعان ما تتحول الى مياه مالحة عديمة الاستعمال .

وبعد ان شربنا منها ، اغتسلنا فيها ، ووجدناها مليئة بالسمك الصغير ذو اللون الفضي الذي يشبه سمك السردين ، الا ان جميعه كان من النوع الضار .

وبعد ان اغتسلنا اخذنا نتمشى هنا وهناك ، لنطيل انتعاش اجسامنا . ومن ثم امتطينا جمالنا عند حلول الظلام ، وسرنا مسافة ستة اميال لغاية ماشعرنا بالنعاس . ثم استدرنا نحو ارض مرتفعة لنقيم معسكرنا هناك .

ووادي حمده يختلف عن غيره من وديان الحجاز في هواءه البارد جداً . وكان هذا واضحاً ، بالطبع ، اثناء الليل عندما يغشى ويعم الوادي ضباب رقيق يتخلله بخار دبق . بل وحتى بالنهار عندما تكون الشمس مشرقة فان الجو الرطب يعم الوادي ويجعله غير طبيعي .

وبدأنا مسيرنا مبكراً في اليوم التالي واجتزنا برك مائية واسعة في الوادي ، ولم يكن سوى القليل من مياهها صالحة للشرب ، اما بقية البرك فقد تحول ماءها نحو الاخضرار وكثرت فيها الطحالب والاسماك العائمة الميتة . وبعد ذلك اجتزنا بطن الوادي واتجهنا شمالاً نحو سهل العجيلا ، حيث كان روس قائد سرب طيراننا في الوجه ، قد اقام مهبطاً للطائرات هناك . وكان يتواجد هناك حراس عرب ، وتناولنا فطورنا معهم وسرنا بعد ذلك على طول وادي "المذار" لنتجه نحو شجرة كبيرة لنستظل وننام تحتها لمدة اربعة ساعات .

وفي العصر اصبح كل واحد منتعشاً ، وبدأ رجال جهينة بتسيير جمالهم واحداً بعد واحد . وفي البدء كانوا يسيرونها اثنان اثنان ، لأن الطريق كان سيئاً ، واخيراً وجه واحد منهم ناقته نحو كومة من الحجارة ، فانزلقت الناقة ، فسقط عنها وكسرت ذراعه . وكان هذا من سوء حظه ، الا ان محمد ربط له يده بخرقة ، وتركه يرتاح تحت شجرة قليلاً قبل ان يسير الى قرية "العجيلة" لقضاء الليلة هناك . فان العرب لايبالون بشأن كسر العظام ، فقد رأيت في خيمة بوادي العيص شاباً كانت يده معقوفة ، فقام بشرط لحم يده بواسطة خنجر لغاية ما كشف عن العظم ، فاعاد كسره ، وجلّسه ثم استلقى هناك ، ويده اليسرى مغطاه بشكل كثيف بالطين والطحالب ، منتظراً ان تصبح متحسنة .

وفي الصباح اندفعنا نحو بئر "الخوتيلا" ، حيث قمنا بسقاية جمالنا . وكان الماء رديئاً ولم يرتوا منه . وفي المساء سرنا ثانية لمسافة ثمانية اميال ، بقصد

الاتجاه مباشرة نحو الوجه في مسير يوم كامل . لذلك فقد نهضنا بعد منتصف الليل مباشرة ، وقبل ان يظهر ضوء الشمس كنا قد بلغنا السهل الذي يمتد بمحاذاة مسارب وادي حميده وحتى البحر . كانت توجد على الارض آثار عجلات مركبة ، مما جعل رجال جهينة يتملكهم الفضول ويسرعون ليروا العجائب الجديدة في جيش فيصل . وسرنا لمدة ثمانية ساعات متواصلة ، وكانت تلك تعتبر مسافة طويلة بالنسبة للرجال .

فاصبحنا مرهقين سواء الرجال ام الجمال ، حيث اننا لم نتناول طعاماً بعد طعام الافطار السابق . لذلك فقد بدا من الملائم للولد محمد ان يقفز عن جمله ويسرع ليتسلق شجر الزعرور ويجني ما امكنه من ثمارها . الا انه في نهاية الامر فقد توازنه فسقط ارضاً ونزف من فمه وانفه ، وكان الطقس حاراً جداً ، وخشيت انه نتيجة لاصابة وانهاك محمد ان نتأخر عن المسير ، الا انه بعد ان استرحنا لمدة ساعة واعددنا له كوباً من القهوة نهض ثانية وسار معنا مبتهجاً للست ساعات المتبقية من المسير نحو الوجه . واستمرينا نمارس بعض اللعب واللهو ونحن في الطريق ، ومنها انه اذا ماسار واحد بهدوء بجمله خلف واحد آخر و قام بضرب الجمل امامه بعصا بشكل مفاجيء وصرخ صرخة مدوية فيأخذ الجمل المضروب بالاسراع بصورة جنونية مما يثير اضطرباً كبيراً لمتطيه . واللعبة الثانية كانت القيام بدفع جمل بواسطة جمل آخر بشكل شديد ومفاجئ ودفعه نحو شجرة قريبة ، فاما ان تنهار الشجرة (حيث ان الاشجار في ارض الحجاز اللينة تكون غير ثابتة) او ان يتخدش باغصان الشجرة ، وفي افضل الحالات ، فانه ينزلق تماماً عن سرجه ، ويمسك باحدى الاغصان ، اذا لم يسقط ارضاً بشكل عنيف .

ان البدو اناس غريبون في طباعهم ، فبالنسبة لرجل انجليزي يقيم معهم ويعاشرهم بشكل مؤقت لايمكنه ان يكون راضياً مالم يكن لديه صبر واسع وعميق كالبحر . فهم خاضعون تماماً لشهواتهم ، شرهون في اكل اللحم ، وشرب القهوة والحليب والماء ، وتدخين التبغ ، كما انهم يقضون اوقاتاً طويلة في سرد حكاياتهم واحاديثهم . وهم يتمتعون بقوة جسدية فائقة بحكم منطقتهم

الجغرافية . وجعلهم الفقر في الجزيرة العربية أنذاك بسطاء قانعين ويتحملون المشاق ، واذا ما اجبروا على الحياة المتمدنة فهم سيخضعون ، مثلهم مثل اي عرق او جنس قاس ، الى امراضها ووسائلها ورفاهيتها ووحشيتها ومظاهرها المصطنعة ، وسيعافّونها بشكل بالغ .

واذا ما شكوا باننا اردنا ان ندفعهم او نجرفهم نحو امرما ، فاما ان يعاندوا ذلك بتصلب او يمضون في حال سبيلهم . اما اذا ما فهمناهم واستوعبناهم ، وابدينا نحوهم حسن النية ، فانهم عندئذ يتفانون في الاخلاص . والعرب واضحون في تعاملهم ، وعقولهم وافكارهم متحركة بشكل منطقي كما هو الحال بالنسبة لنا ، ولا يتخلل ذلك اي شيء مختلف او غير مستوعب ، وباستثناء بعض الافتراضات فانه لايوجد هناك اي سبب اوعذر ، فيما عدا جهلنا بهم بأن نطلق عليهم بانهم غامضين او شرقيين ، او ان نتركهم دون ان نفهمهم .

انهم سيتبعوننا فيما لو تحملنا المشاق معهم ، ونلعب العابهم وفقاً لاحكامهم . ومما يدعو للحزن ، اننا غالباً مانبدأ بعمل ذلك ، ومن ثم نتوقف عن ذلك بغضب ونتخلى عنهم او نطرحهم جانباً ، لنلومهم على خطأ ما لم يرتكبوه وانما نحن ارتكبناه . فمثل هذه التضييقات التي تشبه جنرالاً يتذمر من قواته الرديئة ، هي في الحقيقة اعترافاً بعيب ونقيض بصيرتنا ، التي غالباً ماصنعناها بخدعة التواضع المصطنع ، فقد كان لدينا الذكآء على الاقل لنعرف مدى خطأنا .

(٣٨)

توقفنا خارج بلدة الوجه لاقوم بتغير ملابسي المتسخة . وعندما وصلنا قادني فيصل الى داخل الخيمة للتحدث . وبدا لي من خلال مشاهداتي بأن كل شئ كان جيداً . فقد وصلت الينا مركبات اخرى من مصر ، وجرى تفريغ ينبع من الجنود والمؤن ، وقدم شرف نفسه الى الوجه ، ومعه وحدة عسكرية غير متوقعة ، وسرية مدافع رشاشة . وكان لدينا ثلاثين مريضاً وجريحاً في ينبع عندما اجليت قواتنا عنها ، ومجموعات من الاسلحة المعطوبة ، قام اثنان من الرقباء الانجليز باصلاحها ، حيث قاما بنقلها من هناك مع سرية المدافع الرشاشة .

كما ان رابغ كانت اصبحت مهجورة ، ونقلت الطائرات منها الى الوجه . وقد انتقلت منها ايضاً الوحدة المصرية ، ومعها ايضاً ضباط الاركان البريطانيون ، الذين تسلموا مهامهم الآن في الوجه . وكان كل من نيوكمب وهورنبي يقومان ليلاً نهاراً بتخريب السكة الحديد بجهودهما الذاتية دون مساعدة .

وكان الشعار المطروح وقتذاك هو الزحف للامام . فكل شئ كان يسير نحو الافضل ، وكنت على وشك المغادرة عندما حضر سليمان ، رئيس الخدم ، مسرعاً وهمس شيئاً في اذن فيصل ، الذي استدار نحوي وعيناه تشعان فرحاً ، محاولاً ان يكون هادئاً ، وقال لي ، "ان عودة موجود هنا" . وصرخت بأعلى صوتي ، "عودة ابو تايه" ، وفي تلك اللحظة أزيح ستار مدخل الخيمة ، ودخل رجل طويل القامة ، قوي البنية ، ذا وجه كوجه الصقر . كان ذلك هو عودة ابو تايه ، وتبعه ابنه محمد الذي كان يشبهه في ملامحه ، وكان يبلغ من العمر أحد عشر عاماً فقط .

وقام فيصل على قدميه ، حيث امسك عودة بيده وقبلها ، وانسحبا جانباً خطوة او خطوتين وكل منهما ينظر للآخر - كانا غير متشابهين بشكل رائع ، كافضل نموذجين في الجزيرة العربية ، فيصل القائد ، وعودة المحارب ، فكل واحد يملأ دوره بشكل تام ، وقد فهما بعضهما على الفور ، وحل الانسجام بينهما . وقام فيصل بتقديمنا له واحداً واحداً ، وبدا عودة وكأنه يسجل كل رجل منا بذاكرته .

لقد سمعنا الكثير عن عوده ابو تايه ، واعتمدنا على مساعدته للاستيلاء على العقبة ، فبعد لحظة علمت ، من خلال قوات واتجاه الرجل ، باننا سنحقق هدفنا ، فقد قدم كفارس متأهب غاضباً على تأخرنا في الوجه ، مستعداً ليساهم في حركة التحرر العربية في وطنه ، فاذا ما تحقق نصف ماستعرضه من رغباته ، فاننا لابد وان نكون محظوظين وظافرين . وكان كل شيء متفق عليه قبل ان نذهب لتناول العشاء .

وكنا نشكل فريقاً مبتهجاً ، نسيب ، (البكري) محمد الدحيلان ، ابن عم عودة ، وزعل ابن اخته ، والشريف ناصر ، الذي كان يستريح في الوجه بضعة ايام مابين الحملات العسكرية التي يقوم بها . وابلغت فيصل عن اخبار معسكر شقيقه عبدالله والسرور الذي عم من جراء نسف سكة الحديد هناك . وفجأة هب عودة على قدميه واقفاً ، وهو يقول بصوت عال «معاذ الله» ، وخرج مسرعاً من الخيمة وحدق كل واحد منا بالآخر ، وسمعنا صوت طرق من الخارج ، وخرجت لاستطلع الامر ، وكان هناك عودة مائلاً على صخرة وهو يقوم بتكسير اسنانه الاصطناعية بحجر ، وقال موضحاً ، "لقد نسيت ان جمال باشا اعطاني هذه الاسنان . وانني اقوم الآن بأكل طعام سيدي باسنان تركية! " ولحسن الحظ فقد كان لديه بضعة اسنان طبيعية ، لذلك فقد تابع اكل اللحم الذي كان يحبه بصعوبة وألم ، ومضى هكذا ، بنصف اسنان لغاية ما استولينا على العقبة ، وعندما ارسل له السير ريجنالد وينجيت طبيب اسنان من مصر ليقوم بمعالجة اسنانه .

كان عودة بسيطاً في لباسه، الذي كان حسب الزي الجنوبي، يتألّف من ثوباً قطنياً أبيضاً مع كوفيه موصلية حمراء. ومن الممكن أنه كان فوق الخمسين من عمره، وشعره يتخلّله الشيب، إلّا أنّه كان ما يزال قويّ البنية، مرناً، منتصب القامة، ونشيطاً جداً كشاب في مقتبل العمر. وكان ذا وجه كبير في خطوطه وتجاويفه. وارتسم عليه بصدق الحزن لقتل إبنه في إحدى المعارك، الذي كان محبّباً إليه، وسبّب له حزناً على مدى حياته، كانت عيناه كبيرتان مثل المخمل الأسود في صفائها. وجبهته منخفضة وواسعة، وأنفه عالياً جداً وحاداً، ولحيته وشاربه صفّفا على نمط اسلوب الحويطات.

فقبل قرون قدم الحويطات من الحجاز، وكانت عشائرهم البدويّة تفخر بنفسها على أنّها من البدو الخالصين أو الحقيقيين. وكان عودة نموذجاً لسيدهم. فهو مشهور بضيافته السخيّة. وأبقاه سخائه فقيراً دوماً. بالرغم من فوائد غزواته التي قدّرت بمائة غزوة وتزوّج ثمانية وعشرين مرّة، وجُرح ثلاثة عشر مرّة. وقام بقتل خمسة وسبعين رجلًا خلال المعارك التي خاضها، ولم يقتل رجلًا واحداً سوى في معركة، أمّا بالنسبة لعدد الأتراك الذين قتلهم فهو لا يحصى، ورجال عشيرته «الطويحة» التي يرأسها كانوا يعتبرون من أشد المقاتلين في الصحراء، ويتمتّعون بشجاعته نادرة وشعور بالفخر والاعتزاز، إلّا أنّ عددهم تقلّص من ألف ومائتين إلى أقل من خمسمائة، على مدى ثلاثين سنة وذلك بسبب كثرة المعارك والقتال بين القبائل.

وكان عودة يقوم بالغزو والغارة كلّما سنحت له الفرصة، وبشكل واسع ما أمكنه، وقد زار كل من حلب، البصرة، الوجه، ووادي الدواسر من خلال غزواته وغاراته. وكان حريصاً ليكون على عداء مع كافة القبائل في الصحراء تقريباً، ذلك أنّه من الممكن أن يُتاح له مجالًا حقيقياً للإغارة والغزو. وحلمه وصبره في العمل يصل إلى حدّ مفرط، فهو يتلقّى ويتجاهل النصيحة، والنقد، والإساءة بابتسامة مستمرّة وساحرة. وإذا ما استبدّ به الغضب فإنّه لا يسيطر على تعابير وجهه، ويثور ويهتاج، ولا يهدأ إلّا بعد عملية قتل. ففي ذلك الحين

يصبح شرساً جداً ، ويفر الرجال من امامه . ولاشيء على وجه الارض يمكن ان يجعله يغير رأيه أو ان يطيع امراً ليقوم بأدنى شئ لم يوافق عليه أو يقره ؛ ولايعير او يولي أي اهتمام لشعور الرجال عندما يوجد العزم على امر ما .

كان ينظر الى الحياة من خلال الاعمال البطولية . فكل الاحداث فيها كانت مهمة بالنسبة اليه ؛ وجميع الشخصيات المرتبطة والمتصلة به كانت بطولية . وكان يختزن في عقله اشعاراً كثيرة للغزوات القديمة وملاحم القتال والمعارك ، ويقوم بتفريغها وسردها لاقرب مستمع اليه . واذا مافتقد المستمعين اليه ، فانه من المحتمل جداً ان يقوم بالانشاد او الغناء لنفسه بصوته الضخم ، العميق والعالي الرنان . ولايمكنه السيطرة على شفتيه ، وكان لذلك انعكاساً مزعجاً لاهتماماته الذاتية ويؤذي اصدقائه بشكل مستمر من جراء ذلك ، وكان يتحدث عن نفسه . بصيغة الفرد ، وهو متأكد جداً من شهرته ، ذلك انه كان يحب ان يصرح عالياً بقصص ضد نفسه . وفي بعض الاحيان كان يبدو وكأنه مُس بشيطان مؤذ . وفي المجالس العامة كان يتحدث عن الحياة الخاصة لضيوفه ومضيفيه ، ومع ذلك فانه كان معتدلاً اسلوبه ، وبسيطاً كالاطفال ، واسلوبه مباشراً وصادقاً ، وكان طيب القلب ، ومحبوباً بشغف حتى من قبل اولئك الذين كان كثيراً مايربكهم ، من اصدقائه .

كان جويس يعسكر بالقرب من الشاطئ ، بجانب معسكر خيام القوات المصرية الذي كان يحتوي على عدد كبير من الخيام الكبيرة والصغيرة المنتظمة ، وكنا نتحدث عن الامور التي انجزت او التي ستنجز . وكان الجهد كله مازال منصباً ضد السكة الحديد . وقد عسكر كل من نيوكمب وجارلاند ومعهما الشريف شرف ومولود بالقرب من منطقة "المُدحدم" . وكان معهما رجال عديدين من قبيلة البيلي ، وقوة مشاه ومدافع رشاشة ، وأملوا بأن يستولوا على الحصن ومحطة سكة الحديد هناك . واهتم نيوكمب وقتذاك بأن يحرك كافة قوات فيصل للامام ليصبحوا قريبين من مدائن صالح ، وبواسطة الاستيلاء على جزء من الخط الحديدي ، فانهم بذلك يقطعون الاتصال مع المدينة ويعزلونها

ويجبرونها على الاستسلام مبكراً . وحضر ويلسون ليقدم مساعدته في هذه العملية ، كما ان ديفينبورت سيأخذ ما يستطيع من القوات المصرية وينقلها بواسطة المركبات لتعزيز الهجوم العربي .

ان كل هذا البرنامج كما اعتقدت كان ضرورياً من اجل المزيد من التقدم للثورة العربية عندما استولينا على الوجه . فقد قمت بتخطيط وترتيب بعضاً منه بنفسي . الا انه الآن ، ومنذ ان وفرت لي الحمى والدسنتاريا في معسكر الامير عبدالله وقتاً لاقوم بالتفكير والتأمل حول استراتيجيات وتكتيكات الحرب الغير نظامية ، فقد بدا لي انها ليست التفاصيل فحسب بل ايضاً جوهر هذه الخطة كان خاطئاً . لذلك فقد اصبح من شأني لأن اوضح وافسر آرائي المتغيرة ، واذا امكن ان احث رؤسائي بأن يوافقونني على نظريتي الجديدة .

لذلك فقد بدأت بثلاث افتراضات . اولاً ان القوات الغير نظامية لن تهاجم المواقع ، ولذلك تظل غير قادرة على فرض قرار . ثانياً انهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عن خط او نقطة كما هو الحال في الهجوم . ثالثاً ان تأثيرها وفعاليتها تكمن بالضرب في العمق وليس في المواجهة وجهاً لوجه .

ان الحرب العربية كانت جغرافية ، والجيش التركي كان وجوده هناك عرضياً ، وهدفنا كان يكمن في السعي لمعرفة النقاط الاضعف لدى العدو ونركز عليها لغاية ما تنهك مع مرور الوقت . اما مصادرنا الاكبر ، واعني ، رجالنا وقواتنا من البدو الذين يجب ان تبنى وتعتمد عليهم الحرب ، كانوا غير معتادين على العمليات العسكرية النظامية ، الا انهم لديهم مرونة التحرك ، الشدة ، الثقة بالنفس ، والمعرفة التامة بالبلاد ، والشجاعة والذكاء . وسيكون تشتيت القوات التركية بواسطتهم كبيراً . وينبغي علينا بالتالي ان نوسع جبهتنا الى اقصى ما يمكن ، وذلك لنفرض على الاتراك اقامة اطول خط دفاعي ممكن ، حيث انه سيكون ذلك ، من الناحية المادية ، من اكثر اشكال الحرب تكلفة .

وكان واجبنا ان نحقق هدفنا بأقل عدد ممكن من الخسائر البشرية ، اذ ان حياة المقاتل هي اثمن وانفس بالنسبة لنا من المال او الوقت . واذا ماكنا صبورين

ولدينا كفاءة انسانية خارقة ، فان بامكاننا ان نتبع اتجاه او نظرية ساكس في الحرب ونبلغ الانتصار دون ان نخوض معركة ، وذلك بواسطة الضغط والاستفادة من العنصرين او العاملين الرياضي (مساحة الارض الجغرافية) والنفسي . ولحسن الحظ فان ضعفنا البشري لم يكن يمثل ذلك الحد الذي يتطلب هذا . فقد كنا اكثر وفرة من الترك في وسائل المواصلات ، المدافع الرشاشة ، المركبات والمتفجرات الشديدة . وكان بامكاننا ان نسير قوة متحركة بشكل كبير ، وان نشكل قوة ضاربة ذات مستوى عال باصغر حجم من القوات ، وان نستخدمها على التتابع وعلى نقاط متوزعة لخط دفاع تركي لتقوم بالهجوم بنفس الوقت ، ولجعلهم ايضاً يقوموا بتقوية مواقعهم الخلفية وذلك لتشتيت قواتهم المدافعة لتصبح احجامها صغيرة جداً . وسيكون هذا اقصر طريق للنجاح .

ولاينبغي علينا الاستيلاء على المدينة ، فلا يمكن ان يؤذي اي تركي هناك (لقدسية المدينة) . فذلك سيكلفنا ثمن اطعامهم وحراستهم ، فنحن نريدهم ان يبقوا في المدينة وفي أي مكان بعيد آخر وباعداد كبيرة . وكان هدفنا ان نجعل خطهم الحديدي عاملاً ، ولكن فقط لنكبدهم اقصى الخسائر ونجعلهم مضطربين . وان عامل الغذاء او الطعام سيقيدهم بخطوط السكة الحديد ، سيكون مرحباً به (كطعم) لان يستخدم خط حديد الحجاز ، ذلك لضربه وتكبيده الخسائر ، وان يستخدم ايضاً الخط المار بشرق الاردن ، وسوريا وفلسطين ، خلال مدة الحرب ، وبذلك يتيح لنا ان نضربه على طول هذا الخط . واذا ماعزم العدو على اجلاء قواته بشكل سريع ، كخطوة لحشدها وتركيزها في منطقة صغيرة حيث يمكن ان يعتقد بأنه سيكون بذلك اكثر فعالية ، فعلينا عندئذ ان نعيد ثقته الى نفسه وذلك بتقليص عملياتنا الحربية ضده . وبذلك فسيكون غبائه حليفاً لنا ، حيث انه سيعيد نشر قواته ثانية ويعود لمواقعة القديمة ما امكن . فهذا سيبقيه في موقع سخيف مشتت بقواته ولايواجه جبهة حربية معينة .

لقد انتقدت الخطة الرئيسة التي وضعت ، فبالنسبة للاستيلاء على منطقة منتصف الخط الحديدي ، فقد يكون ذلك باهظ الثمن ، اذ ان القوة المستولية

عليها ستكون مهددة من كلا الجانبين . اضافة الى ان امتزاج القوات المصرية مع رجال القبائل كان يعتبر خطأً تكتيكياً . فاذا ما كان هناك جنود محترفون يقومون بالقتال، فان رجال القبائل سيقفون جانباً ويشاهدون عملهم مسرورين بالتخلي عن دورهم الرئيسي ، فالغيرة اضافة الى عدم الكفاءة ، ستحدد نتيجة المعركة . علاوة على ذلك ، فان منطقة قبائل البيلي هي جافة جداً ، بحيث سيكون تحرك قوة كبيرة بواسطة الخط صعب من الناحية الفنية .

ومع ذلك ، فانه لم يعط لاعتراضاتي وزناً كبيراً ، فقد وضعت الخطط و هيئت الاستعدادات وكل واحد كان مشغولاً بعمله غير مصغياً لآرائي . وكل ما حصلت عليه ، انهم وافقوا على ان هجومي المعاكس يمكن ان يكون مفيداً في تحول مسار الحرب . وعملت مع عوده ابو تايه ، لنتقدم بالمسير الى منطقة الحويطات المتواجدة في الصحراء السورية ، حيث يمكن ان نحصل منهم على قوة هجانة ونندفع باتجاه العقبة من جهة الشرق دون ان يكون معنا مدافع ميدان او مدافع رشاشة .

وكانت المنطقة الشرقية غير محروسة من قبل الاتراك ، اي لاتوجد بها قوات تركية مركزة ، وكانت سهلة المقاومة ، وتعتبر الاسهل بالنسبة لنا ، وسيكون مسيرنا مثالاً متطرفاً لتحرك متحول ، اذ ان رحلتنا ستستغرق في الصحراء ستمائة ميل . واعتقد عوده ابو تايه بأن كل شيء كان ممكناً الحصول عليه بواسطة الديناميت والمال ، وان العشائر والقبائل الصغيرة المتواجدة حول العقبة ستنضم الينا . كما ان الامير فيصل ، الذي كان على اتصال معهم وقتذاك ، اعتقد ايضاً بانهم سيمدون يد العون فيما اذا احرزنا نجاحاً اولياً بالاستيلاء على معان ومن ثم التحرك من هناك الى ميناء العقبة . وكان الاسطول البريطاني يقوم بقصفه بينما كنا نحن مانزال نفكر ، وقد وردت معلومات لنا عن شبه انهيار لمحتلية الاتراك ، مما شجعني ان اتحرك على الفور .

كانت الطريق الى العقبة طويلة جداً وصعبة ذلك اننا لم نتمكن ان نأخذ معنا مداقع او مدافع رشاشة ، او حتى المؤن ولاحتى جنود نظامين . لذلك فقد

حولت كافة انتباهاتي نحو ذلك الهدف ، واهملت الامور الاخرى ، وقررت بأن اشق طريقي ، سواء كان ذلك بأوامر او بدون اوامر . فكتبت رسالة الى كلايتون اعتذر له فيها عن ذلك ، مطلعاً اياه ان نواياي كانت تتجه نحو الافضل : ومضيت الى العقبة .

الجزء الرابع

الزحف الى العقبة

من فصل ٣٩ ـ ٥٤

ان ميناء العقبة كان قوياً جداً من الناحية الطبيعية ذلك انه لا يمكن الاستيلاء عليه الا بشن هجوم مفاجىء من البر . الا ان الالتزام الثابت لفيصل من قبل عودة ابو تايه جعلنا نأمل بتجنيد عدد كاف من رجال القبائل في الصحراء الشرقية من اجل مثل ذلك الزحف عَلى الشاطىء .

وسرنا انا والشريف ناصر وعوده ابو تايه سوياً . وحتى ذلك الوقت فقد كان فيصل هو القائد العام لقوات الثورة ، الا ان بقاءه في الوجه قد وضع عبء هذه الحملة على كاهلي . وقبلت هذه المسؤولية بما حملته من تضمين ، كوسيلتنا الوحيدة للانتصار ، وقمنا بخداع الترك ودخلنا العقبة بحظ طيب .

(٣٩)

بحلول يوم التاسع من ايار (١٩١٧) كان كل شئ جاهزاً ، وغادرنا خيمة الامير فيصل عند وهج عصر ذلك اليوم ، وكانت تمنياته الطيبة لنا تلاحقنا حتى اعلى التلة التي بدأنا مسيرنا منها . وقادنا الشريف ناصر : الذي كانت طيبته الصافية تجعله القائد الوحيد من اجل تحقيق الآمال شبه اليائسة . وعندما كنا نبوح بتمنياتنا له ، فقد كان يتنهد قليلاً ، لانه كان مرهقاً بعد اشهر من العمل الشاق ، كما ان فكره كان مثقلاً ايضاً، مع مرور سنوات طيش الشباب . وكان يخشي ان تؤدي السنوات به الى التأثير على مجرى حياته وسلوكه . فمن الناحية الجسدية، فانه كان لايزال شاباً؛ الا ان نفسه كانت تشيخ بسرعة اكثر من جسده ـ ماضية لتموت قبله ، كمعظمنا .

كانت مرحلتنا الاولى في المسير قصيرة حتى حصن السبيل ، وهو يقع على امتداد طريق ا لوجه ، حيث كان الحجاج المصريون يستخدمون ماءه وعسكرنا هناك حول بركة مائه الكبيرة ، في ظل سور الحصن ، وتحت ظلال النخيل . وكان عودة ابو تايه واقربائه يرافقوننا ، كما كان يرافقنا ايضاً نسيب البكري ، السياسي الدمشقي ، ليمثل الامير فيصل امام القرويين السوريين . كان نسيب ذكياً وله خبرة ناجحة سابقة في الرحلات الصحراوية ، فتحمله المثير لمشاق المغامرة ، وهو شئ نادر بين السورين ، جعله يكون مثلنا ، اضافة لعقله السياسي، ومقدرته ، وروحه المرحة وفصاحته ، والروح الوطنية التي كانت غالباً ماتتغلب على عاطفته الاصلية . واختار نسيب الضابط زكي ، وكان ضابطاً

سورياً ، كمرافق له في هذه الرحلة . وبالنسبة لعناصر المرافقة فقد كان لدينا خمسة وثلاثين رجلاً من قبيلة عقيل بقيادة ابن الدغيثير ؛ وكان رجلاً منعزلاً محاطاً بحساسة خاصة ، شارد الذهن ، مغروراً . وكان فيصل زودنا بكيس احتوى على عشرين الف دينار من الذهب ـ وهو كل ما استطاع تقديمه واكثر مما طلبناه ـ لندفع اجور الرجال الجدد الذين كنا نأمل بتجنيدهم ، وايضاً لنقوم بواسطته بحث الحويطات على الاسراع للانضمام الينا .

وبسبب الحمولة الثقيلة لهذا المال ، فقد قمنا بتوزيعه فيما بيننا ، وايضاً تحسباً لوقوع أي طارئ على الطريق . وقام الشيخ يوسف ، وكان مسؤولاً عن التموين ، بتوزيع نصف كيس من الطحين على كل واحد منا ، حيث كان ذلك حصة كل رجل في تلك الرحلة التي استغرقت ستة اسابيع . وكان لدينا قليل من احتياطي الذخيرة وبعض البنادق الاضافية كهدايا ؛ وقمنا بتحميل ستة جمال بالرزم الصغيرة التي احتوت على الغام ومتفجرات من اجل استخدامها في نسف خطوط السكة الحديد او القطارات أو الجسور التي تقع في الشمال . وكان الشريف ناصر يحمل معه خيمة جيدة ليستقبل فيها الزوار عندما نتوقف في أي مكان ، وايضاً جملاً محملاً باكياس الارز من اجل اطعامهم : الا اننا قمنا باكله فيما بعد ، حيث تعبنا من اكل الخبز المعجون بالماء اسبوعاً بعد اسبوع ، وبسبب كوننا مبتدئين في مثل هذا الاسلوب او النمط من المسير ، فاننا لم نكن نعرف ان خبز الطحين الجاف ، كان من اخف الاطعمة ، لذلك فقد كان هو الافضل في الرحلات الطويلة . ولذلك فيما بعد بستة اشهر لم ازعج نفسي سواء انا او ناصر باضاعة الوقت في حمل ونقل الارز معنا في رحلاتنا .

وكانت مرافقتي تتكون من : مخيمر ، مرجان ، علي ، اضافة الى محمد ، وكان صبياً فلاحاً مطيعاً ، من احدى قرى حوران ، وجاسم ، وكان من معان ، مطارداً وخارجاً عن القانون من قبل الاتراك ، حيث فر والتجأ الى الحويطات في الصحراء ، بعد قتله موظفاً تركياً بسبب نزاع على دفع الضريبة عن قطيعه .

وبدينا كمثل فريق صغير يبحث عن عالم جديد ، وهذا ايضاً ماظنه الآخرون بنا على ما يبدو ؛ مما دفع لاموت ، وكان ممثلاً لبريموند لدى فيصل ، لان يلحق بنا من اجل التقاط صورة وداعيه لنا . وبعد فترة قصيرة وصل يوسف ومعه الطبيب الطيب ، وشفيق واشقاء نسيب البكري ، ليتمنوا لنا النجاح في مسيرنا ، وانضممنا فيما بعد جميعاً لنتناول العشاء سوياً ، الذي كان يوسف المتدبر والمتبصر قد احضره معه ، فربما كانت تلك رغبته في ان يتناول معنا العشاء الاخير قبل ان نتوه ونفقد في الصحراء ، كما ظن ذلك .

وبعد ان ذهبوا قمنا بتحميل جمالنا ، ومن ثم بدأنا مسيرنا قبل منتصف الليل لنقوم بمرحلة اخرى من رحلتنا حتى واحة الكور . وكان دليلنا ، الشريف ناصر ، الذي نشأ على معرفة هذه المنطقة كما يعرف بلدته . فبينما كنا نسير تحت ضوء القمر ، فقد ذهبت به الذاكرة بتشوق نحو بلدته . وحدثني عن بيوتها المبنية من الحجارة المصفوفة واسقفها المضادة لحرارة الشمس ، وعن بساتينها التي زرعت بكافة انواع اشجار الفاكهة ، وممراتها المظللة التي يمكن السير فيها بسهولة دون التأثر باشعة الشمس . وحدثني عن العجلة المركبة فوق البئر ، والتي يقوم بجرها ثور ليخرج الماء منه ولتصب في السواقي والقنوات الممتدة على اطراف الممرات، وعن النوافير المقامة في ساحة بيتهم الكبير ، في بركة كبيرة بنيت من الاسمنت ، حيث اعتاد هو واخواته ان يسبحوا فيها في منتصف النهار .

فناصر الذي بدا سعيداً على الاغلب ، قد بدا عليه حينئذ انه يعاني الماً في نفسه ، ويتسأل في تلك الليلة لماذا لايكون ثرياً وقوياً وينعم بالراحة في بستان قصره ، في المدينة المنورة ، وانه قد قذف به ليصبح قائداً ضعيفاً لمغامرت يائسة تجري في الصحراء . فمنذ سنتين وهو يعيش متشرداً ، ويحارب دوماً خلف خط جبهة قوات فيصل ، ويختار لكل مهمة خاصة محفوفة بالخطر ، ويقوم بدور الرائد في كل تقدم وتحرك ؛ وفي غضون ذلك ، فان الاتراك كانوا يحتلون بيته ، ويبددون اشجار فاكهته ويقطعون اشجار نخيله . حتى انه قال بأن البئر الكبير الذي اقيم منذ ستمائة سنة ، قد جف ، واصبحت الحديقة او البستان خربة ومقفر كمثل التلال الجرداء التي كنا نسير فوقها .

وبعد اربعة ساعات من المسير نزلنا لننام لمدة ساعتين ، ومن ثم نهضنا مع شروق الشمس لنتابع المسير . وكانت الجمال مثقلة بحمولتها ، وتتحرك ببطء ، كما تقوم بجز واكل العشب امامها وهي تمشي طيلة النهار . وكنا نحن راكبيها ، من الممكن ان نرأف بحالها ونريحها كل فترة ؛ الا ان عودة ابو تايه ، الذي كان منظم مسيرنا قد منع ذلك ، لذلك فقد تابعنا مسيرنا لمدة ست ساعات اخرى تحت حرارة الشمس الشديدة . فشمس الصيف في هذه المنطقة الصحروابة ذات الرمال البيضاء والتي تقع خلف الوجه ، يمكن ان تؤثر على العينين بشكل شديد، اضافة الى ان اشعة الشمس التي كانت تضرب على الصخور المتواجدة على جانبي الممر ، كانت تسبب موجات من الحرارة الشديدة التي تجعل رؤوسنا تتألم وتدور . ونتيجة لذلك ، وعند الساعة الحادية عشر قبل الظهر توقفنا واستلقينا تحت الشجر لغاية الساعة الثانية والنصف ، عندما اشتدت الحرارة واخذ كل واحد منا يغطي الشجر بشئ ماليستظل فيها من اشعة الشمس التي انحرفت ، ولم تعد الاشجار تفي بالغرض وتمنح الظل الكافي .

وبعد هذه الاستراحة تابعنا مسيرنا ثانية لمدة ثلاث ساعات لطيفة فوق ارض منبسطة ، مقتربين من وادي ضخم ؛ وقد لاح امامنا بستان واحة الكور . ولاحت خيم بيضاء من بين اشجار النخيل . وبينما كنا ننزل عن دوابنا ، قدم الينا كل من راسم وعبدالله ، محمود ،والطبيب ، وحتى مولود المسن ، قدموا جميعهم ليرحبوا بنا . وابلغونا بأن الشريف شرف ، الذي كنا نرغب بمقابلته في قرية "ابو راغة" ، وهي المحطة التالية لنا ، كان ذاهباً على مطيته لبضعة ايام . وعني هذا بأنه لن تكون هناك عجلة ، لذلك قمنا بعمل اجازة في الكور لمدة يومين . وكان ذلك مناسباً لي ، حيث ان الحمى التي اصابتني في وادي العيص عادت ثانية لي ، بشكل قوي اكثر ، جاعلة من كل رحلة اقوم بها مصدر الم لي ، لذلك فقد استقليت هادئاً ، واخذت أتأمل في هذه الواحة الخضراء الجملية الواقعة في منتصف الصحراء . كما انني لم أر منذ زمن طويل العشب الندي في فصل الربيع .

كان الشيخ ضيف الله الساكن والمقيم الدائم الوحيد هو وعائلته في الكور، يعمل ليلاً نهاراً مع بناته في المصطبة أو قطعة الارض الزراعية التي ورثها عن اسلافه . وقد اقيمت تلك المصطبة على الحافة الجنوبية للوادي احيطت بسور من الحجارة لمقاومة الفيضانات الشديد . وتواجد في منتصفها بئر ذو ماء بارد صاف، فكان ضيف الله يقوم بسحب الماء من البئر صباحاً ومساءاً ، عندما تكون اشعّة الشمس خفيفة ، بواسطة اوعية كبيرة ويصبها في القنوات لتقوم بري جذور الاشجار . وكان معتنياً باشجار النخيل المنخفضة ، بسبب اوراقها المنفردة والمنبسطة لتظلل مزروعاته من الشمس والتي يمكن بدونها ان تصفر ، كما انه قام بزراعة التبغ ، الذي كان مصدر منفعة كبيرة له ؛ وزرع مساحات أصغر بالبقول والبطيخ ؛ الخيار والباذنجان ، حسب المواسم . كان هذا الرجل المسن يعيش مع زوجته في كوخ مسقوف باغصان واوراق الاشجار يقع بجانب البئر ، وكان يهزأ ويزدري سياساتنا ، وهو يستفسر عن جدوى الجهود والتضحيات التي تبذل بهذا الخصوص وما ستجلبه . فقمنا باعطائه لمحة وفكرة عن الحرية ، وعن أهمية تحرير الاقطار العربية من اجل مصلحة العرب . وقلت له "ان بستانك هذا ياضيف الله لايمكن ان يصبح ملكك بدون ذلك" . ومع ذلك فانه لم يستوعب ماعنيناه بذلك، وانما هب واقفاً ليحتج بغرور وهو يصيح ، "انني ، انني من الكور" .

لقد كان حراً طليقاً في اسلوبه المعيشي ولم يرد شيئاً من الآخرين ، سوى بستانه فقط ، ليحتفظ به لنفسه . كما انه كان لايفهم لماذا لايصبح الآخرون اغنياء بسبب الاقتصاد في النفقات . وكان يضع قلنسوة على رأسه ، حيث قال انه ورثها عن جده، الذي كان اشتراها عندما كان ابراهيم باشا يقيم في الوجه ، منذ قرن من الزمان. اما لباسه الضروري فقد كان الثوب او (الدشداشة) ، التي كان يشتري كل سنة واحدة جديد منها ، ومن دخله من بيع التبغ ؛ كما انه كان يشتري لبناته ثوباً جديداً كل سنة ولزوجته العجوز ايضاً . اننا مازلنا ممتنين له ، حيث انه قام ببيعنا الخضروات ، التي اثارت قابليتنا وشهيتنا الغير ضرورية . ومما زاد في سعادتنا انه كان لدى مولود جوقة موسيقة في وحدته ، مكونة من بعض الجنود ،

وكانوا يجلبون كل ليلة ليقوموا بالعزف على الآلات الموسيقية ويقومون بالغناء الدمشقي او القاء اشعار الحب والغزل . وكنت استمع الى ذلك وانا مقيم في خيمة عبدالله ، ومما زاد في الامتاع وجود المناظر الطبيعية الخلابة .

كما انه غالباً ما كان نسيب البكري يقوم بالقاء اغاني واناشيد سليم الجزيري، وهو شعر ثوري ، كان ينظمه في اوقات فراغه خلال الحملات العسكرية . وكان نسيم يقوم هو واصدقائه بانشاد هذه الاشعار والاغاني ، فكان يعم معسكر الجند الهدوء المطبق حين القاءها ، وتصدر عن كل واحد منهم التنهدات والاعجاب . فقط ضيف الله هو الذي لم يكن يعر اهتماماً لذلك الأمر ، حيث كان يقوم باخراج الماء من بئره لسقاية مزروعاته ، وعندما يتأكد باننا انتهينا من سخافاتنا فانه كان يعرض خضرواته لمن يريد شرائها .

(٤٠)

كانت ذكرى ذلك البستان لاتنسى بالنسبة لابناء المدن في فريقنا ، وذلك قبل ان نذهب للصحراء وجنون الحرب ؛ اما بالنسبة لعودة ابو تايه ، فقد كان يعتبر عرضاً غير محتشم اوغير لائق ، ولم يكن متأثراً بأي شئ فيه . لذلك فقد قمنا بقطع سهرتنا في الليلة الثانية ، وبدأنا مسيرنا من الوادي عند الساعة الثانية صباحاً . وكان الظلام حالكاً ، حيث ان أقرب النجوم لم تستطع ان تلقي بضوئها على المساحات التي كنا نسير عليها . وكان دليلنا في تلك الليلة هو عودة ابو تايه نفسه ، وليجعلنا متأكدين منه وهو يسير امامنا فقد كان يقوم باداء اهزوجة من الحويطات ، وينشد ملحمة غنائية وصوته يعلوا وينخفض بكلمات غير قابلة للفهم والتمييز ، وبعد فترة قصيرة شكرناه على غنائه ، حيث ان الممر انعطف نحو اليسار ، وكنا سنتبعه بخط طويل ولأن صوته كان سيحدث صدى من خلال الجرف الصخري السحيق .

وفي هذه الرحلة فان الشريف ناصر ومحمد الدحيلان ، ابن اخت عوده ، استاءا من ضعف لغتي العربية ، وقام كل منهما باعطائي دروساً في اللغة العربية الفصحى ، بلهجة اهل المدينة ، ولهجة اهل الصحراء ايضاً . فقد كانت لغتي العربية في البداية تتحكم فيها اللهجات القبلية لحوض الفرات (وهو شكل غير نقي للغة) ، الا انها اصبحت الآن مختلطة مابين العامية الحجازية ولغة قبائل الشمال مع بعض التعابير والمصطلحات النجدية ، وبعض اشكال اللهجات السورية . الا ان لغتي كان ينقصها القواعد ، مما جعلها عبارة عن مغامرة دائمة

بالنسبة لمستمعي . وتخيلني نيوكمب بانني لابد وان اكون كواحد من منطقة أُمية غير معروفة ، فلغتي العربية مقطعة الاوصال لااساس لها .

ومع ذلك ، فانني لم اعرف ولا كلمة واحدة من الذي كان يتغنى به عودة ، وبعد نصف ساعة اتعبني انشاده ، في حين كان القمر يغيب ببطء من السماء ، وكنا نسير على قمم التلال متجهين نحو الوادي . وسرنا لغاية بزوغ الشمس في الصباح الباكر ، ثم توقفنا لنستريح .

وأنهى الفطور ما كان لدينا من الطحين ، واصبحنا خفافاً اخيراً ، وخفت وطأة الحمل عن جمالنا . وكان الشريف شرف لم يصل بعد الى "ابو راغة" ، لذلك فلم نتعجل من امرنا ، وبعد ان تناولنا الطعام ، جعلنا من اغطيتنا ظلالا لنستلقي تحتها لغاية العصر ، حيث كانت الرطوبة والحرارة شديدتين مع تحليقَ الذباب بكثافة بصورة مستمرة .

واخيراً قام الشريف ناصر باعطاء اشارة البدء بالمسير ، واجتزنا ممراً ضيقاً وعلى جانبيه جبال ذات صدى خفيف ، لمدة اربعة ساعات ؛ عندما عزمنا ان نعسكر ثانية في بطن الوادي . وكان هناك دغل من الاشجار الصغيرة ملائم لوقود دوابنا (لتأكل منه الدواب) ، وعلى الجرف عن يمينا كانت توجد هناك بحيرات بين الصخور تحتوي على ماء عذب ، حيث وفر لنا هذا ماءً لذيذاً . وكان الشريف ناصر متهيأ ، فأمر بتحضير الارز من اجل العشاء ، وأن يأتي الاصدقاء ليشاركوننا الطعام .

كانت طريقتنا او قاعدتنا في المسير غريبة ومتقنة . فقد كان كل من الشريف ناصر وعودة ابو تايه ونسيب البكري متفرقين جداً عن بعضهم ، وكانهم بيوت منفصلة . وكنت مقراً ومعترفاً بسمو منزلة الشريف ناصر لانني عشت بضيافته ، كما انني أوليت احتراماً للاخرين . وكان كل واحد منهم يريد ان يستشار بتفاصيل رحلتنا ، واين ومتى يجب ان نتوقف . وكان هذا امر محتوم بالنسبة لعودة ، رجل المعارك والنزال الذي لم يعرف سيداً له من قبل . فمنذ ان كان فتي

يافعاً ، فقد قام بأول مسيرله على الراحلة (الجمل) . وكان الأمر ايضاً مستحسناً بالنسبة لنسيب البكري ، السوري الاصل ، الغيور والطموح .

فمثل هؤلاء القوم كان ينقصهم طبول او صرخة الحرب وراية من الخارج لتنضم اليهم ، وشخص غريب ليقودهم ، شخص واحد يجب ان يكون سموه مرتكزاً على فكرة أو رأي : غير منطقي ، لايجحد او ينكر ، متميزاً ؛ بحيث لايكون مدعاة للرفض او القبول .

وتابعنا مسيرنا في الساعة الخامسة صباحاً ، وخرجنا من الوادي لنلتف حول جبل ذو صخور حادة ، ومن ثم لننزل انحداراً ساحقاً . واصبح الممر سيئاً الى اعلى تلة ، حيث ترجلنا عن جمالنا واخذنا نمشي على ارجلنا ونحن نجر دوابنا بصعوبة ، فتارة نساعد بعضنا وتارة اخرى نحث الجمال خلفنا على السير ، وتارة اخرى نجرها من الامام لنشجعها ونحثها على السير في الاماكن الاسوأ ، ومن ثم نسوي حمولتها لنريحها بعض الشئ .

وكانت اجزاء من الطريق خطرة ، حيث كانت الصخور ناتئة من جهة والممر ضيق جداً من جهة اخرى ، ذلك ان جزءاً كبيراً من حمولة الجمال قد تخدش ويدفع الدواب لتميل نحو حواف الصخور . وكان علينا ان نعيد توضيب مؤنتنا وذخيرتنا من المتفجرات التي تضعضعت ، وبالرغم من كل ذلك، فقد اثنين من جمالنا الواهنة اثناء اجتيازنا للمر ، وقام رجال الحويطات بقتلهما عندما انهارا ؛ ومن ثم قاموا بذبحهما وسلخهما ، ومن ثم قطعانهما الى قطع كبيرة من اللحم .

وكنا مسرورين عندما بلغنا نهاية الممر لنجد نجد او سهل واسع فسيح امامنا حيث انحدر ببطء امامنا لغاية جهة الشرق . وكانت الياردات الاولى منه قاسية وصخرية ، مغطاه بالاشجار الشائكة كمثل القنفذ ؛ الا انه بعد ذلك بلغنا وادياً ذو حصى بيضاء ، حيث كانت هناك في بطنه امرأة بدوية تقوم بملء وعاء نحاسي بالماء العذب الصافي من سجوة صغيرة يتدفق منها الماء . وكان هذا وادي "ابو

سعد" ، ومن اجل ماءه العذب ، ومن اجل اللحم الاحمر المحمل في سروجنا ، فقد عزمنا ان نلبث ليلة كاملة هناك ، ونقضي الوقت لبينما يعود الشريف شرف من حملته ضد السكة الحديد .

لذلك فقد سرنا لمسافة اربعة اميال اخرى ، لنعسكر تحت اشجار منتشرة وكثيفة ، ولتشكل لنا سقيفة كعريشة ، ولتشكل شبه كوخ في الليل لننام تحتها ، وقد تعلمنا واعتدنا لننام بدون اغطية فوقنا سوى القمر والنجوم ، وعدم ترك مسافات بيننا لتحجب رياح واصوات الليل .

وبالنسبة لي ، فقد اصبحت مريضاً ثانية وازدادت وطأة الحمى علي ، وكان جسدي يتصبب عرقاً ، وانا على سرجي ، عندما كنا ، نسير ، وعندما توقف الشريف ناصر في منتصف الطريق ، دون ان يكون ذلك جراء بادرة مني ، فقد قمت بشكره بحرارة ، حيث ابدي اندهاشه من ذلك . واصبحنا وقتذاك نسير على مرتفع من الحجارة الكلسية . وانبسط امامنا حقل ضخم من حجارة اللافا البركانية السوداء ، وقريباً منه كانت هناك ارضاً مكونة من الحجارة الحمراء السوداء مخروطية الشكل وحادة . ولم يكن الهواء على ذلك السهل الواسع المرتفع حار جداً ؛ وكان الهواء يصبح لطيفاً في ساعات الصباح والمساء ومنعشاً .

وتناولنا فطورنا من لحم الجملين الذين ذبحا ، وبدأنا بالمسير في صباح اليوم التالي نازلين الى نحو سهل فسيح يتكون من رمال وحصى حمراء . ومن ثم وصلنا الى اول مدخل وادي ، ارضه رملية ، وعلى كلا جانبيه احجار رملية ، تزداد في علوها كلما اوغلنا فيه . واصبح الهواء مشبعاً بالرطوبة . وكانت الصخور المحيطة بنا متشابكة بشكل غريب ، كمثل متراس مثير ، وتوغلنا فيه اكثر ، واجتزنا زاوينه الحادة لندخل الى وادي جزيل ، الذي يعتبر القناة الرئيسة لهذه المناطق الرملية الحجرية ، والتي تحدد وترى نهايتها بالقرب من وادي الحدية .

كان وادي جزيل عميق السطح وعرضه نحو مائتي ياردة ، ومليئاً بالاشجار نحيلة الاغصان النامية على الرمال المجروفة من بطن الوادي ، ونامية

ايضاً على الرمال الناعمة لضفتي الوادي بفعل تدفق سيل الوادي . كما كانت الحيطان على الجانبين مصفوفة بصورة منتظمة من الاحجار الرملية ، الضاربة الى الحمرة في كثير من الاجزاء . وكانت الصخور الجرفية السوداء و ذات السطح الوردي ، اضافة للشجيرات باهته الخضار ، جميلة المنظر للمشاهد . وعندما أتى المساء ، اصبحت الشمس تغيب وتختفي من جهة واحدة للوادي ، تاركة الجهة الاخرى تبدو ارجوانية قاتمة .

واقمنا معسكرنا على مساحات رملية مليئة بالاعشاب على كتف الوادي ، حيث كانت الرمال هناك وكأنها مغسولة ومحتوية على ماتبقى من سيل الشتآء الماضي . وارسلنا رجلاً لاستطلاع ا لأخبار عند اكمة كثيفة من شجر الدفلى في مكان بعيد من الوادي حيث رأينا رؤوس الخيام البيضاء للشريف شرف . فقد كانوا يتوقعون حضوره في اليوم التالي ؛ لذلك فقد امضينا ليلتين في هذا المكان المتلون الغريب ؛ ذو الصدى الغريب . وكانت بركة الماء القليلة الملوحة ملائمة لشرب جمالنا ، وكنا نستحم فيها عند الظهر ، ومن ثم كنا نأكل وننام بشكل سخي ونتجول في الوديان القريبة جداً لنستمتع بمشاهدة الخطوط الافقية الوردية والبنية والكريمية والحمراء للصخور الجرفية ، وهي تبهج باشكالها المتنوعة بخطوطها الرفيعة التي تصبح أبهت أو اقتم على سطح الصخور . وقضيت عصر احدى الايام وانا جالس خلف بعض الحواجز المكونة من الحجارة الرملية ، والهواء دافىءٌ وناعمٌ تحت اشعة الشمس ، اشاهد المنظر الجميل . فقد كان الوادي يلفه الهدوء ، حتى صوت الريح كان يبدو حليماً .

واغلقت عيناي وأخذت احلم ، عندما اجفلني صوت فتى من قبيلة عقيل ، وكان في وضع غريب ، وقد جثا امامي . وأخذ يناشدني لاتعاطف معه . فقد احرق صديقه فراج خيمتهما وهوفي حالة مزاح ، وان رئيسهم سعد ، كان ينوي معاقبته . وان توسطي وشفاعتي ستريحه من ذلك . وصدف حينذاك ان سعداً حضر ليزورني ، فعرضت الامر عليه في حين كان داود يشاهدنا ، وفمه مفتوح قليلاً ، وبدت الدهشة والقلق على ملامحه . وكان جواب سعد لي غير

مريح . فقد قال لي بأن اولئك (الزوج) الشابان كانا دوماً يسببان المتاعب ، وانهما قد تجاوزا كثيراً في خدعها والاعيبها ، مما جعل الشريف شرف يأمر بمعاقبتهما وجعلهما مثالاً للآخرين ، وكل ما كان باستطاعته ان يقدمه لوساطتي هو ان يجعل داود يشارك في العقاب الشديد . مما حمل داود على الفور ، ان ينحني ويقبل يدي ويد سعد ، ومن ثم يفر مسرعاً في الوادي ، بينما كان سعد يضحك ، واخذ يطلعني على القصص والافعال المشهورة لهؤلاء الاثنين .

ولم يحضر الشريف شرف في اليوم التالي . ومر الصباح وعودة ابو تايه يتحدث عن المسير في المقدمة ، في حين كان الشريف ناصر يقوم بالتقاط اعواد الثقاب بابهامه واصبعه الامامي من صندوق موجو بمحاذاة خيمته . ومن ثم كان هناك مرة ثانية الشابان داود وفراج ، يجلسان بيننا وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيهما ، وقالا بانهما تحت خدمتي . فقلت بانني لاحاجة لي بهما ، لأنهما بعد ان تشاجرا فانهما لايستطيعان ان يركبا ويسيران بدابتهما دون سرج . فاجابا بانهما يمكنهما ان يمتطيا الدواب دون سرج ، فقلت لهما بانني رجل بسيط ولا احب وجود الخدم حولي . وتحول داود عني وهو مهزوم وغضبان ؛ ولكن فراج ناشدني بانه يجب علينا ان يكون لدينا رجال ، وانهما سيتبعاني اينما ذهبت دون لقاء أو أجر . في حين ذهب داود ثائراً الى الشريف ناصر وركع امامه وهو يناشده ويتوسل اليه . وفي النهاية ، وبناء على نصيحة ناصر ، فقد اخذتهما معي ، لسبب رئيس وهو انهما كانا شابان يافعان ونظيفان ، ومنظرهما جميل .

(٤١)

تأخر مجيء الشريف شرف لغاية صباح اليوم الثالث ، عندما سمعنا صوت اطلاق العيارات النارية في الهواء ، وكانت صادرة من رجاله العائدين ، وهي تدوي في الوادي ليسمع صداها وهي تحي العائدين . وارتدينا افضل ملابسنا لنذهب اليه ونحيه . وارتدى عودة ابو تايه اروع ملابس كانت لديه والتي اشتراها من الوجه . وكان الشريف شرف لطيفاً في استقباله لنا ، حيث كان لديه اسرى من الاتراك ، كما انه استطاع ان ينسف جزءاً من خط السكة الحديد وشبكة من اسلاك التلغراف . وكان من احدى اخباره انه كانت توجد في وادي درعا ، وهو على طريقنا ، برك من مياه الامطار العذبة التي سقطت حديثاً . وهذا ، بالتالي ، فانه سيختصر من مسيرنا الى وادي الفجر على بعد خمسين ميلاً ، من اجل السقاية والماء . وكانت تلك منفعة كبيرة بالنسبة لنا جميعاً .

وغادرنا منطقة ابو راغة في منتصف اليوم التالي ، غير آسفين؛ على هذا المكان الجميل ، لانه لم يكن صحياً بالنسبة لنا ، اذ ان الحمى اقلقتنا هناك خلال الايام الثلاثة التي قضيناها في بطن الوادي ، وكنا مقيدين فيها . وقادنا عودة ابو تايه في واد فرعي الذي سرعان ما توسع لنصبح نسير على سهل فسيح واسع ومنبسط . وكانت تترامى حوله التلال بكثافة لتبدو وكأنها تسد الطريق امامنا ، ولكن ما ان نصل اليها حتى يكون هناك ممر ضيق بينها يمكننا اجتيازه ، الا ان هذه المتاهة من الممرات لم تربك او تحير عودة ، الذي كان يقودننا بطريقة غير مترددة ، وهو يخب على دابته ، ويرفع يده ملوحاً بها في الهواء .

ولم تكن هناك اثار اقدام على الرمال امامنا ، حيث كانت الرياح تقوم بطمس وتكنيس ذلك على سطح الرمال مزيلة اثار اقدام المرتحلين عندما يتجاوزن المنطقة ، لتصبح وكأنها ارض بور لم تطأها الاقدام . وكانت الجمال الظامئة هي التي تقع وتسقط ارضاً ، ذلك لانها كانت اخف من الرمال تحتها ، وتصبح متقوقعه كالجوزة ، ومن ثم ماتلبث ان تنهض . ومن ثم كانت تلتف حول نفسها لتتفادى الرياح الضاربة ، وربما كان الامر بواسطتهم ، او بواسطة الكثير ايضاً من احساسه الفذ المنقطع النظير وخبرته في الطرق ، فعودة ابو تايه كان يعرف الطريق الذي كنا نسير عليه . اما بالنسبة لنا ، فقد كانت اشكال الصخور رائعة ومثيرة للاعجاب ، فسطحها الحُبيبي ولونها الاحمر وشقوقها المنحوته المنحنية لسفوحها الرملية قد لطف من اشعة الشمس ، ليمنح عيوننا ، التي ينصب العرق عليها ، راحة .

وفي منتصف مسيرنا رأينا خمسة او ستة اشخاص قادمين على دوابهم من جهة السكة الحديد ، وكنت انا في المقدمة مع عودة ابو تايه ، واخذنا نخمن هل هم "اعداء ام اصدقاء؟" وهيأنا سلاحنا لملاقاتهم ؛ ولكن عندما اصبحوا اكثر قرباً منا ، ادركنا انهم كانوا من القوات العربية . وكان الشخص الاول متقدماً لوحده على جمل ذو سرج من صنع انجليزي تابع لسلاح الهجانة البريطاني ، وكان المتطي ذا شعر اشقر ولحية كثيفة ، ويدا انه انجليزي يرتدي ملابس رسمية . فلا بد انه كان هورنبي تلميذ نيوكمب ، المهندس الشرس الذي اشترك معه في نسف خط السكة الحديد . وبعد ان تبادلنا التحيات ، حيث كانت هذه اول مقابلة معه ، فقد قال لي ان نيوكمب قد ذهب مؤخراً الى الوجه لابلاغ الامير فيصل عن متاعبه وصعوباته التي كان يواجهها بشأن نسف الخط الحديدي ، ولوضع خطة جديدة لمواجهتها . لقد كانت لدى نيوكمب صعوبات مستمرة بهذا الصدد ، فقد كان هورنبي يتحدث قليلاً من العربية ، كذلك كان الحال بالنسبة لنيوكمب ، لذلك فقد واجها مصاعب مع معاوينهما من الرجال العرب . وكانا يقضيان اسابيع طوال بجانب خط السكة الحديد ، دون مساعدة تقريباً ، ودون طعام

غالباً، لغاية ما ينهكا جمالهما أو يستنزفا المتفجرات ، ومن ثم يعودان لأحضار المزيد . وكانت التلال الجرداء القاحلة تجعل جمالهما منهوكة وجائعة ، وأدى بهما الامر الى استنزاف افضل ما لدى فيصل من الدواب تباعاً. فبمثل هذا الاسلوب فقد كان نيوكمب خاطئاً بشكل رئيس ، فقد كان يسرع بالعدو على جماله ، كما انه لم يكن يستطلع خط سيره او طريقه ، فيختار الطريق الاصعب ، وهذا لابد شكل عبئاً ثقيلاً على عناصر مرافقته ، فأما ان يتخلوا عنه ، او انهم يسيروا على طريقتهم ويتجنبوا السير على التلال العالية التي كان يسير عليها نيوكمب ، وبذلك تكون هناك مسافة بينهم وبينه . وقد دأبوا ان يشكوا دوماً من ان "نيوكمب كالنار ، تحرق العدو والصديق على حد سواء" ؛ وكانوا مرغمين على الاعجاب بطاقته المذهلة بعصبية منكمشة خشية ان يصبحوا من ضحاياه التالية .

لقد قال لي بعض العرب بأن نيوكمب كان لا يغمض له جفن قبل ان يشن غارة على خطوط السكة الحديد ، اما هورنبي فقد كان يقوم بسحب او قطع الاسلاك المعدنية باسنانه عندما يفشل الخيط القطني المتفجر ان يقوم عمله . وكانت تلك عبارة عن اساطير ، لكن يكمن ورائها احساساً وشعوراً لنهمهما المتوحش المشترك في التدمير لغاية لايكون هناك شيء آخر ليدمر . ونتيجة لذلك، فقد جعلوا اربعة كتائب تركية عاملة مشغولة ليلاً نهاراً ، لتقوم باصلاح وتجديد الخطوط المدمرة المعطوبة ؛ كما انه ازداد شحن الخيوط القطنية المتفجرة بالاطنان الى الوجه لتلبي نهمهما . فقد كانا (نيوكمب وهورنبي) رائعان في عملها ، الا ان عملهما الضخم جداً لم يشجع فرقنا ومجوعاتنا الواهنة ، وجعلهم خجلين من استعراض كفائتهم وموهبتهم الاقل شأناً ، لذلك فقد ظل كل من ينوكمب وهوربني يعملون بصورة منفردة .

وصلنا عند مغيب الشمس الى ارض خربه ذات حصى رملي ، ومن ثم سرنا على ارض منبسطة جديدة ، تعلو الارض السابقة بنحو ستين قدماً ، ارضها من الحجارة البركانية زرقاء وسوداء ، يتخللها عوائق من حجارة البازلت

البركانية الصلبة مبعثرة هنا وهناك . وبدت وكأن مياه الامطار قد غسلتها ، كما انها رصفت فوق الارض بشكل جميل وصلب ، وكانت تغطي كافة سطح السهل ، الذي كنا نسير عليه بشكل مستوٍ كالبساط ، واصبح الطريق اسهل للمسير .

وكان الظلام حالكاً ، حيث ان الحجارة السوداء تحتنا كانت تمتص ضوء النجوم . وعند الساعة السابعة مساءً ، عندما توقفنا عن المسير اخيراً ، فقد كان يسير معنا اربعة مجموعات فقط من مجموعاتنا . وبلغنا وادياً سهلاً كان مايزال ندياً ، وارضه رملية ناعمة مليئاً بالشجيرات الشائكة ، الا انها غير ملائمة كطعام لجمالنا . واخذنا باقتلاع تلك الشجيرات من جذورها وجعلها في كومة كبيرة ، حيث قام عودة ابو تايه باشعالها . وعندما ازدادت النار بالاشتعال بدأت المجموعات الاخرى تفد تباعاً ، مجموعة تلو الاخرى ، وهم يغنون وينشدون بصوت عال ، فاما لتشجيع انفسهم وجمالهم الجائعة على السير فوق السهل الحالك ، وأمّا ليجعلوننا نعرفهم ، وقد استغرق الامر ساعتين حتى وصلت آخر مجموعة منهم . وقد رغبنا ان يكون بطئهم ابطأ ، لاننا كنا نستمع بدفء النار .

وفي الليل شردت بعض جمالنا ، وكان على رجالنا ان يذهبوا باثرها للبحث عنها طويلا ، وقمنا باعداد الخبز لنأكل ، قبل ان نستأنف مسيرنا ثانية . وكان مسيرنا يمر ثانية عبر حقل من حجارة اللافا البركانية ، الا ان نشاطنا الصباحي لم يجعلنا نعبأ بذلك ، وكانت امواج او سطوح الارض القاسية للرمال المفروشة عليها قد جعلت منها طبقة مرصوصة بشكل جيد صالحة للسير عليها وكأنها ملعب تنس . وسرنا بسرعة فوق هذه الارضية لستة او سبعة اميال ، ومن ثم استدرنا نحو الغرب لنسير بمحاذاة مستجمع مياه حجري منبسط ومظلم الذي كان يقسم وادي جزيل عن حوضه والذي يسير عليه خط السكة الحديد . وانظمة قنوات المياه الكبيرة هذه المتواجدة هناك كانت تتكون من مياه ضحلة ، وكأنها خطوط صفرآء تجتاز السهل الذي بدا لونه ازرق مسود .

وسرنا بثبات لغاية الظهر ، ومن ثم جلسنا على الارض الجرداء لغاية الثالثة

عصراً ؛ حيث صعدنا على جمالنا ثانية ، واصبح المسير أسوأ من قبل ، وكان علينا ان نتجنب دوماً اكوام حجارة البازلت الكبيرة ، اوحفر الماء الصفراء التي تعترض طريقنا . وبعد فترة ظهرت امامنا طبقة من الحجارة الحمراء الرملية ، وكانت منبسطة في مجموعات حولنا . وكنا مندهشين مرة ثانية من الثقة التي كان يتمتع بها عودة ابو تايه وهو يقود فريقنا من خلال الطرق كثيرةالالتواءات بين الجبال .

ودخلنا ثانية الى ارض بركانية ، تنتشر فيها حفر او فوهات بركانية صغيرة ، وغالباً ما تكون مكونه من اثنتين او ثلاثة معاً ، وتنتشر حولها حجارة البازلت بغير انتظام . الا ان هذه الحفر البركانية بدت قديمة ، وليست عميقة ، كالتي موجودة في "راس غارا" ، بالقرب من وادي العيص ، وانما كانت احياناً تقترب من مستوى سطح الارض . اما حجارة البازلت المنتشرة حولها فقد كانت كفاقاعات صخرية تشبه الحجارة النارية (البركانية) في الصحراء السورية . وقد فرشت الرياح الرمال على سطح تلك الارض بشكل ناعم كمثل قشرة برتقاله ، وحولت اشعة الشمس زرقتها الى لون رمادي . وكانت حجارة البازلت تتجمع باشكال رباعية صغيرة بين هذه الحفر البركانية ، وهي مصفوفة مع بعضها مثل مصطبات صغيرة . وكانت الطرق والممرات بينها واضحة المعالم بالنسبة للجمال ، حيث ان كثرة المرور فيها ازاح العوائق من الامام وجعلها على جانبي الممر .

لم يكن هناك شيئاً عادياً او طبيعياً خلال سيرنا ، فقد شعرنا وكأننا في ارض مشؤومة غير قادرة على اعطاء الحياة ، معادية حتى لمجرى سير الحياة ، باستثناء بعض الطرق الضئيلة التي كنا نلقاها في مسيرنا ، وقد أُجبرتا على ان نسير بجمالنا بشكل متأن ، خطوة خطوة ونحن نجتاز من خلال الصخور الضخمة (الجلاميد) . واخيراً اشار عودة الى الامام نحو كتل كبيرة من الحجارة ممتدة مع بعضها البعض . الا انه كانت هناك كمية محدودة من حجارة اللافا ؛ ومن ثم تقدمت انا وهو سوياً لنرى امامنا سهل واسع فسيح ممتد الى (وادي

العيص) نبتت فيه اشجار صغيرة ناعمة وارضه رملية ذهبية تتخلله بعض البقع الخضراء المبعثرة هنا وهناك . وكانت تحتوي على حفر صغيرة جداً من المياه من بقايا الامطار التي هطلت قبل ثلاثة اسابيع مضت . واقمنا معسكرنا بجانبها وتركنا جمالنا تسرح لغاية المغيب ، لترعى من العشب الذي لم تتناوله منذ كانت في منطقة "ابو راغا" .

وبينما كانت جمالنا مبعثرةلترعى على تلك الارض ، ظهر رجال ممتطون الجمال في الافق من جهة الشرق ، وكانوا يتجهون نحو الماء . الا ان غرضهم لم يكن شريفاً على ما بدا ، فقد أخذوا يطلقون النار على رجالنا الذين كانوا يرعون الجمال ، الا ان بقية رجالنا اسرعوا في الحال وأخذوا يطلقون النار ويصيحون . وما ان سمعونا حتى اسرعوا بالفرار سريعاً بجمالهم واستطعنا ان نراهم ، حيث كانوا لايتجاوزن عشرةاشخاص وهم يفرون باتجاه الخط الحديدي . وكنا مسرورين ان نراهم يتجنبونا تماماً . واعتقد عودة ابو تايه بانهم كانوا مجموعة من عرب شمر .

وعند الفجر ركبنا جمالنا لنسيرمرحلة قصيرة الى درعة ، حيث هناك برك الماءالتي حدثنا عنها الشريف شرف . وكانت الاميال الاولى التي قطعناها في وادي العيش سهلة المسير ، وبعد ذلك اجتزنا ارض بسيطة من حجارة اللافا . ومن ثم اصبحنا في واد ضحل ، مليء جداً باكوام الحجارة الرملية ونباتات الفطر والمطبات العالية ، التيّ كان ارتفاعها يصل الى ستين قدماً . لذلك فقد كانت الممرات الرملية بينها صعبة ولاتتسع سوى لمرور رجل واحد فقط ؛ وعليه فقد مررنا بطابور طويل من خلالها .

وقادنا ذلك لنصل الى نجد مكون سطحه من قطع حجارة البازلت الزرقاء والسوداء ، وبعد فترة قصيرة دخلنا وادي درعه ، ومشينا في بطنه لمدة ساعة او اكثر ، كنا نسير احياناً على حجارة متفرقة رمادية ، واحياناً على سطح رملي تتخلله صخور منخفضة ناتئة . وكان هناك اثر لمكان تخييم مهجور برهن على انه اقام فيه كل من نوكمب وهورنبي ، وتعرفنا عليه من خلال علب السردين

الفارغة الملقاه على الارض . وكانت توجد بعده برك ماء صافية ، فتوقعنا هناك لغاية العصر ، حيث اننا كنا اصبحنا انذاك بالقرب من خط السكة الحديد تماماً ، وكان علينا ان نملأ معدنا بالماء تماماً وملء قربنا الجلدية منه ايضاً ، استعداداً لبدء مسير طويل الى منطقة "الفجر" .

واثناء توقفنا حضر عودة ابو تايه ليرى فراج وداود يمسحون جملي بالزبدة لاراحته من الجرب الذي لايرحم والذي بدأ يطفح على وجهه . فقلة العشب والمرعي في منطقة قبائل البيلي ، اضافة الى الارض الملوثة للوجه قد لعبا دوراً في خراب دوابنا . فجميع الجمال التي كانت لدى فيصل هنا لم يكن أي واحد منها يتمتع بصحة جيدة ؛ ففي كل حملة عسكرية صغيرة كنا نقوم بها ؛ كانت الجمال تتساقط واهنة فيها . لذلك فقد كان الشريف ناصر قلقاً بهذا الصدد خشية من ان تنهار معظمها اثناء مسيرنا وتترك ممتطيها مشردين في الصحراء .

ولم يكن لدينا أدوية لمرض الجرب ، وكان بامكاننا ان نفعل الشئ الضئيل في مواجهة ذلك . ومع ذلك فان عملية الحك ودهنه بمادة لزجة ، كان يريح جملي اكثر ، وكنا نكرر ذلك كلما كان باستطاعه فراج وداود ان يجدا زبدة او سمنة لدى رجالنا . فقد منحاني هؤلاء الشابان راحة ورضا كبيرين . حيث كانا شجاعان ونشيطان مختلفان عن بقية الخدم . وقد اعجبت بفهمهما للامور بشكل فطري ، وسرعة مبادرتهما تجاهي وما كان يلزمني من متطلبات .

(٤٢)

عند الساعة الرابعة والربع عصراً كنا على ظهور جمالنا ، لنتوغل في وادي درعه ، ونسير فوق تلة عالية من الرمال المتحركة . وبعد فترة قصيرة قام ثلاثة او اربعة منا ، بالتقدم ليتسلقوا قمة رملية عالية من اجل استطلاع خط السكة الحديد . ولم يكن هناك أثر لشيء ما ، فقد كان الوضع ملائماً اكثر مما توقعنا . وكان علينا ان نعمل بالحال حيث بدا الخط هادئاً ومهجوراً ، وحيث كان الجميع يسيرون بمحاذاة الخط ، المار في سهل الوادي الاخضر ، وهم مشهورون سلاحهم .

وقمنا بتدقيق خط السكة الحديد ، فكل شيء كان في الحقيقة هادئاً وساكناً ، وحتى ذلك الكوخ للحراسة الذي اقيم على جانب الخط . الا ان الشريف شرف حذرنا بشكل جاد من خطر قدوم دوريات للعدو مؤلفة من عناصر مشاة تمتطي البغال ومن هجانة ايضاً ، او مفرزة بشاحنات مركب عليها مدافع رشاشة . وكانت جمالنا حينذاك ترعى على سهل الوادي ، وبمحاذاة خط السكة الحديد ، وفي امكنه اخرى ، لغاية ما أوت بجانب الصخور الواقعة خلف الخط . في غضون ذلك سررنا بمشاهدة بعض الرجال من قبيلة عقيل وهم يقومون بتثبيت الخيوط القطنية المتفجرة او لف الحشوات الناسفة بالجلاتين حول ما امكنهم من خط السكة الحديد ، وعندما تم تأمين الجمال في مكان آمن بعيد عن الخط ، بدأنا باشعال الفتائل ليمتليء الوادي بصدى الانفجارات الشديدة المتكررة .

ولم يشهد عودة ابو تايه عملية تفجير الديناميت من قبل ، لذلك فقد استبد

به الفرح وحركه المشهد وأثاره ليلقي شعراً رائعاً . وقمنا بقطع ثلاثة اسلاك للتلغراف ، ومن ثم ربطناها بستة اسرجة للجمال التي قامت بجرها لتسقط الاعمدة ارضاً . وبعد ذلك قمنا بقطعها ، وتابعنا سيرنا ونحن نضحك .

وبعد ان سرنا خمسة اميال بدأ الظلام يخيم ، وفي نهاية الأمر اصبح الطريق صعباً بين المرتفعات العالية وغير آمن بالنسبة للدواب الضعيفة ، لذلك توقفنا عن المسير ، وكانت الامتعة وبقية رجالنا ماتزال تسبقنا ، حيث انهم لم يتوقفوا عن المسير في حين كنا نتعامل مع السكة الحديد . ولم نستطع ان نجدهم في الليل الحالك ، اذ ان الاتراك كانوا يصرخون بقوة ويطلقون الرصاص في الهواء من محطاتهم المتواجدة على الخط خلفنا ؛ وقد وجدنا من المناسب ان نمكث هادئين ولانقوم باشعال النيران ولا ارسال الاشارات لنجلب انتباههم .

ومع ذلك فان ابن دغيثير ، كان كلف بعض الرجال ان يقوموا بعملية البحث ، ولذلك ما ان تهيئنا للنوم ، حتى قدم رجلان الينا ، وافادا بأن بقية الرجال كانوا يعسكرون في بقعة مخفية تبعد قليلاً عنا ، فقمنا باعتلاء جمالنا وسرنا خلف دليلنا في اظلام الدامس لغاية ماوصلنا الى مكانهم ، فنزلنا لنجلس بجانبهم دون ان نتكلم معهم بكلمة .

وفي الصباح قادنا عودة ابو تايه مشياً على الاقدام ، لنصعد تلة عالية لغاية مابلغنا اعلاها ، ثم نزلنا سفحاً رملياً . وهناك وجدنا جمالنا راكعة . وكانت جاهزة لامتطائها ، وعندما سرنا في بطن الوادي وجدنا انفسنا عند رأس الوادي ، والذي يؤدي باتجاه خط السكة الحديد . وسرنا نصف ساعة اخرى لغاية ما وصلنا الى حافة نجد مرتفع (سهل واسع مرتفع) حيث كانت هناك مستجمعات مياه الامطار مابين وادي الحجاز ووادي سرحان ، وبعد عشرة ياردات اخرى ، اصبحنا خلف انحدار البحر الاحمر ، وما يتخلله من وقنوات مصارف مياه الامطار .

وكان عبارة عن سهل على ما يبدو ، ذو منظر لا متناهي من الانحدار باتجاه الشرق ، حيث تتصل السهول المنبسطة الناعمة الواحدة تلو الآخر لتمتد في الافق

البعيد . وكانت اشعة الشمس تتدفق ساقطة على السهل بمستوى كامل من الضوء، جاعلة المرتفعات تلقي بظلالها الطويلة ، وبدأت الشمس الصباح تعم وترسل باشعتها الحارة ، لتعكس اشعتها على حجر في الصحرآء نسير عليه .

وتحول عودة باتجاه الشمال - شرق ، قاصداً نحو مرتفع بسيط يتصل بين قمتين منخفضتين ، واجتزناه بعد مسير اربعة اميال ، ورأينا تحت اقدامنا مباشرة جداول مائية ضحلة ، واشار اليها عودة قائلاً انها تجري باتجاه النبك في وادي سرحان ، واننا سنتبع مجراها باتجاهي الشمال والشرق لنصل الى المضارب الصيفية لقبيلة الحويطات .

وبعد قليل كنا نسير على مرتفع منخفض من الحجارة الرملية الفضية ذات طبيعة اردوازية (رمادية داكنة ضاربة الى اللون الارجواني) ، وتكون احياناً صغيرة تماماً ، الا انها في احيان اخرى تصبح اكبر ليصبح سمكها ربما اربعة بوصات . واقترب عودة ابو تايه بجمله ليصبح بجانب جملي ، واشار بعصا قيادته ليقول لي ان اكتب على خارطتي اسماء وتضاريس الارض . وكانت الوديان التي تقع عن يميننا تدعى سيول الكلب ، وهذان النظامان المائيان كانا يتحدان على بعد خمسين ميلاً امامنا في منطقة "الفجر" ، حيث كانت توجد هناك قبيلة ما ، وبئر من الماء. وصرخت على عودة بأن يزودني بالمزيد من الاسماء الجغرافية وعن ساكنيها، وكان مسروراً لأن يقدم لي ملاحظاته الشخصية بهذا الشأن .

وكان بدو منطقة الفجر ، يدعون السهل الذي كنا نسير عليه بسهل "الحول" ، لانه كان مهجوراً ومقفراً ؛ وفي ذلك اليوم الذي كنا نسير عليه لم نر دلائل او علامات الحياة فيه ؛ فلا أثر للغزلان ولا السحالي ، ولا الفئران البرية ، ولاحتى أي نوع من الطيور . ونحن انفسنا لم نشعر تجاهه سوى بالشئ اليسير ، وكان تقدمنا الملح عبر مساحته الشاسعة يتسم بالسكون او بعدم التحرك بنشاط ، والاصوات الوحيدة التي كنا نسمعها كانت تردد الاصداء العميقة ، مثل اصوات وقع الاقدام على الارصفة التي توجد تحتها سراديب ، فهكذا كانت تسمع اصوات وقع اقدام دوابنا .

وكانت الرياح ساكنة وساخنة ، مثل الرياح الخماسينية الحارة المعروفة في مصر ، وكلما تقدم النهار وازدادت اشعة الشمس ؛ فانها كانت تزداد قوة ، وتكون مليئة بالغبار مثل غبار صحراء النفوذ ، الصحراء الرملية الضخمة في الجزيرة العربية ، حيث تكون قريبة جداً منا ، الا انها تكون غير مرئية من خلال السديم او الضباب الرقيق . وعند الظهر هبت رياح شبه هوجاء ، جافة جداً ، ولفحت بشرات وجوهنا وشققت شفاهنا ، وانكمشت عيوننا بفعل الغبار . فقام الرجال بتغطية وجوهم بكوفياتهم بحيث لم يبق مجال سوى لعيونهم ليتسنى لهم الرؤيا امامهم . وبذلك فهم كانوا يبعدون شوائب الرياح عنهم ؛ اما انا بدوري، فقد كنت دوماً احب رياح الخماسين ، حيث ان عذابها او ضررها بدا وكأنه يقاتل ضد الجنس البشري بحقد مدرك ، قد يكون من دواعي عذابها او ضررها بأن تواجهه مباشرة تماماً ، وتتحدى قوتها ، واستيعاب والسيطرة على تطرفها وذروتها . وكان هناك سروراً ايضاً بقطرات العرق المالحة التي كانت تنزل من خلال شعري على جبهتي، وتسقط على خدي مثل قطرة الماء البارد . وكنت في البداية ، اتسلى بذلك لالتقطها بفمي ؛الا انه ، عندما اسرعنا بالمسير والتوغل في الصحراء والساعات تمر فقد اصبحت الرياح اشد ، مثقلة بالغبار ، وحرارتها اكثر ازعاجاً . فذهبت معها كافة التحديات . واصبحت بشرتي جافة جداً وحلقي اصابه جفاف شديد ، مما سبب لي الماً في الاكل بعد ذلك لمدة ثلاثة ايام . وعندما حل المساء اخيراً ، فقد كنت راضياً من أن وجهي المحروق كان لايزال يشعر بوجود رياح الظلام الاكثر اعتدالاً من رياح النهار .

كنا نمشي بتثاقل طيلة النهار (وحتى بدون وجود الرياح التي كانت تعيقنا هناك فانه لم يكن بالامكان ان نتمتع بالمزيد من رفاهية التوقفات لنستظل باغطيتنا، اذا ما اردنا ان نصل كرجال غير منهارين بجمالنا القوية الى " الفجر " ، ولم يكن هناك أي شئ ليجعلنا نفتح اعيننا امام الرياح و نفكر لبرهة لغاية ما بعد الساعة الثالثة عصراً ، ومن ثم سرنا فوق هضبتين ، لنصل الى تلة اخيراً . وزودني عودة باسمآء اضافية للاماكن هناك .

وسرنا لمسافة طويلة من خلف التلة على ارض حصويه ناعمة ، تتجه اسفلاً نحو الشرق . واخذت انا وعودة نخب قدماً بدابتينا لنحث القافلة البطيئة على الاسراع اكثر . وبعد ذلك بوقت قصير ، وبعدان بلغنا سيل ابو عراد ، واستدرنا نحو الشرق ، اخترنا مكاناً واسعاً بعض الشيء ، ثم قمنا بجمع بعض الاغصان والجذوع الناشفة لنشعلها حتى يعرف الآخرون مكاننا ، وقمنا بتجميع كومة كبيرة ، لنجد باننا لايوجد معنا عود ثقاب .

ولم يحضر رجالنا الا بعد اكثر من ساعة ، عندما هدأت الرياح ، واصبح المساء هادئاً ، والسماء مليئة بالنجوم . وشكل عودة ابو تايه فريقاً ليقوم بالحراسة اثناء الليل ، حيث ان تلك المنطقة كانت معرضة لغارات الغزو ، كما ان ساعات الليل في الجزيرة العربية لايوجد فيها اصدقاء . وكنا قطعنا حوالي خمسين ميلاً في ذلك النهار ؛ فقد توقفنا اثناء ساعات الليل ؛ اما لأن جمالنا كنت واهنة ومريضة ، وبحاجة ماسة للرعي ، واما لأن رجال الحويطات لم يكن لديهم اطلاع تام بتلك المنطقة ، وخشوا ان يضلوا طريقهم اذا ما تجرأوا وساروا في الليل دون رؤية واضحة .

(٤٣)

قبل الفجر في اليوم التالي ، بدأنا بالنزول الى بطن وادي ابو عراد لغاية ماشرقت الشمس من فوق هضاب وتلال "زبليات" امامنا . واستدرنا اكثر نحو الشمال لنقطع زاوية الوادي ، وتوقفنا لمدة نصف ساعة لغاية ما رأينا بقية القافلة قادمة نحونا . ومن ثم لم نكن انا وعودة وناصر قادرين على الوقوف كثيراً تحت اشعة الشمس الضاربة على رؤوسنا ، لذلك فقد اندفعنا قدماً نخب بدوابنا . وفقدنا تقريباً على الفور رؤية الآخرين من خلال الوهج الحار ، الا ان الطريق كان واضحاً ، نازلين الى بطن وادي الفجر القصير .

وعند الظهر بلغنا بئر الماء . وكان عمقه نحو ثلاثين قدماً ، محاطاً بالحجارة المصفوفة ، وكان قديماً على مايبدو ، وماؤه وافراً ، قليل الملوحة ، الا ان مذاقه لابأس به عندما يُشرب منه فوراً ، لكنه سرعان ما يصبح كريه الرائحة . وبدا ان الوادي قد شهد تدفق خفيف لمياه الامطار في السنة الماضية ، لذلك فقد كانت ارضه جافة وندر المرعى فيه ، الا اننا حللنا دوابنا لتأخذ ما تيسر لها . وقدم بقية الرجال ، وقاموا بسحب الماء من البئر ، وأعدوا الخبر ، وتركنا الدواب ترعى لغاية حلول الليل ومن ثم قمنا بسقايتها ثانية ، ثم أويناها في مكان يبعد نصف ميل عن بئر الماء لتقضي ليلتها هناك ، وايضاً حتى لاتشكل اية مضايقة او عائق في حالة ورود قادمين في الليل لاستخدام مياه البئر . ومع ذلك فان حراسنا لم يسمعوا قدوم أي واحد غريب ، وكالعادة فقد صحونا قبل الفجر وبدأنا مسيراً هيناً ؛ الا ان وهج حرارة الصحراء مالبث ان اصبح مؤلماً . وبعد مسير مسافة

ميلين اصبح الوادي فسيحاً امامنا ، وبلغنا فيما بعد منطقة منخفضة ذات صخور منحدرة متقطعة ، على الضفة الشرقية للوادي بمواجهة مدخل او مصب سيل الرغا وهناك اصبحت الارض اكثر اخضراراً وطلبنا من عودة ان يدبر لنا بعض لحوم الصيد . فأرسل زعل الى جهة ما واتجه هو بنفسه ليجتازالسهل الفسيح الذي يمتد على مرمى النظر ، في حين تحولنا نحن نحو الجروف الصخرية لنجد مكاناً بجانبها نستظل فيه من اشعة الشمس ونريح انفسنا .

وعاد الصيادان قبل الظهر ومع كل واحد منهما غزال جيد . لذلك فقد كانت هناك وليمة من الخبز واللحم ، تناولناها ونحن نستظل في عريننا الصخري .

واسترحنا هناك لغاية الساعة الثانية بعد الظهر ، ومن ثم استأنفنا سيرنا ، لنبلغ بحيرة خبر عجاج ، قبل غروب الشمس . وكانت البحيرة مليئة من مياه امطار تلك السنة كثيفة المياه ؛ ومالحة قليلاً لكنها جيدة لشرب الجمال ، ومن الممكن ايضاً ان تكون صالحة لشرب الانسان . وقد وقعت تلك البحيرة في ادنى انخفاض ضحل لوادي الفجر ، حيث ملئت بالمياه بنحو قدمين عمقاً وبمساحة مائتي ياردة طولاً وعرضاً . وكان يتواجد عند نهايتها الشمالية رابية من الحجارة الرملية . وظننا باننا سنجد مضارب للحويطات هناك ؛ الا انه بدا لنا ان الارض قد رعت عليها الابل ، وان الماء لوث بفعل دوابهم ، وانهم قد غادروا هذه المنطقة . وقام عودة بالبحث عن اثارهم ، الا انه لم يعثر على شيء ، فقد محت الرياح العاصفة اثارهم . ومع ذلك ، فحيث انهم قد قدموا الى هنا من منطقة "طبيق" ، فلا بد انهم قد ذهبوا نحو وادي سرحان ، لذلك فاذا ما ذهبنا باتجاه الشمال ، فلابد ان نجدهم .

وفي اليوم التالي ، وبالرغم من سيرنا اللامتناهي من مراحل رحلتنا ، فقد كان مضى على مسيرنا من الوجه اربعة عشر يوماً فقط ؛ فتابعنا المسير وكانت الشمس ايضاً تلقي بحرارتها علينا . واخيراً عند العصر ، غادرنا وادي الفجر لنتوجه الى "عرفجة" بوادي سرحان . ووفقاً لذلك فقد انحدرنا نحو اليمين ،

لنسير فوق طبقة منبسطة من الاحجار الكلسية والرمال ، ورأينا الزاوية البعيدة لصحراء النفوذ الكبرى ، التي تحتوي على الاحزمة المشهورة للكثبان الرملية والتي تقطع جبل شمر عن الصحراء السورية ، وهي الصحراء التي اجتازها بعض الرحالة المشهورين والذين كان من بينهم بلجريف جيرترود بيل ، وتوسلت لعودة بأن يتحمل قليلاً ويجعلنا ندخل الصحراء ، بيد انه قال مزمجراً بأن الرجال يذهبون الى النفوذ للضرورة فقط ، عندما يريدون الغزو ، وانه لايريد الآن ان يقوم بغارة مع جمال هزيلة ، وان من مصلحتنا ان نصل الى عرفجة احياء .

لذلك فقد تابعنا سيرنا بتعقل ، على الرمال اللامعة الرتيبة ، وفوق الطين الناشف المصقول ، الضارب الى البياض تقريباً والناعم الملمس كورقة منبسطة ، وغالباً ما كان يمتد الى ميل مربع . وكان يعكس اشعة الشمس على وجوهنا كلمعان الزجاج . لذلك فقد كنا نسير وانعكاس اشعته تضرب من الارض الى جفوننا . انه لم يكن يشكل ضغطاً مستمراً علينا فحسب ، وانما كان يسبب لنا الماً متدفقاً ؛ وكان احياناً يتكثف اكثر فاكثر لغاية مايغمى علينا تقريباً ، ومن ثم يتلاشى ببرودة ، في لحظة من الظل الخادع كمثل شبكة سوداء تجتاز شبكية العين ، وهذا كان يمنحنا لحظة من التنفس لنخزن طاقة جديدة من اجل معاناة اخرى كمثل صراع رجل يغرق .

ولبثنا هكذا حتى الساعة السادسة مساءً عندما توقفنا من اجل العشاء ، وقمنا باعداد خبز طازج . وقمت باعطاء دابتي ماتبقى من حصتي ، حيث ان هذه الدابة البائسة اصبحت مرهقة وجائعة من تلك المسيرات . فقد كانت ناقة اصيلة أهديت من قبل ابن سعود الي الشريف حسين ومن ثم اعطاها لابنه فيصل ؛ وكانت ناقة رائعة صلبة ثابتة في السير على التلال والمرتفعات ، وشجاعة . والعرب الموسرون لايمتطون سوى النياق ، حيث انها مريحة اكثر من الجمال الذكور ، وافضل مزاجاً وأقل جلبة ، كما انها صبورة وتتحمل المشاق لمدة طويلة ، ولغاية ماتصل الى مرحلة عالية جداً من الانهاك فتنهار في طريقها فتنفق ، في حين ان الذكر يزداد هياجاً وغضباً ويطرح نفسه ارضاً عندما ينهك ويتعب ، ويبقى طريحاً حتى ينفق (يموت) .

وبعد حلول الظلام سرنا لمدة ثلاث ساعات اخرى ، حتى وصلنا قمة مرتفع رملي ، وهناك نزلنا لنسير وننام ، بعد يوم سيء من الرياح الحارقة ، والغبار العاصفة والرمال المتنقلة التي كانت تضرب وجوهنا الملتهبة . لكن عودة ابو تايه كان قلقاً بشأن الغد ، حيث ان موجة من الرياح الحارة الاخرى ستؤخرنا ليوم ثالث في الصحراء ، ولم يكن لدينا ماءً ، لذلك فقد ايقظنا مبكراً في الليل ، وسرنا اسفلاً نحو سهل "بسيطة" (ويدعي ذلك لضخامة حجمة وانبساطه) ، فبل ان يبزغ الفجر ، وكان سطحه ناعماً واصبح محروقاً بفضل اشعة الشمس ، الا انه كان حاراً وصعباً على جمالنا ، التي كان بعضها يعرج على قدميه من شدة الالم .

ان سير الجمال على السهول الرملية لساحل الجزيرة العربية يجعل باطن اقدامها تحشى وتمتلئ بالرمال ؛ واذا ما استخدمت هذه الجمال لقطع مسافات طويلة فوق ارض صخرية صوانية او ارض حارة ، فان اخمص او باطن اقدامها تحترق ومن ثم تتشق وتتقرح . ويمكنها ان تتابع السير في مثل هذه الحالة فوق الرمال ، ولكن اذا ماداست بالصدفة ، على حصى فانها ستتعثر ، ستضطرب وكأنها تخطو على جمر ، ومن الممكن ان تنهار في حال المسير الطويل مالم تكن في غاية الشجاعة . لذلك فقد سرنا بعناية وتمهل ملتمسين الطريق الاسهل ، وكنت انا وعودة في المقدمة .

وبينما نحن نسير هبت زوبعة صغيرة من الغبار ، فقال عودة انها كانت من جراء طيور النعام . واسرع رجل ليحضر لنا بيضتين ضخمتين من بيضها . ونزلنا لتناول الفطور على هذا السهل الواسع ، ولنبحث عن مادة للوقود ؛ الا اننا وخلال عشرين دقيقة لم نجمع سوى حزمة صغيرة من الاعشاب الجافة . فالصحراء الجرداء قد هزمتنا . ومر قطار محمل بالامتعة ، فوقعت عيناي على رزم المتفجرات التي كانت معنا . وكنا نقوم بشي البيضتان في النار لغاية مانضجتا . قام عودة بكسر البيضة الاولى من اعلى بخنجره ، في حين اخذنا البيضة الثانية الى بقعة نظيفة لنكسرها ، الا انها كانت قاسية كالحجر ، وبعد ان

كسرناها أخذنا نخرج محتوياتها بخنجر لنضعها على حجر صوان نظيف جعلنا منه طبقاً للاكل ، واخذنا نأكل ونحن نحث الشريف ناصر على مشاركتنا ، وهو الذي لم يأكل في حياته من قبل لحم البيض . وكان الحكم العام لتلك الوجبة قاسياً، الا انه كان جيداً على سهل "بسيطة" .

ورأى زعل ثور بري يعدو ، فقام بقتله . فكان ذلك افضل مؤونة حملناها على جمالنا لتوقفنا التالي . ومن ثم تابعنا مسيرنا ، وبعد ذلك رأى رجال من الحويطات مزيداً من الثيران البرية على البعد فذهبوا في اثرها ؛ التي اسرعت قليلاً، ومن ثم توقفت هادئة بغباء وهي تحدق لغاية ما اصبح الرجال بالقرب منها، ثم اسرعت بالفرار ثانية .

(٤٤)

لقد كنت مرهقاً جداً وقليل جداً في حبي للرياضة ، لاذهب في مطاردة الحيوانات النادرة في العالم ؛ لذلك فقد لحقت بقافلتي . وكان رجالي يسيرون في مؤخرتها ، على اقدامهم . فقد خشوا انه من الممكن ا ن تنفق بعض دوابهم قبل حلول المساء ، فيما اذا هبت رياح أقوى ، لذلك فقد قادوها بأيديهم وهم يمشون على أمل أن يحافظوا عليها . وقد اعجبت بالتناقض مابين محمد ، الفلاح القوي ذا القدمين الثقيلتين ، وبين فراج وداود اللينين الرقيقين وهما يرقصان على طول الطريق بأقدامهما العارية . وفقط جاسم لم يكن هناك ، فقد ظنوا انه كان مع رجال الحويطات الذين كانوا يطارودن الثيران البرية . ولم يكن هناك أحد يسير خلفنا . لذلك ، فقد سرت للامام متمنياً ان أرى جمله ، واخيراً وجدته ، دون ان يكون راكباً عليه ، ويقوده واحد من رجال الحويطات . وكان يوجد على جمله سرجه وجرابه ، وبندقيته وطعامه ، اما هو فلم يكن له أي أثر ؛ وبدأنا نعتقد تدريجياً بأن الرجل البائس قد فقد . وكان هذا شئ فظيع ، حيث ان السديم او الضباب والسراب لم يكن ليسمح برؤية القافلة عن بعد ميلين ، ولم تكن الاثار لترى على تلك الارض الصلبة ، لذلك فانه لم يكن بوسعه ان يلحق بنا على اقدامه .

وكان كل واحد يمشي وهو يظن بأنه قد يكون في مكان ما ، الا ان كثيراً من الوقت كان مضى ، واصبح الوقت في منتصف النهار ، لذلك فلا بد انه كان خلفنا اميال . ودلت حمولة جمله بأنه لم يفقد وهو نائم عند توقفنا للنوم

بالامس ، وخمن مرافقي انه لربما أغمي عليه في الطريق ، فوقع عن جمله ، او انه ربما قتل نفسه ؛ او ان أحد في القافلة قد غدر به . على أية حال فهم لم يكونوا يعرفون الحقيقة . ولأنه غريب الاطوار ولا احد يهمه أمره ، لذلك فلم يولوا الأمر عناية كبيرة . وصحيح ان محمد ، وهو ابن قريته والذي كان رفيقه في الطريق، كان لايعرف شيئاً بالصحراء ، كما ان جمله كان يعرج ، ولايمكنه ان يرجع ويبحث عنه . واذا ما قمت بارساله ، فانها من الممكن ان تكون جريمة قتل. وذلك ما وضع المسؤولية على عاتقي . اما رجال الحويطات الذين كانوا من الممكن ان يساعدوا في هذا الأمر ، فقد كانوا بعيدين عن النظر يختفون في السراب ، سواء يقومون بالصيد أوبالاستكشاف . وكان رجال قبيلة عقيل الدغيثير متعصبين جداً عشائرياً ولم يكونوا ليضعوا انفسهم في المخاطر لواحد ليس منهم . اضافة الى ان جاسم كان من رجالي ، لذلك فان مسؤوليته كانت تقع على عاتقي . فنظرت بوهن الى رجالي المجهدين ، وأنا اتساءل للحظة فيما اذا كان يمكنني ان ارسل واحداً منهم على جملي ليبحث عنه وينقذه . وكان من الممكن تفهم موقفي لانني كنت اجنبياً، الا انني قررت ان اتحمل مسؤوليتي ، وبدون ان اقول أي شيء قمت بتحويل ناقتي التي كانت غير راغبة بالرجوع وترك رفقائها من الجمال ، عنوة لارجع الى الوراء ولاترك القافلة . وكان مزاجي ليس بطولياً ، لانني كنت حانقاً على كل شيء ، على خدمي ، وعلى لعب دور البدوي، وفوق كل شيء على جاسم. وبدا الامر سخيفاً من انه كان يجب على ان اتحمل الخطر من اجل رجل لاقيمة له .

وبدا ان ناقتي كانت تشعر بنفس الشعور ايضاً ، وكأنها كانت مجبرة على السير ، حيث سارت ببطء . وكنت محتاجاً لأن استخدم عصاي من اجل حثها على الاسراع . ومع ذلك فبعد ميل أو ميلين ، شعرت بتحسن ، وبدأت بالسير قدماً ، الا انها كانت لاتزال بطيئة . وكنت الاحظ اتجاهنا وتحركنا في تلك الايام باستخدام البوصلة التي كانت لدي ، وأملت بمساعدتها ، بأن ارجع تقريباً الى آخر مكان بدأنا المسير منه ، والذي كان يبعد سبعة عشر ميلاً .

وقبل ان تنقضي عشرين دقيقة من رجوعي ، فقد اصبحت القافلة غير مرئية ، وقد لفت نظري كيف في الحقيقة كانت صحراء "البسيطة" . وكانت العلامات الوحيدة الموجودة فيها هي الحفر الرملية القديمة ، التي كانت تنتشر على مدى طريقي ، وكانت ناقتي تتجنبها . فهذه الحفر كانت تعتبر القوت البري لعرب الشرارات ، الذين كانوا فقراء جداً ، حيث وجدوها ملائمة لصيد الحيوانات البرية لتلبي احتياجاتهم الغذائية . وكانت توضع الصخور حول تلك الحفر ، لتمنع عنها الامتلاء بالرمال ، الا انها من الممكن ان تمتلىء بمياه الامطار ، فيصبح منظرها مثل العيون الرمادية .

وسرت حوالي ساعة ونصف ، سيراً سهلاً ، حيث كان النسيم يمسح الغشاوة عن عينتي الحمرواتين فانظر للامام دون الم ، عندما رأيت جسماً ، او شجرة كبيرة او شئ اسود كان يوجد امامي ، فالسراب المتحرك كان خادعاً ، الا ان هذا الشئ بدا وكأنه يتحرك ، فحولت ناقتي اليه ، وخلال بضعة دقائق تيقنت انه كان جاسم وعندما ناديت عليه ، وقف باضطراب ؛ واقتربت منه فرايته بانه كان اعمى تقريباً وابلهاً واقفاً هناك ويداه مرفوعتان لي ، وفمه الاسود مفتوحاً باكمله ، فقمت باعطائه قربتي ليشرب منها ، فوضعها على وجهه بجنون ليسرع بالشرب . ثم توقف وأخذ ينتجب ويعبر عن احزانه . وقمت بوضعه على خلف سرجي ، ومن ثم علوت ناقتي .

وبدت ناقتي وكأنها مرتاحة عند عودتنا ، وتحركت قدماً بنشاط . وبدت آثار مسيري وكأنها قد انمحت على الطريق . وبدأت ناقتي تعدو سريعاً مما ابهجني ذلك . وكان جاسم ينوح ويبكي دون وعى من الالم والعطش ؛ فقلت له بأن يتوقف عن ذلك ، الا انه استمر بذلك وبدأ يتحرك كثيراً ، وكان ذلك يسبب ارباكاً للناقة ، وهذا قد يعرضها لأن تقع ارضاً وتعرج بعد ذلك . وقلت له ثانية بأن يسكت ويتوقف ، بيد انني قمت بضربه عندما صرخ عالياً ، واقسمت انه اذا ماصدر عنه صوتاً آخر فانني ساقوم بقذفه وتركه هناك . واحدث تهديدي ذاك أثراً ، فتوقف عن الصراخ والحركة .

ولم نكن قد اجتزنا اربعة اميال بعد عندما رأيت ثانية جسماً اسوداً ، يتمايل في السراب امامي . واستطعت ان اميز ثلاثة اشخاص ، وتساءلت فيما اذا كانوا اعداء . وبعد دقيقة تكشف لي الوضع تماماً ، فقد كان ذلك عودة ابو تايه ومعه اثنان من رجال الشريف ناصر قد رجعوا ليبحثوا عني . وصرخت بهم موبخاً لتخليهم عن صديق في الصحراء . فمسد عودة ابو تايه لحيته وقال متذمراً بانه لو كان حاضراً فانه كان لن يسمح لي ابداً بأن ارجع لابحث عنه . ونقل جاسم الى سرج جمل آخر افضل والاهانات تلحق به ، وسرنا عائدين معاً . واشار عودة الى جاسم البائس ولامني قائلاً ، "أمن أجل هذا الشيء الذي لايساوي ثمن جمل . . . " . فقاطعته قائلاً "انه لايساوي نصف كروان (شلنان ونصف) ، ياعودة" ، وسرته اجابتي فسار بجانب جاسم ، وضربه بشدة ففتح جاسم فمه ليظهر اسنانه المكسورة . وبعد ساعة من المسير ، استطعنا اللحاق بقافلتنا واخذ عودة يكرر نكتتي لكل واحد يلقاه .

وفسر جاسم سبب ما حل به ، بانه نزل عن جمله ليقضي حاجته ، وبعد ذلك افتقد القافلة في الظلام . لكن ، وعلى ما يبدو وبشكل واضح ، فقد ذهب لينام من شدة التعب من بطئنا في المسير ، ومن الطقس الحار للرحلة . وانضممنا الى كل من الشريف ناصر ونسيب البكري ، اللذان كانا في المقدمة . وكان نسيب مغتاظاً مني ، لتعريض حياتي وحياة عودة للخطر من اجل ذلك . وصُدم الشريف ناصر من وجهة نظره الانانية ، وكان عودة مسروراً ليهيل نقده اللاذع على التناقض مابين أهل المدن والقبائل ، فالمسؤولية في الصحراء تكون مشتركة وتسود فيها الاخوة ، متناقضة مع الانعزال والتنافس المعيشي في المناطق المزدحمة .

ومر على التحدث بهذه المسألة الصغيرة عدة ساعات ، وبدا بأن الساعات المتبقية من النهار لم تبد طويلة جداً ؛ ومع ذلك فقد اصبحت الحرارة اسوأ ، والرياح الرملية تلفح وجوهنا لغاية ما امكن ان يُري الهواء ويُسمع ، ويُصفر مجتازاً جمالنا مثل الدخان . وكانت الارض منبسطة ورتيبة لغاية الساعة الخامسة ، عندما رأينا هضاب صغيرة امامنا ، وبعد ذلك بقليل وجدنا انفسنا بين تلال رملية نبتت عليها اشجار نحيلة . وكانت هذه منطقة "قصيم السرحان" .

واصبحت الشمس تميل للغروب ، ودونت في يومياتي بأن وادي سرحان كان جميلاً .

ان فلسطين اصبحت ارض الحليب والعسل لأولئك الذين قضوا اربعين عاماً في صحراء سيناء ، ودمشق كانت تحمل اسم جنة الارض بالنسبة للقبائل التي استطاعت ان تدخلها فقط بعد اسابيع واسابيع من المسير المؤلم بعد اجتياز الصخور الصوانية للجزء الشمال من هذه الصحراء . وبطريقة مماثلة فان "قصيم عرفجة" التي قضينا فيها تلك الليلة ، بعد خمسة ايام من اجتياز لهيب الصحراء المليئة بالعواصف الرملية ، فقد بدت تلك المنطقة منعشة وريفية . وكانت تلك التلال ترتفع بضعة اقدام عن ارض صحراء "البسيطة" ، وبدت منها الوديان المنحدرة اسفلاً باتجاه الشرق لتنحدر في انخفاض ضخم حيث يقع هناك البئر الذي كنا نقصده . لكننا آنذاك اجتزنا الصحراء ووصلنا وادي سرحان بأمان ، وذهب خوف الظمأ وشعرنا بالتعب والاجهاد يتملكاننا ، لذلك فقد اتفقنا على ان نعسكر هناك تلك الليلة ، وان نشعل ناراً كعلامة وارشاد لخادم نوري الشعلان الذي كان مثله مثل جاسم ، اختفى عن قافلتنا في ذلك اليوم .

ولم نكن قلقين بشأنه ، فقد كان يعرف المنطقة وجمله تحته . ومن الممكن انه اتخذ طريقه مباشرة بشكل مقصود الى الجوف ، عاصمة نوري الشعلان ، ليكسب الجائزة من توصيله الاخبار الاولى ، باننا قادمون بالهدايا معنا . ومع ذلك فانه لم يأت تلك الليلة ، ولا في اليوم التالي ، وبعد شهر من ذلك ، فقد سألت نوري الشعلان عنه فاجابني بانه قد تم العثور على جثته متيبسة فيما بعد ، ملقاه بجانب جمله الذي نفق ايضاً في مكان بعيد من الصحراء ، فلا بد انه قد تاه في الصحرا. . واخذ يسير فيها لغاية ما انهار جمله ؛ وهناك مات من العطش والحرارة ، ولم يكن ليعاني طويلاً حتى يموت - فحتى بالنسبة لأقوى انسان فانه لايمكنه ان يتحمل لغاية اليوم التالي في ايام الصيف - ، ولكن الأمر يكون مؤلماً جداً ؛ حيث ان العطش يكون السبب الرئيس ؛ اضافة للخوف والذعر اللذان يجعلان اشجع الرجال يصبحون في وضع جنون خلال ساعة او ساعتين ، ومن ثم تقتله الشمس .

(٤٥)

ان عدم ملء اجوافنا بالماء لم يجعلنا نأكل شيئاً بالطبع ؛ ومع ذلك عندما ملئنا معدنا بالماء استطعنا ان ننام بسهولة ، فاستلقينا على بطوننا لنمنع تضخمها من عدم وجود الطعام فيها . فقد كان من عادة العرب ان يملئوا معدهم بالماء لغاية البلعوم عند كل بئر ماء ، ليستطيعوا التحمل حتى وصولهم للبئر التالي ؛ او فيما اذا حملوا معهم الماء ، من اجل ان يستخدموه بسخاء عند اول توقف لهم ، يشربون منه ويصنعون الخبز . وحتى يمكنني ان اتجنب التعليقات ، فقد قمت بتقليدهم . وبالفعل فانني قد عانيت مرة واحدة فقط من العطش .

وفي صباح اليوم التالي سرنا اسفلاً على المنحدرات والسفوح ، ومن ثم فوق مرتفع ، وثان ، وثالث ؛ يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثة اميال ؛ لغاية الساعة الثامنة عندما نزلنا عند آبار عرفجة ، واشجارها ذات الرائحة العطرية التي انعشتنا . ووجدنا وادي سرحان على انه ليس بواد وانما عبارة عن صدع تتجمع في بطنه المياه الآتية من عدة اتجاهات وسطح ارضٍ مكون من الحصى والرمال الناعمة ، تتخللها الكثبان الرملية ، والاشجار النحيلة .

وكانت تتناثر فيه الآبار ، وحولها الاعشاب الخضراء الصالحة لرعي دوابنا . وقررنا ان نمكث هناك طيلة النهار ، في حين نبحث عن مضارب الحويطات . لذلك فقد قمنا بارسال كشاف للاستطلاع .

ومع ذلك ، فقد رأى احد رجال الحويطات رجالاً يمتطون الجمال وهم يختبؤن بين الاشجار الى اتجاه الشمال . وتأهبنا للقتال ، ومن ثم ارسلنا محمد

الدحيلان مع رجل آخر ليستطلعا العدو المفترض ؛ وكلفنا بعض الرجال بحماية امتعتنا الموجودة حول الكثبان الرملية . ومع ذلك فان العدو لم يأت . وعندما عاد محمد بعد نصف ساعة قال بأنه لم ير سوى آثار لثلاثة اشخاص يفترض بانهم كانوا كشافة لجماعة من عرب شمر يقيمون في الجوار ، فمنطقة عرفج تبتلي بهم دوماً .

ودعا عودة ابو تايه زعل ، ابن اخته ، اليه وكلفه بأن يذهب ويستكشف عدد العدو ونيته . وقد كان زعل رجلاً صلباً رقيقاً ، ذا مظهر جرئ ، وشفتين قاسيتين ، ومليئاً بالقسوة التي كان يتسم بها هؤلاء الحويطات . فذهب ليستطلع ، ولكنه وجد ارض الدغل المحيطة بنا مليئة بأثار الخطوات ؛ الا انه لم يستطع ان يميزها فيما اذا كانت حديثة ام لا . ومر العصر بسلام ، وكنا متهيئين بتوتر ، ومع ذلك فقد ابقينا على حارس عند قمة الكثب الكبير الواقع خلف الحفر المائية . وعند الغروب ذهبت واغتسلت في المياه المالحة ، وعند عودتي توقفت عند موقد نار رجال عقيل لأخذ كوب من القهوة معهم ، في حين كنت استمع اليهم وهم يتحدثون باللهجة العربية النجدية . وبدأوا يرون لي القصص الطويلة عن الكابتن شكسبير ، الذي استقبل من قبل ابن سعود في الرياض كصديق شخصي ، واجتاز الجزيرة العربية من الخليج الفارس (العربي) حتى مصر ؛ وقتل في نهاية الأمر في معركة مع عرب شمر ، في نكسة تعرض لها ابطال نجد خلال حروبهم الدورية .

وكثير من رجال قبيلة عقيل الدغيثير قد سافروا معه ، كمرافقين واتباع ولديهم حكايات عن بطولته وعن المكان المنعزل الغريب الذي كان يختبئ فيه ليلاً ونهاراً . فالعرب ، الذين غالباً ما كانوا يعيشون في تجمعات ، كانوا يشكون في أي شخص يحيط نفسه بالسرية ويعيش بعيداً منفرداً . وبينما كنا نتحدث كان عبد الله يقوم باضافة حب الهال الى القهوة المحمصة لوضعها في المهباج . وقام بعد ذلك بطحنها . وبعد ذلك جاء محمد الدحيلان ، بهدوء وانسل ببطء ثم جلس بجانبي على الارض . وكان محمد رفيقاً انيساً حلو المعشر ، قوياً ،

مفكراً، لديه الكثير من روح الدعابة، قوي البنية ، طويلاً ، عمره ثمانية وثلاثين سنة .

وكان يعتبر الرجل الثاني بعد عودة ابو تايه ، ولديه اتباع اكثر من عودة نفسه، ومتذوقاً اكثر للترف . وكان لديه بيتاً صغيراً في معان ، وارضاً (ويقال بأنه كان فيها قطيعاً) بالقرب من الطفيلة . وبسبب تأثيره ، فان جماعات ابو تايه المقاتلة كانوا يسيرون خلفه هو وعوده وهم يحملون المظلات لحمايتهما من اشعة الشمس الشديدة ومعهم زجاجات المياه المعدينة في جيوب سروجهم ، كشراب منعش اثناء الرحلة ، وكان يعتبر العقل المدبر للمجالس العشائرية ويوجه سياساتها . وكنت أُسر بروح النقد لديه ، وغالباً مااستخدمت ذكائه طامعاً بأن احوله لصفي قبل ان ابلور فكرة جديدة .

ان رفقتنا في المسير الطويل جعلت افكارنا واحساسنا تلتقي سوياً ، وكانت افكارنا يتخللها هدف منطو على خطر ، ليلاً نهاراً ؛ وبوعي او بلا وعي فقد كنا ندرب انفسنا ؛ ونقلص رغبّاتنا وتمنياتنا الى هدف وحيد الذي كان على الاغلب مستحوذ على اللحظات الغريبة للحديث ونحن متحلقين حول نار المساء . وكنا نتسلى هكذا في حين كان صانع القهوة يقوم بغليها ، وقبل ان يصبها للشرب ، جاءت نحونا صلية من الرصاص من صوب الكثبان الرملية الواقعة في الشرق ، فانبطح احد رجال عقيل وزحف للامام وهو يصرخ مذعوراً، حيث اصبح في منتصف النار .

وقام محمد بدفع موجة كبيرة من التراب بقدمة فوق النار التي سرعان ماانطفأت بسرعة واصبحنا في ظلام دامس ، فزحفنا للخلف لنحتمي بالاشجار وتبعثرنا لنصل الى بنادقنا . وكانت لدينا ذخيرة محدودة ، ولانريد آن نبددها . وتوقف العدو عن الرماية تدريجياً ، وربما كان مرتبكاً بسبب استعدادنا . واخيراً توقف تماماً ، واخذنا استعدادنا ، ونحن ننصت استعداداً لمواجهة هجومه من جهة اخرى ، وبعد نصف ساعة ، كنا لانزال مستقلين هادئين . ومن ثم اصبحنا لانصبر على الانتظار مدة اطول . فذهب زعل ليستطلع الامر ، وماذا

حدث بالنسبة للعدو . وبعد نصف ساعة اخرى افادنا بأنه لايوجد احد بالقرب . فقد ركبوا جمالهم وساروا بعيداً ، وكانوا حوالي اثني عشر رجلاً ، حسب خبرته في ذلك .

وبالرغم من تأكيدات زعل ، الا اننا امضينا الليل باضطراب ، وفي الصباح وقبل الفجر قمنا بدفن عساف ، الذي كان اول اصابة لنا ، وتحركنا باتجاه الشمال . وسرنا لمدة خمسة ساعات ومن ثم توقفنا من اجل تناول الافطار على ضفة كبيرة لمجرى سيول تتجه اسفلاً نحو وادي سرحان من الجنوب ـ غرب . وقال لي عودة بانها كانت مصبات لسيل الفجر ، وهو الوادي الذي رأينا رأسه او بدايته عند "صلهوب" ، وسرنا في بطنه مباشرة باتجاه "الحول" . وكان عشب الرعي فيه افضل من الذي في "عرفجة" ، فتركنا جمالنا تسرح لمدة اربع ساعات عند الظهر لتملأ نفسها ـ مع ان الرعي على العشب في منتصف النهار لم يكن مفيداً لها ، ومع ذلك فقد متعنا انفسنا بالاستلقاء تحت ظلال اغطيتنا ، لنعوض بعض النوم الذي فقدناه بالامس . فهنا في هذا المكان الفسيح المفتوح ، بعيداً عن احتمالية الاختباء بالقرب ، لم يكن هناك خوفاً من تعكير صفو امننا ، كما ان قوتنا الظاهرة والثقة يمكن ان تثني اي عدو مرئي على مهاجمتنا ، فقد كان هدفنا ورغبتنا ان نقاتل الاتراك ، وهذا التدخل والهجومات الثانوية من قبل بعض العرب كان يبدد تشوقنا للقتال . واوصلنا سيرنا عند العصر لمسافة اثنتي عشر ميلاً لنصل الى مجموعة من التلال الرملية ، محاطة بمساحات مفتوحة وفسيحة كافية بالنسبة لنا ، وتتحكم بالمنطقة من جميع الجهات ، فتوقفنا هناك ، ونحن نتوقع هجوماً آخراً في الليل .

في صباح اليوم التالي قمنا بمسير سريع لمدة خمس ساعات (وكانت جمالنا مليئة بالنشاط بعد استراحتها بالامس) لنصل الى واحة من اشجار النخيل ، تتخللها الاشجار النحيلة هنا وهناك ، وبها ماء وفير ، وكان مذاقه احلى من ماء بئر عرفجة . ومع ذلك فانه من خلال الخبرة بماء وادي سرحان ، فقد اثبت بأن

الشربة الاولى منه تكون مقبولة ولابأس بها ، ومن ثم يتطور الأمر لتصبح نكهتها كريهة ومذاقها مدمراً يحمل نكهة القهوة ، او الشاي ، او الخبز .

لقد كنا من غير ريب تعبين من وادي سرحان ، ومع ذلك فقد كان كل من نسيب وزكي مازالا يقومان بوضع الخطط والتصاميم لزرع واستصلاح الاراضي هنا (في وادي سرحان) لمصلحة الحكومة العربية عندما يجري انشائها . فمثل هذا التخيل المبالغ فيه كان نموذجياً للسوريين الذين يحثون انفسهم بسهولة لتحقيق الاحتمالات ، ويندفعون للامام بسرعة لوضع مسؤلياتهم الحالية على عاتق الآخرين . قلت له يوماً ، "يازكي ان ناقتك مليئة بالجرب" . فاجاب "واحسرتاه" ، موافقاً على كلامي بحزن ، واضاف "في المساء، وبسرعة جداً عندما تغيب اشعة الشمس ، فاننا سنمسح جلدها برمته بالمرهم" .

واثناء مسيرنا التالي ذكرت داء الجرب مرة ثانية ، فقال زكي "آه لقد منحني فكرة كاملة . فتخليت انشاء دائرة حكومية للبيطرة في سوريا ، عندما تصبح دمشق في ايدينا . فسيكون لدينا كادر كفؤ من الجراحين ، ومدرسة لتخريج الاطباء البيطرين ، ومستشفى او مستشفيات مركزية ، من اجل معالجة الجمال والخيول ، وقطعان الغنم والماعز . وستكون هناك فروع واقسام علمية وجرثومية لاجراء عمليات الابحاث للامراض الحيوانية . وماذا لو كان هناك ايضاً مكتبة تحتوي على كتب متخصصة اجنبية في هذا المضمار ؟ . . . " وتخيل نسيب انشاء اربع مراكز او مديريات عامة للبيطرة في سوريا ، والعديد من الفروع لها .

ومرة ثانية في اليوم التالي كان هناك ذكر للجرب ايضاً . فقد تلاشت الفكرة من رأسيهما ، نسيب وزكي . واخذا يراوغا فانصب غضبي عليها ، وحاولا ان يحولا الحديث حول اقامة مزارع للخيول . وفي اليوم السادس نفقت الناقة المسكينة. وكما اشار زكي ، وهذا صحيح جداً ، لنسيب بقوله : "لانك لم تقم بمسحها بالمرهم" . لقد كان عودة وناصر ، وبقية مجموعتنا نقوم بالعناية بدوابنا بشكل مستمر . فكنا نقوم بازالة الجرب عنها ومعالجتها تماماً من ذلك المرض .

وقدم رجل يركب جملاً نحونا . وساد التوتر للخطة ؛ ولكن مالبث ان رحب به رجال الحويطات . فقد كان واحداً من رعيانهم ، وتبادلوا التحيات معه . وأخبرنا بأن مضارب الحويطات تمتد امامنا ، ابتداءً من العيسوية الى النبك ، وهم ينتظرون ورودنا بفارغ الصبر . وكان كل شيء حسناً بالنسبة لمضاربهم . فزال بذلك قلق عودة ابو تايه وزاد تشوقه لرؤية مضارب ابناء قبيلته . واسرعنا بالمسير لمدة ساعة لنصل الى العيسوية والى مضارب علي ابو فطنة ، شيخ احدى عشائر الحويطات . ورحب بنا الشيخ علي ، المسن والمرتشح العينين ، والاشعث اللحية، بحرارة ، وحثنا على الاستضافة بخيمته ، ولكننا اعتذرنا كثيراً ، واقمنا معسكرنا بالقرب تحت بعض اشجار الزعرور ، في حين قام هو ورجاله الاخرين بتقدير عددنا ، ليقوموا باعداد وليمة لنا في المساء . واستغرق اعداد الطعام لساعات ، وكان الوقت متأخراً في المساء عندما دعونا اليه . فصحوت من نومي، وذهبت وتناولت طعامي ، ومن ثم عدت ادراجي الى حيث كانت جمالنا راقدة ونمت ثانية .

واستمر مسيرنا وطيداً ، فقد وجدنا مضارب الحويطات ، وكان رجالنا في حالة معنوية ممتازة : ولدينا ذهبنا ومتفجراتنا بحالة جيدة ، لذلك فقد عقدنا بسرور في الصباح مجلس عمل . وكان هناك اتفاق على انه يجب ان نقدم اولاً ستة الاف جنية ذهب الى نوري الشعلان . فقد اردنا منه ، ان يمنحنا حرية المكوث هناك لريثما نقوم بتجنيد واعداد مقاتلينا ؛ وعندما نتحرك ونغادر ، اردنا منه ان يعتني بعائلاتهم ومضاربهم وقطعانهم .

وكانت هناك أمور ومهام كبيرة . فقد تقرر ان يقوم عودة ابو تايه نفسه بالمسير الى نوري الشعلان كمبعوث لهذه المهمة ، لانهما كانا اصدقاء ، حيث كان نوري يقيم قريباً جداً من هناك ، كما ان قبيلته كانت كبيرة جداً ، ولايقوى عودة على محاربتها . ووفقاً لذلك ، فان المصلحة الذاتية قد دفعت الرجلان الكبيران لعقد حلف بينهما ، وسيشرح عودة لنوري ماكنا نسعى اليه ، ومن رغبة فيصل بأن يبقي على مظهر عام ، اي بشكل ظاهري ، على التزامه مع تركيا . ليمكنه فقط من تغطيتنا ، ولخداع الاتراك من انه ملتزم بتحالفه معهم .

(٤٦)

كان علينا في غضون ذلك ان نبقى مع علي ابو فطنة ،ثم نتحرك معه ببطء باتجاه الشمال نحو النبك ، حيث سيكون عودة قد ابلغ كافة عشيرة ابو تايه بأن يجمعوا انفسهم ، وسيعود من عند نوري قبل ان نلتحم معهم . فقد كانت هذه هي الخطة ، وقمنا بتحميل جراب سرج ابو عودة بالذهب ، ومن ثم غادرنا ، وبعد ذلك كان شيوخ عشيرة "الفطينة" بانتظارنا ، وقالوا لنا بانهم سيستضيفوننا مرتين في اليوم ، قبل الظهر وعند الغروب ، مادمنا ماكثين عندهم ، وقد عنوا ماقالوا . فضيافة وكرم الحويطات لاحدود لها ، فهم لايتقيدون بثلاثة ايام الضيافة حسب قانون الصحراء .

ففي كل صباح ، مابين الساعة الثامنة والعاشرة ، كانت تأتي الينا مجموعة صغيرة من الخيول ، فنمتطيها انا ، والشريف ناصر ونسيب وزكي ، ونذهب ومعنا عشرة اواكثر من رجالنا يمشون على اقدامهم ، لنصل الى خيمة كانت تعتبر كقاعة طعام لنا . وما ان نصل لهناك حتى تندفع الكلاب نحونا ، فتدفع من قبل المشاهدين من ابناء القبيلة ـ ، فغالباً ما كان يتجمع حشد منهم حول الخيمة المختارة ـ ثم نترجل لنتوجه الي خيمة الضيافة ، التي اعدت بشكل لائق وفرشت بالبسط ، ثم ندخل اليها ونجلس فيها ، ولا يجلس معنا مضيفونا ، وفي خارج الخيمة التي تكون ابوابها او اغطيتها مشرعة للهواء الطلق والغبار ايضاً ، يكون هناك الاطفال وهم يلاحقون الكلاب . وكان الاطفال ثيابهم مهلهلة ، وكلما صغر سنهم كانت ثيابهم اقل ، وهم يحدقون بالجمع الموجود باستغراب .

كما كانوا يلاحقون مضيفينا ، عندما كانوا يعرضون علينا صقراً اليفاً او

كلب صيد . وفي احدي المرات عرض علينا ثور بري ؛ وفي مرة اخرى عرض علينا وعلاً . وعندما كنا نمل من ذلك فانهم كانوا يحاولون ان يلهونا باحاديث صغيرة ، ليحولونا عن جلبة اعداد الطعام ورائحة السمن المغلي وبخار اللحم المغلي لحين تقديم الطعام .

وبعد فترة سكون يأتي المضيف او من يمثله ويهمس بقوله . "اسود ام ابيض؟" وهي دعوة لنا لنختار قهوة أو شاياً ، وكان الشريف ناصر بجيب دوماً "اسود" ، فيقوم خادم بعدئذ بحمل وعاء او مصب القهوة بيد وبيده الاخرى فناجينها ، ثم يصب بضعة قطرات من القهوة في الفنجان ويقدمه لناصر ، ثم يصب فنجاناً آخراً لي والثالث لنسيب ، وبعد ان نشربها وتصبح فارغة بأيدينا ، تمتد يده لأخذها بصورة مجلجلة واحداً أثر الآخر ، ثم يتحول لصب القهوة لضيف اخر حسب طلبه ، وهكذا يدور على الجمع كله لغاية مايشرب الجميع ، ومن ثم يعود الى الشريف ناصر ثانية ، ويكون الفنجان الثاني اكثر نكهة او مذاقاً من الاول ، اما لأن القهوة تتكثف اكثر في المصب ، او لأن تصبح الترسبات في الفناجين اكثر وجوداً بعد كثير من الشاربين السابقين ، في حين تكون الجولة الثالثة والرابعة ، اذا ما تأخر احضار الطعام ، ذات نكهة مدهشة .

ومع ذلك ، في آخر الأمر ، يأتي رجلان من خلال الجمع المحتشد ، وهما يحملان الارز واللحم في وعاء او صينية نحاسية ، يبلغ حجمها خمسة اقدام . وتكون عادة جميع الاوعية او الصواني من نفس الحجم تبعاً لعادات القبيلة ، ويكون منقوش عليها او على حوافها من الخارج بضعة كلمات بالعربية تشير الى شيخ القبيلة عودة ابو تايه . ويكون المضيف الذي يكون دوره في استضافتنا وتكريمنا لذلك اليوم قد استعارها لهذا الغرض . ومن خلال احساسي وتجربتي فانني كنت اعرف اين كنا ستتناول الطعام في ذلك اليوم ، وهم يحملون الاوعية ويتجهون بها . ثم يصبح الوعاء او القدر مليئاً بالارز الابيض بعرض قدم وعمق ستة اقدام ، مملوئاً بقطع لحم الضاني لغاية ماتصبح كوماً مكدسة تشبه الاهرام ، وقد تكون كمية اللحم مكونة من ثلاثة خراف ذبحت من اجل هذا الغرض ،

وتكون قطع اللحم في المنتصف تغلي من كثرة الحرارة كما توضع رؤوس الخراف التي تتدلى السنتها من افواهها على رأس "المنسف" . ويوضع القدر او الوعاء بيننا ، حيث يكون بخار الحرارة يصدر منه ، ثم يقوم رجل بصب السمن والشراب (شراب الجميد) عليها حتى يصبح مغرقاً به ، ويصبح اللحم يسبح فيه ، و يتكرر هذا المشهد مراراً . ويقوم رجل آخر بتقطيع رؤوس الخرفان واخراج محتوياتها لوضعها في كومة بالوعاء ، ثم يصبو عليها الشراب ، لغاية ماتصبح كبحيرة صغيرة ، وتكون تلك آخر مرحلة ، فيقوم بعدها المضيف بالمنادة علينا لنأتي ونتناول الطعام . ونجعل انفسنا وكأننا لم نسمع ، كما تتطلب ذلك العادات ، ويكرر مناداته ، وفي نهاية الامر نسمعه ، وننظر الى بعضنا البعض بدهشة ، وكل واحد منا يحث الآخر على التحرك اولاً ، لغاية ماينهض الشريف ناصر بخجل ، ونتبعه جميعاً لنجلس على ركبة واحدة حول الصينية ، متحلقين حولها ، ثم نقوم بثني اكمامنا اليمين حتى المرفق ، ونبدأ بالأكل بعد الشريف ناصر الذي يقول بصوت خفيض "بسم الله الرحمن الرحيم" . ونغطس ايدينا جميعاً في الوعاء لنأكل ، وتكون غطسة يدي الاولى في الوعاء ، حذرة دوماً ، اذ ان الشراب يكون حاراً جداً ، غير معتادة عليها اصابع يدي ولاتتحملها ، لذلك فقد كنت اداعب قطعة اللحم لابردها . وكنا نقوم بعمل كرات الارز الممزوجة مع السمن والشراب واللحم ، ثم نكورها جيداً ونقذف بها بواسطة اصبعنا الامامي الى افواهنا ، وعندما كانت تصعب علينا قطعة من اللحم (فلا احد في الحقيقة كان يهتم بالارز ، حيث كان اللحم وافراً) ، كان احد شيوخ الحويطات من الذين يتناولون الطعام معنا يقوم بسحب خنجره من غمده الفضي ، ويقوم بتقطيعها وفصلها عن العظام حتى يسهل تفتيتها باليد اليمني ، التي كان يجب ان تستخدم فقط في تناول الطعام ، وكان مضيفنا يقف محيطاً بنا ، وهو يرحب بنا ويحثنا على الاكل بصوت عال . وكنا نحن منشغلين بتقطيع اللحم والتهامه بسرعة ، ولانتحدث مطلقاً ، حيث ان المحادثة ستهين من وقار الطعام ، ومع ذلك فقد كان الواحد يشكر الآخر بابتسامة عندما يقذف اليه بقطعة

من اللحم المختار ، ثم بعد ذلك نبدأ بالشبع تدريجياً لغاية مانتوقف عن الاكل جميعاً ، وتكون ايدينا على حافة الوعاء ، والسمن والشراب يتقطر منها وحبات الارز تتخلل اصابعنا . عندها كان الشريف ناصر يتنحنح بصورة ذات معنى ، فننهض جميعاً سوية . ونحن نقول بعجلة لمضيفنا "بارك الله فيك" ، لنجتمع خارج الخيمة . في حين كان يذهب بعضنا الى اقصى زاوية للخيمة ويقوموا بمسح ايديهم بطرف الخيمة المصنوع قماشها من شعر الماعز ، ليزيلوا عنها بعض الدهن والسمن . ومن ثم نعود لنجلس في اماكننا ، في حين يأتي بعض الخدم بوعاء فيه ماء ، ومعه دلة فارغه للقهوة لتستخدم كمصب ، ويقوم بصب الماء على اصابعنا ، في حين نقوم بفركها وغسلها بالصابون .

في غضون ذلك يكون هناك آخرون قد جاء دورهم لتناول الطعام كمجموعة ثانية وثالثة ، ويكون هناك فنجاناً آخراً من القهوة بعد الطعام ، او كوباً من الشاي ، ثم يؤتى بالجياد اخيراً ، فنتجه اليها لنمتطيها ، ونمضي بها ونحن نبارك ونشكر مضيفينا . وما ان نمضي حتى يسرع الاطفال ليطبقوا على ما تبقى في سدر الطعام ، وهم يتخاطفون قطع العظم المحتوية على بعض اللحم ، ليفروا بها بعيداً ويأكلوها بأمان خلف بعض الاشجار ، في حين تكون كلاب الحراسة تحوم حول خيمة الضيافة ، فيقوم صاحبها بالقاء ما تيسر منها لمن يريد من الكلاب .

(٤٧)

لقد أُستضفنا في اليوم الاول لمرة واحدة ، وفي اليوم الثاني مرتين وفي اليوم الثالث مرتين ، في العيسوية . ومن ثم في الثلاثين من آيار ، ركبنا جمالنا وسرنا بسهولة لمدة ثلاث ساعات ، مجتازين حقل رملي حممي الى واد يوجد به ابار تنتشر من حولنا ، واقمنا هناك مخيماً لنا ، ولحقنا الى هناك جماعة عودة ابو تايه ليقيموا خيامهم هناك ايضاً ، ويحيطون بنا بخيامهم .

انها كانت منطقة لاتشبه الصحراء بشكل غريب . فقد كانت الاشجار تتمايل طيلة النهار مثل السراب مع تحركات الرجال على اقدامهم ؛ والفرسان ، والرجال على جمالهم ، والجمال وهي تحمل حمولاتها من بيوت الشعر السوداء ، والجمال وهي تتمايل ، مثل الفراشات وهي تحمل هوادج النساء . فلم يكن هناك نظام ولاتحكم او سيطرة بالمسير ، فكل شيء كان على هواه ، فلا ضبط ولانظام ولاسير متزامن للجماعات المرتحلة .

وكان السير سهلاً ، ونحن الذين كنا نحرص على انفسنا طيلة الاسابيع الماضية وجدنا انفسنا نشعر بأمان واسترخاء ولم يعد هناك شيئاً يقلقنا . الا انه كانت هناك مشكلة الافاعي ، التي رافقتنا في رحلتنا منذ اليوم الاول الذي دخلنا فيه الى وادي سرحان حتى ذلك اليوم ، واصبحت تشكل رعباً بالنسبة لنا . وقال العرب ، انه في الاوقات العادية ، فان هناك افاعي خطرة مثل الكوبرا والافاعي السوداء . ففي الليل كان التحرك خطراً : فوجدنا اخيراً انه من الضروري ان نمشي وبأيدينا عصي ، نضرب ونزيح بها الشجيرات عندما نريد ان نجتازها ونحن

حافيي الاقدام ، ولم يكن بامكاننا ان نسحب الماء من الحفر بعد حلول الظلام ، حيث انه تكون هناك افاعي تسبح في حفر المياه هذه او تكون راكدة في جوفها ، وقد داهمتنا هذه الافاعي مرتين عندما كنا متحلقين لنشرب القهوة . وقامت بلسع بعض رجالنا ، فمات ثلاثة منهم ، وشفي اربعة بعد ان عانوا كثيراً من الالام والخوف من التسمم ، وكان علاج الحويطات الوحيد في هذا المضمار هو ربط الجزء الملسوع وشده بجلد الافعى ، وقراءة سور من القرآن للمصاب الخطر لغاية ما يشفى او يموت .

كانت هناك عادة غريبة بهذه الافاعي ، ففي الليل تتمد بجانبنا ، فربما كانت تريد الدفء ، سواء تحت او على الغطآء . وعندما كنا نشعر بذلك فان نهوضنا كان يجب ان يكون بعناية كبيرة لامحدودة ، ثم نقوم بضربها بالعصي حتى نقضي عليها . فقد قام رجالنا الذين كان عددهم خمسين بقتل حوالي عشرين افعى يومياً ؛ واخيراً فقد أثر ذلك على اعصابنا حيث ان معظمنا كان يخشى ملامسة الارض ؛ في حين ان اولئك الاشخاص الذين كانوا مثلي قد اصابهم الذعر تماماً وقرروا ان مكوثنا في وادي سرحان ينبغي ان ينتهي .

ولم يكن هذا مناسباً لفراج وداود . فبالنسبة لهما فقد كانت تلك لعبة جديدة رائعة ، اذ كانا يقومان بازعاجنا واخافتنا وتحذيرنا بصورة مستمرة ، وكانا يقومان بضرب أي غصن أو أي شئ على الارض ليتظاهروا بانه كان افعى ، واخيراً حذرتهما بشدة بأن لايقوما بالصراخ بأن هناك افعى ثانية . وجلسا بعد ذلك هادئين ، الا انه بعد ذلك لاحظت ان اولئك الشابين كانا يتظاهران ويبتسما ويوميء احدهما للآخر . فتتبعت نظراتهما التي انصبت على شجيرة مجاورة كان يوجد تحتها افعى بنية اللون ملتفة وهي تحدق بي .

وتحركت بسرعة ، وناديت على علي الذي قفز على الفور وقضى عليها بعصاه. وقلت له بأن يقوم بتأديب هذين الولدين بضرب كل واحد منها ستة ضربات ، ليعلمها بأن لايسخرا على حسابي ثانية . وكان ناصر قد اصبح خلفي وسمع ماقلته فصرخ بفرح بأن يضاف لهما سته ضربات اخرى لحسابه . ثم تبعه

نسيب ، ومن ثم زكي ، ثم ابن دغيثير ، لغاية ما اصبح نصف الرجال يطالبون بالثأر منهما . واصبح الاثنان مذعورين عندما ادركا ان ذلك سيكلفها غالياً ، ومع ذلك فقد انقذتهما من كل ذلك ، وبدلاً من ضربهما اعلنا باننا سنقوم بتأديبهما معنوياً ، فجعلناهما تحت امره النساء ليقوما بجمع الحطب وجلب المياه الى الخيام .

لذلك فقد قاما بالعمل بخجل ليومين آخرين قضيناهما في وادي ابو الطرفيات ؛ حيث استضفنا هناك مرتين في اليوم من قبل الحويطات ، ومن ثم اصبح نسيب مريضاً ووجد ملجأ له في خيمة الشريف ناصر ، واقتصر اكله على الخبز الجاف . وكان زكي قد اصابة المرض اثناء المسير في الطريق ، فقد انهكة طعام الحويطات المكون من اللحم المشبع بالدهن والارز الدسم ، الذي كان اول تجربه له . وهو ايضاً استلقى داخل الخيمة وهو مصاب بالغثيان والدسنتاريا . اما الشريف ناصر فقد كانت معدته معتادة على الطعام القبلي . وشكل هذا ارباكاً له ، من اجل نيل شرف اكبر ، فقد كان يجبرني دوماً على الذهاب معه . لذلك فقد كنا نحن القائدان نمثل المعسكر كل يوم تقام فيه وليمة لنا .

وبالطبع فقد كان هذا الامر رتيباً ، الان ان ذلك كان يمثل سعادة لمضيفينا ويعود بالرضا علينا ، وبالانقطاع عنه فانه يعتبر جرماً . فاكسفورد ، بالنسبة لي ، والمدينة بالنسبة لناصر ، حاولتا ان تعالجا ناصر وانا من اذى الاوهام والخرفات ؛ وقد عقدتانا الى درجة اكتسابنا للبساطة . فهولاء الناس (الحويطات) كانوا ينجزون طموحاً بدوياً ، بذبحهم وطبخهم للخراف لأقامة الولائم . في حين كان عالمي يتركز بالانعزال ، والجلوس على كرسي وثير لأقرأ في كتاب .

لقد كنا قلقين جداً من وجودنا في وادي سرحان ، وكانت مناظره الطبيعية مخيبة وحزينة لكافة السهول الصحراوية المنبسطة التي اجتزناها . فالرمال وحجارة الصوان ، او الصخور الصحرواية كان منظرها مثير في بعض الاحيان ،

الا انه كان فيها شيئاً فاسداً وشريراً بشكل نشط يتمثل في ثعابين وادي سرحان ، الذي يكتنفه الماء المالح ، واشجار النخيل الجرداء ، واجمات الشجيرات التي لاتنفع سواء للرعي او حطباً لا للنار .

وبناء على ذلك ، فقد سرنا في يوم آخر ، حتى الى ماوراء وادي "الغوطي" الذي كان يحتوي على بئر ضعيف بالماء حلو تقريباً . وعندما وصلنا بالقرب من "العجيلاً" ، رأينا بانه محتل بخيام كثيرة ، فقد قدمت قوات مؤخراً لتنضم ا لينا . حيث كانوا من جماعة عودة ابو تايه ، ومدعومين من قبل نوري الشعلان ، وكان يقودهم درزي ابن دغمي ، وهو ضيفنا القديم في الوجه . ووجوده كان يعبر عن رضا نوري الشعلان ، وقام بالترحيب بنا في بيت نوري الفارغ ، والقيام باستعراض كبير لاطلاق النار من البنادق والمسدسات ورمي الرماح .

كان ذلك البيت او القصر المتواضع له حديقة من اشجار النخيل المثمرة ، محيطة به ، واقيمت بجانب الحديقة خيمة فراتية ذات شادر ابيض . وكانت هناك ايضاً خيمة عودة ابو تايه ، التي كانت خيمة كبيرة ، لها سبعة اعمدة طولاً وثلاثة اعمدة عرضاً ؛ واقيمت بجانبها خيمة زعل ، وخيام اخرى كثيرة . وخلال العصر فقد تلقينا الكرم والتقدير ، والهدايا المتنوعة ، سواء كانت من بيض النعام او الحلويات الدمشقية اللذيذة ، او الجمال ، او الخيول ؛ في حين كان الجو مليئاً باصوات ونداءات مجندي ومتطوعي عودة ابو تايه وهم يطالبون بالخدمة الفورية لمحاربة الاتراك .

وبدت الامور جيدة ، وكلفنا ثلاثة رجال ليقوموا باعدادا القهوة لضيوفنا ، الذين كانوا يأتون فراداً او جماعات ، ليقدموا قسم الولاء لفيصل المتواجد في الوجه وللثورة العربية . وهم يعدون بأن يطيعوا الشريف ناصر ، وأن يتبعوه بفرقهم او مجموعاتهم العسكرية . وما ان حل المساء حتى كنت انا وناصر منهوكي القوى من مقابلة تلك الوفود .

(٤٨)

كانت النبك المحطة الثانية لتوقفنا ، وافرة المياه ، وبها بعض مروج الرعي ، وقد جعلها عودة ابو تايه كمكان لحشدنا ، بسبب قربها الملائم لمنطقة "البلدات" ، او "القرى المالحة" . ومكث فيها هو والشريف ناصر لعدة ايام ، ليقوما بعملية تجنيد الرجال ، ولتعيين وتحديد الطريق التي سنسير عليها ، لدنوها من مناطق القبائل والشيوخ الذين يعيشون ويقيمون بالقرب منها . وكان هناك مزيداً من وقت الفراغ بالنسبة لي ، ولنسيب ولزكي ، لنتناقش في بعض القضايا . وكالعادة كان هناك الحكم او الرأي السوري الغير مستقر ، الغير قادر على ان يتكون او يتحدد في نقطة ضيقة ،والمتأرجح بالنسبة للظروف ، فعلى رأس كل شئ ، فقد كانا يجهلان العقبة بالرغم من الهدف الرئيس الذي قادنا الى هناك . وكان نسيب يعرف عشائر الشعلان والدروز ، ويتجه فكره لتجنيدهم وليس تجنيد الحويطات ، والهجوم على درعا وليس على معان ، ثم احتلال دمشق ، وليس العقبة ، فقد اشار بين الاتراك كانوا غير مستعدين تماماً هناك ، فنكون متأكدين من تحقيق هدفنا الاول ، وذلك بالهجوم المباغت ، وبذلك يجب ان يكون هدفنا اعلى من ذلك . فاشرت له بأن فيصل لايزال موجوداً في الوجه ، وان البريطانيين لايزالون يتواجدون في غزة ، المكان الخطأ لوجودهم . وأشرت الى زحف جيش تركي جديد من حلب الى العراق . وبينت له كم سنكون غير مدعومين في دمشق ، دون وجود مصادر او تنظيم ، ودون وجود قاعدة ؛ وحتى وجود خط للاتصالات مع اصدقائنا . الا ان نسيب تخطى العوائق الجغرافية

والتكتيكات ، والوسائل الشحيحة فقط هي التي جذبته . وهكذا كان يفترض ان اذهب الى عوده واطلعه على الهدف الجديد ، كما يريده نسيب ، بأن تذهب كافة الاموال والمهام الى نوري الشعلان ، وليس اليه هو . وان اذهب الى الشريف ناصر ، واستخدم نفوذي لديه ليؤيدني في خطتي ، ولأُشعل الغيرة السهلة بين الشريف ودمشق ؛ وبين الشيعة والسنة .

فالبنسبة لتحركنا ، فقد كانت مسألة حياة او موت ، فقد كنت متأكداً باننا لو استولينا على دمشق فاننا لن نحتفظ بها لاكثر من ستة اسابيع ، حيث ان مواري لايمكنه ان يهاجم الاتراك بصورة مستمرة ، كما انه لاتوجد وسائل نقل بحرية ، وعليه فاننا سنفقد داعمينا ومساندينا (الذين ستكون ثورتهم وهبتهم الاولى مفيدة لنا)، ودون ان نستولي على العقبة ، التي كانت آخر قاعدة بحرية آمنة للاتراك . وفي حكمي ورأي فانها كانت تشكل الباب الوحيد ، باستثناء منطقة الفرات الوسطى ، التي لايمكن بدونها الدخول الى سوريا بنجاح .

لقد كان للعقبة قيمة ووضعاً خاصاً للاتراك ، فمن الممكن ان تشكل تهديداً للجناح الايمن للجيش البريطاني . ففي نهاية عام ١٩١٤ اعتقدت القيادة العليا التركية ان تجعل منها طريقاً رئيسياً للوصول الى قناة السويس ، الا انهم وجدوا ان هناك صعوبات جمة تكمن في نقل الطعام والمياه ، لذلك فقد تبنوا اتباع طريق بئر السبع ، ومع ذلك الآن فقد ترك البريطانيون مواقعهم في منطقة القناة واندفعوا قدماً الى غزة وبئر السبع . وهذا جعل امكانية تموين الجيش التركي اسهل وذلك بتقصير خطهم او طريقهم . وبالتالي ، فان لدى الاتراك فائض من وسائل النقل . كما كان للعقبة ايضاً قيمة جغرافية اكبر عما كانت عنه في الماضي ، حيث انها تقع الآن خلف الخطوط البريطانية مباشرة ، وقوة عسكرية صغيرة تقوم بالعمل منها ، يمكنها ان تهدد بشكل فعال اما العريش او السويس .

ان العرب كانوا بحاجة للاستيلاد على العقبة للاسباب التالية ؛ اولاً لتوسيع جبهتهم ، الامر الذي كان عبارة عن مبدأ تكتيكي بالنسبة لهم . وثانياً، للاتصال والالتحام مع القوات البريطانية ، واذا ما استولوا عليها ، فسيضمنون

الوصول الى سيناء ، ويقومون بربط ايجابي بينهم وبين السير ارشيبالد موراي . وهكذا فانهم سيصبحون في وضع يمكنهماالحصول فيه على مساعدة مادية ، كما يثبت لهيئة اركان مواري من خلال نجاحنا في ذلك عن أهميتها ، فقد كان مواري ودوداً معنا ، ولكن اذا ما اصبحنا نشكل جناحه الايمن فانه سيقوم بتجهيزنا تماماً، ودون سؤال تقريباً . ووفقاً لذلك فبالنسبة للعرب فان العقبة يمكن من خلالها المؤن ،المال ، المدافع ، والمستشارين . وقد اردت الاتصال مع البريطانيين ؛ لنقوم بدور او نكون الجناح الايمن لقوات الحلفاء في الاستيلاء على فلسطين وسوريا ، ولنؤكد رغبة الشعوب العربية في الحرية والاستقلال الذاتي . ومن وجهة نظري ، اذا لم تقم الثورة العربية بخوض معركة رئسية ضد الاتراك ، فانه سيكون ذلك اعترافاً بالفشل ، وتظل عبارة عن قوة استعراض جانبية ، فقد أبديت ذلك للامير فيصل عند اول لقاء بيننا ، بأن الحرية تؤخذ ولاتُعطى .

ولحسن الحظ ، فان كل من الشريف ناصر وعودة ابو تايه استجابا لنصيحتي ، وبعد توجيه اتهامات مضادة ، فقد غادرنا كل من نسيب وزكي متوجهين الى جبل الدروز (العرب) ، حيث كانا سيقومان هناك بعمل تمهيدي لشن هجوم ضد دمشق ، حسب خطة نسيب . وكنت اعرف عدم مقدرته من القيام بذلك ؛ الا انني لم اكن اسمح لأحد ما بأن يفسد او يسيء استخدام اموالنا ، التي سنستخدمها مستقبلاً . لذلك فقد طلبت من نسيب قبل ان يغادر بأن يرجع معظم المال الذي تسلمناه من فيصل وتقاسمناه في الطريق . الا ان ذلك الغبي حاول ان يقوم بلعبة قذره معي ،حيث قال بأنه يعد بأعطائي المزيد اذا ماساعدته مستقبلاً على اقامة دولة مستقلة في سوريا . ولم اشأ بأن ادعوه بالفأر، لانني اعرف بانه لايستطع فعل أي شئ ، ومع ذلك خدعته ووعدته بأن اقدم له يد المساعدة مستقبلاً ، اذا ما وافق حالياً بأن يعطيني المال ، لنستطيع الوصول الى العقبة ، اذ اننا كنا نحتاج اليه من اجل النفقات العامة . فاستسلم لشرطي مرغماً، وكان الشريف ناصر مسروراً لحصوله على كيسان من المال الغير متوقع .

ومع ذلك فان تفاؤل نسيب كان له تأثيراً علي ؛ ففي حين كنت لاازال أرى ان تحرير سوريا يمكن ان يحدث على خطوات والتي تكون العقبة الخطوة الاولى التي لا غنى عنها ، فقد رأيت الآن ان هذه الخطوات تأتي لتنضم سوية ، وشعرت انه بالقاء نظرة اخرى على موقع سوريا الاستراتيجي من خلال دراستي السابقة للغزو الصليبي والفتح العربي الاسلامي قديماً ، وربطت ذلك حديثاً بعاملين جديدين - وجود السكة الحديد ، ووجوود مواري في سيناء . كما ان المغامرة الطائشة كانت تناسب مزاجي المخذول ، وكنت ساكون مسروراً لو تحقق ذلك ، الا ان معرفتي بخبايا الامور قد حطمت كافة آمالي وتفاؤلاتي .

فقد كانت هناك وعود من قبل الحكومة البريطانية ، ممثلة بالسير هنري مكماهون للشريف حسين ، بأن تقوم بتأييد انشاء حكومات وطنية محلية في سوريا والعراق ، الا انه كان هناك اتفاق سري مابين انجلترا وفرنسا على وضع بعض من هذه المناطق ضمن نفوذها ، ووضع ماتبقي من سوريا والعراق تحت الانتداب . ووصلت الاشاعات الى اسماع العرب ، من خلال تركيا . ففي الشرق فان الاشخاص يوثق بهم اكثر من المؤسسات . لذلك فان العرب ارادوا ان يختبروا صداقتي واخلاصي ويضعونها تحت المحك ، فطلبوا مني بصفتي عميل حر ، بأن اسعى لتحقيق الوعود البريطانية . ولم يكن لدي أي معرفة او علم مسبق بتعهدات مكماهون ومعاهدة سايكس - بيكو ، التي صيغت خلال الحرب في اروقة وزارة الخارجية البريطانية . بيد انني لم اكن غبياً تماماً ، فقد امكنني ان ارى بأنه اذا ماكسبنا الحرب فان كافة الوعود للعرب ستكون حبراً على ورق . ولوكنت مستشاراً مخلصاً فلكان علي ان ارسل رجالي الى بيوتهم ، ولا ادعهم يخاطرون بحياتهم . ومع ذلك فان الطموحات والتطلعات العربية كانت تمثل اداتنا الرئيسة في كسب الحرب على الجبهة الشرقية . ومع ذلك فقد اكدت لهم (العرب) بأن بريطانيا ستحافظ على وعودها نصاً وروحاً . وعليه فقد ارتاحوا لذلك وقاموا باداء جهد كبير ، ولكن ، طبعاً ، فبدلاً من ان نكون فخورين معاً بما قمنا به ، فقد كنت خجلاً من نفسي بشكل مستمر ومرير .

وتوضح لي جانب من وضعي ذات ليلة ، عندما احضر لي الشيخ نوري الشعلان ملفاً يحتوي على وثائق كان يحتفظ بها في خيمته ، وسألني أي من التعهدات البريطانية يجب ان نصدق . فمن خلال نبرته ، منتظراً جوابي ، كان يكمن نجاح أو فشل الثورة . وكانت اجابتي او نصيحتي ، مع ما كان يتملكني من اسي فكري ، بأن يثقوا بالوعود البريطانية بالرغم من التناقضات التي تشوبها . فهذه الاجابة الخادعة ، قد رقتني ورافقتني ، خلال ستة اشهر ، لأكون الرجل الموثوق الرئيس . لذلك فقد اصبحت مسؤولاً عما سيحدث فيما بعد ، من تطورات ومتغيرات .

وكردة فعل على ذلك ، فقد اخذت عهداً على نفسي بأن اجعل عجلة او محرك الثورة يسير نحو النجاح العسكري اولاً ، ومن ثم فيما بعد يمكن كسب المعركةالسياسة في مجلس النواب البريطاني (الا انه تكشف ذلك فيما بعد ، في عام ١٩٢١ ، بعد ان اعلن ونستون تشرشل عن تسوية وضع الشرق الاوسط ، واعلن ان وعودنا يمكن ان تنفذ نصاً وروحاً من الناحية الانسانية ، لكن من دون التضحية بأي مصلحة من مصالح الامبراطرية البريطانية أو أية مصلحة من مصالح الشعوب المعنية ، لذلك فقد خرجنا من مغامرة الحرب الشرقية ، بايد نظيفة ، ولكن بعد ثلاث سنوات اخرى لنجني العرفان بالجميل ، التي دفعت ثمنه الشعوب) .

وبوضوح فانه لم يكن لدي نفوذاً او ظلالاً لأُجنب العرب من مقامرة غير معروفة . فيجب علينا بشكل محتوم ان نجني المرارة ، وثمرة المحاولة البطولية المؤسفة . لذلك ومع استيائي من مكاني المزيف ، فقد تحملت هذا لمدة طويلة ؛ وقمت بالمسير الخطر لنرى ونقابل المزيد من اصدقاء فيصل السريين ، ولدراسة وفحص مواقعنا للحملات العسكرية القادمة : ولكن النتائج كانت متساوية مع اخطارها ، وان العمل من الناحية الفنية لم يكن مبرراً ، مثل الدافع او الحافز . وكان علي ا ن اهمس لنفسي "دعني اعطها فرصة ، الآن ، قبل ان نبدأ" ، متيقناً بحق بانها كانت آخر فرصة ، وانه بعد نجاح الاستيلاء على العقبة ، فانني لن

اطلق العنان لنفسي ، فقد وقع على كاهلي المسؤولية والقيادة ، فشعرت بأن علي ان املء مركزي .

عندما رجعت ، كان يصادف السادس عشر من حزيران ، وكان ناصر لا يزال يعمل في خيمته ، وقد اظهر هو وعودة ابو تايه بانهما كانا على وفاق . وكنا نحن نقف عندما يدخل عودة الى مجلسنا ؛ وهذا ليس احتراماً لمشيخته ، حيث اننا كنا نظل جلوساً عندما يدخل او نستقبل شيوخاً اكبر سناً واقدم منزلة ورتبة ؛ وانما كنا نقف لانه كان هناك عودة ، فعودة ابو تايه كان يمثل شيئاً رائعاً ، فقد احبه الجميع ، وكل واحد كان يعرف حقيقة اننا كنا اصدقائه في الحقيقة .

كان مضى على خروجنا من الوجه خمسة اسابيع ، وقد انفقنا تقريباً كافة المال الذي جلبناه معنا ؛ واكلنا جميع خراف الحويطات ، وقد ارحنا او استبدلنا كافة جمالنا القديمة ، فلا شيء بقي لنا من بدء مسيرنا . فقوة ونشاط المغامرة المتيسرة قد عزانا بكل شيء ؛ فقام عودة بجلب وشراء المزيد من الاغنام ، واقام وليمة وداعية اعظم وليمة من كل ماسبق ، في خيمته الضخمة عشية مغادرتنا ومتابعتنا للمسير . وحضرها المئات من الرجال ، وقاموا بالتهام العديد من الخراف المطبوخة بسرعة كالسرعة التي طبخت فيها وجلبت فيها الينا .

وجاء المساء بشفقه الاحمر الممتع ، وبعد الوليمة تحلقنا خارجاً حول موقد القهوة نتسامر تحت ضوء النجوم ، في حين كان عودة وآخرون يقومون بسرد القصص علينا . وتذكرت في عصر ذلك اليوم عندما ذهبت لابحث عن محمد الدحيلان في خيمته ، لاشكره على اعطائي الناقة الحلوب ، الا انني لم اجده هناك . عندما صاح عودة بفرح ، لغاية مانظر الجميع اليه ، وانصتوا لما سيقوله من نكتة ، حيث اشار الى محمد الدحيلان الذي كان يجلس بكئابة بجانب هاون (مهباج) القهوة ، وقال بصوته الجهوري ، "هل لي ان اخبركم لماذا لم ينم محمد في خيمته لخمسة عشرة يوماً مضت؟" عندئذ انصت الجميع بفضول ، وتوقفوا عن الحديث ؛ وانشد الجميع لسماع ما سيقوله ، مستعدين سماع نفس القصة التي ربما سمعوها عشرين مرة ، حتى زوجات عودة الثلاث ، ومعهن زوجة

زعل، وبعض زوجات محمد الدحيلان ، اللواتي كن يقمن بالطبخ ، قدمن جميعهن لغاية ماأصبحن بالقرب من ستارة الخيمة وهناك انصتن مثل الآخرين ، في حين قام عودة بالسرد مطولاً كيف ان محمد قد اشترى من سوق الوجه عقداً ثميناً من اللؤلؤ ، وانه لم يقم باهدائه لأي من زوجاته ، لذلك فقد كن على شجار معه ، ورفضنه بشكل جماعي ، واستنجد محمد دحيلان بي بأن اتدخل وانجده من هذه الورطة ، وان اشهد بأن عودة كان يكذب . فتنحنحت بوقار . في حين توسل الي عودة ، بعد ان طلب من الجميع التزام الهدوء ، بأن أؤكد كلامه .

وبدأت الحديث بشكل رسمي قائلاً : "بسم الله الرحمن الرحيم ، لقد كنا ستة اشخاص في الوجه ، عودة ومحمد ، وزعل ، وجاسم الشمط ، ومفضي وانا العبد الفقير ؛ وفي احدى الليالي قبل الفجر ، قال عودة لنا ، "دعونا نشن غارة على السوق . فقلنا له ، "بسم الله" . وذهبنا الى هناك ؛ وكان عودة يرتدي ثوباً ابيضاً وكوفية حمراء ، وقاسم ينتعل صندلاً من الجلد ؛ ومحمد يرتدي معطفاً حريرياً وهو عاري القدمين ، وزعل . . . نسيت ما كان يرتدي . وجاسم كان يرتدي ملابس قطنية ، ومفضي كان يرتدي ثوباً من الحرير مع كوفية مطرزة . وخادمكم (انا) كان يلبس كما هو الآن " .

ووسط اندهاش الجميع ، قمت بتقليد حركات واسلوب عودة في الكلام مستخدماً التلويح بيدي وتقليد صوته من حيث الانخفاض والارتفاع في نبراته ، عند تأكيد نقاط معينة في الكلام ، او ما كان يظن بأنها نقاط معينة ، في سرد قصصه التي لامعنى لها . وكان الحويطات ينصتون جالسين وهم يتلوون باجسادهم ويحدقون بشرة في عودة ؛ حيث ان التقليد والمحاكاة كان يعتبر شيئاً جديداً بالنسبة لهم وله . حتى ان صانع القهوة ، مفضي قد انشده بالمنظر ونسي ان يضيف قشاً جديداً لموقد نار القهوة . ورويت كيف اننا غادرنا الخيام ، مع قائمة من ساكني الخيام ، وكيف مشينا اسفلاً باتجاه القرية ، واصفاً كل جمل وفرس رأيناه ، وجميع المارة ، والجبال والتلال ، وجميع اماكن الرعي ، حيث

«بالله» ان كافة المنطقة كانت جرداء . وسرنا ، وبعد ان سرنا مسافة تدخين سيجارة ، سمعنا شيئاً ما ، وتوقف عودة وقال "يارجال ، انني اسمع شيئاً" . وتوقفنا ، وقال محمد ، "يارجال ، انني اسمع شيئاً" . وقال زعل ، "بالله انكما على حق" . وتقفنا لنستمع ، ولم يكن هناك شيئاً ، وقال الرجل المسكين ، "بالله ، انني لا اسمع شيئاً . وقال زعل ، "بالله انني اسمع شيئاً" . وقال محمد ، "بالله ، انني لااسمع شيئاً ، وقال عودة "بالله ، انكما على حق" .

وسرنا وسرنا ، وكانت الارض جرادء ، ولم نسمع شيئاً ، وقدم رجل عن يميننا ، كان عبداً يركب حماراً . وكان لون الحمار رمادياً ، وذو اذنتين سوداوتين ، وقدم واحدة سوداء ، وكان على كتفه وشمة صغيرة ، وكان ذنبه يتحرك وايضاً اقدامه . ورآه عودة ، وقال ، "بالله انه حمار" . وقال محمد ، "بالله تماماً ، انه حمار وعليه عبد" . وسرنا الى مرتفع وكان اجرداً . فتلك الارض كانت جرداء ، جرداء .

وسرنا ووصلنا الى مرتفع وصعدنا اليه ، انه كان اجرداً ، فكافة تلك الارض كانت جرداء . وصعدنا ذلك المرتفع ، واصبحنا على قمته ، "بالله ، بالله ، بالله تماماً ، فقد كانت الشمس تشرق فوقنا" .

وانتهت الجولة فكل واحد قد سمع كلمة "ان الشمس تشرق" عشرين مرة . فقد كنت اكرر العبارات مرات ومرات وبشكل مبالغ فيه الى درجة مشابهة لحكايات عودة . فغرق كافة ابناء العشيرة في موجات من الضحك المتواصل . وضحك عودة بأعلى صوت ولمدة اطول ، حيث انه احب اطلاق النكت عليه ؛ واظهرت له روايتي السخيفة اسلوبه وتصرفه في الحديث . فقام واحتضن محمد الدحيلان ، واعترف باختراعه لقصة القلادة . وتعبيراً عن امتنانه لذلك فقد قام محمد بدعوة فريقنا او مجموعتنا لتناول الافطار في الغد في خيمته ، قبل ساعة من بدءنا المسير نحو العقبة . وقد تناولنا فطوراً ممتازاً في الغد صنعته زوجات محمد . وبعد ذلك جلسنا امام سور بيت نوري الشعلان ، ونحن نشاهد النساء وهن يقمن بانزال خيمة ، كانت اكبر من خيمة عودة ابو تايه ، في طولها

وعرضها ، مثل بقية امتعة محمد الدحيلان . فقد كانت عشيرة ابو تايه تقوم باعادة ترتيب مضاربها وخيامها ، من اجل امنهم وسلامتهم عندما يكون الرجال المقاتلين بعيدين عنهم ، فخلال فترة العصر كانت الخيام غيرت مواقعها واقيمت بالقرب من خيامنا .

(٤٩)

بدأنا المسير قبل ساعة من الظهر . وقادنا الشريف ناصر ، حيث كان يعتلي ناقته غزالة ، وكانت من افضل نياق الحويطات ، وكان يسير الى جانبه عودة ابو تايه . وكنت انا اخب على ناقتي ، التي كانت كالنعامة ، سريعة السير وقد اشتريتها مؤخراً . وكان يسير ورائي فتيان عقيل ، ومعهما محمد ، الاخرق . ومحمد كان مصحوباً هذه المرة مع احمد ، وهو فلاح آخر ، كان يعيش بين الحويطات منذ ستة سنوات بقوة عضلاته وفطنته .

وبعد تحرك ستين قدماً خرجنا من وادي سرحان الى اول مصطبة من ارض الصوان ، وهي منطقة ارضها من حجارة الصوان فوق طبقة من الحجارة الكلسية الصلبة ليست قاسية جداً ، وانما صلبة تماماً في الممرات ، حيث جعلها مسير الجمال عبر العصور وكأنها مرصوفة . وكان هدفنا الوصول الى منطقة " البير " ، وهي مجموعة من الاطلال التاريخية لآبار غسانية ، قائمة في الصحراء ، تبعد من حوالي ثلاثين الى اربعين ميلاً الى الشرق من خط السكة الحديد ، كانت تقع على بعد حوالي ستين ميلاً للامام ، وهناك سنقيم معسكرنا لبضعة ايام ، لحينما يذهب كشافتنا ليحضروا لنا طحيناً من القرى الجبلية الواقعة في اعلى منطقة البحر الميت . فمؤنتنا التي احضرناها معنا من الوجه قد اوشكت على النفاذ (ما عدا بعض الارز الذي كان مايزال يحتفظ به الشريف ناصر للمناسبات الكبيرة) ، ولم نكن بعد يمكننا ان نتنبأ بشكل اكيد عن موعد وصولنا للعقبة .

لقد تجاوز عدد رجالنا آنذاك اكثر من خمسمائة من الرجال الاقوياء ؛ وكان

منظر ذلك الحشد رائعاً ، حيث كان يقوم البعض منهم بملاحقة وصيد الغزلان على ارض الصحراء . وفي المساء اقمنا وليمة وجاء شيوخ الحويطات ليتناولوا العشاء معنا . وبعد ذلك تحلقنا حول موقد القهوة لندفء انفسنا من بروة تلك المنطقة ، وجلسنا على البسط نتسامر . واستلقى الشريف ناصر على ظهره ، ووضع منظاري على عينيه ، وبدأ بتمعن النجوم ، وقام بعد مجموعاتها بصوت عال ؛ وكان يصرخ عندما يكتشف اضواء صغيرة لم يكن ليلاحظها بعينتيه المجرّدتين . وتحول عودة بنا بالحديث عن التلسكوبات والمناظير - الضخمة منها ، وكيف ان الانسان خلال ثلاثمائة سنة قد تقدم بشكل كبير في هذا المضمار واستطاع ان يخترع مناظير كبيرة بحجم الخيام ، يمكنه من خلالها ان يقوم برصد الاف النجوم الغير مرئية . وتساءل "ولكن ماهي النجوم ؟" ثم تحولنا للحديث عن الشمس وماوراء الشمس ، وحجمها ومساحتها . وتساءل محمد الدحيلان "وماذا يحدث الان مع وجود مثل هذه المعرفة ؟" ، واجبت قائلاً : "فنحن نستطيع ان نعدها ونعين مكانها ، والكثير منا يعلم انه يمكن صنع مناظير أكثر قوة من مناظيرنا ، واكبر من منظار جاليليو ؛ ويمكن اكتشاف الاف النجوم الغير مرئية ، وتحديد موقعها ، واعطاء اسم لكل واحد منها . عندما نراها جميعها ، فلن يكون هناك ليلاً في السماء" .

وقال عودة مستفزاً ، "لماذا يريد الغربيون دوماً الحصول على كل شئ؟ فنحن من نستطيع ان ندرك باحاسيسنا من وجود الله خلف النجوم القليلة التي نراها ، وانتم لن تستطيعوا ان تدركوا ذلك باكتشافكم ملايين النجوم" . فاجبته باننا "نريد ان ينتهي العالم ، ياعودة" . فتذمر زعل ، واصبح نصف غضبان ، الا ان محمد الدحيلان لم يرد ان يغير موضوعه ، فتسائل قائلاً ، "هل هناك اناس يعيشون على هذه النجوم؟" . "الله اعلم" . "وهل لكل واحد منها نبيها وجنتها ونارها" . عندئذ صاح فيه عودة . وقال : "ايها الرجال ، نحن نعرف بلادنا ، جمالنا ، ونساؤنا ، وماوراء ذلك فمعرفته عند الله عز وجل" . وبعدئذ تحدث عن المال ، وهمس لي بانه يجب علي ان احصل له على هدية قيمة من

الامير فيصل عندما يمكنه الاستيلاء على العقبة .

وتابعنا مسيرنا عند الفجر ، وخلال ساعة اصبحنا على مرتفع ، وكان ارتفاعه حوالي مائتي قدم . واصبحنا بعد ذلك مابين السنينيرات في الجنوب ، وبين "الثلاث خوات" ، في الشمال ، وهي عبارة عن سلسة جبال مخروطية الشكل تشع مثل الثلج تحت اشعة الشمس ، وسرعان مادخلنا وادي "البير" ، وسرنا لأعلى واجتزنا لمدة ساعات . وكان هناك تدفق للمياه خلال فصل الربيع ، مما نتج عنه نموالاعشاب الغنية بين الاشجار الضئيلة . وكانت الارض خضرآء تسر الاعين . ومرتعاً خصباً لجمالنا الجائعة بعد مكوثها الطويل في وادي سرحان الجاف .

واخبرني عودة ابو تايه بانه سيسير قدماً الى منطقة "البير" ، وفيما لو كنت راغباً بالذهاب معه ؟ فانطلقنا سريعاً ، وخلال ساعتين اصبحنا فوق المكان فجأة، فوق هضبة ، واسرع عودة لزيارة قبر ابنه عناد ، الذي قتل في كمين دبره له اولاد عمه مطلق ، للأخذ بالثأر من مقتل عبطان ، الذي كان يعتبر بطلهم ، والذي قتله عناد خلال نزال فردي معه . وحدثني عودة كيف نازلهم عناد ، الا انه كان واحداً ضد خمسة ، فكان لابد وان يُقتل . وجعلني اذهب معه لاسمعه وهو يرثي ولده بحزن عميق .

ومع ذلك ، فعندما نزلنا باتجاه القبور ، فقد دهشنا من رؤية دخان كان ينفذ من الارض المحيطة بالآبار . فتحولنا اليه مباشرة واقتربنا من الاطلال بحذر ، فبدا انه لايوجد احد هناك ، الا ان سطح البئر كان مشققاً وكانت الارض سوداء كمن حدث انفجار فيها ؛ وعندما نظرنا الى اسفل كان التشقق واضحاً وتناثرت حولها قطع الحجارة ، وكانت توجد مياه في قاع البئر ، وقمت بشم الدخان ، فاعتقدت بأنه كان رائحة ديناميت . واسرع عودة الى البئر التالي ، الواقع في بطن الوادي تحت القبور ؛ وكان هو ايضاً قد دمرت فتحته وتناثرت الحجارة حوله. وقال عودة "هذا هو بير بني جازي" . ومشينا لنجتاز الى البئر الثالث ـ بئر بني صخر . ووصل زعل ليذهل بمشهد الكارثة . وقمنا باستكشاف وفحص

اثار الخطوات وكانت تشير الى خطوات حوالي مائة جواد تعود الى ليلة امس . وكان هناك ايضاً بئر آخر رابع ، يقع الى شمال الاطلال في السهل المنبسط ، وذهبنا اليه دون أمل ، متسائلين ماذا سيحل بنا اذا ما كانت كافة الآبار قد دمرت ، وسرنا ان نراه سليماً غير مصاب .

وكان هذا البئر لبني الجازي ، واصبحنا قلقين لأن نكتشف من آن الاتراك كانوا مستعدين جداً ، وبدأنا نخشى انه ربما قاموا ايضاً بالغارة على آبار الجفر ، الواقعة الى الشرق من معان ، وهي الآبار التي كنا نخطط لنحتشد عندها قبل البدء بالهجوم . وسيشكل ذلك ارباكاً حقيقياً لنا ، ومع ذلك فشكراً للبئر الرابع ، فقد كان وضعنا غير خطر ، مع انه غير مريح . الا ان ماءه لم تكن لتكفي خمسمائة جمل ؛ لذلك فقد اصبح لزاماً علينا لأن نزيل اثار الدمار عن الآبار الأخرى . وذهبنا انا وعودة وناصر لنلقي نظرة اخرى عليها .

واحضر لنا احد الرجال شظية او عبوة فارغة من الديناميت ، الامر الذي دل على انها من النوع التي كان يستخدمها الاتراك . ومن خلال الثقوب المتواجدة على الارض ، فانه كان واضحاً بأنه حدثت سلسلة من التفجيرات في وقت واحد على سطح الآبار . وحدقنا في داخل الآبار فوجدنا انه مازال هناك بعض الاسلاك متدلية لاسفل . فعلى مايبدو فقد كانت هناك سلسة اخرى من الشحنات الناسفة ، فاما انها كانت غير فعاله ، او انها وضعت لتفجر بعد وقت طويل . واسرعنا بانزال دلونا بواسطة الحبال لنرى الى اي مدى كانت الاسلاك متدلية ، فوجدت ان الشحنات كانت صغيرة ، ليست اكثر من ثلاثة ارطال انجليزية لكل واحدة ، وجرى توصيلها باسلاك تلغراف ، فقد كان هناك شيء خطأ في الأمر . فاما أن يكون الاتراك كانوا على عجلة من امرهم في نسفهم للآبار ، او ان كشافتهم قد رأونا قادمين ولم يكن لديهم وقت لاتمام عملية التفجير .

لذلك فسرعان ما اصبح لدينا بئرين صالحين ، والاستفادة ايضاً من ثلاثين رطلاً انجليزياً من الشحنات الناسفة للعدو . وقررنا ان نمكث لمدة اسبوع في هذه

المنطقة . فقد كان من اهدافنا ـ اضافة لاستكشاف وضع آبار الجفر ـ تدبير المؤن اللازمة ، واستطلاع اخبار ومواقف القبائل المتواجدة مابين معان والعقبة . فقمنا بارسال رجل الى الجفر . كما قمنا بتشكيل قافلة صغيرة من الجمال ومعها عدة رجال من الحويطات ، من الذين لايمكن ان يشك بهم مطلقاً بانهم كانوا من رجالنا ، وارسلناهم الى الطفيلة ليقوموا بشراء ما امكنهم من الطحين واحضاره لنا خلال خمسة او ستة ايام .

وبالنسبة للقبائل المتواجدة حول الطريق الى العقبة ، فقد اردنا ان يقدموا لنا مساعدة نشطة ضد الاتراك وذلك لتنفيذ الخطة التي وضعناها في الوجه . وكان رأينا بأن نتقدم فجأة الى الجفر ، ونجتاز خط السكة الحديد ، ونتجه الى نجد (سهل واسع مرتفع) معان ومن ثم الى سهل القويرة . ومن اجل السيطرة على ذلك الطريق ، فقد كان علينا ان نستولي على حامية "ابا اللسان" ، التي كانت تبعد ستة عشرة ميلاً عن معان ؛ فقد كانت تلك الحامية صغيرة ، وأملنا بأن نقتحمها بسرعة . اما بالنسبة للمواقع التركية الاخرى فانها ستنهار الواحدة تلو الاخرى ، بعد ان تسمع القبائل المتواجدة هناك بنجاحنا ، وتنضم الينا ونقوم بابادتها . وكانت النقطة الاساسية والحاسمة لخطتنا تكمن في الهجوم على حامية "ابا اللسان" التركية ، خشية ان تقوم القوة التركية المتواجدة في معان بنجدتها وتحيدنا عن توجهنا الى منطقة "نجب الشتار" . واذا ما كانت القوة التركية المتواجدة في معان انذاك تتكون من كتيبة فقط ، فانهم لن يجرؤا على التحرك لمواجهتنا ، وسيدعون حامية "ابا اللسان" تسقط بانتظار وصول تعزيزات ، وستسقط العقبة بايدينا ، وسنتركز عند البحر ، وسيكون الحاجز الطبيعي عند ممر او مدخل العتم الضيق مفيداً لنا للابقاء على حامية معان معزولة وضعيفة .

ولم يكن من السهل بالنسبة لنا ان نبقى على تحركاتنا سرية . فقد كنا نسير بين ابناء المنطقة المحليين ، كما ان مسيرنا الطويل الى وادي سرحان كان معروفاً لدى العدو . ولم يكن ليخفي على أحد بأن توجهنا كان نحو العقبة ، وتدمير آبار وادي البعير او "البير" (وايضاً آبار وادي الجفر ، حيث تأكدنا من انه قدتم

تدميرالآبار السبعة المتواجدة فيه) والتي اظهرت بأن الاتراك كانوا على علم بتحركنا . ومع ذلك ، فانه لم يكن هناك حدود لغباوة الجيش التركي ، فهذه النقطة ساعدتنا وستساعدنا ثانية الآن وفيما بعد ، وتؤذينا بصورة مستمرة ، اذ اننا لايمكننا ان نتجنب ازدرائهم بالنسبة لذلك (فالعرب عرق او جنس وهب سرعة البديهة) . وحالياً فانه من الممكن الاستفادة من هذه الغباوة ، ولذلك فقد اطلنا حملة الخداع التي كنا نقوم بها ، لاقناعهم (الاتراك) بأن هدفنا كان يكمن في المسير نحو دمشق .

لقد كانوا عرضة للضغط في تلك المنطقة ، حيث ان سكة الحديد من دمشق، شمالاً من درعا وجنوباً من عمان ، كانت تشكل خط المواصلات لهم ، وليس في الحجاز فحسب ، وانما ايضاً الى فلسطين ؛ واذا ماقمنا بمهاجمتها فاننا لابد وان نجعل الدمار مضاعفاً . لذلك فان الجولة الطويلة التي قمت بها الى مناطق الشمال ؛ قد اوجدت تخمينات وايحاءات من ان وجهتنا كانت الى جبل الدروز (العرب) وعن قرب وصولنا اليه ، وكنت مسروراً ايضاً من سماحي للسيء الذكر نسيب بأن يذهب الى هناك ، بشكل ملفت للنظر ، ولكن بامكانيات ومصادر صغيرة . كما ان نوري الشعلان قد حذر الاتراك من تحركنا بنفس المعنى، أي الى الشمال ؛ وصدف ان نيوكمب ، قد ترك بشكل مقصود ، بالقرب من الوجه ، بعض الاوراق الرسمية ، من ضمنها خطة يتبين فيها بان مسيرنا كان من الوجه ، عن طريق وادي سرحان ووادي الجفر الى تدمر ، لمهاجمة دمشق وحلب . لذلك فقد أخذ الاتراك تلك الاوراق على محمل الجد تماماً ، واقاموا هناك في تدمر حامية قوية لغاية انتهاء الحرب ، وشكل ذلك فائدة كبيرة لنا .

(٥٠)

لقد بدا من المعقول ان نقوم بجهد ملموس بنفس الاتجاه خلال الاسبوع الذي لابد ان نقضيه في منطقة الآبار . وقرر عودة ابوتايه بأنه يجب على زعل ان يسير معي على رأس قوة لمهاجمة خط السكة الحديد بالقرب من درعا . فاختار زعل مائة وعشرة رجال ، بشكل شخصي ، وسرنا بسرعة فائقة ، على فترات ، لست ساعات لكل فترة تتخللها استراحة لمدة ساعتين ، ليلاً نهاراً . وكانت تلك رحلة زاخرة بالاحداث بالنسبة لي ، ولتلك الاسباب التي جعلتها غامضة ومبهمة بالنسبة للعرب ؛ وبشكل رئيسي ، فقد كنا عبارة عن فريق اغارة قبلي ، عادي ، نسير على خطوط تقليدية ، في تشكيل عملي وفعال .

ووصلنا في عصر اليوم التالي الى خط السكة الحديد المار الى اعلى من قرية الزرقاء ، الواقعة الى الشمال من عمان . وقد ادت حرارة الشمس والمسير السريع الى انهاك جمالنا ، فقرر زعل ان يقوم باروائها بين اطلال قرية رومانية قديمة ، والتي كانت تحتوي على احواض حجرية تحت الارض مليئة بمياه الامطار السابقة . وكانت تلك الاطلال تبعد نحو ميل عن خط السكة الحديد ، وكان علينا ان نكون حذرين من السكان الحليين وقتذاك ، كما انه كان يوجد هناك موقع عسكري مكون من خيمتين يقع على جسر طويل الى الاسفل من خط السكة الحديد . ويدا ان الاتراك كانوا نشطين . حيث سمعنا فيما بعد ان تفتيش عام على الخط كان وشيكاً .

وبعد سقاية الجمال قمنا بالمسير لستة اميال اخرى ، واتجهنا عند حلول

المساء الى جسر الضليل ، الذي كما افاد زعل ، كان جسراً كبيراً ، ويشكل هدفاً جيداً لنسفه . ولبث الرجال والجمال على ارض مرتفعة تقع الى الشرق من خط السكة الحديد ليشكلوا غطاء لتراجعنا اذا ماحدث أي شيء طارئ ، في حين ذهبت انا وزعل الى الاسفل لرؤية وتدقيق الجسر . وكان يوجد هناك اتراك على بعد مائتي ياردة وراء خط السكة الحديد ، كانوا يتواجدون في خيام عديدة ، ودخان طبخ الطعام تتصاعد من المواقد . وكنا مشوشين لتقدير عددهم وقوتهم ، لغاية ماوصلنا الجسر ووجدنا بأنه كان يجري اعادة بناءه ، فقد هدمت فيضانات الربيع اربعة من قناطرة ، فركب اوبني خط السكة الحديد فوقه بشكل مؤقت في وضع انحراف . وكانت احدى القناطر قد انجزت ، واخرى على وشك الانجاز ، وركزت الواح الخشب من اجل القنطرة الثالثة .

لذلك ، فلم تكن هناك جدوى ، بالطبع ، من نسف جسر في تلك الحالة ، وعليه فقد انسحبنا بهدوء ، حتى لانثير انتباه العاملين على خط السكة الحديد ، ونحن نسير على الحجارة المبعثرة حفاة الاقدام وبكل حذر وانتباه لتجنب الخطر المفاجئ . وقد حدث وان وضعت قدمي على شئ ما كان يتحرك ، وكان ناعماً وبارداً ، فخطوت بتثاقل ، انه كان ثعباناً ، ولكن لحسن حظي لم يؤذيني . وكانت النجوم المتلألئة تشع من حولنا ضوئاً مزيفاً موهماً ، وليس مضيئاً ، ولكنها كانت تضفي شفافية لتطيل قليلاً من خيال كل حجر في الاسفل ، جاعلة من الارض لوناً رمادياً صعباً ، للمسير فوقها . وقررنا ان نمضي بالمسير شمالاً ، باتجاه «المنفير» ، حيث اعتقد زعل بأن طبيعة الارض ستكون ملائمة لزرع الالغام من اجل نسف وتدمير القطارات . فنسف قطار ما سيكون افضل من نسف جسر ، حيث ان هدفنا كان سياسياً ، لجعل الاتراك يظنون ان هدفنا الرئيسي كان الوصول الى الازرق ، التي تبعد خمسين ميلاً الى الشرق . ووصلنا الى سهل منبسط ، يتخلله موج من الحصى الناعم . وكنا نسير فوقه بسهولة عندما سمعنا دبيباً طويلاً . فانصتنا لنستفسر الامر ، وهناك جاء من جهة الشمال ذيل طويل من دخان قطار قادماً مع الريح . وبدا وكأن لهيبة يضيئ فوقنا ، وسحابة من

دخانه تسير فوق رؤوسنا ، حيث كنا قريبين جداً من خط السكة الحديد ؛ فتراجعنا الى الخلف في حين كان القطار يندفع قدماً . وبعد مرور دقيقتين قمت بتفجير قاطرته الامامية وحولتها الى فتات .

وكان مسيرنا بعد ذلك هادئاً لغاية الفجر ، عندما وجدنا انفسنا نسير في واد ضيق . وكان مدخله ذو منعطف حاد الى جهة اليسار ، يؤدي الى ارض صخرية مدرجة حيث ترتفع الى اعلى التلة لتصل الى جرف صخري يوجد على قمته ركام من الحجارة الكثيفة . فقال زعل انه يمكن رؤية خط السكة الحديد من هناك . واذا ما كان ذلك صحيحاً فان المكان كان مثالياً لنصب كمين ، كما انه كان من الممكن رعي الجمال دون وجود حراس في بقعة ممتازة للرعي .

تسلقت في الحال حتى وصلت القمة ، حيث كانت عبارة عن اطلال لبرج مراقبة عربي يعود الى ايام الصليبيين ، ويشرف ويسيطر على مشهد رائع لاراضي رعوية تقع الى ماوراء خط السكة الحديد ، وكانت تحيط بسفح التل الماكثين عليه وتبلغ مساحتها نحو خمسة اميال ، وكان يوجد تحتنا الى جهة اليسار بيت او محطة استراحة ، يتواجد فيها بضعة جنود مسترخين بسلام . فمكثنا هناك نقوم بالمراقبة والنوم بالتناوب لعدة ساعات ، شاهدنا خلالها قطاراً وهو يجتاز المنحدر ببطء فوضعنا خططاً لننزل الى خط السكة الحديد في تلك الليلة ، حيث بدا ان هناك افضل فرصة لوضع الالغام .

ومع ذلك ، وعند منتصف الصباح ، اقترب منا من جهة الشمال حشد من الرجال المتطين الجمال ، حيث قدرنا عددهم بنحو مائة وخمسين رجلاً ، وكانوا يسيرون نحونا مباشرة . وبدا الامر كما لو انه أُبلغ عنا ، وهناك احتمال تماماً ، بأن تلك المنطقة برمتها كانت مخصصة لرعي مواشي قبائل البلقاء التي ما ان رأنا رعيانها حتي ظنوننا باننا مجموعة من اللصوص ، فقاموا بتحذير جماعتهم بذلك ، وكان وضعنا بمواجهة السكة الحديد ، عبارة عن فخ مميت لأية قوة سيارة تفوقنا عدداً وعدة ؛ لذلك فقد قمنا بتحذير بقية المجموعة ، وركبنا جمالنا لنقوم باجتياز الوادي ، ووصلنا عن طريق منحدره الشرقي الى سهل

صغير ، حيث تمكنا من الاسراع بجمالنا لنصل الى اقصى روابي منخفضة ، ولنختفي خلفها قبل ان يكون العدو في موقع يمكنه ان يرانا منه .

وكانت طبيعة الارض هناك ملائمة بشكل افضل لتكتيكاتنا وانتظرنا قدومهم ؛ الا انهم كانوا كما يبدو على عدم اطلاع بموقعنا تماماً ، حيث انهم ساروا متجاوزين مكان اختبائنا السابق وسرعان ما اتجهوا نحو الجنوب ، تاركيننا مندهشين من ذلك الموقف . ولم يكن هناك عرباً بين القوة التركية فقد كانوا جميعهم من الجنود النظامين ـ لذلك فلم نكن نخشى من ان نقع في الفخ ، الا انه بدا لنا ثانية بأن الاتراك كانوا على حذر . وكان ذلك يتوافق مع رغبتي ، حيث كنت مسروراً من ذلك ، الاان زعل ، الذي كان تقع على عاتقه المسؤولية العسكرية ، فقد كان منزعجاً للامر . فعقد جلسة تشاور مع الذين كانوا يعرفون المنطقة عن كثب ، واخيراً قمنا بامتطاء دوابنا ثانية ، واتجهنا الى تلة اخرى ، تقع الى الشمال من سابقتها ، الاانها توفي بالغرض تماماً . فقد كانت بشكل خاص بعيدة عن وصول ابناء القبائل اليها .

فقد كانت هذه ارض «المنفير» الحقيقية ، التي تحتوي على تلة خصبة بالعشب مستديرة وكبيرة الحجم . وقد شكلت لنا غطاء محكماً من جهات الشمال والجنوب والغرب ، واتاحت لنا تراجعاً وانسحاباً آمناً باتجاه الصحراء . وكانت قمة التلة تحتوي على مقدمة مكعبة الشكل ، حيث ان مياه المطر المتجمع جعل منها ارضاً خصبة وغنية ، ووافرة المرعى ، بيد ان اطلاق الجمال فيها تطلب بذل عناية مستمرة ، حيث انهم لو تجولوا لمسافة مائتي خطوة للامام فانهم سيصبحون مرئيين من جهة خط السكة الحديد والتي كانت تبعد نحو اربعمائة ياردة الى اسفل الجهة الغربية للتلة .

وكان يقع الى اتجاه الشمال من خط السكة الحديد المتعرج ، سهول حوران الجنوبية الواسعة ، الممتدة كمثل السماء الرمادية ، والتي تتخللها بقع صغيرة سوداء من اطلال القرى والبلدات البيزنطية القديمة المندثرة ذات الاحجار البركانية الداكنة . والى اتجاه الجنوب كان يوجد هناك ركام من الحجارة يمكننا من خلاله رؤية خط السكة الحديد من على بعد ستة اميال او اكثر .

كانت الارض العالية التي تواجهنا الى الغرب ، هي البلقاء ، التي احتوت على قرى مكونة من بيوت الشعر السوداء ويسكنها الفلاحون . وقدكان بامكانهم ان يرونا ايضاً ، ونحن على التلة ، لذلك فقد ارسلنا من يخبرهم بهويتنا . وبناء على ذلك فقد التزموا الهدوء لغاية ما مضينا ، ومن ثم تظاهرنا بأن وجهتنا كانت الى الشرق ، نحو الازرق . وعندما رجع رسلنا من هناك فقد أحضروا معهم خبزاً وكان ذلك يعتبر وجبة فخمة ، حيث ان قلة وندرة الطعام في منطقة "البير" جعلنا نقتصر على أكل الذرة ، ولعدم وجود فرصة لطهوها فقد كان الرجال يقومون بمضغها نيئة . وقد كانت تلك التجربة حادة جداً على اسناني ، لذلك فقد كنت أسير بجملي مسرعاً .

وقمت انا وزعل في تلك الليلة بزرع لغم ضخم ، يتفجر على ثلاثة مراحل ، ومن ثم استلقينا لننام ، متأكداً من ان اكون متنبهاً فيما لو قدم قطار على الخط في الظلام لاقوم بنسفه ومع ذلك ، فلم يحدث أي شئ ، ولم يأت أي قطار . وعند الفجر قمت بنزع فتائل التفجير التي كانت موصولة بالالغام ، وبعد ذلك انتظرنا طيلة النهار ، نأكل ونستريح ، متمتعين بنسيم الهواء الناعم الذي كان يهف على التلة .

ولم يحدث اي شيء لعدة ساعات مضت ، بيد انه في نهاية الامر حدث هناك ارتباك وضجيج بين ابناء العرب المقيمين هناك ، فقام زعل ومعه الحبصي وبضعة من الرجال النشطين بالاندفاع اسفلاً باتجاه الخط . وسمعنا صوت اطلاق عياران ناريان آتيان من الاسفل ، وبعد نصف ساعة ظهرت مجموعتنا وهي تقود فاران تركيان بائسان من الرتل المحمول الذي مر بالامس ، وكان احدهما مصاب بجرح بليغ ، اصيب به بينما كان يحاول الفرار وقد توفي عند العصر ، وكان ذلك من سوء وتعاسة طالعه . اما الرجل الآخر فقد كان مصاباً بجرح بسيط في قدمه ، الا انه اصبح واهناً ومنهاراً عندما تفاقم جرحه وألمه . وكان جسده النحيل مليئاً بالكدمات والرضوض ، و كلها من علامات وآثار الخدمة العسكرية ومن الفرار ، ذلك انه لم يكن يقوى سوى الاستلقاء على وجهه فقط . وقدمنا له آخر

ما تبقى لنا من الخبز والماء ، وبذلنا كل ما نستطيع من اجله : ولو كان ذلك ضئيلاً .

وحدث أمر مربك في ساعة متأخرة من العصر عندما ظهر رتل المشاة التركي المحمول ثانية ، وهو يتجه باتجاهنا . فلا بد وانهم سيمرون من تحت كميننا ، وكان زعل والرجال مهيأوون للهجوم المفاجىء ، فقد كان عددنا مائة رجل ، وكان عددهم يتجاوز المائتين بقليل ، وكان موقفنا في الاعلى ويمكننا ان نداهمهم بجمالنا الضخمة فنسحقهم هم وبغالهم الخفيفة . وقد قال لي زعل بأنه لايمكن لقوة مشاة محمولة على البغال ان تجابه قوة محموله على الجمال في النزال اوالقتال . وبذلك فأننا لانأسر الرجال لوحدهم ، وانما ايضاً دوابهم النفيسة .

وسألته كم من الخسائر يمكن ان نتكبد جراء ذلك ، فخمن ذلك بخمسة او ستة قتلى ، عندئذ قررت ان لانقوم بشيء ، وان ندعهم يمرون . فقد كان لدينا هدف واحد فقط ، وهو الاستيلاء على العقبة ، واننا قد اتينا الى هنا لنوهم الاتراك ان وجهتنا كانت نحو الازرق . وبفقدان خمسة او ستة من رجالنا في مثل تلك التظاهرة ، ومهما كان ذلك مفيداً من الناحية المادية ، فسيكون ذلك عبارة عن حماقة ، او أسوأ من ذلك ، لاننا كنا بحاجة لكل رجل يحمل بندقية من اجل الاستيلاء على العقبة ، وهو الأمر الذي كان يعتبر حيوياً بالنسبة لنا . فبعد ا ن تسقط العقبة يمكننا ان نبدد الرجال ، اذا ما شعرنا بان وضعنا اصبح صلباً؛ ولكن ليس قبل تحقيق ذلك الهدف .

فابلغت زعل ، الذي لم يكن راضياً ، بذلك ؛ في حين هدد رجال الحويطات الحانقين بأن يندفعوا الى اسفل التلة لمداهمة الاتراك ، طوعاً او كرهاً . فقد ارادو غنم وكسب البغال ، وانا ، بشكل خاص ، لم ارد ذلك ، لأن ذلك سيحولنا عن هدفنا الرئيسي . وبشكل عام ، فان القبائل تذهب للحرب والقتال لكسب الفخر والثروة . فالامور النبيلة الثلاث كانت السلاح ، والدواب ، واللباس . واذا ما استولينا على المائتي بغل ، فان الرجال الفخورين بذلك

سيتخلون عن هدف العقبة وينجرفون نحو مضاربهم في الازرق ، ليتباهوا بنصرهم امام النساء . اما بالنسبة للأسرى ، فان الشريف ناصر لن يكون ممتناً ومسروراً لاطعام مائتي رجل لافائدة منهم ؛ لذلك فقد يكون علينا ان نقتلهم ، او ندعهم يذهبون ، وبذلك نكشف عن عددنا للعدو .

وجلسنا ونحن نصك على اسناننا ، نشاهدهم وهم يمرون : وكانت محنة قاسية ، خرجنا منها جميعاً بفخر ، وقد كان لزعل دور كبير في ذلك ، حيث كان تصرفه على اكمل وجه ، متوقعاً مني امتناناً ملموساً فيما بعد ، وكان في نفس الوقت مسروراً ليظهر لي مدى سلطته على البدو ، فقد كانوا يحترمونه لكونه نائب عودة ابو تايه ، وكمقاتل مشهور ، اظهر شجاعة وبراعة في موقعة او موقعتين لحركة تمرد بسيط .

اما الآن فقد أُختبر الى اقصى حد ، فقد حاول الحبصي ، وهو ابن عم عودة ، وشاب مندفع ، عندما كان الجنود الاتراك يسيرون بشكل هادئ وهم على بعد ثلاثمائة ياردة من مكمننا ، ان ينهض على قدميه ويندفع قدماً وهو يصيح ليجلب انتباههم ، وليجبرهم على خوض معركة ، الا ان زعل امسك به وطرحه ارضاً وأخذ يضربه بالهراوة بقسوة لغاية ما خشينا ان يعكر ذلك خططنا .

وكان من المحزن ان ارى انتصاراً صغيراً سهلاً يفلت من ايدينا طوعاً ، لذلك فقد كنا كئيبين لغاية ما حل المساء عندما تأكد احساسنا بأنه لن يكون هناك قطاراً ماراً ، وكانت هذه آخر فرصة لنا ، حيث ان العطش سيطر علينا ، وانه لابد من سقاية الجمال في الغد . لذلك فبعد حلول الليل عدنا الى خط سكة الحديد ، وقمنا بوضع ثلاثين متفجرة على الخط ونسفنا الجزء المنحني او المتقوس منه . واخترت قضبان الحديد المنحنية لتفجيرها حيث ان ذلك سيكلف الاتراك جلب قضبان جديدة من دمشق . وهذا فعلياً سيستغرق ويأخذ وقتاً منهم لمدة ثلاثةايام ، ومن ثم فان القطار الذي سيقوم بجلبها سيمر فوق لغم آخر ، قمنا بالاعداد له ، حيث سيتضرر من جراء ذلك . ووفقاً لذلك فان حركة السير على الخط ستتوقف لمدة ثلاثة ايام في حين يظل الخط معرضاً للكمائن .

ولتلك اللحظة بالطبع ، فأنه لم يكن بامكاننا التعجيل بحدوث هذه الامور الجيدة . لذلك فقد قمنا بعملية التدمير ، وعدنا بشكل حزين الى جمالنا ، وسرعان مارحلنا بعد منتصف الليل . وترك الأسير التركي ورائنا في اعلى التلة ، اذ انه لم يكن باستطاعته المشي او ركوب الدواب ، ولم يكن لدينا عربة لنأخذه بها . وخشينا من ان يموت من العطش او الجوع حيث هو : وكان في الحقيقة مريضاً جداً ، لذلك فقد قمت بوضع رسالة على عمود تلغراف مخرب موجود بجانب خط السكة الحديد المدمرة ، باللغتين الفرنسية والالمانية ، للاعلان عن مكان تواجده ، واننا قد اسرناه وجرح بعد قتال ضاري . فقد املنا بأن ذلك يمكن ان ينقذه من العقوبات التي كان يوقعها الاتراك على الفارين من جيشهم ، او من ان يعدم بالرصاص اذا ما ظنوا بانه كان متواطئ معنا . الاانا بعد ان رجعنا الى منطقة «المنفير» بعد ستة اشهر ، فقد وجدنا عظام الجنديين التركيين مبعثرة على ارض موقعنا القديم . فلقد كنا دوماً نشعر بالاسف لرجال الجيش التركي ، فالضباط الاتراك سواءالمتطوعين ام المحترفين منهم ، قد تسببوا في قيام تلك الحرب من اجل مطامعهم ـ ومن أجل وجودهم تقريباً ـ الا ان كل المعاناة كانت تقع على كاهل المجندين نتيجة لخطأ قوادهم .

(٥١)

فقدنا طريقنا اثناء الليل ونحن نسير فيما بين المرتفعات الحجرية ووديان منطقة الظليل ، الا اننا واصلنا التحرك لغاية الفجر ، لذلك فبعد نصف ساعة من بزوغ الشمس وصلنا الى مكان السقاية السابق ، الواقع في منطقة «خو» ، واطلالها القريبة من الزرقاء . وقمنا بجلب الماء من حوضين حجرين بشكل شاق لسقاية الجمال من اجل العودة الى منطقة الآبار ، عندما قدم نحونا شخص شركسي يقود ثلاثة بقرات لرعيها على ارض الانقاض الخصبة بالعشب الاخضر .

ولم يكن ذلك بالامر السار لذلك فقد ارسل زعل بعض الرجال اللذين قاموا باحضاره سليماً ، الاانه كان مذعوراً جداً الى حد الانهيار ، فقمنا برشه بالماء حتى صحا وتعافى .

واصبح يشكل مصدر ازعاج وقلق لنا ، فلواننا تركناه خلفنا فانه من الممكن ان يقوم بتحذير فرسان قريته ليعترضوننا ، واذا كان ما اوثقناه في ذلك المكان المنعزل فانه لربما يموت من الجوع او العطش ، علاوة على انه لم يكن يوجد لدينا حبل اضافي لنوثقه به ، واذا ما قتلناه فان ذلك امر لايمكن تصوره ، وهذا ليس جدير بقوة قوامها مائة رجل . واخيراً قال لنا الفتى الشراري ، الذي تبارز معه بالخناجر فيما سبق وتغلب عليه ، بانه اذا ما اتحنا له المجال فانه سيسوى الامر ويبقى عليه حياً .

فقام بربط رسغه بسرج جمله وسحبه معنا لمدة ساعة ، لغاية ما انهكه

التعب وكنا لانزال نسير بالقرب من خط السكة الحديد ، ولكننا نبعد اربعة او خمسة اميال عن الزرقاء . وهناك قام بتجريده من ملابسه ، ثم القاه على وجهه وامسك بقدميه واخذ بتجريح اخمص او باطن قدميه بخنجره بشكل عميق ، حتى ظن الاسير نفسه بأنه كان يقتل ، وكان عرضاً غريباً الا انه بدا فعالاً ، واكثر رحمة من الموت . فهذه الجروح ستجعله يحبو الى خط السكة الحديد على يديه وركبتية في رحلة قد تستغرق ساعة ، كما ان تعريته من الثياب ستبقيه بين ظلال الصخور لغاية ماتغيب الشمس . وتوجهنا بعد ذلك لنقوم برعي جمالنا واشباعها ، فقد كان علينا ان نسير مسافة ثمانين ميلاً في اليوم ، تتخللها توقفات قصيرة في الليل والنهار .

وبعد بزوغ النهار بوقت قصير استدرنا نحو الغرب ، وترجلنا عن دوابنا لنسير قدماً بعناية على سلسلة من الاحجار الكلسية المتكسرة لغاية ما اصبحت محطة العطوي للسكة الحديد تقع الى الاسفل منا ، وكانت تتكون من بيتين حجريين ويبعدان عنا نحو مائة ياردة . وزحف اليهما الرجال دون قلق وكان يتصاعد من أحد البيتين ومن غرفة الحراسة بالذات خيط من دخان ازرق ، في حين كان هناك جندي يقوم برعي قطيع من الاغنام الصغيرة على مرجة خضراء تقع بين المحطة والوادي . وآثار هذا الشيء شهيتنا ، وخاصة بعد اقتصار طعامنا على اكل الذرة لمدة طويلة ، فقد كنا تواقين جداً لاكل اللحم . وكان عددها يبلغ سبعة وعشرين رأساً . ونزل زعل الى بطن الوادي تتبعه مجموعة من الرجال ، حيث زحفوا لغاية ما اصبحوا بمواجهة المحطة وبمحاذة المرجة الخضراء .

وكنا نحن من موقعنا في الاعلى نقوم بالاشراف على فناء المحطة ، ورأينا زعل يميل بندقيته على الحافة ، مخفياً رأسه بحذر بين الاعشاب وركز بندقيته على الضباط والموظفين الذين كانوا يجلسون على الكراسي في الظل وهم يحتسون القهوة ، خارج مكتب التذاكر . وما ان ضغط على الزناد حتى اصابت الرصاصة رجلاً سميناً وطرحته عن كرسيه تحت دهشة وجمود زملائه . وبعد ذلك قام رجال زعل بالاندفاع نحو المحطة وهم يقومون باطلاق وابل من الرصاص ، الا

انهم جوبهوا باطلاق الرصاص من وراء القضبان الفولاذية لنوافذ البيت الجنوبي وقمنا بالرد على ذلك ولكن سرعان ما رأينا عجزنا عن تحقيق أي شيء ، فتوقفنا عن اطلاق النار ، وكذلك فعل العدو . وقام رجال الشرارات بدفع قطيع الاغنام باتجاه التلال الشرقية ، حيث كانت ترقد جمالنا واسرع واحد منا بالنزول للانضمام الى زعل الذي كان منشغلاً بالهجوم على المبنى الاقرب للمحطة والاصغف .

وقبل ان يستعر لهيب المعركة كان هناك توقف مفاجيء وذعر . فقد اعتاد العرب على الشعور بالخطر قبل ان يقع تقريباً ، فقد كان لديهم شعوراً بالحذر ، حيث كانت هناك شاحنة تسير الى اسفل خط السكة الحديد وهي تدب بضجيج عجلاتها الذي كان يطغى على صوت الرصاص ، وكانت تقل اربعة رجال . وقام قسم من رجالنا بالزحف عبر قناة ارضية ، في حين تجمعت بقيتنا بهدوء الى جانب الجسر . ومرت الشاحنة بشكل غير متوقع على الكمين الذي كنا نصبناه بجانب خط السكةالحديد ، فانفجرت وقفز منها الاتراك المذعورين ، الا ان بنادقنا عاجلتهم بالرصاص ، فقتلوا جميعهم . ووقعت حمولة الشاحنة التي كانت تتكون من الاسلاك النحاسية وادوات تركيب اعمدة التلغراف بايدينا مما وفر لنا فائضاً من الاسلاك لاستخدامها في عمليات النسف والتدمير .

وفي حين كان زعل يتابع هجومه على المبنى الآخر للمحطة ، قام رجال من قبيلة عقيل بتحضير الالغام وسرعان ما اشعلوا شحناتهم المتفجرة لتحدث دوياً هائلاً وتفجر العديد من قضبان خط السكة الحديد ، ومن شدة الانفجارات فقد نهضت جمالنا على ارجلها وهي مذعورة مضطربة . واستغرقت ملاحقتنا للاتراك وقطيعهم زهاء ثلاث ساعات ، لغاية ما انتهى الامر .

وابتعدنا بضعة اميال عن خط السكة الحديد قبل ان نستقر لاعداد وليمتنا من لحم الغنم الضاني ، وكان يوجد لدينا نقص في عددالسكاكين من اجل ذبحها ، لذلك فقد اجتهدنا باستخدام حجارة الصوان الحادة والمصقولة في ذبحها ، وكان ذلك أمر لم يعتاده العرب .

وبعد ذلك قمنا بطهوها واستمتع رجالنا بالتهام افضل اجزاء اللحم لاربعة وعشرين خروفاً ، في حين كانت جمالنا ترعى هنا وهناك حولنا ، او تقوم بالتهام ماكنا خلفناه وطرحناه من قطع اللحم ؛ اذ ان الجمال السيارة قد علمت واعتادت على اكل اللحم المطبوخ . وعندما انتهت من ذلك ركبناها ، وسرنا باتجاه منطقة " البير " طوال الليل ، والتي وصلنا اليها دون حدوث أية اصابة بيننا ، عند الفجر ، ظافرين وناجحين .

(٥٢)

قام الشريف ناصر بعمل عظيم من اجلنا ، فقد قام بتأمين مؤونة اسبوع من الطحين جلبها من الطفيلة ، وذلك لتأمين حريتنا في التحرك . فمن الممكن ان نستولي على العقبة تماماً قبل ان نجوع ثانية . وكان الشريف ناصر تلقى رسائل تدعو للتفائل من عشائر الدومنية ، والدراوشة والذهبيات وجميعها من الحويطات التي تقطن منطقة «نجب الشتار» ، وهو الممر الصعب الاول الواقع على طريق معان ـ العقبة فقد كانوا راغبين بمساعدتنا ، واذا ما قاموا بالهجوم سريعاً وضرب محطة ابا اللسان بقوة فمن الممكن تحقيق نجاحاً بهذا الصدد .

وكنت على وشك ان اذهب بمسير احمق آخر الذي اخفق قبل ان يأخذ الاتراك حذرهم . فما ان تحركت مجموعتي حتى قدم رسول على عجل من قبل نوري الشعلان ، وكان يجلب معه تحياته واخبار من قبله بأن الاتراك قد استدعوا ابنه نواف ، ليقوم بدور المرشد ليقود اربعة الاف من الفرسان من منطقة درعا الى وادي سرحان من اجل البحث عنا . الا ان نوري الشعلان ارسل ابن اخته المحنك والمدرب طراد، الذي قام بارشادهم الى طرق مموهة ونائية ، حيث عانى الجنود الاتراك وخيولهم من شدةالعطش بشكل خطير . وكانوا يتواجدون بالقرب من النبك في مكان تعسكرنا القديم ، وبذلك فستعتقد القيادة التركية باننا كنا ما نزال نتركز في منطقة وادي بير لغاية ما يعود فرسانهم ، اما بالنسبة لمعان بشكل خاص فانهم ، لم يكن لديهم قلق بخصوص ذلك اذ ان خبراء متفجراتهم قاموا بنسف آبار منطقة البعير أو "بير" وافادوا بأنهم قضوا على كل مصدر للمياه تماماً هناك ،

في حين انه قد جرى التعامل مع آبار منطقة الجفر بنفس الطريقة قبل بضعة ايام سابقة .

وبذلك فانه من الممكن ان تكون آبار الجفر قد حرمت علينا ايضاً ، الا اننا لم نكن فاقدين الامل من انه يمكن ان نجد هناك مصدراً صالحاً للماء نجا من التدمير نتيجة لخطأ فني من قبل هؤلاء الاتراك التعسين . وارسل لنا ضيف الله ، وكان زعيم عشيرة الجازي حويطات ، الذي قدم سابقاً الى الوجه واقسم يمين الولاء امام الامير فيصل ، ارسل لنا بصورة سرية خبراً من معان بأن هناك بئراً صالحاً في الجفر لم يجر تدميره بصورة صحيحة ، وان فوهته قد غطيت بالحجارة ، وان ازالتها وترميمة يستلزم بضعة ساعات فقط ، لذلك فقد تملكنا الامل ؛ فسرنا جميعاً من منطقة الآبار بناء على ذلك لنستكشف الامر .

اجتزنا سهل الجفر العجيب بسرعة . وعند ظهر اليوم التالي كنا بلغنا منطقة بير ، وبدا لنا ان معضمها قد دمر تماماً ، وخشينا من ان لا نجد أي واحد من الابار صالح للاستخدام . ومع ذلك فقد توجهنا الى البئر المذكور ، وكان من ممتلكات عشيرة عودة ابو تايه الذي ابلغنا عنه ضيف الله ، وبدأنا نقوم بفحصه وتدقيقه ، ونادينا على من يتطوع لازالة الركام وترميم ، فقدم بعض من الرجال قبيلة عقيل ، وكان على رأسهم المرزوقي ، وهوخادم ماهر عند الشريف ناصر . وبدأوا بالعمل ببضعة ادوات كانت لدينا ، وكنا نحن نتحلق حولهم ونقوم بحثهم وتشجيعهم ووعدهم بمكافئات وجوائز مالية فيما لو وجدوا الماء .

وكان الطقس حاراً وشمس الصيف تتوهج ، اذ ان سهل الجفر تتكون ارضه من الطين القاسي ، وهو منبسط كاليد ذو طبقة ملحية بيضاء . الا ان الوقت كان يضغط علينا ، فلو اننا اخفقنا فانه من الممكن ان نسير مسافة خمسين ميلاً في الليل للذهاب الى البئر التالي ، لذلك فقد كنا نحث على الاسراع بالعمل طيلة النهار مقدمين للعاملين كل مساعدة ممكنه .

وبسبب التفجير الذي حصل فقد سهل من عملية الحفر بسبب تشقق الارض وتناثر الحجارة . وكلما كانوا يحفرون اكثر ويزيلون التراب ، كلما تبين

لنا مركز ومكان البئر ، وتطلب ذلك جهداً كبيراً في ازالة الحجارة الكبيرة ، الا انه لاحت لنا اشارة افضل وارتفعت معنوياتنا . وقبل ان تغرب الشمس صاح العمال بأنه لم يعد هناك تراب وحجارة وان فوهة البئر على وشك الظهور . وبعد نصف ساعة سقطت بعض الحجارة من فوهة البئر الى اسفل محدثة صوت الارتطام بالماء بشكل كثيف . فاسرعنا الى هناك ، فرأينا بواسطة الشعلة التي كان يحملها المرزوقي ، البئر المفتوح ، الا ان أحد العاملين من الذين كانوا يقومون بازالة الانقاض ، قد سقط في البئر عند نهاية ازالة الانقاض. فاخذ كل واحد منا يضحك من المشهد لغاية ما انزل له عبد الله في نهاية الزمر حبلاً ، وقمنا بسحبه الى الاعلى ، وكان مبللاً جداً الا انه لم يصيب بأذى نتيجة لسقوطه .

كافئنا العاملين باقامة وليمة لهم من لحم جمل ضعيف ذبحناه من اجلهم. وقمنا طيلة الليل بسقاية الجمال ، في حين كان رجال من قبيلة عقيل يقومون بتسوية الارض من التراب والحجارة حول البئر ، وعند الفجر تمت تسويتها وظهر البئر تماماً في فظهره كما كان من قبل . الا ان الماء فيه لم يكن كثيفاً وعملنا على جلب المياه منه طيلة اربع وعشرين ساعة متواصلة لغاية ما نفذ مائة ، الاانه كانت هناك بعض من جمالنا لم ترتو تماماً .

ومن الجفر قمنا بنشاط قتالي ، فقد توجهت مجموعة من مقاتلينا الى خيام الدهمانية لتقود الهجوم الموعود ضد الفويله ، وهومعقل او حصن صغير يتحكم برأس الممر الى مركز او محطة ابا اللسان . وكان هجومنا خطط له ليكون قبل يومين من موعد تزويد الحاميات التركية بالمؤن من معان فبواسطة احداث المجاعة، يكون من الاسهل القضاء على هذه الحاميات النائية وتقليص وجودها .

ولبثنا في غضون ذلك في الجفر منتظرين ان نسمع اخباراً طيبة عن الهجوم. فقد اعتمد توجهنا في الزحف القادم على مدى نجاحه أو اخفاقه. ولم يكن التوقف غير سار بالنسبة لنا ، اذ ان موقفنا هناك كان له جانب هزلي مضحك. فقد كنا على مرمى النظر من معان. الا ان شدة الوهج والسراب اثناء النهار منع من رؤيتنا سواء بالعين المجردة ام بالمناظير ، وهذا وفر امناً كافياً لنا ،

اضافة الى ان الحامية التركية هناك اعتقدت انه كان من المستحيل ان يتوفر ماءً هنا او في منطقة الآبار ، وانهم كانوا مسرورين بفكرة اننا وقتذاك كنا نشتبك بشكل يائس مع فرسانهم في وادي سرحان .

استلقيت تحت بعض الشجيرات بجانب البئر لعدة ساعات تلافياً للحرارة ، وبكسل شديد متظاهراً بالنوم ، ومستخدماً كم ثوبي كغطاء لوجهي ضد الذباب . وجلس عودة ابو تايه وتحدث باستمرار كنهر منهمر ، راوياً افضل قصصه بشكل عظيم . واخيراً وبخته بابتسامه ساخره لانه يتحدث كثيراً جداً يفصل قليلاً جداً . الا انه امتص شفتيه بسرور من اجل العمل للمرحلة المقبلة .

عند فجر اليوم التالي قدم فارس منهك الى معسكرنا ومعه اخبار من ان عشيرة الدهمانية قد شنت هجوماً على موقع الفويلة عند العصر ، وقبل ان يصل رجالنا اليهم ، الا ان المفاجأة لم تكن كاملة ، اذ ان الاتراك تمكنوا من صدهم ، وتراجع رجال العشيرة الى موقعهم ، واعتقد العدو انها كانت عبارة عن غزوة قبائلية عادية . ونتج عن ذلك ان قام الاتراك بشن غارة انتقامية ضد اقرب مكان تخييم اومضرب للعرب ، حيث قتلوا رجلاً مسناً وستة نساء وسبعة اطفال كانوا جميعهم يقيمون فيه ودمروا المكان برمته .

ولم يكن بامكان رجال الذين كانوا في اعلى التلال سماع أو رؤية أي شيء يحدث الافي وقت متأخر ، ولكن عندما وصلهم الخبز استبد بهم الغضب الشديد ، واندفعوا اسفلاً بمحاذاة طريق عودة القتلة الاتراك وقاموا بابادتهم عن بكرة ابيهم ، ولاتمام انتقامهم ، قاموا بالهجوم على الحصن التركي ، الذي اصبح ضعيفاً بعد ذلك ، بسبب فقد العديد من رجاله واقتحموه وقتلوا جميع من فيه . وهيئنا دوابنا وخلال عشرة دقائق اصبحنا جاهزين للمسير الى «غدير الحاج» .

وكانت السكة الحديد الاولى التي تقع جنوب معان ، وعلى طريقنا المباشر الى محطة ابا اللسان . وقمنا على نحو متزامن بتجريد قوة صغيرة لتجتاز خط السكة الحديد الى ما وراء بلدة معان تماماً ، ولتقوم بعملية التفاف من ذلك الجانب ، وخاصة لتقوم بتهديد الحظائر الكبيرة لقطعان الجمال المريضة ، والتي

جمعت هناك بسبب اصاباتها على جبهة فلسطين ، والتي كان الاتراك يقومون برعايتها هناك في سهول الشوبك لغاية ما تتعافى وتصبح ملائمة للخدمة .

وخمنا من ان اخبار كارثتهم (الاتراك) في موقع الفويلة لن تصل الى معان لغاية الصباح ، وبذلك فانهم لن يمكنهم ام يسيرو بهذه الجمال (على افتراض ان قوتنا او مجموعتنا الجنوبية قد تخطئهم وتتوه عنهم) قبل حلول الليل ؛ واننا فيما لو هاجمنا خط السكة الحديد عند "غدير الحاج" فانهم من المحتمل ان يحولوا قوتهم الى مكان بعيد ، وبذلك يدعونا نتحرك الى العقبة دون مضايقة .

وسررنا بهذا الامل بشكل مضطرد من خلال تدفق وتوهج السراب لغاية العصر ، عندما نزلنا الى خط السكة الحديد والذي كان ينتشر عليه خط طويل من الحراس والدوريات ، وتمكنا ان ندفعهم بعيداً عن الخط بعد تكبيدهم خسائر. الا ان حامية غدير الحاج الصغيرة قامت باشعار معان بذلك ، اضافة الى ان اصوات هدير تفجيراتنا على خط السكة الحديد كانت مسموعة لهناك ، وكان هدفنا يتركز في جلب العدو الى نحونا اسفل خلال الليل ، اذ انهم لن يجدوا اناساً وانما العديد من الجسور المدمرة ، حيث اننا كنا نقوم بالعمل بسرعة واحداث اكبر حجم من التدمير . وكنا نقوم باحداث تدميرات متتابعة وعلى فترات قصيرة واحداث انفجار كل ستة دقائق . لذلك فقد دمرنا عشرة جسور ومساحات من خط السكة الحديد ، وانهينا بذلك تفجيراتنا .

وعند الغسق عندما لم يكن من الممكن رؤية رحيلنا ، سرنا الى مسافة خمسة اميال باتجاه جنوب الخط لنخفي انفسنا ، وقمنا باشعال النيران لصنع الخبز. ومع ذلك فان طعامنا لم يكن قد نضج بعد قبل عندما يصل ثلاثة فرسان ومعهم خبر يفيد بأن هناك رتل طويل من القوات التركية مكون من الفرسان ومدفعية قد ظهر للتو عند حامية ابا اللسان قادماً من معان . وكان رجال عشيرة الدهمانية المنتشين بالنصر ، قد تخلوا عن مكانهم دون قتال حيث كانوا يتواجدون في منطقة "بارا" ينتظروننا هناك . وبذلك فقد كان علينا ان نترك موقع ابا اللسان ذلك المعقل الصغير ، والممر المتحكم بالطريق الى العقبة دون ان

نطلق طلقة واحده . وعلمنا فيما بعد ان هذا التحرك الغير مرحب به من قبل الاتراك كان مصادفة ، فقد وصلت كتيبة نجدة عسكرية الى معان في ذلك اليوم . وتزامن ذلك مع ورود اخبار عن هجوم عربي على موقع الغويلة ، وكانت تلك الكتيبة جاهزة مع وسائط نقلها على باحة محطة السكة الحديد ، لتسير الى الثكنات المعدة لها ، بل وسرعان ما دعمت بقطع من المدفعية وبعض الرجال الممتطين ، وتحركوا مباشرة كقوات انتقامية لانقاذ ما كان مفترضاً انه موقع محاصر .

وغادر الرتل معان عند منتصف النهار وسار ببطء على طول طريق السيارات ، الا ان رجاله كانوا يتصببون عرقاً من شدة الحر لهذة المنطقة الجنوبية والتي لم يعتادوا عليها ، حيث انهم اتوا من بلاد القفقاس الثلجية ، وكان الظمأ مسيطراً عليهم ويترجلوا ليشربوا عند ورودهم لكل عين ماء ، ومن منطقة أبا اللسان قاموا بتسلق تل باتجاه المعقل القديم الذي كان هجر باستثناء بعض النسور ، التي كانت تحلق بهدوء فوق جدرانه وانقاضه في حلقات مضطربة بطيئة . وخشي قائد الكتيبة على معنويات رجاله الشبان من الانهيار لرؤية ذلك المشهد ، فقادهم راجعاً الى عين الماء القائمة على جانب طريق ابا اللسان ، في ذلك الوادي الضيق الملتف ، حيث انهم عسكروا هناك طيلة الليل حول عين الماء .

(٥٣)

ان ورود مثل هذه الاخبار قد فاجئتنا لنتحرك سريعاً . فقمنا برمي امتعتنا على ظهور جمالنا على عجل ، وجهزنا انفسنا لنترك هذا الجزء النهائي لنجد (سهل) سوريا الواسع المرتفع . وكان الخبز الساخن في ايدينا ، ونحن نأكله على ظهور الجمال مختلطاً مع رائحة الغبار ، ونحن نجتاز بطون وسهول الوديان في رتل طويل من القوات . وكانت المنحدرات التي نجتازها مريحة وغنية بالخصب ، والازهارالبرية الجميلة والمتنوعة . كما ان الطقس كان صافياً والاصوات تسمع بوضوح جداً . لذلك فقد قام عودة ابو تايه بالانشاد وهو في مقدمة الرتل ، وكان الرجال ينضمون اليه من فترة لأخرى .

وسرنا طيلة الليل ، وعند قدوم الفجر نزلنا عن جمالنا على قمم تلال واقعة مابين منطقة البتراء وابا اللسان ، والتي تطل على منظر رائع لسهل القويرة الاخضر والذهبي الواقع الى اتجاه الغرب ، والذي تقع خلفه الجبال الوردية اللون والتي تخفي وراءها العقبة والبحر (خليجها) . وكان جاسم ابو دميق ، زعيم عشيرة الدهمانية بانتظارنا بشكل قلق ، محاطاً برجاله المتحفزين ووجوههم الرمادية ملطخة بالدماء من جراء القتال الذي خاضوه بالامس .

وجرت بينه وبين كل من الشريف ناصر وعودة ابو تايه تحيات ودية حاره . وقمنا باعداد الخطط المستعجلة ، آخذين بالاعتبار بانه لم يكن بامكاننا ان نسير قدماً الى العقبة وتلك الكتيبة التركية متمركزة ومحتلة الممر اليها . وما لم نقم

باخراجها من هناك فان الجهد والخطر الذي تعرضنا له طيلة الشهرين الماضين سيخفقان قبل ان نحقق حتى اول ثمرة من ثمرات نجاحنا .

ولحسن الحظ فأن سوء معالجة العدو للوضع منحنا فائدة ومنفعة غير متوقعة. فقد نزلوا في الوادي وناموا فيه ، في حين كنا نحن نعتلي التلال في حلقة واسعة محيطين بهم وغير مرئيين بالنسبة لهم . وبدأنا بقنصهم بشكل مضطرد وهم في مواقعهم تحت المنحدرات آملين بأن نستفزهم ليخرجوا ويتسلقوا التل لمواجهتنا . في غضون ذلك اتجه زعل مع فرساننا وقاموا بقطع خطوط تلغراف وهاتف معان الممتدة على السهل .

واستغرق ذلك الامر طيلة النهار . وكان الطقس حاراً جداً وبشكل مزعج - اكثر حرارة لم اشعر بحره من قبل الجزيرة العربية - والقلق والتحرك المستمر جعل الامر صعباً بالنسبة لنا . حتى ان بعض رجال القبائل الاشداء قد انهاروا تحت شدة ووحشية اشعة الشمس الحارقة ، وزحفوا او انهم دفعوا ليستظلوا بجانب الصخور . وكنا نقوم بالنزول والصعود على التلال للبحث عن موقع جديد محكم يمكن من خلاله مواجهة أي جهد يقوم به الاتراك القابعين في الوادي. وكانت جوانب التلال شاهقة الارتفاع تنهك انفاسنا ، والاعشاب تلسع كواحل ارجلنا ونحن نركض عليها . كما ان الصخور الكلسية الحادة البارزة على المنحدرات كانت تدمي اقدامنا. واصبحت بنادقنا حارة جداً بسبب حرارة الشمس واطلاق النار بها يلسع ايدينا وتسبب لنا آلاماً. وكانت الصخور وكانها تحترق تحت أشعة الشمس، حيث كانت تحرق صدورنا وايدينا ونحن نختبئ خلفها ، وقد حرقت جلودنا وبشرتنا فيما بعد. وتملكنا الظمأ من ذلك الوضع . ومع ان الماء الذي كان بحوزتنا ضئيلاً فانه لم يكن بامكاننا ان نرسل رجالاً لجلب الماء الكافي من منطقة البتراء ،ومع انه لم يكن بامكان الجميع ان يشربوا الا انه كان من الافضل بأن لا أحد يجب ان يشرب .

لقد عزينا انفسنا بالاقتناع من ان العدو المحصور في الوادي سيكون معرضاً للحر في ذلك المكان اكثر من مكاننا على التلال المفتوحة ؛ اضافة الى انهم من الاتراك ذوي البشرة البيضاء الذين لا يطيقون الطقس الحار . لذلك فقد ضيقنا عليهم ولم ندعهم يتحركون او يحتشدون او يغيروا علينا بشكل خطر . ولم يكن بامكانهم ان يقوموا بأي شئ مجدي ضدنا ولم نكن اهدافاً لبنادقهم ، حيث كنا نتحرك بسرعة ونغير مواقعنا واماكننا بسرعة . وكنا نسخر ايضاً من مدافعهم الجبلية الخفيفة التي كانوا يطلقون قذائفها علينا . فقد كانت القذائف تمر من فوق رؤوسنا لتنفجر في الجو خلفنا ، ومع ذلك ، بالطبع ، فان ذلك كان كل ماباستطاعتهم ان يروه من مكانهم المنخفض السحيق ، الى حيث نحن المتمركزين على قمم التلال العالية ، ويظنون بأنها كانت تنفجر بيننا .

وبعد الظهر مباشرة اصابتني ضربة شمس من الحر ، او ربما هكذا تخيلت . فزحفت الى حفرة كانت تحتوي على بعض الماء الضحل ، وذلك لامتصاص بعض الماء منها باستخدام كم ثوبي كفلتر لتنقيتها . وانضم ألي ناصر ، وهو يلهث مثل حيوان يتلوى وشفتيه مشققتين وتنزف منهما الدماء ؛ كما ظهر عودة ، وهو يخطو ، بقوة وعيناه محمرتان ومحدقتان وعلى وجهه المجعد علامات النشوة . وصك على اسنانه بغضب عندما رآنا مستقلين هناك نلتمس الظل والرطوبة بين الصخور ، وقال لي متذمراً بخشونة ، «حسناً كيف الامر مع الحويطات ؟ فهل جميعهم يتكلمون ولايعملون ؟ فاجبته على الفور «بالله ، هذا صحيح» ، حيث كنت وقتذاك غضباناً من كل واحد ومن نفسي ايضاً ، واضفت قائلاً «انهم يطلقون النار كثيراً ويصيبون قليلاً» . عندها اصبح عوده مصفراً من الغضب وهويرتجف ، فنزع كوفيته عن رأسه وقذفها على الارض بجانبي . ومن ثم اندفع راجعاً الى اعلى التل كالمجنون وهويصيح بالرجال بصوته الخشن المروع . فأتوا جميعهم اليه ، وبعد برهة تبعثروا الى اسفل التل . وخشيت ان تسير الامور بشكل خاطئ ، وكافحت للوصول الى حيث كان يقف لوحده في

قمة التل ، وهو يحدق بالعدو . الا ان كل ما امكنه ان يقوله لي هو «اعتلي جملك اذا اردت ان ترى ماسيفعله الرجل الكبير» . فطلب ناصر جمله وقمنا باعتلاء جمالنا . ونزل الرجال قبلنا الى مكان غائر صغير، يؤدي الى قمة منخفضة ، وعرفنا بأن التلة التي تقع خلفه تؤدي ايضاً الى منحدر هين وسهل ، ومن ثم الى الوادي الرئيس لابي اللسان في جزء ما تحت عين الماء . وتجمع كافة رجالنا البالغ عددهم اربعمائة رجل مع جمالهم بعيداً عن انظار العدو هناك ، وسرنا اليهم ، وسألنا «الشمط» عن الامر واين ذهب فرساننا . فاشار الى اعلى مرتفع الوادي التالي فوقنا وقال «انهم مع عودة هناك» ؛ وما ان نطق بذلك حتى انهمر الرصاص بشكل مفاجئ من خلف القمة . فقمنا بدفع جمالنا بشكل مسعور الى الحافة لنرى فرساننا الخمسين ياتون لاسفل آخر منحدر الى الوادي الرئيس كمثل عملية فرار ، وهم يعدون بجيادهم باقصى سرعة ، ويطلقون النار من الخلف . وما ان شاهدناهم حتى اندفع الرجال للامام كالرعد وانقضوا على قوة المشاه التركية ، التي كانت تحاول شق طريقهاالى معان . وصرخ الشريف ناصر وقال لي بفمه المتقرح «هيا بنا» ، ونزلنا بجملينا بشكل جنوني اسفل حيث العدو المتقهقر ، ولم يكن المنحدر عميقاً او صعباً لعدو الجمال الا ان الانحدار كان كافيا لجعل عدوها مزعجاً وغير مسيطر عليه ؛ ومع ذلك فان المقاتلين العرب كانوا قادرين على اطالة القتال واطلاق النار يميناً وشمالاً . وكانت القوات التركية مقيدة تماماً بالخوف والرعب الذي كان يحدثه عودة في مؤخرتها، لترانا ايضاً ونحن قادمين من المنحدر الشرعي : ذلك اننا اخذناهم ايضاً على حين غرة ومن خاصرتهم او جناحهم .

وقام الاتراك باطلاق بضعة عيارات نارية نحونا الا انها اخطئتنا، وقمت باطلاق النار من مسدسي، بالطبع . حيث انه لا يستطيع سوى الخبير ان يطلق النار من بندقية والجمال مندفعة بمثل هذه السرعة ، عندئذ سقط جملي فجأة على وجهه، وانقلبت عن سرجه كلية وانطرحت على الارض . واستلقيت هناك

بشكل هامـد منتظراً ان يأتي الاتراك ويقـتلونني . وهناك وانا مسـتلق ورد الى خاطري بعض ابيات من الشعر كنت قد نسيت معظمه وتذكرت منه مايلي .

«لقد كنت غاضاً عن جميع ازهارك الجميلة ياسيدي، الا انني اخترت ازهار العالم الحزينة .»

وهذا هو السبب لقدماي المزقتان وعيناي المعميتان بالعرق ».

في حين كان الجانب الاخر من تفكيري منشغلاً بماذا يمكن ان اكون عليه من تمزيق عندما يمر طوفان الرجال والجمال ويدوسون فوقي . وبعد وقت طويل فرغت من التفكير بشعري ، ولم يأت أي واحد من الاتراك، ولم يدسني أي جمل؛ وركزت انتباهي وانصت ، فقدكان هناك ضجيج ضخم صدر من ساحة المعركة، فجلست ورأيت ان المعركة قد انتهت، وان رجالنا يتجمعون ويقومون بالقضاء على ما تبقى من قوات العدو . وكانت جثة جملي منبطحة الى جانبي كمثل صخرة وحمولته مبعثرة على الجانبين ، وظهرت على مؤخرة رأسه علامة الرصاصة التي اطلقتها واصابته خطأ عند سقوطه وارتطامه بالارض .

وقام احد الرجال باحضار جملي الاضافي، المسمى عبيد، وعاد الشريف ناصر وهو يقود امامه القائد التركي ، الذي انقذ مجروحاً من غضب وحنق محمد الدحيلان . فقد رفض ذلك القائد التعس ان يستسلم ، وكان يحاول ان يضيع الوقت وهو يطلق النار من مسدسه . وكان رجال الحويطات مستعرين غضباً، حيث ان عملية ذبح نساؤهم واطفالهم بالامس كان يمثل جانباً مخيفاً وجديداً تكشف لهم فجأة ، وأدى نتيجة على ساحة القتال . لذلك فقد كان هناك مائة وستون اسيراً فقط من الاتراك، معظمهم جرحى؛ وثلاثمائة من القتلى او من الذين كانوا يموتون مبعثرين على اراضي الوديان . وفر بضعة افراد منهم، منهم طواقم المدفعية وبعض الضباط والفرسان مع مرشديهم . ولاحقهم محمد الدحيلان لمسافة ثلاثة اميال حتى «المريغة»، الا انهم اختفوا عن انظاره وكان من بين الفارين ، ضيف الله، الذي قام بعمل جيد فيما يتعلق ببئر الملك في الجفر .

وقدم عودة ابو تايه وهو يتمايل منتشياً من نتيجة المعركة، والكلمات تتدفق من قمة وهو يقول، «العمل ، العمل ، لا مجال للكلام ، العمل ، الرصاص ، يا ابو تايه» وقد كان هدفاً لصلية من الرصاص اثناء المعركة والتي اصابت وقتلت فرسه ، الا ان الستة رصاصات الاخرى التي وجهت اليه اخطئت هدفها ولم تصبه بأذى . وقد قال لي فيما بعد وبثقة مطلقة بأنه قد اشترى قبل ثلاثة عشرة سنة تعويذة او حجاب بقيمة مائة وعشرين جنيهاً ، وانه منذ ذلك الحين لم يجرح او يصب في أي قتال او نزال. ففي الحقيقة، فان الموت قد تجنب وجهه واتجه لينال اخوته وابناءه واتباعه . الا ان التعويذة التي اشار اليها لم تكلف سوى ثمانية عشر بنساً ، وان نجاته من الموت لم تدع الناس تضحك من خرافته . وكان مسروراً بشكل شرس من نتيجة القتال وعلى رأس ذلك ليربكني ويريني ما يمكن ان تفعله قبيلته. اما محمد الدحيلان فقد كان يصفني بانني اسوأ من عودة ، حيث انني اهنته بكلمات مثل رشق الحجارة لحثه على ارتكاب حماقة كانت على وشك ان تقتلنا جميعاً ؛ ومع ذلك فانها قتلت اثنان منا فقط واحد رويلي والآخر شراري .

وقد كان من المؤسف ، بالطبع، ان نفقد أي واحد من رجالنا، الا ان الوقت كان مهماً بالنسبة لنا ، وانه كان لزاماً علينا ان نستولي على معان ، وذلك لضرب تلك الحاميات التركية الصغيرة التي كانت تقع بيننا وبين البحر واجبارها على الاستسلام ، ذلك انه كان على ان افقد المزيد من الرجال . وقمت باستجواب الاسرى عن انفسهم ، وعن عدد القوات التركية الموجودة في معان؛ الاان شدة وقع الهزيمة كانت حادة جداً عليهم فبعضهم كان يحدق مشدوهاً بي واخرين كانوا يهذرون بكلام غير مفهوم، في حين كان آخرون ينفجرون بالبكاء. واخيراً تملكني الغضب فأخذت واحد منهم جانباً وقمت بمارسة بعض التعذيب عليه، عندها أجاب بشكل واف؛ وأكد بأن كتيبتهم كانت هي قوة التعزيز الوحيدة وانها عبارة عن كتيبة احتياط فحسب؛ لذلك فان السريتين المتبقيتين في معان لن تكونا كافيتين للدفاع عن محيطها . وهذا عني انه كان

باستطاعتنا ان نستولي على معان بسهولة، وهلل رجال الحويطات ليتوجهوا الى هناك وليحصلوا على مكاسب عديدة من جراء ذلك، فما حققناه هنا كان عبارة عن جائزة غنية. ومع ذلك، فان ناصر ومن ثم عودة، ساعداني على تهدئتهم. حيث انه لم يكن لدينا مساندين، ولا قوات نظامية، ولامدافع، ولا قاعدة قريبة سوى الوجه، ولاخطوط اتصالات، ولاحتى المال، حيث ان الذهب لدينا قد استنفذ، وكنا نصدر الوعود بالدفع «عندما تقع العقبة بايدينا»، في كل يوم. اضافة الا ان خطتنا الاستراتيجية لم تتغير لنقوم بعمل تكتيكي آخر، فيجب علينا ان نندفع الى الساحل، وان نعيد فتح الاتصال البحري مع قناة السويس.

ومع ذلك فانه قد يكون من المفيد ان نقوم بتهديد اكثر نحو حامية معان التركية، لذلك فقد ارسلنا فرساناً الى «المريغة» واستولينا عليها؛ والى الوهيدة واستولينا عليها ايضاً. فوصلت كافة تلك الاخبار مع الهزيمة المنكرة للكتيبة التركية الى معان دفعة واحدة. فسببت هناك ذعراً حقيقياً. وارسلت القيادة العسكرية نداءً تطلب فيه النجدة وقامت السلطات المدنية فيها بتحميل الوثائق والملفات على شاحنات، وغادرت على جناح السرعة الى دمشق.

(٥٤)

في غضون ذلك غنم العرب الاتراك، حيث استولوا على قطار امتعتهم ، وعلى معسكرهم؛ وبعد حلول الليل قدم عودة ابو تايه الينا وقال بانه يجب علينا التحرك . فاغضبني ذلك انا وناصر . وكان هناك في تلك الليلة يهب هواء غربي رطب ، في منطقة ابا اللسان بعد الحر الشديد المشبع بالرطوبة والذي كان يلسع بشكل حاد جروحنا وتقرحاتنا . وكانت عين الماء نفسها تسيل على شكل جدول رفيع تحيط بها ارض خضراء ناعمة، التي استلقينا عليها ونحن مدثرين في عباءاتنا، متسائلين فيما اذا كان هناك شيء يستحق ان يعد للاكل، حيث كنا مغمورين في تلك اللحظة بنشوة الانتصار، وعندما اصبح واضحاً لنا بانه لم يكن هناك أي شيء جدير بالعمل، وانه لاشيء جدير قد فعل .

والح عودة ابو تايه بذلك . اما لأنه كان خوفاً من المجهول - فقد خشي ان نتكبد خسائر جديدة بالارواح ؛ واما خشية ان يعود الاتراك بقوة ضخمة؛ واما خشية ان تقوم عشائر اخرى من الحويطات بمباغتتنا ، ونحن مستلقين هناك مسترخين ومنهكين فقد كان بعضها على عداوة دم معه ؛ ويمكن ان يقول آخرون بانهم قد جاءوا لمساعدتنا وان يظنوننا في الظلام باننا من الاتراك فيطلقون النار علينا بصورة عشوائية . لذلك فقد نهضنا وهيأنا انفسنا، ونظمنا الاسرى في صف طويل .

وكان على معظم الرجال ان يمشون . فقد نفق لنا نحو عشرين جملاً او كانوا يموتون من الجراح التي اصابتهم، وكان هناك جمال آخرين منهكين

ليتحملوا عبء اضافي . اما بقية الجمال فقد كانت محملة بالعرب والاتراك ؛ الا ان بعض الجرحى الاتراك كان يصعب عليهم جداً ان يتمالكوا انفسهم على السروج . وفي نهاية الأمر فقد كان علينا ان نترك عشريناً منهم مستلقين على العشب الكثيف بجانب الجدول ، حيث انهم لن يموتوا من العطش على الاقل ، ومع ذلك فقد كان هناك أملاً ضئيلاً لانقاذ حياتهم .

وحاول الشريف ناصر ان يتدبر اغطية من اجل هؤلاء الرجال الذين سنتخلى عنهم ، والذين كانوا شبه عراة ، وبينما كان رجالنا يهيئون انفسهم ، نزلت الى الوادي الذي جرى فيه القتال لارى فيما اذا كان هناك لباس على القتلى المبعثرين ، الا ان بعض العرب كانوا سبقوني لهناك وجردوهم من ملابسهم . فقد كان ذلك مصدر فخر لهم ، اذ كان امر جوهري بالنسبة للمنتصرين بأن يرتدوا لباس عدوهم . ففي اليوم التالي ترى معظمهم وقد تحولوا في مظهرهم الى قوة تركية في اللباس التركي الرسمي . وكانت جثث الجنود الاتراك تبدو مشعة تحت ضوء القمر بشكل عجيب . وكانت جثثهم مبعثرة هنا وهناك . لذلك فقد قمت بصفهم بشكل منتظم الواحد بجانب الاخر ، مشغلاً نفسي وقتاً طويلاً بذلك .

وفي النهاية اصبح جيشنا الصغير مستعداً ، وقمنا بكتابة رسائل لشيوخ حويطات الساحل ، مبلغينهم عن الانتصار الذي حققناه ، وانهم يمكنهم ان يسيطروا على المواقع التركية الاقرب لغاية ما نأتي كما كلفنا احد الضباط الاتراك الاسرى ، كنا قد استملناه ليقوم بالكتابة لقادة مواقع القويرة ، الكثيرة ، وهدرا ؛ وهي ثلاثة مواقع تركية كانت تقع بيننا وبين العقبة ، لابلاغهم باننا سنضمن سلامتهم ونعاملهم معاملة جيدة ونرسلهم آمنين الى مصر ، اذا ما استسلموا لنا دون قتال .

واستغرق ذلك لغاية الفجر ومن ثم قادنا عودة ابوتايه في الطريق ، حتى بلغنا سهل القويرة ذو الارض الرملية الوردية ، والمروج الخضراء المروية جيداً والتي تتخللها سلسلة من الجداول المائية ، وتتجمع على ارضها هنا وهناك جزر

الاحجار الرملية والجروف ذات الاحجار اللامعة ، واخاديد مياه الامطار والمنحدرات .

وسرناً اياماً في نطاق سهول هذه الوديان حتى دخلنا الى ممر شتار الضيق والمتعرج . وعلى ارضه وجدت الدواب بعض اشجار الزعرور الشائكة المتلبدة مما منحهم سعادة مضغها ، وتوقفنا نحن الذين كنا في المقدمة وتمددنا على الرمال الناعمة كالأرائك ونمنا بعمق . ولحق بنا عودة . فنا شدناه بالتوقف والاستراحة رأفة بأسرانا المحطمين فاجاب بانهم هم وحدهم سيموتون من الانهاك والتعب اذا ما وصلنا المسير ، ولكن اذا ما توانينا عن المسير فان كلا الفريقين يمكن ان يموتوا : حيث انه للحقيقة ، فانه لم يكن هناك سوى القليل من الماء ولا يوجد طعام . ومع ذلك فانه لم يكن بامكاننا ان نواصل المسير ، وتوقفنا في ذلك الليل قريباً من القويرة على بعد خمسة عشر ميلاً منها فقط . وفي القويرة تمكن الشيخ ابن جاد من السيطرة على حاميتها واسر مآئة وعشرين من جنودها ، ووافقنا على جلبهم معه لننقلهم الى العقبة .

ولكن العقبة كانت ماتزال بعيدة عنا ، تقع بعد معقلين دفاعين للاتراك ، والوقت يضغط علينا ، وكنا جياعاً ، وكان الموقع الاقرب الينا ، وهو الكثير ، قد رفضت حاميتها الاستسلام لنا . فموقعها كان محصناً وقوياً ويمكن ان يكلف غالياً للاستيلاء عليه . واوكلنا مهمة الهجوم علية للشيخ ابن جاد ورجاله النشطين المحتفزين ناصحينه بان يحاول ذلك بعد حلول الظلام فوضع صعوبات بهذا الشأن متعللاً بأن تلك اللية ستكون مقمرة تماماً . الا اننا أكدنا له بانه لن يكون هناك ضوء قمر ، فقد كان هناك خسوف للقمر كما دونت ذلك في يومياتي ، وكانت ليلة مظلمة ، اجبر خلالها المقاتلون العرب تلك الحامية على الاستسلام دون حدوث خسائر .

كان نيازي بيك قائد الكتيبة التركية الاسير ، يقيم ضيفاً على الشريف ناصر ، ليقيه من اذلال وازدراء البدو له . وقد شكا لي وهو مطأطىء بكآبة من ان العرب أهانوه بشتّائم تركية فاعتذرت له مشيراً بانه لابد وانهم تعلموا هذه من

حكامهم الاتراك وبذلك فان العرب يردون الشتائم والاهانات. وازدادت ممرات وادي العتم الضيقة وعورة وتعقيداً كلما توغلنا فيها بشكل اعمق. وفي منطقة كثيرا وجدنا المواقع التركية الواحد تلو الآخر فارغة. فقد انسحب رجالها الى البلدة، واستحكموا هناك (عند مدخل وادي العتم)، الذي يغطي العقبة جيداً ضد أي انزال بري من البحر. ولسوء الحظ بالنسبة لهم، فان العدو لم يفكر بالهجوم من الداخل ابداً ، ومن جميع اعمالهم الكبيرة فانهم لم يفكروا باقامة استحكام اوموقع داخلي هناك، وكان تقدمنا من اتجاه جديد قد اصابهم بالفزع .

وعند العصر كنا على اتصال مع الموقع الرئيس، وسمعنا من ابناء العرب المحليين بأن المواقع المساعدة الاخرى الواقعة حول العقبة اما انها هجرت أو قلصت ، لذلك فانه لم يكن بمواجهتنا امام البحر سوى ثلاثمائة رجل وترجلنا عن جمالنا لنتشاور ، ولنسمع اخباراً من ان العدو كان يقاوم بثبات ، واقام استحكامات وخنادق مع بئر ارتوازي. الا انه اشيع فقط من انه كان لديهم كمية ضئيلة من الطعام ، ولم يكن لدينا مزيداً منه ايضاً. وكان الموقف حرجاً والطريق مسدوداً وتشاورنا في كافة الطرق والسبل. وتراوحت الآراء والمقترحات، وكانت قمم الجبال الغرانيتية تعكس باشعة الشمس الحارقة ، ولم يكن بالامكان هبوب رياح ملطفة بسبب عمق الوادي. وقد ازداد عدد قواتنا الى الضعف . لذلك فان الرجال ازدحموا في الممر الضيق وكانوا يسببون ضغطاً حولنا ، مما دفعنا لفض اجتماعنا مرتين او ثلاث ، اما لانه لم يكن امراً جيداً بأن يسمعوننا نتشاور، واما بسبب ضيق وحشرة المكان مما كان يسبب ازعاجاً وضيقاً لنا، وكانت الافكار تدق كالساعة في رؤوسنا. وارسلنا اشارات ومبادرات للاتراك ، اولاً بواسطة الراية البيضاء؛ ومن ثم بواسطة الاسرى الاتراك، الا انهم اطلقوا النار عليهم. فأجج هذا مقاتلينا ، وبينما كنا نتشاور بالأمر اندفعت مجموعة مفاجئة من رجالنا نحو الصخور وقامت باطلاق موجة من الرصاص ضد العدو واسرع الشريف ناصر نحوهم صافي القدمين ليوقفهم ، في حين أضطجعت انا في مكاني المظلل الصغير مستاءً كثيراً مما فعله اولئك الرجال ، ومع ذلك فان

ناصر سيطر على الوضع بسهولة وكان فراج وداود زعيما تلك الفئة التي قامت باطلاق النار . وبقينا مختبئين بين الصخور لغاية ما التمسا العفو . واستسلم داود بسهولة ، الا ان فراج رواغ وقتاً طويلاً قبل ان يستسلم وتعرض الاثنان الى عقاب شديد بلا رحمة نتيجة لما قاما به عمل طائش .

وكانت لنا محاولة ثالثة للاتصال مع الاتراك ، بوسائل خاصة قام بها مجند صغير ، الذي قال بانه كان يفهم كيف يتصرف . فنزع ملابسه سوى الشيء القليل منها ونزل الى الوادي . وبعد ساعة رجع ، جالباً لنا معه بفخر رداً مهذباً جداً ، يقول بأنه خلال يومين ، اذا لم تأت مساعدة او نجده لهم من معان فانهم سيستلمون . فمثل هذا الرد الغبي (حيث انه لم يكن بامكاننا ان نسيطر على مشاعر رجالنا) يمكن ان يعني قتل كل تركي موجود هناك . الا انه كان من الافضل ان لايقتلوا ، اضافة الى اننا من الممكن ان نعاني من خسائر بشرية بهذا الصدد وستكون العمليات القتالية في الليل تحت ضوء القمر كمثل القتال اثناء النهار . لذلك فانه لم يكن لزاماً علينا ان نخوض معركة .

وكلفنا ذلك المجند الصغير بمهمة ثانية مع الاتراك ، ومشينا معه الى خنادقهم اسفلاً ، وطلبنا ان يرسلوا ضابطاً منهم ليتفاوض معنا . وبعد تردد قصير وافقوا على ذلك ، فشرحنا له الوضع على الطريق خلفنا وقواتنا المتنامية ، وعدم صبرنا لمدة طويلة عليهم . وكانت النتيجة انهم وعدوا بأن يستسلموا في النهار . لذلك فقد كان علينا ان ننام ليلة اخرى بالرغم من العطش الذي كنا نعانيه .

وعند فجر اليوم التالي اندلع القتال من جميع الجهات . حيث قدم المزيد من الرجال عبر التلال مضاعفين عددنا ثانية ، خلال الليل ؛ ولم يكونوا يعرفون بالاتفاق الذي رتب مع الاتراك ، وبدأوا باطلاق النار عليهم ، والذين ردوا عليهم بالمثل . فذهب الشريف ناصر مع ابن دغيثير ومعه بعض الرجال ، ونزلوا الى بطن الوادي وتوقف رجالنا عن اطلاق النار ومن ثم توقف الاتراك عن اطلاق النار ايضاً ، حيث انهم لم يكونوا قادرين على الاستمرار في القتال لنقص

العتاد والمؤن لديهم ، وظنوا بان لدينا مؤنة جيدة لذلك فان عملية استسلامهم جرت بشكل هاديء .

وعندما اندفع الرجال للاستيلاء على الحامية وغنموا ما فيها ، لاحظت مهندساً يرتدي لباساً رسمياً رمادياً، ذا لحية حمراء وعينان زرقاوتان مرتبكتان ؛ وتحدثت معه بالالمانية ، فقد كان لايعرف اللغة التركية . فالامور التي كانت تجري اذهلته ورجوني بأن افسر ماذا كانت تعني . فقلت له باننا كنا في ثورة يقوم بها ابناء العرب ضد الاتراك . واستغرق منه الامر وقتاً ليبدي تقديره لذلك . واراد ان يعرف من كان قائدنا فقلت له بأنه شريف مكه . فظن بأنه سيرسل الى مكه الا انني قلت له بانه سيرسل بدلاً من ذلك الى مصر . فاستفسر عن سعر السكر هناك، وعندما اجبته بانه «رخيص ووافر» ، كان مسروراً من ذلك ، ولم يكن متأسفاً لفقدان حاجياته وامتعته ، الا انه كان متآسفاً بالنسبة للبئر ، الذي لم يبق سوى عمل قليل لانجازه . وأراني اين كان موقعه ، مع المضخة التي انجز نصفها فقط . وقمنا بسحب ماءً عذباً كافياً منه لنروي ظمأنا . ومن ثم اسرعنا من خلال عاصفة رملية جارفة نزولاً الى العقبة ، وبعد ان سرنا اربعة اميال اخرى وصلنا الى البحر في السادس من تموز (١٩١٧)، وبعد شهرين تماماً من بدءنا المسير من الوجه .

الجزء الخامس

استغلال الوقت

من فصل ٥٥ ـ ٦٨

ان استيلائنا على العقبة قد انهى الحرب في منطقة الحجاز ، ومنحنا مهمة مساعدة البريطانيين في السيطرة على سوريه . فالقوات العربية العاملة من العقبة اصبحت تمثل الجناح الايمن لجيش اللنبي المتواجد في سيناء .

ولابراز العلاقة المتغيرة ، فقد انتقل فيصل مع جيشه ليشترك مع اللنبي في العمليات الحربية ، واصبح اللنبي مسؤولاً عن تزويده بالسلاح والعتاد . في غضون ذلك فقد اعددنا العقبة لتكون قاعدة منيعة ، ننطلق منها لضرب وتخريب سكة حديد الحجاز .

(٥٥)

ادركنا من خلال دوامة الغبار مدى الخراب الشامل الذي اصاب العقبة . فالقصف المتكرر من قبل السفن الحربية الانجليزية والفرنسية حول المكان الى انقاض . وتحولت بيوتها البائسة الى ركام وخراب وكأنها بقايا من بلدة قديمة أثرية .

وتجولنا في بساتين النخيل المظللة ، التي كانت قريبة من امواج البحر المتراطمة . وجلسنا هناك نشاهد الرجال وهم يتدفقون ووجوههم خالية من التعابير . فلعدة شهور كانت العقبة تستحوذ على تفكيرنا ، كهدف لابد من تحقيقه . والآن، وبعد ان تحقق ، فانه لم يطرأ أي شيء مثير ، سواء كان مادياً او معنوياً . ومن خلال هذا الانتصار السهل كان من النادر ان يكون بامكاننا ان نتعرف على ماهية انفسنا . فقد كنا نتحدث بانشداه ، ونجلس بفراغ ، نداعب اطراف اثوابنا البيضاء ، مشككين اذا ما كان باستطاعتنا ان نفهم اونعلم من نكون نحن . وكنا نشعر وكأننا في حلم غير حقيقي . وكان الأمر صعباً بالنسبة لي ، فقد تخيلت بأن تكون الامور على غير ماجرى وحدث ، واصبح كل ما حققناه لامعنى له .

ونبهنا الجوع من نشوتنا . فقد اصبح لدينا الآن سبعة الاف أسير ، اضافة الى رجالنا البالغ عددهم خمسمائة رجل ، ومتوقع ان يأتي الفا رجل من حلفاؤنا ولم يكن لدينا مالاً (او حتى لم يكن هناك سوقاً) ؛ وآخر وجبة كنا تناولناها كانت قبل يومين مضيا . وكان التمر على اشجار النخيل مازال اخضراً غير ناضج

ويصعب أكله . لذلك كنا نحن وأسرانا نواجه محنة الجوع المستمر ونتعرض لألام حقيقية وكان الضباط الاسرى الاتراك يعانون من جراء ذلك بشكل لا يرحم . وقد اندهشوا عندما وجدوا كم كانت مؤنتنا ضعيفة ؛ وفي الحقيقة فانهم لم يصدقوا بأنها لم تكن الا عبارة عن خدعة لتعذيبهم ، واتهمونا بأكل الطعام الشهي . ولتجنبهم فقد اخلدنا للنوم انا والشريف ناصر . وكنا نفعل ذلك دوماً في مثل تلك المواقف ، فنغطي وجوهنا بعبآتنا وننام او نتظاهر بالنوم .

وفي المساء مرت اول ردة فعل لنجاحنا ، وبدأنا نفكر كيف يجب علينا ان نحافظ على العقبة بايدينا . وقررنا انه يجب ان يعود عودة ابو تايه الى القويرة . فسيكون مغطى هناك بمنحدر شتار ، ورمال القويرة ، آمنا كما يحتاج ان يكون . ولكن سنجعله آمنا اكثر مع ذلك باقامة مراكز تحذير مسبق . فسنقيم موقع على بعد عشرين ميلاً عن شماله على الصخور المنيعة للبتراء ، ونصلهم به بواسطة موقع آخر في «دلفا» . كما انه يجب على عودة ارسال رجال الى البتراء وذلك لكي يقيموا شبه دائرة من المواقع حول حافة نجود معان ، مسيطرين بذلك على كل طريق يؤدي الى العقبة ، وتقام هذه المواقع بشكل مستقل .

وكانت هناك حاجة ملحة لارسال اخبار الى مسافة مائة وخمسين ميلاً الى البريطانيين في قناة السويس لارسال سفينة اعانة . فقررت ان اذهب بنفسي ومعي فريق مكون من ثمانية رجال ، معظهم من الحويطات مستخدمين افضل الجمال في رحلتنا . وفيما نحن نسير على شاطىء الخليج ناقشنا اسلوب وخط سير رحلتنا ، فاذا ماتمهلنا في رحلتنا لاراحة الدواب فانه من الممكن ان ننهك من الجوع ، واذا ماسرنا بسرعة فانه من الممكن للجمال ان تُنهك من التعب او تتقرح اقدامها في منتصف الصحراء .

واخيراً قررنا ان نتمهل ونستخدم فترات من السير على الاقدام . فقد اعتدت على المشي والسير على الاقدام مؤخراً ، واذا ما واظبنا على السير فاننا سنصل السويس في غضون خمسين ساعة ، تتخللها فترات استراحة قصيرة لتناول الطعام . وقد حملنا معنا في سروجنا قطع كبيرة من لحم جمل مطبوخ وكمية من التمور المشوية .

وسرنا باتباع طريق الحجاج بين الصخور الغرانيتية العالية . وكان التسلق اليها شاقاً بسبب السرعة ، وعندما وصلنا للقمة قبل غروب الشمس فان كل من الرجال والجمال كانوا يرتعشون من شدة التعب . وقد اخفق احد جمالنا ولم يعد ملائم للرحلة فارجعناه مع الرجال الآخرين عبر السهل ليرعى ويأكل بعض الاعشاب الجافة لمدة ساعة . وعند منتصف الليل وصلنا الى آبار ثميد ، وهي الآبار الوحيدة التي كانت في طريقنا وتقع في منحدر وادي سحيق عند بيت حراسة مهجور استخدم من قبل شرطة صحراء سيناء . وجعلنا جمالنا تستريح ، وقمنا بسقايتها وشربنا نحن ايضاً . ومن ثم سرنا قدماً تحت اضواء النجوم في سكون الليل . وتابعنا مسيرنا حتى الفجر وعند شروق الشمس كنا قد اجتزنا معظم السهل لنصل الى تجمعات السيول باتجاه العريش ؛ فتوقفنا هناك لنريح جمالنا قليلاً ونتركها ترعى . ومن ثم ركبنا جمالنا وسرنا لغاية الظهر ، وبعد الظهر وصلنا الى اطلال «نحل» واتجهنا يميناً ، وعند الغروب توقفنا لمدة ساعة . وكانت جمالنا كسولة وبطيئة وكنا متعبين تماماً ، الا ان مطلق ، راعي او سايس جمالنا ، دعانا للنهوض والتحر ، فاعتلينا جمالنا وقمنا بتسلق تلال المتلا ، وكان ضوء القمر ينعكس على قممها فيشع ضوءاً من الكريستال ، ابيضاً كالثلج .

وعند الفجر اجتزنا حقلاً من البطيخ ، زرع من قبل بعض العرب المغامرين في تلك الارض المشاع التي تقع بين الجيوش المتحاربة . فتوقفنا هناك وقضينا ساعات من الراحة ، مطلقين جمالنا للبحث عن طعام لها في الوديان ، في حين قمنا نحن بأكل البطيخ الغير ناضج لنبرد شفاهنا المتشققة . ومن ثم سرنا قدماً تحت حرارة شمس يوم جديد ، مع ان وادي القناة الذي ينتعش دوماً بواسطة هبوب الرياح اللطيفة من خليج السويس ، لم تكن حرارته شديدة الوطأة علينا .

وبحلول منتصف النهار اصبحنا نسير على الكثبان الرملية ، وننزل ونصعد على امواجها المتعرجة ، ولاحت لنا قناة السويس من خلال السراب من بعيد امامنا . ووصلنا الى خطوط خنادق ضخمة تحتو ي على ابراج مراقبة ، واسلاك شائكة وطرق وسكك حديدية ، واقعة في خراب . واجتزناها دون عائق فقد

كـان هدفنا الوصـول الى الـشط ، وهو مـوقع مـواجه للسويس يقع على الضـفـة الاسيوية لـلقناة ، وبلغناه اخيـراً حوالي الساعـة الثالثة بعد الظهر ، بعـد تسعة واربعين ساعـة من تحركنا من العقبة . وهو وقت كاف يستغرق لشن غارة قـبلية ، وكما اصبحنا تعبين جداً ، حتى قبل ان نبدأ سيرنا من العقبة .

كانت منطقة الشط في فوضى غير عادية ، حتى انه لم يكن هناك حراس او شـرطة لتـوقـفنا . فـقـد ظهـر الطاعـون هناك قـبل يومين اوثلاثة . لذلك فـان المعسكرات القديمة قد نقلت على عجل ، وتركت مرافقها ، في حين عسكرت القوات مؤقتاً في الصحراء . ولـم نعرف شيئاً عن ذلك بالطبع ، الاانا تجولنا في المكاتب الفارغة لغاية ما وجدنا هاتف . فاتصلت بمقر قيادة السويس وقلت لهم باننا نريد ان نجتاز اليهم . فاعتذروا بأن ذلك لم يكن من شأنهم . واتصلت بادارة او هيئة المياه وشرحت لهم بأنني قد وصلت للتو الى الشط من الصحراء ومعي اخبار ملحة عاجلة احملها معي للقيادة . وقد كانوا متأسفين للوضع ، الا انه لم يكن لديهم قـوارب وقـتـذاك . وسيكون من المؤكـد ان يرسلوا اول قـارب في الصباح ليقلني الى ادارة الحجر الصحي .

(٥٦)

مضى علي حتى الآن اربعة اشهر وانا في الجزيرة العربية اتحرك بشكل مستمر . ففي الاربعة اسابيع الاخيرة سرت بواسطة الجمل مسافة الف واربعمائة ميل ، لم اوفر خلالها أي جهد لدفع الحرب قدماً ، الاانني عانيت الكثير من عدم النظافة . فاردت الآن ان اغتسل وأتناول شيئاً ما يشرب مع الثلج ، ولتغيير هذه الملابس التي اصبحت عفنه ، ولتناول شيئاً غير التمر ولحم الجمل . وتحدثت ثانية مع هيئة النقل المائي ، الا انه دون جدوى . وبعد عدة محاولات محمومة توصلت الى الميجور ليتلتون ، وكان المسؤول عن تنظيم رحلات السفن الحربية في البحر الاحمر والتي كانت تحمل بالمؤن لتتجه الى الوجه وينبع . وفي هذا الصدد فقد قام بالاشراف على ارسال العديد من المؤن والعتاد والرجال الى هناك .

ولم يفشلني ليتلتون ، فما ان سمع من اكون ومن اين جئت ، حتى انتهت كل الصعوبات . فقدكان لنشه(قاربه) جاهز ليقلني ، فاصبحت على الشط خلال نصف ساعة وذهبت الى مكتبة مباشرة ، وتدبرت ارسال الرجال والجمال شمالاً الى الكوبري ، حيث بعد الاتصال من السويس ، اكون قد اعددت لهم مأوى وللجمال ايضاً على الساحل الاسيوي . وسيأتي فيما بعد ، بالطبع ، قضاء ايامهم القلقة والمثيرة في القاهرة .

ورأى ليتلتون مدى تعبي وارهاقي فتركني اذهب فوراً الى الفندق ، لاغتسل واحصل على شراب بارد وفراش وثير . وتولى ضابط مخابرات متحمس ، كان يتولى مسؤولية كشف الجواسيس الأوروبين المتخفين الذين

ينزلون في فندق سيناء ، مهمة الاعتناء برجالي في الكوبري وتدبير مرورنا الى القاهرة في اليوم التالي . فقد جعلت التدابير الامنية التحرك المدني في قناة السويس امراً صعباً . وكان رجال الشرطة العسكرية المصريون والانجليز جاءوا ليحيطوا بقطارنا ، ويستجوبوننا ويتحققوا من تصاريح مرورنا . وعندما سألوني اجبتهم بلغة انجليزية سليمة بانني من «ضباط اركان شريف مكه» ، وكانوا منذهلين من ذلك . وسألني سيرجنت انجليزي ثانية ، فكررت ثانية بانني كنت من ضباط اركان شريف مكه . فنظر الى قدمي العاريتين والى ثوبي وكوفيتي المقصبة وخنجري وقال ، « هذا مستحيل ياسيدي ، فما هو هذا الجيش فانني لم اسمع عنه من قبل ، فهل لاتعرفون اللباس العسكري الرسمي؟»

كان هذا هجوم حليفي محلي . فأية قوات حليفة في زيها العسكري يمكن ان تسافر بدون تصريح مرور . اما الشرطة فانها لاتعرف كافة قوات الحلفاء ، وتعرف الشيء القليل جداً عن لباسهم الرسمي . ومن الممكن ان يكون لباسي نادراً في الحقيقة . وتراجعوا الى الدهليز واخذوا يشاهدونني وقبل وصولنا للاسماعلية ، صعد ضابط استخبارات متعرق (يتصبب عرقاً) الى القطار ليدقق اوراقي الرسمية . وعند وصولنا تقريباً أريته تصريح المرور الخاص الذي حصلت عليه من السويس ، الا انه لم يكن مسروراً من ذلك .

وفي الاسماعلية تغير الركاب المتجهين الى القاهرة ، والانتظار لغاية مايصل القطار السريع القادم من بورسعيد . ونزل من القطار الآخر الادميرالات ويمس وبورميستر ونيفيل فحدث توتر مزعج على طول رصيف محطة السكة الحديد بينما كانت هذه المجموعة من الجنرالات وهم يتمشون جيئة وذهاباً ويتحدثون ، في حين كان الضباط يؤدون لهم التحية العسكرية . وبعد ان طال تجوالهم انسحب الضباط ليقفوا ا مام السياج ويراقبوا بانتباه وتحول بعضهم ليقلبوا الكتب في كشك المحطة . الا انه كان هناك واحداً ملفتاً للانتباه .

ولاحظ بورميستر . تحديقي فتسائل من أكون ، اذ ان لوني تحول الى قرمزي بسبب السفر المتواصل ، (واكتشفت فيما بعد ان وزني كان منخفضاً جداً) ومع ذلك ، فقد سألني عن الوضع ، وشرحت له تاريخ هجومنا الغير معلن على

العقبة . فأدهشة ذلك . وطلبت منه بأن يرسل ادميرال البحرية سفينة تموين الى هناك في الحال . فقال بورميستر بأن السفينة دوفرين التي ستأتي في ذلك اليوم يجب ان تحمل كافة المؤن من السويس ، وتبحر مباشرة الى العقبة ، وتحضر عند عودتها الاسرى . وكان هذا رائعاً فقد أمر بذلك بنفسه ، فلا يريد ان يطلب من الادميرال او من الجنرال اللنبي ذلك فصرخت قائلاً «اللنبي! وماذا يفعل هنا»؟ فاجاب « اوه ، انه يتولى القيادة الآن» فسألت ، « وماذا بشأن موراي؟» فقال «انه ذهب الى البلاد» . وكانت تلك اخبار مذهلة ، تتعلق بي بشكل مهم ؛ فتراجعت الى الخلف اتساءل فيما اذا كان ذلك سيؤثر علينا ، فقد واجهنا المتاعب مع كل من موراي وبليندا خلال الايام الاولى للثورة ، ولولا تمكننامن تحويل السير ارشبيالد ورئيس اركانه ، اللذان كتبا لوزارة الحربية البريطانية يوصيان بتأيد ودعم الثورة العربية ، وكان ذلك دوراً سخياً منهما وانتصاراً لاتصالاتنا السرية ، ولما قامت الحكومة البريطانية بدراسة الامر وتمحيصه ، فوافقت على ذلك .

وفي القاهرة توجهت الى مكتب كلايتون ، الذي كان منهمكاً بالعمل في وقت الغداء . وما ان دخلت حتى نظر بسرعة الى أعلى وهو وراء مكتبة وتمتم بلهجة مصرية ، «مش فاضي» ، الا انني تحدثت ، فكان هناك ترحيباً مندهشاً منه . وقبل ان تمضي ساعة حتى اتصل الادميرال ليقول بأن السفينة دوفرين قد حملت الدقيق لتبحر به الى العقبة . وسحب كلايتون ستة عشر الفاً من الجنيهات الذهبية وارسلها تحت حراسة الى السويس بالقطار . فقد كان هذا امراً ، ملحاً بحيث يمكن للشريف ناصر ان يكون قادراً على مواجهة ديونه . فالوعود التي قطعناها في مناطق البير ، الجفر ، والقويرة ، لابد وان نفي بها لاصحابها في العقبة . فقد كانت تلك تجربة عظيمة ، بل انه لم يكن لأحد ان يجرؤ على اعطاء اوراق نقدية في الجزيرة العربية من قبل ، لأن البدو لم يكن لديهم مكاناً ليخبوئها فيه سواء معهم او في خيامهم ، كما انها لا يمكن ان تدفن في الارض من اجل الحفاظ عليها .

وبعد ذلك ، وفي الفندق الذي كنت اقيم فيه في القاهرة ، حاولت ان أجد ثياباً تكون اقل اثارة للاهتمام من الملابس العربية ؛ الا ان العث كان خرب وافسد

جميع ملابسي السابقة . في غضون ذلك سمعت اخباراً ممتازة عن اللنبي وعن المأساة الاخيرة لموراي ، فيما يتعلق بالهجوم الثاني الذي شن على غزة ، والذي دفعت اليه لندن ، والذي كان متوقعاً ان نتكبد فيه خسائر كبيرة بلغت خمسة الاف وثمانمائة اصابة . وقالوا بأن اللنبي كان يقود جيوش من الرجال الجدد ، ومئات المدافع ، وسيكون الامر مختلفاً في المعركة القادمة . وقبل ان ارتدي ملابسي في الصباح ارسل رئيس هيئة الاركان بطلبي ، بشكل فضولي . ففي تقريري الذي قدمته مفكراً ومُذكراً بصلاح الدين الايوبي وابو عبيدة ، ركزت وشددت على الأهمية الاستراتيجية لقبائل سورية الشرقية ، ومدى استخدامهم الحقيقي ليشكلوا تهديدا لخطوط الاتصالات مع القدس . فقد آثار ذلك فضوله واهتمامه ، فاراد ان يبحث ذلك معي ويقيمه .

وكانت مقابلة مضحكة حيث كان اللنبي ضخماً من الناحية الجسدية وواثقاً من نفسه ، وعظيماً من الناحية المعنوية . وجلس على كرسيه ينظر الي - ليس بشكل مباشر ، كما كانت عادته ، ولكن بشكل جانبي يربك المرء . وكان قدم حديثاً من فرنسا حيث كان هناك يقوم بطحن الاعداء مثل ماكينة ضخمة . وكان مفعماً بالافكار الاوروبية حول قوة المدافع وفعاليتها في الحرب - التي لاجدوى منها لحربنا في الصحراء - الا انه كجندي فارس فقد كان مستعداً لتبني مدرسة جديدة في القتال بتطبيقها في جبهاته المختلفة في آسي . ومع ذلك فانه كان من الصعب ان يتقبل اي شيء غريب جداً بالنسبة له ، كما هو الامر بالنسبة لي ، عندما عرضت عليه تجهيز وتموين مائتي الف رجل من اجل تحقيق تحولات جذرية في الحرب .

ولم يستطيع اللنبي ان يعقد العزم على شئ محدد ، وتركته عاجزاً عن حل المشكلة . ولم يوجه لي اسئلة عديدة ، ولم يتحدث كثيراً ايضاً ، الا انه دقق وتمعن بالخريطة امامه واستمع لشروحاتي الغير واضحة لشرق سورية وسكانها . وفي النهاية فرك ذقنه وقال بهدوء مباشرة ، «حسناً سابذل ما بوسعي من اجلكم» . وانتهت بذلك المقابلة ولم اكن متأكد كم اثرت عليه ؛ الا اننا سمعنا فيما بعد انه كان يعني ما يقوله بالضبط ؛ وكان مااستطاع الجنرال اللنبي ان يفعله كافياً تماماً .

(٥٧)

بعد ذهاب كلايتون كشفت عن نفسي تماماً . فقد تم الاستيلاء على العقبة حسب الخطة التي وضعتها وبجهدي . فقد كلفني ذلك حرق افكاري واعصابي . ولكن كان هناك الكثير جداً شعرت انني اخفقت القيام به وكنت قادراً على فعله اذا ماظن بانه كان الحق لأكون سيد نفسي ، وقال العرب «بأن كل رجل لديه طاقات فعاله» ، وقمت بذلك بشكل محموم .

وكان كلايتون موافقاً على انها طاقات مفيدة وفعاله ، الا انه اعترض على ان القيادة الفعلية لايمكن ان تمنح لضابط صغير ، فاقترح ان يتولى جويس القيادة في العقبة : وهي فكرة ناسبتني تماماً . فقد كان جويس رجلاً يمكن ان يرتاح اليه المرء : هادئاً ، غير متقلب ، ومريح . فعقله وتفكيره مثل ارض منبسطة لها اربعة زوايا للنظر : مهتمة ، ودية ، محدودة ، وواضحة . وقد قام بعمل ثمين في رابغ والوجه ، عندما عمل على بناء جيش وقاعدة هناك ، الامر الذي كان ضرورياً للاستيلاء على العقبة . وكان دؤوباً ومنكباً على العمل ، وصبوراً جداً اكثر من ملاك ، ويبتسم فقط ابتسامة مرحة عندما أقدم اية خطط ثورية .

اما بقية الامور فقد كانت سهلة . حيث سيكون غوزلت ، ضابط التموين ، وهو رجل اعمال من لندن كان جعل من الوجه المخربة بلدة انيقة جداً . ومع ذلك فان الطائرات لايمكنها ان تعمل هناك ، الا ان العربات المصفحة يمكنها ان تأتي مباشرة ، وسفينة حراسة اذا ما كان الادميرال سخياً . واتصلنا مع السير روزلين ويميس ، الذي كان سخياً جداً ؛ حيث ان بارجته يوريالوس ، كانت سترسي

هناك خلال بضعة اسابيع . وكان هذا رائعاً ، اذ ان السفن كانت تقدر وتخمن بعدد مداخنها في الجزيرة ، وكان للبارجة يوريالوس اربعة مداخن بحيث تمتاز عن بقية السفن بضخامتها . وكانت سمعتها الضخمة تؤكد للجبال باننا كنا في الحقيقة الجانب الرابح ، كما ان طاقمها الضخم قد منحنا دعماً كبيراً .

وعلى الجانب العربي ، فقد طلبت بأن تغلق قاعدة الوجه المكلفة والصعبة وان يحضر فيصل بكامل جيشه الى العقبة . وبدا بأنه طلب مفاجئ بالنسبة للقيادة الانجليزية في القاهرة . هذا وقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، مشيراً بأن قطاع المدينة - ينبع اصبح ايضاً لا جدوى منه ، ونصحت بأن تحول الاموال والاعتدة والمؤن ، والضباط المخصصة له في العقبة . الا ان ذلك كان مستحيلاً . وانما نفذت رغبتي فيما يتعلق بقاعدة الوجه ومنحني ذلك حلاً وسطاً .

ثم اظهرت بأن العقبة كانت تمثل الخاصرة اليمنى لجيوش اللنبي ، حيث تبعد مائة ميل فقط عن مركزه ، بيد انها تبعد ثمانمائة ميل عن مكة . واذا ماتقدم العرب فانهم سيحققوا انجازات اكبر على جبهة فلسطين . لذلك فانه كان منطقياً بان ينتقل فيصل من منطقة الحجاز وليصبح قائداً لحملة جيوش الحلفاء المصرية . وكانت هذه الفكرة تحمل صعوبات في طياتها «فهل يقبل فيصل ذلك»؟ لقد تحدثت اليه بهذا الخصوص عندما كنا في الوجه قبل عدة شهور . وماهو رأي المندوب السامي البريطاني ايضاً ؟ ان جيش فيصل كان الاكبر ومتميزاً اكثر ، ومستقبله لن يكون غامضاً . وكان لابد وان تعرض الفكرة على الجنرال وينجيت ، وتولى ذلك كلايتون ، الذي كان يعرفه جيداً ولم يخش من اقناعه بها . واجاب وينجيت بأنه اذا ما امكن التعاون بين فيصل واللنبي فانه سيكون مسروراً من ذلك . وكانت الصعوبة الثالثة في الحصول على موافقة الملك (الشريف) حسين على ذلك ، فمعارضته ستعرض الخطة للخطر . وعرضت بأن اذهب واتحدث معه بهذا الخصوص ، وان اعرج على الامير فيصل لاحصل على توصية منه بذلك تدعم الرسائل التي احملها معي للملك من وينجيت . فقُبل طلبي . وخصصت السفينة دوفرين ، عند عودتها من العقبة لتنقلني الى جدة لاقوم بمهمتي الجديدة .

استغرقت رحلة السفينة يومان لتصل الى الوجه ، وكان كل من فيصل ومعه جويس ، نيوكمب وكافة الجيش في جعيدة . التي تبعد مائة ميل . وارسلني ستنت ، الذي خلف روس في قيادة الطيران العامل في الجزيرة العربية ، بواسطة الجو بالطائرة ، هذا وقد اجتزنا بشكل مريح الجبال المنهكة التي عرفتها من قبل والتي تقدر مسافتها بستين ميلاً خلال ساعة واحدة . وكان فيصل متشوقاً لسماع تفاصيل حملة العقبة ، وسر عند سماع اخبار معاركنا المبتدئة . وجلسنا نضع الخطط طيلة الليل . وكتب فيصل الى والده رسالة ؛ يطلب فيها بان ترسل فيالق الهجانة الى العقبة فوراً ، وقام بالترتيبات الاولى لارسال جعفر باشا وجيشه بواسطة البحر على متن السفينة هاردينغ الى هناك . وفي الصباح قاموا بارجاعي جواً الى الوجه ، وبعد ساعة اقلتني السفينة دوفرين الى جدة ، حيث اصبحت الامور سهلة بالنسبة الي بعد المساعدة القوية التي قدمها ويلسون . وللحفاظ على العقبة ، وهي قطاعنا الواعد ، القوي ، فقد ارسل حمولة سفينة من المؤن والامدادات والذخيرة ، وعرض علينا الاستعانة بأي من ضباطه . فلقد كان ويلسون من مدرسة وينجيت في هذا المضمار .

وقدم جلالة الملك من مكة ، وكان ويلسون في مقدمة مستقبلية . وشكره على قبول اقتراح انضمام قوات فيصل لقوات اللنبي في الحال . وانتهز الملك الفرصة للاعراب عن مساندته التامة للحلفاء . وبينما كنا نتحدث بشغف واهتمام ، وردت برقيتان على عجل من مصر حيث عكرت صفو حديثنا . اذ افادت الاولى حدوث مراسلات مشبوهة مابين الحويطات ومعان . وفي البرقية الثانية افادت ، بتورط عودة بهذا الاتصال ، مع الاتراك . وروعنا هذا الخبر . فقد سافر ويلسون مع عودة من قبل ، وكون حكم تام عليه فيما يتعلق باخلاصة التام : مع ان محمد الدحيلان هو الذي كان مؤهلاً للعب دور مزدوج ، وان ابن جاد واصدقائه كانوا مازالوا مشكوك فيهم . واستعدينا لنغادر في الحال الى العقبة. فتحول الامور لم يؤخذ بالحسبان عندما وضعنا خطة انا والشريف ناصر للدفاع عن البلدة .

ولحسن الحظ فقد كانت السفينة هاردينغ في الميناء لنقلنا . وفي عصر اليوم الثالث كنا نرسو في العقبة ، اذ ان الشريف ناصر لم تكن لديه اية فكرة بأن هناك أي شيء كان على خطأ . فابلغته فقط برغبتي لتحية عودة ابو تايه ، فاعارني جملاً سريعاً ودليلاً ؛ وعند الفجر وجدنا عودة ومحمد الدحيلان وزعل يقيمون جميعهم في خيمة في القويرة ، وقد دهشوا وتشوشوا عندما نزلت عليهم فجأة ، دون اعلان او اشعار مسبق ؛ الا انني تذرعت بأن كل شيء كان على ما يرام وتناولنا الطعام سوية كاصدقاء .

وقدم رجال آخرون من الحويطات ، وجرى حديث ممتع حول الحرب . وقمت بتوزيع هدايا الملك ؛ وابلغتهم ، وهم فرحون ، بأن الشريف ناصر قد حصل على اجازة لمدة شهر يقضيها في مكة . وان جلالة الملك اعتقد بأن رجاله يجب ان يعملوا بشجاعة وثبات . لذلك فانه لن يسمح بزيارة مكة ، وان الرجال البؤساء وجدوا في الخدمة العسكرية المستمرة كأبعاد ثقيل عن زوجاتهم . وكنا نعد مائة مرة ، بانه اذا ما تم الاستيلاء على العقبة فان ناصر سيستحق اجازة ؛ الا انه لم يصدق ذلك في الحقيقة لغاية ماسلمته رسالة الملك مساء امس ، وامتناناً منه ، لذلك فقد باعني الناقة غزالة ، وهي ناقة فخمة حصل عليها من الحويطات . وبما انني اصبحت مالكها الجديد فقد احاطني الحويطات بالاهتمام .

وبعد تناول الغداء ، تظاهرت بانني ذاهب للنوم ، فتركت الزائرين ، ومن ثم طلبت فجأة من عودة ومحمد بأن يتمشيا معي لرؤية الحصن الاثرى والذخيرة والمؤن الاحتياطية . وعندما اصبحنا لوحدنا اخبرتهما بقصة مراسلاتهما واتصالاتهما مع الاتراك . ويدأ عودة يضحك ؛ في حين بدا محمد الدحيلان مشمئزاً . وفي النهاية شرحا ذلك بشكل مفصل ، من ان محمد قد حصل على موافقة عودة وقام بكتابة رسالة الى حاكم معان التركي ، عارضاً عليه التخلي عن الاشتراك في الثورة . فرد علية الحاكم التركي بسرور بالغ واعداً بتقديم مكافآت عظيمة ، فطلب محمد ارسال شيئاً مقدماً . ومن ثم سمع عودة بذلك فانتظر لغاية ما قدم رسول الحاكم التركي وهو محمل بالهدايا فقام بالقبض عليه وجرده

من جميع ما معه ، وانكر على محمد حصته من الغنيمة . انها كانت قصة هزلية مضحكة ، وضحكنا تماماً بشأنها . بيد انه كان هناك المزيد وراء ذلك . لقد كانوا غاضبين من انه لم تأت بعد المدافع او قوات لدعمهم ؛ وانه لم تقدم لهم مكافأت لاستيلائهم على العقبة . وكانوا قلقين ليعرفوا كيف انني قد علمت باتصالاتهم السرية مع الاتراك ، وكيف عرفت اكثر من ذلك . فقد كانوا قلقين وتلاعبت بخوفهم بتسلية غير ضرورية مقتبساً بضحكة غير مبالية ، كما لو انها كانت كلماتي الخاصة ، بعبارات من الرسائل التي تبادلوها مع الحاكم التركي ، فخلق هذا انطباع مرغوب فيه .

وابلغتهم بشكل خاص من ان جيش فيصل كان قادماً برمته ، وان اللنبي سيرسل بنادق ومدافع ومتفجرات قوية ومؤن واموال الى العقبة . واخيراً المحت الى ان عودة قد قدم الشيء الكثير من خلال الضيافة ، وان ذلك سيساعد في دفع حصوله على هدية عظيمة من فيصل ، بصورة شخصية عندما يصل ، ورأى عودة بأن اللحظة المواتية لن تكون غير مفيدة : ذلك ان فيصل سيكافئه بشكل كبير ، وان الاتراك سيكونون دوماً معه اذا ما اخفقت المصادر الاخرى . لذلك فقد وافق بمزاج طيب جداً على قبول مبادرتي ؛ وسيبقى معها عرب الحويطات بسعة وسرور .

وكان الوقت شارف على المغيب ، فذبح زعل شاة وتناولنا الطعام ثانية في وئام وتفاهم حقيقيين . وبعد ذلك ركبت ناقتي ومعي مفضي (الدليل) ، وعبد الرحمن ، خادم محمد الدحيلان ، الذي همس لي بانه سيقوم بأي شيء ولو كان صغيراً اكلفه به على حدا . وسرنا طيلة الليل باتجاه العقبة ، وعندما وصلناها ايقظت ناصر من نومه لننجز آخر الاعمال ، ومن ثم ركبت قارباً صغيراً لاصل السفينة هاردينغ التي كانت راسية في البحر عندما كان الفجر يبزغ من وراء القمم العالية للجبال الغربية . ونزلت اليها وذهبت لاستحم ، ونمت لغاية منتصف الصباح . وعندما صعدت الى ظهر السفينة كانت تجر لتخرج من الخليج الضيق متجهة الى مصر . وسبب ظهوري عليها حساسية واستغراب . اذا انهم لم

يحلموا بأنه كان باستطاعتي ان اصل الى القويرة ، وأطمئن نفسي ، ومن ثم اعود في اقل من سته او سبعة ايام ، لاستقل آخر مركب متجه الى السفينة .

واتصلنا بالقاهرة لنعلن بأن الوضع في القويرة كان جيداً من مختلف النواحي ، وانه لا توجد هناك اية مؤامرة او خيانة . فقد كان ينبغي علينا ان نقلص من الحقيقة الحمقاء لنبقي على ثقتها (ثقة القيادة البريطانية هناك) ، ونجعل من انفسنا اسطورة . ولن يعرف الجميع هناك كما كان عودة انساناً كبيراً ، لانه بعد أية معركة او قتال كان قلبه يشفق على العدو المهزوم ، الذي هو يتعرض الآن ، باختياره المطلق ، بأن يوفر او يقتل ، ولذلك فان هذا لن يكون رائعاً ابداً .

(٥٨)

كان هناك توقف مؤقت ثانية في عملي كما ان افكاري تعاظمت ثانية . فلغاية ما يأتي فيصل وجعفر وجويس ومعهم الجيش فانه لم يكن بامكاننا سوى القيام بالشئ القليل والاستغراق بالتفكير ؛ ومع ذلك فقد كانت هذه عملية اساسية من اجل عمل حساباتنا الخاصة . وعزمت ان اعرف من الآن فصاعداً ، قبل ان اتحرك ، اين اكون ذاهباً وبأي الطرق . ففي الوجه رُبحت حرب الحجاز وبعدها ثم الانتهاء من العقبة ، وانتهى جيش فيصل من مهامه في الجزيرة العربية ، والآن وتحت القيادة المشتركة للجنرال اللنبي ، فانه سيأخذ دوره العسكري في تحرير سوريا .

ان الفرق مابين الحجاز وسورية هو كالفرق مابين الصحراء والارض الخصبة . والمشكلة التي واجهتنا كانت واحدة الشخصية ـ التعلم لتصبح مدنياً . فقرية وادي موسى كانت محطتنا القروية الاولى للامداد ، فما لم نصبح قرويين ايضاً ، فان تحركاتنا ا لمستقلة لن تمضي قدماً . فلقد كان من مصلحة الثورة العربية الكبرى في مرحلة نموها المبكر بأن يفرض هذا التغيير نفسه . وكان علينا ان نعمل المستحيل لحرث الاراضي البور المهدورة ، وان نجعل الوطنية والقومية تنمو في مكان ملئ بيقين الله . فمبدأنا بين القبائل يمكن ان يكون فقط كعشب الصحراء ـ جميل وسريع النمو ـ ولكن ما ان يتعرض لحرارة النهار حتى يذبل ويتغير . فالاهداف والافكار يجب ان تحول الى شيء ملموس بواسطة التعبير المادي . فرجال الصحراء كانوا منعزلين جداً ليعبروا عن ذلك ، وفقراء جداً في الموارد ،

وبعيدين جداً عن التعقيد ، ليحملوا وجهها الآخر . واذا ما اردنا اطالة معيشتنا فينبغي علينا ان نكسب الاراضي الفنية حتى القرى بما فيها ، ونبدأ حملتنا كما بدأناها في وادي العيص ، بدراسة وتدقيق الخارطة ، وتذكر طبيعة ارض معركتنا في سوريا .

ان اقدامنا تقف الآن على تخومها او حدودها الجنوبية . وتمتد الى الشرق منها البادية . والى الغرب فان البحر الابيض يحد سوريا ، من غزة الى الاسكندرية . وفي الشمال تحدها تركيا ، بسكان الاناضول . وضمن هذه الحدود فان اراضيها تشمل تقسيمات طبيعية . واول واضخم شيء منها هو الخط الطولي من السلاسل الجبال المتعرجة ، التي تفصل من الشمال الى الجنوب ، الشريط الساحلي عن السهل الداخلي الواسع . وهاتان المنطقتان لهما مناخيتين مختلفتين ، بحيث تبدوان وكانهما بلدان مختلفان ، وجنسان بشريان مختلفان تقريباً . فسكان الساحل السوري يعيشون في بيوت مختلفة وطبيعة اكلهم واعمالهم مختلفة ، يستخدمون لغة عربية تختلف في لهجتها عن تلك التي يستخدمها سكان الداخل ، او سكان السهل الداخلي . ويقال عن سكان الساحل بأنهم اقل شأناً يعيشون في ارض قاسية شهدت دماءً وارهاباً .

اما السهل الداخلي فهو شبه مقسم من الناحية الجغرافية الى مناطق ومساحات من الاراضي بواسطةالانهار . وهذه الوديان هي اكثر استقراراً وازدهار بالاراضي الخصبة المستصلحة للبلاد . ويعكس سكانها طبيعة ارضهم في عادتهم وتقاليدهم ، على النقيض من سكان الصحراء ، الذين يعيشون على التخوم الشرقية والغربية ، والذين يعيشون على الغزوات والغارات ، وهناك النزعات الدموية بينهم .

وقد قسمت الطبيعة البلاد الى منطقتين . فالناس والطبيعة المعقدة وقد منحت اجزائها تعقيداً اضافياً . فكل جزء او تقسيم رئيسي من هذه الاجزاء الشمالية والجنوبية يحيط نفسه بمجتمع مختلف وغريب عن الآخر بشكل مصطنع . وكان علينا ان نجمعهم في بوتقة واحدة ضد الاتراك . وكانت فرص

فيصل تكمن في التغلب على هذه التعقيدات السياسية والاجتماعية لسوريا ، والتي رتبنا واعددنا لها مسبقاً من الناحية الفكرية ، كخارطة اجتماعية متنوعة .

وفي اقصى الشمال ، تختلف لهجات السكان ، حسب المناطق ، ليس بشكل غير ملائم ، ابتداء من الطريق البري الذي يربط الاسكندرونة بحلب ، ولغاية ماتصل خط سكة حديد بغداد ، وحتى اعلى وادي الفرات ؛ الا ان اللغة التركية تسود شمال هذه المنطقة وبشكل عام في القرى التركمانية شمال وجنوب «أنثيوش» وهناك سكان من الارمن ينتشرون بينهم .

ومن ناحية اخرى فان العنصر الرئيسي لسكان الساحل هم من طائفة النصيرية ، وهي طائفة منشقة عن الاسلام ولها تعاليمها الخاصة . وهي مترابطة ومتماسكة في العلاقات ما بين افرادها ، فلا يخون النصيري أي واحد من ابناء طائفته . وتمتد قراهم في الشمال نزولاً حتى الجبال الرئيسية لطرابلس لبنان . ويتكلمون اللغة العربية . بل انهم يعيشون هناك منذ بداية العهد الاغريقي في سواحل سورية . وغالباً مايقفون بعيداً عن الامور والشؤون العامة ، تاركين الحكومة التركية تتصرف لوحدها . كما انه ينتشر بين مناطق النصرية قرى وتجمعات مسيحية ، معظمهم من الارمن . وفي المناطق الداخلية يوجد هناك الدروز ، وهم من اصل عربي ، وبعض الشركس الذين قدموا من القفقاس والى الشمال الشرقي منهم يوجد هناك الاكراد ، ويعود استيطانهم في تلك المنطقة الى عدة عقود من الزمن ، وقد امتزجوا وتزاوجوا مع العرب واتبعوا عادتهم وتقاليدهم . وكانوا على عدم وفاق مع المسيحيين ، كماانهم كرهوا الاتراك والاوروبيين .

كما يوجد الى ما وراء مناطق الاكراد بضعة جماعات من اليزيدية ، وهم يتكلمون العربية ، الا انهم تأثروا بازدواجية العقيدة وهم ميالون لمواكبة روح الشر . ويمقتهم كل من المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء والى الداخل تقع مدينة حلب التي (كان) يبلغ عدد سكانها مائتي الف نسمة ، وهم يعتبرون مثالاً مصغراً لكافة السلالات والاجناس والديانات . والى الشرق من حلب ،

وعلى بعد ستين ميلاً ، استوطنت هناك فئات من العرب الذين يصبح لونهم وعادتهم وتقاليدهم اقرب الى العشائر . والجزء الذي يقطع سوريا من البحر الى أقصى الجنوب ، يبدأ بوجود بعض التجمعات للشركس المسلمين بالقرب من الساحل . واجيالهم الجديدة تتحدث العربية . والى الداخل منهم توجد هناك طائفة الاسماعلية . وهم قد هاجروا من ايران وانشقوا عن المسلمين منذ قرون ويبجلون رئيسهم الاغا خان ، ويعتبرونه شخصية عظيمة ، مشرفاً الانجليز بصداقته لهم . وتقع خلفهم قرى لقبائل مسيحية عربية ، يشرف عليها شيوخ منهم . وهم يبدون هادئين جداً على العكس تماماً من اخوانهم المسيحيين الذين يعيشون على التلال . ويعيشون مثلهم مثل المسلمين السنة الذين يحيطون بهم ، ويلبسون مثلهم، وهم على افضل العلاقات معهم . والى الشرق من هذه القرى المسيحية يوجد تجمعات مسلمة شبه رعوية ، كما ان هناك ايضاً على آخر حافة من المناطق الزراعية ، توجد بعض قرى الاسماعلية النائية ، والى ماروائهم تقع المناطق البدوية .

اما القطاع الثالث لسورية الذي يتجه الى اسفل ، يقع ما بين طرابلس وبيروت . والمنطقة الاولى ، تقع بالقرب من الساحل ، حيث يقطنها المسيحيون اللبنانيون ؛ ومعظمهم من الموارنه او من اصول يونانية . ولكل منهما كنيسة يتبعها ابناء الطائفة فالموارنة يتبعون الكنيسة الفرنسية وطائفة اليونانيين تتبع الكنيسة الارثوذكسية الروسية . وهاجر جزء من السكان من اجل كسب الرزق الى الولايات المتحدة ، وانشأوا هناك مجتمعاً نشطاً خاصاً بهم . وتفخر الكنيسة اليونانية بكونها الكنيسة السورية القديمة ، اي الكنيسة الاصلية ، التي لا تخضع لهيمنة الكنيسة الرومانية .

وتعيش بين هاتين الطائفتين (المارونية واليونانية) عائلات مسلمة تماثلهم في عادتهم واجناسهم ، باستثناء بعض الاختلاف في اللهجات ، وهي اقل هجرة من البلاد الى الخارج .

وتتركز على السفوح العالية تجمعات وقرى طائفة المتاولة ، وهم من

الشيعة ، هاجروا من ايران قبل عدة عقود من الزمن . ويتفشى بينهم الجهل والتطرف وهم لا ينسجمون مع المسلمين السنة والمسيحيين على حد سواء ؛ ويتبعون تعاليم شيوخهم ووجهائهم فقط . ويفتخرون بقوة اجسادهم . وعلى قمم الجبال تقع قرى مسيحية تعيش بسلام ووئام مع جيرانها من قرى المسلمين وكانهم لم يسمعوا بتناقضات لبنان . وتوجد الى الشرق منهم تجمعات شبه بدوية لفلاحين عرب ؛ ومن ثم الصحراء الممتدة . والقطاع الرابع والذي يمتد الى اتجاه الجنوب يقع بالقرب من عكا ، اذ ان السكان ابتداءً من ساحل البحر ، هم من المسلمين السنة ثم الدروز ، ثم المتاولة . وكانت تعيش على ضفاف نهر الاردن تجمعات سكانية من المهاجرين الجزائريين بمواجهة القرى اليهودية . واليهود من اجناس مختلفة . فبعضهم ينتمي للمدرسة العبرية التقليدية (السفاريم) ، وقد قاموا بتطوير مستوى واسلوب معيشتهم لتتلائم مع المعيشة في البلاد في حين ان القادمين من اليهود فيما بعد (الاشكنازيم) ، ومعظمهم من الجنس الالماني ، قد جلبوا معهم عادات غريبة ، وزراعة ومحاصيل جديدة وغريبة ، وبيوت اوروبية (بنيت خارج نطاق صناديق التبرعات) جلبوها معهم الى أرض فلسطين التي بدت وكأنها متسامحة معهم . وبدا ان منطقة الجليل ابدت تساهلاً مع وجود المستعمرات اليهودية والمستوطنين اليهود ، الذين كانوا فئات غير محبوبة او مرحب بها في منطقة (يهودا) القدس المجاورة .

وفي الجانب الشرقي من السهول كانت توجد هناك تجمعات من المهاجرين السورين عبر عدة عقود . فقد عاشت سلالاتهم هناك في قرى غير قانونية ، ليأمنوا شر الاتراك وغارات البدو . وامتدت الى الجنوب والجنوب الغربي منهم سهول حوران ، وهي ارض خصبة واسعة يسكنها اناس من الفلاحين العرب ، المزدهرين ، المعتمدين على انفسهم ، والمولعين بالحرب . ويقطن الدروز الى الشرق منهم ، وكانوا على عداء شديد مع الموارنة والذين كانت الادارة التركية في دمشق تؤجج النار بينهم من فترة لاخرى ، فتحدث معارك طاحنة بينهم . كما انهم كانوا على نزاع مع البدو ، وحافظوا في جبلهم (جبل العرب) على

شعارهم الفروسي للعهود شبه الاقطاعية في لبنان ، عندما كانت لهم امارات وامراء ، مستقلة ذات حكم ذاتي .

والقطاع او الجزء الخامس هو الواقع في خط منطقة القدس ، والذي يبدأ بالمستوطين اليهود الالمان ، والذين يتكلمون اللغة الالمانية او اللغة الييدية (اليديش) ، وهم اكثر عناداً من يهود الحقبة (العصر) الروماني في فلسطين ، وغير قادرين على التعايش مع اناس اخرين من غير جنسهم . وبعضهم يعمل في الزراعة ، الا ان معظمهم من اصحاب المتاجر والحوانيت وهم غرباء جداً عن جميع سكان سوريا . ويحيط بهم اعدائهم من سكان فلسطين القرويين ، الذين يشبهون الفلاحين المصريين في فقرهم ووضعهم المادي ، وكانوا اكثر جهلاً من فلاحي ومزارعي شمال سوريا .

ويقع الى الشرق منهم غور الاردن ، الذي كان يقطنه مجموعات من السكان المسحقوين ، الفقراء جداً ، وبعدهم شيئاً فشيئاً تظهر قرى مسيحية مزدهرة بالزراعة . ويعيش بينهم والى الشرق منهم عشرات الالاف من التجمعات شبه البدوية ، يحملون العادات والتقاليد البدوية . والى اسفل من تلك المنطقة قامت الحكومة العثمانية بتوطين مهاجرين من الشركس ، الذين قدموا من روسيا القيصرية .

(٥٩)

ان سرد قصة سوريا لم تكن لتنتهي عند هذا التقييم للاجناس والديانات والعقائد المختلفة . فبعيداً عن سلالات واجناس البلاد ، فان المدن الكبيرة فيها - القدس ، بيروت ، دمشق ، حمص ، حماه ، وحلب - كانت كلها عبارة عن كينونات مختلفة ، كل واحدة لها شخصيتها الذاتية ، توجهها ، ورأيها المختلف . فالقدس ، التي تقع الى اقصى الجنوب ، هي مدينة مقدسة من قبل اتباع الديانات السماوية الثلاث . فالمسيحيون يحجون اليها ، بينما يعتبرها المسلمون مقدسة من الناحية التاريخية ، وبعض اليهود ينظرون اليها كمستقبل سياسي لهم . فهذه القوى المتحدة للماضي والمستقبل كانت قوية جداً بحيث اخفقت المدينة (القدس) لتجد وتملك حاضراً لها . فسكانها ، مع بعض الاستثناءات النادرة ، كانوا يعملون في المهن الوضيعة كعمال فنادق ، يعيشون على ما يجنوه من السياح والزائرين الذين يمرون عبرها . وقد كانت بعيدة جداً عن مباديء القومية العربية ، اما بيروت ، فهي مدينة حديثة جداً ومتأثرة بالحضارة الفرنسية وخاصة في اللغة ، وايضاً في ميناءها الذي هو على الطراز اليوناني وجامعتها الاميركية . ويمثل التجار المسيحيون الرأي العام فيها ، وهناك الرجال السمان الذين يعملون في الصرافة ، اذ ان بيروت لا تنتج أي شيء . والعنصر الاقوى التالي كان من طبقة المهاجرين العائدين ، المسرورين باستثمار مدخراتهم في هذه المدينة . واعتبرت بيروت بوابة سوريا ، وعبارة عن مجال او عالم شرقي ملون تدخل من خلاله التأثيرات الاجنبية المختلفة .

وعلاوة على ذلك ، فان بيروت وبسبب موقعها الجغرافي ، ومدارسها

وكلياتها ، ومناخ الحرية فيها بسبب تفاعلها مع الاجانب ، قد اصبحت قبل نشوب الحرب مركزاً لاناس ومفكرين يتحدثون ، ويكتبون ، ويفكرون بحرية كمفكري فرنسا العقائديين ، الذين مهدوا الطريق للثورة الفرنسية .

اما دمشق ، حمص ، حماه وحلب فهي اربعة مدن قديمة تفخر بها سورية الاصيلة . وهي تمتد كمثل سلسلة على طول الوديان الخصبة الواقعة ما بين الصحراء والجبال . وبسبب وضعها وموقعها فقد ادارت ظهورها لمناطق الساحل وتطلعت باتجاه الشرق . وسكانها من اصل عربي ، وعرّفوا انفسهم هكذا . وبالنسبة لهم ، ولسورية ، فان دمشق هي الرأس (العاصمة) بلا منازع ، ومقر الحكومة ، والمركز الديني . فشيوخها هم زعماء الرأي و «مكيين» اكثر من الآخرين في أي مكان آخر ، وسكانها النشطين والمتمردين ، راغبين دوماً في الاضراب ، وهم متطرفون في التفكير والكلام كما هو الحال في اللهو . وتفخر هذه المدينة بالتحرك قبل اي جزء آخر في سورية . وجعلها الاتراك مقراً لقيادتهم العسكرية ، كما انها بالتأكيد تعتبر مركزاً للمقاومة العربية . فدمشق هي النجم المنير الذي يستنير منه العرب طبيعياً ، وهي العاصمة التي لاتخضع لأي عنصر او جنس غريب . وحمص وحماه توأمان غير متشابهتين . وكلاهما منتجتان : فحمص تنتج المنسوجات الصوفية والقطنية ، وحماه تنتج المنسوجات الحريرية المقصبة . وصناعاتها مزدهرة وفي ازدياد مستمر ، ويجد تجارهما اسواقاً لهم ، كما يلبون اذواق المشترين او المستوردين من شمال افريقيا ، البلقان ، آسيا الصغرى ، الجزيرة العربية والعراق . وهما تظهران وتمثلان القدرة المنتجة لسورية ، التي لايشرف عليها الاجانب ، كما تثبت بيروت كفائتها في التسويق . ومع ذلك فبينما ازدهار بيروت جعلها مركزاً شرقياً بيد ان ازدهار حمص وحماه قوى من مكانتهما المحلية ؛ وجعلهما اصيلتين بشكل ثابت وغيور . ولدى سكانها عقيدة راسخة من ان عادات وتقاليد آبائهم هي الافضل .

وتعتبر حلب من اكبر مدن سورية . وتعيش فيها الاجناس ذات الاصول واللغات المختلفة بروح من التآلف . واصطدام مميزاتها الحضارية ، جعلت منها

كمشكاة مختلفة الالوان صبغ بها مواطنوها . وقد شاركت حلب في كافة الحضارات التي تعاقبت حولها ؛ فبدت النتيجة انعدام نكهة العقيدة لدى سكانها . وحتى مع ذلك فانهم قد تفوقوا على باقي سكان سورية . فهم حاربوا وتاجروا بشكل اكبر ، وكانوا اكثر تطرفاً ونشاطاً ؛ وصنعوا وحققوا اموراً اكثر جمالاً ، بل ان جميع ذلك تحقق بايمان نادر بقوتهم الوافرة المتعددة . ومما يجعل الامر نموذجياً في حلب هوالعيش بوئام مابين المسلمين والمسيحيين ، الارمن ، الاتراك ، الاكراد ، واليهود ، ربما اكثر من اية مدينة كبيرة تابعة للامبراطورية العثمانية . ومن الناحية السياسية ، فان هذه المدينة تقف جانباً ، آمنة في الساحات العربية ، كمثل القرى المتنامية شبه البدوية المنتشرة حولها ، وتفتخر بمساجدها التي تعود الى القرون الوسطى ، والممتدة شرقاً وجنوباً من قلعتها العظيمة . الا ان الزراعة تهيمن على السكان ، وبذلك تكون اقل مدنية عن بيروت ودمشق .

وجميع سكان سوريا هؤلاء يشتركون بعامل رئيسي مشترك وهو استخدام اللغة العربية كلغة رئيسية سائدة . اما اختلافاتهم وتناقضاتهم فهي سياسية ودينية ؛ فهم يختلفون بذلك ابتداء من مناطق الساحل حتى المناطق الداخلية . وهم يتميزون بسرعة البديهة ، الا انهم لايسعون وراء الحقيقة . ولديهم رضا ذاتي ؛ ولايقفوا عاجزين امام الافكار المطلقة ؛ الا انهم غير عمليين ؛ وتفكيرهم سطحي . كما انهم يشغلون انفسهم بقضايا الآخرين . وهم منذ صغرهم متمردين على القانون ، ويطيعون آبائهم خشية من عقابهم الجسدي ؛ ويطيعون حكومتهم فيما بعد لنفس السبب تماماً ، ومع ذلك فان هناك بضعة اجناس فيها تحترم القانون المتبع . وجميعهم يريدون حدوث شيئاً جديداً ، ولو كان سطحياً لاشباع عاطفتهم وشغفهم بالسياسة . والعلم سهل بالنسبة للسوري ليثرثر به ، الا انه صعباً جداً عليه ليتضلع فيه . وهم دوماً غير راضين عما تقوم به حكوماتهم ، الا ان فئة ضئيلة منهم فكرت باخلاص للعمل على ايجاد بديل افضل .

وبالنسبة للحياة السياسية فانه لايوجد كيان سياسي محلي اكثر من كيان

حجم قرية ، ولافئة في الهرم الاجتماعي اكبر من حجم عشيرة ؛ وهذه الفئات هي غير رسمية وتطوعية ، مجردة من الاعتراف بها ، يرئسها وجهاء من العائلات المعروفة ، بسبب ضعف تماسك الرأى العام . وكافة البنى السياسية والاجتماعية مأخوذة من النظام البيروقراطي التركي . والسكان ، حتى افضل المتعلمين منهم ، اظهروا تعامياً غريباً لافت للنظر بعدم أهمية بلدهم ، وسوء فهم لأنانية القوى العظمى التي كان نهجها العادي اعتبار مصالحها قبل مصالح هؤلاء الاجناس المجردون من السلاح . فبعض السوريين دعوا لانشاء مملكة عربية . وهؤلاء كانوا في غالبيتهم من المسلمين ، اما المسيحيين الكاثوليك فقد واجهوهم بالمطالبة بالحماية الاوروبية . وكلا الاقتراحان بعيدان عن قلوب الجمعيات الوطنية ، التي تدعوا وتنادي بالحكم الذاتي لسورية ؛ والتي لديها معرفة ماهو حكم الذاتي ، الا انها لاتعرف مدى طبيعة سورية ؛ اذ انه في القاموس العربي لايوجد مثل هذا التعبير . والتفسخ السياسي حاصل بين مدينة واخرى ، وقرية وأخرى ، وعائلة وأخرى ، ومبدأ وآخر ، مع وجود عنصر الغيرة والتنافر المشجع والمدعوم من قبل الاتراك .

فالوقت لا يبدو مناسباً بل من المستحيل ان يعلن عن حكم ذاتي متحد لمثل هذا البلد . وفي التاريخ القديم ، فان سوريا كانت تشكل ممراً ضيقاً بين البحر والصحراء ، تربط افريقيا باسيا ، والجزيرة العربية بأوروبا . وكانت عبارة عن اقطاعيات في العصر القديم تحت حكم الاغريق واليونان ، بيد انها كانت متأججة بالثورات والعصيانات .

ان المفتاح العام للرأي في سوريا يكمن في اللغة المشتركة (اللغة العربية) : حيث انه يكمن فيها ايضاً مفتاح الخيال . فالمسلمون الذين لغتهم الام هي العربية ينظرون الى انفسهم لذلك السبب على انهم شعب مختار ، فوارثتهم للقرآن وللأدب التقليدي (الكلاسيكي) ابقى الشعوب المتحدثة بالعربية على اتصال دائم . لذلك فان قومية الارض والجنس ارتبطت ودعمت باللغة .

والدعامة الثانية للحافز العربي هي المجد القديم ، العائد الى عهد الخلفاء

المبكر ، والذي ظلت ذكراه سائدة بين الناس طيلة قرون الحكم التركي الفاسد . حيث ظل اعتقاد العرب راسخاً من ان ماضيهم كان رائعاً اكثر من الاتراك العثمانيين . ومع اننا نعلم بأن هذه عبارة عن احلام ، فان انشاء حكومة عربية سورية ، ستكون عبارة عن حكومة تركية «مفروضة» ، او محمية اجنبية . فستظل سورية متلونة الاجناس والاديان كالموازييك . واي محاولة كبيرة لاستبعاد توحيدها ستكون غيرمرحب بها من قبل الشعب الذي ينفر من العودة الى الحكم المحلي المحدود والضيق .

من وجهة نظرنا فان العامل المستقل فحسب مع الاساس المقبول لشخصية امير سني عربي ، كالامير فيصل ، كان هو العامل المطلوب لاعادة واحياء امجاد الامويين او الايوبيين . فقد يمكنه من توحيد الرجال لغاية مايأتي النجاح والنصر الذي يتطلب مرحلة الانتقال لانشاء حكومة واحده منظمة .

ويبقى الاسلوب والاتجاه نحو احداث ثورات جديدة ؛ الا انه اتجاه بحيث يمكن لرجل اعمى ان يراه . فالمركز الخطير لسوريا في كافة العصور كان يكمن في وادي اليرموك ، حوران ، ودرعا . فعندما تنضم لنا حوران فان حملتنا ستنتهي بشكل جيد . وان العملية تستلزم انشاء سلماً او جسراً آخراً من القبائل ، مشابهاً لذلك النموذج أو الشكل الذي أُنشيء من الوجه الى العقبة : وجسرنا وسلمنا في هذا الوقت فقط ستنشأ درجاته او عناصره من قبائل الحويطات ، بني صخر ، الشرارات ، الرولا والسراحين ، ليصل بنا الى بعد ثلاثمائة ميل حتى الازرق ، الواحة القريبة من حوران وجبل الدروز (العرب) .

ولتطوير عملياتنا من اجل الضربة النهائية ، ينبغي علينا ان نكون وكأننا في حرب بحرية ، من حيث قابليةالتحرك ، كلية الوجود او التواجد في كل مكان ، مستقلين في القواعد والاتصالات ، متجاهلين المظاهر الارضية (التضاريس والمناخ) والمناطق الاستراتيجية ، والاتجهات الثابتة والنقاط الثابتة . فالذي يقود الحرب في البحر يكون في حرية مطلقة ، وقد يخوض الكثير او القليل من المعارك كما يشاء هو ونحن نقود القتال في الصحراء . ومجموعات الاغارة

بالجمال (الهجانة) لديها تمتع باكتفاء ذاتي مثل السفن الحربية ، بحيث يمكنها الضرب بثقة على طول جبهة العدو ، متأكدة من عدم تراجعها الى الصحراء ، الامر الذي لايمكن للاتراك تصوره . وقد خبرنا وميزنا مدى قوة وتنظيم العدو من خلال الممارسة الحربية . ويجب ان تكون تكتيكاتنا على اساس «اضرب واهرب» : اي ليس على شكل هجومات حربية ، وانما انزال الضربات به . ويجب علينا ان لانحاول ابداً من تطوير وضع هجومي طويل المدى . فعلينا استخدام اصغر قوة ، في اسرع وقت ، وفي اقصى أو آبعد مكان .

والسرعة الضرورية والمدى من اجل شن حرب بعيدة المدى سنحققها من خلال اقتصاد رجال الصحراء وتدبرهم وصبرهم ، وكفائتهم على قيادة الجمال . فالجمل هذا المخلوق المعقد والمذهل ، اذا ما كان في ايدي خبيرة يمكنه ان يقوم بدور بارز ورائع . وبواسطتها (الجمال) يمكننا ان نحمل مؤن لمدة ستة اسابيع ، اذا ما حمل كل رجل على جمله خمسة واربعين رطلاً انجليزياً من الطحين . وبالنسبة للماء فاننا لانريد ان نحمل معنا اكثر من جالون أو(قربة) ماء لكل واحد منا . ويجب على الجمال ان تشرب ، وان نبديها عن انفسنا . فبعض رجالنا لاينبغي ان يشربوا عند التوقف مابين الآبار ، ولكن اولئك المنهكين منهم ؛ فمعظمهم يمكنهم ان يشربوا تماماً عند كل بئر ، وحمل الماء معهم لمكافحة عطش النهار . وفي الصيف ، فان الجمال تستطيع ان تسير مسافة ما يقارب مائتي وخمسون ميلاً ؛ بعد سقايتها : وهي تعادل السير لمدة ثلاثة ايام . وفي المرحلة السهلة تكون مسافة السير خمسون ميلاً ؛ وثمانون ميلاً تكون مرحلة جيدة ؛ وفي وقت الطوارىء يمكننا ان نسير مائة وعشرة اميال خلال اربعة وعشرين ساعة : هذا وقد استطاعت ناقتي غزالة ان تسير مسافة مائة وثلاثة واربعين ميلاً ، مرتان ، ولوحدها معي . ونادراً ما تكون الابار بعيدة عن مسافة مائة ميل ، لذلك فان احتياطنا من الماء يكون كافياً .

ان مؤنتنا من الطعام لمدة ستة اشهر يمكن ان تمنحنا طاقة وقدرة للسير مسافة الف ميل والعودة الى قاعدتنا الاصلية (الى المناطق التي انطلقنا منها) . وقوة

احتمال وجلد الجمال جعلت من الممكن السير مسافة الف وخمسمائة ميل خلال ثلاثين يومياً ، دون الخوف من الجوع ؛ لاننا ، وحتى اذا ماتجاوزنا في الوقت او المدة فان كل واحد منا يجلس على كتلة من اللحم تزن مائتي رطل انجليزي (باوند) .

وبالنسبة للسلاح الذي سيستخدم في الاغارة على العدو ، فيجب ان يكون بسيطاً ، ولكنه متفوق تقنياً ، وذو فعالية كبيرة . لذلك فقد ارسلت الى مصر بطلبات من اجل الحصول على كميات ضخمة من المدافع الاتوماتيكية الخفيفة من نوعي هوتشكيس او لويس ، لتستخدم كادوات قنص . اما الرجال الذين دربناهم على استخدامها فقد ظلوا على جهل متعمد بالنواحي الفنية لفكها وتركيبها ، لا يضيعون أي وقت او جهد من اجل اصلاحها اذا ماتعطلت .

فمعاركنا كانت تحسب بالدقائق ، نقاتل في مساحة ثمانية عشر ميلاً في الساعة . فاذا ماتعطل المدفع الرشاش فيجب على المدفعي او مستخدمه ان يطرحه جانباً ويستخدم بندقيته .

والمظهر المتميز الذي يمكن ان يستخدم كانت المتفجرات العالية التفجير . فقد تمرسنا على استخدام اساليب الديناميت الخاصة ، وبنهاية الحرب فقد استطعنا نسف وتدمير أية كمية اومساحة من وسائل المواصلات والجسور دون هدر ، وحفظ سلامة انفسنا . وقد كان اللنبي سخياً في ارسال المتفجرات لنا . وكانت فقط هي المدافع التي لم نحصل عليها لغاية آخر شهر من الحرب - وبكميات ضئيلة منها . وخلال مدة الحرب برمتها فاننا لم نحصل سوى على مدفع واحد طويل المدى .

وكان توزيع مجموعات الاغارة غير مألوف . فلم يكن بامكاننا ان نخرج اونجمع القبائل مع بعضها البعض ، وذلك بسبب عدم ثقتها ببعضها : ولم نستطع ان نستخدم واحدة منها لتقاتل في ارض قبيلة اخرى . وعوضاً عن ذلك فقد هدفنا الى اتباع اوسع تفريق للقوات ، واضفنا الى ذلك مرونة في السرعة ، وذلك باستخدام ، مثلاً ، قوات منطقة ما يوم الاثنين واخرى يوم

الثلاثاء وثالثة يوم الاربعاء . وبذلك فان التحرك الطبيعي يكون قد دعم وقوي . ومن خلال مطاردة وملاحقة قوات العدو ، فان قواتنا كانت تزود وتدعم بانضمام رجال جدد اليها عند تواجد كل قبيلة جديدة ؛ وتحافظ على قوتها وطاقتها الاصلية . وكان حفظ توازننا هو اقصى غايتنا .

ان التنظيم الداخلي لفصائلنا او وحداتنا اظهر عدم النظام وتشوش كبير . فظروفنا القتالية لم تكن متشابهة ، ولو لمعركتين ، لذلك فانه لايمكن وضع نظام معين ملائم للقوات ، فتنوع واختلاف قواتنا قذف باستخبارت العدو جانباً . فهو لم يستطع من تخمين وتقدير فيالقنا او اكتائبنا . فقوتنا اعتمدت على التقيد بانظمة الجيوش وتشكيلاتها . وكنا نؤدي غاية وهدفاً مشتركاً من دون محاكاة قبلية . وبذلك فاننا ابعدنا العصبية القبلية عن طريقنا .

وكان الجنود العاديون يشكلون كلفة بالنسبة لنا سواء من الناحية المادية او المعنوية . ورجال القبائل يحملون السلاح طوعياً . وكثير من الوحدات كانت مجندة طوعياً ؛ وبضعة منهم خدم بشكل متطوع . وأي واحد من رجالنا العرب كان يمكنه ان يذهب لبيته من دون عقاب ، فالعقد الوحيد معه كان مبدأ ورباط الشرف .

وبالتالي فانه لم يكن لدينا انضباط عسكري بالمعنى الصحيح الذي يمكن معه من ضبط الافراد والسيطرة عليهم ؛ حيث ان تنظيمنا للقوات لم يكن بالمعنى المتعارف عليه للجيوش الحديثة ، ووحداتنا لم تكن مقسمة أو متخصصة في مهامها حسب التقليد المتبع ، كوحدات الصيانة والامداد والتموين ، حسب الهرم الطويل لتشكيل الجيش ، والذي يبقى عليه نشطاً في الميدان . فطبيعة الحرب العربية القائمة آنذاك لا بد وان تكون لها ردة فعل ضد هذا النظام ، وان تكون بسيطة وفردية في ادائها . فكل رجل مجند يجب ان يخدم او يقاتل في خط المعركة ويكون مكتفياً ذاتياً هناك . ففعالية قواتنا كانت تكمن في الفعالية الفردية او الشخصية لكل رجل على انفراد . وبدا لي بانه في حربنا المتحركة ، من ان فعالية كل رجل بمفرده يمكن ان يكون موازياً على الاقل لذلك النظام المعقد للجيوش وبنفس القوة .

ومن الناحية العلمية فانه لا يجب علينا ان نستخدم على خط النار عدد ضخم من الجنود الامر الذي يتنافى مع اتباع النظرية البسيطة لنظامنا ، خشية من ان يتطور هجومنا ويصبح متوسعاً جداً . فينعكس ذلك على مقاتلينا ويصبح عبئاً وصعباً عليهم . فالحرب الغير نظامية هي حرب تتطلب استخدام الفكر اكثر بكثير من الحرب النظامية ، ومنهكة اكثر بكثير من الخدمة في جيش نظامي ذو نظام مريح . ويجب ان يسمح لمقاتلينا وفدائيينا حرية العمل والحركة في المعركة . فهدفنا يجب ان يكون في جعل معاركنا سلسلة من النزالات او القتالات المنفردة ، ويجب ان يكون مقاتلينا مرتبطين بسرور مع قوادهم الاذكياء النشطين .

(٦٠)

رست السفن في خليج العقبة . ونزل الامير فيصل الى البر ، ومعه كل من جعفر ، واركان حربه ، وجويس . ثم جاءت العربات المصفحة والعمال المصريون والآلاف من القوات . في حين ذهب الخبير الالماني فالكينهاين ليكون مستشاراً للاتراك ، فذكائه الكبير جعلهم مؤهلين لمواجهتنا ، واصبح لحامية معان التركية قائداً خاصاً ، هوبهجت ، القائد القديم لمنطقة سيناء . وكان لديه ستة الاف من المشاه وفوج من الفرسان والمشاه المحمولة . كما انه حصن معان لغاية ماجعلها منيعة امام شن هجوم حربي عليها . وكانت الطائرات تعمل وتحلق يومياً من ذلك المكان . وكدست كميات ضخمة من المؤن .

وبذلك فان الاستعدادات التركية قد أُتمت ، وبدأوا بالتحرك كاشفين ، عن ان هدفهم كان القويرة ، الطريق الافضل المؤدي الى العقبة . فاندفع الفان من قوات المشاه الى حاميه ابا اللسان ، وقاموا بتحصينها . كما ان قوات الفرسان انتشرت في المناطق المحيطة ، لاحتواء أي هجوم عربي معاكس محتمل من جهة وادي موسى . فهذا التصرف بعصبية كان مانصبوا . إليه فعلينا ان نلعب معهم ونستفزهم ليلاحقونا الى وادي موسى ، حيث توجد هناك الموانع والعوائق الطبيعية التي تمنع من شن هجوم محكم . وليتكبدوا العدو خسائر فادحة ومن أجل ارهارق العدو فقد قام رجالنا المتمركزين في منطقة الدليفة المجاروة بمناوشته . فقام الاتراك بهجوم معاكس ، الا انهم عانوا من ذلك بشكل حاد . وذهب مولود القائد العسكري القدير بفوجه المحمول على البغال وانتشر مع

رجاله بين انقاض وآثار البتراء الشهيرة . كما قام بعض رجال القبائل في وادي موسى بقيادة شيخهم باستنزاف قوة العدو ، وأسر بضعة افراد منهم مع دوابهم واسلحتهم في كل يوم ، واستمر ذلك لعدة اسابيع . في حين ازداد العدو المهتاج سخونة يوماً بعد يوم .

كما استطعنا ان نضع الاتراك في وضع غير مريح في معان بطلبنا من الجنرال سالموند بأن ينفذ وعده في شن غارات جوية على معان .

وبما ان ذلك كان مهمة صعبة فقد اختار سالموند الطيار ستنت ، ومعه طيارين مدربين من قاعدتي رابغ او الوجه ، وابلغهم بأن يبذلوا اقصى جهدهم . وقد كانت لديهم خبرة في الهبوط على السطوح او الاراضي الصحراوية وبامكانهم ان يحلقوا فوق الجبال والتلال غير المعروفة لديهم ، وكان ستنت يتكلم العربية تماماً . وبهذه المناسبة فقد امر ستنت طياريه بأن يحلقوا على ارتفاع منخفض ليتأكدا من اصابة الهدف ؛ وعندما وصلوا معان قاموا بالقاء اثنين وثلاثين قنبلة عليها وعلى المواقع المحيطة بها .

والقيت قنبلتين على الثكنات العسكرية التركية ، فقتلت خمسة وثلاثين جندياً وجرحت خمسين . والقيت ثمانية قنابل على القاطرات فسببت دماراً شديداً فيه . كما القيت قنبلة على مطبخ طعام الجند فقضت على اعداد وجبة طعام الافطار . والقيت اربعة قنابل على مكان معد لهبوط الطائرات . وبالرغم من الاصابات الخفيفة لطائراتنا من جراء المدافع المقاومة إلاّ أنها عادت سالمة الى مكان هبوطها المؤقت في منطقة الكونتيلا بالقرب من العقبة .

وفي عصر ذلك اليوم قام الطيارون باصلاح وترميم محركات طائراتهم ، وبعد حلول الليل ناموا تحت اجنحتها . وفي فجر اليوم التالي كانوا يحلقون ثانية بطائراتهم . وكان الهدف في هذه المرة موقع ابا اللسان ، حيث يوجد هناك معسكر كبير رصده ستنت . فقاموا بقصفه واحداث خسائر فادحة فيه سواء في الافراد او المعدات او الدواب المستخدمة . وكما فعلوا في الامس ، فقد حلقوا على ارتفاع منخفض ، الا ان طائراتهم كانت اصاباتها بالغة في هذه المرة ، غير

انها لم تكن فادحة او مميته . وقبل حلول الظهر كانوا عائدين الى الكونتيلا .

ونظر ستنت الى كمية الوقود المتبقية في الطائرات والقنابل الموجودة ، فقرر بانها كانت كافية لشن غارة اخرى . فأصدر تعليماته لكل طيار بأن ينتبه ويعالج امر بطارية المدفعية التركية المقاومةللطائرات والتي ازعجتهم في الصباح . وبدأوا بغارتهم في منتصف النهار الحار . وكانت حمولاتهم ثقيلة جداً ، لذلك فقد طاورا على ارتفاع منخفض ومن ثم جاءوا من فوق جبل يقع خلف وادي ابا اللسان وطاروا فيه على ارتفاع ثلاثمائة قدم . وكان الاتراك نعسين دوماً عند الظهر ، حيث اخذوا على حين غرة تماماً . فاسقطت عليهم ثلاثون قنبلة ، حيث دمرت بطارية المدفعية وحولت الى حطام وقتلت القنابل الاخرى عشرات الرجال والدواب ومن ثم عادت الطائرات الى قاعدة العريش . وابتهج العرب كثيراً بذلك ، واصبح الاتراك مذعورين بشكل خطير ، وامر بهجت باشا رجاله بأن يحفروا الخنادق والملاجئ ، وعندما اصلحت ورممت طائراته أمر بنقلها ووضعها حول السهل المرتفع من اجل حماية المعسكر .

لقد شوشنا واقلقنا الاتراك بواسطة الضربات الجوية : فبواسطة الغارات الجوية المتكررة فقد خدعناهم باتجاه هدف خاطئ . وكان المصدر الثالث لتخريب هجومهم هو اعاقة وتعطيل الخط الحديدي الذي كان ضرورياً لبناء قوتهم الضاربة . ووفقاً لذلك فقد قمنا بترتيب عدة تفجيرات من اجل القيام بها في منتصف ايلول وقررت ايضاً احياء فكرة قديمة لتلغيم القطارات . شيئاً اكثر فعالية وتأثيراً من الالغام الاتوماتيكية المستخدمة ، وقد تخيلت تفجير مباشر بواسطة الكهرباء ، لتفجير الشحنة تحت العربة المتحركة أو السيارة . وقد شجعني المهندسون العسكريون البريطانيون لتجربة ذلك خصوصاً الجنرال رايت رئيس المهندسين في مصر ، الذي كانت تجربته في هذا المضمار قد اثارت اهتمامي . وارسل لي الادوات التي أوصيت بها : الأداة المفجرة وبعض الاسلاك الكهربائية واخذتها وتوجهت الى السفينة هامبر ، سفينة حراستنا الجديدة وصعدت على متنها وقدمت نفسي لقائدها الكابتن سناج .

وكان سناج محظوظاً في سفينته ، التي كانت بنيت لحساب البرازيل ، وكانت مجهزة بشكل مريح اكثر بكثير من السفن الحربية البريطانية الاخرى . وكنا نحن محظوظين اكثر به وبسفينته ، اذا انه كان يتمتع بروح الضيافة . وكانت طبيعته الاستعلامية مثار اهتمام بيننا كما أظهر جانباً مرحاً حتى في احلك كوارثنا . فعندما كنت اخبره بحادثة ما اخفقنا فيها فانه كان يضحك جراء ذلك ، وكان دوماً يكافئني عندما اخبره بقصة جيدة باتاحة حمام ساخن لي وشرب الشاي النقي الخالي من أي شوائب . وقد قدمت لنا لطافته وساعدت في الاستغناء عن السفر الى مصر لعدة مرات من اجل اعمال ترميم وصيانة ، مكنتنا من الضغط وضرب الاتراك شهراً بعد شهر .

كان جهاز التفجير يوجد في صندوق ابيض ضخم مقفل ووزنه ثقيل جداً وكانت حزمة الاسلاك الكهربائية ثقلية ايضاً ومغطاه بالمطاط . فقمنا بقطعها من النصف ووصلناها بالجهاز ، فعمل على الفور . إلاّ أنه عند وصل فتائل التفجير بها ، انها لم تشتغل ، فاستدعى سناج ضابط مدفعيته الخبير جيداً بهذا الشأن . فاقترح استخدام فتائل تفجير كهربائية خاصة . وكان يوجد في السفينة ستة منها فاعطوني منها ثلاثة فوصلنا واحدة منها بالجهاز ، وعندما تحرك ممسكه بقوة الى اسفل فانها فرقعت بشكل جميل . وبذلك فقد شعرت بانني عرفت كل شئ حول ذلك . وتحولت لترتيب التفاصيل حول الغارة . وبالنسبة للأهداف فقد بدت «المدورة» على انها أكثر أهمية وأسهل وصولاً ، وكانت عبارة عن محطة ماء تبعد ثمانين ميلاً عن معان . ونسف قطار هناك سيذهل العدو . وبالنسبة للرجال فقد كان عليّ تدريب فريقاً منهم من الحويطات ، وفي نفس الوقت ، كانت تلك الحملة تتطلب اختيار ثلاثة فلاحين من الحوارنه الذين اضفتهم الى فريقي . فنظراً للأهمية الجديدة لحوران ، فانه كانت هناك حاجة لنتعلم لهجة اهلها ولمعرفة تركيبة وعادات وتقاليد اطارها القبلي ، وأسماء مناطقها وقراها وطرقها . وهؤلاء الاتباع الثلاثة من حوران : رحايل وعساف وحميد سيعلمونني امور منطقتهم بشكل تدريجي ، ونحن نسير من اجل القيام بمهمتنا .

ومن اجل التأكد من عملية نجاح الاستيلاء على القطار ، فان العملية تطلبت وجود مدافع ومدافع رشاشة . وبالنسبة للمدافع ، فلماذا لاتُستخدم مدافع الهاون ؟ وبالنسبة للمدافع الرشاشة فلما لا تستخدم مدافع رشاشة من طراز لويس ؟ ووفقاً لذلك ، فقد اختارت القيادة البريطانية في مصر اثنان من المدربين الاقوياء برتبة رقيب ، اختيرا من المدرسة الحربية في «الزيتون» ، لتدريب مجموعات من العرب في العقبة على كيفيةاستخدام هذه الاسلحة ، وقد اتاح لهم الكابتن سناج التدريب على ظهرسفينته ، حيث انه لم يكن لدينا بعد معسكر انجليزي ملائم على البر للقيام بمثل هذا التدريب .

وربما كان اسما المدربين هو يلز وبروك ، إلاّ أنهما أصبحا لويس وستوكس بسبب حبهما الغيور لهذه الاسلحة ، وكان لويس استرالي الاصل ، طويلاً ونحيلاً وذا وجه قاس وحاجبان كثيفان . أما ستوكس فقد كان انجليزياً قصيراً وقوياً ممتلىء الجسم ، بارعاً وصامتاً ، متأهباً دائماً لتلقي الاوامر .

وكان لويس يبدو مسروراً عندما ينجز أي عمل بشكل جيد ، ويبدي اقتراحاته وآرائه مسبقاً . أما ستكوس فانه لايقدم أو يبدي أي رأي لغاية ما يتم العمل . وبعد ذلك كان يعيد تخمين الاخطاء التي يجب ان يتجنبها في المرة القادمة .

وكلاهما كانا رجلان يدعوان للاعجاب . وخلال شهر . وبدون وجود لغة مشتركة او مترجم ، فانهما تمكنا من تدريب الرجال تدريباً متوافقاً مع روح وطبيعة غاراتنا العشوائية كأفضل من المعرفة العلمية الكاملة .

وبما اننا كنا نعمل ضمن نطاق شن الغارات ، فان شهيتنا كانت تتنامى . وبدت محطة المدورة كهدف قابل للهجوم . فمن الممكن ان يقتحمها ثلاثمائة رجل بصورة مفاجئة . وسيكون ذلك أنجازاً ، إذ ان بئر ماءها العميق كان هو الوحيد المتواجد في ذلك القطاع الجاف الواقع الى اسفل من معان . فبدون ماءها ، فان خدمات القطارات عبر الممر الجبلي ستكون غير ذي جدوى .

(٦١)

قـال لويس ، الاسـترالي ، في تلك اللحظة الطمـوحـة ، بانه يرغب هو وستوكس بأن يكونا ضمن فريقي . وكانت فكرة جديدة جذابة . فبوجودهما معنا فاننا سنشعر بالثقة من ضمان امورنا الفنية ، عندما نهاجم الحامية . وايضاً فان هذين الرقيبين ارادا ان يذهبا بتشوق ، وعملها الجيد استحق المكافأة . وقد حذرا بأن خبرتهما من الممكن ان لاتبدو للوهلة ملائمة لذلك . فلم يكن هناك قواعد معينة نسير وفقها ، ومن الممكن ان لا تكون هناك تيسيرات او عدم تعقيدات في المسير والطعام والقتال في تلك المنطقة ، فاذا ماذهبا معنا فانهما سيفقدا او ينسيا أمر الراحة والسهولة التي يمتاز بها جيشهما البريطاني وسيشاركان مع المقاتلين العرب في مواجهة جميع المصاعب . واذا ماحدث أي شئ لي ، فانهما ، حيث لا يتكلما العربية ، سيكونا في وضع حرج .

واجاب لويس بانه كان يتطلع لمثل هذه المغامرة في الحياة . واعتقد ستوكس بانه اذا ما قمنا بذلك فان باستطاعته ان يقوم به . لذلك فقد استعارا جملين من افضل جمالي (وحملا في جراب سرجيهما كميات من اللحم المعلب والبسكويت) . وفي السابع من ايلول سرنا سوية الى وادي العتم ، لتنضم مجموعة من رجال عودة ابو تايه ، الموجود في القويرة ، الينا .

ومن خط الرقيبين فان الامور كانت تسير افضل مما قلت وتوقعت . فقد سرنا بسهولة كبيرة في مستهل الرحلة ، وكنا مسيطرين على الوضع . ولم يحدث أي شئ للجمال ، الا انه كان هناك خوفاً من حرارة الصخور الغرانيتية لوادي العتم من ان تؤثر عليهما وتصيبهما ضربة شمس قبل ان تبدأ الرحلة تماماً .

فقد كان شهر ايلول شهراً سيئاً من حيث الطقس . فقبل بضعة ايام ، تمت ظلال اشجار بساتين النخيل لشاطئ العقبة ، فان درجة الحرارة سجلت رقماً عالياً هناك . لذلك فقد توقفنا عند منتصف النهار لنستظل بجانب جرف صخري شاهق ، وفي المساء سرنا لمسافة عشرةاميال فقط لنعسكر بعدها من اجل قضاء الليل . وأخذنا نتعم بوجود صفائح الشاي الساخن والارز واللحم وكان تأثير ذلك بادياً بصورة ايجابية على ملامح الرجلين . وكان تصرف كل واحد منهما حسب المتوقع . فالرقيب الاسترالي (لويس) بدا منذ البداية وكأنه يسير في وطنه ، وتصرف بشكل غير متحفظ تجاه الرجال العرب . وعندما كانوا يجارونه في تصرفه ويبدون مودة نحوه فانه كان يصبح منذهلاً وممتعضاً تقريباً : فانه لم يكن متصوراً ابداً بانهم يمكنهم ان يضللوا بلطافتهم لينسوا الاختلاف بين رجل ابيض ورجل اسمر (الاختلاف بين الاجناس) .

ومما كان يضفي روح الدعابة على الموقف بأنه كان أكثر اسمراراً من رجالي الجدد ، والذين كان اصغرهم سناً يثير اهتمامي اكثر . فرحايل كان فتى بمعنى الكلمة؛ ممتلئاً وقوي البنية . وكان مفتخراً في حديثه ، ويستخدم اللهجة العامية ، وغالباً ما يكون مندفعاً ومتباهياً في الحديث ، من غير كلل وعصبية . إلاّ ان روحه المعنوية لم تكن بقوة جسده ، بل انها متقلبة . فعندما يصيبه التعب والانهاك فانه ينهار باكياً ، ويذهب ذلك عنه عند أي تدخل خارجي ، وبعد ذلك فانه يصبح ملائماً للتحمل والصبر اكثر . وكان رجالي يمنحون رحايل الكثير من التساهل والحرية في تصرفه ، وذلك الى حد ما ، بسبب جاذبيته وسحره الحيواني ، ونزعته الى التباهي بشخصيته ، وقد رصد مرة أو مرتين وهو يخل ويخرج عن نطاق الادب مع الرقيبين . اما ستوكس الانجليزي فقد دفع بغرابة الرجال ليصبح منزوياً على نفسه ، ومنعزلاً اكثر . فخجله القويم كان يذكر رجالي في كل تحرك بانه كان لايشابههم في تصرفاتهم وانه كان انجليزياً غريباً عنهم . فمثل هذا الاعتبار كان يقابل بالاحترام .

وكانوا يطلقون عليه لقب «الرقيب» ، في حين كانوا يطلقون على لويس لقب «الطويل» .

ان هذه كانت نقاط ودرجات الشخصية التي ظهرت كلها في سلوكهما . وانه كان شيء مذل لنجد ان خبرتنا العلمية بكل البلدان والعصور مازالت تتركنا متأذين كمثل الغسالات (العاملات في الغسيل) ، ولكن بدون قدرة كلامية للتعامل مع الغرباء. ويقسم الانجليز في الشرق الاوسط الى فئتين او طبقتين . الفئة الاولى ، هي متملقة وماكره تستوعب وتفهم ميزات الناس هناك وتستوعب لغتهم ،احاديثهم، وتقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم تقريباً . ويمكن لهذه الفئة ان توجه الرجال او الناس بصورة خفية وترشدهم كما تريد . فبمثل هذا التأثير الخالي من الاحتكاك فان طبيعتها الحقيقية تظل مخفية. وغير ملاحظة . اما الفئة الثانية ، فانها تصبح انجليزية اكثر كلما ابتعدت زمن اطول عن انجلترا . وفي الخارج فانها تظهر مثالاً تاماً لسماتنا وميزاتناالانجليزية وتظهر انجليزيتنا كاملة . .

في اليوم التالي ، عندما بدأ الحر مبكراً اصبحنا بالقرب من القويرة ، واجتزنا السهل الرملي بصورة مريحة ،عندها سمعنا ازيراً في السماء فدفعنا الجمال بسرعة الى طريق مفتوح مؤدي الى أرض احتوت على شجيرات ، إذ أن الوانها المشوشة لن تكون مميزة من قبل الطيارين الاعداء . وقد ابقينا معنا السروج المليئة بالمواد شديدة الانفجار وقنابل المورتر ايضاً وانتظرنا هناك بشكل متزن ، في حين كانت جمالنا تقوم بالرعي ما امكنها من العشب الضئيل ، لغاية ماقامت الطائرة بالاستدارة مرتين حول الصخور المحيطة بالقويرة امامنا ، والقت ثلاث قنابل مدوية.

وبعد ذلك جمعنا قافلتنا في الممر ثانية وتقدمنا برفق الى المعسكر ، كانت القويرة مفعمة بالنشاط ، إذ كانت تمثل سوقاً للحويطات المتواجدين على التلال والاراضي العالية . واذا ما امتد البصر الى السهل فان المرء سيرى الجمال منتشرة فيه من اجل الرعي ، والتي عددها الوافر ينضب الماء من الحفر القريبة في كل صباح وقبل حلول الفجر ، لذلك فان من تأخر بالاستيقاظ من النوم مبكراً فانه لابد وان يرحل الى عدةاميال من اجل الشرب .

وكان هذا أمراً بسيطاً اذا انه لم يكن للعرب شيء ليفعلوه سوى ان ينتظروا

قدوم طائرة الصباح التركية ، وبعد مرورها لايكون هناك شيء سوى التحدث لقتل الوقت لغاية حلول الليل ومجيء وقت النوم . وكانت الاحاديث واوقات الفراغ وافرة جداً وقد احيت الضغائن والغيرات القديمة . وكان عودة ابو تايه يطمح في الاستفادة من اعتمادنا على مساعدته ليقوم بتصنيف قبائل الحويطات . فسحب نتيجة لذلك اجوراً كبيرة من اجل رجال الحويطات ، وبواسطة المال سعى لاخضاع فئات صغيرة منها لقيادته ، الا انها استاءت من ذلك ، وهددوا اما انهم سينسحبوا إلى جبالهم وتلالهم او ان يعيدوا الاتصال مع الاتراك . فارسل فيصل الشريف مستور كوسيط الى هناك . الا ان فئات الحويطات التي كانت تعد بالالاف لم ترض بالتسوية ، بسبب تشددها وتعنتها ، وكانت مهمة ارضائهم دون إغضاب عودة ابو تايه هي مهمة شاقة تماماً . وكان رجال العشائر الجنوبية الثلاث الذين اخترناهم للمشاركة في شن غارتنا او هجومنا من بين المنشقين ، وتحدث معهم الشريف مستور ، كما تحدث معهم شيوخ قبيلة ابو تايه ، وجميعنا تحدثنا معهم من اجل اقناعهم ، الا انه دون جدوى . وبدت الامور وكأن خططنا قد تحطمت منذ البداية .

وفي احدى الايام وبينما كنت ذاهب قبل الظهر لاستظل بجانب الصخور ، قابلني الشريف مستور ومعه اخبار بأن رجال العشائر الجنوبية كانوا يركبون جمالهم ليتركوا معسكرنا . فملئت غيظاً واندفعت الى خيمة عودة . الذي كان يجلس على ارض الخيمة الرملية وهويتناول الطعام مع اخر زوجة له ، وكانت فتاه سمراء البشرة ، جملية . وعندما اندفعت الى الداخل فجأة ، رجعت المرأة الصغيرة بحركة رشيقة الى الجناح الاخر من الخيمة كالارنب . وبدأت بصب غضبي وانفعالي الشديدين وسألته فيما اذا كان يجد الحياة جيدة ليشكر والديه على جلبه اليها ؟ فرد علي بافتخاره بنفسه وبوالده ، وبجده وبنسبه وذريته . وكانت نتيجة حديثنا انه كان علي ان اذهب الى بقعة منعزلة لانتظر الاحداث . واستأجرنا عشرين جملاً لتحمل المتفجرات ، وفي الغد ، وبعد ساعتين من مرور الطائرة التركية تقرر موعد استئناف مسيرنا .

إن مـرور الطائرة كـان منظمـاً غـريبـاً وطريفـاً للنشـاط العـام في مـعـسكر القويرة. فالعرب هناك كانوا ينهضون دوماً قبل الفجر ، ينتظروها . وقد كلف مستور احد العبيد بأن يصعد على قمة الصخرة العالية ليعطي اشارة التحذير الاولى لقدومها . وعندما تقترب ساعة قدومها فان العرب يمشون ببطء ودون مبالاة باتجاه الصخرة الضخمة . وحالما يصلون اليها ، فان كل واحدة يتسلق الى زوايته التي يفضلها . وبعد أن كان مستور يصعد اليها ومعه جماعة من عبيده ودلة قهوته النحاسية. وكان يجلس هو وعودة يتحدثان لغاية ماتأتي اللحظة المثيرة ، ويسمع صوت ازير محرك الطائرة قادماً من فوق ممر الشطار .

وعندما قدمت الطائرة التصق كل واحد بالجدارالصخري خلفه وانتظر بهدوء ، في حين كانت الطائرة العدوة تحلق بزهو فوق قمة الصخرة التي كانت تضم مشهداً غريباً يضم الالاف من العرب الذين كانوا ينظرون اليها وهم مختبئون في اعشاشهم كالطيور، ومن ثم تقوم الطائرة بقذف حمولتها من القنابل وفقاً لما هو مقرر لها في ذلك اليوم . فتنفجر القنابل على السهل الاخضر محدثة دخاناً وتراباً متناثراً مايلبث ان يتلاشى. هذا وكنا نعرف بانه لاخطر وراء ذلك ، ومع ذلك فإنه لم يكن بامكاننا سوى ان نحبس انفاسنا عندما تسقط القنبلة من الطائرة التي كانت تحلّق فوق رؤوسنا محدثة زئيراً شديداً .

(٦٢)

غادرنا القويرة بسرور تاركين خلفنا الضجيج (ازير الطائرة) والامتعاض. هذا وبعد وقت قصير من المسير توقفنا : إذ أنه في الحقيقة لم تكن هناك ضرورة للاسراع ، وأن رفيقاي الاثنان غير المحظوظين معي (الرقيبان الانجليزيان) كانا يعانيان بشدة من الحرارة التي لم يألفوها ابداً ؛ اذا ان الهواء الخانق كان كمثل قناع معدني فوق رؤوسنا . وكان شيئاً يدعو للاعجاب بأن اراهما يكافحان ولايتكلمان او يتحدثان عن معاناتهما . ذلك انه من الممكن انهما كانا يحافظان على روح مباشرتهما بالخروج من العقبة وتحمل المشاق بثبات كالعرب . إلاّ أنه بهذا الهدوء ، فان الرقيبين ذهبا الى ابعد بكثير من الإلتزام والتعهد الذي قطعوه على نفسيهما وكان مجهولاً بالنسبة للرجال العرب الامر الذي جعلهما شجاعان الى حد زائد ، اذا ان الرجال العرب انفسهم كانوا متذمرين من الحر الخانق ، إلاّ أن تأثير الاختبار كان مفيداً ؛ لذلك ومن اجل التأثير ، فقد ناورت حول ذلك ، مبدياً لامتع نفسي بذلك .

وبعد العصر ، سرنا مسافة اخرى وتوقفنا من اجل قضاء الليل تحت اجمة من الاشجار الكثيفة . وكان مكان تخييمنا جميلاً ، حيث انتصب خلفنا جرف شاهق الارتفاع ، ربما يبلغ ارتفاعه حوالي اربعمائة قدم ، لون سطحة احمر غامق. وامتدت تحت اقدامنا ارض من الطين القاسي ذو اللون الاصفر البرتقالي، وكان قاسياً وصلباً وكأنه مرصوف بالخشب ، ومنبسطاً وكأنه بحيرة مساحتها نصف ميل . وانتصبت أجمة من الاشجار نحيلة الاغصان على زاوية

منخفضة الارتفاع . وكانت اغصان الاشجار وجذوعها بنية اللون وعلى اطرافها وحوافها اوراق خضراء ضئيلة ومغبرة ، التي وهنت من جراء الجفاف واشعة الشمس لغاية ما اصبحت رمادية ضاربة الى اللون الفضي الشاحب .

كنا نسير باتجاه وادي رم وهو مصدر الماء الشمالي لقبيلة بني عطية ، ومكان استحوذ على تفكيري ، حتى أن الحويطات قد ابلغوني بأنه كان مكاناً رائعاً . وفي الغد فانه سيكون شيئاً جديداً بدخولنا اليه ؛ ولكن في وقت مبكر جداً . وبينما كانت النجوم ماتزال تتلألأ في السماء فقد أوقظت من قبل عيد ، وهو شريف حارثي متواضع كان يرافقنا . فقد زحف الي وقال بصوت مرتجف «سيدي لقد اصابني العمى» . وجعلته يستلقي على ظهره وشعرت بانه كان يرتجف وكأنه اصابه البرد ، الا ان كل ما كان باستطاعته ان يقول لي بانه كان استيقظ اثناء الليل ولم يستطع ان يرى شيئاً ، وانما فقط شعر بالالم في عينيه ، لقد احرق وميض الشمس عينيه .

كان النهار لايزال في بدءه عندما سرنا بين هضبتين من الحجارة الرملية وحتى مستهل سفح طويل ينحدر من جبال ذات قبب واقعة أمامنا وكانت مغطاه بالاشجار النحيلة : وهو بداية وادي رم كما قالوا لي . ونظرنا اعلى الى جهة اليسار الى جدار طويل من الصخر ، منحدر ومنحرف كمثل موجه ارتفاعها الف قدم باتجاه منتصف الوادي ؛ والذي كان جزءه المنحني الآخر ، الى اليمين ، خطاً مقابلاً لجبال شديدة الانحدار متكسرة الشكل حمراء . وسرنا الى اعلى السفح شاقين طريقنا فوق الحجارة الهشة سريعة الانكسار .

وعندما كنا نسير لاحظنا ان اجمة الاشجار تتكثف اكثر لتصبح اوراقها اكثر اخضراراً ونقاءً . واصبح الصعود لطيفاً ، لغاية ما اصبح الوادي سهلاً مستوياً محصوراً . وكانت الجبال الى جهة اليمين تصبح اطول وحادة اكثر ، وتقابلها على الجهة الاخرى مجموعةاخرى ممتدة سوية لغاية مسافة ميلين يقسمهم عن بعض ، ومن ثم ترتفع تدريجياً لغاية ما تصبح قممها المتوازية مرتفعة الاف الاقدام فوقنا ، وتمتد للامام في ممر لعدة اميال .

ولم تكن عبارة عن جدران غير متكسرة من الصخور فقط وانما شكلت وبشكل جزئي من صخور كمثل ابنية شاهقة الارتفاع على طول جانبي ممراتها. وهناك ممرات ضيقه عميقه طولها نحو خمسين قدماً ، تقسم الصخور او الجروف شديدة الانحدار ، التي خططت سطوحها بواسطة الطقس والمناخ الى نتوءات وفجوات وزخرفت بسطح متآكل ومتشقق ومتكسّر وكانها كانت مصممة وفق ذلك . أما التجاويف فترتفع عالياً على الجروف وهي مستديرة مثل النوافذ ، وأخرى مجوفة بمساحة قدم كمثل الابواب . والبقع المظلمة تنحدر امام الواجهة المظللة لعدة مئات من الاقدام كمثل مصادفة مفيدة . والجروف (الصخور)شديدة الانحدار محززة ومخططة بشكل عمودي في صخورها الحبيبية المبرغلة ، التي ينتصب شكلها ووضعها الرئيسي على مائتي قدم من الصخور المتكسرة الاعمق في لونها والاصلب في نسجها . ولا تشبه في قاعدتها او اسفلها الحجر الرملي ، بل معلقة في تنيات كالملابس ؛ وذات طبقة مرققة من الحصى أفقية الشكل كمثل أساسات جدران .

وقمم الصخور او الجروف مغطاه باعشاش من القمم ، لونها اقل احمراراً من جسم الجبل ولونها رمادي نوعاً ما وشكلها مسطح وتعطي شكلاً شبيهاً بفن العمارة البيزنطي لهذا المكان الذي لا يقاوم ؛ والذي يفوق حد التصور والخيال . ويمكن للقوات العربية أن تختفي بين ثناياها (طولها وعرضها) وبين جدرانها يمكن ان يصطف سرب من الطائرات. وحطّت قافلتنا الصغيرة رحالها هناك بهدوء مطبق ، خائفة وخجلة من ان تتباهى بسبب صغر حجمها أمام هذه الجبال الهائلة.

ان المناظر الطبيعية الخلابة ، كانت كمثل حلم طفولة ، فسيحة وهادئة. وتطلّعت إلى الوراء من خلال ذاكرتي بالنسبة للنموذج الاولي البدائي ، حيث ان جميع الرجال قد ساروا بين هذه الجدران باتجاه هذه الساحة الفسيحة المفتوحة . وبعد ذلك عندما كنا غالباً مانسير في الارض الداخلية ، فقد اعتاد تفكيري ان يحولني من الطريق المباشر لأصفي وانقي مشاعري واحاسيسي بقضاء ليلة في

وادي رم وبالسير باتجاه السهول المشعة اسفلاً ، وبالسير في اعلى واديها عند الغروب باتجاه تلك الساحة (الارض الفسيحة) المتوهجة الذي لا يدعني هاجسي او حدسي الجبان ان اصلها ابداً . وكنت اقول في نفسي « هل يمكنني ان اسير في هذه المرة الى ماوراء الخزايل وان اعرفها برمتها» ، وإنما في الحقيقة فقد أحببت وادي رم كثيراً جداً .

لقد سرنا في ذلك اليوم لعدة ساعات بينما كان المشهد يزداد روعة اكثر فأكثر في تصميمه المنظم ، ولغاية ما برزت أمامنا على جهة اليمين فجوة موجودة في مقدمة جرف او صخرة كانت تمثل اعجوبة جديدة . وهذه الثغرة او الفجوة التي ربما تكون مساحتها ثلاثمائة ياردة هي عبارة عن صدع اوشق في هذا الجدار الصخري يؤدي الى ارض منبسطة تكتنفها الكثبان الرملية ، بيضاوية الشكل ، مسطحة قليلاً في واجهتها ، وطويلة متعرجة يميناً ويساراً . والجدران الصخرية هي كالجروف ، تشبه كافة الجدران الصخرية لرم ولكن بدت اعظم كبراً بسبب الحفرة (الثغرة) الكامنة في وسط قلب الجبل .

وسقطت اشعة الشمس وراء الجدار الصخري الغربي تاركة الحفرة في ظل ، إلاّ ان توهج اشعتها الخامد تدفق باجنحة حمراء مجفلة من كل جانب للمدخل ، وعلى الجسم المضطرم او الملتهب لأبعد جدار صخري في الجانب الآخر من الوادي العظيم . وكانت ارض الحفرة او المنحدر تتكون من الرمل الرطب تتخللها بعض الشجيرات الضاربة الى السواد ، في حين تواجدت حول كافة الجروف صخور ضخمة تفوق في ضخامتها حجم البيوت ، وتكون احياناً في الحقيقة كمثل حصون وقلاع تحطّمت وانهارت من أعلى الجروف الصخرية . وكان أمامنا ممر ، حذر في الاستخدام ، متعرج الى اعلى قاعدة الجرف الى درجة تبرز معه الواجهة الرئيسية ، ومن هناك يتحول بشكل خطر باتجاه الجنوب على طول سلسة صخور ناتئة على جوانبها بعض الاشجار المورقة . ومن بين هذه الاشجار وفي الشقوق والصدوع المخفية للصخور يمكن ان تصدر أصوات غريبة او أصداء التي تتحول الى مايشبه الموسيقى لاصوات العرب الذين يقومون بسقاية

الجمـال عند الينابيع ، التـي تتدفـق خارجـاً مسافـة ثلاثمائـة قـدم فـوق سطح الارض .

كان المطر ينهمر فوق القمم الرمادية للجبال العالية ويرتطم ببطء على الصخور لينفذ بينها . وقد لاحقت ذلك بتفكيري والماء ينهمر ويتصفى بوصة بوصة نحو الاسفل من خلال تلك الجبال من الحجارة الرملية لغاية مايأتي الى القواعد الافقية للجبال ، ويسقط على طول سطحها . واستدرنا نحو الأرض المنبسطة الواقعة الى اليسار . وعند نهايتها قام الرجال بتنظيف مساحة منها تقع بجانب صخرة كبيرة ؛ وهناك انزلنا حمولاتنا لنخيّم فيها . وحل الظلام بسرعة فوقنا في هذا المكان المحصور وشعرت ببرودة الطقس على بشرتي التي احرقتها الشمس . وقام رجال من الحويطات من الذين يعتنون بحمولتنا من المتفجرات بسحب جمالهم ، وقادوهم وصدى صوتهم مسموع أعلى ممر الجبل ليقوموا بسقايتهم تمهيداً لعودتهم المبكرة إلى القويرة . وأشعلنا النار وقمنا بطهو الارز لنضيفه الى اللحم المعلب ، في حين كان يقوم رجالي بتحضير القهوة من اجل الزائرين الذين سيقدمون الينا .

وكان العرب الذين يقيمون في الخيام خارج تجاويف الينابيع قد رأونا ندخل الى هناك ؛ ولم يكونوا بطيئين في سماع اخبارنا وخلال ساعة كان يحيط بنا شيوخ ورؤساء عشائر الدراوشة ، الزليباني ، الزوايدة وغيرهم ؛ وجرى هناك حديث مطول لم يكن سار جداً . ولم يكن لأحد ان يساعدني ويزيل العبء عن كاهلي في التحدث مع رجال العشائر تلك إذ إن ذلك تطلب مهمة خاصة لم اكن لاتقنها . فتلك القبائل الصغيرة كانت غاضبة من قبيلة ابو تايه ، وتشك باننا كنا نساند عودة في طموحه لفرض السيطرة عليهم . ولم يكونوا راغبين في الانضمام الينا لغاية ما يتأكدون من دعمنا لمطالبهم المتشددة .

وكان جاسم ابو دويك ، وهو فارس بارع قاد الرجال في موقعة أبا اللسان ، وأظهر نشاطاً مفعماً في ذلك الوضع . كان اسمر البشرة ذا وجه متعجرف وابتسامة رقيقة ، طيب القلب ، إلا أنه سريع الغضب . أما في ذلك

اليوم فقد اشتعل بالغيرة على قبيلته . ولم يكن باستطاعتي التغلب عليه بسهولة ، لذلك فقد واجهته بصنف وشدة في الكلام لغاية ما أسكته . وفي مثل ذلك الموقف المخجل فان اتباعه تخلوا عنه وانحازوا قليلاً الى جانبي . وبدأوا يتشارون بالأمر . وانتهزت الفرصة لأقول لهم بأن زعل سيكون هناك في الصباح ، وإننا ، أنا وهو سنقبل مساعدة الجميع باستثناء عشيرة الدهمانية ؛ التي جعلها جاسم متمردة بسبب ماتفوه به ، وانها سوف تستثنى من ثقة فيصل وتخسر حسن نواياها وهباتها . وأقسم جاسم بانه سنيضم الى الاتراك في الحال . وانسحب وهو في غاية الغضب ، في حين كان اتباعه الحذرين يحاولون عبثاً ايقافه عن الكلام الشديد .

(٦٣)

حضر جاسم في اليوم التالي ، ومعه رجاله ، وكان مستعداً للانضمام الينا او معارضتنا ، حيث تلاشت نزوته بالامس . وبينما كان متردداً قدم الينا زعل وما لبث الاثنان أن تصادما بقسوة وعلا صراخهما . واندفعنا لنحجز بينهما قبل ان ينشب قتال ، وجرى تسوية الامر مؤقتاً . أما العشائر الاخرى ، التي كانت مشمئزة من عنف جاسم ، فقد قدمت الينا بهدوء على شكل جماعات ، كمتطوعين بل انهم رجوني بأن اعلن عن ولائهم للأمير فيصل قبل ان نتحرك .

ودفعني شكوكهم لأن اقوم بالتحرك الى فيصل في الحال ، وذلك لسببين ، بأن هذه المشكلة يمكن ان تسوى ، وثانياً لتوفير جمال من اجل حمل المتفجرات فقد كان من غير الممكن استئجار جمال من عشيرة الدهمانية ، وأنه لم تكن هناك جمال أخرى هنا . وكانت افضل طريقة بأن اذهب بنفسي ، لأن جاسم يمكن ان يعترض أي رسول نقوم بارساله ، إلاّ أنه لن يجرؤ على اعتراضي . وأوصيت زعل بالرقيبين (الانجليزي والاسترالي) الذي اقسم لي بأن يبذل قصارى جهده في الحفاظ عليهما . ومضيت ومعي أحمد على جملين ، لنسرع بالذهاب الى العقبة والعودة منها بأسرع وقت .

كنا نعرف فقط الطريق الطويل من خلال وادي العتم . وكان بودنا ان نعرف طريقاً اقصر الا اننا لم نجد دليلاً ليقودنا الى ذلك . وحاولنا عبثاً البحث عن ذلك في جوانب الوادي ؛ واصبح اليأس يتملكنا عندما لاح لنا صبي وأشار لنا بأن علينا الذهاب باتجاه الوادي التالي الى يميننا . وبواسطة ذلك الوادي وبعد

ساعة كنا نسير على مستجمع للمياه الذي تفرّعت منه الوديان باتجاه الغرب . وكان يمكن ان يؤدوا فقط الى وادي العتم ، حيث انه لم يكن هناك مصرف آخر للمياه (وادي) في ذلك الجوار يؤدي من خلال الجبال الى البحر ؛ واسرعنا بالنزول اليها ، واخذنا نقطع المسافات عبر الجبال بسرعة لنصل الى الروافد المتوازية ، وذلك لاختصار مسافة الطريق .

في البداية كانت المنطقة التي نسير فيها تتكون ارضها من الحجارة الرملية الصافية ، ومن الاشكال الصغيرة الجميلة ؛ إلاّ أنه عندما توغلنا اكثر ظهرت امامنا نتوءات الصخور الغرانيتية وطبيعة ارض الشاطئ . وبعد ثلاثين ميلاً من السير السريع اجتزناها عبر الطريق الجنوبي إلى الوادي الرئيسي ، وصلنا الى البئر الواقع في أعلى العقبة تماماً . واستغرقت رحلتنا ستة ساعات فقط .

وفي العقبة اتجهنا مباشرة الى بيت الأمير فيصل وقد ادهشه رجوعي المفاجئ ، إلا أن ذلك تلاشى عندما شرحت له المشكلة التي حدثت في وادي رم . وبعد ان تناولنا الطعام ، اتخذنا الخطوات الضرورية بهذا الصدد . واتفقنا على إرسال عشرين جملاً خلال يومين ومعهم رجال كافين لنقل المتفجرات ، وسيقوم بحراستها بضعة من عبيده . أرسل معي الشريف عبد الله الفير وهو افضل مساعد له في المعكسر آنذاك ، ليقوم بدور الوسيط مع القبائل . وستحصل عائلات الرجال الذين كانوا سيسيروا معي في عملية نسف خط السكة الحديد على المؤن من مستودعاته حسب تنسيبي لذلك .

وذهبت انا وعبد الله قبل حلول الفجر ؛ وعند العصر ، وبعد المسير بشكل ودي ، وصلنا وادي رم لنجد ان كل شيء كان آمنا : فالقلق الشديد قد تلاشى . وذهب الشريف عبد الله للعمل في الحال . وقام بجمع افراد العشائر ، بما فيهم المعارض جاسم ، وبدأ بتلطيف مشاكلهم ونزاعهم ، واستخدم في ذلك كل خبرته وطاقته . وخلال غيابي ، كان لويس قد قام بتفجير جرف صخري ، مما جعل عيون الماء صالحة وكافية للاستحمام فيها ، لذلك وحتى ازيل عني الغبار والتلوث بعد مسيري الطويل فقد ذهبت مباشرة الى اعلى الجبل او الجرف ،

وتسلقت على الجدار الصخري الاثري للقناة التي كانت في يوم ما تسيل فيها المياه اسفلاً عبر الصخور الداخلية ، زمن الانباط ، لتصل الى ارض الوادي ويستفيد منها الناس .

وقد استغرق مني التسلق مدة خمسة عشرة دقيقة ، ولم يكن شاقاً او صعباً. وعند قمة الجبل ، فان المياه الساقطة ، او الشلال كما تسميه العرب كان يبعد بضعة ياردات فقط . وجاء صوت تدفق الماء من جهة اليسار ناتئاً أو خارجاً من قمة وجه الجبل وساقطاً من اعلى بخط طويل ، منسكباً بين الممر الصخري . وعلى صخرة عالية ، وجدت نقوشاً نبطية ورموزاً مختلفة . وكان يوجد حولها هنا وهناك خربشات باللغة العربية بما فيها اشارات وعلامات قبلية كانت بعضها شاهداً على الهجرات المنسية ، الا ان انتباهي تركز على ارتطام الماء في الصدع او الشق الموجود في الصخرة المتدلية في الاعلى وكان ينساب من تلك الصخرة غدير ذو لون فضي من الماء تحت أشعة الشمس . ونظرت لارى تدفقاً او ينبوعاً من الماء وكان صغيراً وأرفع من حجم رسغي ، يتدفق الى الخارج بثبات من شق موجود في سقف الصخرة ، ويتساقط بصوت صاف الى حفرة ، ويتجمع كبحيرة من الزبد إلى ما وراء الدرجة التي تستخدم كمدخل . وكانت الجدران والسقف الصخرية متقطرة بالرطوبة . وجعلتها طبقات من الخنشار والاعشاب االكثيفة الخضراء الناعمة كجنة مساحتها خمسة اقدام مكعبة .

وخلعت ملابسي فو ق الماء النقي ذو الرائحة الطيبة ، ونزلت في حوض صغير من الماء ، لاتنعم اخيراً بنداوة وطراوة الهواء والماء وهما يلامسان جسدي المتعب . وكان المكان بارداً بشكل لطيف . فاستلقيت هناك بهدوء تاركاً الماء الصافي ينسكب فوقي في انسياب ناعم ، وأخذت أفرك جسدي لازيل عنه اوساخ السفر . وبينما كنت سعيداً جداً ؛ واذا برجل ذا لحية رمادية ، رث الملابس ، بدا على وجهة ملامح قوة كبيرة وتعب وارهاق ، يأتي ببطء على الممر الصخري لغاية ما وصل باتجاه الينبوع ؛ وهناك جلس وهو ينظر إلى ملابسي القذرة المنشورة على صخرة بجانب الممر ويتنهد . وسمعني ، فمال الى الأمام

وهويبصبص بعينين رمدتين الى هذا الشئ الابيض (الجسد) الذي يسبح في الحفرة وراء حجاب سديم (ضباب رقيق) الشمس . وبعد تحديق طويل بدا وكأنه قنع وارتضى ، فاغمض عينيه وقال وهو يتأوه : «ان المحبة هي من الله ؛ ولله ومن اجل الله» . واستطعت ان اسمع كلماته بالرغم من بعض التشوش الذي كان يحدثه الماء في الحفرة التي كنت استحم فيها . فأوقفني ذلك فجأة . فقد اعتقدت بأن الساميين كانوا غير قادرين على استخدام كلمة الحب او المحبة كاتصال او ارتباط بينهم وبين الله ، وغير قادرين على فهم مثل هذه العلاقة باستثناء ربطها بالفلسفة الفكرية لسبينوزا ، الذي احب الى حد بعيد بصورة عقلانية ودون غريزة جنسية ، ولم يلتمس بشكل مبهم ، أوحتى ان يسمح بالرجوع عن ذلك . ولقد خيل لي ان اول عقيدة اوديانه اعلنت عن كلمة الحب في هذا العالم كانت المسيحية ، التي اوصدت الصحراء والسامية (منذ عهد النبي موسى الى عهد الفيلسوف اليوناني الرواقي زينون) أمامها الباب . بالرغم من ان المسيحية كانت عبارة عن هجين ، باستثناء جذرها الاول الذي لم يكن سامي بشكل اساسي . فولادتها في منطقة الجليل جعلها لتكون واحدة من الديانات المتعددة للسامين . فالجليل هي منطقة سورية غير سامية ، متصلة تقريباً مع الديانة اليهودية غير النقية . وهي تقع بعيدة عن القدس وبالاختيار فان المسيح نشر دعوته فيها من خلال حريتهاالفكرية ، وليس في القرى السورية ذات البيوت الطينية ،وانمابين الشوارع المصقولة والبيوت ذات الاعمدة والحمامات المزخرفة التي كانت من نتاج المدنية اليونانية القديمة .

ولم يكن الناس في تلك المنطقة من اليونانيين-على الاقل ليس غالبيتهم- وانما كانوا انواعاً واجناساً من السلالات الشرقية يتبنون ثقافة يونانية ، ولكن ليست في فحواها ونتاجها الصحيح ، وانما صبغت الثقافة يونانية مع ثقافتهم الشرقية ولونت بها . ومن ثم انتقلت المسيحية الى اوروبا وعانت من التغيرات بشكل اكبر لم تعان منه اليهودية ، ونشأت الكنائس المتعددة ،وارسلت البعثات التبشيرية الى مسيحيي الشرق لتضمهم الى كنائسها ، وقد اثر الادباء والآداب بشتى انواعهم على الديانة المسيحية في اوروبا بشكل لم تحققه كل من الديانتين

اليهودية والاسلامية . والاسلام ايضاً قد اختلفت بشكل محتوم من قارة لاخرى فقد تجنب نظريات ما وراء الطبيعة باستثناء التأملات الصوفية . وفي افريقيا فقد تلون بمذاهب متعددة . وفي الهند صبغ بالثقافة الفكرية والأدبية فيها . ومع ذلك، ففي الجزيرة العربية حافظ على شخصيته السامية العربية ، او حتى أن الشخصية السامية العربية قد ابقت على نفسها من خلال الاسلام .

وبالتناقض مع هذا الشئ الثابت ، او مع قراتتي له ، فان ذلك الرجل المسن الذي سمعته في وادي رم بدا ليكون مبشراً لي ، من خلال جملته التي تفوه بها، وليقلب النظريات التي احملها عن طبيعة العرب . وخشية من نزول الالهام علي، فقد انهيت اغتسالي وتقدمت لالتقط ملابسي . فاغلق الرجال عينيه بيدية وهو يتأوه بشدة . وحثثته بلطف على ان ينهض وينتظرني حتى ارتدي ملابسي ، ومن ثم يأتي معي من خلال الممر الغريب الذي صنعته الجمال في تسلقها من والى عيون الماء الاخرى المتواجدة هناك . وجلس معنا حول موقد القهوة ، حيث اشعل محمد النار ، في حين سعيت وحاولت ان اجعله يتحدث . وعندما حان وقت تناول العشاء جعلناه يأكل معنا وقد لاحظت بانه كان يتمتم بكلمات غير مفهومة وغير مترابطة تتخللها التأوهات . وفي وقت متأخرمن الليل نهض بألم على قدمية وخب بسكون مختفياً في الظلام ، آخذاً معه اعتقاداته ، إن وجدت . وقد ابلغني رجال من الحويطات ان هذا الرجل كان يتجول منذ وقت طويل بينهم وهو يتمتم بكلمات غريبة ، ولا يعرف النهار من الليل ولايزعج نفسه بالحصول على الطعام او العمل أو المأوى . وقد كان يمنح بسخاء ، كرجل مشفق عليه ، الا انه لم يجب بكلمة واحدة ابداً ، أوتحدث بصوت عالٍ ، ما عدا ان يكون مختلياً بنفسه أو يكون مع قطعان من الأغنام والماعز .

(٦٤)

احرز عبد الله تقدماً في تسوية الأمور ولم يعد جاسم متحدياً ، إلاّ أنه ظل متجهماً ، ولم يحضر اجتماعاً عاماً لنا . لذلك فانه لم يجروء على الانضمام لنا سوى عدد صغير من رجال العشائر ، تحدوه بوعودهم لنا من أجل أن يسيروا معنا. فقررنا ان نجرب حظنا الى اقصى حد مع هذه القوة الصغيرة . وبتأخير اطول فقد خاطرنا مع هؤلاء الملتزمين الذين كانوا بجانبنا ، يحذونا امل ضئيل بالحصول على رجال آخرين من القبائل الحالية .

وكانت مجموعة ضئيلة ، تمثل ثلث ماكنا نأمله . ويمكن ان يؤدي ضعفنا الى تعديل خططنا بشكل مؤسف . كما اننا كنا نفتقر الى وجود قائد جرىء . فزعل ، كما هو دوماً أظهر نفسه ليكون قائداً ، وكان ذا بصيرة ونشط وفعال في كافة الاستعدادات الملموسة . فقد كان رجلاً ذا همةعالية ، إلا أنه مقرباً جداً من عودة ليلائم الآخرين ، ولسانه الحاد والسخرية التي تتملكة جعلت الآخرين يعارضون اطاعته وحتى في نصيحته الجيدة .

وفي اليوم التالي قدمت الجمال بحمولاتها من عند فيصل ، وكان عددها عشرون مع عشرة رجال يقودنها ، وتحرس من قبل شخصين . وكانوا هؤلاء من الافراد الاكثر ثقة في الجيش العربي ، ولهم مناقب بارزة من خلال خدمتهم فيه . فهم مستعدون لان يموتوا لينقذوا سيدهم او قائدهم المصاب . فخصّصت رجلان لكل رقيب من الرقيبين ، ذلك أنه مهما حدث لي فان عودتهم الآمنة ستكون مضمونة . وافرزت الحمولات من المتفجرات التي تطلبتها الغارة المقلصة او

المعدلة ، وجرت كافة الاستعدات للبدء في المسير مبكراً .

ووفقاً لذلك وفي فجر السادس عشر من ايلول بدءنا المسير من وادي رم . وأصر الشريف عايد على الذهاب معنا ، بالرغم من فقده لبصره ؛ قائلاً بانه كان باستطاعته ان يقود الجمل ويسير معنا وحتى لو لم يكن قادراً على اطلاق النار ، واذا ما وفقنا الله فانه سيطلب الاذن من فيصل ويذهب لبيته ، ليس متأسف جداً على حياة الظلام التي ستترك له ويعيشها . وقاد زعل رجاله الخمسة والعشرون وكانوا من عشيرة النواصرة المواليةلعودة ابو تايه ، والذين كانوا يطلقون على انفسهم بانهم رجالي ، وكانوا مشهورين في الصحراء بقيادتهم للجمال ، وقيادتي المحكمة للجمال اغرتهم بأ ن يرافقونني . وكان العجوز مطلق الاعور ، صاحب الناقة المسماة بالجدعة والتي كانت من افضل النياق في شمال الجزيرة العربية ، من ضمن قافلتنا . ونظرنا اليها بفخر او بعيون جشعة ، وفقاً لعلاقتنا معه ، وكانت ناقتي غزالة أطول منها وأكبر وأسرع في الخب ، إلا أنها كبيرة جداً لتعدو بسرعة . ومع ذلك فانها كانت الدابة الوحيدة في المجموعة . أو في الحقيقة ، في هذه الصحراء لتضاهي وتتكافأ مع الجدعة . وكانت قافلتنا متبعثرة كمثل عقد مفروط . فقد كانت هناك مجموعات من عشائر الزوايدة ، الدراوشة والزليباني . وبعد نصف ساعة من بدءنا المسير كانت تسير من جانب الوادي مجموعة خجلة من رجال عشيرة الدهمانية غير قادرة على تحمل نظرات الآخرين لأنهم كانوا منعزلين مع النساء .

كما انه لا أحد من المجموعات كانت تتكلم او تتحدث مع الاخرى وكنت انطلق بناقتي الى مؤخرة القافلة ومقدمتها مثل مكوك ، اتحدث أولاً مع شيخ عشيرة مطرقاً رأسه ، ومن ثم أتحوّل إلى آخر لاحثه على السير معاً ، ذلك حتى يمكن ان يصبح هناك شئ من التضامن قبل ان تبدأ غارتنا . ومع ذلك فانهم قبلوا فقط بأن لايسمعوا أية كلمة من زعل توحى بانه كان قائداً لمسيرتنا ، مع انه كان مقبولاً كمحارب مجرب جداً ، واكثر خبرة في هذا المضمار . وبالنسبة لي فانه كان الوحيد الموثوق به الى ابعد حد . وبالنسبة للآخرين فقد بدوا لي بانه لا وعودهم ، ولاحتى قتالهم يمكن أن يوثق بها .

ودفعني عدم جدوى الشريف عايد المسكين ، الذي كان قائداً اسمياً لنا ، لأن اتولى الامور بنفسي ، من حيث المبدأ والحكم إذ ان الفن الخاص بالمسير والقتال القبلي وتفاصيل التوقفات لتناول الطعام ورعي الدواب ، واتجاه الطريق، ودفع المال ، وحل المنازعات والانقسامات والعدوات ونظام المسير كانت جميعها خارج نطاق خبرتي ومعرفتي ، ولم اقرأ عنها بكتب التاريخ في جامعة اكسفورد . فالحاجة لمعالجة جميع هذه الامور جعلتني منشغلاً عن معاينة وتدقيق طبيعة المنطقة ، ومنعتني من التخطيط المحكم حول كيف ينبغي ان نهاجم المدورة بطريقة أفضل ومفاجئة لاستخدام المتفجرات .

وتوقفنا عند منتصف النهار في مكان خصب ، كان شهد أمطار الربيع مؤخراً ، ونبت العشب على منحدر ترابي ، مما جعله كثيفاً وفضياً كالذي تحبه جمالنا . وكان الطقس لطيفاً ومعتدلاً ، يشبه تماماً الطقس في انجلترا في شهر آب ، فمكثنا هناك فترة متباطئين وراضين جداً بالمكان ، وقبل ان نستأنف المسير كنا قد اجرينا تسوية مؤقتة بين الفرقاء . فالانسان في مثل ظروفنا يترسخ ويتأقلم سريعاً جداً . وفي وقت متأخر ، سرنا ثانية هابطين الى اسفل الجبل نحو وادي ضيق يقع بين تلال من الحجارة الرملية المعتدلة . وسرنا فيه لغاية الغروب ومن ثم خرجنا الى سهل آخر ارضه من الطين الاصفر القاسي ، ذلك السهل الرائع جداً الذي يقع في مستهل وادي رم الشهير . ونزلنا لنعسكر على جانبه ، بطريقة مقصودة خصصت ثلاثة بقع فقط للاستراحة عليها ، بالقرب من موقد النار المشتعل ، بقعة لرجالي لتناول العشاء ، والثانية لزعل ، والاخرى لرجال الحويطات الآخرين ، وفي وقت متأخر من الليل ؛ عندما يكون جميع الشيوخ قد ملئوا بطونهم بلحم الغزلان والخبز الطازج فسيكون من الممكن احضارهم سوية الى موقعي او بقعتي المحايدة ونناقش بجد خطتنا ونهجنا ليوم غد .

وبدا لنا بأنه حوالي الغروب من يوم غد ، كان علينا ان نقوم بسقاية الجمال في بئر المدورة الذي يبيعد ميلين او ثلاثة عن المحطة ، وفي واد مغلق ،ومن ثم وفي بداية الليل يمكننا ان نمضي قدماً لفحص وتدقيق المحطة ونرى اذا كان من

الممكن ، بالرغم من ضعفنا ، ان نحاول توجيه بعض الضربات ضدها ، وشددت بقوة على هذا الهدف (بالرغم من الاحساس بالمعارضة المشتركة) ، إذ أن تلك النقطة او البقعة من الخط الحديدي كانت حساسة جداً . إلاّ أن الرجال لم يكن بمقدورهم أن يروها كذلك ، إذ أن تفكيرهم لم يكن يحمل صورة الوضع على المدى الطويل ، وهو أن الجبهة التركية كانت مرتبطة بمتطلباتها الضرورية عبر هذا الخط . ومع ذلك فقد وصلنا الى انسجام ضمني بهذا الصدد وتفرقنا بثقة لننام .

وفي الصباح تأخرنا في تناول الطعام ثانية ، حيث لم يبق امامنا سوى ستة ساعات من المسير ؛ ومن ثم اندفعنا عبر السهل الطيني الى سهل مكون من طبقة كلسية مكسوة بحجارة صوانية ناعمة وتبع ذلك السير على تلال منخفضة تتخللها بقع مسطحة من الاراضي الرملية الناعمة ، التي كان الريح يجرف ويبعثر غبارها ، ومن خلال هذه التلال سرنا الى وديان مسطحة عالية حتى قممها ، ومن ثم انحدرنا اسفلاً الى الجهة الاقصى ، واستطعنا ان ندرك على نحو مفاجئ من خلال اكوام الحجارة باننا كنا على مشارف سهل واسع وكان يتخلله اويقطعه خط من الكثبان الرملية الممتدة .

وجعلنا توقفنا لفترة الظهيرة عند اول مدخل لتلك المنطقة ، وفي وقت متأخر من العصر ، وصلنا الى البئر وكان عبارة عن بركة ماء مفتوحة ، مساحتها بضعة ياردات مربعة ، تقع في وادي سحيق مكون من قطع الحجارة الكبيرة وحجارة الصوان والتراب . وبدا الماء الراكد غير مستساغ . فقد علته طبقة كثيفة من الطحالب الخضراء ، تتخللها قطع دهنية زهرية اللون . وقد فسر الرجال العرب ذلك بأن الاتراك قد رموا الجمال الميتة في البركة ليجعلوا ماؤها فاسداً ، الا ان ذلك كان مر عليه وقت طويل واصبح تأثيره ضعيفاً . وكان ذلك اضعف من ان تؤثر تجربتهم على مذاقي . ومع ذلك فإن هذا كان مصدر الماء الوحيد لغاية ما نستولي على المدورة ، لذلك فقد ملئنا قرابنا بالماء وبينما كان احد الحويطات يقوم بملء قربته انزلق من على الحافة الى الماء فغطته الطبقة اللزجة الخضراء التي

كانت على سطح الماء . واختفى تحتها تماماً لبرهة ومن ثم برز من الماء وهو يعوم بنشاط وقفز خارجاً ونحن نضحك من ذلك المشهد تاركاً خلفه فجوة سوداء على سطح البركة كان يصدر منها رائحة نتنة لقطعة لحم قديمة برزت وكأنها عامود مرئي وعمت رائحتها الوادي بشكل مزعج .

وعند الغروب زحفنا انا وزعل ومعنا الرقيبين وآخرين الى الامام بشكل هادئ . وخلال ساعة كنا نجلس على اخر قمة ، حيث حفر الاتراك الخنادق واقاموا هناك موقعاً محكماً ، والذي كان يبدو تحت ضوء تلك الليلة بانه كان فارغاً ، وأماماً وفي الاسفل كانت تقع المحطة ؛ وكانت تنفذ من ابوابها ونوافذها علامات نيران الطبخ واضواء الحامية . وبدت وكأنها مغلقة من خلال مراقبتنا ، إلاّ أن مدافع ستوكس الرشاشة لن تصل سوى الى مدى ثلاثمائة ياردة . ووفقاً لذلك تقدمنا الى موقع اقرب ، حتى سمعنا اصوات العدو ، وخشينا ان تكتشفنا كلابهم الجاثمة في مكانها . وقام الرقيب ستوكس بعملية معاينة يميناً ويساراً ، بحثاً عن مواقع للمدافع الرشاشة إلاّ أنه لم يكن هناك امكنه مقنعة او مرضية .

في غضون ذلك زحفت أنا وزعل عبر آخر بقعة مستوية ، لغاية ما أمكننا أن نحصي عدد الخيام المظلمة ونسمع اصوات الرجال وهم يتحدثون . وتقدم واحد منهم بضعة خطوات باتجاهنا ومن ثم تردد . وضرب بعود ثقاب ليشعل سيجارة ، وعم الضوء وجهه بحيث رأيناه تماماً كان ضابطاً شاباً يبدو المرض على وجهه . وجلس القرفصاء وانشغل للحظة ، ومن ثم عاد الى رجاله ، الذين صمتوا عندما رجع .

ورجعنا الى جبلنا واخذنا نتشاور بهمس . فالمحطة كانت طويلة جداً ومبانيها من الحجارة القاسية جداً وربما تكون مستعصية على قصفنا ، وبدت قوة الحامية وكأنها تتألف من مائتي رجل وكنا نحن مائتي رجل ومعنا ستة عشر بندقية فقط ولسنا منسجمين تماماً . فعنصر المباغتة كان الحل الوحيد الذي يمكن ان يكون مجدياً .

هذا وفي النهاية ، فقدابديت رأي بأن نتركها ونغادر ، لنهاجمها

مستقبلاً . وربما في القريب العاجل . ولكن ، فعلياً ، فان حادثة تلوا الاخرى انقذت ، المدورة ، ولم يكن بالمستطاع إلاّ لغاية آب ١٩١٨ عندما اقتحمها فيلق هجانة بوكستن أخيراً واخضعها لمصيرها الذي طال أمده .

(٦٥)

جمعنا جمالنا بهدوء ونمنا . وفي اليوم التالي رجعنا من نفس الطريق لنجعل السهل يخفينا عن خط السكة الحديد ، ومن ثم سرنا جنوباً لنجتاز سهل منبسط رملي ، ونرى اثار خطوات الغزلان والثيران والنعام البرية ، وفي بقعة ما كانت هناك اثارلفهد بري . وكنا ننوي السير الى الجبال المنخفضة المتاخمة الى اقصى نقطة من خط سكة الحديد لنقوم بنسف قطار هناك ، حيث قال زعل ان موقعها قريب جداً من الخط ، وانه يعطينا مكمناً محصناً لوضع الالغام ونصب المدافع الرشاشة هناك .

لذلك فقد استدرنا نحو الشرق في المرتفعات الجنوبية لغاية ماوصلنا على بعد نصف ميل من الخط . وهناك نزلنا في واد ضيق وحططنا رحالنا ، بينما ذهب عدة رجال منا الى خط السكة الحديد ، وكانت السكة تمر فوق جسر يمر تحته سيل لمياه الامطار ، وبدت لنا كبقعة نموذجية لوضع الشحنة الناسفة تحتها . وكانت تلك اول محاولة لنا في التلغيم الكهربائي وليست لدينا فكرة ماذا سيحدث ، إلا أنه كما تبادرالينا فان التفجير سيكون اكثر تأثيراً ، لأن الجسر سينسف وبالتالي فان ماعليه من قاطرات ستنهار بشكل محتوم .

إن نتوء الجبل او حافته سيكون موقعاً محبباً لمدافع ستوكس الرشاشة . وبالنسبة لهذة المدافع ، فان الموقع سيكون عالياً الى حد ما ، الا ان رشقات النيران ستكون محكمة سواء كان القطار يسير اسفلاً أو اعلى على الخط . وكان من المستحسن ان أضعَ الرقيبين البريطانين في موقع واحد ليكونا آمنين من

حدوث مفاجأة وينسحبا الى الخلف بشكل آمن عند انتهاء مهمتهما ، حيث ان ستوكس كان يعاني في ذلك اليوم من آلام الدستاريا . فمن المحتمل ان مياه المدورة قد اضرت بمعدته . ذلك ان القليل من الانجليز لديهم جهاز مناعة ضد هذه الامراض .

وعدنا الى جمالنا ، وانزلنا حمولاتها واطلقناها لترعى في مكان آمن بجانب بعض الصخور المتكسرة . وقامت مجموعة من الحراس بحمل مدفع سكوتس مع قذائفة ، ومدافع لويس الرشاشة ، والمتفجرات وادوات التفجير ، الى المكان المختار . ونصب الرقيبان مدافعهما على المصطبة أو الحافة المعدة لذلك، في حين ذهبت انا الى اسفل الجسر لاقوم بوضع عبوة ناسفة تزن خمسين باونداً (رطلاً انجليزياً) من المتفجرات ولم يكن دفنها بين عامودي او دعامتي الجسر عملية سهلة . فالجسر كان عالياً والجيب الواصل بينه وبين جانب الجبل كانت حافته من الرمل الناعم المنزلق . ولم يستطع احد ان يجتازه سوى انا ، حيث تسلقت عليه بعناية ، ومع ذلك فانني تركت اثاراً لا يمكن تلافيها على ترابة الناعم . استغرقت العملية مني حوالي ساعتين لاقوم بحفر نقطة ووضع الشحنة المتفجرة فيها ، ومن ثم جاء دور العمل الصعب في مد الاسلاك الثقيلة من المفجر او فتيل التفجير وحتى موقع الجبل الذي سنفجر اللغم منه فقد كانت طبقة الرمال قاسية وينبغي ان تكسر لدفن الاسلاك وتمريرها من خلالها . وكانت الاسلاك ايضاً صلبة وقاسية تجعل خطوطها طويلة وبارزة على سطح الأرض وكأنها أفاعي . فعندما كانت تغرس في الارض في مكان ما تبرز الى سطح في مكان آخر . وأخيراً وضعنا الحجارة الكبيرة عليها ، وكان علينا أن نقوم بطمرها في الارض .

وبعد ذلك فقد كان من الضروري ان نقوم بتسوية سطح الارض . بالتراب وازالة الاثار ، واخيراً وبعد عملية شاقة قمت بتسوية الرمال بعباتي ليبدو سطح الارض طبيعياً ، فقد انتهت عملية دفن الاسلاك الكهربائية . وقد استغرقت خمسة ساعات ، إلا أنها كانت متقنة : فلا أنا ، ولا أي واحد منا امكنه ان يميّز ان

كانت الشحنةالمتفجرة مدفونة في الأرض ، أو تلك الاسلاك المزدوجة التي كانت تمتد تحت سطح الارض الموصولة بالشحنة وحتى نقطة التفجير ، التي كانت تبعد مسافة مائتي ياردة عنها ، خلف المرتفع الذي يكمن فيه رماتنا .

وكانت مسافة الاسلاك طويلة جداً لتجتاز من هذا المرتفع الى ذلك المنخفض . وهناك جلبنا نهاية طرفي السلكين ووصلناهما بمفجر كهربائي . وكان مكاناً نموذجياً لها وللرجل الذي سيقوم بالتفجير ، باستثناء ان الجسر كان غير مرئي من هناك . ومع ذلك ، فان هذا عنى أن على واحد ما ان يقوم بالضغط على زر التفجير عند ورود اشارة من نقطة تبعد خمسين ياردة الى الامام ، تتحكم بالجسر وبنهاية الاسلاك على حد سواء . وطلب سالم ، الذي كان من افضل حراس فيصل ، بأن يقوم بهذة المهمة بفخر ، وكلف بها باستحسان كبير . واستغرق ذلك فترة ما بعد الظهر لتعليمة بما سيقوم به ، لغاية ما اتقن ذلك تماماً ، وكنت ارفع يدي لاعطية اشارة التفجير متخيلاً مرور قطار على الجسر .

ورجعنا الى حيث كنا نعسكر ، تاركين وراءنا رجلاً ليقوم بمراقبة الخط . ولم يكن رجالنا هناك في موقعهم ، وذهلنا من ذلك حيث تركوا الامتعة ، وذهبوا لغاية مارأيناهم فجأة وهم يجلسون على طول القمة العالية بمواجهة ضوء الغسق (غروب الشمس) الذهبي . واشرنا بأن ينبطحوا اوان ينزلوا اسفلاً ، الا انهم اصروا ان يبقوا هناك على القمة مصطفين مثل اطفال المدارس ، وهم في منظر مكشوف شمالاً وجنوباً .

واخيراً اسرعنا بالصعود اليهم ودفعنا بهم عن خط الضوء ، الا ان ذلك جاء متأخراً . فقد رآهم الترك من موقعهم الجبلي الصغير الواقع في حلة عمار ، الذي كان يبعد اربعة اميال عن يميننا ، وفتحوا النار على خيالاتهم الطويلة حيث كانت اشعة الشمس تغيب تدريجياً على سفوح الجبال المواجهة للموقع . فهذه القمة كانت مرئية تماماً من المدورة وحلة عمار ، وقد افزعوا كلا الموقعين التركيين بمراقبتهم المشؤومة المتوقعة .

ومع ذلك فان الظلام اطبق علينا ، وعرفنا بأن علينا ان نقضي تلك الليلة

بعيداً عن موقعنا السابق ونتحلى بالصبر على امل مجيء الغد، فربما سيفترض الاتراك باننا قد ذهبنا اذا مابدا مكاننا مهجوراً في الصباح . لذلك فقد اوقدنا النار في حفرة عميقة ، وقمنا بصنع الخبز وكنا مرتاحين في وضعنا . فالمهام المشتركة جعلت منا فريقاً واحداً ، وحادثة قمة الجبل المخجلة جعلت الجميع يوافقون على انه يجب ان يكون زعل قائدنا .

وانبثق يوم جديد بهدوء ، وشاهدنا لساعات خط السكة الحديد الخالي . وجعلتنا العناية المستمرة لزعل وابن عمه هويمل ، بأن نكون مختفين عن الانظار بالرغم من الصعوبة في ذلك ، لان من طبيعة البدوي ان لا يستطيع الجلوس لعشرة دقائق فقط ، بل يجب ان يتململ ويتحرك او يقول شيئاً ما . وهذا يتعارض مع طبيعة الرجل الانجليزي البليدة ، الذي ينتظر طويلاً دون ملل او كلل . وقد سبب لنا بعض رجالنا في ذلك اليوم غضباً كبيراً بهذا الشأن .

فربما ، مع ذلك ، قد رآنا الاتراك ، اذا أنه عند الساعة التاسعة صباحاً ، خرج اربعون رجلاً منهم من خيامهم ، التي كانت مرئية لنا والمنصوبة على قمة جبل بجانب حلة عمار الى الجنوب وتقدموا نحوالأمام . فاذا ما تركناهم وشأنهم، فانهم سيكتشفون مكان الالغام ويبطلونها خلال ساعة ، واذا ما واجهناهم بقوتنا المتفوقة ورددناهم على اعقابهم ، فان ذلك سيكون منذراً لمحطة السكة الحديد بالقرب وسيتوقف سير القطارات عليها . وكان ذلك مأزقاً ، الذي حاولنا ان نجد له حل في النهاية بارسال ثلاثين رجلاً لتدقيق دورية العدو تدريجياً؛ واذا امكن لجرهم بخفة جانباً الى الجبال الوعرة فمن الممكن ان يخفي هذا موقعنا الرئيسي ويؤكد لهم عدم اهمية قوتنا وهدفنا . ولعدةساعات فان الامر سار كما أملنا ؛ فسمع صوت اطلاق نار بعيد ومتقطع وقدمت الدورية التركية الدائمة بثقة من جهة الجنوب وسارت مجتازة جبلنا واتجهت نحو المدورة دون ان تلاحظنا . وكانت تتكون من ثمانية جنود وعريف سمين ، الذي كان متأثراً بالحر ، اذ كانت الساعة وقتذاك بعد الحادية عشر والطقس حارجداً . وبعد ان اجتازونا بميل اوميلين بدا ان التعب قد انهكه جداً . فجعل فريقه يسير الى

مكان مظلل تحت قنطرة يأتي اليهـا هـواء بارد من جـهـة الشـرق واسـتلقـوا هناك ليستريحوا على الرمال الناعمة ، وشربوا الماء من زجاجاتهم ، ودخنوا السجائر وأخيراً ناموا . وافترضنا بأن ذلك استراحة الظهيرة التي كان يأخذها كل تركي خلال الصيف الحار للجزيرة العربية كمبدأ اساسي ، وأن سماحهم لانفسهم بأخذ فترة راحة اظهرت باننا كنا جاهلين بالوضع . ومع ذلك فقد كنا على خطأ في تقديرنا للأمور .

(٦٦)

جلب الظهر معه مفاجأة جديدة فمن خلال منظاري القوي فقد رأيت مئات من الجنود الاتراك يتحركون من محطة المدورة ويشقون طريقهم مباشرة عبر السهل الرملي باتجاهنا وكانوايتقدمون ببطء شديد وبدون رغبة من دون شك حيث انهم كانوا حزنين لفقدانهم نوم نتصف الظهيرة المحبب لهم ، الا انهم بسيرهم الردئ جداً ومزاجهم المعكر فقد كان من الصعب عليهم ان يصلوا الينا قبل مرور ساعتين. وبدأنا نهيء انفسنا للرحيل عازمين على ترك الالغام وتوابعها في مكانها على امل انه من الممكن ان لايجدها الاتراك ونكون قادرين على الرجوع اليها ونستفيد من كافة ذلك العمل المتقن . وارسلنا رسول الى فريقنا الذي يعسكر في جهة الجنوب ليخبرهم بأن عليهم ان يلحقوا بنا الي مكان بعيد يقع بالقرب من تلك الصخور الجرفية التي استخدمناها كحاجب لمكان رعي جمالنا .

وما ان ذهب حتى صاح المراقب من رجالنا بأن هناك سحب من الدخان تتصاعد من حلة عمار ، فاندفعت انا وزعل الى اعلى الجبل ، وادركنا من خلال شكلها وحجمها بأنه لابد ان يكون هناك في الحقيقة قطار ينتظر في تلك المحطة . وبينما كنا نحاول الرؤية من على الجبل تحرك القطار فجأة باتجاهنا فصرخنا بالرجال بأن يأتوا ليأخذو مواقعهم بالسرعة الممكنة . وجاء من هناك صوت دبيب من فوق الرمال والصخور ، كما اسرع كل من ستوكس ولويس بالصعود الى الجبل ونسيا آلام الدستاريا .

واتخذ رجال البنادق مواقعهم في خط طويل بالخلف، ومنه كان يمكنهم ان يطلقوا النار مباشرة على عربات القطار من على بعد مائة وخمسين ياردة، في حين ستكون مدى رمايات كل من مدافع ستوكس ولويس حوالي ثلاثمائة ياردة. ووقف رجل عربي على بقعة عالية تقع خلف المدافع وكان يصرخ لنا عن تحرك القطار وهو تخدير مسبق ضروري ، ذلك انه اذا كان يحمل قوات وينزلهم خلف جبلنا فقد كان علينا ان نتراجع الى الوادي والتخلي عن القتال حفاظاً على حياتنا. ولحسن الحظ فقد كان يدب بشكل سريع بقاطرتيه الأماميتين . واقترب القطار باتجاهنا ، ففتحنا النار بشكل عشوائي باتجاه الصحراء واستطعت ان اسمع ضجيجه قادماً وأنا جالس على قمة الجبل لاعطي الاشارة لسالم الذي كان يرقص على اداة التفجير بركبتيه وهو يصرخ بنشوة ويدعو الى الله ان يجعل عمله مثمراً. وكان اطلاق النار من قبل الاتراك كثيفاً وتساءلت عن عدد الرجال الذين سنقاتلهم وهل ستكون عملية التفجير كافية ، فسيكون من الافضل ان يكون التفجير الاول ابسط او أخف .

ومع ذلك وفي تلك اللحظة بدت قاطرته كبيرة جداً ، تقوم بجر عشرة عربات مليئة بالبنادق البارزة من النوافذ والأبواب وعلى سطحها وضعت اكياس الرمل ليختبئوا خلفها ويطلقون النار علينا . ولم اكن قد وضعت حسابي لوجود قاطرتين في الامام . فقررت للتو ان افجر القاطرة الثانية وبذلك فان القاطرة الاولى لن تكون قادرة على سحب العربات . ووفقاً لذلك فعندما اصبحت القاطرة الثانية تسير على الجسر رفعت يدي معطياً الاشارة لسالم وعندها تبع ذلك دوي مفزع واختفى خط السكة عن الانظار خلف عمود اسود من الغبار الاسود وعلى الدخان الى مسافة مئات الاقدام طولاً وعرضاً . وبعد ذلك جلى مشهد العربات المحطمة والمتناثرة اشلائها المعدينة والواحها الخشبية على جانبي الخط، وتبع ذلك هدوء مميت ولم يكن هناك صراخ او اطلاق نار .

وفي الهدوء المتوتر اسرعت باتجاه الجنوب لانضم الى الرقيبين، والتقط سالم بندقيته وتوجه نحو ضباب القطار المحطم ، وقبل ان اتسلق الى مكان

المدافع الرشاشة بدأ تجدد اطلاق النار من قبل الرجال في اعلى الجبل ونظرت حولي لارى ماذا كان يحدث بسرعة كبيرة ورأيت عربات القطار مبعثرة على خطه ومفككة في حين كان الجنود الاتراك يقفزون من ابوابها الخلفية ليحصلوا على مأوى لهم عند الجسر . وبينما كنت اشاهد المنظر وإذا بمدافعنا الرشاشة تهدر من فوق رأسي فهوت صفوف طويلة من الجنود الاتراك كانوا ممدين على سطوح عربات القطار . وكانت جثثهم تسقط من اعلى مثل بالات اورزم القطن امام الرش المسعور من الطلقات النارية التي كانت تعصف بسطوح عربات القطار وتنثر سحباً من الشظايا الصفراء من الالواح الخشبية. فالموقع المسيطر لمدفعيتنا الرشاشة كانت له ميزة وفائدة قصوى لنا . وعندما وصلت لموقع ستوكس ولويس اخذ الاشتباك منحنى آخر ، فما تبقى من الجنود الاتراك برزوا من وراء ضفة الجسر وقاموا باطلاق النار على الرجال المختبئين خلف عجلات القطار والذين كانوا يبعدون عنهم مسافة عشرين ياردة. وكان الجنود الاتراك في موقع آمن عن مرمى مدافعنا الرشاشة ،الا ان ستوكس غير من مرمى مدفعه. وبعد بضعة ثوان جاء صوت ارتطام قذائف المدفع خلف القطار في الصحراء، وفي الدفعة الثانيةً وجه مدفع الهاون الى الحفرة العميقة الواقعة اسفل الجسر حيث اتخذ الجنود الاتراك ملاذاً فيها وجعل منها خراباً ،اما الناجون منهم فقد فروا مذعورين غبر الصحراء وهم يقذفون ببنادقهم ومعداتهم. وكانت هذه فرصة لمدافع لويس فقام الرقيب باطلاق رشقات من مدفعه الرشاش واحدة تلو الاخرى، لغاية ما اصبحت رمال الصحراء مبعثرة بالجثث وما أن رأى ، وهو فتى شراري كان يطلق من المدفع الثاني، بأن المعركة قد انتهت حتى قام من وراء مدفعة واندفع الى الاسفل بسرعة ومعه بندقية لينضم الى الآخرين الذين بدأوا بنهب ما كانت تحتويه عربات القطار ، واستغرق ذلك نحو عشرة دقائق .

ونظرت من خلال منظاري فرأيت دورية المدورة تعود ادراجها باتجاه السكة الحديد لمقابلة القطارات الفارة والمتحركة باقص سرعتها باتجاه الشمال، ونظرت الى اليمين لأرى رجالنا الثلاثين يتهجون نحونا لينالوا حصتهم من الغنائم.

فرأوهم الجنود الاتراك هناك وهم يذهبون ، فبدأوا يلاحقونهم وهم يطلقون النار عليهم، وكان امامنا نصف ساعة فقط ومن ثم فان الخطر سيكون مزدوجاً .

فنزلت الى الخراب لأرى ماذا احدث تفجيرنا . فقد نسف الجسر وتلاشى وهوت في فجوته عربة القطار الامامية التي كانت مليئة بالمرضى والمصابين وكان الانفجار قتلهم جميعاً باستثناء ثلاثة او اربعة وقد تمددوا ارضاً وهم ينزفون ويموتون ، وصرخ واحدٌ من اولئك الأحياء بكلمة التيفوس، لذلك اغلقت باب العربة وتركتهم هناك وحيدين، وكانت العربات الاخرى محطمة وخارجة عن خط السكة ، والقاطرة الثانية للقطار كانت عبارة عن كومة من الحديد يتصاعد منها الدخان ولن يمكنها السير ثانية ابداً ، اما القاطرة الامامية فقد كانت في وضع افضل، فمع انها خرجت عن خط السكة الحديد واصابها بعض الضرر، الا ان عجلاتها الفولاذية كانت سليمة .

لقد كان هدفنا الاكبر في مثل هذه العمليات نسف وتحطيم القاطرات الامامية للقطارات، لذلك فقد احتفظت معي بصندوق من قطن المدافع وفتيل ومفجر جاهزين لمثل هذه الحالة، فوضعتهم في موضع خارج اسطوانة محرك القطار وكان من الافضل وضعها في المرجل ، الا ان ذلك كان سيحدث انفجاراً ضخماً وخشيت ان يؤدي انتشاره الى اضرار برجالنا الذين لم ينتهوا بعد من الحصول على غنائمهم قبل قدوم الاتراك، لذلك فقد قمت بتفجير اسطوانة المحرك ومحور العجلات ايضاً ولم أكن متأكداً في تلك اللحظة من أن عملية التفجير كانت كافية ، الا ان الاتراك فيما بعد وجدوا ان المحرك لا جدوى منه فقاموا بتحطيمه .

كان منظر الوادي عجيباً ،وكان الرجال العرب مهتاجون ويندفعون وهم يصرخون ويطلقون النار في الهواء ، في حين يفرغون ما في عربات القطار المحطمة من محتويات ويحطمون ما لا يريدونه، فقد كان القطار محملاً بالرجال المرضى والاسرى والمتطوعين للعمل في خدمات القوارب على نهر الفرات، وعائلات الضباط الاتراك العائدين الى دمشق. وكانت هناك عشرات

من قطع السجاد نثرت هنا وهناك وعشرات من قطع الفراش واللحف الموردة والاغطية والملابس الرجالية والنسائية من كافة الانواع والساعات وادوات الطعام والاغذية والحلي والاسلحة ومن ناحية اخرى وقفت هناك ثلاثون او اربعون أمرأة بحالة هستيرية بدون غطاء اونقاب وهن يمزقن ملابسهن وشعورهن ، ولم يعيرهن الرجال العرب اهمية ومضوا في أخذ الادوات المنزلية ليحملوها مع الاشياء الاخرى على الجمال. وكانوا يحملون على الجمال اقصى ما يمكن حمله. وما ان رأوني غير منشغل في ذلك حتى اندفعت النساء نحوي وامسكوا بي يطلبون الرحمة، فأكدت لهن بأن كل شئ كان يسير على ما يرام ، الا انهن لم يذهبن عني لغاية ما جاء بعض ازواجهن لينقذوني من ذلك . ولقد كان المشهد مقززاً .

وكانت هناك مجموعة اخرى من النمساويين من الضباط وضباط الصف وناشدوني بلغة التركية وبهدوء من اجل مأوى لهم . فاجبتهم بلغة المانية ، في حين ان احدهم التمس بلغة الجليزية استدعاء طبيب من اجل معالجة جراحه، ولم يكن لدينا ذلك، ولم يكن مجدياً حيث ان اصابته كانت بالغة ومميته . فابلغتهم بأن الاتراك سيأتون خلال ساعة ويعتنون بهم ، الا الرجل كان ميتاً قبل ذلك، كذلك كان مصير معظم الآخرين (الذين كانوا من المدربين النمساوين على مدافع الهاوتزر الجبلية من نوع سكود الجديدة والتي زود بها الاتراك من اجل خوض حرب الحجاز) بسبب نشوب بعض النزاع بينهم وبين حارسي الشخصي ، رحايل ، فقام رجالي الحانقين وانقضوا عليهم ،ولم يبق منهم سوى اثنان او ثلاثة، قبل ان اعود واتدخل .

هذا ولم نتكبد نحن اي خسائر في الارواح. وكان من بين الاسرى العسكريين التعسين الذين كانوا متواجدين في القطار خمسة من الجنود المصرين. وقد تعرفوا عليّ وشرحوا لي انه في ليلة الغارة على مشروع دافينبورت بالقرب من وادي العيص، فقد اعترضوا من قبل الاتراك وأسروا . وابلغوني ببعض المعلومات عن مشروع دافينبورت (الالماني) ، وعن الاستمرار العمل فيه . وبعد ذلك قمت بنقل الجنود المصريين الى مكان تحشدنا عند الصخور الكلسية .

(٦٧)

نزل كل من لويس وستوكس ليساعداني . فقدكان يساورني بعض القلق عليهما ؛ اذ ان الرجال العرب كانوا مهتاجين ، مستعدين ليهاجموا الصديق والعدو على حد سواء . فقد كنت دافعت عن نفسي ثلاثة مرات من قبل عندما تظاهروا بانهم لم يعرفونني واخذو يهاجموني . مع ان اللباس الكاكي للرقيبيين كان يثير بعض الانتباه . وذهب لويس الى جهة الشرق من السكة الحديد ليحصي عدد القتلى الثلاثين الذين قتلهم بمدفعه ، وليجد مصادفة في جرابهم الذهب التركي والتحف التذكارية ، اما ستوكس فقد تجول بين انقاض الجسر ، فرأى هناك جثث عشرين تركياً ممزقة الى قطع نتيجة لقصفه الثاني ، فانسحب راجعاً بسرعة وحضر احمد إلي وهو يحمل غنائم كثيرة وصاح قائلاً (فلا واحد يمكنه ان يتكلم بشكل طبيعي في نشوة الانتصار) بأن هناك أمراة كبيرة السن كانت توجد في العربة الاخيرة وانها ترغب برؤيتي . فقلت له بان يذهب لاحضار الجمال لتحميل المدافع وبعض الامتعة عليها ومن ثم تسييرها واحد اثر الآخر باتجاه الجبال لتكون في وضع آمن لأن صوت اطلاق النار من قبل العدو اصبح مسموعاً بشكل كبير . فقد كان تكتيكاً سيئاً بأن نترك المدافع للنهاية ، الا ان التشويش الذي حصل في البدء والنجاح الغامر الذي تبع قد افسد تقديرنا .

في نهاية العربة جلست امرأة عربية كهلة ذات مقام رفيع سابقاً وسألتني ما الذي حدث برمته . فشرحت لها ذلك . فقالت بانها كانت تعمل عند فيصل سابقاً وانها ترددت كثيراً في السفر ولابد ان تنتظر الموت هناك . فاجبتها بأنها لن

تصاب بأذى ، فالاتراك على وشك الوصول ، وانهم سيعتنون بمن تبقى من ركاب القطار . فرضيت بذلك ، ورجتني بأن اجد لها جاريتها المسنة ، لتجلب لها الماء . وقامت الجارية بملء كاس ماء من خزان المحرك (وكان ماءً منعشاً كان لويس اطفأ به عطشه) ، ومن ثم قدتها الى سيدتها التي كانت شاكرة لذلك ، وبعد شهور من هذه الحادثة ، أحضر لي بصورة سرية من دمشق رسالة ومعها سجادة صغيرة جميلة كهدية من السيدة عائشة ، التي كانت ابنة جلال الليل ، من المدينة ، وكتذكار للقاء القديم الذي تم بيننا .

لم يحضر احمد الجمال مطلقاً . أما رجالي الذين استبد بهم الجشع فقد تفرقوا على الارض ومعهم بعض البدو واصبحت انا والرقيبين بين الحطام الذي ، كان يلفه سكون غريب وقتذاك . وبدأنا نخشى بانه لابد وان نتخلى عن المدافع وان نسرع بالمغادرة ، الا انه حينذاك رأيت جملين يندفعان من الوراء . فقد كان كل من زعل وهويمل قد افتقداني وعادا ليبحثان عني .

وقمنا بلف السلك الكهربائي ، وكان هو غرضنا الوحيد . ونزل زعل عن جمله ليتيح لي ان اعتليه واسوقه ، ولكن بدلاً من ذلك ، فقد قمنا بتحميله بالاسلاك واداة التفجير . ووجد زعل الوقت ليضحك على غنيمتنا الطريفة ، مع ذلك الذهب والفضة الموجود في القطار . وكان هو يميل ويتألم جداً من جرح قديم اصيب به في ركبته ولم يكن يستطيع السير . لذلك فقد جعلناه يجلس على جمله ويقوم بوضع مدفعي لويس خلف سرجه ، اللذان بديا كمثل مقص وبقيت مدافع ستوكس المورتر ، فقمنا بتحميلها على عجل ، ووضعها ستوكس (الذي كان لايزال ضعيفاً من جراء الدسنتاريا) على سرج زعل ، وجعلنا مسؤولية قيادة الجمال الثلاثة لهويمل .

في غضون ذلك قام لويس وزعل بوضع ماتبقى من ذخيرة في الحفرة التي كانت موجودة خلف موقع المدافع ، وقاما باشعال النار فيها ومن ثم انطلقنا بسرعة ، فصدر عن ذلك صوت انفجارات متتابعة وضخمة . فقد كانت لفائف الذخيرة تنفجر تباعاً كمثل قذائف المدافع المدوية محدثة غباراً ودخاناً كثيفين . مما

ادى الى حدوث انطباع لدى الجنود الاتراك القادمين ، باننا كنا لا نزال نحتفظ بقوتنا وبموقعنا الحصين . فتوقفوا عن الاندفاع نحونا متخذين احتياطهم ، وبدأوا بتطويق موقعنا السابق وباستطلاعه وفقاً للقاعدة المتبعة ، في حين كنا نسرع لنختفي بين الجبال .

وبدا ذلك نهاية العملية ، وكنا مسرورين بان نخرج منها بلا خسائر سوى جمالي وامتعتي ؛ وايضاً ادوات استعمال الرقيبين . ومع ذلك فقد كانت هناك مؤونة طعام في وادي رم ، واعتقد زعل بانه ربما قد نجد حاجياتنا مع الآخرين هناك، الذين كانوا ينتظروننا قدماً . وكان رجالي محملون بالغنائم الكثيرة والمتعددة . واستفسرت فيما اذا كان واحد منا اصيب خلال العملية ، فجائني صوت يقول بأن الفتى الشمط -وكان فتى مندفعاً جداً- قد قتل اثناء الاندفاع باتجاه القطار . فقد كان ذلك الاندفاع خطأ ارتكب بدون صدور التعليمات بشأنه، حيث ان مدافع لويس وستوكس كانت تضمن انهاء العملية اذا ما قامت الالغام بعملها تماماً ، لذلك فقد شعرت بأن فقدان الفتى لا يقع على عاتقي مباشرة . وجرح ثلاثة من رجالنا كانت جراحهم طفيفة . وافاد واحد من خدم فيصل بأن سالم كان مفقوداً فدعونا الجميع وقمنا باستجوابهم ، واخيراً قال واحد منهم بأنه قد رأه مستلقياً على الارض وهومصاب خلف القاطرة مباشرة . وهذا ذكر لويس ، الذي كان جاهلاً بانه كان احد رجالنا ، بانه قد رأى على الارض هناك وكانت جراحه بليغة . ولم أخبر بذلك فاصبحت غاضباً اذ نصف رجال الحويطات لابد وانهم عرفوا ذلك ؛ وان سالم كان ضمن مسؤوليتي . وبسبب اهمالهم ، فانني في المرة الثانية ، سأجعل رجلاً موثوقاً يبقى في الخلف ليقوم بتدقيق ذلك .

وطلبت ارجاع متطوعين للعثور على سالم . وبعد قليل وافق زعل ، ومن ثم بعض الرجال من قبيلة النواصرة ، فاسرعنا عبر السهل باتجاه خط السكة الحديد ، وما ان صعدنا الى اعلى قمة الجبل حتى رأى احدنا حطام القطار والجنود الاتراك يحومون عليه وكان عددهم حوالي مائة وخمسين رجلا . لذلك

فقد كانت محاولتنا يائسة فسيكون سالم ميتاً ، اذا ان الاتراك لايأخذون اسرى عرب فقد اعتادوا ان يقتلونهم في الحقيقة بشكل مخيف . لذلك ومن اجل الرحمة بهم فقد كنا ننهي حياة اولئك الذين يجرحون بشكل بليغ منا ، والذين لابد وان يتركوا بلا امل على الارض . لذلك فقد كان علينا ان نتخلى عن سالم لكن في الوقت ذاته بأن نستفيد من رجوعنا ، فاقترحت على زعل بأن ننزل الى الوادي ونستعيد ادوات عدة الرقيبين . فكان راغباً بذلك وسرنا لغاية ما اطلق الاتراك النار علينا مما جعلنا نختبىء خلف جرف . وكان موقعنا القديم يقع في المنخفض التالي عبر مائة يارد ة . لذلك اخذنا نراقب الوضع ، فقفز واحد او اثنان من اسرع شبابنا وقاموا بجر جراب السرج وكان الجنود الاتراك بعيدين عنها ، واطلاق النار من مدى بعيد كان سيئاً دوماً بالنسبة لهم ؛ ولكن في محاولتنا الثالثة لجر بقية الاغراض قام الاتراك باستخدام مدفع رشاش . فارسلت فتيان رشيقين من اجل ذلك الغرض ، ليلتقتوا ما خف حمله وعلت اهميته مما تبقى من الاغراض ، وينضموا الينا فيما بعد . ونزلنا الى السفح وعبرنا للامام . وفي السهل المفتوح استطاع الاتراك بوضوح ان يحصوا عددنا الضئيل . فازدادوا جرئة واسرعوا قدماً من كلا الجانبين ليحاصرونا . فرمى زعل بنفسه عن جمله وتسلق هو وخمسة من الرجال الى قمة الجبل الذي كنا اجتزناه للتو وقام باطلاق النار عليهم . وكان تصويبه رائعاً ، وقام بحمياتنا ونحن ننتقل من قمة الى اخرى ، وقد اصيب ما يقارب اربعة عشر تركياً خلال ذلك . وفي النهاية ، وعندما تبقى لنا قمتين لنجتازهما ، وكنا متأكدين من ان ذلك سيكون سهلاً ، ظهر رجل راكباً وهو يقدم الينا ، انه كان لويس ومعه مدفعه الفعال ، فقد سمع صوت اطلاق النار المستمر فجاء ليرى اذا ما كنا بحاجة للمساعدة ، وكان مجيئه داعماً لقوتنا فقد اصبحت غاضباً جداً من الاتراك الذين نالوا من سالم ولا حقونا دون هوادة في الغبار والحر . لذلك فقد اتخذنا موقعاً لنقوم بضربهم ، الا انهم اما ان يكونوا قد شكوا بسكوننا او انهم قد خشوا من انهم قد قطعوا مسافة طويلة في ملاحقتنا ؛ وعلى أية حال فاننا لم نر أي واحد منهم . واسترخينا بعد بضعة

دقائق ، وعزمنا على اللحاق بالآخرين ، الذين كانوا يسيرون بتثاقل كبير . وكانت القافلة تضم تسعين اسيراً ، وعشرة نساء من المدينة اخترن بان يذهبن الى مكة بواسطة فيصل . وكان الوقت عصراً . فاصبحنا منهكين ، وشرب الاسرى كل ما لدينا من الماء . فكان يجب علينا ان نعيد التزود بالماء من بئر المدورة القديم في تلك الليلة لنتزود به من اجل اقامتنا الطويلة في وادي رم .

وبما ان البئر كان قريباً جداً من المحطة ، فقد كان من المرغوب فيه بأن نصل اليه ونخرج منه بسرعه خشية ان يكتشفنا الاتراك ويجدوننا عاجزين عن الدفاع عن أنفسنا . لذلك فقد افرزنا مجموعة منا لتسرع نحو الشمال من اجل الماء . فقد كنا عبارة عن قافلة مثقلة بالحمولات ، ولم نعد كقوة اغارة رشيقة ، وانما محملين بالامتعة والاشياء تماماً . وطلب مني الرقيبان تدبير سيف لكل منهما كتذكار لمعركتنا الاولى . فسرت اماماً بمحاذة طابور القافلة للبحث عن ذلك وفجأة قابلت عبيد فيصل ؛ ولدهشتي فقد رأيت في مذيلة دابة احدهم سالم المفقود ، وقد غرق في دمائه فاقداً الوعي . فهرولت الى فرحان وسألته فيما اذا كان قد وجده . فقال لي انه عندما اطلق مدفع ستوكس قذيفته الاولى اندفع سالم مجتازاً القاطرة ، فاطلق عليه احد الاتراك النار من الخلف فاصابته طلقة اصابة مميته . وبعد ان تم الاستيلاء على القطار قام رجال الحويطات بتجريده من عباءته وخنجره وبندقية وكوفيته ووجده مجيبل وهو احد العبيد ايضاً ، فرفعه على جمله مباشرة . وسار به معنا دون ان يخبرنا بذلك . وقام فرحان بعد ذلك بنقله معه على الطريق . وعندما شفي سالم فيما بعد ، فقد سبب لي قليلاً من تأنيب الضمير لتركه خلفي ، ولأنه كان من ضمن حاشيتي المرافقة .

وعندما وصلنا البئر بعد ثلاثة ساعات ، قمنا بتعبئة الماء دون حدوث أي شيء . وبعد ذلك تحركنا الى مسافة عشرة اميال او نحو ذلك خشية من الملاحقة . وهناك نزلنا ونمنا . وفي الصباح وجدنا انفسنا على ما يرام وسرنا للامام عبر ارض مكونة من طبقة طينية قاسية ومستوية ، لغاية مابلغنا أدنى وادي رم قبل غروب الشمس . وهذه الطريق الجديدة كانت مهمة لعرباتنا المدرعة ، لأن مسافة

عشرين ميلاً من الارض الطينية القاسية كانت تمكنها من الوصول الى المدورة بسهولة . واذا ماكان ذلك ، فاننا سنكون قادرين على التحكم بضرب ونسف القطارات كلما رغبنا بذلك . وبينما كنت افكر بذلك . كنا وصلنا الى مشارف وادي رم عند الغروب ، وكانت الصخور والجروف لونها احمر كلون غيوم الشفق في جهة الغرب . وشعرنا ثانية كم كانت رم مثيرة وجميلة في مناظرها الرائعة .

وحل الليل فاصبحت الجروف والصخور الضخمة غير مرئية لنا . وكان الظلام دامساً ، مما جعل التحرك فيه يائساً . وحوالي التاسعة ليلاً كنا امام الحفرة الكبيرة التي كان يقع فيها معسكرنا القديم وعين الماء . وتفرقنا عليه من خلال الظلام العميق هناك . ثم وجهنا جمالنا الى جهة اليمين وتقدمنا باتجاه الصخرة ، التي كانت قبابها مرتفعة جداً فوقنا ونحن نحملق فيها حتى ان اغطية رؤوسنا نزلت الى الخلف . وسرنا بحذر حتى لاتلمسنا الجدران الصخرية الامامية . واخيراً اصبحنا نسير بين اجمات او بين اشجار طويلة ؛ ومن ثم صحنا باعلى اصواتنا . ورد احد الرجال علينا فقد كان صدى الاصوات يمتد من خلال الجروف ، ووجدنا هناك موسى ، الذي كان يقوم بمهمة المراقبة . ثم اشعل ناراً من الحطب العطري القوي ، وجلسنا نأكل اللحم المعلب . ونشرب الماء النقي ، بعد ذلك الماء الفاسد لبئر المدروة الذي حجر افواهنا لعدة ايام .

ونمنا في انتظار قدوم بقية القافلة . وبعد يومين كنا في العقبة ، ندخلها بفخر ، محملين باشيائنا النفيسة ، ومزهوين لأن القطارات التركية اصبحت تحت رحمتنا ومن العقبة اسرع الرقيبان البريطانيان الى مصر على متن سفينة . فقد افتقدتهما القيادة البريطانية في القاهرة وتذمرت من عدم عودتهما . ومع ذلك فقد امكنهما دفع ثمن ذلك بسرور . فقد ربحا معركة فردية ؛ واصيبا بالدسنطاريا ؛ وعاشا على حليب الناقة ، وتعلما ركوب الجمل والسير به مسافة خمسين ميلاً في اليوم دون الشعور بألم او تعب . وايضاً فان اللنبي منح كل واحد منهما وساماً .

(٦٨)

مرت ايام ، جرى خلالها احاديث في السياسة ، والتنظيم والاستراتيجية مع فيصل ، بينما كانت تجري استعدادات من اجل القيام بعملية جديدة للمضي قدماً . وقد أدى نجاحنا الى تنشيط قواتنا ، وعمليات تفجير ونسف القطارات اصبحت ذائعة الصيت ، واصبحنا قادرين على تدريب رجال اكفاء لقيادة مجموعات مهاجمة وكان الكابتن بيزاني أول المتطوعين . فقد كان قائداً ذا خبرة للقوات الفرنسية في العقبة ، وجندي نشط يتحرق للقيام بعمل مميز . وأوجد لي الامير فيصل ثلاث شبان ينتمون الى عائلات دمشقية من الذين كان لديهم طموح لقيادة غارات قبلية وذهبنا الى وادي رم واعلنا بأن الغارة القادمة كانت مخصصة من اجل قبيلة جاسم ولقي ذلك حماساً منهم وجعلهم الجشع لايرفضون ذلك . وتدفقت جماعات للانضمام الينا في كل يوم . وبدآنا المسير بعد ذلك بمائة وخمسين رجلاً وقافلة ضخمة من الجمال من اجل الغنائم .

وقررنا ان يكون العمل بالقرب من معان . لذلك فقد سرنا الى البتراء . خارجين من الطقس الحار الى البارد ، ومن حدود الجزيرة العربية الى بلاد الشام، ومن مناطق الشجرنحيل الاغصان الى مناطق الشجر الكثيف . وما ان صعدنا الى اعلى الممر ورأينا بقع الدم الحمراء على التلال الواقعة اعلى الآبار المحاطة بالطفيليات ، حتى قابلتنا هناك اول نسمة من نسمات الصحراء الشمالية؛ ذلك الهواء اللطيف جداً الغني عن الوصف ، والبعيد عن مناطق العشب الجاف ، والشمس على الصخور الصوان الحارقة .

وقال لنا ادلاؤنا بأن منطقة الكيلو متر(٤٧٥) ستكون جيدة لوضع الالغام فيها . الا اننا وجدناها محاطة بالحصون من جميع الجهات ، وكان علينا ان نبتعد عن ذلك . فنزلنا الى اسفل الخط الحديدي لغاية تقاطعه مع واد كبير له جسور على كل جانب منه وفي الوسط . وهناك ، بعد منتصف الليل ، وضعنا لغماً اوتوماتيكياً من نوع جديد ، شديد الانفجار . واستغرق زرعه لساعات ، وادركنا الفجر ونحن نعمل . ولم يكن هناك ضوءاً مرئياً للنهار ، وعندما حدقنا لنعرف اين كان الظلام يتبدد ، فاننا لم يمكننا ان نرى بداية خاصة للنهار . وبعد ذلك بدقائق طويلة كشفت الشمس عن نفسها ، عالية من فوق حافة الارض ، من خلال السديم او الضباب الرقيق .

وانسحبنا الى اعلى الوادي مسافة الف ياردة لنكمن هناك . ومع مرور الساعات ازدادات حرارة الشمس ، وكانت اشعتها تنصب مباشرة على خندقنا الذي شعرنا باننا محشورين فيه من خلال اشعتها . واصبح الرجال شبه مهووسين ، مشحوذين بأمل النجاح . ولم يكونوا يستمعون لشيء سوى انتظار صوت الالغام ، وجلبوا لي مشاكلهم ومتاعبهم من اجل ايجاد حكم وحلول لها . فخلال مدة الحملة التي استغرقت ستة ايام فقد انشغلت ، وسويت امور ، اثنتا عشر حالة اعتداء بالسلاح ، اربعة حالات سرقة جمال ، حالة زواج واحدة، سرقتان ، حالة طلاق ، اربعة عشر عداوة وضغينة . وقد توصلت الى اتخاذ القرارات بتلك المسائل رغم عدم معرفتي التامة باللغة العربية . وكان هناك المزيد من الثمار المرة ، لقراري ، وانا امام العقبة لاصبح (مسؤولاً) عن المقاتلين. ولقد كنت أنهض وأثير العرب بتظاهرات زائفة ،وممارسة سلطة زائفة فوق خداعاتي ، مع دليل او برهان ضئيل ، كما هي مرئية لعينتاي اللتان تدمعان بضعف وتلدغاني بعد سنوات التعرض لومضات (اشعة) الشمس .

انتظرنا طيلة ذلك النهار والليل . وعند الغروب خرج عقرب من اجمة اشجار كنت مستلقياً بجانبها لادون ملاحظاتي حول متاعب ذلك اليوم، وتركز على يدي اليسرى ولدغني ، بصورة متكررة ،وجعلني الالم من جراء يدي

المتورمة مستيقظاً لغاية فجر اليوم التالي ؛ وبلغ الوهن وعدم التحمل للالم ان ارسل في طلب شيوخنا ، لاتخلى عن قيادة العملية واضع الامر بين ايديهم ، عندما اعلن أحد الرجال عن ظهور قطار . كان قادماً من معان ، محملاً بالمياه . ومرفوق اللغم دون حدوث انفجار . وشكرني الرجال على ذلك حيث، ان غنيمة الماء لم تكن هدفهم او حلمهم اذن فعمل اللغم قد اخفق ، لذلك فعند الظهر نزلت ومعي بعض تلاميذي من الرجال الى اسفل لاضع لغماً آخراً فوق اللغم الشديد الانفجار ، ذلك ان انفجاره يمكن ان يؤدي الى انفجار اللغم الآخر . واعتمدنا في اخفاءه وعدم كشفه الى السراب والنعاس وكسل الاتراك في منتصف النهار ، ومما برر ذلك ، فانه لم يكن هناك انتباه من قبلهم خلال الساعة التي قمنا فيها بوضع وطمر الشحنة المتفجرة .

وجلبنا الاسلاك الكهربائية من الجسر الجنوبي الى الجسر الاوسط ، الذي كانت قنطرته تخفي الاداة المتفجرة عن سطح القطار ووضعنا مدافع لويس تحت الجسر الشمالي ، لتقوم بضرب الجزء الابعد من القطار عندما ينفجر اللغم . وتمركز الرجال خلف الاجمات (الاشجار) المتواجدة حول قناة الوادي التي كانت تبعد ثلاثمائة ياردة عن السكة الحديد ، وانتظرنا بعد ذلك طيلة النهار تحت اشعة الشمس والذباب المتطاير . كانت دوريات العدو تسير بشكل نشط بمحاذة خط السكة الحديد ، صباحاً وعصراً ومساءً .

وفي اليوم الثاني ، وحوالي الساعة الثامنة صباحاً ، ظهر قطار قادم من معان . وفي نفس الوقت اقتربت الدورية الاولى . وكانت مؤلفة من ستة رجال فقط ، الا ان تحذيرهم كان سيمنع تقدم القطار ؛ وظللنا نراقب عن كثب ، متسائلين من سيكسب السباق أو الجولة . وكان القطار بطيئاً في سيره ، واحياناً تتوقف الدورية . وخمنا بانه ربما كانوا على بعد مائتي اوثلاثمائة ياردة عن موقعنا عندما قدم القطار . لذلك فقد امرنا كل واحد من رجالنا بأن يقوم بالتركيز على الاثنتي عشر عربة المؤلف منها القطار . وجلست بالقرب من شجرة موجودة في بطن الوادي ، وتبعد مائة ياردة عن مكان اللغم ؛ كنت مشرفاً على

فريق التفجير وعلى المدافع الرشاشة . وعندما سمع فايز وبدري صوت محرك القاطرة فوق القنطرة اخذا يرقصان رقصة الحرب حول صندوقهم الالكتروني الصغير . وكان الرجال الموجودين في الخندق يهمسون لي بهدوء انه قد حان الوقت لاطلاق النار : ولكن ليس قبل ان تصبح القاطرة على القنطرة تماماً ، وعندها قفزت ولوحت بعبائتي . قام فايز على الفور بالضغط تماماً على اداة التفجير ، وصدر بعد ذلك صوت ضخم وعلى الغبار والتراب من كل جانب ، كما حدث في المدورة قبل اسبوع ، وشملني كذلك الغبار والدخان . وجلجلت مدافع لويس الرشاشة بثلاثة اواربعة رشقات قصيرة ، ومن ثم صدرت صيحات من الرجال ، وكان على رأسهم بيزاني (الفرنسي) وهو يصرخ بصرخة الحرب بنبرة نسائية ، واندفعوا بشكل شرس نحو القطار .

وظهر الجنود الاتراك على حاجزي العربة الرابعة للقطار ، وقاموا بحل اداةالربط ، جاعلين مؤخرة القطار تنزلق من الخلف الى اسفل المنحدر . وقمت بجهد ضعيف لادفع بحجر الى ما وراء عجلة العربة ، ولكن لم يكن ذلك متقناً تماماً . وقام ضابط تركي برتبة عقيد باطلاق النار علي من مسدس من خلال نافذة العربة ، اخترقت لحم وركي . وضحكت من طاقته العظيمة جداً التي ظننت بأن ضابطِ نظامي مثله ، سيقوي ويدعم الموقف بقتله لفرد واحد .

وكان اللغم الذي زرعته قد هدم القنطرة القريبة من الجسر . وبالنسبة للقاطرة الامامية للقطار فان الخراب قد اصابها من جميع الجهات حيث انفجر مرجلها والعديد من حماماتها ومكان السائق واسطوانة البخار وبعض العجلات . اما العربةالاولى للقطار فانها دخلت في بعضها البعض . وكانت النتيجة قتل عشرين تركياً وأسر الآخرين ومن ضمنهم اربعة ضباط ، الذين وقفوا بالصف وهم يبكون من اجل الابقاء على حياتهم ، التي لم يفكر العرب بانهائها .

وكانت محتويات القطار تتكون من كميات كبيرة من الاغذية ، حوالي سبعين طناً . وقمنا بارسال كمية منها الى فيصل ، كتقرير مفصل عن نجاحنا ،

وابقينا ما تبقى لقافلتنا . وقد اشرف بيزاني على تحميلها وعدم اتلافها . وكما حدث من قبل فان الرجال اصبحوا يسوقون جمالهم وهي محملة بالغنائم وهم يمشون خلفها . وقام فراج بقيادة جملي ، في حين تولى كل من سالم ودحيلان امر اداة التفجير والاسلاك الثقيلة جداً . وكانت مجموعات الانقاذ من القوات التركية تبعد عنا مسافة اربعمائة ياردة عندما انتهينا من عمليتنا ، الا اننا بداءنا مسير العودة دون ان يقتل او يجرح رجل منا .

وقام تلاميذي ، من الذين دربتهم باتقان على فن التفجير بانفسهم ، وعلموا غيرهم فيما بعد وانتشرت شائعات نجاحهم بين القبائل . فارسل القبائل لفيصل يطلبون منه ارسال بعضاً منهم ليقوموا بنسف القطارات . وكان من بينها ان ارسل لبني عطية احد الرجال ويدعى سعد ، وكان من قبيلة عقيل ، وبمساعدته قاموا بنسف قطار مهم كان يقل سليمان الريفادا ، الذي ازعجنا سابقاً في الوجه ، وكان يحمل معه عشرون الفاً من الجنيهات الذهبية ، وتذكارات نفسية ، وكان سعد يكتفي فقط بأنقاذ وأخذ اداة وسلك التفجير كحصة له ، ليعيد تاريخ طريقتي .

وفي الاربعة شهور التالية فان خبرائنا الذين كانوا يخرجون من العقبة قاموا بنسف عشر قطارات . واصبح التنقل والسفر مصدر ارهاب للعدو . وأثر ذلك بشكل كبير على القطارات ، واصبحت تواجه نقصاً شديداً . وأضرب سائقوا القطارات عن العمل . وتوقفت حركة سير قطارات المدينة تقريباً . وكان الناس في دمشق يتزاحمون على المقاعد الخلفية في القطارات ، وحتى يقومون بدفع اجور اضافية ؛ خوفاً من تفجير مقدمتها أو العربات الامامية . كما توسعنا في تهديدنا الى حلب . ولم يجعل تفجيرنا للقطارات مسألة اخلاء المدينة امراً مستحيلاً فحسب ، وانما بدأ ذلك يضغط على الجيش التركي حول القدس ، تماماً عندما بدأ التهديد البريطاني يتعاظم .

في غصون ذلك وصلتني برقية من مصر . ووصلت طائرة لتقلني الى مقر

القيادة العامة البريطانية ، حيث كان اللنبي بارادة قوية ، يعيد تنظيم الجيش البريطاني المحطم وقتئذ . وسألني ماذا كان يعني عملنا من نسف القطارات وخطوط السكة الحديد ، وهل لها تأثير على سير العمليات الحربية . وعبرت عن املي في ترك الخط الحديدي عاملاً ، ولكن الى المدينة فحسب ، حيث ان فيالق أو قوات فخري التركية تطعم نفسها كما لو انها في السجن . وافضل طريقة لتقييد وحصر الخط دون القضاء عليه كانت في مهاجمة القطارات . ولم يكن بامكاننا بُعد نسف الخط الحديدي برمته اذا ان نهايته كانت اقوى نقطة في الخط ، وكنا نفضل نقاط الضعف الاقرب لنا ولغاية ما يتدرب جيشنا النظامي ويجهز ويصبح عدده كافياً للاستيلاء على معان .

وسأل (اللنبي) عن وادي موسى ، لأن برقيات الاتراك اظهرت نيتهم بالهجوم عليها في الحال . وشرحت له باننا كنا نحاول استفزاز الاتراك لمهاجمة وادي موسى ، وكنا على وشك ان نكافئ بوقوعهم في فخنا . فقد ذهبنا الى هناك في مجموعات وليس في تشكيل منتظم ، وان طائراتهم اخفقت في تقديرنا او تقدير عددنا . وحتى لم يكن بامكان أى جاسوس ان يقوم باحصائنا اذا اننا حتى انفسنا لم يكن لنا ادنى فكرة عن مدى قوتنا في اية لحظة كانت .

ومن جهة أخرى فقد كنانعرفهم (القوات التركية) بالضبط ؛ ونعرف كل وحدة عسكرية من حيث عددها وقوتها وتحرك كل رجل منهم . وهم يعاملوننا على اننا قوات نظامية ، وقبل أي تحرك ضدنا يقومون بتقدير عدد القوات التي يمكن ان يواجهونها . وكنا نحن اقل تقليداً ، نعرف تماماً بماذا سيواجهوننا . وهذا كان توازننا . اذ انه في تلك السنوات كانت الثورة العربية تعيش على عنصر الابتهاج والانتعاش ولكن على نجد منحدر من «الممكن» و«سيمكن» ولم نكن نسمح للاشياء الهامشية في عملياتنا .

وعندما جائت اللحظة المرتقبة اخيراً ، فان هجوم جمال التركي الضخم

على وادي موسى لم يكن له تأثير . فقد تصدى له مولود بشكل كفوء . فجعلهم يتوغلون في الوسط ، ومن ثم جعل قواته تنقض عليهم من الجانبين وتهشمها على الصخور والجروف العمودية التي كانت تختبئ فيها القوات العربية . ولم يعودوا مطلقاً لمهاجمة المواقع العربية الحصينة والمهيأة وكانت خسائرهم فادحة، الا ان فقدانهم لاعصابهم عندما وجدونا غير مرئين لهم والانقضاض عليهم من الخلف مما كلفهم اكثر من الاصابات التي تكبدوها . فشكراً لمولود ، اذ ان العقبة اصبحت خارجة عن كل تهديد .

الجزء السادس

الغارات على الجسور

بحلول شهر تشرين الثاني ١٩١٧ ، كان اللنبي مستعداً لشن هجوم عام ضد الاتراك على طول جبهته . وكان على العرب ان يفعلوا الشيء ذاته في قطاعهم : الا انني كنت اخشى ان اضع كل شيء في مغامرة عسكرية ، وصممت بدلاً من ذلك القيام بعملية لقطع خطر سكة حديد وادي اليرموك ، ولجعل عملية التراجع التركية تسير بشكل فوضوي . الا ان هذا الاجراء قوبل بالفشل الذي استحقه .

(٦٩)

كان شهر تشرين الاول ١٩١٧ ، بالنسبة لنا شهر التوقع ، وبمعرفتنا ان اللنبي ، ومعه بولز وداوناي ، كانوا يخططون للهجوم على جبهة غزة - بئر السبع ؛ في حين كانت القوات التركية هناك ، وهي عبارة عن قوة صغيرة متمركزة ومحصنة بشكل قوي ، مع خط مواصلات جانبي ، مما جعلهم يحرزون الانتصارات المتتابعة وجعل الجنرالات البريطانيين في موقف حرج ، وكانوا الذين كانوا يخدعون انفسهم . وعندما جاء اللنبي للقيادة فقد اعاد الثقة الانجليزية بنفسها . وقد ادى سعة تفكيره وشخصيته القوية الى ازالة الضغائن الشخصية والغيورات جانباً والتي صنعها مواري ورجاله . فحصل هناك التعاون والتنسيق بين جنرلات الجيش وهم ليندن بيل وبولز ، الذي كان رئيسا لاركان قوات اللنبي في فرنسا ، وهو عسكري تكتيكي شجاع وسريع البديهة ، اعتمد عليه اللنبي بشكل اساسي . وهناك ايضاً جاي داوناي ، الذي كان عضو الاركان الثالث لقوات اللنبي .

وكان دواناي مفكراً بشكل رئيس ، وينقصه عنصر التأهب الذي كان لدى بولز ، والاندفاع الهادئ والفهم الانساني الذي كان لدى اللنبي ، والذي كان رجلاً يقود الرجال ، والصورة التي شغفنا بها . فداوناي كان بارد الاعصاب عميق التفكير فهو دوماً يفكر ويفكر . وكان اقل خبرة بالجنود ، فخلال الحرب واجه صعوبة في التخطيط لمعركة غزة ، ومع ذلك فان اللنبي بعدم ادراكه لامتعاضه اثر ذلك فيه ؛ ورد داوناي على ذلك بأن قدم على جبهة القدس كل مالديه من موهبة ، وجعل الاتحاد الودي مابين الرجلين موقع الاتراك فيها يائساً منذ البداية .

وانعكست شخصيتهما المتباعدتان في الخطة التي وضعاها . فغزة حصنت على اســاس الاسلوب الاوربي في الحـرب ، وبناء خط دفـاعي اثر خط دفـاعي وهكذا ، أي خطوط دفاعية متتابعة . لذلك فقد كـان من الواضح ان العدو كـان يحتفظ بخط دفاعي اقوى ، ذلك ان القيادة العليا البريطانية غيرت مرتين من اجل الهجوم عليه . وكان اللنبي الذي عاد حديثاً من فرنسا يصر على ان أي هجوم آخر على غزة يجب ان يشن من قبل قوات غامرة في عدد الرجال والمدافع ، وان هجومهم يجب ان يحافظ عليه بوجود اعداد وافرة من جميع انواع وسائل النقل ، ووافق بولز على ذلك . امـا داوناي فلـم يكن بالرجل الذي يحـارب في مـعـركـة مباشرة . فقد كـان يسعى لتدمير قـوة العدو باقل ما يمكن من الضجيج . فنصح بالاندفاع الى اقصى نهاية الخط الدفاعي التركي ، بالقرب من بئر السبع . ومن اجل ان يجعل انتصاره اقل كلفة فقد اراد الهجوم على قوات العـدو الرئيسة المتمركزة خلف غزة ، الامر الذي سيكون مضموناً بشكل افضل اذا ماكان الحشد البريطاني مخفياً ، ذلك ان الاتراك سيعتقدون ان الهجوم على الخاصرة او الجناح ما هو الا خدعة ضحلة . فوافق بولز على ذلك ايضاً ، حيث انه لم يكن له رأي محدد ، ولا معرفه بالجبهة هناك .

ونتيجة لذلك فان التحركات العسكرية جرت في سرية كبيرة ؛ الا ان داوناي وجد له حليفاً في ضـابط اركان استخباراته الذي نصحه بأن ينشر تحذيرات مسبقة سلبية (خاطئة وبشكل مخادع) وبأن يعطي العدو معلومات معينة للخطط التي وضعها . وكان ذلك الحليف أو النصير هو منيرتزهاجن ، وهو عالـم للطيور المهـاجـرة الذي تحـول الى سلك الجندية ، والذي عبـر عن كـرهه للعدو وسـواء بالخـدعـة او العنف . لذلك فـقـد حث داوناي على ذلك ، ووافق اللنبي على مضض ، وأومأ بولز بالموافقة ، وبدأ العمل .

ولم يكن منيرتزهاجن يعرف حتى نصف الاجراءات المتبعة بهذا الصدد . فقد كان عالماً استراتيجياً ، وعـالم جغرافي ورجلاً بارعاً صامتاً ، يسعده خداع عدوه (او صديقه) . وفكر منيرتزهاجن باستخدام اوراق مزيفة للجيش مكتوب عليـهـا سـري للغـاية وتتـضـمن اشارة خـاطئـة لمواقع جيش اللنبي وتشكيـلاته

الرئيسية ، واتجاه خاطىء للهجوم القادم ، وتاريخ خاطىء له ايضاً . وارسلت هذه المعلومات بعناية بواسطة الشيفرة وعندما علم بأن العدو قد التقطها . قام منير تزهاجن ومعه دفاتر ملاحظاته بجولة استطلاعية لخطوط العدو ، واندفع قدماً لغاية ما رآه العدو وكاد ان يقبض عليه في عملية ملاحقة له وهو يعدو بفرسه بعد ان فقد جميع ادواته ، دفاتره ، الا انه استطاع ان يرى احتياطي قوات العدو وهي تتمركز خلف غزة ، وان يرى كافة استعدادتهم كانت تجري باتجاه الساحل الا انها كانت اقل عجلة . اما نحن على الجبهة العربية فقد كنا اكثر معرفة بكثير بالعدو ، فضباطناالعرب كانوا ضباطاً في الجيش التركي ويعرفون كل قائد في الجانب الآخر معرفة شخصية . وتلقوا نفس التدريب العسكري ، وتشاركوا بنفس الآراء . لذلك فقد كان بوسعنا ان نستطلع افكار وآراء الاتراك ؛ ونفهمهم ونتوغل في صميم افكارهم . وكانت العلاقات بيننا شاملة اذ ان السكان المدنيين للمناطق التي يسيطر عليها العدو كانوا جميعهم في صفنا دون ان ندفع لهم او نحثهم على ذلك . وبالنتيجة فان جهاز استخباراتنا كان اوسع ، وأكمل جدوى وفعالية .

وكنا نعرف افضل مما كان يعرف اللنبي الخدع الفارغة للعدو ، ومدى ضخامة المصادر البريطانية ،وكنا نستخف بالتأثير العاجز لمدفعية اللنبي الوافرة وبقوات مشاته وفرسانه البطيئة والتي كانت تتحرك ببطء شديد فقط . وأملنا بأن يتاح للنبي شهراً لطيف الطقس ، وفي تلك الحالة ، توقعنا بأن نراه لا يستولي على القدس فحسب ، بل ايضاً على حيفا دافعاً بالاتراك وهم محطمين عبر التلال .

وستكون تلك لحظتنا المناسبة ، وقد احتجنا لنكون مستعدين لها في بقعة بحيث قوتنا وتكتيكاتنا ستكون اقل توقعاً من قبل العدو واكثر دماراً له . وكان اهتمامي يتركز على درعا ، وهي همزة الوصل لخطوط السكك الحديد مابين القدس - حيفا - دمشق - المدينة ، ومركز النقطة الوسطى للجيوش التركية في سورية ، والنقطة المشتركة لكافة جبهاتها ؛ وبطريق الصدفة ، كمنطقة يقع فيها احتياطي كبير غير مستخدم من المقاتلين العرب ، المتعلمين والمسلحين من قبل

فيصل في العقبة . ويمكننا ان نستخدم هناك قبائل الروالي السراحين ، السردية ، الخريشة ، والاهالي الاكثر قوة من القبائل من سكان حوران وجبل (الدروز) العرب .

وكنت افكر ملياً منذ فترة لماذا لا يجب علينا ان نستدعي جميع اولئك الملتزمين . معنا منهم ونسيطر على خطوط المواصلات التركية بالقوة . وكنا واثقين ، مع اية تدابير من وجود اثنتي عشر الفاً من الرجال الموالين ؛ الذين كانوا كافين لاقتحام درعا ، ونسف وتدمير كافة خطوط السكة الحديد وحتى الاستيلاء على دمشق مباغتة ، وأي واحد من هذه الاشياء سيجعل وضع الجيش التركي في بئر السبع خطيراً .

ولم تكن تلك المرة الاولى او الاخيرة التي ضايقتني بالعمل مع رئيسين او قائدين لي ، فقد كنت واحداً من ضباط اللنبي ، وحاصلاً على ثقته ، وبالمقابل فقد توقع مني ان اقوم بكل ما استطيع من اجله . وكنت في الوقت ذاته مستشاراً للامير فيصل ، وكان فيصل يعتمد على اخلاصي وكفائتي الى ابعد حد وغالباً ما كان يأخذ بنصيحتي دون جدل . لذلك فلم يكن بامكاني ان اشرح لأللنبي الوضع العربي برمته ، ولا ان اكشف لفيصل كافة تفاصيل الخطة البريطانية .

وكان السكان المحليون يناشدوننا بأن نأتي . وارسل لنا الشيخ طلال الحرادين ، وكان زعيماً لمنطقة تقع حول درعا ، ارسل ببرقيات متكررة يقول فيها انه بمساعدة بضعة فرساننا يمكنه من الاستيلاء على درعا وتقديمها لنا . ومثل هذا العمل كان سيدعم وضع قوات اللنبي ، الا انه لم يكن خياراً يمكن لفيصل ان يقوم به مالم يثبت وضعه هناك آنئذ ، فالاستيلاء على درعا ومن ثم التراجع منها سيتسبب في احداث مجزرة او القضاء على كافة السكان المحليين الرائعين في تلك المنطقة . فمن الممكن فقط ان يهبوا مرة واحدة ، وينبغي ان يكون جهدهم في تلك المناسبة حاسماً . فبدعوتهم للعمل الآن كان سيعرض التخمين الافضل الذي وضعه للنجاح النهائي للخطر ، وعلى اساس ان توقع هجوم اللنبي الاول سيسحق العدو امامه ، وبعد ذلك ، وفي شهر تشرين الثاني حيث سيكون الطقس غير ممطر سيجرى تقدم سريع بهذا الصدد .

وقيمت الجيش البريطاني في فكري ، ولم استطع بصدق ان أؤكد نفسي بأنني كنت انتمي اليه ، فرجاله غالباً ما كانوا مقاتلين بلباس عسكري انيق ، بل ان جنرالاته غالباً ما كانوا يكشفون عن غباء بما حصلوا عليه في جهلهم .

فالجنرال اللنبي غير مجرب للوضع هنا تماماً ، فقد أُرسل الينا من فرنسا ، وان قواته كانت كذلك بالطبع ، واننا كنا جميعاً نحارب من اجل احراز النصر للحلفاء ، وحيث ان البريطانين كانوا يشكلون الشركاء الرئيسيين ، فانه كان على العرب ، وهم السبيل الوحيد الباقي ، بأن يضحوا من اجلهم . ولكن هل كان ذلك آخر سبيل ؟ فقد كانت الحرب بشكل عام لا تسير بشكل جيد ولا بشكل سيء جداً ايضاً ، وبدا الامر كما لو انه يمكن ان تكون هناك محاولة اخرى السنة القادمة ، لذلك فقد قررت تأجيل الخطر من اجل مصلحة العرب .

(٧٠)

مع ان الثورة العربية عاشت على امل ما سيحققه اللنبي من نجاح في ميدان المعركة ، الا انه كانت هناك حاجة للقيام ببعض العمليات تكون فعاليتها اقل من ثورة عامة ، وتجري في مؤخرة خطوط العدو . عملية يمكن ان تنجز من قبل مجموعة مغيرة دون ان يشترك فيها السكان المحليون . وواحدة يمكن ان تسر اللنبي بكونها مساعدة مادية لمطاردة البريطانيين للعدو . ووقع الاختيار لتلك العملية على محاولة تدمير واحد من الجسور الضخمة الواقعة في وادي اليرموك .

كان ذلك الجسر يقع بجانب ممر ضيق شديد الانحدار لوادي نهر اليرموك يمر عبره خط السكة الحديد القادم من فلسطين صعوداً الى حوران ، وفي طريقه الى دمشق وعمق وادي الاردن ، وشدة انحدار واجهة النجد الشرقي جعل هذا الجزء من الخط اكثر صعوبة في عملية بناءه او تركيبه . وكان على المهندسين اقامته في طريق انعطاف وادي النهر ؛ ومن اجل توسيعه وتطويره فقد كان الخط يجتاز أو يغيد اجتياز النهر بشكل مستمر بواسطة سلسلة من الجسور توجد في أقصى الغرب واقصى الشرق حيث كانت من الاصعب استبدالها فيما لو دمرت .

ونسف واحد من هذه الجسور فانه يمكن بذلك عزل الجيش التركي في فلسطين لمدة اسبوعين عن قاعدته في دمشق والقضاء على قوته في النجاه والفرار من تقدم جيش اللنبي . ومن اجل الوصول الى وادي اليرموك فقد كان علينا ان نسير من العقبة عن طريق الازرق ، ونقطع مسافة اربعمائة وعشرون ميلاً . وظن الاتراك ان الخطر عليها من جانبنا كان مستحيلاً بسبب بعده وانعزاله ، لذلك فقد وضعوا عليها حراسة غير مشددة او فعالة .

ووفقاً لذلك فقد عرضنا الخطة على الجنرال اللنبي الذي طلب بدوره ان يتم ذلك في الخامس من شهر تشرين الثاني ، أو في احدى الايام الثلاثة اللاحقة لذلك . واذا ما نجحت العملية ، وأخرت العوامل الجوية اصلاح الخط لمدة اسبوعين ، فانه لن يكون هناك انسحاب لأية وحدة عسكرية متماسكة لجيش فون كريس الالماني الى دمشق ، وعندئذ فان القوات العربية ستنتهز فرصتها للتقدم اماماً الى العاصمة العظيمة (دمشق) ، لتتابع انجاز مهمة القوات البريطانية من منتصف الطريق ، التي سيكون اندفاعها الاساسي حينئذ منهك تقريباً اضافة لانهاك وسائل نقلها .

ومن اجل تلبية مثل هذا الاحتمال ، فقد احتجنا في الازرق الى سلطة او قيادة لقيادة الموالين المحليين المحتملين . وكان الشريف ناصر ، رائدنا المألوف ، غائباً . ولكن كان هناك مع بني صخر علي بن الحسين ، الشريف الحارثي الشاب ، والنشط الذي تميز بدوره خلال الايام الاولى لحملة فيصل اليائسة حول المدينة (المنورة) ، وحول العلا فيما بعد . وعلي ، الذي كان في ضيافة جمال باشا في دمشق من قبل ، قد تعلم وعرف اشياء عن سورية ؛ لذلك فقد التمست من الامير فيصل اعارته لنا . فشجاعته ودهائه ، وطاقته كانت مثبتة . ولم تكن هناك اية مغامرة منذ ان بدأنا عملياتنا الحربية ، خطرة جداً لم يقم علي بمحاولتها ، ولا مأساة او كارثة كبيرة لم يواجهها بصرخته او ضحكته العالية .

كان رائعا من الناحية الجسدية : فهو ليس بالطويل ولا بالبدين ، وكان من القوة بحيث يركع على ركبتيه ويبسط راحتي يديه على الارض ثم يقوم على قدميه وهويرفع رجلاً على كل يد . اضافة الى انه يمكنه ان يسبق جملاً وهو يعدو بقدميه العاريتين ، ويسرع خلفه لمسافة نصف ميل ثم يقفز على سرجه . وكان جريئاً في الكلام ، عنيداً ومغروراً معجباً بنفسه ؛ متهوراً في كلامه كما في افعاله ؛ مؤثراً (اذا ما كان مسروراً) في المناسبات العامة ، ومتعلماً تماماً كشخص كان طموحه الاصلي التفوق على عرب الصحراء في ميادين الحرب والرياضية .

وكان علي سيجلب الى صفنا بني صخر . وكانت لنا آمال طيبة بخصوص قبيلة السراحين ، الموجودة في الازرق . وكنت انا على اتصال مع بني هاني . اما

قبيلة الروالى ، فقد كانت بالطبع ، بعيداً ، تعيش في مناطقها ومضاربها الشتوية ، لذلك فان ورقتنا الاكبر في حوران لن يمكن ان تلعب وذهب فايز الغصين الى منطقة "اللجة" ليعد للعمل ضد خط سكة حديد حوران اذا ما تلقى الاشارة بذلك وخزنت المتفجرات في امكنة محكمة وحذر اصدقائنا في دمشق ؛ واستعد على رضا الركابي الحاكم العسكري للمدينة ، الذي كان في نفس الوقت موالياً للشريف حسين ، لأخذ زمام الامور والسيطرة على المدينة اذا ما نشأت حالة الطوارئ .

وكانت خطتي المفصلة تبدأ بالانطلاق من الازرق ، تحت ارشاد الشيخ رفا (ذلك الشيخ الشهم جدا والذي رافقتني في شهر حزيران) ، الى ام قيس ضمن مسير او مسيرين ضخمين يضم نحو خمسين رجلاً . وام قيس منطقة مليئة بالآثار الاغريقية والرومانية القديمة ، وتقع على اقصى غرب جسور نهر اليرموك . وكانت توجد على تلك الجسور نقاط ومراكز حراسة لايتجاوز عددها الستة . وهي تزود من حامية عدد افرادها ستون عنصراً . وكان يحذوني الأمل في ان احث بالذهاب معي بعض من عشيرة ابو تايه وعلى رأسهم زعل . فهؤلاء الرجال الذئاب سيقومون بهجوم صاعق ومؤكد على الجسر . وحتى نمنع وصول تعزيزات للعدو سنقوم بنصب مدافع رشاشة بالقرب ، يقوم بالعمل عليها متطوعين من كتيبة كابتن براي الهندية التابعة لفرقة الفرسان العاملة في فرنسا ، وتحت قيادة جمادار حسن شاه ، وكان رجلاً صلباً وذا خبره . وكان هؤلاء متواجدين في البلاد منذ شهور ، وقد اكتسبوا خبرة في نسف الخطوط الحديدية ، واصبحوا خبراء في قيادة وركوب الجمال والمسير بها .

ان عملية تدمير عوراض خشبية ومعدنية ضخمة بكميات محدودة من المتفجرات كان شيئاً محكماً ، وتطلب سلسلة من الجيلاتين المتفجر ، يفجر كهربائياً وايضاً ، فان العملية تظل خطرة وصعبة القيام بها تحت اطلاق النار .

وخشية من حدوث اصابات في صفوفنا ، فقد دعى خبير الالغام ، وود ، وكان هو المهندس العسكري الوحيد الموجود في قاعدة العقبة ليذهب معي ليساعدني فوافق على الفور ، مع انه كان يعاني صحياً من جراء اصابته برصاصة

في رأسه في فرنسا . واعرب جورج لويد ، الذي كان يقضي بضعة ايام في العقبة قبل ان يذهب الى قصر فرساي بباريس لحضور اجتماع وفود الحلفاء هناك، عن رغبته بمرافقتنا الى الجفر ؛ حيث كان واحداً من افضل رفاقنا في تلك الرحلة وأقل فضولاً ، واضاف مجيئه معنا زخماً لمعنوياتنا البائسة .

كنا على وشك الانتهاء من استعداداتنا عندما وصل الينا حليف غير متوقع، وكان ذلك الامير عبد القادر الجزائري ، حفيد المدافع الشهم عن الجزائرين ضد فرنسا . وكانت عائلته تعيش في المنفى في دمشق منذ عشرة سنوات . وقد اعدم واحد منهم ، واسمه عمر من قبل جمال باشا بتهمة الخيانة عند الكشف عن اوراق ووثائق بيكو . اما الآخرين ، فقد ابعدوا ، وروى لنا عبد القادر قصته الطويلة لفراره من بروسا ، ورحلته ومعه الف من المغامرين ، عبر الاناضول الى دمشق . وفي الحقيقة ، فقد اطلق سراحه من قبل الاتراك بناء على طلب من خديوي مصر عباس حلمي ، وارسل من قبله بمهمة خاصة الى مكة . فذهب الى هناك وقابل الملك (الشريف) حسين ، وعاد ومعه الراية والهدايا الفخمة . وقدم لفيصل دعم ومساندة القرويين الجزائريين، الذين كانوا يعيشون على طول الضفة الشمالية لوادي اليرموك . وانتهزنا فرصة ذلك حيث ان هذا سيمنحنا السيطرة لبعض الوقت على الجزء الاوسط لخط سكة حديد الوادي، بما فيه اثنين او ثلاثة من الجسور الرئيسة . ووفقاً لذلك ؛ فقد غضينا النظر عن دعوة الشيخ رفا لمقابلتنا في الازرق ، ولم نقل شيئاً لزعل ، وركزنا تفكيرنا بدلاً من ذلك على وادي خالد وجسوره .

وبينما كنا في تسلسل الافكار هذا وصلت الينا برقية من الكولونيل بريموند، يحذرنا فيها من ان عبد القادر كان يتجسس لحساب الاتراك . كان ذلك شيئاً محبطاً . فراقبناه عن كثب ، الا اننا لم نجد أي دليل على التهمة ، التي كانت لا تقبل بشكل اعمى ، وخصوصاً من شخص كبريموند الذي كان حاقداً على عبد القادر عندما سمعه يشجب فرنسا في السر وفي العلن . فالفرنسيون ينظرون الى بلدهم كمثل امرأة جميلة اكسبتهم ضغينة وطنية ضد اولئك الذين يزدرون جمالها .

وطلب فيصل من عبد القادر بأن يذهب معنا ، وقال لي ، "اعرف بأنه متطرف . واعتقد بانه مخلص ، فانتبه لرجالك واستفد منه" . وبدأنا مسيرنا ، وقد اظهرنا له كامل ثقتنا ، على اساس ان لا نخدع باخلاصنا نحوه . وحقيقة الامر ، فان عبد القادر كان اسلامياً متشدداً ، ويصل حماسه الديني الى شبه الجنون . الا ان كرامته قد خدشت برفقتنا له ؛ اذ ان القبائل كانت تحي الشريف علي كأعظم منه ، وتعاملني على انني الافضل منه ، وقد اثارت تصرفاته الهوجاء الشريف علي اكثر من مرة ، وفي نهاية الأمر تخلى عنا فجأة وفي احلك اللحظات ، بعد ان عوق مسيرنا وسبب لنا الاضطراب وأفسد خططنا الى أبعد ما كان يستطيع .

(٧١)

كان المسير صعباً كما كان الأمر من قبل . ومن اجل حراستي الشخصية فقد اخترت ستة مجندين . كان من بينهم محمد الذي كان اصله من منطقة اليرموك . وكان نشطاً ويقظاً وحاد المزاج في التاسعة عشر من عمره . وآخر كان اسمه عزيز، اكبر سناً من محمد ، وقد قضى ثلاثة سنوات مع البدو هرباً من الخدمة العسكرية . لذلك فقد كان ماهراً في قيادة الجمال ، ويتمتع بروح سطحيه، الا انه معتداً بنفسه . والثالث كان اسمه مصطفى ، وهو فتى لطيف من درعا ، مخلصاً جداً ، وكان يتملكه الاسى لانه كان اخرساً ، وخجلاً من نفسه بسبب عجزه . وقد التمس ان يرافقنا من احد حراسي . ومع انه كان يتوقع ان يرفض طلبه الا انني وافقت على أخذه معنا ؛ وكان ذلك اختياراً جيداً بالنسبة للآخرين، حيث انه كان فلاحاً بسيطاً ، يمكنهم ان يكلفوه بكل المهام الوضيعة ومع ذلك ، ايضاً ، فقد كان سعيداً لانه كان بين رجال يائسين ، والعالم سوف يظنه يائساً . ولموازنة عدم فعاليته اثناء المسير فقد جندت معي ايضاً كل من شواك وسالم ، وهما من الشرارات ، وعبد الرحمن ، وكان خادماً فاراً من الرياض . وقد فتحت حارساي القديمان محمد وعلي فترة استراحة . فقد كانا تعبان بعد مغامرات تحطيم القطارات ؛ ومثلهم مثل جمالهم ، فقد احتاجا للرعي والراحة . وهذا ترك لأحمد بشكل محتوم قيادة حراسي . وقد استحقت طاقته الشديدة الى ترقية ، الا ان الاختيار قد اخفق كما حدث من قبل . حيث اساء استخدام قوته واصبح مستبداً ، لذلك فقد كان هذا آخر مسير له معي . وأخذت معي كريم من اجل العناية بالجمال ، وايضاً رحايل ، الشبق ، الذي انشغل بالفتى الحوراني .

ومطر الرجل ، الطفيلي من بني حسن ، الذي الصق نفسه بنا . وكان سميناً جداً ، تملأ مؤخرته سرج الجمل ، واصبح مصدراً للنكات خلال مسيرنا . فمن الممكن اننا كنا سندخل الى اراضي بني حسن ، حيث كان له بعض النفوذ ، الا ان توقعاتنا قد اخفقت .

اصبحت خدمتي الآن مفيدة ، حيث انني قد عرفت قيمتي بالنسبة للثورة ، وكنت حراً وطليقاً لاحافظ على سلامتي . وأكمل كل من فراج وداود ، ومعهما خضر ومقبل فريق خدمي وحراسي .

وكان فراج وداود كفؤان وسعيدان في كل مسير نقوم به ، كما انهما كانا يقومان باعمال مزعجة في كل مكان نحط ونعسكر فيه . وفي هذه المرة تجاوزا حدهما عندما اختفينا عن الانظار في صباح رحلينا . وعند الظهر وردت اخبار من الشيخ يوسف تفيد بانهما كانا ينزلان في سجنه ، وانه يريد ان يتحدث معي بهذا الشأن . فذهبت الى بيته لاجده يرتعش مابين الضحك والغضب . فقد اشترى ناقة اصيلة ومن سلالة صافية جداً . وكانت هذه الناقة ترعى في المساء فسرحت وضلت طريقها الى بستان نخيل حيث كان يخيم هناك فراج وداود . ولم يشكا ابداً من انها كانت ملكاً للحاكم ، بل انهما قاما ببضع رأسها بالحناء ، ويصبغ ارجلها بالنيلة ، حتى لاتعرف .

وعند فقدانها ، هبت العقبة على الفور للبحث عن هذه الناقة . وتعرف عليها يوسف بصعوبة ، وارسل شرطته على عجل للقبض على الفاعلين . وجر الصديقان ليقفا امام الحاكم للحكم عليهما وكانت ايديهما ملطخة بالصبغة حتى المرافق ، وهما يحتجان بصوت عال ويعبران عن براءتهما . ومع ذلك ، فقد كانت الادلة عليهما قوية جداً ، وبعدأن بذل الشيخ يوسف جهده في معاقبتهما بالضرب بغصن نخيل ، وضعهما وراء القضبان ليقضيا اسبوعاً في التأمل البطيء . وتعويضاً عن خسارته فقد قمت باعارته ناقة لغاية ماتصبح ناقته على ما يرام . ومن ثم شرحت له حاجتنا الماسة للآثمين ، ووعدته بأن يلقنهما جرعة اخرى من العقاب عندما يصبح جلدها مناسباً لذلك ؛ وبناء على ذلك أمر باطلاق سراحهما . وكانا مسرورين للنجاة من السجن القذر تحت أي شرط وانضما الينا وهما يغنيان .

وقد ادى هذا الحادث الى تأخيرنا لبعض الوقت . لذلك فقد تناولنا وجبة وافرة في المعسكر ، وبدأنا المسير في المساء . وكان سيرنا بطيئاً لمدة اربعة ساعات: فالمرحلة الاولى من المسير تكون بطيئة عادة ، وكل من الرجال والجمال يكرهون بدء الرحلة بمواجهة خطر جديد . وكانت الحمولات تنزلق من على الجمال ، ويعاد تثبيت احزمة السروج ، ويتغير الراكبون على الجمال . وبالاضافة لجمالي الخاصة (فناقتي غزاله التي اصبحت جدة وقتذاك ، اصبحت الآن كبيرة السن ، وكانت هناك ربما ، الناقة الممتازة التي سرقها الصخور من الروالى) ومع اولئك الجمال الذين كانوا لحراسي ، فقد اركبت الجنود الهنود على الجمال واعرت قائدهم وود (الذي تدرب عل ركوب الجمال يومياً وجرب كل يوم جملاً جديداً تقريباً) جملاً ، وأعرت واحداً آخراً لثورن ، الحارس الشخصي للويد ، الذي جلس على سرجه كالعربي وبدا بارعاً في لبسه للكوفيه والعباءة فوق لباسه الكاكي وكان لويد نفسه يركب ناقة تدعى دهيرية وقد اعارها له فيصل: وكانت رائعة وسريعة ، الا ان وبرها قد جز بعد اصابتها بالجرب واصبحت نحيلة . وتشتت قافلتنا بعد ذلك ، فوود تخلف وراءنا ورجالي لكونهم كانوا جدد ، وانشغلوا كثيرا بجعل الجنود الهنود يبقون سوية في المسير فقد فقدوا الاتصال به . لذلك فقد وجد نفسه وحيداً مع ثورن ، واخطأ الطريق بالتوجه نحو الشرق ، حيث هناك الظلام الدامس دوماً الذي يلف اعماق ممر وادي العتم الضيق في الليل ، ما عدا عندما يكون ضوء القمر مباشراً فوق الرأس. وذهبا باتباع الطريق الرئيسي باتجاه القويرة ، سائران لعدة ساعات الا انهما في نهاية المطاف قررا الانتظار لمدة يوم في واد جانبي . فكلاهما كانا لايعرفان المنطقة ، وليسا متأكدين من العرب لذلك فقد نزلا ليراقبا الوضع . وخمنا ماذا حدث عندما اخفقا في ان يأتيا عند توقفنا في منتصف الليل . وقبل حلول الفجر عاد كل من احمد وعزيز وعبد الرحمن للبحث عنهما متبعين ثلاثة أو اربعة طرق متوقعة واحضروا المفقودين الى وادي رم .

وبقيت انا ولويد وبقية المجموعة نسير عبر السفوح المتعرجة ذات الارض الرملية الحجرية الزهرية اللون والوديان المليئة بالشجيرات الخضراء نحو وادي

رم. كـان الهـواء والضـوء جـمـيلان جـداً ذلك اننا سـرنا دون التـفكيـر ولو قليـلاً بالغد. والرذاذ اوالمطر الخفيف الذي سقط مساء الامس قد جعل قد جعل النهار لطيفاً . وكـانت الالوان على الجروف والصخـور والاشجار والارض والتراب نقية جداً وحيوية ومنعشة جداً ، ذلك اننا تشوقنا للمسها ، مع عدم مقدرتنا لحمل او نزع أي شيء منها . فقد كنا في راحة تامة . واثبت الهنود على انهم لايحسنون قيادة الجمال ، في حين ان فراج وداود ابتلايا بنوع جديد من السروج المؤلمة تدعى " اليوسفية " ،الأمر الذي جعلهما يمشيان ميلاً بعد ميل .

ودخلنا وادي رم اخيراً ، بينما كانت شمس الغروب القرمزية تحترق على الجروف والصخور الضخمة والمذهلة ، وانبعثت سلالم مائلة من نار باهتة في اسفل الحارة او المنطقة المنبسطة المسورة أو المحاطة بالصخور . وكان كل من وود وثورن متواجدين هناك للتو ،جالسين هناك على قطعة منبسطة والتي كـانت ارضاً لمعسكري القديم . فقد ادركهما عبد الرحمن قبل الظهر ، وحثهما على اتباعه بعد وقت من سوء التفاهم ، حيث ان بضع الكلمات في اللهجة المصرية التي كانا يحفظانها لم تساعدهما كثيراً مع ماكان يستوعبه من اللهجة العامية للحويطات او عريدة . وقادهما عبر التلال الى طريق صعب سبب لهما مشقة كبيرة .

وكان وود جائعاً وحاداً وقلقاً وغضباناً الى درجة انه رفض الطعام البدائي الذي جلبه له عبد الرحمن من خيمة تقع على جانب الطريق . وبدأ يعتقد بأنه لن يرانا ثانية ، وكان غير ممتناً عندما اكدنا له بأن مناظر رم الخلابة ستنسيه معاناته وتركناه مستلقياً هناك في حين تابعنا تجوالنا ونحن نهمس حول روعة المكان. ولحسن الحظ فان احمد وثورن فكرا اكثر بشأن طعامهما : وقد حافظا على علاقاتهما الودية عند العشاء .

وفي اليوم التالي وبينما كنا نقوم بوضع السروج على الجمال ظهر كل من علي وعبد القادر . وتناولت الغداء انا ولويد معهما للمرة الثانية . حيث انهما كانا يتشاجران ، لذلك فقد جعلناهما تحت مراقبتنا . وكان لويد مسافراً نادراً من نوعه . فقد كان بامكانه ان يأكل أي شيء ومع أي واحد ، وفي أي حال من

الاحوال ، وفي أي وقت كان . ومن ثم انطلقنا في اثر مجموعتنا نازلين الى واد ضخم ، بدت تلاله قصيرة في وضعها وتصميمها . وفي العمق اجتزنا منبسط "جعا" ونحن نقود جمالنا بعدو سريع فوق سطحه الناعم الاملس ، لغاية ما ادركنا مجموعتنا ، وبعثرناهم من شدة الاندفاع تراقصت جمال الهنود على من فوقها وتمايلت لغاية ماتناثرت حمولاتها . ومن ثم هدأنا من انفسنا وسرنا سوية بروية الى وادي "خفيرا" ، وهو واد ضيق وملتو كحد السيف يؤدي الى نجد مرتفع . وعلى رأسه يقع ممر شاق وصعب يؤدي الى مرتفع البتراء ؛ ولكن شعرنا بأن ذلك اليوم كان قصيراً بالنسبة لنا ، ومن اجل الراحة توقفنا في مكان مظلل في بطن الوادي . وقمنا باشعال نيران كثيفة ، حيث كان ذلك مبهجاً في الأمسية الباردة . وقام فراج باعداد الارز لي على طريقته كالعادة . وأحضر كل من لويد و وود وثورن لحم بقر معلب وبسكويت الجيش البريطاني وجلسنا معاً لتناول الطعام .

في اليوم التالي تسلقنا ممراً وعراً ملتوياً ، واصبح ممر وادي حفيرا العشبي يقع تحتنا تتوسطه تلة مخروطية الشكل ، مع منظر أو مشهد خلفي للقمم الرمادية الرائعة والاهرامات المتوهجة لجبال وادي رم . وقد توسع في ذلك اليوم الى روعة اوسع واكثر بجموع الغيوم التي احتضنته ومرت فوقه . واخذنا نشاهد قافلتنا الطويلة وهي تصعد الى اعلى لغاية ماقبل الظهر حتى وصلت الجمال والرجال العرب والهنود والامتعة الى القمة دون وقوع أي حادث . وبشكل يدعو للرضا فقد نزلنا على أول واد اخضر يقع على القمة ، متجنبين الهواء البارد ، ومدفئين انفسنا بإشعة الشمس الواهنة التي عدلت من صقيع الخريف على تلك الارض المرتفعة ، وبدأ بعضهم يتحدث ثانية عن الطعام .

(٧٢)

ذهبت شمالاً ، لاستطلع واستكشف مع عواد ، وهو فتي هجان ، انضم الينا في وادي رم دون الاستقصاء عنه . وحيث انه كانت هناك الكثير من الامتعة التي تحملها الجمال في قافلتنا ، ولأن الهنود اثبتوا جهلاً كبيرا في تحميل الجمال وقيادتها ، فان حراسي قد تحولوا من مهمتهم الحقيقية او الاساسية إلى المسير والذهاب معي . لذلك فعندما قدم لي شواخ ابن عمه ، الخيال الشراري (عواد)، الذي قدم لي خدماته تحت أية شروط ، قبلته على الفور وهو الآن سيثبت لي مدى قيمته واهميته .

ودرنا حول وادي ابا اللسان لنتأكد من ان الاتراك كانوا منعزلين وبعيدين عنا حيث انهم قد اعتادوا على الاندفاع بدورية راكبة فوق مواقع البتراء بصورة مفاجئة ، ولم تكن لدي اية فكرة أو نية لاضع فريقنا يقوم بعمل او اشتباك غير ضروري . وكان عواد ذا بشرة بنية اللون ، وفتى في الثامنة عشر من عمره تقريباً، نشيطاً كالهر ، ويحسن ركوب الجمال ، وبدا في عينيه المتوحشتين شك متوقع دائم ، حيث انه بدا في اية لحظة انه كان يتوقع شيئاً جديداً في الحياة ، شيئاً لا يسعى وراءه او يطلبه .

كان هؤلاء الشرارات لغز الصحراء . فالرجال الآخرين يمكن ان يكون لديهم الآمال او الاوهام . اما الشرارات فقد اعتقدوا بأنه لاشئ افضل من الوجود المادي الذي سيتيح لهم بتشوق في الانخراط بهذا العالم بعالم آخر . فمثل هذا الانحطاط المفرط وقاعدته الايجابية لبناء الثقة، وقد عاملتهم تماماً

كمثل الآخرين من رجالي او حراسي المرافقين . ووجدوا هذا مدهشاً ؛ وايضاً امراً ساراً عندما عرفوا بأن حمايتي لهم كانت نشطة وفعالة . وماداموا في خدمتي فانهم سيصبحون من ممتلكاتي تماماً ، وكانوا رجالاً جيدين في الخدمة ، حيث انه لاشئ ممكن عمله او اجراؤه في الصحراء لا يقومون به . او حتى يفوق قوتهم او خبرتهم .

واظهر عواد نفسه امامي على انه مشوش وخجول ، مع انه مع اقرانه يمكن ان يكون مرحاً وصاحب نكات . فانخراطه معنا كان فرصه مفاجأة تفوق احلامه ، فصمم على نحو يدعو للشفقة بأن يكون ملائماً لافكاري . وكان عملنا في تلك اللحظة اجتياز طريق معان العام لكي نجلب انتباه الاتراك . وعندما نجحنا في ذلك ، وجعلناهم يسرعون بدوابهم لملاحقتنا ، رجعنا ، واعدنا الكرة ثانية ، وهكذا خدعناهم بالتوجه نحو الشمال خارج اتجاه الخطر . وبعد ذلك تسلقنا الى قمة التل المشرف على البتراء ، وعلى الوديان المنحدرة نحو ابا اللسان ، واستلقينا هناك بكسل لغاية العصر ، ونحن نشاهد الاتراك وهم يتجولون بدوابهم عبثاً في الاتجاه الخطأ ، وكان رجالنا نائمين في موقعهم وجمالهم ترعى ، بينما كان خيال الغيوم المنخفضة يبدو كمثل تجاويف لطيفة وهي تمر فوق العشب تحت ضوء الشمس الباهت . فقد كان الوضع مسالماً ، فاتراً ، وبعيداً جداً عن العالم القلق المضطرب . الا ان عواد لم يتمكن من نسيان شهيته ، لذلك فقد انبطح على الارض واخذ يمضغ بالعشب وهو يعبر لي عن شعوره المرح بعبارات مرتعشة ووجه متجنب ، لغاية مارأينا فرسان علي يبدأون بالوصول الى نهاية الممر . ومن ثم نزلنا السفوح بسرعة لملاقاتهم ، وسمعنا منهم بأن علي فقد اربعة جمال في الممر ، اثنان تحطما بوقوعهما ، واثنان أنهكا ونفقا بسبب ضعفهما وهما يجتازان بين الصخور . وان علي قد تشاجر ايضاً مع عبد القادر وسار الامير لوحده بشكل بطئ ، ولم يكن لديه معرفه بالطريق ، ورفض صراحة الانضمام إلي انا ولويد في قافلة واحدة ، وذلك من اجل اجراءات السلامة . وتركناهم ليلحقوا بنا بعد حلول الليل . وبما انهم لم يكن لديهم دليل ، فقد تركت معهم عواد . وتواعدنا

على ان نلتقي ثانية في مضارب عودة ابو تايه . ومن ثم تحركنا قدماً لنسير على وديان ضحلة ونجتاز المرتفعات لغاية مغيب الشمس عندما رأينا مركز محطة غدير الحاج من على بعد اميال . وكان يوجد خلفنا في الوادي شجيرات يابسة ، لذلك فقد دعونا للتوقف واشعلنا النار من اجل العشاء . وفي تلك الامسية استنبط حسن شاه فكرة سارة (اصبحت عادة فيما بعد) باختتام وجبتنا بتقديمه لنا الشاي الهندي . ولم يكن بمقدورنا ان نرفض ، وكنا ممتنين لذلك ، مما استهلك جميع كمية الشاي والسكر الذي كان بحوزته قبل ان ترسل له كميات جديدة منها من القاعدة .

وحددت انا ولويد اتجاه خط السكة الحديد حيث كنا سنعبر من هناك الى اسفل "الشدية" تماماً . وبما ان النجوم كانت ساطعة في السماء فقد اتفقنا على انه ينبغي ان نسير باتباع النجم "اوريون" . لذلك فقد بدأنا وأخذنا نسير بحثاً عن النجم ساعة أثر ساعة ، ولم يبد ان النجم كان قريباً ، ولم تكن هناك علامات أو اشارات لأي شيء بيننا وبينه . وكان علينا ان نخرج من المرتفعات الى السهل ، وكان السهل لا منته وتتخلله وديان ضحلة ذات ضفاف مستقيمة او منخفضة او مستوية ، والتي بدت تحت اضواء النجوم وكأنها مثل حفريات لخط سكة حديد متوقعة او تحت البناء . وذهبت انا ولويد للامام لنستطلع الخط الحديدي ، وذلك حتى لايصادفنا معقل او دورية ليلية تركية . ثم عبرنا بعد ذلك وتوقفنا لفترة بسيطة ، ومن ثم استئنفنا سيرنا ببطء اكثر ، كما لو بدا ذلك لساعات طوال ، وكان السهل لايزال مخترقاً بممرات مرتفعة مضللة ، والتي ابقت على انتباهنا مشدود بغير فائدة . وشعرنا بأن النجوم كانت متغيرة ومتحولة واننا كنا نتجه بالطريق الخطأ . وكان لدى لويد بوصلة موجودة في مكان ما بين امتعته . لذلك فقد توقفنا واخذنا بالبحث عنها في جراب سرج جمله . ومن ثم وجدها ثورن ، وحددنا مسارنا ، بعد ان تخلينا عن اتباع النجم اوريون الى نجم شمالي ميمون او مبشر بالنجاح . ثم سرنا قدماً لغاية ما صعدنا ضفة اكبر ووجه لويد بوصلته ليستدل بها ، وبعد مسير قصير اصبحنا نتجه مباشرة نحو محطة الشدية ، وأليها تقريباً .

استدرنا نحو اليمين واجتزنا بسرعة مجال مفتوح ، وخشينا ان تتوه عنا بعض عناصر القافلة ؛ الا ان كل شيء سار على مايرام ، وبعد بضعة دقائق كنا نتبادل اطراف الحديث باللغات الانجليزية والعربية والتركية والاوردية (الهندية) . وكانت تسمع من خلفنا اصوات نباح كلاب المعسكر التركي . واصبحنا وقتذاك نعرف طريقنا ، وسلكنا اتجاهاً جديداً لتجنب الموقع التركي الاول الواقع اسفل الشدية . وبدأنا بذلك بثقة ، متوقعين ان نجتاز خط السكة الحديد بحادثة ما . ومع ذلك فان الوقت مضى دون حدوث شيء ما . وكان الوقت منتصف الليل ، وقطعنا مسافة ست ساعات ، وبدأ لويد يتحدث بمرارة عن وصوله لبغداد في الصباح . فلن تكون هناك سكة حديد ليصل بواسطتها . ورأى ثورن صفاً من الاشجار ،رأها تتحرك ، وتهيأنا ببنادقنا الا انها كانت اشجاراً فحسب .

وتخلينا عن الامل ، وسرنا بلا مبالاه ، مطأطيء الرؤوس فوق سروجنا ، تاركين عيوننا التعبة تغمض بنفسها . وفقدت ناقتي ربما مزاجها فجأة . وبصرخة حادة انحرفت الى جانب الطريق ، لتطرحني ارضاً تقريباً ، وحطت بنفسها في مكان مغبر . وضربتها على رأسها ، فنهضت وسارت قدماً بعصبية . ومرة اخرى تخلف الهنود وراءنا بعيداً بسبب سرعتنا ؛ الا انه بعد ساعة كان هناك آخر منحدر وجرف لتلك الليلة يمثل امامنا . وكان شكله مستقيماً ، وعلى طوله كانت بقعة تصبح اظلم والتي يمكن ان تكون فتحات لسبخات ضحلة . ومن ثم دفعنا بدوابنا للامام ببطء وهدوء . وعندما اصبحنا اقرب اليه ، فان الجرف كان مسيجاً بنتؤات حادة على طول حافته . وكانت تلك اعمدة التلغراف . وترأى لنا رأس جسم ابيض ، فخمنا بأن ذلك موقع كان يبعد كيلوا متراً عنا وتوفقنا بسرعة، وذهبت مع مجموعة لاستطلع ، متوقعين بأن نفاجأ باطلاق النار فجأة في الظلام ، وان يعكر صفو الهدوء صوت اطلاق رصاص البنادق . الاانه لم يكن هناك شيء يوحي بالخطر . فوصلنا المنحدر ووجدناه مهجوراً . وترجلنا عن جمالنا واسرعنا في كل اتجاه نزولاً وصعوداً لمسافة مائتي ياردة ؛ الا انه لم يكن هناك أحد .

وأمرنا رجالنا الآخرين بأن يذهبوا فوراً الى الصحراء الواقعة الى الشرق ، بينما تحلقنا نحن حول عمود تلغراف . وتسلق ثورن ببطء على السارية ليمسك باقرب سلك ويتعلق به ، لغاية ما وصل للقمة ، وبعد لحظة سمع صوت انهيار سلك معدني بعد ان قطعة ثورن ، وتبعه ثاني وثالث وهي تلتوي هابطة بضجة على طول الارض الحجرية . ومع ذلك لم يكن هناك ردة فعل من جراء ذلك ، مظهرة باننا كنا اجتزنا بشكل صحيح مسافة بعيدة كفاية عن موقعين تركيين . وسحب ثورن السارية المترنحة لتقع ارضاً . وبعد ذلك مشينا الى جمالنا الراكعة، وخببنا بها لنلحق بجماعتنا وادركناهم بعد ساعة ، وأمرنا بالتوقف للاستراحة لغاية الفجر ؛ ولكن قبل ان نفعل ذلك فوجئنا بسماع اطلاق نار قصير من بندقية وصلية من مدفع رشاش بعيداً من جهة الشمال ، حيث كان ذلك نتيجة لعدم اجتياز علي وعبد القادر لخط السكة الحديد بحذر .

وفي صباح اليوم التالي ، سرنا تحت اشعة الشمس المشرقة بموازاة خط السكة الحديد لنحي (نرى) اول قطار خارج من معان ، ومن ثم نندفع الى الداخل على سهل الجفر الغريب . وانتصف النهار وازدادات اشعة الشمس قوة جاعلة السراب على كافة المنبسطات المتأججة . وعندما سرت منحازاً عن قافلتنا المبعثرة، رأيت بعضه (السراب) غارقاً في تدفق فضي وموجة اخرى منه واخرى تسبح عالياً فوق سطحها المتغير الذي امتد وتقلص مع كل تمايل للجمال ، او في عدم تساوي اوتموجات الارض .

وفي وقت مبكر من العصر وجدنا عودة ابو تايه معسكراً حول الآبار الجنوبية الغربية المحطمة ، واستقبلنا بتكلف وارتباك فقد ارسلت خيامة الضخمة مع النساء بعيداً عن وصول الطائرات التركية اليها . وكانت هناك بعض الفئات من عشيرة الطويحة ؛ وقد نشب بينهم نزاع حول توزيع الاجور والمخصصات القبلية . ووجدنا عودة حزيناً ووضعه ضعيفاً .

وبذلت جهدي لتسوية النزاعات وبتقديم اتجاه جديد ومصالح وفوائد تعويضية ونجحت في ذلك الى ابعد حد . وللاستفادة من الوقت فقد اجلنا تناول

الطعام مع محمد الدحيلان . فقد كان دبلوماسيا افضل من ابو عودة . وبعد ذلك جرى الترحيب بنا جداً لتناول الطعام عنده ، المؤلف من الارز واللحم والبندورة الجافة . فقد كان محمد سخياً وطيباً . وبعد تناول الطعام قمنا بالتجوال في المنطقة ، والتقيت بزعل وعرضت عليه خططنا في القيام بحملة على جسر اليرموك . ولم يحبذ الفكرة ابداً . فزعل قد تغير ولم يكن كما كان من قبل . فالنجاح الذي احرزه من قبل في الهجوم على القطارات ، والثروة التي جمعها من جراء ذلك ، جعلت الحياة نفيسة بالنسبة له . وقال لي ا نه يمكن ان يقودني الى أي مكان في الربيع القادم ، اما الآن فانه يمكن ان يرافقني اذا ما جعلت الغاية أو الهدف شخصياً من ذلك . وسألته ماذا يمكننا ان نأخذ من الرجال من طرفه ؛ فسمى لي اسماء ثلاثة من الرجال كاتباع جيدين في المعسكر لهذه المهمة اليائسة . فبقية الرجال كانوا بعيداً ، مستائين . ولأخذ ثلاثة من "الطويحة" فسيكون الأمر أسوأ ، بسبب ان غرورهم سيشعل الرجال الآخرين ، في حين انهم لايفوا بالغرض ايضاً لقلتهم ؛ لذلك فقد قلت لزعل بانني سأحاول تدبر الأمر من مكان آخر ، فعبر عن راحته من ذلك .

وبينما كنا لاتزال نناقش ماذا سنفعل (حيث انني كنت بحاجة لمشورة زعل ، الذي كان من افضل المقاتلين واكفئهم) ، اندفع فتى مذعور الى حلقة موقد القهوة حيث كنا نجلس حوله ، وقال بأن هناك فرسان قادمون بسرعة من جهة معان . فقد كان للاتراك هناك فوج من البغاله وفوج من الخيالة ، كانوا دوماً يتباهون بانهم سيزورون في يو م ما عودة ابو تايه . لذلك فقد هبينا للترحيب بهم . وكان لدى عودة خمسة عشر رجلاً ، خمسة منهم قادرون على القتال ، والبقية اما كبار السن او اولاد ، الاانا كنا نحن ثلاثون رجلاً قوياً ، وفكرت بالحظ التعس للقائد التركي الذي قد اختار لهذا الهجوم المفاجئ اليوم الذي تصادف فيه وجود المدفعيين الهنود معنا هناك والذين كانوا يعرفون عملهم جيداً . لذلك فقد دفعنا بالجمال الى جهة ابعد ، ووضعنا مدافع الفايكرز ولويس الرشاشة في تلك الاستحكامات والخنادق الطبيعية ، والمغطاه بشكل يدعو للعجب بالشجيرات

الكثيفة ، وتسيطر على حقل اوسهل منبسط مساحته ثمانمائة يادرة من كل جانب . وانزل عودة خيامه ودفع برماته من الرجال ليكملوا قوة نيراننا ، ومن ثم انتظرنا براحة لغاية ماقدم اول فارس نازلاً من السفح الى السهل المنبسط ، ورأينا بانهم كانوا علي بن الحسين وعبد القادر الجزائري ورجالهما ، قادمين الى الجفر من اتجاه العدو . وتجمعنا بفرح ، في حين قام محمد الدحيلان بتقديم وجبة ثانية من الطعام لهم . وكانوا قد خسروا رجلان من رجالهم وفرساً خلال عملية اطلاق النار مع الاتراك على خط السكة الحديد في الليل .

(٧٣)

كـان على لويد العـودة الى باريس ، فطلبنا من عـودة ان يقـوم بارشـاده ومرافقته عبر خط السكة الحديد . وكانت هناك صعوبة كبيرة لايجاد جمل له، اذ ان جمال الحويطات كانت في المراعي ؛ واقرب مرعى كان يقع على مسافة مسير يوم الى جـهـة الجنوب شـرق هذه الآبار الجرداء . وتغلبت على هذه الصـعـوبة بتقديمي دابة من دوابي . ووقع الاختيار على ناقتي القديمة غزالة ، والتي كانت عانت من حمل شديد اكثر مما كنا نظن . فقبل ان ينتهي حملها الطويل فستكون غير ملائمة للعمل السريع . وأعطي شرف قيادتها الى ثورن ، بينما كان الحويطات مشدوهين من ذلك . فقد اعتبروا غزالة فوق كل الجمال الموجودة في صحرائهم ، وكانوا يولون الشئ الكثير لشرف ركوبها وقيادتها ، وهنا تعطى لجندي على وجهه انطباعات الانوثة . وكنت آسفاً لارى لويد يغادر . فقد كان متفهماً لنا ومساعداً حكيماً ، ويتمنى لقضيتنا الخير . وكان ايضاً الرجل الوحيد الملم تماماً بنا في الجزيرة العربية ، وكانت افكارنا منشغلة في تلك الايام القليلة بقضيتنا التي تثار في الخارج . وعندما غادر فقد انهمكنا ثانية بالحرب والقبائل والجمال دون نهاية .

وبدأ الليل مثقلاً بمثل هذا العمل . فينبغي ان تسوى مسألة أو قضية الحويطات بشكل صحيح . فبعد حلول الظلام تحلقنا وتجمعنا حول موقد عودة ، وتأملت لعدة ساعات الوجوه المتحلقة حول ضوء النار ، مستخدماً كافة فنون الاعيبي الملتوية والمتعرجة عليها ، فتارة اجذب انتباه هذا ، وتارة اخرى اتحول

لذاك ، مبدداً الوقت الثمين دون الحصول على ردة فعل او استجابة . فرجال ابو تايه كانوا قساه التفكير كما هم قساة الاجسام والحديث معهم يجري عسيراً .

وتدريجياً حصلت على اغراضي واهدافي ، الا ان الجدل وصل تقريباً الى منتصف الليل عندما رفع عودة عصاه ودعا لالتزام الهدوء . واستمعنا متسائلين ماذا كان الخطر ، وبعد برهة شعرنا بصوت صدى دبيب بعيد ، كانت ضرباته بطيئة جداً وعميقة . وكانت تشبه دمدمة تأتي من بعيد ، كرعد بعيد جداً . ورفع عودة عيناه المنهكتين باتجاه الغرب وقال . "انها المدافع الانجليزية" . فقد كان اللنبي يبدأ هجومه ، وطغت اصوات مدافعة التي تدعوا للتفاؤل بالنسبة لي ، فاغلقت باب النقاش .

كان الجو في صباح اليوم التالي صافياً وحميماً . وعانقني عودة الكبير بحرارة ، بعد ان ذهب عنه ضيقه متوسلاً ان يعم السلام علينا . وفي نهاية الامر وبينما كنت واقفاً ويدي على سرج ناقتي اسرع الي واخذني من يدي وقربني منه . وشعرت بأن ذقنه كانت تلامس اذني وهو يهمس لي قائلاً ، "احذر من عبد القادر" . وكان هناك الكثير لدينا لنقوله . واندفعنا على سهول الجفر الجميلة اللامنتهية لغاية ما أرخى الليل سدوله علينا ونحن على بعد اقدام من صخرة صوان كبيرة تشبه جرف ، ماثلة على السهل . واقمنا خيامنا هناك فقد كان مسيرنا قصيراً وبطيئاً جداً . واثبت الجنود الهنود ثانية بانهم كانوا مبتدئين بالمسير على الطريق . فعلى الرغم من انهم غادروا الوجه منذ اسابيع ، وعرفت بانهم لم يكونوا ماهرين في قيادة الجمال ، الا انهم الآن وهم على جمال جيدة ، يحاولون جهدهم ، فانهم لم يستطيعوا المسير سوى خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم ، وهي مسافة تعتبر نزهة بالنسبة للرجال الآخرين . وهكذا فان التحرك في كل يوم كان سهلاً بالنسبة لنا دون جهد ، بعيداً تماماً عن الاجهاد الجسدي . واضاف الطقس الذهبي واشعة الشمس المعتدلة ، والمساءات القارصة سلاماً غريب الطبيعة الى سلامة مسيرنا . وكان هذا الاسبوع يصادف ذكرى صيف القديس مارتين ، الذي مر مثل حلم . فقد شعرت فقط بأن الامر كان لطيفاً جداً ، ومريحاً جداً ، ذلك ان الجو كان سعيداً واصدقائي كانوا راضين .

وخيمنا من اجل تناول الغداء ومن اجل استراحة منتصف النهار ، فقد كان عل الجنود ان يتناولوا ثلاثة وجبات في اليوم . وفجأة كان هناك انذار بوجود خطر ، فقد ظهر رجال على جيادهم وجمالهم من جهتي الغرب والشمال واطبقوا علينا بسرعة ، واشهرنا بنادقنا وقام الهنود بحمل مدافعهم الرشاشة وجهزوها للعمل ، ولم تمض سوى دقائق حتى اصبحنا في وضع دفاعي كامل ، مع ان وضعنا في مثل هذه المنطقة المستوية تقريباً كان ضعيفاً بعض الشيء . والى الامام من كل جانب كان يتواجد حرسي وهم في ملابسهم المشرقة ينتشرون منبطحين بين الاعشاب اليابسة الرمادية ، وبنادقهم امامهم في وضع استعداد ، وبالقرب منهم تواجدت اربعة مجموعات من الجنود الهنود بلباسهم الخاكي وهم يجثمون وراء مدافعهم . وكان ينبطح خلفهم الشريف علي ورجاله وهو يتوسطهم بنفسه ، حاسر الرأس ومتحمساً ، مائلاً بيسر فوق بندقيته . وفي الخلفية كان سائسوا الجمال يدفعونها الى مكان رعينا ليكونوا بعيدين عن نطاق اطلاق النار .

لقد كانت تلك صورة فريقنا . فقد كنت معجباً بها ، وامر الشريف علي بعدم اطلاق النار حتى يبدأ العدو بالهجوم ، عندما هب عواد فجأة وهو يضحك مبتهجاً ويسرع باتجاه العدو ، وهو يلوح بكم قميصه فوق رأسه في اشارة صداقة . فاطلقوا النار فوقه بشكل غير فعال ، فانبطح على الارض ورد عليهم باطلاق النار ومن ثم ساد سكون وقد اربكهم ذلك ، وبعد ذلك انسحبوا قليلاً في مجموعة مترددة ، وبعد دقيقة نقاش بينهم رفعوا اعبيتهم في رد على اشارتنا وسار واحد منهم على قدميه باتجاهنا ، فذهب عواد بحماية بنادقنا الى مسافة مائتي ياردة ليقابله ورأى بأنه كان من الصخور ، الذي عندما سمع باسمائنا تظاهر بالصدمة . وذهبنا سوية الى الشريف علي ، وعلى بعد مسافة منا كان يتبعنا بقية القادمين الجدد بعد ان رأوا تحيتنا المسالمة لهم ، فقد كانوا مجموعة اغارة من عشيرة زبن الصخور والذين كانوا يخيمون ، كما توقعنا في منطقة الآبار امامنا .

وكان علي حانقاً عليهم لأن هجومهم الغادر علينا قد هددنا بشتى

الاشكال. وتقبلوا تقريعه لهم بتجهم قائلين بان ذلك كان من عادة بني صخر باطلاق النار على الغرباء . وقبل علي عذرهم هذا كعادة من عاداتهم ، وهي عادة جيدة في الصحراء ، الا انه احتج بأن ظهورهم المفاجيء ضدنا من ثلاثة اتجاهات اظهرت بان ذلك كان فخاً منصوباً . وذهب المغيرون الى منطقة الآبار ليفيدوا بقدومنا . ورأى مفلح ، زعيم عشيرتهم ، بأن يقام استقبال عام لنا يشترك فيه كافة الرجال والجياد ، وان تقام الاهازيج واطلاق النار للترحيب بنا. وكانوا يحيطون بنا وهم يهزجون ويطلقون العيارات النارية ، وتتناثر من حولهم سحب الغبار . وخف الاستعراض اخيراً ، الا ان عبد القادر فكر بأن يبرز نفسه في ذلك الاحتفال لان الرجال كانوا يهزجون للشريف علي بن الحسين ويصحيون قائلين "الله ينصر شريفنا" ، ويتجهون الي وهم يقولون "مرحباً ، اورانس ، رايد العمل" . لذلك فان عبد القادر اعتلى فرسه ومن خلفه خدمة السبعة ، وأخذ يرقص فرسه ويجعله يثب على قائمتيه الخلفيتين ويطلق النار من مسدس في الهواء بشكل مستمر . واستغرب البدو لهذا التصرف والاستعراض ، ولزموا الهدوء لغاية ما قدم مفلح الينا ، وقال لنا بطريقته المتملقة ، "يا اسياد اوقفوا خادمكم ، اذ انه لايتقن اطلاق النار ولا ركوب الجياد ، واذا اصاب احد ما فانه سيفسد احتفالنا هذا اليوم" ولم يكن مفلح يعلم شيئاً عن عبد القادر وعائلته سلالته فشقيق عبد القادر (محمد سعيد) قام بما يمكن ان يكون رقماً عالمياً قياسياً لثلاث حوادث مميته متتابعة بمسدسه في وسط او حلقة اصدقائه في دمشق. وقال علي رضا باشا ، الزعيم المحلي ، بهذا الصدد ، "هناك ثلاثة اشياء مستحيلة : الاول ان تكسب تركيا الحرب ، وان يصبح البحر الابيض من الشمبانيا ، وان أكون موجوداً بنفس المكان مع محمد سعيد وهو مسلح" .

وانزلنا حمولاتنا بين الآثار وخيمنا هناك . وكانت تتواجد خلفنا خيام بني صخر السوداء حيث كانت تبدو كقطيع الماعز مبعثرة في الوادي . ودعانا رسول الى خيمة مفلح . وأخبرنا على ان الامير فيصل قد ارسل فريقاً من البنائين ، بناء على طلب من بني صخر ، وثقالات آبار لاصلاح البئر المخرب والذي اكتشفنا انا

والشريف ناصر بانه قد نسف بالديناميت ونحن في طريقنا الى العقبة . وانهم كانوا مازالوا هناك في منطقة الآبار منذ شهور وان عملهم لم ينجز بعد . لذلك فقد انتدبنا فيصل لأن نستطلع اسباب ذلك التأخير المكلف . واكتشف علي بأن البنائين الذين أتوا من بيشه كانوا يعيشون حياة راحة واسترخاء ويجبرون العرب على تزويدهم باللحم والطحين . فشجبهم على ذلك ووبخهم ، مما دفع مفلح لأن يقيم لنا عشاء ضخماً . وهمس رجالنا بأن ذبائحه كانت تعد لنا خلف خيمته ، اما الشريف علي فقد اصدر حكمه العادل على البنائين قبل ان تحمل اوعية الطعام الينا ، وقام خدمه با نزال العقوبة عليهم بين الآثار والخراب مما جعلهم يعودا الى رشدهم ويقبلون الايادي كعلامة عن الندم والغفران . ومن ثم جلس الرجال سوية لتناول الطعام .

ان ولائم الحويطات كانت مشبعة بالسمن والدهن ؛ في حين ان ولائم بني صخر كانت طافحة بها . فقد لطخت ملابسنا بالدهن وافواهنا تسرع بالتهام الطعام ، وسمطت اصابعنا من شدة حرارته . وكنا مانزال جياع والانتهاء من الطعام ، مايزال بعيداً ، عندما نهض عبد القادر فجأة على قدميه ومسح يديه بمنشفة ، وجلس الى الوراء على البساط بجانب جدار الخيمة . وترددنا ، عندما تمتم الشريف علي بكلمة "الفلاح" ، فاستمر تناول الطعام لغاية ماشبع كافة الرجال ، وبدأنا ننفض الارز والسمن عن اصابعنا . وتنحنح علي ، ورجعنا الى اماكننا على السجاد ، في حين اخذت جولة ثانية وثالثة دورها في تناول الطعام لغاية ما شبعت . وامام الخيمة كانت الكلاب تقوم بالتقاط وقضم العظام الجافة ، وخدم مفلح في الزاوية يقومون بشق وفلق رؤرس الخراف ويخرجون منها النخاع ؛ في حين جلس عبد القادر وهو ينكش اسنانه . واخيراً ارسل احد خدمه لاحضار دواء المعدة له ، اذا ان الطعام الدسم كان يسبب عسر هضم له ، مدمدماً بان معدته لا تقوى على هضم اللحم القاسي . وقد عنى بسوء التصرف الذي قام به من اسراعه بالانتهاء من الطعام ، كان ليضفي على نفسه الفخامة والجلال . ومن الممكن ان يفهم اتباعه القرويون هذا التصرف ، الا ان عشيرة الزبن كانت

بعيدة جداً عن الصحراء لتلم بهذه العادة والاسلوب . وكانوا يرون ايضاً امام اعينهم في ذلك اليوم مثال مناقص للشريف علي بن الحسين ، ابن الصحراء وسيدها . فعادة قيام جميع الذين يتناولون الطعام سوية عن الطعام بعد الانتهاء منه كانت من عادات سكان الصحارى الوسطى . وعلى اطراف الصحراء في الاراضي المزروعة ، والتي يكون اهاليها شبه بدو ، من عاداتها ، ان ينهض كل ضيف لوحده عندما يشبع من الطعام ويجلس جانباً . اما بالنسبة لقبائل عنيزه القاطنة في اقصى الشمال فان من عاداتها ان تترك الضيف الغريب يأكل لوحده ، وفي الظلام ، ذلك حتى لايكون خجلاً من قابليته وشهيته للطعام . فهذه كلها عبارة عن نماذج ؛ ولكن بين القبائل المعتبرة فان اسلوب وعادة الشرفاء هي التي كان يثنى عليها بشكل عام . لذلك فان عبد القادر المسكين لم يكن ليدرك ذلك .

وجلسنا عند باب الخيمة ، فوق سطح الارض المظلمة ، وكانت الخيام تشع قليلاً نحونا ، وتبدو وكأنها تحاكي اوتعكس النجوم في السماء . انها كانت ليلة هادئة ، ماعدا بعض نباح الكلاب بين فترة واخرى ، وعندما تتوقف عن النباح كان يتناهى الينا من بعيد ثانية هدير اصوات المدافع الثقيلة استعداداً لهجوم قوات اللنبي على جبهة فلسطين .

ومع ترافق اصوات المدفعية هذه فقد اطلعنا مفلح باننا كنا على وشك الاغارة على منطقة درعا ، وسنكون سعيدين بأن يشاركنا مع بعض رجال قبيلته ، ويكونوا جميعهم على الجمال . فبعد الاخفاق مع الحويطات بهذا الشأن ، فقد قررنا بأن لانعلن عن هدف خطتنا خشية من ان يقوم شخص يائس بالتأثير على انصارنا ورجالنا ويؤثر عليهم ويحبطهم . ومع ذلك فان مفلح وافق على الفور وبسرور بالغ بشكل ظاهر ، واعدا بأن يحضر معه خمسة عشرة رجلاً من القبيلة ومعهم ابنه . وكان هذا الفتى واسمة تركي ، عمره سبعة عشر عاماً تقريباً قوي البنية ، جريئاً يحب ان يبرز شجاعته امام فتيات قبيلته . وقد وجدنا فيه الاخلاص في مناسبتين خطيرتين . وكان مبتهجاً جداً عندما اهديته ثوباً جديداً من الحرير عند تناولنا للعشاء ، واخذ يتمشى به ليعرضه دون ان يلبس فوقه عباءته ، شاجباً اولئك الذين بدوا متقاعسين عن مقابلتنا .

(٧٤)

كان الظلام قد حل منذ وقت طويل قبل ان تغادر قافلتنا وادي البير ، بعد سقاية الجمال . وانتظرنا نحن القادة وقتاً اطوا لحين مايستعد افراد عشيرة الزبن . وكانت استعدادات مفلح تتضمن زيادة قبر عياد ، وهو الجد الاكبر للعشيرة ، الذي كان قبره مجاوراً لقبر عناد . وكان بني صخر يستعدون لمثل هذه المناسبات بلباس معين . واعتقد الشيخ مفلح ان هذه المناسبة تتطلب اضافة ربطة رأس جديدة لوضعها على شاهدة قبر عياد ، وطلب منا على نحو مميز بأن نقدم له عطايانا . فقدمت واحدة من الحلى المزخرفة من صنع مكة ، علامة على مدى أهمية المتبرع . وعندما عدت ماراً من هناك بعد بضعة اسابيع ورأيت بأن الحلية قد ذهبت ، لعن مفلح بصوت عال ليسمعني بأن بعض الشرارات دنسوا قبر جده الاكبر وسرقوه . وقادنا ممر قديم شديد الانحدار الى الخروج من وادي البير . وبالقرب من قمة تل وجدنا الآخرين مخيمين هناك لقضاء الليلة وموقدين ناراً ، الا انه لم تكن تجرى احاديث او اعداد قهوة ذلك الوقت . واستلقينا قريبين من بعض ، مصغين باذاننا لسماع هدير مدافع اللنبي ، التي كانت تسمع بوضوح ووميضها يلمع من جهة الغرب .

في اليوم التالي اجتزنا الى الشمال عن طريق "الثلاث اخوات" ، وهي جبال كانت قممها البيضاء النظيفة كعلاقات شامخة لتجمع المياه ؛ ونزلنا الى اسفل عبر سفوح ممتدة تقع خلفهم . وكان كل صباح من شهر تشرين الثاني الرائع يحتوي على نعومة وطرا وة كمثل ايام صيف انجليزي ، ولكن جماله كان

يُفسد دوماً . فقد كنت اقضيها في التوقفات والاستراحات المتكررة لمسيراتنا ، وفي المسير على مراحل ، ومع رجال بني صخر لاتعلم لهجتهم ، وأخزن في ذاكرتي الملاحظات القبلية والعشائرية او الشخصية التي كانوا يقومون او يدلون بها . ففي الصحراء القليلة السكان فان كل واحد مبجل عرف الآخر وبدلاً من وجود الكتب فانهم درسوا انسابهم وسلالاتهم . واذا ما كنت مقصراً في مثل تلك المعرفة فان ذلك سيعني اما ان الشخص سيءالتنشئة ، او انه غريب ؛ والغرباء لا يقبلون في الاتصالات والعلاقات المألوفة او في المجالس ، او في كتم الاسرار . لذلك فلم يكن هناك شيئاً مرهقاً ، ولا شيئاً مهماً جداً كذلك من اجل نجاح غرضي وهدفي ، اذ ان هذا التمرين الذهني للمعرفة والعلم بكل شئ كان يجري عند كل لقاء قبلي .

وعند حلول الليل عسكرنا في وادي جيشه الغني بنباتاته ، الى جانب شجيرات ذات اوراق خضراء رمادية ، حيث ادخلت السرور على جمالنا ووفرت لنا حطباً للوقود . وكانت اصوات المدافع مسموعة جداً ومرتفعة ، وربما كان ذلك بسبب انخفاض البحر الميت حيث يدفع بصدى الاصوات الى اعلى حتى النجد المرتفع الذي كنا متواجدين عليه . وهمس الرجال العرب قائلين " انهم اصبحوا اقرب ، وان الانجليز يتقدمون ؛ الله يسلم الرجال ذاك المطر " . فقد كانوا يفكرون بشكل عاطفي نحو الاتراك ، الذين كانوا مضطهديهم الضعفاء لمدة طويلة جداً ، ومع ذلك فقد احبوهم اكثر من الاجانب الاقوياء الذين اعماهم التمييز الاعمى .

ان العربي يحترم القوة قليلاً : الا انه يحترم البراعة وغالباً ما يحصل عليها بدرجة يحسد عليها ؛ بيد انه فوق كل شئ يحترم الاخلاص في التعبير ، وكان الاتراك يوهمون العرب بذلك . ويكمن الكثير من هذا التميز في حالات مشتركة والحالات الشخصية ، فقد كان هناك العديد من الانجليز ، الذين فضلهم العرب بشكل فردي على أي تركي أو اجنبي آخر ، ولكن لأن نعمم ذلك ونطلقه على العرب على أنهم موالين للانجليز فسيكون ذلك غباءً .

وصحونا مبكراً ، قاصدين بأن نندفع الى الطريق نحو " العمري " مع غروب الشمس ، وعبرنا مرتفع اثر مرتفع تحتوي على صخور الصوان المحروقة من اشعة الشمس ، وبرزت وكانها نبتات من الزعفران ساطعة جداً ومتراصة ذلك ان المنظر برمته كان ذهبياً . وقد اطلق عليها الصخور لقب «صَفرا الجيشه» . وكان عمق الوديان بوصات فقط ، وسطحها مبلور كمثل الجلد المغربي ، تتخللها جداول صغيرة من بقايا الامطار الاخيرة . وكان كل مرتفع لمنحنى او منعطف يحتوي على كومة من الرمال ا لرمادية ثابته وقاسية لمنحنى او منعطف يحتوي على كومة من الرمال الركاديه ثلبته وقاسية مع الطين ، واحياناً متلألأ بالحبيبات الكريستالية ، وتتخللها احياناً اغصان الاشجار نصف المدفونه فيها فبقايا الوديان هذه انجرفت الى وداي السرحان حيث كانت دوماً مصدراً غنياً للرعي . وعندما تكون هناك مياه في حفرها وتجاويفها فان القبائل تتجمع حولها وتسكن او تقيم مضاربها هناك . وكان رجال بني صخر الذين يرافقوننا قد خيموا هناك كثيراً ، وما ان عبرنا المنخفضات الرتيبة ، حتى اشاروا اولاً الى احدى التجاويف المميزة حيث كانت هناك اثار مواقد النار ومجاري المياه ، وقال احدهم " ، هنا كانت خيمتي وهناك كانت خيمة حمدان ، انظر الى ذلك المكان الصلب ، انه كان موضع فراشي وذاك التالي كان لطرفة ، رحمها الله ، لقد ماتت في سنه السم ، نتيجة لسم الأفعى . » وحوالي الظهر ظهرت مجموعة من الرجال وهي تخب بجمالها على المرتفع وتتحرك بسرعة وبشكل واضح نحونا . وذهب تركي الصغير على ناقته الكبيرة وبندقيته الصغيرة فوق فخذيه ، ليستطلع الامر . وصاح مفلح نحوي بينما كانوا لا يزالون على بعد ميل عنا قائلاً : ها انه فهد على ناقته ، في المقدمة انهم اقاربنا " ، وكان هذا تأكيد كافً فقد كان فهد وأدهب من الزعماء الحربيين لعشيرة الزبن ، يعسكرون غرب خط السكة الحديد بالقرب من زيزيا ، عندما ذهب اليهما غوماني ليخبرهما باخبار مسيرنا . فركبا جمليهما على الفور ، وبالسير سريعاً تمكنوا من اللحاق بنا على منتصف الطريق تقريباً . ودعاني فهد بلطف لأن اذهب الى مضاربهم لاتعرف على عائلته .

كان فهد شخصاً متشائماً ، ذا صوت ناعم ، قليل الكلام ، في الثلاثين من عمره ابيض الوجه . اما شقيقه الاصغر ، أدهب ، فقد كان اطول منه واقوى. وعلى النقيض من فهد ، فقد كان نشيطاً ، ومفعماً بالضجيج والنشاط ، وفتى يافعاً لم ينبت الشعر على وجهه بعد ، وذا عينان خضرواتان مشعتان ، وغير مبال بنفسه ، والدليل على ذلك من خلال ملابسه القذرة ؛ في حين كان فهد انظف وأرتب . وبديا وهما على ناقتيهما كمثل شيخين صغيرين ، ومع ذلك فقد كانا مقاتلين مشهورين .

وفي منطقة العمري هبت ريح ليلة باردة جداً ، بحيث كانت اسناننا تصطك ببعضها من شدة البرد . كما اننا كنا غير مسرورين بالنسبة للمياه اذ انه لم يكن عميقاً في الحفر وانما كان سطحياً كمثل الذي كان في وادي سرحان ، بل ان معظم البرك كان يصعب الشرب منها ومذاقها حاداً وفاسداً . ومع ذلك فقد كان هناك بئراً يدعى بئر الامير وماءه عذب . وكان يقع مابين احجار كلسية على رابية رملية . وكان ماءه تحت مستوى لوح الصخرة مباشرة . وانزل داود فراج بملابسه كاملة ليستطلع مدى عمقه . فغطس تماماً ليتوراى عن الانظار ، وبعد ذلك برز تماماً على سطح الماء تحت حافة الصخرة حيث لم يمكن رؤيته في الظلام . وانتظر داود دقيقة ، الا انه عندما لم يظهر ضحيته (فراج) نزع عباءته عنه وغطس في الماء ليجده مبتسماً تحت الصخرة . وجعلهما الغطس كمثل سمك في الماء . ومن ثم خرجا من البئر ، واخذا يتشاجران بوحشية على التراب بجانب فجوة الماء . وتلطخ كل واحد منهما بالتراب ، ورجعا الى موقد ناري وهما مبتلان ، وينزفان، وشعرهما ووجهما ، ايديهما وجسداهما مغطيان بالطين والشوك ، وكأنهما عفريتان في مظهرهما . وقالا لي بانهما كانا يرقصان ، فسقطا فوق مجموعة من الشجيرات ؛ وسيكون من السخاء بأن اقدم لهما ملابس جديدة . فخيبت ظنهما وآمالهما وارسلتهما ليصلحا من امرهما .

لقد كان حراسي ، وخصوصاً من رجال عقيل ، مسرفين في الاناقة بطبيعتهم ، وينفقون اجورهم على الملابس والحلى ، وفي تجديل شعورهم

وتزيتها لتصبح مشعة . ويمنحها الدهن او الزبدة شكلاً مصقولاً ، ومن اجل ابقاء الحشرات عليها فانهم كانوا يرشونها ببول الجمال . وفي ايام الحكم التركي لهم ، كان هناك طبيب الماني في بئر السبع يلقنهم دروساً ليكونوا نظيفين وذلك بحبس المقملين منهم في مراحيض الجيش لغاية مايلتهموا قملهم من الجوع .

اصبحت الرياح ضعيفة عند الفجر ، وتحركنا قدماً الى الازرق الذي كان يمثل نصف المسير تقريباً . وظهر هناك خطر ، فقد رؤي رجال يركبون الجمال بين الاشجار وراء الآبار . فقد كانت هذه المنطقة ارض ملائمة لمجموعات الاغارة. فانسحبنا سوية الى افضل مكان وتوقفنا هناك . واختار الجنود الهنود مرتفع ضئيل تقع حوله قنوات ماء ضعيفة . وابقوا الجمال في فجوة توجد خلفها، ونصبوا مدافعهم الرشاشة خلال دقيقة . وطرح علي وعبد القادر راياتهما الضخمة جانباً . وبدأت مناوشاتنا من قبل احمد وعواد ، وهما يقفزان يميناً ويساراً ، وتبودل اطلاق النار لفترة طويلة ، ثم توقف فجأة . وسار العدو باتجاهنا ، وهم يلوحون بعباءاتهم في الهواء وينشدون اهازيجهم الحربية . فقد كانوا من رجال قبيلة السرحان وهم في طريقهم لتقديم الولاء والطاعة للأمير فيصل . وعندما سمعوا اخبارنا تحولوا ورجعوا معنا وساد المرح والابتهاج طيلة الطريق ، حيث ان هذه القبيلة لم تكن مولعة بالحرب او كانت قبيلة بدوية . وقاموا باستعراض للزهو ونحن ندخل الى مضاربهم في عين البدحة ، التي تبعد بضعة اميال عن الازرق ، حيث تجمعت هناك كافة القبيلة ؛ وكان استقبالنا صاخباً ، لانه كان هناك خوف وعويل بين النساء في ذلك الصباح عندما رأوا رجالهم في طريقهم للانضمام للثورة والتعرض للخطر .

ومع ذلك ، فهاهم يعودن في نفس اليوم ، ومعهم شريف منهم ، ورايات عربية ومدافع رشاشة ، ورجالهم الذين فاقوا المائة وهم ينشدون ويهزجون بمرح كما كانوا عند خروجهم . وكانت عيناي متركزتان على ناقة حمراء بارزة عمرها سبع سنوات تقريباً ويقودها واحد من رجال سرحان في الصف الثاني ، وكانت طويلة ، لم يكن لها مثيل بين ناقاتنا ، سيقت الى الامام وابقيت منفردة هناك وانسل احمد ليتعرف على صاحبها .

وفي المضارب وزع شيوخ القبيلة فريقنا على خيامهم من اجل الضيافة، واختار الشيخ مطير ،وكان كبير شيوخهم ، كل من الشريف علي وعبد القادر ، وود وانا لنكون في ضيافته . وكان شيخاً كبير السن ، ودوداً ، بلا اسنان . ورحب بنا بحرارة وقدم لنا ضيافة وافرة من لحم الغنم المطهو والخبز . وبدا ان كل من وود وعبد القادر قد اصيبا ببعض الغثيان بسبب الطريقة البدائية التي طهي فيها الطعام . وبعد ذلك استقلينا على بسط الشيخ مطير من اجل قضاء الليلة ، ولم استطع النوم من كثرة صخب الرجال في الخارج ، وكذلك الشريف علي ، الذي نهض وقال بأن كان ارقاً . لذلك فقد ايقظنا الشيخ مطير ليرسل في طلب مفلح ابن باني ، وهو شاب نشط اعتاد ان يقود معاركهم . وشرحنا لهم احتياجات الامير فيصل وخطته ، واستمعوا لنا باهتمام . وقالوا بأن المرتفعات الغربية كان من المستحيل تماماً المسير فوقها . فالاتراك قد ملئوا المنطقة بمئات الجنود الذين يقومون بقطع الاشجار ، فلا يمكن لأية مجموعة معادية المرور عبرها . كما انهم اظهروا شكاً كبيراً بالقرى التي كان يسكنها المهاجرين الجزائريون وبعبد القادر . ولا أحد يمكن ان يحثهم لزيارة واحدة منها . حيث انهم خشوا ان يهاجمهم القرويون ، اعدائهم الدائمين ، في المؤخرة من تل شهاب . وايضاً فاذا ما امطرت السماء فان الجمال لن تكون قادرة على العودة عبر السهول الطينية عن طريق الرمثا ، وان الفريق برمته سيعزل ويقضي عليه. واصبحنا بعد ذلك في ورطة عميقة . فقد كان السراحين آخر مصدر لنا ، واذا مارفضوا الذهاب معنا فاننا لن نكون قادرين على تنفيذ خطة اللنبي في الوقت المحدد . ووفقاً لذلك قام علي بجمع افضل رجال القبيلة حول موقد نارنا الصغير، وقوى من الموقف بأن استدعى كل من فهد ومفلح وأدهب . وبدأ امامهم بشن هجوم على هذا الموقف الهزيل للسراحين. وبسطنا لهم الامر بشكل ملموس ، بالنسبة لحالتهم ووضعهم. من ان حياة الجماعة هي حسية فحسب ، تعاش وتحب في تطرفها . فلا يمكن ان يكون هناك بيوت للراحة بالنسبة للثورة ولا مقسوم او حصة للفرح يدفع خارجاً . وان النفس او الروح تصبح متعاظمة لتحمل بمقدار ما يمكن ان

تحمله الاحاسيس ، وباستخدام مثل كل تقدم كقاعدة لمغامرة اخرى . فالعاطفة المحسوسة تصبح عاطفة متغلبة وتذهب التجربة هباءً .

وتابع الشريف علي القاء خطبته على النحو التالي : «ومن اجل ان تكون منتمياً للصحراء ، كما عرّفوا ذلك ، هو ان تكون قادراً على شن المعارك اللامتناهية مع عدو لم يكن من هذا العالم ، ولا من هذه الحياة ولا من أي شئ آخر ، ولكن من اجل الامل ذاته ، وبدا الفشل على انه الحرية التي يمنحها الله للجنس البشري ، ومن الممكن ان نمارس حريتنا فقط بعدم القيام بما يكمن في داخل قوتنا لنقوم به ، وعندئذ فان الحياة ستنتمي الينا ، ويجب علينا قيادتها بأخذها على انها رخيصة . وسيبدو الموت من افضل كافة اعمالنا ، وآخر ولائنا الحر ضمن نطاق سيطرتنا وفراغنا النهائي ولهاتين الفجوتين ، والموت والحياة ، او بدرجة اقل اخيراً الفراغ والوجود ، فيتحتم علينا ان ننأى بأنفسنا عن الوجود او البقاء وان نتعلق بالفراغ وبذلك فسنعزز عدم الفعل بدلاً من الفعل . فبعض الرجال يمكن ان يكونوا غير مبتكرين حيث ان فراغهم يكون قاحلاً او اجرداً ، الا ان نشاط هؤلاء سيكون مادياً فقط . ولجلب الاشياء غير المادية فوراً ، والاشياء المبدعة ، والنفس او الروح المشاركة وليس الجسد ، فينبغي ان نكون غيورين على قضاء الوقت او العناء فوق المتطلبات الجسدية . فالانسان لن يكون رابحاً بكدحها .

ولن يكون هناك افتخار في النجاح المؤكد ، ولكن الكثير يمكن ان ينتزع من هزيمة مؤكدة . والقدرة الكلية واللامحدودة هما عدوينا الاكثر استحقاقاً وجداره، وهما في الحقيقة الشيئان الوحيدان لرجل كامل ليواجههما لكونها شاذين عن نتاج روحه الذاتي ، وانهما اقوى واعنف عدوين كانا دوماً للمألوف . وفي محاربة القدرة الكلية ، فان الفخر او الشرف كان يلقى به جانباً بفقر الموارد التي لدينا ، وان نتحداه بأيد فارغة ، ليهزم ليس بالتفكير الاكثر فحسب ، ولكن بالوسائل الافضل . وبالنسبة للانسان البصير اوالحصيف ، فان الانتصار هو الهدف الوحيد . فعلينا ان نؤمن من خلال ذلك بانه لم يكن هناك انتصار مالم

نذهب قدماً الى القتال المستميت وان نصرخ من اجل الفشل بعينه ، داعين في يأس الى الحصول على القدرة الكلية للضرب بشكل اقسى ، ذلك انه بالضرب تماماً فمن الممكن ان يعدل من مزاج نفوسنا المعذبة الى سلاح لتدميره الذاتي .

كانت تلك عبارة عن خطبة متلعثمة ومتعثرة ، وشبه متماسكة في كلماتها ، الا انها ابعدت اليأس عن نفوس السراحين ، واخيراً عبروا عن تشوقهم واستعدادهم للمسير معنا مهما كان الهدف . وقبل طلوع النهار استدعينا عبد القادر ، واخذناه جانباً نحو الكثبان الرملية وصرخنا في اذنه بأن السراحين سيباشرون معنا ، وتحت اشرافه الى وادي خالد ، بعد شروق الشمس . وتمتم قائلاً بأن ذلك كان جيداً وقلنا الواحد للآخر بان ذلك لن يكون مطلقاً ، فاذا ماطالت بنا الحياة والفرصة فاننا سنعرف حقيقة ذلك .

(٧٥)

استقلينا برهة من اجل راحة قصيرة جداً ، الا اننا ما لبثنا ان صحونا وتركنا فراشنا مبكراً جداً لنستعرض هجانة السراحين الذين اظهروا مشهداً غير متقن لاستعدادهم للمسير . وكان مما يدعو للشفقة انهم لم يكن لهم قائد حقيقي او فعلي ، فالشيخ مطير كان طاعناً في السن ولايقوى على القيادة ، وكان ابن باني غير متميز وسياسياً طموحاً اكثر منه مقاتلاً . ومع ذلك فقد كانوا يشكلون القوة التي تلزمنا ، لذلك لابد من انهاء الامر . وعند الساعة الثالثة من بعد العصر ركبنا جمالنا للتوجه نحو الازرق ، وامتطى عبد القادر ورجاله جيادهم كاشارة عن قرب موعد ، القتال ، وسارو خلفنا .

كان الشريف علي في المقدمة ، واسرعنا بالمسير فوق مرتفع حجري وكنا بروح معنوية عالية ، نتحدث عن حروب واناشيد وعواطف الملوك القدماء الذين احبو هذه المنطقة ، عن الرومان الذين اقاموا الحاميات هنا في العصور القديمة . ومن ثم ترأى لنا حصن الازرق وحوله المروج الخضراء والينابيع المشعة بمياهها . فالازرق مثل وادي رم تبهر الناظر اليها . ولكن حيث ان رم هي منطقة فسيحة ، وذات صدى ، وخيالية جداً ، فان سكون الازرق لا يمكن فهمه وغير قابل للتصديق في معرفة الشعراء الجوالين والابطال ، والممالك القديمة ، وكافة الجرائم والفروسية والعظمة البائدة لدولتي الحيرة وغسان . واخيراً اتجه الشريف علي بناقته نحو المرج الاخضر الذي يقع خلف الينابيع ، واتسعت عيوننا تعبيراً عن الراحة من الشدة التي عانيناها لعدة اسابيع مضت من شدة اشعة الشمس .

وصرخ علي قائلاً "العشب" ، ودفع بنفسه من على سرجه الى الارض ، ولامس وجهه النباتات القاسية التي بدت لطيفة جداً في هذه الصحراء . ونهض واقفاً ونزع الكوفية عن رأسه واخذ يعدو هو وخادمه بموازاة المستنقع متجهاً فوق القنوات الترابية الحمراء حيث الماء متكتل او متجمع بين ا شجار القصب ، وكانت قدماه البيضاوتان تشعان تحت ثنيات ثوبه الكشميري .

وعندما عدنا للعمل لم يكن عبد القدر هناك وبحثنا عنه في القلعة وفي بستان النخيل وحول النبع ، واخيراً ارسلنا رجالنا خارجاً للبحث عنه ، وعادوا ، معهم بعض العرب ليقولوا لنا انه بعد ان بدأنا المسير فقد حول اتجاهه شمالاً باتجاه جبل الدروز (العرب) فسرت لذلك كوادرنا التي لم تكن تعلم شيئا عن خططنا ، لذهابه ، الا انها كانت اخبار سيئة بالنسبة لنا نحن المسؤولين .

ولاتباع البدائل الثلاث الاخرى ، فانه قد تم غض النظر عن ام قيس ، فبدون عبد القادر فان المرور بوادي خالد كان مستحيلاً ، وهذا عني بانه ينبغي علينا بالضرورة ان نحاول عبور جسر تل شهاب . وللوصول اليه فانه كان علينا ان نعبر الارض الفسيحة المفتوحة مابين الرمثا ودرعا . اما عبد القادر فقد ذهب الى العدو ومعه معلومات عن خططنا وقوتنا . واذا ما أخذ الاتراك حذرهم فانهم سيكمنون لنا عند الجسر . وجلسنا للتشاور مع فهد وقررنا مع ذلك الاندفاع قدماً معتمدين على العجز المألوف للعدو . ولم يكن قراراً موثوقاً ايضاً . وعندما اتخذنا قرارنا كانت اشعة الشمس بدأت بالمغيب ، ولم تكن الازرق بمعزل جداً عن الخطر والحذر .

في صباح اليوم التالي عبرنا وادي صواني صلب وسرنا فوق مرتفع الى وادي الحارث الذي تشبه ارضه الخضراء الى حد كبير بعض الاراضي في بلادي واغتبط الشريف علي لرؤية مرعى الوادي الاخضر وهو يحمل اسم عائلته . وازداد سروره كسرور جمالنا عندما وجدنا برك من مياه الشتاء التي سقطت في الاسبوع الماضي في الحفر الواقعة بين الاجمات أو الشجيرات . وتوقفنا هناك لمدة طويلة لتناول طعام الغداء . وذهب أدهب مع احمد وعواد للبحث عن

غزلان ، ورجعوا ومعهم ثلاثة منها . لذلك فقد توقفنا لمدة اطول وتناولنا الغذاء ثانية ، كمثل وليمة ، من اللحم المشوي المحمر . ان المقيمين مؤقتاً في الصحراء يحبون سخائها العرضي ؛ فايضاً في هذه الرحلة كان تأخرنا ساراً كما في سابقاتها بسبب ممانعة او نزاع فريق ما . وأفسدت راحتي التي نلتها بحدوث أمر غير سار . فقد تطور النزاع مابين احمد وعواد خلال ملاحقتهما للغزلان الى حدوث مبارزة بينهما ، فقمت بنزع السلاح منهما واصدرت أوامري بان يقطع ابهام اليد اليسرى لكل منهما مما جعلهما ذلك يتخوفان جداً ويقبلان بعضهما بسلام . وبعد وقت قصير حضر جميع رجالي وافادوا بأن المشكلة قد انتهت . فحولت القضية الى الشريف علي الذي اخضعهما لعقوبة ذاتية بضرب الرأس بحد نصل الخنجر ، وهي عادة بدوية قديمة لغاية ما ينزف حتى خصره وبسبب ذلك المأ ولكن لا يسبب جروحاً خطره ويذكر المخطئ بالتعهد الذي قطعه .

اندفعنا ثانية لعدة اميال وسرنا في منطقة غنية بالاعشاب وملائمة لجمالنا لغاية ما وصلنا منطقة ابو صوان ، فوجدنا تجاويف صوانية مليئة بمياه الامطار العذبة النقية تسير في قناتين ضيقتين يبلغ عمقها قدمان وعرضهما عشرة اقدام تقريباً ، بيد ان طولهما نصف ميل وهذا سيفيد كنقطة بدء لغارتنا على الجسر . وحتى نتأكد من سلامته سرنا بضعة ياردات للامام حتى بلغنا هضبة حجرية صغيرة ، وهناك وجدنا انفسنا نشرف على مجموعة الفرسان الشركس تعود ادراجها ، والذين ارسلوا من قبل الاتراك ليستطلعوا فيما اذا كانت مصادر المياه هناك محتلة ام لا ، الا انهم فقدوا اثرنا ، بفرق خمسة دقائق فقط .

وملئنا قربنا في صبيحة اليوم التالي ، حيث انه من المفترض ان لا نجد ماءً للشرب ما بين هذه المنطقة والجسر ؛ ومن ثم سرنا بروية لغاية ما بلغنا سهلاً صافياً، الذي امتد بشكل منبسط حتى خطوط السكك الحديدية التي كانت تبعد عنا بضعة اميال . وتوقفنا هناك لحين الغروب حتى يكون بالامكان اجتيازها . وكانت خطتنا ترتكز على التسلل بشكل خفي والاختباء عند سفوح الجبال ، الى اسفل من درعا . وتكون هذه التلال في الربيع غنية جداً بمراعي المواشي ، حيث

تنبت الاعشاب والازهار على سفوحها من جراء مياه الامطار الغزيرة ، وعند مجيء الصيف فانها تجف وتصبح يابسة كما تصبح مهجورة سوى من مرور بعض المسافرين منها بالصدفة . وتوقفنا ثانية على امل نيل فرصة أخرى للحصول على طعام ، حيث اننا كنا نأكل ما يمكننا الحصول عليه كلما اتاحت لنا الفرصة ذلك . وكان ذلك يعيننا ويبعدنا عن التفكير بذلك ؛ ولكن حتى مع هذه الاعانة فان النهار كان طويلا جداً . واخيراً غربت الشمس واصبح السهل قارساً عندما ارخى الظلام سدوَله ببطء . وبعد ساعتين من المسير السريع على ارض حصوية ، ذهبت انا وفهد قدماً للقيام بعملية استطلاع ، واتجهنا صوب السكة الحديد ، فوجدنا دون عناء منطقة حجرية بحيث يمكن لقافلتنا ان تمر منها دون ان تحدث اية آثار او علامات على الارض . وكان حراس الخط الاتراك قد مروا من هناك بدوريتهم ، مما عنى بأن عبد القادر لم يكن قد سبب بعد ذعراً بينهم من الاخبار التي حملها معه . وسرنا على الجانب الآخر لخط السكة الحديد لمدة نصف ساعة . ومن ثم انحدرنا ببطء ثقيل الى منخفض صخري مليء بالنباتات الغضة . وكان هذا اسمه الغدير الابيض ، والذي أوصى مفلح بأن يكون مكاناً لكميننا . وأخذنا كلامه المدهش على اننا كنا في مأمن ، فنزلنا مع دوابنا من اجل نوم قصير هناك . فالفجر سيُرينا كم سنكون في سلامة واختباء .

وعندما طلع النهار ، قادني فهد الى حافة التجويف الذي كنا فيه ، وكان ارتفاعه حوالي خمسة عشر قدماً ، ومن هناك نظرت مباشرة عبر المرج الى خط السكة الحديد الذي بدا تقريباً ضمن نطاق اطلاق النار . فقد كان قريباً جداً على نحو غير ملائم ، بيد ان الصخور كانوا لا يعرفون مكاناً افضل منه . وكان علينا ان نقف ونتأهب طيلة النهار ، ففي كل وقت كانت تفد فيه اخبار جديدة يسرع رجالنا لينظروا اليه ، وكانت حافة التجويف المنخفضة تكشف عن سلسلة من الرؤوس البشرية . وايضاً فان رعي الجمال كان يتطلب العديد من الحراس ليبقيها بعيداً عن مرأى النظر . وكلما مرت من هناك دورية كان علينا ان نكون ساكين جداً ومسيطرين على دوابنا ، اذ انه لو ان احد منها رغى او اخرج صوتاً فانه سيجلب انتباه العدو . فالامس كان يوماً طويلاً واليوم اصبح اطول : ولم يكن

بامكاننا الحصول على طعام ، كما ان الماء لدينا اصبح يتناقص ويصبح نادراً في الغد ، مما يجعلنا ذلك عطشى .

وعملت انا وعلي على اعداد ترتيبات لمتابعة مسيرنا . فقد كان علينا ان ننتظر لغاية الغروب ؛ ويجب ان نصل تل شهاب ، وننسف الجسر ، ونعود لشرق خط السكة الحديد مع الفجر . وعني ذلك ان نقوم بالمسير ثمانين ميلاً على الاقل خلال ثلاثة عشرة ساعة في الظلام ، مع القيام بعملية التفجير . فمثل هذا العمل أو الاداء كان فوق طاقة معظم الجنود الهنود ، فهم لا يجيدون قيادة الجمال وقد انهكوا جمالهم منذ مسيرهم من العقبة . بخلاف العربي اذ انه لحفاظه على دابته يمكن ان يعيدها الى منطقته او مضاربة وهي في حالة جيدة بعد القيام بعمل شاق . اما الهنود فقد بذلوا جهدهم الا انهم لم يكونوا معتادين على قيادة الجمال وانما تدربوا على قيادة الجياد . لذلك فقد اخترنا ستة منهم وافضلهم في قيادة الجمال ووضعناهم على ستة جمال ومعهم حسن شاه ، والذي كان ضابطهم ، ورجل ذا قلب طيب ، ليقودهم . وقرر بأن هذه المجموعة الصغيرة كانت ملائمة للتسلح فقط بمدفع فايكرز . وكان هذا تقليص خطير لقوة نيران هجومنا . وكلما تطلعت للمزيد فان الخط او الفرصة بدت اقل في مواصلة خطتنا لوادي اليرموك .

وكان بني صخر رجال مقاتلون ؛ الا اننا لم نكن لنثق بقتال السراحين . لذلك فقد قررت انا والشريف علي على جعل بني صخر ، بقيادة فهد ، ان يكونوا قوتنا المقاتلة . وسنبقي بعض السراحين لحراسة الجمال ، في حين يقوم الاخرون بحمل المتفجرات عبر الجسر الى مكان تفجيرنا . ومن اجل الاسراع في نقل المتفجرات الى اسفل جوانب التل السحيقة اثناء الليل ، فاننا قلصنا من كمية الحمولات لتكون كل واحدة منها ثلاثين باونداً (رطلاً انجليرياً) ، تعبأ في كيس ابيض لكل حمولة . وقام وود باعادة تعبئة المتفجرات .

وكان على رجالي ان يوزعوا بعناية . وكلف كل هجان جيد بقيادة مجموعة من الرجال المحليين الاقل خبره ، والتي كانت ميزتهم انهم كانوا يعرفون المنطقة مع اعطائهم تعليمات بأن يكونوا ملازمين لقائدهم طيلة الليل .

وأخذ الشريف علي معه ستة من رجاله ، واصبح الفريق مكوناً من عشرين رجلاً من بني صخر واربعين رجلاً من السراحين . وخلفنا وراءنا الجمال الضعيفة والهزيلة عند الغدير الابيض تحت مسؤولية بقية رجالنا ، مع اعطائهم تعليمات بأن يرجعوا الى منطقة ابو صوانة قبل فجر الغد وينتظروا هناك حتى قدومنا . وأظهر اثنان من رجالي مرضاً مفاجئاً مما جعلهما يشعران بعدم مقدرتهما على المسير معنا . فعفيتهما من هذه المهمة ، وعفيتهما فيما بعد ، من كافة المهام مهما كان نوعها .

(٧٦)

عند غروب الشمس تماماً ، ودعنا بقية رجالنا وخرجنا من الوادي ، وكان يتملكنا شعور غير راغب بالمضي قدماً وعلى نحو تعس تماماً . وحل الظلام ونحن نسير فوق اول مرتفع ونتحول باتجاه الغرب ، صوب طريق الحج المهجور ، الذي كان من الممكن ان تكون اثارة افضل دليل لنا . وكنا ننزل الى جانب تله وعرة ، عندما اندفع رجالنا في المقدمة للامام ، فتبعناهم لنجدهم محيطين ببائع متجول فزع ، ومعه زوجيته وحمارين محملين بالطحين والعبي ، فقد كانوا ذاهبين الى المفرق وهي المحطة التي تقع خلفنا بالضبط ، وكان هذا أمراً خطيرا ومربكاً بالنسبة لنا ، وفي النهاية قلنا لهم بأن يخيموا هناك ، وابقينا معهم واحد من السراحين ليراقبهم حتى لايتحركوا . وكان عليه ان يدعهم يذهبون عند الفجر ، ومن ثم يسرع هو الى ابو صوانه للالتحاق برفاقة هناك . وسرنا متثاقلين لعبور المنطقة والتي كان الظلام حالكاً فيها لغاية مارأينا الوميض الابيض للأخاديد البيضاء لطريق الحج . وكان ذلك نفس الطريق الذي سلكته في أول ليلة لي في الجزيرة العربية خارجاً من رابغ . ومنذ ذلك الحين وعلى مدى اثني عشر شهراً فقد حاربنا على ارض مساحتها مئات الكيلو مترات ، امتداداً من منطقة المدنية والحدية الى المدورة ومعان ، ولم يبق سوى القليل حتى نصل لنهاية المطاف وهي دمشق اذ يجب ان ينتهي هناك حجنا المسلح (حربنا) .

الا اننا كنا قلقين في تلك الليلة ، فقد كانت اعصابنا مهزوزة ومتوترة بسبب هروب عبد القادر . وكنا نحسب ونقدر هل يكون بوسعنا ان نقوم بالعملية بالرغم من فراره . وبينما كنا غارقين في افكارنا قطعت بصوت اطلاق

نار من قبل أحد الرعاة على قافلتنا ، التي شوهدت من قبله وهي تقترب بسكون وبشكل ملفت للنظر في الظلام . الا انه اخطأ اصابتنا ، الا انه بدأ يصرخ من الفزع بشكل مفرط ، وفر مذعوراً وهو يطلق النار . وانحرف مفلح الجمعان ، الذي كان دليلنا في المسير ، بعنف وقادنا الى اسفل سفح ، ثم استدار حول كتف التل . وهناك اصبحنا بسلام مرة اخرى ، ومن ثم مضينا قدماً تحت اضواء النجوم . وكان الخطر التالي من قبل كلب جاثم على اليسار ، ومن ثم من جمل متمدد غير متوقع وجوده امامنا ، الا انه كان هائماً وبدون جمّال وتحركنا ثانية .

وجعلني مفلح اسير الى جانبه، واخذ يدعوني ب "العربي" ، ذلك ان اسمي كان معروفاً ومن الممكن ان لا يضلل الغرباء في الظلام . واصبحنا ننزل الى تجويف كثيف جداً عندما شممنا رائحة رماد ، وجسماً معتماً لأمرأة وثبت من وراء شجيرة بجانب الطريق واندفعت مختفية عن الانظار ، فمن الممكن انها كانت أمرأة غجرية، حيث لم يتبع ذلك أي شيء . ووصلنا الى تل . وكانت تقع على قمته قرية التي تراءت امامنا في حين كنا بعيدين عنها . وانحاز مفلح نحو اليمين ومن ثم صعدنا التلة ببطء وتوقفنا عند حافة القمة . وكانت توجد هناك بعيداً الى جهة الشمال اسفلاً بعض الاضواء المتلالئة . فقد كانت تلك أضواء محطة درعا ، أضيئت من اجل التنقل العسكري . وشعرنا بشيء يعيد الطمائنينة الينا ، ولكن ايضاً قليل الوضوح في مثل هذا الاستخفاف والتجاهل التركي لنا . (فقد كان من دواعي انتقامنا ان نجعل اضواء المحطة تضيء لآخر مرة : فدرعا كانت هدفاً غامضاً ابتداء من الغد ولمدة سنة كاملة لغاية ما سقطت بايدينا) .
وسرنا في مجموعة متراصة الى اليسار على طول القمة ونزلنا باتجاه واد طويل الى سهل الرمثا ، حيث تقع قريته الى الشمال غرب . واصبحنا نسير علىً سهل مستو ، الا انها كانت ارضاً شبه محروثة ، وارضها ناعمة جداً ومليئة بجحور الارانب البرية ، حيث كانت جمالنا تتعثر في حفرها وكنا ندفع بجمالنا تخب وتسرع اذ ان وعورة ومضايقات الطريق جعلتنا نتأخر . وحث مفلح ناقته العنيدة على الاسراع ، فقد كانت افضل من المطايا الاخرى . كانت طويلة ، كثيرة

التحمل ، شديدة القوة . وعدت ادراجي على ناقتي لاحثهم على الاسراع قدماً. فالهنود كانوا يمتطون وكأنهم على جياد خشبية ، الا انهم كانوا يبذلون جهدهم كما كان يفعل معظم فريقنا . بيد ان طبيعة الارض كانت سيئة جداً ، ذلك ان بذل اقصى الجهد لم يكن مثمراً جداً ، ومع مرور الساعات وقع ارضاً اول واحد منا ثم تبعه آخر من الخلف . وبناء على ذلك فقد اخترت ان اسير في المؤخرة مع الشريف علي الذي كان يقود ناقة سباقة كبيرة السن ونادرة ، ربما كان عمرها اربعة عشر عاماً ، الا انها لم تتمايل او تنزلق طيلة الليل في سيرها . فسرعتنا وعصي جمالنا جعلت الحياة تعسة بالنسبة للرجال والجمال على حد سواء . وعند الساعة التاسعة خرجنا من الاخدود ، وكان لا بد ان يتحسن المسير ، الا ان الرذاذ بدأ بالتساقط وبدأ سطح الارض يزداد انزلاقاً فسقط جمل رجل من السراحين . وقام راكبة خلال دقيقة وانطلق قدماً . وسقط واحد آخر من بني صخر ، ولم يصب بأذى ايضاً وأعتلى جمله بسرعة . ثم وجدنا أحد رجال علي يقف بجانب جمله الواقف . فاستهجن علي ذلك ، وعندما ابدى الرجل عذراً لذلك ، ضرب الجمل بخيزرانته ، فهب الجمل بفزع وانطلق قدماً ، وتمكن الرجل من القفز على السرج ، وحثه الشريف علي على الاسراع بعدة لكمات . وسقط مصطفى ، احد رجالي ، وكان عديم التجربة بركوب الجمال ، سقط من على جمله مرتين . وكان عواد يوقف مسيره في كل مرة ويساعده على النهوض والركوب .

وتوقف المطر عن الهطول ، ومضينا بالسير اسرع . وبدأنا بنزول التلة ، وفجأة نهض مفلح على سرجه وضرب بسوطه فوق رأسه في الهواء ، فصدر عن ذلك صوت معدني مما دل على اننا كنا نسير تحت سلك تلغراف واصل الى مزيريب . ثم ترأى لنا من بعيد افق رمادي ، وبدا باننا كنا نسير على ارض محدودبة كالقوس ، ومع ازدياد الظلام فيها من كل جانب وفي الامام ، ثم تهادى الى اسماعنا صوت متنهد او خرير واهن كصوت الريح من بين الاشجار البعيدة جداً ، الا انه كان مستمراً ومزداداً ببطء . فلا بد ان يكون ذلك صادر من الشلال الضخم الواقع اسفل تل شهاب ، فاندفعنا قدماً بثقة .

وبعد بضعة دقائق اوقف مفلح ناقته وربت على رقبتها بلطف لغاية ما هبطت بهدوء على ركبتها . ودفع بنفسه عنها بينما كنا نحن مانزال راكبين دوابنا الى جانبه على السطح العشبي . وبرز امامنا من بين الظلام اندفاع جريان النهر الذي كنا نسمع خريره من بعيد . انها كانت حافة مجرى نهر اليرموك ، وكان الجسر يقع تحتنا مباشرة الى اليمين .

وساعدنا الهنود على النزول عن جمالهم المثقلة بحمولاتها ، ولم يكن القمر قد طلع بعد فوق جبل الشيخ ، الا ان الليل بدأ يخف ظلامه مبشراً بقدوم الفجر ، مع قطع متفرقة من الغيوم عبر السماء الشاحبة . وقمت بتوزيع المتفجرات على خمسة عشر رجلاً ، وبدأنا بالعبور . وغاص رجال بني صخر في السفوح المظلمة التي كانت امامنا لاستطلاع الطريق ، وكانت العاصفة المطرية جعلت سفح التل السحيق غادراً ، فأخذنا ننزل السفح باقدامنا العارية بحذر شديد ، ومع ذلك سقط اثنان أو ثلاثة من رجالنا بشدة ، وعندما اصبحنا في الجزء الاقسى من المنحدر ، حيث كانت الصخور تبرز بشكل وعر على وجه السفح ، كان هناك صوت جديد اضيف الى خرير الماء حيث كان قطار قادم ببطء من الجليل ، وصوت عجلاته الفولاذية تهدر على السكة الملتوية والدخان ينبعث من محركة وينبعث الى خارج الاعماق المخفية للوادي الضيق في سحب شبحية بيضاء . وتخلف السراحين عن التحرك قدماً ، فدفعهم وود ليلحقوا بنا . واتجهت انا وفهد الى جهة اليمين ، ومن خلال ضوء لهيب فرن القطار رأينا في القاطرات المفتوحة رجالاً يلبسون الخاكي ، فربما كانوا من السجناء يرسلون الى آسيا الصغرى .

والى ابعد قليلاً ؛ الى الاسفل ، رأينا شيئاً أو جسماً مظلماً يرقد في الظلام الذي يلف الوادي ويصدر من نهايته ضوءاً متأرجحاً فتوقفنا لنتفحص ذلك بالمناظير . انه كان الجسر ، رأيناه من هذه النقطة العالية وعليه خيمة حارس تقع على الضفة المقابلة ، وكان كل شئ هادئاً باستثناء النهر ، وكل شئ كان ساكناً بلا حراك باستثناء تراقص توهج الضوء خارج الخيمة . وكانت خطتنا كالآتي :

ودد ، هو الذي سينزل فقط اذا ما أصيبت ويجعل الهنود مستعدين للقضاء على حارس الخيمة اذا ماسائت الامور ، في حين يزحف كل من علي ، فهد ، مفلح وبقية الرجال ومعهم رجال بني صخر وحاملو المتفجرات لغاية ما نجد الممر القديم المؤدي الى كتف القنطرة . وانسللنا على طول هذا المنحدر في صف واحد متتابع بروية ، وكانت عباءاتنا البنية وثيابنا الملوثة ممتزجة تماماً بالاحجار الكلسية لغاية مابلغنا خط السكة الحديد تماماً قبل انحنائها نحو الجسر ، وهناك توقفنا ورجعت انا وفهد ، وبلغنا كتف القنطرة ، ودفعنا بنفسينا قدماً لغاية ما امكننا ان نلمس تقريباً الهياكل الرمادية للعوارض المعدنية ، ونرى الخفير الوحيد يقف مائلاً امام كتف القنطرة الاخرى ، وعلى بعد ستين ياردة فوق الهاوية . وبينما كنا نشاهده يدأ بالتحرك ببطء الى اعلى واسفل امام موقد ناره دون ان يمشي خطوة على الجسر الشاهق وانبطحت وانا احدق به مشغوفاً كما لو كنت عاجزاً أو بلا هدف ، في حين تراجع فهد لخلف جدار كتف القنطة .

ولم يكن هذاجيداً ، اذ انني اردت ان انسف العوارض المعدنية ذاتها ، لذلك فقد زحفت راجعاً لاحضار المتفجرات ، وقبل ان اصل اليها حدث هناك صوت قرقعة عالياً لسقوط بندقية وسقوطها من على الضفة . وتأهب الخفير وحدق بالصوت . فرأى في الاعلى ضمن مجال ضوء القمر في الظل الخلفي وصرخ بصوت عال ، ثم سحب بندقيته واخذ يطلق النار في حين كان ينادي على الحرس ليخرجوا . وعلى الفور اصبح كل شئ في فوضى ، وفتح رجال بني صخر الذين كانوا منبطحين على طول الممر الضيق الذي يقع فوق رؤوسنا ، النار بصورة عشوائية ، واندفع الحراس الى الاستحكامات وفتح النار عشوائياً باتجاهنا ، وتوقف الهنود عن التحرك حيث لم يتمكنوا من ابادة الخيمة قبل ان يخرج منها الحراس ، واصبح اطلاق النار شاملاً ، وكانت رشقات البنادق التركية تحدث صدى في المكان الضيق وتتضاعف عندما تصطدم بالصخور خلف مجموعتنا . وعلم رجال السراحين من احد رجالي بأن المتفجرات يمكن ان تنفجر اذا ما اصابتها شظية ، لذلك فعندما تفاقم اطلاق النار وانتشر حولهم القو باكياس المتفجرات على الحافة وولوا هاربين . وزحف الشريف علي نحوي انا وفهد

حيث كنا نقف في مكان خفي خلف كتف القنطرة ، الا انه كان بيدين فارغتين ، وابلغنا بأن المتفجرات اصبحت الآن في مكان كما في بطن الوادي العميق .

وكان لاجدوى من الحصول عليها ، مع هذا الجحيم من اطلاق النار . لذلك فقد انسحبنا دون احداث أي شئ الى ممر اعلى التل من خلال اطلاق النار التركية حتى بلغنا القمة منهوكين ، وهناك قابلنا وود والهنود المشمئزين وقلنا لهم بأن كل شئ انتهى . واسرعنا بالعودة الى رجم الحجارة حيث كان السراحين قد فروا اليه مذعورين على جمالهم ولحقنا بهم باقصى ما يمكننا في حين كان الجنود الاتراك مازالوا يطلقون النار ، من بطن الوادي ، وسمع الجنود الاتراك الذين كانوا في قرية الطره القريبة اصوات اطلاق النار ، فبدأوا هم ايضاً باطلاق النار في كل اتجاه عبر السهل . واثناء انطلاقنا مررنا بمجموعة من الفلاحين عائدين من درعا ، حيث تعرضوا للسرقة من قبل السراحين الذين كانوا مغتاظين من عملهم الذي قاموا به ، فبحثوا عن المتاعب ، واندفع اولئك الضحايا تحت ضوء القمر مع نسائهم ، ليستثروا هم بعض العرب لمساعدتهم . فلبت ندائهم الرمثا . وزحف الرجال من كل صوب في الجوار ، وركبوا مطاياهم ليلاحقوا السراحين .

وتركنا السراحين مثقلين بغنائمهم ، وسرنا في سكون متجهم مبقين على انفسنا متراصين سوية ما امكن ، في حين كان رجالي المدربين يؤدون خدمات رائعة لأولئك الذين كانوا يسقطون عن جمالهم ، او يسيرون بجمالهم الى جانب اولئك الذين لا يستطيعون قيادة جمالهم بسرعة . وكانت الارض لاتزال طينية وممرات الاخاديد اصبحت اكثر مشقة للسير عليها ، وكان هناك شغب من خلفنا محدثاً لنا ولجمالنا اجهاداً اكبر مما دفعنا لنلتجيء الى منطقة التلال . وبعد مسير طويل دخلنا اليها واتبعنا من خلالها طريقاً آمناً ، ومع ذلك كنا نقود جمالنا المنهوكة بصعوبة ما امكننا ، اذا ان الفجر كان وشيكاً ، واختفى الضجيج خلفنا تدريجياً ، والتحق بنا بقية المتخلفين والتائهين من رجالنا ، واصبحنا نسير قدماً سوية بقيادة الشريف علي بن الحسين في المقدمة وانا كنت في المؤخرة .

وبزغ النهار ونحن نسير اسفلاً صوب السكة الحديد ، وكان الشريف على وود وبقية الشيوخ يسيرون في المقدمة ليستطلعوا الطريق ، وتسلينا بقطع اسلاك التلغراف في عدة اماكن ونحن نتابع المسير ، وكان علينا ان نجتاز الخط في الليلة الماضية لننسف الجسر عند تل الشهاب ، وبذلك نقطع خط المواصلات من فلسطين الى دمشق ، وكنا فعلياً نقطع حينذاك خط التلغراف الى مدينة بعد كل آلامنا ومخاطرنا ، تعويضاً عن ذلك ! وكانت مدافع اللنبي لازالت تهدر من بعيد من ناحيتنا اليمنى ، في حين كنا نحن نسجل اخفاقاً قاسياً .

وهطل رذاذ المطر مع حلول الفجر المثقل بالغيوم الرمادية الملبدة ، مما اعاق تقدمنا نحو «ابو الصوان» . وعند الغروب وصلنا الى بركة ماء طويلة ، وهناك ازدادت معارضات رجالنا بعد الاخطاء التي ارتكبناها . واصبحنا حمقى ، حمقى في تصرفاتنا التي لا هدف لها فتقاتل احمد مع عواد مرة ثانية ، ورفض الفتى مصطفى اعداد وطبخ الارز ، فضربه فراج وداود لغاية ماأخذ يصرخ ؛ وضُرب اثنان من رجال الشريف علي ، فلم يعبأ احد بذلك . فقد كانت عقولنا مفسدة ومثقلة بالفشل ، واجسامنا مرهقة بعد مسير مائة ميل تقريباً فوق ارض سيئة التضاريس وظروف سيئة ، والمسير مابين غروب وغروب ، دون توقف او تناول طعام .

(٧٧)

اصبحت مشكلة الطعام شاغلنا التالي ، فعقدنا اجتماعاً تحت هطول المطر البارد لنتشاور ماذا يمكن ان نفعله . وكنا حملنا معنا من الازرق مؤنة ثلاثة ايام مما جعلتها لغاية اليوم ، الا انه لم يكن بامكاننا ان نعود ونحن خاوي الايدي . فرجال بني صخر كانوا يريدون الافتخار والعزة ، والسراحين كانوا خجلين من القيام او المطالبة بمغامرة اخرى ، وكان لايزال لدينا كيساً من المتفجرات تزن ثلاثين باونداً ، وكان الشريف علي الذي كان سمع بعملية نسف القطار بالقرب من معان سابقاً وماتم الحصول عليه من غنائم جراء ذلك ، ان نقوم بنسف قطار . وحاز اقتراحه على استحسان الجميع ، ونظروا إلي : الا انني لم اكن قادراً على مشاركتهم آمالهم ، ولو في الحال .

ان عملية تفجير القطارات هو علم دقيق ولابد ان ينجز بترو ، ومن قبل فريق او مجموعة ملائمة وفعالة ، ومع وجود مدافع رشاشة في مواقع محكمة . واذا ما أخطي التقدير فان من الممكن ان يصبح الوضع خطراً . والصعوبة كانت تكمن في ذلك الوقت بالمدفعيين الهنود ؛ الذين يصبحون مع البرد والجوع عبارة عن اشباه رجال . فلا يمكنني ان ادفعهم واحثهم على هذه المغامرة التي يمكن ان تأخذ اسبوعاً من الانتظار ، حيث انه لم يكن هناك مشكلة بالنسبة للرجال العرب الذين يمكنهم تحمل الجوع لبضعة ايام ، ويقاتلون كعادتهم وبطونهم خاوية في حين انه اذا ماساءت الامور كثيراً فان هناك جمال الركوب التي يمكن ان تذبح وتؤكل ؛ الا ان الهنود على العكس من العرب ، مع ذلك ، يرفضون أكل لحوم الجمال ، حسب معتقدهم .

وشرحت هذه الامور لهم . فقال الشريف علي الفور انه سيكون كافياً بالنسبة لي لنسف القطارات ، وان نتركه هو والرجال العرب لأن يبذلوا جهدهم بهذا الصدد دون دعم المدفع الرشاش ، وبما ان تلك المنطقة كانت تعتبر مأمونة وغير مشكوك فيها ، من قبل الاتراك ، فمن الممكن ان يتصادف مرور قطار محمل بالمؤن ، ويكون عليه ركاب مدنيين ومجموعة صغيرة من الحراس ، فوافقت على القيام بهذه المخاطرة . فاستحسن علي هذا القرار وجلسنا على شكل حلقة لتناول ماتبقى لدينا من الطعام ، في امسية باردة (فقد افسدت المطر سائل الوقود لدينا وجعلت من المستحيل اشعال النار به) ، الا ان قلوبنا اطمأنت على امل حدوث فرصة أخرى نقوم بها . وعند الفجر ، تحرك الجنود متجهين الى الازرق ، بشكل تعس . فقد بدأوا رحلتهم معي على أمل ان يحققوا جهد عسكري حقيقي ، وكان ذلك أمراً صعباً بالنسبة لهم . وطلبت من وود بأن يرافقهم ، فوافق على ذلك بعد جدال ، من اجل مصلحتهم ، الا انه ثبت بأن كان تحرك حكيم له ايضاً ، حيث ان المرض الذي كان يزعجه بدأ يظهر البوادر المبكرة لمرض السل .

عدنا بقيتنا وكان عددنا حوالي ستين رجلاً ،صوب خط السكة الحديد . ولم يكن احد منا يعرف المنطقة ، لذلك فقد قدتهم الى " المنفير " ، الى حيث كنت انا وزعل عملنا دماراً وتفجيراً لقطار في الربيع الماضي . وكانت قمة التل هي افضل موقع للمراقبة ، للتخييم ورعي الجمال ، وطريقاً للانسحاب . فجلسنا هناك في موقعنا القديم لغاية غروب الشمس ، وكنا نرتجف من البرد محدقين نحو السهل الشاسع الذي كان ممتداً حتى قمم جبل الدروز (العرب) المغيمة ، وعليه قرية ام الجمال واخواتها الاخرى من القرى المنتشرة كبقع المداد .

وفي مساء اليوم الاول نزلنا من التل لنضع الالغام . وبدت بقعة الكيلومتر ١٧٢ ، التي أعيد بنائها ، انها ماتزال افضل مكان لوضع الالغام فيها . وبينما كنا نقف هناك قدم قطار يهدر فجأة من خلال الضباب والظلام ، وكان يبعد عنا مائتي ياردة فقط ، فاختفينا تحت القنطرة الطويلة وسمعناه يهدر فوق رؤوسنا .

وكان هذا شيئاً مزعجاً بالنسبة لنا ، ولكن عندما هدأ الامر ثانية قمنا بدفن الشحنة الناسفة في التراب . وكانت الامسية باردة بشكل حاد مع هبوب عاصفة مطرية تضرب اسفل الوادي .

كانت القنطرة صلبة ومحكمة البناء ، تبلغ المسافة بين كتفيها اربعة امتار ، ومشيدة فوق مجرى حصوى للماء ، الذي يبدأ مجراه من اعلى التل الذي كنا نعسكر عليه ، وجعلت مياه الامطار هذا المجرى عبارة عن قناه عمقها اربعة امتار ، ضيقة ومتعرجة ، مما يمنح لنا ذلك اقتراب ممتاز من الهدف لغاية ثلاثمائة ياردة عن الخط . وهناك يصبح الاخدود متوسعاً ويسير مباشرة باتجاه القناه ، فاتحاً مجال الرؤية لأي واحد يتمركز فوق خط السكة الحديد .

واخفينا المتفجرات بعناية تحت اول قنطرة للجسر وبشكل اعمق من المعتاد تحت قضيب حديدي ، ذلك حتى لا تشعر بها الدوريات التركية وتشعر بنعومة ملمسها تحت الاقدام ، ومدت الاسلاك من تحت الضفة الى الحصوي للماء ، حيث كان من السهل اخفائها بسرعة ، والى مكان اعلى يمكن الوصول اليه . ولسوء الحظ فقد كانت المسافة ستون ياردة فقط ، فهذه المسافة كانت وافرة بالنسبة لتدمير جسر ، الا انها قليلة لنسف قطار ، وتصادف نهاية الاسلاك مع وجود شجيرة ارتفاعها عشرة بوصات تقع على حافة مجرى مياه الامطار ، فقمنا بدفنها خلف هذه العلامة الملائمة . وكان من المستحيل ان نتركها موصولة مع اداة التفجير حيث ان هذه البقعة كانت ظاهرة وجلية لطرق الدرويات التركية الدائمة التي كانت تجوب المنطقة ذهاباً واياباً .

وبسبب الارض الطينية فان العمل استغرق وقتاً اطول من المعتاد ، وكان الفجر وشيكاً عندما انتهينا منه . وانتظرت تحت القنطرة الصلبة لغاية ماطلع النهار ، وكان رطباً وكئيباً ، ومن ثم ذهبت لاستطلع المنطقة قاضياً نصف ساعة اخرى في التركيز على علامة او موقع اللغم ، واضعاً ومبعثراً اوراق الاشجار والاعشاب عليه ، وصاباً الماء من حفرة قريبة على الاثار الموجودة على الارض الطينة ، ومن ثم لوح الرجال لي مشيرين الى قدوم اول دورية تركية ، فصعدت التل لانضم اليهم .

وقبل ان اصل اليهم كانوا ينزلون بسرعة كبيرة الى امكنتهم او مواقعهم المرتب لها مسبقاً ، قاطعين مجرى المر المائي ومنتشرين في كل جهة ، فقد كان هناك قطار قادم من جهة الشمال ، وكانت اداة التفجير في حوزة حمود ، خادم الامير فيصل القديم ، ولكن قبل ان يصل ألي كان قطار قصير يجر عربات خشبية مغلقة يندفع بسرعة كبيرة . فالعواصف المطرية التي كانت تهب على السهل وضباب الصباح الكثيف قد حجبا الرؤية واخفيا القطار عن عيني مراقبنا لغاية ما اصبح الوقت متأخراً جداً . فهذا الاخفاق الثاني احزننا اكثر ، وبدأ علي يقول انه لاشئ سيكون صحيح في هذه الرحلة . فهذا التصريح حمل المخاطر في طياته كتمهيد لاكتشاف عين شريرة تتواجد بيننا ومن اجل تحويل الانتباه ، فقد اقترحت ايجاد مواقع جديدة للمراقبة بحيث نقوم بارسال رجال الى الاطلال او الخراب المتواجد في الشمال ، وارسلنا رجالاً آخرين الى ركام الحجارة او الرجم المتواجد على القمة الجنوبية للتل .

لم يتناول الرجال فطورهم ، وكانوا يتظاهرون بانهم ليسوا جائعين . فهم كانوا يتمتعون لقيامهم بمثل هذا العمل ، وجلسنا لبرهة تحت المطر بمرح ، رابضين سوية من اجل الحصول على الدفء خلف جمالنا التي يخرج من افواهها البخار . وكانت الرطوبة والنداوة تجعل وبر جمالنا مجعداً كوبر الخراف ، لذلك فقد بدت مشعة بشكل غريب . وعندما تتوقف الأمطار عن الهطول ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك ، كانت تهب ريح باردة تعصف باجزائنا المكشوفة كلية . وبعد وقت قصير نجد قمصاننا الندية قد اصبحت رطبة وغير مريحة . ولم تكن لدينا شيئاً لنأكله ولاشئ لنفعله ولا مكان لنجلس عليه سوى الصخرة الندية ، او على العشب الندي أو الطين . ومع ذلك فان هذا الطقس المستمر جعلني متذكراً من انه سيؤخر تقدم اللنبي على جبهة القدس ، ويسلبه امكانيته الضخمة انه خط سئ كبير لاسدنا (الاسد البريطاني ، وهو شعار بريطانيا) ليكون شبه تشجيع للفأر اذ اننا سنكون شركاء في الحرب العام القادم .

وفي افضل الظروف والاحوال ، فان الانتظار للعمل هو شئ صعب ، اما

اليوم فقد كان الانتظار مقيتاً ، حتى ان دوريات العدو كانت تمر مضطربة دون اهتمام، وبشكل روتيني لا مبال امام هطول الامطار . واخيراً عند الظهر تقريباً ، وفي فترة صافية من الطقس ، لوح الرجال المراقبون المتواجدين على القمة الجنوبية بعبآتهم في اشارة الى قدوم قطار . وعلى الفور ، وصلنا الى مواقعنا ، وذلك حتى لا نضيع فرصة اخرى . واختبأ الرجال في اماكنهم . ونظرت خلفي الى صوب كمينهم من نقطة تواجدي ، فلم أرى سوى جوانب التل الرمادية ، ولم اتمكن من سماع القطار القادم ، الا انني وثقت من ذلك وقرفصت مستعداً لمدة نصف ساعة اخرى وعندما اصبح الانتظار لا يحتمل ، قمت بالاشارة لمعرفة ما كان يجري بالاعلى . فارسلوا لي الى اسفل من يخبرني بان القطار كان قادماً ببطء شديد وانه كان قطاراً طويلاً وافراً . فاستثارت شهيتنا لذلك . ومضى وقت اطول ، ومن ثم جائتني اشارة بانه توقف ، ثم تحرك ثانية .

واخيراً عندما الساعة الواحدة ظهراً سمعته يدب . كانت قاطراته من النوع القديم على مايبدو (فجميع هذه القاطرات التي تدار على وقود الحطب كانت سيئة) ، والحمولة الثقلية التي كان يجرها تثبت انها كانت كبيرة جداً على طاقته . واستقليت خلف الشجيرة ، في حين كان القطار يدب ببطء قادماً من الجنوب وعلى طول الضفة التي كانت تقع فوق رأسي باتجاه القناة . وكانت العربات العشرة الاولى للقطار مفتوحة مليئة بالقوات . ومع ذلك ، مرة ثانية كان الوقت متأخراً للاختيار ، لذلك فعندما اصبح محرك القطار على اللغم قمت بضغط اداة التفجير فلم يحدث أي شيء ، فادركت ان اداة التفجير قد تعطلت ، وعند ذلك جثمت فوق الحافة اوالضفة وشاهدت قطار القوات التركية وهو يمر من امامي على بعد خمسين ياردة ، وانكمشت الشجيرة التي بدا ارتفاعها حوالي قدم لتصبح اصغر من ورقة تبن ، وشعرت بنفسي بانني اصبحت مميزاً في منطقة مكشوفة فقد كان يقع خلفي واد مفتوح على اتساع مائتي ياردة في حين كان الرجال ينتظروني ويتسألون ماذا حل بي ، وكان من المستحيل ان اقوم بأية خطوة ، اذا ان الجنود الاتراك سيقفزون من القطار ويجهزون علينا جميعاً ، واذا

مـا جلست سـاكناً ، فـانه من الممكن ان يكـون هناك أمـلاً ان يتـجـاهلوا أمـري ويحسبونني بدوياً جالساً بصورة عشوائية . لذلك فقد جلست هناك في حين كانت تمر من امامي ثمانية عشرة عربة مفتوحة وثلاثة عربات مغلقة ، وثلاثة مركبات او عربات للضباط . وكانت قاطرة القطار تدب ببطء ، وظننت في كل لحظة بأنها ستتوقف .

ولـم يعر الجنود اهتماماً بي ، الا ان الضباط كانوا مهتمين بذلك ، وخرجوا الى المنصات الصغيرة على جوانب عرباتهم وهم يشيرون ألي ويحدقون . ولوحت لهم مبتسماً بعصبية ، شاعراً بانني من غير المحتمل بأن اكون راعياً في لباسي المكي ، مع عقالي المقصب حول كوفيتي ، ولكن ربما تكون لطخات الطين والبلل وجهلم بالامر جعلني مقبولاً . واختفت ببطء آخر عربة للقطار في النفق شمالاً .

وما ان اختفى القطار حتى قفزت من مكاني ، وخبأت اسلاكي ، وسحبت اداة التفجير ، وانطلقت كالفأر صاعداً الى التل الى حيث الامان . وهناك اخذت نفساً عميقاً ونظرت خلفي لأرى ان القطار قد توقف اخيراً . وكان على بعد خمسمائة ياردة من اللغم ، ورجعت مجموعة من الضباط من الذين كانوا في القطار ليبحثوا بعناية فائقة في الارض حيث كنت جالساً هناك ، ومع ذلك فانهم لم يجدوا شيئاً ، لأن الاسلاك كانت مخفية تماماً فتحرك القطار ثانية وانطلق في سبيله .

(٧٨)

كان مفلح يبكي ، ظاناً بانني جعلت القطار يمر بصورة مقصودة ؛ وعندما أُخبر السراحين بحقيقة الامر قالوا بأن "الحظ السيء كان يرافقنا" . فمن الناحية التاريخية فهم كانوا على حق ، الا انهم عنوا ذلك من اجل الهام ما ، لذلك فقد طرحت اشارة تهكمية الى شجاعتهم على الجسر قبل اسبوع ، ملمحاً بانه من الممكن ان يكون تفضيلهم القبلي لأن يجلسوا على جمال الحراسة فقط . وانفجر الوضع في الحال ، فقد هاجمني السراحين بحنق ، في حين كان رجل بني صخر يدافعون عني ، وسمع الشريف علي بالمشكلة فقدم مسرعاً .

وعندما هدأت النفوس قليلاً وتجادلنا بالأمر ، فان الشريف علي أيدني بشرف ، مع انه كان يرتجف من البرد نتيجة للسخونة التي داهمته ، وقال لاهثاً بأن بيت النبوة الذي ينتمي اليه الاشراف قد جعلهم اصحاب رؤيا وانه يعرف بأن حظنا سوف يتحول ، وكان هذا مريحاً بالنسبة لهم في حين كان اول طالع جيد بالنسبة لي ، عندما قمت باصلاح اداة التفجير وجعلتها تعمل ثانية . وعدنا الى مراقبتنا لاسلاك التفجير ، الا انه لم يحدث أي شيء ، وجاء المساء والامور هادئة ، وكل واحد منا يشمله التذمر . فلم يكن هناك قطار ما ، وكان الطقس رطباً جداً لم نستطع معه ان نوقد ناراً من اجل طهو الطعام ؛ حيث كان طعامنا المحتمل من لحم الجمل فقط ، فاللحم النيء لم يكن ليغري أي واحد منا في تلك الليلة ، وهكذا فان أحد دوابنا قد نجا ووفر للغد .

وانبطح الشريف علي مستلقياً على بطنه ، حيث ان هذا الوضع كان

يخفف من الم الجوع محاولاً ان ينام ليخفض من حرارته . وأعارة خازن ، وكان احد خدمه ، عباءته لتكون غطاءً اضافياً له . وبعد ذلك نزلت من التل الى اسفل لاقوم بربط الاسلاك باداة التفجير . وبعد ذلك قضيت الليلة هناك وحيداً بين اسلاك التلغراف التي كانت تدندن ، راغباً في النوم بصعوبة ، ولكن كان البرد مؤلماً . ولم يحدث أي شئ طيلة الساعات الطوال ، واقبل الفجر الذي بدا حتى أسوأ من المعتاد واصبحنا مرضى حتى الموت من منطقة المنيفير ، ومن خط السكة الحديد ، ومن مراقبة القطارات وتفجيرها . وصعدت الى التل في حين كانت اول دورية تركية مبكرة تقوم بالتفتيش على الخط . ومن ثم بزغ النهار قليلاً . واستيقظ الشريف علي ، كانت حالته افضل ، مما اضفى علينا البهجة . وكان حمود ، احد الخدم ، جلب بعض العيدان التي حفظها بين ملابسه طيلة الليل ، وكانت جافة تقريباً ، وسحجنا بعض اصابع الديناميت ، ومن لهبها الحار اشعلنا ناراً ، في حين قام احد الصخور بسرعة وذبح جملاً مصاباً بالجرب ،وقمنا بتقطيعه .

في تلك اللحظة صرخ رجلنا الذي كان يراقب في جهة الشمال بأن هناك قطار قادم . فتركنا النار واندفعنا بالنزول من على التل الى موقعنا القديم . وقدم القطار وهو يصفر باعلى صوته ، وكانت له قاطرتان رائعتان تجران اثنتي عشرة عربة للركاب ، ويسير بسرعة قوية . وضغطت على اداة التفجير تحت القاطرة الاولى ، فكان التفجير مدوياً ومفزعاً . واندفع الغبار والتراب الاسود في وجهي ، وطرحت بعيداً وتمزقت ثيابي وتدفق الدم من يدي الشمال . وكانت اداة التفجير ماتزال بين ركبتي ، وهي محطمة ومطبقة كلوح من الحديد الخام . وكانت هناك امامي جثة رجل ممزقة . وعندما تمعنت من خلال دخان وغبار الانفجار فقد بدا لي ان مرجل القاطرة الاولى برمته قد نسف وتلاشى .

وشعرت بتثاقل انه كان الوقت قد حان لانهض واقدم المساعدة ، ولكن ما ان تحركت ، حتى علمت بأنه كان هناك الم شديد في ساقي اليمنى ، لانها كانت الوحيدة التي يمكنني ان اعرج عليها ، ومع دوران شديد في رأسي من أثر

الصدمة. وبدأت الحركة توضح هذا الاضطراب والتشوش ، وعند ذلك عرجت صوب الوادي الاعلى ، حيث كان الرجال العرب يقومون باطلاق النار بسرعة باتجاه عربات القطار المزدحمة . وكنت اردد وانا مصاب بدوار بصوت عالٍ بالانجليزية "أوه ، لقد تمنيت الا يحدث هذا" .

وعندما بدأ العدو بالرد على اطلاق النار ، وجدت نفسي بين نارين . ورآني الشريف علي اسقط على الارض ، ظاناً بان اصابتي كانت خطيرة ، فاسرع بالخروج من موقعه ومعه تركي وعشرون من رجاله ورجال بني صخر ، لمساعدتي واصبح الاخرون يتجمعون بسرعة حولي ، وكانوا كنماذج ملائمين ، بعد النشاط الذي قاموا به ، لنحات ماهر . فملابسهم القطنية البيضاء ، مع اجسادهم البنية اللون الخالية من الشعر ، جعلهم يبدون كمثل راقصين روس .

وزحفنا رجوعاً سوية للبحث عن غطاء لنا ، وهناك وجدت نفسي بانني لم اكن مصاباً بشكل خطر ، فقد خدشتني خمسة رصاصات وكانت ملابسي ممزقة الى قطع . ومن خلال المجرى المائي كان بامكاننا ان ننظر حولنا . فقد دمر الانفجار رأس كتف القنطرة ، وكان هيكل القاطرة الاولى جاثماً فوق مقطورة الوقود المدمرة . وكان شكلها ملتوياً ، وحكمت عليهما بان كليهما لايمكن تصليحهما . اما مقطورة الوقود الثانية فقد اختفت على الجانب الابعد؛ والعربات الثلاثة الاولى للقطار سحقت تماماً وحولت الى قطع . وكانت بقية عربات القطار قد خرجت عن خط السكة الحديد بشكل رديء ، وتداخلت العربات من كل جانب واصبحت بشكل ملتو. وكانت احدى العربات عبارة عن صالة زينت بالاعلام . وكان يتواجد فيها احمّد جمال باشا ، قائد الجيش الثامن التركي ، الذي كان مسرعاً ليدافع عن القدس ضد هجوم اللنبي . وكانت جياده تتواجد في العربة الاولى ؛ وسيارته تتواجد في نهاية القطار . ولاحظنا من بين مرافقيه رجلاً بديناً يرتدي ملابس امام ، فخمنا انه كان أسعد شقير ، السيء الصيت والموالي للاتراك ، وإمام احمد جمال باشا . لذلك فقد ركزنا اطلاق النار عليه لغاية ماسقط .

لقد كان هيكل القطار طويلاً جداً . وامكننا ان نرى ان فرصتنا في غنيمة الحطام كانت ضئيلة جداً ، فقد كان هناك على القطار حوالي اربعمائة رجل ، والناجون منهم ، افاقوا من الصدمة وقتئذ ، وكانوا يتمركزون تحت غطاء ويطلقون النار بشدة علينا . وفي اللحظة الاولى ، فان مجموعتنا المتمركزة في الشمال استطاعت الاقتراب من القطار والوصول اليه ، وربحوا اللعبة تقريباً. وطارد مفلح وهو على فرسه الضباط الذين كانوا في صالون القطار ودفعهم الى خندق منخفض . وكان مغتبطاً جداً لأن يقف ويطلق النار عليهم ، وهكذا فقد للنجاة بانفسهم . وتبعه الرجال العرب وتحولوا ليلتقطوا بعض البنادق والاوسمة العسكرية المبعثرة على الارض ، ومن ثم قاموا بجر الحقائب والصناديق من القطار . ولو كان لدينا مدفع رشاش مركز في موقع ما لتغطية ذلك الجانب البعيد من القطار ، وفقاً لعملياتي المتبعة في التفجير ، فانه لم يكن لينجو تركي واحد .

وانضم الينا على التل كل من مفلح وأدهب ، وسألنا عن فهد ،وقال لنا احد رجال السراحين كيف انه قاد الهجوم الاول ، حينما كنت انا مستلقياً مصاباً بجانب اداة التفجير ، وانه قتل بجانبه ، وأرونا حزامه وبندقيته كاثبات على انه قد مات وانهم حاولا انقاذه . ولم ينبس ادهم بكلمة ، الا انه نزل الى اسفل التل بسرعة . وكتمنا بانفاسنا لغاية ماسبب ذلك اذى لرئاتنا ، ونحن نشاهده ولكن بدا ان الاتراك لم يروه . وبعد دقيقة كان يقوم بجر جسم خلفه . ورجع مفلح الى فرسه وامتطاها وقادها الى اسفل ، ورفعا الجثة الهامدة سوياً على سرج الفرس وعادا . فقد اخترقت رصاصة وجه فهد واطارات له اربعة من اسنانه ، وجرح لسانه جرحاً بليغاً ، فوقع فاقداً الوعي ، الا انه نجا قبل ان يصل اليه ادهب ، وكان يحاول ان يفر زاحفاً على يديه وركبتيه والدماء تنزف منه . واصبح الآن متعافياً تماماً ليتعلق ويمسك بالسرج لذلك فقد غيروا له مطيته الى اول جمل وجدوه وقادوه في الحال .

ورآنا الاتراك تماماً ، وبدأوا بالتقدم نحو اعلى السفح . وجعلناهم يصعدون لنصف الطريق ، ومن ثم صببنا عليهم صليات من بنادقنا ، مما اباد

منهم عشرون رجلاً وتقهقر الاخرون نزولاً . وكانت الارض حول القطار مكسوة بجثث القتلى ، والعربات المحطمة كانت مزدحمة بالرجال ، الا انهم كانوا يقاتلون تحت امرة قائد فيلقهم ، ولم يكونوا مثبطين وبدأوا بالالتفاف حول التل لتطويقنا .

وكنا اصبح عددنا وقتذاك حوالي اربعين رجلاً فقط ، ولم يكن بامكاننا ان نتصدى لهم بشكل واضح . لذلك فقد اسرعنا في زمر متفرقة الى مجرى الجدول المائي ، ونستدير عند كل زاوية او ساتر لنؤخر تقدمهم بصليات من الرصاص . وكان الفتى تركي مميزاً نفسه كثيراً في القتال ببرودة سرعته ، لذلك فقد اصيب باربعة رصاصات الا انها لم تخترقه وانما اخترقت ملابسه فقط . وكان الشريف علي غاضباً بسبب انسحابي البطئ ، ولكن في الحقيقة فقد اعاقتني جروحي ، ولأخفي عنه هذا السبب الحقيقي فقد تظاهرت بأن اكون طبيعياً ومرتاحاً ، ومهتماً في تفحص الاتراك . ومن ثم استجمعت قواي واندفعت قدماً مخلفاً اياه وتركي خلف بقية الرجال .

واخيراً بلغنا قمةالتل . وهناك قفز كل رجل على اقرب جمل اليه ، وانطلق باقصى سرعة باتجاه الشرق صوب الصحراء ، لنصلهاخلال ساعة . وهناك عندما اصبحنا بسلام افرزنا جمالنا ، كل وحاد خاصته وقام رحايل بعمل عظيم عندما استطاع ان يجلب معه فخد الجمل الذي ذبحناه عند قدوم الجمال . فمنحنا بذلك حافز على التوقف على بعد خمسة اميال ، حيث ظهرت مجموعة صغيرة مؤلفة من اربعة جمال وهي تسير بنفس الاتجاه . انه كان رفيقنا مطر ، عائداً من قريته الى الازرق ومعه حمولات من الزبيب والاطعمة الريفية الشهية . لذلك فقد توقفنا في الحال بجانب صخرة كبيرة في وادي الضليل ، حيث كانت هناك شجرة تين جرداء ، وقمنا بطهو طعامنا وتناول اول وجبة منذ ثلاثة ايام . وهناك ايضاً قمنا بتضميد جراح فهد الذي كان نعساً بسبب انهاكة من جروحه الشديدة . وعندما رأى أدهب ذلك أخذ واحدة من سجاجيد مطر الجديدة ، وقام بطويها على سرج الجمل ومن ثم قاموا بوضع فهد عليه ، وبعد ذلك سَير الجمل باتجاه الجنوب صوب مضاربهم .

كـمـا انه جـرى العناية بالرجـال الجـرحى الآ خـريـن ، في نفس الـوقت ، فأحضر مفلح أصغر الفتيـان سناً في المجموعـة ، وجعلهم يقومـون برش بولهم على جروحاتهم ، كمادة خام معقمة من الجراثيم في حين قمت انا بشراء جمل اجرب آخر من اجل الحصول على كمية لحم اضافية ، ومنحت الهبات ودفعت تعويضات لاقارب القتلى ، وقدمت جوائز مالية لقاء الستين أو السبعين بندقية التي اخذناها . انها كانت غنائم قليلة ولكن لا يستخف بها . فبعض السراحين الذين ذهبوا للقتال بدون بنادق ، وكانوا قادرين فقط على قذف الحجارة التي لا جدوى منها ، واصبح لدى كل واحد منهم الآن قطعتان من السلاح . وفي اليوم التالي تحركنا الى الازرق ملاقين ترحيباً عظيماً ، ومزهوين ، سامحنا الله ، باننا كنا منتصرين .

(٧٩)

هطل المطر بغزارة ، واصبحت البلاد مشبعة بالماء والنداوة . واخفق اللنبي بسبب سوء الاحوال الجوية ، ولم يكن هناك تقدم كبير في العمليات العسكرية تلك السنة . ومع ذلك ومن اجل مصلحة التقدم فقد عزمنا على الذهاب الى الازرق . حيث ستكون بشكل جزئي قاعدتنا الانطلاقية ، فمنها سننشر تحركنا ونوسعه في الشمال ؛ وستكون جزئياً مركزاً لاستخباراتنا ؛ ومنها سنفصل نوري الشعلان ونعزله عن الاتراك . فقد كان متردداً باعلان الانضمام الينا وذلك بسبب ثروته في سورية ، واحتمال التسبب في اذى رجال قبيلته اذا ما حرموا من سوقهم الطبيعي هناك . ونحن عندما نقيم في احدى قصوره الرئيسة فاننا سنجعله خجلاً من الاتصال مع العدو او الانضام اليه . وشكلت الازرق شيئاً محبباً لنا ، فيمكن ان تصبح قلعتها او حصنها القديم كمقر قيادة ملائم اذا ما جعلناه صالحاً للاقامة مهما ، كان أمر فصل الشتاء الشديد .

لذلك فقد امرت رجالي الستة بأن يقوموا بترميم بوابة البرج الجنوبية ، ووضع اغصان الاشجار وسعف النخيل لتغطيتها وسد الفجوة الحجرية القديمة في السقف . واتخذ الشريف علي مقر قيادته في الزاوية الجنوبية الشرقية للبرج ، وثبت دعائم سقفه . واتخذ الجنود الهنود الغرف الشمالية الغربية كسكن لهم ، وخصصنا مكان تخزين المؤن في الطابق الارضي للبرج الغربي ، له باب صغير ، اذ انه كان مكاناً جافاً جداً ، واختار رجال "البياشة" الاقامة في الطابق الذي يقع تحت غرفتي عند البوابة الجنوبية . لذلك فقد اغلقنا ذلك المدخل وجعلناه قاعة

كبيرة ، ومن ثم فتحنا قنطرة كبيرة من القاعة الى بستان النخيل ، وجعلناها ملتوية ذلك حتى يمكن لجمالنا ان تمر من خلالها كل مساء .

وعينا حسن شاه قائماً على امور الحصن . وبما انه كان مسلماً ملتزماً فقد ولى اهتماماً لترميم المسجد الصغير في الباحة ، حيث اصبح مكاناً رائعاً لأداء الصلاة فيه . وكان عملنا التالي هو ان نعين مواقع للمدافع الرشاشة في الابراج العليا . ومن ثم تخصيص خفير رسمي تكون مهمته الاساسية اغلاق البوابة عند غروب الشمس . وكان الباب وزنه ثقيلاً ويتطلب جهداً كبيراً لاغلاقه محدثاً ارتجاجاً للجدار الغربي للقلعة القديمة .

في غضون ذلك ، كنا نتدارس كيفية تموين انفسنا . وبما ان العقبة كانت بعيدة عنا ، وفي الشتاء تكون الطرق اليها قاسية ووعرة ، لذلك فقد جهزنا قافلة للذهاب الى جبل الدروز (العرب) التي كانت ارضاً محايدة ، وتستغرق الرحلة اليها يوماً واحداً فقط . وتولى مطر مهمة الذهاب . فتوجه الى هناك ومعه قافلة طويلة من الجمال لحمل انواع متعددة من الطعام لفريقنا المتعدد الاذواق . فبالاضافة لرجالنا الذين اعتادوا على ان يعيشوا بما يحصلوا عليه ، فقد كان لدينا الجنود الهنود ، حيث ان الطعام الذي لايحتوي على الفلفل الحار لا يعتبر طعاماً بالنسبة لهم . واراد الشريف علي ايضاً الخراف والسمن والقمح لرجاله ورجال البياشه . ومن ثم كان هناك الضيوف والملتجئون الينا ، الذين كنا نتوقع قدومهم قريباً جداً ، حيث ان اخبارنا كانت قد عمت دمشق . ولغاية ما يقدموا ، فقد كان لدينا بضعة ايام للاسترخاء والراحة ، وجلسنا نستمتع بتلك الايام المتبقية لفصل الخريف ، المتقلبة مابين المطر والصحو . وكان لدينا الخراف والطحين والحليب والوقود . فالحياة في ذلك الحصن كانت تسير بشكل جيد .

ومع ذلك فان الهدوء والطمأنينة ما لبثتا ان انتهتا سريعاً اكثر مما ظننا ، فوود الذي كان مريضاً لبعض الوقت ، هاجمته الدزنطاريا بشكل حاد . ولم يكن هذا يشكل أي شئ بحد ذاته ، الا انه يكن ان يتعرض للخطر نتيجة الضعف والهزال والشتاء كان على الابواب . اضافة لذلك ، فقد كان يعتبر مهندس قاعدة العقبة ،

وباستثناء الراحة من رفقته او عشرته ، فانه لم يكن لدى مبرر لابقية مدة اطول معنا . لذلك فقد شكلنا فريقاً ليذهب معه الى العقبة ، واخترنا لمرافقته كل من احمد و عبد الرحمن ، ومحمود وعزيز . وكان على هؤلاء ان يعودوا الى الازرق من العقية على الفور ومعهم قافلة من المؤن ، وبشكل خاص التي تخص الهنود ، وكان على بقية الرجال ان يمكثوا في وحدة قارسة يشاهدون تطور الوضع .

ثم بدأ الضيوف يتدفقون علينا . فكل يوم كانت تأتي الينا طوابير وارتال من الاعراب وهم يطلقون النار ، وينشدون الاهازيج ويقومون بالاستعراضات سواء من قبائل الروالى ، او من الشرارات ، او السراحين ، او السردية ، او بني صخر ، او شيوخ من ذوي الاسماء الكبيرة مثل ابن زهير ، ابن لَعيبير ، رفعة الخريشة . ثم يأتي فرسان يعدون بجيادهم ؛ فاما ان يكونوا من الدروز اومن الفلاحين المولعين بالحرب . وكانت تأتي احياناً قوافل حذرة وبطيئة السير من الجمال ، يترجل منها سياسيون سوريون او تجار غير معتادين على الطريق . وفي احدى الايام وصل مائة شخص من الارمن التعسين ، فارين من الجوع والارهاب التركي . وقدم بعد ذلك وعلى دفعات مجموعة من الضباط العرب ، الذين هجروا وتركوا الجيوش التركية ، تتبعهم غالباً مجموعة مقاتلة او رتل من المقاتلين والجنود العرب ، وكانت تلك المجموعات تفد يومياً ، لغاية ما اصبحت الصحراء الفارغة التي قدمنا منها مزدانة ومزدحمة بالطوابير الكثيفة للرجال القادمين .

وقام الشريف علي بتعيين واحد ثم اثنين ثم ثلاثة من المشرفين على الضيوف ، الذين كانوا يقومون باستقبال هذه الافواج من القادمين الجدد ، ويقوموا بتقديمهم له أو لي . فالكل منهم كانوا يريدوا ان يعرفوا عن الشريف حسين وعن الجيش العربي وعن الانجليز . وكان التجار يجلبون معهم من دمشق الحلوى والمربيات ، السمسم ، الكراميل ، المشمش المجفف ، المكسرات ، الملابس الحريرية ، العبي المقصبة ، الكوفيات ، جلود الخواف ، قطع السجاد

المزخرفة ، والسجاد العجمي . فكنا نقايضهم بها بالقهوة والسكر ، الارز ، لفائف القطن الابيض الخام ، وهي من الضروريات التي حرموا منها بسبب الحرب . وعلم كل واحد منهم بأنه كانت هناك وفرة من المؤن والاغذية في العقبة ايضاً ، كانت تأتي عبر البحر المفتوح من جميع اسواق العالم ، لذلك فان القضية العربية التي كانت تخصهم من الناحية العاطفية ، ومن ناحية الغريزة والنزعة ، اصبحت ايضاً تخصهم من حيث المصالح . وحوّلهم مثالنا ومبدأنا بشكل بطيء ليصبحوا في صفنا بشكل أكيد .

وكان المصدر الثمين للأمير فيصل في هذه المنطقة الشمالية هو الشريف علي بن الحسين . فالمنافس الاكبر . لاشرس رجال القبائل في اشرس اعمالهم البطولية اصبح الآن يحول كامل قوته الى الاهداف الاكبر . والطبيعات المختلطة فيه جعلت وجهه وجسده قوية الملامح والشخصية . فلا أحد يمكنه ان يراه دون ان تكون لديه رغبة في مقابلته ثانية ، خصوصاً عندما كان يبتسم ، ونادراً ما كان يفعل ذلك ، فيستخدم فمه وعينيه معاً . وكان جمال شكله كسلاح فعال ، ولباسه متناسقاً ، فاما ان يكون جميعه اسوداً او ابيضاً ؛ كما تعلم فن الايماء والحركة . واضافت الثروة كمالاً مادياً وامتيازاً غير عادي له ، الا ان هذه الخاصيات كانت تشكل التعبير الدقيق لقواه . وجعلت منها شجاعة واضحة لاتستلم ابداً . وكان افتخاره واعتزازه يتفجران عند صرخته للحرب قائلاً ، " انني من قبيلة الحارث" ، تلك القبيلة التي يعود تاريخها الى الفي سنة من النزال والقتال . ومع ذلك وبالرغم من هذا الغنى في شخصيته ، فانه كان هناك ضعف فيه لبساطة مطولة غير معروفة ، فالاشخاص المتبقون من اجل الشئ المثالي يفكرون دوماً فوق طاقة عقولهم . وكانت قوته الجسدية تنمو يوماً وتومض بشكل مكروه فوق تواضعه شيئاً ما اراده ان يكون اكثر . وكان مرحه المتطرف العلاقة الوحيدة العقيمة التي ترهق رهبته . وهذه الغرابات المحدقة تؤكد انعزاله، انعزاله بغير رغبة ، عن اتباعه ورجاله . وبالرغم من فطرته العظيمة في سبيل القبيلة والعشرة ، فانه لم يستطيع ان يجد اصدقاء حميمين . ومع ذلك فانه لم

يكن من الممكن ان يكون وحيداً . فاذا لم يكن لديه ضيوف ، فان على خادمه، خازن ، ان يقوم بتقديم الطعام له ولرجاله ليأكلوا معاً .

في تلك الليالي البطيئة كنا نعيش بأمان في هذا العالم . وذلك لسبب واحد، انه كان فصل الشتاء ، واثناء المطر والظلام فان القليل جداً من الرجال يمكنهم ان يغامروا بالذهاب الى تيه براري اللافا أو من خلال القيام بالمسير - فكلاهما مقتربان من حصننا ، علاوة على انه كان لدينا حراس اشباح . ففي احدى الامسيات كنا نجلس مع الرجال السراحين وكان حسن شاه يقوم باعداد نوبات الحراسة ، وكانت القهوة تدق في المهباش عندما ظهر هناك أمر غريب ، كان هناك عويل طويل حول الابراج الخارجية للحصن . وامسك ابن باني بيدي وتعلق بي وهو يرتعد . وهمست له «ما هذا؟» فاجاب وهو يلهث بان كلاب بني هلال ، البنائون الاسطوريون للقلعة ، يقومون بالنباح حول الابراج السته للحصن في كل ليلة من اجل اسيادهم الاموات .

وأنصتنا تماماً لنسمع . وصدر من خلال اطار نافذة الشريف علي ذات الاحجار البازلتيه السوداء صوت خفيف ، الذي كان صادراً من تحرك وهبوب ريح الليل بين اشجار النخيل الذابلة ، وكان حفيفاً متقطعاً مثل هطول المطر في انجلترا على الاوراق الساقطة . ومن ثم جاء الصراخ والعويل ثانية وثانية ، يرتفع ببطء ليصيح عالياً ، لغاية ما يتشنج حول اسوار القلعة في موجات عميقة لغاية ما يتلاشى بعيداً ويختنق . وفي مثل هذه الحالات فان الرجال كانوا يقومون بدق المهباش بقوة اكبر في حين يقوم آخرون بالغناء بشكل مفاجىء ليشغلوا أذانهم ويبعدوها عن سوء الطالع والنحس. ولا أحد كان يجرؤ على المكوث خارجاً في انتظار معرفة هذا اللغز والغموض . وكنا لانرى من نوافذ الحصن سوى رذاذ الماء في الجو شديد الرطوبة والذي كان يندفع من خلال شعاع ضوء نارنا . لذلك فقد بقي الأمر غامضاً ؛ الا ان الذئاب وابن آوى والضباع او كلاب الصيد ابقت على حراستنا بشكل محكم اكثر من قوة السلاح .

وفي المساء ، عندما كنا نغلق البوابة ، فان جميع الضيوف يجتمعون ، اما

في غرفتي او في غرفة الشريف علي ، وتدار القهوة على الجميع وتروى القصص والاحاديث لغاية مايحين موعد الوجبة الاخيرة (وجبة العشاء) ، وبعدها يجري التسامر لغاية موعد النوم . وفي الليالي العاصفة كنا نأتي باغصان الاشجار اليابسة وبروث الجمال ونشعل ناراً ضخمة في وسط الارضية ، ونمد حولها السجاد وجلود الاغنام (الجاعد) ، وعلى ضوئها نقوم بروي الاحاديث حول معاركنا وغاراتنا ، او نستمع الى روايات الزوار عن عاداتهم وتقاليدهم ، في حين كانت السنة اللهب المتمايلة تلاحق خيالات دخان سجائرنا بشكل غريب حول الحائط الحجري القاسي المتواجد خلفنا . وعندما ننتهي من رواية القصص، يأخذ كل منا راحته في الجلوس ، وتنفك الحلقة المحكمة للسامعين ، في حين تدار فناجين القهوة على الموجودين ثانية ، ويقوم الخادم بنفض او تهوية النار والجمر بعباءته لزيادة حرارتها ، لغاية ما يسمع صوت راوي قصة يرتفع ثانية ، في حين كنا نسمع صوت خشخشة المطر وهو يتساقط من الحافة الحجرية للسقف على قلب موقد النار .

واخيراً تتحول السماء الى كتلة متلبدة ليتساقط المطر بغزارة ، وبذلك لا يمكن لأحد ان ينضم الينا . ونعلم من خلال الوحدة عدم المنفعة الكاملة للحبس داخل مثل هذه الامكنة الكئيبة القديمة . وينسل ماء المطر الى اسفل من خلال الجدران السميكة ويتسرب الى الغرف من خلال شقوقها وصدوعها .

فنقوم بوضع اغصان النخيل على ارضية الغرف لتحمينا من تدفق المياه ، ونغطيها بالفراش ثم نضع عليه جلود الخراف ، ونغطي انفسنا بفراش اخرى كمثل مظلة لنمنع تساقط المياه علينا . وعندما يكون الجو بارداً وصقيعاً ، نختبئ هناك دون حراك ، بدءاً من النهار الضبابي المظلم لغاية حلول الظلام . وبدت عقولنا وافكارنا معلقة التفكير ضمن هذه الجدران الثقيلة ، التي يتساقط الرذاذ من خلال نوافذها كمثل مثلث ابيض . وغمرتنا احداث الماضي والمستقبل كمثل تيار نهر غير معاكس . وابقينا على احلامنا ضمن روح المكان ؛ ونحن نتحدث عن الحضارات ، والغارات ، والاحتفالات ، واغاني الحب في الليل . واستطعت

من خلال هذا التلبد الثقيل ان اسحب نفسي بالم مرة ثانية الى الحاضر ، ودفع واجبار فكري ليقول لي انه ينبغي علي ان استخدم هذا الطقس الشتوي لاستطلاع المنطقة التي تحيط بدرعا .

وبينما كنت افكر كيف يمكنني ان أسير ، قدم الينا هناك ، ودون سابق انذار ، في صباح احدى الايام الماطرة ، طلال الحريدين ، شيخ قبيلة طفاس . وكان مشهوراً بخروجه عن القانون ، ووضع الاتراك ثمناً لرأسه ؛ الا انه كان عظيماً بحيث يتجول كيفما يريد . فخلال سنتين قتل ، وفقاً لأحد التقارير ، حوالي ثلاثة وعشرين تركياً . وكان اتباعه الستة من خيرة الفرسان ، وهو نفسه اعتبر اعظم مغوار في حوران . وكان يرتدي معطفاً من جلد الخراف ، وثيابه الاخرى من الحرير ، وينتعل حذاءً (بوطاً) عالياً ،وسرجه الفضي وسيفه وخنجره وبندقيته كلها كانت تدل على شهرته وسمعته .

وجلس حول موقد قهوتنا ، وكأنه متأكد من ترحيبنا به ، وهو يحي علي بمرح صاخب ، ويضحك بفم واسع حول الطقس وحصننا القديم والعدو . بدا في الخامسة والثلاثين من عمره ، قصيراً وقوياً ، ورأسه مستدير ، وذا ذقن رفيعة وطويلة ، وشارب دقيق . كان يقف الى جانبنا بحماس ، لذلك فقد ابتهجنا بقدومة ، اذ كان اسمه ذائع الصيت في منطقة حوران . وعندما تأكدت من صدقة اخذته بصورة سرية الى بستان نخيل ، واطلعته عن نيتي في استطلاع منطقته فسرته الفكرة ورافقني في المسير وبشكل مبتهج كفارس سوري قدير في موهبته . ورافقنا ايضاً كل من حليم وفارس ، كحارسين لي .

ذهبنا الى منطقة ام طايع ونحن نستطلع الطرق والممرات والابار وحقول حجارة اللافا ، وعبرنا خط السكة الحديد الى قرية شيخ سعد ثم استدرنا جنوباً الى قرية طفس ، حيث اصبح طلال في منطقته . وفي اليوم التالي ذهبنا الى تل عرار ، وكان موقعاً رائعاً خط السكة الحديد الى دمشق ومسيطراً على درعا . وبعد ذلك سرنا من خلال منطقة ممهدة الى مزيريب التي تقع على خط السكة الحديد الواصل الى فلسطين ؛ واضعاً تخطيطاً ،هنا ايضاً ، للمرة القادمة ،

عندما ينبغي علينا ، لدى توفر الرجال والمال والمدافع ، ان نبدأ بالهجوم العام الشامل لتحقيق النصر المحتوم . وربما في الربيع القادم يمكن ان نرى اللنبي ملتفاً من فلسطين ليتجه قدماً نحو دمشق .

(٨٠)

من اجل الالتفاف تماماً للتجسس في هذه الارض المنخفضة من حوران ، فقد كان من الضروري زيارة درعا ، مدينتها الرئيسة . وكان بامكاننا ان نعزل شمالها عن غربها وجنوبها ، فيما لو نسفنا الثلاث خطوط الحديدة المتواجدة هناك؛ ولكن سيكون من الافضل اكثر الوصول الى نقطة اتصال الخطوط الحديدة اولاً ومن ثم تدميرها . ومع ذلك ، فان طلال لم يستطع ان يغامر معي حيث انه كان معروفاً جداً في المنطقة . لذلك افترقنا عنه مع تقديم الشكر من كلا الطرفين، وسرنا انا ورجالي صوب الجنوب وعلى طول امتداد الخط الحديدي لغاية ماوصلنا الى القرب من درعا . وهناك ترجلنا عن جيادنا ، وأخذ الفتى حليم الجياد وتوجه الى قرية "نسيب" الواقعة بالقرب من درعا . وكانت خطتي تتلخص في المشي حول محطة السكة الحديد ومدينة درعا ومعي فارس ، ومن ثم بلوغ نسيب بعد الغروب. وكان فارس افضل مرافق لي في تلك الرحلة ، لانه كان فلاحاً مغموراً غير معروف ، وكبيراً بما فيه الكفاية ليكون بسن والدي تمويهاً جديراً بالاحترام .

وبدت هذا الاحترامية نسبية عندما ونحن نمشي فوق تلك المنطقة التي شهدت امطاراً غزيرة الليلة الماضية . فقد كانت الارض طينية ، وكنا نحن حافيي الاقدام ، وملابسنا الوحلة أظهرت لطخات وبقع الطقس الردئ الذي كنا نواجهه ونتعرض له . فقد كنت ارتدي معطف حوراني ممزق وكنت لا ازل اعرج من جراء قدمي المكسورة ، عندما تعرضت للاصابة بعد نسف قطار احمد جمال

باشا، وكان من الصعب المشي على الارض اللزجة ، مالم نقم بالخطو بباطن اقدامنا بشكل واسع وتمكنها من الثبات بالارض ؛ وبالقيام بذلك لمسافة ميل بعد ميل، فانها كانت عملية شاقة ومؤلمة بالنسبة لي . ولأن الالم كان يؤذيني جداً فانني لم اكن لاضع وزناً لآلامي دوماً في عمليات ثورتنا ، ومع ذلك فانه كان من الصعب ان يمر يوماً دون حدوث الم جسدي ليزداد معه وقفاً لذلك خداعي الخفي تجاه العرب ، والتعب الحقيقي للقيادة المسؤولة . واعتلينا الركام المنعطف لخط سكة الحديد الواصل الى فلسطين ، ومن هناك قمنا باستطلاع محطة درعا . وتبين لي الا ان طبيعة الارض هناك كانت مستوية ومفتوحة جداً مما يصعب معه شن هجوم مفاجئ . فقررنا ان نمشي لغاية الخطوط الدفاعية الشرقية ، ومن ثم تروينا في المشي ، عند ملاحظة الاسلاك الشائكة منتشرة هنا وهناك ، والمستودعات الالمانية وبقايا وآثار الخنادق . وكان الجنود الاتراك يمرون دون اكتراث مابين الخيام ومراحيض معسكرهم ، التي اقيمت خارجاً ، في الجانب الذي كنا نقف فيه . ومن زاوية مهبط الطائرات ، وشققنا طريقنا صوب البلدة من نهاية الطرف الجنوبي للمحطة، وكانت توجد هناك مدافع قديمة من نوع الباتروز عليها شوادر تمويه وجنوداً يحيطون بها وأخذ واحد منهم وكان سوري، يسألنا عن قرانا ، وفيما اذا كانت مسيطر عليها . فمن المحتمل انه كان ينوي الفرار ، ويتصيد مكاناً للجوء اليه ، واخيراً هززنا برؤوسنا بالنفي واستدرنا لنذهب ، ومشينا كالطرشان ، الا ان عسكرياً برتبه رقيب جرى ورائنا وامسك بيدي بخشونة قائلاً : "البيك يريدك" . ولم استطع من قتاله لأنه كان هناك الكثير من الجنود ، ولم استطع ايضاً الفرار ، لذلك فقد ذهبت معه طوعاً ، لكنه ولم يعر اهتماماً لفارس .

ومشيت من خلال سياج طويل الى مجمع كان يحتوي على اكواخ عديدة وبضعة ابنية . ووصلنا الى غرفة مصنوعة من الطين ، وكان يجلس على منصة ترابية في الخارج ضابط تركي بدين ، ورمقني بعينه عندما كان الرقيب يحضرني اليه ويشرح له بالتفصيل بشأني . وسألني عن اسمي ، فقلت له ان اسمي "احمد بن باغر" ، شركسي من القنيطرة ،وسألني ، "هل انت فار من الجندية ؟" فاجبته قائلاً : "ولكننا نحن الشركس لانؤدي الخدمةالعسكرية" . فاستدار

وحدق بي ، وقال ببطء شديد "انت كذاب" ووجه كلامه الى الرقيب قائلاً: "احبسه في قطعتك ياشاويش حسان ، وافعل اللازم لغاية مايرسل البيك في طلبه" .

وقادوني الى غرفة حراسة تؤدي الى عدة اكواخ خشبية كبيرة ، وكان يتواجد في احداها رجال في ثيابهم العسكرية المهلهلة . وحلوا حزامي ، واخذوا سكيني وجعلوني اغتسل جيداً واطعموني . وقضيت يوماً هناك . ولم يفرضوا على أية عقوبة بل حاولوا تطميني . ان حياة الجندي هناك لم تكن سيئة بأية حال . وربما يسمح لي ان غادر غداً ، اذا مالبيت رغبة البيك هذه الليلة . وبدا ان البيك كان هو "ناهي" ، حاكم درعا . واذا ماكان غاضباً ، كما قالوا ، فانني سأحول الى مركز تدريب المشاة في بعلبك ، انه لم يكن هناك شئ اسوأ من ذلك في العالم .

وبعد حلول الظلام بقليل قدم ثلاثة رجال لأخذي ، وبدا لي ان هناك فرصة للهرب ، الا انه كان هناك واحد ممسك بي . ولعنت ضعفي ووهني . وسرنا لنقطع خط السكة الحديد ، حيث كانت هناك ستة خطوط بجانب ورشة القاطرات . ومضينا من خلال بوابة جانبية نازلين الى شارع واجتزنا الساحة لنصل الى بناء مكون من طابقين ، وكان يوجد حارس في الخارج هناك ، وخيالات حراس اخرين متراخين في المدخل المظلم . وقادوني الى غرفة البيك في الطابق العلوي ، أو الى غرفة نومه . وكان رجلاً ضخماً ، ربما شركسياً ، جالساً على السرير وهو في ثياب نومه ، يرتجف ويتصبب عرقاً كما لو انه مصاباً بالحمى . وظل مطأطئ الرأس عندما دفع بي الحراس للداخل ، ولوح بيده للحارس بأن يخرج . وقال لي بصوت لاهث بأن اجلس على الارض امامه ، وظل صامتاً بعد ذلك في حين كنت احدق بقمة رأسه الضخمة حيث كان شعره منتصباً وقصيراً . ونظر ألي اخيراً ، وقال لي بأن اقف ، ومن ثم بأن استدر . فنفذت ذلك ؛ ودفع بنفسه على السرير وهو يجرني معه بيديه . وعندما ادركت ماذا كان يريد ، لويت نفسي ونهضت ثانية ، ورأيت نفسي وجهاً لوجه امامه ،

في وضع للتصارع . وبدأ يتودد ألي ويغازلني قائلاً لي كم كانت بشرتي بيضاء وناعمة ، وكم كانت يداي وقدمامي ناعمة ، وانه سيعفيني من الخدمة العسكرية، ويجعلني وصيفاً وحاجباً له ، وحتى انه سيعين لي اجراً ، فيما لو لبيت له رغبته .

فاصبحت فظاً معه ، لذلك فقد غير من لهجته وامرني بحدة ان انزع ملابسي . وعندما ترددت امسك بي ، فدفعته للخلف . واشار للحارس بيده، الذي اسرع للداخل وأوثقني . ووجه لي البيك الشتائم والتهديدات المخيفة ، وجعل الحارس يقوم بتمزيق ملابسي قطعة قطعة .

واخيراً بدأ ينهشني بيديه ويحاول قلبي ليجثم علي ، فاستخدمت ركبتي ودفعته بقوة ، فاستلقى على السرير وهو يتلوى من الالم ، في حين صرخ الحارس على الحراس الاخرين ليوثقوا يداي وقدماي ، وعندما اصبحت عاجزاً استجمع الحاكم قواه وبزق علي وهو يقسم بأن يجعلني اطلب العفو ، وتناول خفه ، وأخذ يضربني به على وجهي بصورة متكررة ، في حين كان احد الحراس يمسك بشعري ليدفع برأسي للخلف لاتلقى الضربات . ومال الحاكم للامام وثبت اسنانه في رقبتي وعضني لغاية ما نزف الدم منها ، ومن ثم قبلني ، وبعد ذلك سحب سنجه احد الحراس فظننت انه سيقتلني ، الا انه للاسف لم يفعل ذلك ، حيث غرسها في لحمي واخذ ينهشني بها لغاية ما تدفق الدم غزيراً وسال للاسفل ، ونظر الي مسروراً وأخذ يمسح الدم باصبعه على بطني .

وتحدثت عندما اصابني اليأس فتغير وجهه ووقف هادئاً ، ثم سيطر على صوته بجهد ،ليقول لي بشكل ذو مغزى " يجب ان تفهم بأنني اعلم ، وسيكون من الاسهل ان تفعل كما اشتهي" ، وصعقت ، واخذنا نحدق ببعض بسكون ، في حين شعر الحراس بعدم الراحة . ولكن كان من الواضح انها كانت ضربة كلام ، بحيث انه لم يكن يعني ما كنت خائفاً منه ، واخيراً أومأت برأسي للخلف كاشارة على الرفض حسب عادة اهل الشرق ، ومن ثم جلس على الارض وقال شبه هامساً لقائد الحرس بأن يأخذني خارجاً ويلقنني درساً لا انساه .

واخذوا يضربونني على رأسي وانا انزل الدرج ، ومددونني على كرسي خشبي واخذوا يضربونني ، وجثم اثنان منهم على كاحل قدماي من الخلف ، في حين أخذ اثنان آخران كل واحد منهما برسغ يدي ولوهما لغاية ما فككوهما ، ومن ثم اسرع رئيسهم الى الطابق الاسفل ، وعاد ومعه سوط من النوع الجركسي، ملفوف عليها شريط فضي ، وهي طويلة ومستديرة تشبه قلم الرصاص .

ورأني وانا ارتجف ، وكان ذلك من البرد بشكل جزئي ، وأخذ يلوح به في الهواء ليسمعني صوته ظاناً بذلك انني ساطلب الرحمة وانني سأتوسل عندما يجلدني عشرون جلدة واستجيب لرغبة الحاكم . ومن ثم بدأ بجلدي بشكل جنوني وبكل قوته ، في حين كنت اصك على اسناني لاتحمل ضرب السوط الذي يشبه صفعة السلك ولهيبه وهو يسقط على جسدي . ولاجعل ذهني مسيطراً فقد كنت اعد الضربات ولكن بعد الضربة العشرين ، فقدت الشعور بالعد ولم استطع ان اشعر سوى بمدى الالم . وبعد ان توقف رئيس الحرس عن الضرب ، اخذ الرجال الآخرون يقومون بضربي على التتابع ، ثم يريحون انفسهم فترة بسيطة، ومن ثم يستأنفون الضرب ، وكأنهم يلعبون معي لعبة غير قابلة للكلام وتكرر هذا على فترات قصيرة ، وسرعان ما تيقنوا بعزمي وتصميمي على ان لا اصرخ او استغيث ، وكنت لا انبس سوى ببعض التفوهات العربية .

واخيراً عندما انهرت تماماً ، وبدوا انهم شبعوا ضرباً ، وجدت نفسي ملقى على الارض ، مترنحاً وشبه فاقداً للوعي ، ومع ذلك فقد عرفت تخيلت مدى الضرب الذي تعرضت له . فتذكرت ان رئيسهم كان يركلني بحذائه العسكري لينهضني . حيث انه في اليوم التالي كان ذلك واضحاً من الكدمة السوداء على جانبي الايمن ، وسمعت احدهم يقول ، "احذر انك ستقتله" ، وتبع ذلك ضربة سوط اخرى ، ومن ثم نادى عليهم الحاكم ، فرشوا الماء على وجهي ، فازال ذلك بعض القذارة ، ورفعوني بينهم وأنا ارتعش وارتجف الى حيث كان الحاكم

ممدداً ، الا انه رفضني حينذاك بسرعة ، لأن الدم كان ينزف مني والجراح تنهش جسدي، وقد لامهم على اسرافهم في تعذيبي اذ ان ذلك افسدني بالنسبة له؛ لأنهم بدون شكك قد اشبعوني ضرباً وضرراً ، واللوم كله يقع على جلدي الذي لا يحتمل ولا يطيق الضرب .

وحملني بعضهم الى اسفل عبر الدرج الضيق ليطرحوني في الشارع. وجعلتني برودة الليل التي اثرت على جسدي الملتهب اصرخ ثانية ، واصبح الحراس عندئذ طليقي اللسان ليقولوا لي بأنه يجب على الرجال ان يلبوا رغبات ضباطهم ، أو ان يدفعوا الثمن غالياً في حال رفضهم لذلك ، كما حدث بالنسبة لي ، الذي عانيت منه بجسامة.

ومن ثم اخذوني الى مكان فسيح مهجور ومظلم يقع خلف بيت الحاكم ، وهناك كانت توجد غرفة او كشك خشبي وكان كل شئ فيها مغبراً . وظهر ممرض ارمني واخذ ينظف جراحي ويضمدني بسرعة . ومن ثم ذهب الجميع وتأخر آخر رجل منهم ليهمس لي بلهجة درزية من ان الباب في الغرفة التالية كان غير مقفل. واستلقيت هناك والغثيان يسيطر علي ، مع الم شديد في الرأس وانا ارتجف من البرد لغاية مابزغ الفجر ودخل الضوء من شقوق الغرفة الخشبية . وكانت هناك قاطرة تصفر في المحطة . فكل هذه الامور ، اضافة للعطش ردت الحياة لي ، فوجدت نفسي بدون ألم . فهل يمكنني ان احرك نفسي الآن ؟ وكانت الحركة الاولى مولمة وكافحت من اجل ان اقف على قدمي وكنت أئن من الالم وأتسائل من انه لم يكن حلماً .

وكانت الغرفة التالية عبارة عن مستوصف . وكان معلقاً على بابها ملابس صوفية رديئة . فازلتها ببطء ودون ان استخدم يداي لأن رسغاي كانا مفككان ، واخترت من بين الأدوية مادة سامة كمنقذ لي ضد القاء القبض على ثانية . وتسلقت لاخرج من النافذة وامضي وانا ارتجف باتجاه القرية ، وقابلت في طريقي بعض الناس ، الا انهم لم يلاحظوا شيئاً ، ففي الحقيقة لم يكن هناك شئ ملفت للنظر وانا في ملابسي القاتمة الواسعة .

وكانت الآبار تقع بجانب الجسر ، وحولها الرجال والنساء ، وكان الجانب المنخفض منها خالياً وطليقاً ، وسكبت قليلاً من الماء في يدي ومسحت بها وجهي ، ومن ثم شربت حيث كان منعشاً لي ، وبعد ذلك تجولت على طول ارض الوادي صوب الشمال منسحباً عن الانظار ، فهذا الوادي كان يحتوي على طريق خفي الذي يمكن بواسطة غارة مخطط لها من السيطرة على بلدة درعا بصورة سرية ، ومباغته الاتراك . وهكذا ، وفي حال الانسحاب ، فقد وجدت حلاً ، الا انه متأخر جداً ، لتلك المشكلة التي احضرتني الى درعا .

وفي مكان بعيد وجدني احد رجال السردية ، فأخذني باتجاه قرية نسيب فشرحت له انه كان لدي عمل هناك ، وان قدماي تقرحتا من المشي ، فاشفق علي واركبني خلفه على دابته الهزيلة ، حيث تعلقت به طيلة بقية الطريق عارفاً المشاعر حول اسمي المستعار الذي تظاهرت به امام الاتراك ، وكانت مضارب القبيلة تقع مباشرة امام القرية ، حيث وجدت هناك كل من فارس وحليم قلقان عليّ ، وكانا فضولين ليعرفا كيف اختفيت . فحليم كان قد تجول في درعا أثناء الليل ، وعرف من خلال تسرّب الإشاعات بأن الحقيقة (حقيقة إسمي وهدف وجودي هناك) لم تكتشف ، وأخبرتهما برواية متناقضة ومضحكة عني تتضمن الخداع والغش والرشوة ، ووعدا بأن يبقياها سراً ، وأخذا يضحكان بصوت عالٍ على سذاجة وبساطة الأتراك .

وخلال الليل رتّبت لأستطلع الجسر الحجري الضخم بالقرب من «نسيب» . فخداعي وتشويهي للحقيقة سوف لن يؤثر ولو بمقدار بسيط بالنسبة للثورة العربية (أو بالنسبة لأي شيء آخر سوى أن تصلح وترمّم ذاتها) ، ومع ذلك ، وحيث أن الحرب كانت عبارة عن هواية بالنسبة لي ، فمن أجل العرف والتقاليد سأجبر نفسي على الإندفاع بها قدماً . وبعد ذلك امتطينا جيادنا ، وسرنا بهدوء وروية صوب الأزرق ، دون حدوث أي شيء ، باستثناء مصادفتنا لمجموعة من عشيرة « ولد علي » ، وتركونا نذهب نحن وجيادنا دون أن ينهبوننا ، عندما عرفوا من نكون . وكان هذا سخاءً غير متوقع ، فعشيرة ولد

علي لم يكونوا بعد من أتباعنا . وأوقفني اعتبارهم للحظة لأحمل العبء ، الذي تأكد على مرّ الأيام : كيف أنه في درعا تلك الليلة قد حُطّمت وفقدت بشكل لا يمكن نسخه أوتغييره قلعة استقامتي وكمالي .

(٨١)

وصل الأمير قصوري ، أمير صلخد الدرزي ، إلى قلعتنا القديمة قبل مجيئي لهناك في أول زيارة له للشريف علي . وأبلغنا ببقية القصة التاريخية للأمير عبدالقادر الجزائري . فبعد أن فرّ منا سار مباشرة إلى قريته ، ودخلها في حالة انتصار ، وكان العلم العربي يرفرف فوقه ، وفرسانه السبعة يحيطون به ، وهم يطلقون رصاص الفرح . واستغرب الناس ذلك ، كما احتج الحاكم التركي بأن مثل هذه الأعمال كانت إهانة له . وقدّم للتعرّف على عبد القادر ، الذي كان جالساً بخيلاء في ديوان القرية ، وكان يلقي خطبة نارية ، مشيراً إلى أن الشريف قد سيطر الآن على جبل الدروز (العرب) من خلاله ، وأن جميع المسؤولين والموظّفين قد ثبّتوا في أماكنهم ووظائفهم . وفي اليوم التالي قام بجولة ثانية في المنطقة . فشكى الحاكم التركي المستاء مرة ثانية واحتج . فسحب عبدالقادر سيفه المكي المذهب ، وأقسم على أنه سيقطع به رأس جمال باشا . ووبخه الدروز على ذلك ، معلنين بأنه لا يجب أن تقال مثل هذه الأقوال في ديوانهم وأمام سعادة الحاكم . مما أثار ذلك عبدالقادر فدعاهم بأولاد «الزنا ، وأولاد الحرام ، وبالقوادين» ، وشملت إهاناته جميع من في الديوان . واستبد الغضب بالدروز. واندفع عبدالقادر حانقاً إلى الخارج وامتطى حصانه ، وأخذ يصيح بأنه عندما تثبت أقدامه تماماً فإن كافة جبل الدروز (العرب) سينهض وينضم إلى جانبه .

وانطلق هو ورجاله السبعة نزولاً إلى درعا ، التي دخلها كما دخل

صلخد. وكان الأتراك يعرفون نزواته القديمة ، فتركوه يفعل ما يشاء . حتى أنهم لم يصدّقوا حكايته من أن علي وأنا قد حاولنا نسف جسر اليرموك في تلك الليلة. ومع ذلك ، فإنهم اتخذوا قراراً بإرساله إلى دمشق رهن الإعتقال. وسر مزاج جمال باشا الوحشي بذلك ، فأخذ يكبر من شأنه كهدف له . وأصبح عبدالقادر طيعاً له تدريجياً ، فبدأ الأتراك باستخدامه كعميل محرّض ليتغلغل بين صفوف الوطنيين المحليين السوريين .

أصبح الطقس آنذاك مقيتاً ، بهبوب العواصف الثلجية والتجمّد بشكل مستمر ، وكان من الواضح أنه لن يكون هناك شيء في الأزرق سوى القيام بالتعليم والإرشاد في الأشهر التالية. ولم أكن متشوقاً لهذا ، وعند الضرورة ، فقد كنت أشارك في جمع الأنصار المتعبين ، وأقوم بتحويلهم إلى جانبنا قدر استطاعتي ، مدركاً طيلة الوقت بجهلي وتعارضي كغريب يدعي الحرية الوطنية . فالحرب بالنسبة لي حملت كفاحاً لخطّ أومسار جانبي ، لا تغلغل إلى نفوس وموقف الناس لقبول الثورة بشكل طبيعي وموثوق . وكان عليّ أن أحثّ وأقنع نفسي من أن الحكومة البريطانية يمكنها في الحقيقة أن تحفظ روح وعودها . وكان هذا أمراً صعباً بالنسبةلي عندما أكون تعباً ومريضاً ، وعندما يصبح هذيان فكري ممزقاً صبري إلى أشلاء . ومن ثم ، فقد كان يناديني أحد البدو بـ « يا أورانس» ، وهومندفعاً ، ويطلب حاجته دون تقديم تحيات ، أما أولئك أهالي المدن الناعمين فقد كانوا مهووسين بالألقاب عندما يمثلون أمام أمرائهم أوأسيادهم . فإن مثل هذه الألقاب الوقورة والجليلة ، كمثل درع الجسد في النزال ، تكون مفيدة دون شك، الا انها غير مريحة ، ووضيعة ، ايضاً .

انني لم اكن شخصاً متغطرساً او متكبراً ابداً ، فعلى العكس فقد حاولت ان اكون متصلاً وواصلاً الى كل واحد ، وحتى لو انني شعرت باستمرار من ان كل واحد منهم كان يأتي ويراني في كل يوم . وقد كافحت وناضلت بشكل بليغ بكل ماااستطعت بمثالي الخاص للحفاظ على بساطة وصدق معيار الوجود . ولم يكن لدي ولم املك خياماً ، او طباخين ، او حراس شخصيين خاصين : فحراسي

فقط ، هم الذين كانوا عبارة عن رجال مقاتلين ، وليسوا للخدمة ، ولقطع رأس اولئك اصحاب الحوانيت البيزنطيين المحاولين افساد بساطتنا : لذلك فقد بعدت عنهم بغضب ، مصمماً بأن اذهب الى الجنوب واستطلع اذا ما كان بالامكان القيام بعمل نشط هناك ، في مثل هذا الطقس البارد ، حول منطقة البحر الميت ، حيث يقيم العدو هناك كمثل استحكام يفصلنا عن فلسطين .

وسلمت ما كان متبقياً لدي من المال الى الشريف علي ، وذلك من اجل الاعالة والتموين لغاية قدوم فصل الربيع ، وأوصيته بأن يعتني بالجنود الهنود. وكنا اشترينا لهم بشكل خاص جمال جديدة للمسير ، في حالة اذا ما تطلب الامر التحرك فجأة في الشتاء ، مع ان الاخبار اليومية التي كانت تتوارد الينا عن هجوم تركي وشيك على الازرق كانت تؤخذ من قبل الشريف علي الشاب على غير محمل الجد وبالاستهزاء . وقمنا بتوديع بعضنا انا وهو بشكل عاطفي . ومنحني الشريف علي تقريباً نصف خزانة ثيابه : قمصانه ، وكوفياته ، احزمته ، وستراته ، وقدمت له مقابل ذلك نصف ما املك من الثياب ، وتعانقنا مثل داود وجوليات ، وكل واحد ارتدى ملابس الآخر . وبعد ذلك ، ومعي رحايل فقط ، وعلى اثنتين من افضل نياقي ، انطلقنا باتجاه الجنوب .

غادرنا الازرق في احدى الامسيات ، سائرين الى الغرب المتوهج الدافيء ، في حين كانت تحوم فوق رؤوسنا افواج من الطيور عند مغيب الشمس كمثل نصول السهام . وكانت الرحلة شاقة منذ البداية . فالليل كان حالكاً لدى عبورنا وادي البطم ، حيث ان حتى الاوضاع اصبحت اسوأ . فالسهل برمته كان رطباً وطرياً وكانت ناقتينا تتعثران وتقعان من وقت لآخر ، وكنا نحن نقع بدورنا عندما تقعا ، الا اننا كنا نحفظ توازننا بين كل سقطة واخرى ونجلس هادئين . وعند منتصف الليل عبرنا مستنقع الغداف ، وقد كان مستنقعاً فظيعاً ومزعجاً من اجل التقدم اكثر . وشعرت عند وصولنا درعا ايضاً بالوهن والضعف ، وبدت اعصابي وكأنها مشتعلة لذلك فقد توقفنا . ونمنا حيث توقفنا على الطين ؛ ونهضنا عند الفجر ونحن نبتسم احدنا للآخر وهبت الريح وبدأت الارض

تجف . وكان هذا شيء مهم بالنسبة لي ، اذ انني اردت ان احتل العقبة قبل ان يغادرها رجال وود مع رجوعهم بالقافلة . وكان ضعف جسدي للركوب والمسير شديداً جداً . ولغاية الظهر فقد كان مسيرنا بائساً ، حيث ان الجمال كانت لاتزال تسقط وتتعثر وهي تسير على الحجارة الصوان الصلبة وتتمايل على الارض الطينية الطرية ، وبعد الظهر فقد تحسنت الامور عندما اصبحنا نسير على ارض اعلى ، وبدأنا نقترب بصورة مضطردة من القمم البيضاء والتي كانت بالذات قمم جبال "الثلاث اخوات" .

وفجأة صدرت نحونا صليات من طلقات الرصاص ، واندفع نحونا اربعة رجال نزولاً من السفح باتجاهنا وهم يصيحون ، وأوقفت ناقتي بهدوء وأنا اراهم يدبون نحونا يسرعون وهم يشهرون سلاحهم وسألوني من اكون : مدعين بانهم كانوا من حويطات الجازي ، وكانت هذه كذبة صريحة لان علامات جمالهم كانت من عشيرة الفايز . واحاطوا بنا من جميع الجهات وبنادقهم مصوبة علينا ، وطلبوا منا بأن ننزل عن ناقتينا وضحكت لهم ، الامر الذي كان يعتبر تكتيكاً جيداً مع البدو عند الازمات ، فاندهشوا لذلك فسألت أعلى واحد فيهم فيما اذا كان يعرف اسمه ، فحدق بي ظاناً بانني كنت مجنوناً وتحرك ليقترب مني اكثر واصبعه على الزناد وملت للاسفل عليه وهمست له قائلاً بأن اسمه لابد وان يكون "تراس" ، حيث انه لاتاجر آخر يمكنه ان يكون فظاً وخشناً جداً كمثله . وبينما كنت اتكلم معه طوقته بمسدس كان مخبئاً في عباتي وكان ذلك مذهلاً بالنسبة له ، وتخلى للحظة عن تفكيره بقتلنا وتراجع خطوة للوراء ونظر حوله وكان خائفاً من ان يكون هناك رجال اضافيون مختبئين في مكان ما ، ليمنحنا ذلك كل تلك الثقة . وفي الحال سرت ببطء ولدي شعوراً مروعاً منادياً على رحايل بأن يتبعني وجعلوه يذهب ايضاً دون أذى ، وعندما اصبحنا على بعد مائة ياردة منهم ، عادوا الى رشدهم وبدأوا باطلاق النار ، الا اننا اندفعنا فوق مستجمع ماء الى الانخفاض التالي ، وعبرناه ونحن اكثر ثقة الى ارض آمنة .

ومن القمة عند غروب الشمس نظرنا خلفنا على طول السهل الشمالي ،

والشمس تغرب وتتلاشى عنا بخجل ، وعلى انعكاس الشمس المتلاشية في برك مياه المطر الضحلة على الارض المسطحة ، كانت هذه العيون الدموية الحمراء الساقطة لاشعة الشمس مرئية اكثر بكثير من السهل ، ذلك انها نقلت انظارنا اميالاً إلى السديم (ضباب خفيف) ، وبدت لتتعلق منعزلة في السماء البعيدة ، مائلة لاعلى مثل السراب .

اجتزنا وادي (البير) بعد وقت طويل من حلول الظلام عندما كان آخر ضوء نار لخيمة يشع فيه . وعندما ذهبنا رأينا انعكاس النجوم في بطن الوادي ، وكنا قادرين على سقاية ناقتينا اللاهثتين من بركة ماء المطر الذي هطل بالامس ، وبعد ان شربتا اطلقناهما لمدة نصف ساعة . فهذه الرحلة الليلية كانت شاقة على كل من الرجال والدواب ، ففي النهار يستطيع الجمل ان يرى وعورة الطريق وان يتجنبها او يتغلب عليها كما يمكن للذي يقود الجمل ان يلف جسدة ويتحرك ليتلافى الصدمة او التعثر ، الا انه في الليل فان كل شيء يكون مظلماً حالكاً والمسير تتخلله الصدمات العديدة . واصابتني نوبة من الحمى ، الامر الذي اغضبني وازعجني ، ومع ذلك فلم أُعر انتباهاً لمناشدات رحايل من اجل التوقف للراحة . هذا الشاب الذي جننا جميعاً لعدة شهور بنشاطه الوافر ، وكان يضحك من ضعفنا ؛ لذلك ففي هذه المرة قررت ان انهكه بالمسير ، مظهراً عدم الرحمة في ذلك ؛ واصبح ينتحب قبل الفجر بخفية وسكون خشية ان اسمعه .

واقبل الفجر في الجفر بشكل غير مدرك من خلال ضباب رقيق كمثل شبح ضوء الشمس ، بحيث يترك الارض غير ملموسة او مدركة بذلك ، ويظهر نفسه كوميض مشع امام الاعين وحدها . وتظل الاشياء عند رؤوسها معتمة امام الافق الرمادي الفاتح ،وتذوب عند اقدامها او اسفلها بنعومة في الارض . ولم يكن لخيالاتنا حدوداً او حداً ؛ فشكينا اذا ما كان هذا الضعف أو الوهن الموجود على الارض اسفل كان سببه نحن ام لا . وعند العصر وصلنا معسكر عودة ابو تايه ؛ وتوقفنا من اجل السلام والحصول على القليل من تمر الجوف . ولم يستطيع عودة ان يستبدل لنا مطياتنا فركبنا ثانية لنجتاز خط السكة الحديد في بداية الليل ،

واصبح رحايل الآن بعيداً عن الاحتجاج وسار بدابته الى جانبي هادئاً وساكناً ليظهرلي انه قادر على التحمل ليبدي شيئاً من الفخر من خلال آلامه .

وحتى عندما بدأنا المسير متعادلين ، فقد كانت له ميزة على كل حال اكثر مني في القوة ، واصبحت بعد ذلك منهكاً تماماً . وخطوة خطوة فقد كنت اسلم نفسي للألم البطى نتيجة للحمى المنهكة وعدم المبالاة من الهيمنة على المسير وبديت اخيراً مقترباً من حالة عدم الادراك واللامبالاة والتي كانت دوماً تقع وراء متناولي ؛ الا ان الارض المبهجة بالنسبة لواحد ولد ضعيفاً جداً ، ذلك انه لاشيء في هذا الجانب الواهن سيدع روحه ونفسه طليقة . ووجدت نفسي الآن منقسماً الى اجزاء . وكان هناك واحد ذهب في المسير بشكل حكيم ، موفراً او مساعداً كل خطوة للجمل المرهق .

ومضى الليل وانا افكر بهواجسي تلك . فعينتاي المغمضتان رأتا بزوغ الفجر في الامام ، في رأس الممر ،الى اسفل ذلك الجانب الآخر من وادي رم يقع خارج قرص او خريطة ضوء الشمس ، وفكرت اجزائي بأن الكفاح يمكن ان يكون جديراً او ذو قيمة ، الا ان النهاية ستكون غباءً وأعادة ولادة للمتاعب وبينما انا مستغرق في افكاري ، نبهني رحايل بدفعي وهو يصيح باننا قد ضللنا طريقنا واتجاهنا ، وكنا نتجه صوب الخطوط التركية عند «ابا اللسان» . وكان على حق ، واصبح علينا ان نستدير راجعين في طريق طويل لنصل الى البتراء بسلام. ومشينا مسافات من الانحدارات السحقية للممر ، ومن ثم مشينا باضطراب على طول وادي حفيره . وفي منتصفه اعترضنا صبي شجاع من الحويطات عمره يقارب الرابعة عشر ، وكان اصبعه على الزناد وقال لنا بأن نتوقف ونشرح له من نحن فامتثلنا لذلك ونحن نضحك . وبعد ان عرفناه على انفسنا تورد الصبي خجلاً وبرر عمله بأن جمال والده ابقته دوماً في الحقل ، لذلك فانه لم يكن ليعرفنا سواء بالنظر او بالوصف . وتوسل الينا بأن لانجعله خجلاً من خطأه . وأدى هذا الحادث الى ازالة التوتر بيني وبين رحايل ، فاخذنا نتجاذب اطراف الحديث ونحن نسير باتجاه «الجعا» ، وهناك توقفنا لنستريح وننام تحت شجرة في

منتصف النهار لمدة ساعة ، حيث ان بطئنا في المسير في ممر البتراء افقدنا امكانية الوصول الى العقبة خلال ثلاثة ايام من الازرق ، فأخذنا الامور بالتريث فتألق وجمال وادي رم لن يدع أي انسان ان يبدد وقته ويشعر بالاسف والندم .

وسرنا صعوداً الى وادي رم في اول العصر ؛ واصبحنا مرتاحين اكثر الآن ونتبادل النكات مع بعضنا ، وبدأ ليل الشتاء الطويل يزحف نحونا . وعندما اجتزنا منطقة الخزايل في الصعود ، وجدنا الشمس محجبة خلف مستوى ضفاف السحب المنخفضة في الغرب ، وتمتعنا برؤية الشفق الصافي على النمط الانجليزي . وفي وادي العتم فان الضباب الرقيق تبخر الى اعلى بشكل لطيف عن الارض وتجمع بشكل كتل صوفية بيضاء بين كل فجوة . وبلغنا العقبة عند منتصف الليل ، ونمنا خارج المعسكر لغاية موعد الفطور ، عندما استدعيت جويس فوجدت ان القافلة لم تكن مستعدة بعد لبدء المسير ؛ ففي الواقع ، فإن وود لم يكن وصل للعقبة سوى قبل بضعة ايام فقط .

وفيما بعد صدرت اوامر مستعجلة لي بان اذهب في الحال الى فلسطين عن طريق الجو . فطار بي الطيار كرويل الى السويس . ومن هناك ذهبت مباشرة الى مقر قيادة اللنبي التي كانت تقع الى ماوراء غزة ، وكان اللنبي مفعماً بانتصارته ، ذلك ان بياني المختصر حول فشلنا في تنفيذ عملية جسر اليرموك كان كافياً بالنسبة له ، وتمت التغطية على تفاصيل الاخفاق ما أمكن .

وبينما كنت لا ازال معه ، وردت اخبار من شتود (قائد عسكري) بأن القدس قد سقطت ؛ فاستعد اللنبي لدخولها بصورة رسمية ، حيث اوصت بذلك مخيلة مارك سايكس . وقد كان مبتهجاً تماماً ولكن لم يكن لدي شئ لافعله بالنسبة لهذا النجاح ، حيث تركت كلايتون ليجعلني ضابط اركانه ذلك اليوم ، وقدمت لي الثياب العسكرية الرسمية لابدو كممثل رائد في الجيش البريطاني ، كما اعاروني القبعة العسكرية ، وذلك لابدو في كامل زينتي للمشاركة في احتفال الدخول من بوابة حيفا ، في القدس ، حيث كان ذلك بالنسبة لي اعظم لحظة في تلك الحرب .

الجزء السابع

من فصل ٨٢ـ٩٦

بعد الاستيلاء على القدس ، فان اللنبي من اجل ان يضمن ميمنته ، اسند الينا القيام بهدف محدود . فبدئنا ذلك بشكل حسن ، ولكن عندما وصلنا البحر الميت فان الطقس الردئ ، والمزاج السئ وانقسام الاهداف ، كل ذلك سيطر على روحنا الهجومية وفسّخ قوتنا .

كنت على سوء تفاهم مع زيد ، فتخليت عن مهمتي ، ورجعت الى فلسطين لاقدم تقريراً عن فشلنا ، ولاطلب التماساً باستخدامي في مهمة اخرى . وكان اللنبي يتملكه أمل كبير بالخطط الحربية في الربيع القادم ، فارسلني لاعود في الحال الى فيصل ومعي قوى ومهام جديدة .

(٨٢)

كنت خجلاً من نفسي ، مع ذلك الانتصار العظيم الذي حققه اللنبي والذي سيطر على الاجواء . وعدنا الى مقر القيادة العسكرية ، واحضرت السلال الكبيرة من اجل تناول طعام الغداء ، المتنوع والمتقن وقد ساد المكان هدوء قصير ليقطع من قبل المسيو بيكو ، المندوب السياسي الفرنسي ، والذي سمح له من قبل اللنبي بأن يسير الى جانب كلايتون في دخول القدس ، والذي قال بلهجة حادة ، "وغداً ياعزيزي الجنرال فانني سأتخذ الخطوات اللازمة لاقامة ادارة مدنية في المدينة" .

وكانت تلك أجرأ كلمة تبعها هدوء ، عندما كانوا يفتحون سلة طعام كانت تحتوي على السلطة والدجاج بالمايونيز والشطائر التي سال لها لعابنا ، في حين التفتنا الى اللنبي فاغري الافواه ، حتى انه بدا للحظة انه كان مرتبكاً . وبدأنا نخشى ان يفسد الامر ، الا ان وجهه أحمر وكتم غضبه ، حيث امتدت ذقنه للامام (بطريقة كنا نحبها منه) ، وقال بتجهم ، "ان السلطة في المنطقة العسكرية تكون من اختصاص القائد العام فقط - وهو انا نفسي . وقال بيكو متلعثماً "ولكن ماذا بشأن السير جراي ، السير ادوارد جراي" . . . فاجاب اللبني قائلاً "السير ادوارد جراي ، للارادة المدنية التي ستنشأ عندما اقرر بأن الوضع العسكري يسمح بذلك» . وركبنا السيارة ثانية ، واسرعنا نزولاً وسط الترحيب الى معسكرنا . وهناك أخبرني كل من اللنبي وداوناي بأن البريطانين ساروا وحاربوا حتى توقفوا تماماً على طول خط من رام الله الى القدس . لذلك فانهم

سيطلبون منا في هذا الهدوء الحذر من المعركة لنذهب شمالاً الى منطقة البحر الميت لغاية اذا ما امكن، ان نربط يمينه بجنوبه ، ومن ثم نعيد فتح جبهة جديدة مستمرة هناك . ولحسن الحظ فان هذا الأمر قد نوقش من قبل مع الامير فيصل الذي كان يهيئ للتحرك نحو الطفيلة ، وهي خطوته الضرورية الاولى .

وكانت تلك مناسبة لسؤال اللنبي ماذا ستكون خطوته التالية . فقال انه يفكر بالتعبئة لغاية منتصف شهر شباط ، عندما سيدفع قدماً نحو اريحا . فكثير من مؤن واغذية العدو ستتقلص عن طريق البحر الميت ، وطلب مني بأن اراقب خط سير نقلها كهدف ثان ، اذا تمت حملة الطفيلة بنجاح .

واجبته بانني كنتُ اتمنى من انه يجب ارباك الاتراك باستمرار ، ومن الممكن ايضاً ان نتصل معه (نتصل مع قواته) عند نهاية الخط الشمالي للبحر الميت . واذا ما تمكن من تزويد الامير فيصل بخمسين طناً من المؤن والذخيرة عن طريق اريحا يومياً ، فاننا سنترك العقبة وننقل مقر قيادتنا الى وادي الاردن . فالجيش النظامي العربي قد اصبح قوامه الآن حوالي ثلاثة الاف جندي ، وسيكون كافياً ليجعل لنا القدرة على الاحتفاظ بالضفة الشرقية لنهر الاردن وتأمينها بشكل معقول .

وراقت هذه الفكرة لأللنبي وداوناي ، الا انهما امكنهما ان يعدا تقريباً بمثل هذه المساعدات عندما يستأنف خط السكة الحديد الى القدس في وقت ما من شهر كانون الثاني (١٩١٨) المقبل ، ومن الممكن ان نكون قادرين على تحريك ونقل قاعدتنا بعد ذلك بشهرين عندما يكون الخط قد شغل . وجعلنا هذا الحديث نكون فكرة ونهج واضحين عن سير عملياتنا . فعلى القوات العربية ان تصل الى البحر الميت باسرع وقت ممكن ؛ وذلك لايقاف ومنع نقل امدادات الاغذية والتموين التركية عن طريق اريحا قبل منتصف شهر شباط ، ومن ان تصل الى الاردن قبل نهاية شهر آذار . وحيث ان التحرك الاول سيبدأ بعد شهر ، وكافة تمهيداته كانت جاهزة ، فانه كان باستطاعتي ان أنال اجازة . لذلك ذهبت الى القاهرة ، ومكثت هناك ثلاثة اسابيع وانا اتدرب واكتسب خبرة في مجال المتفجرات .

وبدا من الافضل بعد ذلك ان اعود الى العقبة ، حيث وصلناها يوم عيد الميلاد ، لنجد "سناج" ، كبير الضباط البريطانيين في العقبة يقيم حفلة غداء للجالية البريطانية هناك ، وقد اقام مائدة طويلة تستوعب الضيوف المدعوين بسهولة ، ووقف سناج ليشرف على الضيافة بنفسه بابتهاج .

ففي الايام الاولى للثورة كانت سفينة هاردينغ هي التي لعبت دوراً بواسطته نقل المؤن والذخيرة لنا ، في حين كان الامير فيصل ، في ينبع ، يشق طريقه في مسير عبر التلال في يوم عاصف من شتاء بارد ورطب ، وكان تعباً ومرهقاً . فدعاه الكابتن لينبري ، بعد ان رسا بسفينته على الشاطئ الى الصعود على السفينة ، حيث وجد هناك بانتظاره قمرة دافئة ووجبة دسمة وحمام ساخن ، وبعد ذلك استرخى في مقعده المريح ، وهو يدخن سيجارة من سجائره المتتابعة ، يبدي اعجابه بمثل هذه الراحة والرخاء .

وابلغني جويس بأن كافة الامور كانت على مايرام . فالوضع قد تغير بشكل ملموس منذ الانتصار الذي حققه مولود ، والاتراك كانوا يحتشدون في منطقة ابا اللسان ، وقد دفعناهم بواسطة الغارات التي كنا نقوم بها الى خط يقع جنوب معان . وقام الاميران عبد الله وعلي بنفس العمل بالقرب من المدينة . ومن اجل ان يدعموا حماية خط السكة الحديد ، فان الاتراك قاموا بسحب قوات اضافية من ابي اللسان ليعززوا ويقووا المراكز والمحطات الضعيفة منها .

ونقل القائد العسكري مولود مواقعنا بجرأة الى امكنة تقع على النجد المرتفع ، وبدأ الاسراع بنقل قافلات المؤن من معان . وكان يعوق بكثافة البرد والمطر والثلوج على المرتفعات . وقد لاقى بعض رجاله الضعفاء حتفهم جراء ذلك ، الا ان الاتراك فقدوا نفس العدد في الرجال واكثر بكثير في وسائل النقل ، إذ ان جمالهم الجرباء كانت تنفق باضطراد تحت العواصف الثلجية والمطرية وعلى الارض الطينية . وقيدتهم هذه الخسائر وحصرتهم في نقل الاغذية والمؤن وأحدثت انسحابات اكثر من موقع ابا اللسان .

واصبحوا في نهاية الأمر ضعفاء لأن يحافظوا على موقعهم الكبير ، وفي

أوائل كانون الثاني ، كان مولود قادراً على اجبارهم للانسحاب باتجاه "المريغة" ، مما دفعهم للانسحاب ، مندفعين الى الوهيدة التي تبعد ستة اميال فقط عن معان، وعندما قمنا بالضغط عليهم ، انسحبوا الى "السمنه" ، وكان موقعاً يقع خارج منطقة معان ، ويبعد عنها ثلاثة اميال وبذلك ففي السابع من كانون الثاني كان مولود يطبق على معان مباشرة .

منحنا هذا التقدم الكبير عشرة ايام من الفراغ ؛ حيث انني انا وجويس كنا من النادر ان نلتقي بحرية سوياً ، فقد قررنا ان نحتفل بهذه المناسبة بأخذ سيارة والقيام برحلة على الاراضي الطينية باتجاه المدورة . وكانت السيارة وقتذاك توجد في القويرة ، في المعسكر الدائم ، وكان كل من جيلمان وداوسيت مع طواقمهم بالاضافة الى خمسين جندي مصري ، قد قضوا اشهراً في وادي العتم يقومون بشق وتشييد طريق لمرور المركبات من خلال الطريق الضيق . وكان ذلك عملاً ضخماً ، واصبح الآن يوصل الى القويرة . لذلك فقد اخذنا مركبات الرولز ، وملئناها بالاطارات الاحتياط ، والوقود والاغذية والمؤن التي تكفي لمدة اربعة ايام وبدأنا القيام برحلتنا الاستطلاعية . وكانت الطريق منبسطة وطينية جافة مما سهل جداً من سير المركبات ، اما السائقون فقد كانوا مبتهجين لأول مرة منذ ستة اشهر ، فانطلقوا بالسيارات قدماً بسرعة جنونية وعبر العنق الرملي من المنبسط الاول وحتى النهاية ، فقد قمنا برصف طريقاً من اغصان الاشجار . وعندما اصبح ذلك الطريق جاهزاً جاءت السيارات وهي تسير بسرعة بشكل خطر وذلك لتلافي العطل والتوقف ، وتدب فوق الروابي بطريقة بدت خطرة جداً بالنسبة للمحركات . ومع ذلك فقد عرفنا ان ذلك كان من المستحيل ان يعطب تقريباً مركبات الرولز رويس ، ومع ذلك فقد أسفنا جداً للسائقين ثوماس رولز وساندرسون ، فقد مزقت الضربات والصدمات الشديدة عجلات المركبة واخرجتها عن ممسكها او مقبضها ، وجعلتها بالية بعد عملية العبور .

وتوقفنا لتناول الغداء والاستراحة ، ومن ثم القيام بشوط جديد من السرعة، وقمنا بتحويلة خطرة جداً في منتصف الطريق عندما رأينا غزالاً على

الارض المنبسطة وسارت بجانبنا سيارتان كبيرتان لتسابقنا لكن من غير ذي جدوى . وفي نهاية المنبسط الثاني ، بلغنا "جعة الديسي" ، فاصبح الطريق وعرة لمسافة ميل حتى المنبسط الثالث لأبي الصوان ، وقمنا عبره بآخر سباق عنيف لمسافة خمسة عشر ميلاً فوق الارض الطينية وفوق الارض الصوانية الصلبة. ونمنا هناك في تلك الليلة القارصة وتمتعنا بأكل لحم البقر المعلب وشرب الشاي وأكل البسكويت وبالتحدث بالانجليزية والضحك ، حول موضع النار ، التي كانت ترسل بشرارتها الذهبية من جراء اشتعال اغصان الاشجار الشديدة الحرارة . وعندما خمدت النار كانت هناك الرمال الناعمة تحت اجسادنا ولففنا انفسنا بغطائين لكل واحد ، وبالنسبة لي فقد كانت هذه اجازة ، لم يرافقني فيها عرب ، الذين يجب ان العب أو اقوم أمامهم بدوري المضجر .

وفي الصباح انطلقنا الى المدورة ، فوجدنا سطح الارض ممتاز هناك حتى مستجمع الماء . لذلك فان عملية استطلاعنا كانت سريعة وسهلة النجاح . وفي الحال عدنا لنجد العربات المدرعة تباشر في عملية فورية ، وبمساعدة قطع المدفعية الجبلية . فبطارية المدفعية هذه ارسلها الجنرال كلايتون من مصر الينا في تلك اللحظة الملحة ، فقطعها الست كانت تتطلب جهداً ثقيلاً بالنسبة لاطقمها . وكان من المؤسف ان يكون هناك مدفعيين اكفاء مثل تلك الاسلحة الفاسدة ، ومع ذلك فان روحهم المعنوية بدت متأثرة بشكل شديد من تلك الاسلحة الاقل شأناً . فقائدهم برودي كان اسكوتلندياً هادئاً ليس بالمرح جداً وليس بالقلق ايضاً ، انه رجل وجد الصعوبات مخجلة لتلاحظ ، وفرض شخصيته على اتباعه . فمهما كانت المهمة التي يكلفون بها ، فانهم دوماً يهاجمون ويقومون بها بمثل ذلك التصميم الصلب الذي تسود فيه ارداتهم . ففي كل موقعه او مناسبة ، وفي كل ازمة ، يكونون ثابتين ومؤكدين في موقعهم مرهقين ولكن رابطي الجأش ، دون ان ينبسوا بكلمة احتجاج او شكوى . وتحركت ثمانية مركبات فخمة من القويرة في اليوم التالي ، ووصلت مكان توقفنا السابق وراء المدورة مع غروب الشمس ، وكان هذا رائعاً ، وعسكرنا هناك على نية ان نجد طريقاً الى سكة الحديد في

الصباح . ووفقاً لذلك فقد ركبنا باكراً سيارات الرولز قمنا بعملية بحث من خلال تلال منخفضة وعرة ومعقدة لغاية المساء ، عندما اصبحنا في مكان يقع خلف آخر مرتفع فوق «تل شهم» المحطة الثانية باتجاه الشمال من المدورة . واخذنا نتحدث عن امكانية تفجير قطار ، الا ان المنطقة كانت مفتوحة جداً ومرئية ، ومعاقل وحصون العدو متعددة هناك ، وبدلاً من ذلك فقد قررنا مهاجمة موقع عسكري تركي يقابل مكاننا المختبئين فيه بالضبط . لذلك ففي وقت متأخر من صباح يوم السنة الجديدة ، وكان يوماً بارداً كيوم صيف جيد في انجلترا ، وبعد ان تناولنا فطوراً فخماً بمركباتنا بهدوء فوق سهل حجري تقع رابية صغيرة تطل على الموقع ، خرجت أنا وجويس من المركبات وصعدنا الى قمتها للاستطلاع .

كان جويس يتولى مسؤولية الهجوم ، فلأول مرة أكون كمشاهد في عملية قتال . فهذا الشيء الجديد كان ممتعاً بالنسبة لي ، فقد بدت العربات المصفحة في عمليتها تبدو وكأنها في قتال فاخر ، اذا ان قواتنا التي كانت مغطاه بالفولاذ يمكن ان لا يصيبها أذى . ووفقاً لذلك فقد قمنا بعمل ميداني يومي كمثل افضل الجنرالات في جيش نظامي ، جالسين كمن نكون في مؤتمر مقتضب على قمة تلنا نشاهد سير المعركة من خلال مناظيرنا . وفتحت بطارية مدفعية تالبوت نيرانها من تحت نقطة تواجدنا مباشرة في حين اندفعت العربات المدرعة الثلاث حول جوانب الموقع التركي الترابي كمثل كلاب مسعورة . ورفع جنود العدو رؤوسهم من وراء الخنادق والاستحكامات ، وكان كل واحد منهم يتملكه الفضول وحب الاستطلاع لغاية ما أحاطت العربات المدرعة بمدافعهم الرشاشة من نوع فايكرز وبدأت برش الخنادق والاستحكامات ، وعندئذ ادرك الاتراك بأنه كان هجوماً حقيقياً ، فنزلوا خلف استحكاماتهم واخذوا يطلقون النار بعشوائية . وبعد برهة حولوا انتباههم نحو مدافع القائد برودي ورشقوا الارض حولها بالرصاص ، ولم يكونوا يبدون بوضوح من انهم كانوا ينوون الاستسلام ونحن ايضاً لم يكن لدينا بشكل واضح وسائل لنجبرهم على ذلك . لذلك فقد انسحبنا ، بعد ان ادركنا بأن طبيعة الارض لم تكن ملائمة لمناورات العربات المصفحة ، ومع ذلك

فقد تطلع الرجال للمزيد من القتال ، ولتلبية مزاجهم فقد ركبنا سياراتنا وسرنا باتجاه الجنوب لغاية ماوصلنا بمواجهة تل شهم . وهناك اختار برودي موقع لنصب مدفع يبعد الفي ياردة عن الموقع التركي ومن ثم بدأ بصب قذائفه على منطقة المحطة .

واسرع الجنود الاتراك الى حصنهم واستحكاماتهم في الخارج ، في حين كانت العربات المصفحة تقوم برش طلقاتها على ابواب ونوافذ المحطة . وكان لاجدوى من ذلك ، فنادينا على قواتنا ثانية للتوقف ورجعنا الى مكاننا الخفي بين التلال . وقد كان همنا تفكيرنا جميعاً بأن نصل الى خط السكة الحديد من خلال صعوبات متعددة لاجتياز السهول والتلال .

وعندما وصلنا للخط فقد كنا غير مستعدين تماماً للعمل ، مع عدم فهم عما يجب ان تكون عليه تكتيكاتنا واساليبنا ؛ ومع ذلك فاننا تعلمنا الكثير من هذا التردد .

فاليقين او الثقة تلك من تجربة ذلك اليوم في القويرة فقد استطعنا العمل على طول السكة الحديد ، مما عنى ذلك ان خط السير على الخط اصبح تحت رحمتنا . فجميع القوات التركية في الجزيرة العربية لا يمكنها ان تقاتل اية عربة مدرعة في منطقة مفتوحة . وبناء على ذلك فان وضع القوات التركية الموجودة في المدينة ، التي كانت في وضع سئ وقتذاك ، اصبح وضعها يائساً انذاك . فضباط الاركان الالمان يتقنوا من ذلك ، وقام فولكنهاين ، القائد الالماني ، بزيارة لمعان لحثهم على التخلي عن كل موقع تركي في الجنوب ، الا ان الاتراك كانوا يعتبرون المدينة (المنورة) كآخر ما تبقى لهم من السيادة في الاماكن المقدسة ، كادعائهم المتبقي للخلافة ، فهذه العاطفة جعلتهم يبتعدون عن اتخاذ قرار بهذا الصدد .

وكان الانجليز يبدون فضولهم المكثف حول المدينة . فهم كانوا يصرون على انه يجب ان يستولى عليها ، ويقدمون في سبيل ذلك الاموال والذخيرة من اجل القيام بعمليات مستمرة من قبل الاميرين عبد الله وعلي ، انطلاقاً من

قاعدتهم في ينبع . وعندما ابديت رأياً مناقضاً لذلك ، فقد اعتبروا وجهه نظري على انها تناقص مخادع . ووفقاً لذلك ولتبرير عدم نشاطنا في الشمال ، فقد كان علينا ان نظهر عجزاً ، مما يعطيهم (الاتراك) فكرة من ان العرب كانوا جبناء جداً ليقوموا بقطع او نسف الخط بالقرب من معان ويبقوه مقطوعاً . وهذا سبب لائم احساسهم وطمأنهم ، فبالنسبة للجنود فانهم مستعدون دوماً ليصدقوا ضعف العمل من قبل السكان الاصليين للبلاد ، ويأخذون ذلك على محمل الجد . لذلك فقد لعبنا على هذه الاشاعة ، التي كانت عبارة عن خدعة حربية محكمة ، بل انها الاسهل في هذا المجال . وقد عرف ضباط الاركان اكثر مني بكثير عن امور وفنون الحرب ، مما جعلهم يرفضون ان يتعلموا مني عن الاوضاع الغريبة التي سار عليها الجنود او المقاتلين الغير نظامين للعرب ؛ ولم يكن باستطاعتي ان ازعج نفسي بأن اقيم روضة للاطفال لتخيلاتهم وخيالاتهم من اجل منفعتهم ومصلحتهم .

(٨٣)

عند عودتنا للعقبة انشغلت بما تبقى من ايام اجازتي في الشؤون الداخلية . وقد كان انشغالي واهتمامي بمعظمه يتعلق بالحراس الشخصيين لي والذي شكلته من اجل حمايتي الخاصة ، حيث سرت شائعات تدريجياً عن مدى اهميتي لدى الاتراك ودوري الذي اقوم به . ففي اول رحلة وتجوال لي في المنطقة من رابغ وينبع ، فقد كان لدى الاتراك فضول واهتمام حولي ، وبعد ذلك اصبحوا متضايقين وغاضبين ، الى درجة انهم عزو للانجليز اتجاه وقوة حافز الثورة العربية ، اكثر مما اعتدنا من عزو القوة والفعالية للاتراك الى النفوذ والتأثير الالماني .

ومع ذلك ، فان الاتراك تابعوا اهتمامهم بي حتى انهم وضعوا جائزة مقدارها مائة جنيه من اجل القاء القبض على ضابط بريطاني حياً او ميتاً . ومع مرور الوقت فان اهتمامهم لم يزداد بي فحسب وانما قدموا عرضاً خاصاً من اجل القاء القبض علي . وبعد الاستيلاء على العقبة اصبح الحصول على رأسي ذو قيمة كبيرة ، في حين بعد ان نسفنا قطار جمال باشا فقد وضعوني انا والشريف علي على قائمتهم المطلوبة ، ووضعوا جائزة مقدارها عشرون الف جنيه للقبض علينا حيين وعشرة الاف ميتين . وبالطبع فان هذا العرض كان كلامياً دون ان يجرى التأكيد على قيمة الجائزة فيما اذا كانت ذهباً او بالعملة الورقية او أن المال سيدفع بشكل كامل ، ولكن ربما كان ذلك ليبرر بعض الاهتمام بشأني . وبدأت اوسع وأزيد من عدد رجالي مضيفاً اليهم عدداً من الخارجين على القانون

التـركي . كلمـا استطعت ان اجـد احـداً منهم ، وان اجعـل منهم اتبـاعـاً يؤدي اندفاعهم الى حدوث متاعب في اي مكان يصلون اليه . فقد احتجت الى فرسان اشـداء ، والى اشـخاص اشـداء ، إلى رجـال فخـورين بانفسـهم ، ليس لـديهم عـائلات . ومن حسن الحظ فـان ثلاثة او اربعة من هذا النوع انضـموا ألي في اول الأمر ، وكانوا ملائمين ومناسبين لهذا الغرض .

في عصـر احدى الايام ، وبينما كنت اقرأ في خيمـة مارشـال في العـقبة (كنت اقيم مع مارشال الطبيب الأسكتلندي ، كلما اكون متواجداً في المعسكر) ، عندما دخل علي رجل عقيلي ، هادئ ، نحيل ، اسـمر البشرة ، قصـير القـامة ، الا انه كان انيقاً جداً في ملبسه ، وكان يحمل على كتفه خرجاً من صنع الحسا لم أر مثله من قبل ، كـان منسوجاً ومزداناً بخيوط خضـراء وقرمزية وبيضـاء برتقالية وزرقاء ومزخرفاً من الوسط وحتى الاسفل .

وحياني ذلك الشاب باحترام ثم طرح الخرج على سجادتي قـائلاً ، "انه لك" ، واختفى فجأة بمثل الطريقة التي جاء فيها . وفي اليوم التـالي عـاد ومعه سرج جمل جميل ومزخرف مثل الخرج ، وعليه نقـوش يمنية قديمه . وفي اليوم الثـالث ظهـر ثانيـة وهو خـاوي اليـدين ، وكـان يرتدي ثوباً قطنيـاً هزيلاً وجلس امامي مكتوماً قـائلاً بانه يرغب في الانضـمام لخدمتي ، وكـان يبـدو غـريبـاً بدون ثيابه الحريرية الفخمة حيث بدا على وجهه اثار الجدري واضحة ، كـما ان وجـهه الذي كان اجرداً من الشعر يمكن ان يدل على انه في أية مرحلة من العـمر ، الا ان وزن وطبيعة جسده كان لهـما مظاهر الفتى متألقة ، وكـان شعره الطويل مـجدلاً بعناية الى ثلاث جدائل متألقة ومسترخيـة على خديه . وكـانت عيناه واهنتان وضيقتان على شكـل شق طولي ، وكـان فـمه شـهوانياً واسعاً يضـفي عليه مزاجاً طيباً وشبـه تعبير ساخر . وسألته عن اسمه ، فاجاب انه عبدالله ولقبه "النهابي" او السـارق ، وهـو اسم العـائلة ، وقـال انه ورثه عن ابيه المحـترم ، وان مغـامـراته الذاتية كـانت غير ذي جدوى ، وقد ولد في بريده وعاني عندما كـان صغيراً من السلطة الدينية هناك بسبب عدم تقواه ، وعندما اصبح نصف يافعاً شاء سوء حظه

في بيت أمرأة متزوجة على ان يترك بلدته الاصلية ويهاجر بسرعة ويعمل في خدمة ابن السعود، امير نجد . وادى سوء تصرفه خلال خدمته هناك الى جلده وحبسه، وبالتالي فقد هاجر الى الكويت، حيث اصبح مرة ثانية منخرطاً في امور غرامية ، والقى القبض عليه . وعند اخلاء سبيله انتقل الى حايل وانخرط ضمن اتباع الامير ابن رشيد ، ولسوء الحظ فانه كره الضابط الذي كان تحت قيادته هناك لدرجة انه ضربه بسوط الجمل امام الملأ ، وبعد ان سجن لفترة ، خرج من السجن، ووجد نفسه بدون أي صديق او معرفة احد .

وكان خط سكة حديد الحجاز يمد ويبنى في تلك الاثناء ، فانخرط للعمل فيه حيث انه ذهب للبحث عن الثروة ، الا ان المتعهد خفض من اجره بسبب نومه ساعة الظهيرة ، فطرد من العمل بسبب ضربه للمتعهد على رأسه . وتدخلت الحكومة التركية فوجد الحياة صعبة جداً في سجن المدينة ، ومع ذلك ، ومن خلال هروبه من نافذة السجن ، ذهب الى مكة ، وهناك اشتغل في نقل البريد بواسطة الجمل ما بين مكة وجدة واستقر بالعمل في هذه المهنة ، طارحاً جانباً تهور ولهو الشباب ، واحضر كل من ابيه وأمه ، وانشأ لهما دكاناً ليعملا فيه لحسابه ، وكان رأس ماله من العمولة التي كان يتقاضاها من التجار ، وبعد سنة من الازدهار كُمن له في الطريق مما افقده جمله ووديعته واستطاع ان يخرج من هذا الخراب ليصبح هجاناً في سلك هجانه الشريف . كما جعلته جدارته في هذا المضمار ضابطاً صغيراً ، الا انه جلب الانتباه كثيراً من جانبه بمقدرته في القتال بالخناجر وبكلامه الفاحش واللاذع ، مما ذاع صيته في انحاء مدن الجزيرة العربية ، وتشاجر مرة مع أحد رجال عتيبة وقام بطعنه في المجلس امام الشريف شرف ، مما اغضبه ذلك كثيراً ، فأمر شرف بتأديب ومعاقبة عبدالله بشكل قاس جداً حتى شارف على الموت . وعندما اظهر تحسناً كافياً في سلوكه واخلاقه سمح له بالخدمة عند الشريف شرف . وعندما اندلعت الحرب اصبح تحت امره ابن دخيل الذي كان منضماً لقوات الامير فيصل ، وازدادت سمعته ، الا ان التمرد الذي حصل في الوجه ادى بابن دخيل لأن يتحول الى سفير . وفقد عبدالله رفقته لابن دخيل الذي اعطاه بدوره رسالة مكتوبة موجهة لي ليدخل في خدمتي .

وجاء في الرسالة انه لمدة سنتين كان عبدالله مخلصاً ، الا انه غير محترم في سلوكه ومعاملاته ، وميال لاثارة المشاكل ، وانه كان من اعظم ابناء قبيلة عقيل خبرة ، وقد خدم في سلك كل امير في الجزيرة العربية ، وطرد من كل خدمة او عمل قام به ، بعد ان جلد وسجن لاعتدائة على شخصيتين كبيرتين . واضاف ابن دخيل في رسالته بأن النهابي (عبدالله) يجيد قيادة الجمال من الدرجة الاولى ، ويأتي بعده في هذا المضمار ، وكان شجاعاً الى درجة انه لايرى بعينيه مدى الخطر المحدق به . وفي الواقع ، فانه كان تابعاً كاملاً ، وقد استخدمه ابن دخيل بصورة مستمرة . وقمت باستخدامه لدي ، واسندت له مهمة فحص الذين كانوا يتقدمون لخدمتي ، ويعود الفضل له وللزعاقي ، القائد الآخر الذي كان يعمل لدي ، في تشكيل عصابة رائعة من الخبراء المحيطين بي . وكان الضباط البريطانيون يطلقون عليهم اسم السفاحون ، الا انهم كانوا سفاحين بناء على اوامري فقط ، وربما كان هذا خطأ في نظر الآخرين بانهم لا يمكنهم الاعتراف بسلطة سوى بسلطتي . ومع ذلك فعندما اكون بعيداً ، فانهم كانوا لطيفين مع الميجور مارشال ، وكانوا يحثونه على الادلاء بحديث غير مستوعب بالنسبة لهم عن الجمال وذريتها وامراضها ، ومن الفجر لغاية الليل ، وكان مارشال صبوراً جداً ، وكان اثنان او ثلاثة منهم يجلسون متنبهين الى جانبه منذ بداية اليوم ، لاستئناف تعليمه لهم .

وكان الجزء الجيد من رجالي هؤلاء (حوالي خمسين رجلاً من تسعين) هم من ابناء قبيلة عقيل ، ومن الذين اثبتوا جدارة في جيش الامير فيصل . وكانوا يتميزون بقيادتهم للجمال وبشجاعتهم الفائقة في ميادين القتال ، وكنت ادفع لكل واحد منهم ستة جنيهات في الشهر ، وهو اجر نموذجي بالنسبة لرجل وللجمل ، الا انني كنت ادعهم يستخدمون دوابي الخاصة ، لذلك فقد كان دخلهم جيداً مما جعل خدمتهم يحسدون عليها . وهذا جعل الرجال الطموحين في المعسكر تحت تصرفي . وبالنسبة لبرنامجي العملي ، فقد كنت آنذاك مشغولاً جداً ، كانت رحلاتي طويلة وصعبة ومفاجئة . والشخص العربي العادي ،

والذي كان الجمل يمثل نصف ثروته ، لم يكن بمقدوه ان يستهلكه في رحلاتي السريعة . غير ان مثل هذه الرحلات على الجمال كانت مؤلمة بالنسبة للرجال . وبناء علي ذلك فقد كان على ان اصطحب معي فرسان مختارين ، وعلى دوابي الخاصة . واشترينا باثمان غالية اسرع واقوى الجمال لامتلاكها واخترناها لتكون سريعة وقوية ، بغض النظر عما يمكن ان يحدث لها من شدة وانهاك تحت السروج ؛ ففي الحقيقة فقد كنا غالبا ما نختار الجمال الاكثر تحملاً للمشقة والسرعة والعدو . وكانت تغير او تُريح في مشفى الجمال التابع لنا عندما تصبح نحيلة ، وراكبوها ايضاً كانوا يعاملون بنفس الطريقة . وكان الزعاقي يتولى الاشراف على تحديد مسؤولية كل رجل عن دابته ووضعها ، وعلى ملائمة تسريجة لها .

كانوا اتباعي فخورين جداً في الانخراط بالخدمة في حرسي، والتي تطورت الى حرفة شبه متوهجه . وكانوا يرتدون ثياباً من كافة الالوان الا اللون الابيض ، لأنه كان لباسي المستمر اذ انهم ، بدو غير راغبين في التجرؤ علي . وفي خلال نصف ساعة كانوا يهيئون قافلة رحيل لمدة ستة اسابيع مع مقدار كمية الاغذية المحددة التي يمكن حملها على السروج ، وكانوا يستثينوا من ذلك جمال الامتعة المرافقة ، حيث اعتبروا ذلك شيء من الخزي والعار . وكان بامكانهم المسير ليلاً ونهاراً عند صدور أية اشارة مني ، ويجعلون من ذلك مصدر فخر لهم، ولا يذكرون أي تعب او ارهاق ، واذا ما احتج أي رجل جديد على تعب أو ارهاق أو لأي سبب آخر ، فان الآخرين يسكتونه او يقوموا بتغيير مجرى شكواه بشكل قاس . وكانوا يحاربون كالعفاريت ، عندما كنت اريد ذلك ، وفي احيان اخرى عندمًا لا اريد ذلك ، خصوصاً مع الاتراك او الغرباء . وكان آخر شيء يفكرون به هو ان يهاجم احدهم الآخر او يعتدى عليه . وقد كانوا يتوقعون جوائز أو هبات سخية او عقوبات شديدة وفقاً لما يقوموا به أو يؤدونه . وكانوا يتباهون بادائهم امام كل قطعات الجيش للمشاق والالام التي كانوا يتحملونها وايضاً للمكاسب التي يحققونها . وبهذا الوضع اللامعقول بكل درجة فقد ابقوا على ميلهم ورغبتهم بالقيام بأي جهد وخوض اية مخاطرة .

وقادهم كل من عبدالله والزعاقي ، وفقاً لسلطتي وبشكل محكم وشديد، وكل واحد منهم كان مخيراً في الانسحاب والخروج من الخدمة اذا مارغب بذلك . ومع ذلك فانه لم ينسحب منهم سوى رجل واحد ، اما الآخرون ، ومع انهم كانوا مراهقين مليئين بالحيوية الجسدية ، الاانهم شغفوا بهذه الحياة اللانظامية ، وبالاكل الجيد ، وبالتدريبات ، وبالغنى فبدوا ليبجلوا مخاطرهم، وليؤسروا بمعاناتهم . فالعبودية مثلها مثل أي تصرف آخر ، كانت معدلة بشكل عميق بالنسبة للافكار الشرقية ، وذلك باستحواذهم مع النقيض مابين الروح والجسد . فهؤلاء الفتيان حصلوا على السرور والبهجة من خلال التابعية ، وبواسطة تحقير الجسد ؛ ذلك لكي يقذفوا في راحة اعظم حريتهم في التساوي مع العقل ، وكانوا يفضلون تقريباً العبودية كشكل اغنى في التجربة اكثر منها في السلطة ، واقل التزاماً في الاهتمام والعناية اليومية .

وبالتالي فان العلاقة مابين السيد والتابع في الجزيرة العربية كانت في الحال اكثر حرية واكثر خضوعاً من أي مكان آخر جربته في أي مكان . فالخدم كانوا يخافون من سيف العدالة ومن سوط المنفذ لها ، وليس لأن الواحد يمكن ان يضع نهاية عشوائية لوجودهم ، ولكن لانهم كانوا عبارة عن رموز ووسائل كرست لها طاعتهم . فقد كان لديهم حب الذل وحرية الرضا ليستسلموا لاسيادهم حتى آخر خدمة ودرجة ونقطة من لحومهم ودمائهم ، لان ارواحهم كانت موازية ومتلائمة مع روحه ، ملتزمة بها طوعاً ، وفي مثل هذا التعهد للتحمل ، فانها تخزي الرجال اذا ماقصروا ، من جراء الضعف أو عدم كفاية الشجاعة في تلبية النداء . وكان الالم نشكل حلاً لهم ، وكمسهل ومزخرف تقريباً ؛ ليكون بالياً تماماً في حين يحبونه ويبقون عليه . وان الخوف ، وهو اقوى حافز للرجل الكسول يدمر ويسحق معنا ، حيث ان الحب لسبب ـ او بالنسبة للشخص ـ كان مثاراً وبارزاً . وبالنسبة لمثل هذا الهدف فان العقوبات تكون محسومة ، والولاء يصبح يقظاً وليس مطاعاً . ويسخر الرجال انفسهم له ، وفي امتلاكه فانه لم يكن لديهم مكاناً للفضيلة والرذيلة وانهم ربوها وغذوها بشكل سار عما كانوا عليه،

ومنحوها حياتهم ، واعظم من ذلك بكثير جعلوا حياتهم تابعة لها ؛ ولكونها في الكثير من الاوقات اصعب لتقدم من ان تتحمل التضحية .

ان عيوننا الصافية ، المثالية ، الهادئة بشكل عام ، بدت لتسموا على الشخصية ، والتي كانت من قبل ، اجرائنا العادي في العالم . فهل نقطة الغريزة هذه لقبولنا النهائي بسرور للامتصاص في بعض النماذج في حين ان الانفس المتضاربة والمتعارضة يمكن ان تجد هدفاً معقولاً ومحسوماً ؟ ومع ذلك فان هذا التجاوز والسمو كثيراً للفرد يصنع تماماً الشخص المثالي العابر . فالمبدأ يصبح نشاطاً والخاصية الاساسية والخارجية لاصغر ذرة في بنائنا ، والتي يمكن ان تحفز فقط بواسطة اضطراب العقل والنفس والجسد الى ما وراء حمل الهدف . لذلك فان دوماً مثالية المثل تتلاشى ، تاركة عابديها منهكين ؛ حاملة بزيف ما كان لديهم يوماً اومره ملاحقاً .

ومع ذلك ، ولبعض الوقت ، فان جماعتي كانوا مستحوذين ويلبون مطالبهم بشكل قاس، اضافة الى انهم كانوا اعداء دم فيما بينهم من نزعات قبلية، ولولا ان يدي كانت العليا عليهم لاصبح القتل يحدث كل يوم بينهم . فنزاعاتهم كانت تمنع بوجودي وامامي ، في حين ان تنافرهم وبغضهم لبعض منحني الضمانات والقيام بعمليات التجسس في اي مكان ذهبت اليه او ارسلت اليه مابين العقبة ودمشق ، وما بين بئر السبع وبغداد . وخلال خدمتي كافة فانه قتل ما يقارب ستين رجلاً منهم .

وبهذه العدالة الغريبة ، فان الاحداث دفعتني واجبرتني لأن اتعايش مع حرسي ، او رجالي ولاصبح قاسياً وسريعاً وفجائياً وطائشاً جداً . والغرابات ضدي كانت قاسية وشديدة ، واصبح المناخ سنن للحظ . فخلال فصل الشتاء القصير كنت متغلباً عليهم بسبب اعتيادي على الصقيع والثلج ، وفي فصل الصيف أو الحر فانهم كانوا يتغلبون علي . وفي مقدار التحمل كان هناك عدم توازن اقل . وقد تعلمت ان آكل كثيراً في وقت ما ؛ ومن ثم اظل يومان او ثلاثة او اربعة أيام بدون طعام ؛ وبعدذلك آكل بشكل شره . وجعلت من ذلك قاعدة

لتجنب القواعد في الاكل ؛ وبواسطة نهج واسلوب الاستثناءات فقد عودت نفسي بأن لا اتبع أية عادة بأية حال تماماً .

لذلك ، وبشكل اساسي فقد كنت فعالاً في الصحراء ، لا اشعر بالجوع ولا بالتخمة ، ولم اكن مخبولاً بالتفكير بالطعام . وفي المسير فقد كان باستطاتي ان اسير ظمأناً بين الآبار ومثلي كمثل العرب ، يمكنني ان اشرب بشكل كبير اليوم من اجل عطش الامس والغد . وبمثل الطريقة فان النوم ظل بالنسبة لي اعظم سعادة في العالم . فقد هيأت له متاعاً في سرج جملي المتمايل والمضطرب للمسير الليلي ، او انني لا اجده الليلة بعد قضاء ليلة متعبة دون الشعور بالتعب والارهاق . فمثل هذه الحريات جاءت من سنوات التحكم والسيطرة (فازدراء الاستخدام يمكن ان يكون درساً جيداً لرجولتنا) ، وقد لاموني بطريقة غريبة من اجل عملي ؛ ولكن بالطبع ، جاءوا بالنسبة لي بواسطة التدريب والمحاولة تقريباً ، وخارجاً عن الفقر والاختيار المختلط ، وليس بدون القيام بجهد ، كما هو بالنسبة للعرب . ومع ذلك ففي مجال التعويض عن ذلك فقد توقف حاجز طاقتي . فإراداتهم الاقل احكاماً تمايلت وذبلت امام اراداتي ، وبالمقابل فقد جعلونني ابدو قاسياً ونشطاً .

ومن صميم مصادر طاقاتي للارادة فانني لم أجروء على تحقيق امتحان دقيق . ومن اجل فهم الفكر والامر المتناقص ، والذي كان اساسياً في الاستسلام الذاتي العربي ، فان ذلك لم يساعدني تماماً . وقد حققت الاستسلام (وحققته الي حد بعيد) بواسطة الطريق المقابل تماماً ، ومن خلال فكرتي ، ذلك ان العاملين الذهني والجسدي كانا متلازمين في عامل واحد .

ان ممارسة الثورة قد قوت لدي موقف ومبدأ العدمية . فخلالها واثناءها ، كنا غالباً ما نجد الرجال يدفعون انفسهم أو يدفعون نحو مقدار ضخم وقاس من المحتمل ، ومع ذلك فانه لم يكن هناك ابداً جوهر او اساس للانهيار الجسدي . فالانهيار كان يبرز دوماً من الضعف الاخلاقي ويتغلغل في الجسد ، والذي بحد ذاته وبدون وجود عناصر خائنة في داخله ، لم يكن لديه قوة على الارادة .

فعندما كنا نسير فقد كنا غير مطيعين وغير واعين بأنفسنا او احساسنا ، وعندما تكون هناك فترة فاصلة فان هذه النشوة او المتعة تتلاشى ، ونرى اجسادنا تكتسي ببعض العداء وباحساس مزدري ، ذلك انها تصل الى هدفها وغرضها الاعلى ، ليست كمثل عربات او مركبات الروح او النفس ، ولكن عندما ، تتحلل ، فان عناصرها تقدم سماداً لحقل .

(٨٤)

نتيجة انعزالنا عن خط القتال ، في العقبة ، خلال هذا التوقف القصير ، فقد رأينا ارتداد الدرع ، وفساد حماسنا ، مما جعل الحالة المعنوية للقاعدة غير مرضية . وقد ابتهجنا عندما اصبحنا قادرين اخيراً على اللجوء الى التلال الندية والنظيفة الواقعة حول القويرة ، فالشتاء المبكر منحنا اياماً حارة ومشمسة ايضاً او اياماً درجات حرارتها فوق المعدل السنوي ، مع وجود السحب الضخمة حول رأس النجد الذي يبعد تسعة اميال ، حيث كان مولود يقوم بالمراقبة من خلال الضباب والمطر . وكانت الامسيات يلفها الصقيع تماماً ليضيف قيمة مبهجة لارتداء العباءة الكثيفة والتحلق حول النار .

انتظرنا في القويرة من اجل تلقي اخباراً لبدء عمليتنا ضد منطقة الطفيلة ، والتي كانت تحتوي على سلسلة من القرى مشرفة ومطلة على نهاية جنوب البحر الميت . وخططنا لنعالجها ا و نهاجمها من الغرب ، الجنوب ، والشرق في وقت واحد ؛ وكانت جهة الشرق مفتوحة بواسطة الهجوم على الجرف ، وهي اقرب محطة تتواجد على خط حديد الحجاز . وأسندت قيادة هذه العملية للشريف ناصر ، المحظوظ . كما سار معه كل نوري السعيد جعفر العسكري ، رئيس هيئة اركان القوات العربية ، وبعض الجنود النظامين ، ومدفع ، وبعض المدافع الرشاشة ، وكانوا يعملون من قطاع الجفر ، وبعد ثلاثة ايام كان الموقع في ايديهم ، وكالعادة فان الشريف ناصر ادار هجومه بكفاءة وبراعة . فموقع الجرف كان موقعاً قوياً يتكون من ثلاثة ابنية حجرية ويحيط بها استحكامات وخنادق

خارجية ، وخلف الموقع أو المحطة كانت توجد رابية منخفضة أقيمت عليها استحكامات وضع فيها الاتراك مدفعان رشاشان ومدفع جبلي ، وخلف ذلك يوجد تل عال ذو سفح حاد وهو آخر سلسلة التلال التي تفصل الجفر عن وادي (البير) . ويكمن ضعف الوضع الدفاعي في ذلك التل ، اذا ان عدد القوات التركية كان ضئيلاً حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بالتل او بالرابية الصغيرة او بالمحطة ذاتها وقمتها التي كانت تشرف على خط السكة الحديد ، وفي ليلة واحدة استطاع الشريف ناصر ان يحتل قمة التل برمته بغتة ومن ثم قام بقطع الخط الحديد فوق وتحت المحطة ، وبعد بضعة دقائق عندما بزغ الفجر قليلاً احضر نوري السعيد مدفع ميدانه حتى حافة قمة التل ، وبعد ثلاثة قذائف موفقة وباصابة مباشرة اسكت المدفع التركي الموجود اسفلاً تحت مد بصره .

وازداد اغتباط الشريف ناصر لذلك ، الا ان رجال بني صخر ركبوا مطياتهم عازمين على مهاجمة الموقع على الفور ، وادرك نوري السعيد بأن هذا العمل يعتبر جنوناً في حين كان لا يزال المدفع الرشاش التركي في مكانه جاهزاً للعمل من الاستحكامات المقامة هناك ، الا ان كلماته وصياحه لم تسمع او تصل الى مسامع الرجال ، وفتح كل ما لديه من نار ضد الموقع التركي واستطاع رجال بني صخر الالتفاف حول القمة الرئيسة والصعود فوق الرابية . وعندما رأى الجنود الاتراك الجمال تسرع اليهم فانهم تراجعوا وفروا مع بنادقهم الى المحطة ، وقد جرح في تلك المعركة عربيان كانت جروحهم بالغة .

واسرع نوري السعيد نزولاً الى الهضبة الصغيرة ، وكان المدفع التركي سليماً ، فاداره ووجهه الى مكتب التذاكر في المحطة ، وابتهج رجال بني صخر وهم يرون خشب واحجار المكتب وهي تتطاير ، وقفزوا ثانية على ظهور جمالهم وانقضوا على المحطة . عندها بدأ العدو يقوم بالاستسلام واستسلم مائتان من الاتراك بما فيهم سبعة ضباط ، ووقعوا في ايدينا .

واصبح الرجال مسيطرين وغانمين : فبالأضافة الى الاسلحة التي غنموها ، فقدغنموا ايضاً خمسة وعشرن بغلاً . وفي الجوار كانت هناك شاحنات اغذية

ومؤن لضباط المدينة ، وكانت هناك اشياء سمع رجال القبائل بها فقط واشياء لم يسمعوا بها مطلقاً . فقد كانوا سعداء للغاية بهذة الغنائم ، وحتى ان الجنود النظامين غير المحظوظين نالوا قسطاً من هذه الغنائم ، وكان بامكانهم مرة اخرى أن يستمتعوا باكل الزيتون وحلاوة السمسم والمشمش المجفف وغيرها من الفواكة او انتاج بلادهم من المخللات وغيرها ، السورية ، والتي اصبحت شبه منسية بالنسبة لهم . وكان لنوري السعيد مزاجاً آخراً ، فخلّص من الرجال اللحوم المعلبة وبعض المشروبات . وكانت هناك شاحنة مليئة تماماً بالتبغ . وبما ان الحويطات لم يكونوا يدخنون ، فقد قسمت ما بين رجال بني صخر والجنود النظاميون . وبفقد هذه الشاحنة ، فان حامية المدينة اصبحت تعاني نقصاً في التبغ ، واثرت محنتهم هذه بالأمير فيصل فيما بعد ، وهو مدخن شره ، حتى انه حمل بعض الجمال بعلب السجائر الرخيصة ودفعها الى تبوك مصحوبة بتحياته .

وبعد عملية الحصول على الغنائم ، قام المهندسون بوضع المتفجرات تحت مضختي مياه في اسفل البرج المائي ، وبين نقطتي الالواح الخشبية الخارجية ، كما قاموا بحرق الشاحنات المستولى عليها ونسفوا جسراً . وكالعادة بعد كل نصر فان كل واحد كان متخماً بحمولته وغير عابىء بالعمل من اجل الغير . وقام الرجال بالتعسكر خلف المحطة ، وعند منتصف الليل تقريباً كان هناك انذار عندما ورد صوت واضواء قطار من الجنوب ثم توقف ، وكان ذلك بشكل واضح لمعرفته بالأمر مسبقاً ، وما حدث من أمر المحطة . فارسل عودة كشافة للاستطلاع .

وقبل ان يعودوا جاء ضابط صف برتبة رقيب بمفرده الى معسكر الشريف ناصر كمتطوع في جيش الشريف حسين ، فقد ارسل من قبل الاتراك لاستطلاع احوال المحطة . وكانت قصته هي انه كان هناك في قطار الانقاذ ستون رجلاً فقط ومدفع جبلي ، وانه اذا ماعاد ومعه اخبار لينة من قبلنا ، فانه من الممكن استسلام من في القطار دون اطلاق نار . واستدعى الشريف ناصر عودة ، الذي دعا بدوره رجال الحويطات وذهبوا جميعاً بهدوء لينصبوا فخاً للقطار ؛ ولكنهم ما ان

وصلوا الى هناك حتى فتح رجالنا النار على عربات القطار . وخوفاً من ذلك فقد رجعت القاطرة بعربات القطار للخلف حتى وصل دون اذى الى معان . وكان هذا الشى المؤسف الوحيد الذي وقع في الجرف .

بعد هذه الغارة أو المعركة ساءت الاحوال الجوية مرة ثانية ، وتساقطت الثلوج لمدة ثلاثة ايام على التتابع . وقد أبقت قوات ناصر على الخيام من عدم الانهيار بصعوبة في الجفر . فهذا النجد المرتفع حول معان يقع على ارتفاع مابين ثلاثة الى خمسةالاف قدم عن سطح البحر ، وهو مفتوح لهبوب جميع الرياح من الشمال والشرق . وهي تهب من آسيا الوسطى ، او من جبال القفقاس ، وبشكل عنيف على الصحراء الكبرى وتجعل الشتاء قاسياِ جداً في درجاته نزولاً الى منطقة القدس وصحراء سيناء .

ويجد الانجليز المناطق التي تقع خارج بئر السبع والقدس باردة ، الا ان العرب يفرون الى هناك من اجل الحصول على الدفء . وبشكل لا يدعوا للسرور فان ادارة التموين البريطانية ادركت بصورة متأخرة جداً باننا كنا نحارب في منطقة جبال ألب صغيرة ، فهي لم تقدم لقواتنا الخيام الملائمة لهذه الاحوال الجوية ، ولا الملابس الصوفية الثقيلة ، ولا الاحذية العالية او الابواط المناسبة لذلك ، ولا الاغطية الكافية في عددها لتصرف للرجال الذين يتواجدون في الحاميات الجبلية ، فجنودها اذا لم يهجروا أو يموتوا ، فانهم كانوا يتواجدون بصورة بائسة مما يجمد الامل فيهم .

ووفقاً لخطتنا فان اخبار الجرف الجيدة دفعتنا لإن نرسل الرجال من البتراء وتحت قيادة الشريف عبد المعين في الحال ومن التلال الى الغابات صوب الشوبك ، وكان المسير غير مريح وشاق من خلال الضباب ، ذلك ان الرجال القرويين والتي كانت اقدامهم متجمدة من البرد وهم يرتدون جلود او فرو الاغنام يصعدون وينزلون الوديان الحادة الصعبة وجوانب التلال الخطرة . وقد انهك واباد الصقيع والجليد الدواب ، والعديد من الرجال ؛ ومع ذلك فان سكان المرتفعات هؤلاء والذين اعتادوا على البرد الشديد من خلال فصل الشتاء فانهم ثابروا في التقدم .

وسمع الاتراك عنهم وهن يتقدمون ويقتربون ببطء ، ففروا من الكهوف والملاجيء بين الاشجار نحو نقطة نهاية الخط الحديدي وهم يسرعون بفزع ومعهم امتعتهم ومعداتهم . فمنطقة نهاية الخط الحديدي في الغابات وبمظلاته المؤقتة كان مسيطراً عليه من خلال ارتفاعين اوتلتين منخفضتين بواسطة نيران المدافع العربية ، وكان ذلك افضل كمين لهم . فقام رجال القبائل من مكمنهم بالانقضاض على العدو وقطعوه ارباً ، واستطاعت سرية منهم بقيادة ضابط الباني من الفرار الى الخط الرئيس للسكة الحديد ، بيد ان الرجال العرب قتلوا أو اسروا الآخرين ، واستولوا ايضاً على الاغذية والمؤن في الشوبك ، واستولوا على قلعة الشوبك التي ترتفع عالياً على جبل ذو صخور كلسية مخروطي الشكل فوق واد متعرج . وجعلها الشريف عبد المعين مقراً لقيادته ، وارسل بذلك للشريف ناصر ، كما أخبر مستور بذلك ايضاً . فتوجه بفرسانه من اعماق الجزيرة العربية الدافئة وتسلق معهم الممر الذي يقع في ناحية الشرق صوب الطفيلة .

ومع ذلك فان المنفعة كانت في صف الشريف ناصر ، الذي انعطف في احدى الايام من الجفر وبعد ليلة عاصفة ظهر عند الفجر على الحافة الصخرية للوهد أو الوادي الضيق والذي تختفي الطفيلة بين جنباته ، ومن ثم دعاها للاستسلام تحت قصف مدفعيته . وبعد ذلك عاد نوري السعيد ادراجه مع مدفعيته الى القويرة . وكان هناك في البلدة (الطفيلة) مائة وثمانين تركياً بيد انه كان لهم مؤيدون من احدى العشائر هناك . لذلك فقد قاوموا الشريف ناصر مقاومة عنيدة ، وقام رجال الحويطات بالانتشار على طول الصخور الجرفية ليردوا على اطلاق النار ، ولم يعجب هذا الاسلوب عودة ابو تايه ، الاسد القديم ، والذي زمجر غضباً من مقاومة اهالي البلدة وجرأتهم على تحدي عشيرة ابو تايه . لذلك فقد امتطى جواده ونزل الى الممر ، ثم سار في السهل ليصل الى البلدة ، وهناك نزل عن جواده وتصافح معهم مزهواً بصوت عجيب : "ايها الكلاب ، الا تعرفون عودة؟ " وعندما ادركوا انه كان هو بالذات ابن المعارك

والحروب الذي لايضاهى ، خشوا من ذلك وتوقفوا عن القتال ، وما هي إلا ساعة حتى كان الشريف ناصر في بيت ضيافة البلدة يحتسي الشاي مع مضيفه الحاكم التركي محاولاً ان يعزيه بتغير الخط المفاجئ .

وعند حلول الظلام وصل الشريف مستور الى البلدة ، وكان رجاله من عشيرة المطالقة على عداء دم مع عشيرة ابو تايه ، وهم يرونهم يحتلون ويسترخون في افضل البيوت ، فقام الشريفان (ناصر ومستور) بتوزيع المكان بينهم وليبقوا اتباعهم العنيدين منفصلين عن بعض ، ولم تكن لديهما سوى سلطة ضئيلة للتوسط بينهم ، حيث ان الشريف ناصر كان زعيماً اسمياً تقريباً لرجال ابو تايه ، في حين كان الشريف مستور مع رجال الجازي .

وعندما جاء الصباح كان الخصمان يتشاحنان ، ومر النهار بشكل مزعج حيث انه الى جانب مشاحنات اعداء الدم اولئك ، فان عشيرة المحيسن كانت تقاتل من اجل السلطة على القرويين ، وتطورت هناك تعقيدات اخرى انقسمت الى عنصرين غريبين : الاول حول مستعمرة او محمية السنوسيين ، والذين قدموا من شمال افريقا (ليبيا) ، وتسللوا بواسطة الاتراك ليستولوا على ارض غنية وخصبة . والعنصر الثاني ، كان يكمن في الحي الكئيب والنشيط لالاف الارمن الناجين من المجازر والابعاد ات سيئة الذكر من قبل حزب تركيا الفتاة (الاتحاديين) عام ١٩١٥ .

لذلك فقد وقع سكان الطفيلة في خوف من المستقبل . وكنا كالعادة لدينا نقصاً في الطعام والمواصلات والنقل ، وكان لدى السكان قمحاً يخزنونه في صنادقيهم ، الا انهم اخفوه . كما كان لديهم مطايا ودواب للركوب ، الا انهم ابعدوها الى جهة نائية من اجل ان تسلم منا .

انتدب الامير فيصل اخيه الامير زيد لقيادة الحملة باتجاه البحر الميت . وكان مكتب قيادة زيد في الشمال ويعاونه كمستشار جعفر باشا ، جنرالنا . وكانت قواته المؤلفة من المدفعين والمشاة ، لديها نقص في الاغذية في البتراء ، الا ان زيد نفسه وجعفر وقواته ساروا صوب الطفيلة .

وكانت الامور على وشك الانفجار . فقد تأثر عودة واستبد به الغضب من وجود ابناء عشيرة المطالقة متعب وعناد ، وكانا من ابناء عبطان الذي قتله ابن عودة . وبدأ يتحدثان عن الانتقام ويهددان ، فاعلن عودة بانه سيجلدهما في ساحة السوق اذا ما استمر بتهديدهما ، وكان هذا جيداً ، الا ان اتباعهما كانوا كثرة ويفوقون رجال عودة مما يجعل البلدة تحت وطأة الانفجار . وذهب الفتيان ومعهم رحايل ، فتاي المتعب ، يجوبون شوارع البلدة وهم يتباهون .

وقام الامير زيد بشكر عودة ودفع له المال ، وارسله عائداً الى الصحراء . وتحسن الوضع وذهب رؤساء عشيرة المحيسن ليقدموا ولائهم للامير فيصل . اما خصومهم الآخرين من عشيرة ذياب ، فقد اصبحوا اصدقائنا في البلدة . وقمنا بتعيين حاكم عسكري لها ، وتنظيم القرى الخمسة التابعة لها من اجل هجومنا المقبل .

(٨٥)

ان هذه الخطط سارت بلا هدف بسرعة . وقبل ان يوافق عليها فقد دهشنا بمحاولة مفاجئة للاتراك على اخراجنا ، فلم نحلم ابداً أو نتصور هذا ، حيث انه بدا من المستحيل بأن يكون لدى الاتراك أي أمل للحفاظ على الطفيلة . او انهم يريدون استردادها . وكان اللنبي سيطر على القدس ، وبالنسبة للاتراك فان مسألة الحرب يمكن ان تعتمد على نجاحهم في الدفاع عن الاردن . ومالم تسقط اريحا ، او لغاية ماتسقط ، فان الطفيلة كانت عبارة عن قرية مغمورة وغير مثيرة للاهتمام ، ولانحن ايضاً كان لدينا اهتماماً كبيراً للسيطرة عليها بشكل دائم ، فقد كان هدفنا بأن نمنع العدو من السيطرة عليها . وبالنسبة للرجال فانه كان مما يدعو للقلق ان يوضعوا في موقف لأن يتكبدوا خسارة واحدة في حال تصميم الاتراك على اعادة السيطرة على الطفيلة بشكل احمق .

الا ان حميد فخري باشا ، قائد الفرقة الثامنة والاربعون وقطاع عمان ، فكر بطريقة مختلفة ، او انه اصدر اوامره ، فقام بجمع حوالي تسعمائة من المشاة ، وهو ما يعادل ثلاثة كتائب (ففي عام ١٩١٨ كانت الكتيبة التركية هزيلة العدد) ، ومعهم ثلاثمائة من الفرسان ، ومدفعي هاوتزر ، وسبعة وعشرون مدفع رشاش ، وارسلهم بالقطار وبطريق البر الى الكرك . وهناك قام بتعبئة كافة وسائل النقل المحلية ، وسحب جهاز كامل من الموظفين المدنيين ليشكلوا ادارته الجديدة في الطفيلة ، وسار باتجاه الجنوب لمفاجئتنا .

وفاجئنا بالفعل ، وسمعنا بهجومه لأول مرة عندما انقض فرسانه على

مفارزنا في وادي الحسا ، وهو واد ضخم وواسع وعميق ووعر ويمكن بواسطته عزل الكرك عن الطفيلة ، وموآب عن ايدوم . ومع حلول المساء فقد استطاع ان يقهر مفارزنا ويدفعها للخلف ، واصبح مشرفاً علينا . واقام جعفر باشا ، قائدنا العسكري موقعاً دفاعياً على الضفة الجنوبية للوهد الضخم (واد ضيق شديد الانحدار) للطفيلة ؛ مفترضاً انه اذا قام الاتراك بالهجوم فانه سيترك لهم الطفيلة ، ويقوم بالدفاع عن المرتفعات التي تشرف عليها وتطوقها والتي تقع الى الخلف. وبدت لي هذه الخطة غير مؤثرة ، فالسفوح كانت مجهدة بالنسبة لنا ، والدفاع عنها صعب مثل الهجوم عليها ، ومن الممكن ان يأتي العدو من جهة الشرق ؛ وبتخلينا عن القرية فاننا نكون قد قذفنا السكان المحليين بايدي الاعداء ، الذين سيصبحون تحت رحمتهم .

ومع ذلك فقد كانت فكرة مسيطرة ـ وكانت تشكل كل مالدى زيد ـ ولذلك اصدر اوامره عند منتصف النهار ، وقام الخدم والاتباع بتحميل الاشياء والامتعة. وقام المقاتلون بالتحرك صوب القمة الجنوبية ، في حين ارسلت قافلة من الامتعة بواسطة الطريق المنخفض من اجل الحفاظ على سلامتها . وادى هذا التحرك الى احداث ذعر في البلدة ، وظن الاهالي باننا كنا نفر ونهرب (واعتقد باننا كنا كذلك)، واسرعوا لانقاذ حياتهم وممتلكاتهم . وكان الموقف صعباً للغاية والجو متوتراً وقلقاً ، وعند حلول الليل كانت الفوضى والصراخ تعم الشوارع الضيقة للبلدة بشكل مفزع . وابلغنا الشيخ ذياب قصصاً عن الاستياء والسخط الذي يعم اهالي البلدة ، الا انه كان لدي انطباعاً بانهم كانوا اتباعاً شجعان يمكن الاستفادة منهم . ولاثبات ذلك ؛ فقد جلست على سطح بيتي لارى واشاهد الناس ، ومن ثم تجولت في الظلام وانا اجوب في الازقة الضيقة وحولي رجالي ليكونوا رهن اشارتي ، وبذلك فقد سمعنا ما كان يجري . فقد كان الناس يتملكهم خوف شديد خطير تقريباً ، يعتدون على كل واحد وكل شيء ، الا انه لم يكن هنالك شيء يدل على الولاء للاتراك ، حيث انهم كانوا مذعورين من عودة الاتراك مستعدين ليفعلوا أي شيء بكل طاقتهم الجسدية وليساندوا ضد

الاتراك أي قائد او زعيم يدعو لقتالهم . وكان هذا الوضع مرضياً حيث ان ذلك توافق مع توقي الشديد للوقوف حيث كنا والقتال بصلابة .

واخيراً قابلت الشيخان الشابان لقبيلة الجازي ، متعب وعناد ، اللذان يمتازان بمهاراتهما وشجاعتهما في القتال ، وارسلتهما للبحث عن عمهما الشيخ حمد العرار . وعندما حضر طلبت منه ان يمتطي جواده ويذهب خارجاً للشمال صوب الوادي الضيق ، ليبلغ الفلاحين ، الذين من خلال الضجيج كانوا لايزالون يقاتلون الاتراك ، باننا في طريقنا اليهم لمساعدتهم في القتال . وذهب حمد ، الفارس الكئيب الودود والشهم على الفور ومعه اثنا عشر فارساً من اقاربه ، وهذا كل ما استطاع جمعه في تلك اللحظة الحرجة .

كانت سرعتهم في الذهاب من خلال الشوارع اضافت آخر لمسة متطلبة لاتمام عنصر الرعب في البلدة . فقامت النساء بقذف الامتعة والاغراض من الابواب والنوافذ ، مع انه لم يكن هناك رجال لتلقفها والذهاب بها . وكان الاطفال يرتعدون من الخوف ويصرخون في حين كانت امهاتهم يصرخن بأية حال . وكان رجال عشيرة المطالقة يقومون باطلاق العيارات النارية في الهواء ليشجعوا انفسهم ، في حين اصبحت ومضات طلقات رصاص بنادق العدو مرئية ، معلنة عن اقترابه عبر الجروف والصخور الشمالية في تلك الليلة الاخيرة قبل حلول الفجر . ومشيت صاعداً الى اعلى بمواجهة المرتفعات لاستشارة الشريف زيد .

كان زيد يقف على الصخرة بارتباك ، وهو يجول بمنظاره الميداني حول المنطقة من اجل استطلاع العدو . وكلما تفاقمت الازمة كان زيد يصبح منعزلاً ولامبالياً . اما انا فقد كنت استعر غضباً فلن يعود الاتراك مهما كلف الامر ، مرة ثانية الى الطفيلة بأية حال . انه كان جشع بسيط كموقف كلب في مذوده غير مبال بعدو خطير ، تماماً كنفس نمط شيء يائس يقوم به الترك ، فكيف يمكنهم ان يتوقعوا حرباً حقيقية عندما لا يمنحونا فرصة لاحترامهم ؟ ومعنوياتنا كانت تتحطم باستمرار بسبب حماقاتهم ، حيث انه لا يمكن لرجالنا ان يحترموا

شجاعتهم ، ولا ايضاً ضباطنا يحترمون عقولهم وافكارهم . وكان هناك ايضاً صباحاً جليدياً ، وكنت طيلة الليل متأهباً ومستعداً تماماً لاقرر بانهم سيدفعون الثمن غالياً بتغيير تفكيري وخطتي . فلا بد انهم قليلون جداً في عددهم ، وهذا مابدا من خَلال سرعتهم في التقدم . وكانت لدينا كل عناصر النجاح ، فالوقت، وتضاريس المنطقة ، والعدد ، والطقس ، كانت جميعها الى جانبنا ، وبامكاننا ان نهزمهم هزيمة منكرة وبسهولة ؛ الا انه وبغضب شديد فان ذلك لم يكن كافياً. فسنلقنهم درساً لن ينسوه ، وننازلهم في معركة استحقوها وارادوها ؛ وسنقتلهم جميعاً . وكان علينا ان نغير من خطتنا الدفاعية ، خاصة وان الشريف زيد اصبح وقتذاك مقتنعاً بعدم ملائمة خطتنا الدفاعية ، وكان مستعداً للاستماع لصوت «الشيطان» بهذا الصدد .

اقترحت عليه اولاً ان يتحرك عبد الله قدماً ومعه مدافع هاوتشكيس ليقوموا باختبار مدى قوة العدو ودفعه من مواقعه ، ومن ثم نتحدث عما يأتي بعد. وكان هذا مفيداً جداً حيث ان الشريف زيد كان مقاتلاً هادئاً وشهماً ، ومقاتلاً محترفاً ، مع انه كان صغير السن . ورأينا عبد الله وهو يتسلق الضفة الاخرى ، واصبح اطلاق النار مكثفاً لفترة من الوقت ، ومن ثم تلاشى الى مدى بعيد . فقد حفز ذهابه فرسان عشيرة المطالقة والقرويون الذين اطبقوا على الفرسان الاتراك ودفعوهم الى اعلى اول مرتفع عبر سهل عرضه ميلين ، وعلى مرتفع آخر يقع خلفه ، الى اسفل اول خطوة من منخفض الحسا الضخم . وكان يكمن خلفه الجزء الرئيس من القوات التركية ، الذين كانوا يتقدمون للتو على الطريق مرة ثانية بعد ليلة شديدة جمدتهم في مواقعهم ، وباشروا بالعمل تماماً ، فرد عليهم عبد الله في الحال . وسمعنا نيران المدفع الرشاش وهو يهدر ويزداد هديره بصليات متتابعة من الرصاص ، فابقينا آذاننا ناصتة بما كان يحدث كما لو اننا كنا نرى ذلك . وكانت الاخبار المتواردة ممتازة فأردت من الشريف زيد أن يتقدم للامام فوراً على ذلك الاتجاه ، الا انه كان حذراً لأن يتخذ تلك الخطوة واصر لأن ننتظر ورود اشارة من القائد المتقدم عبد الله . ولم يكن هذا ضرورياً

وقد عرفوا بانني كنت جندياً صورياً زائفاً ، واخذت تصريحاً لاتردد حول نصيحتي عندما تأتي على نحو نهائي . ومع ذلك فقد اخذت زمام المبادرة وذهبت بنفسي الى الجبهة لاستطلع قرارهم . واثناء طريقي رأيت رجالي وهم يقلبون الامتعة والاشياء التي وضعت من اجل اخلائها في الشوارع ويجدون لانفسهم اشياء تفيدهم فطلبت منهم بأن يهيئوا الجمال ويحضرون مدافعهم الرشاشة الى الضفة الشمالية للوادي الضيق وبسرعة .

كان الطريق ينحدر الى بستان من اشجار التين ، اغصانها طويلة ونحيلة زرقاء اللون ، ونحيلة ، كما لوانها قد طالت بعد ان كانت يافعة خضراء . ومن ثم تحولت الطريق الى جهة الشرق ، الى طريق متعرج يقع في الوادي ولغاية القمة . وتركته لاتسلق الى اعلى مباشرة نحو الجروف الصخرية . وميزة الذهاب حافي القدمين كان امراً جديداً وثبات خارق فوق الصخور ، عندما يصبح الالم في باطن القدمين شديداً ،او عندما يكون التجمد شديداً ويشعر المرء بتشققها وكشطها . وقد اشعرتني هذه الطريقة الجديدة بالدفء ، كما انها اختصرت من وقتي ، وسرعان ما بلغت القمة . فوجدت هناك قطعةمنبسطة من الارض ،ومن ثم بلغت آخر قمة تشرف على النجد او السهل المرتفع .

بدت هذه الضفة المنبسطة الاخيرة ، وما شملته من آثار بيزنطية قديمة ، ملائمة تماماً لاقامة خط دفاعي احتياطي من اجل الدفاع عن الطفيلة . وليكون مؤكداً ، فانه لم يكن لدينا خط دفاعي احتياطي بعد. فلا احد كان لديه ادنى فكرة عن ذلك . في تلك اللحظة اصبح رجال اوحرس الشريف زيد مرئيين بالنسبة لي وهم يختبئون بخجل في حفرة أو فجوة . ولجعلهم يتحركون قدماً ، فقد تطلب ذلك حثهم وتشجيعهم ، ولكن وصلت اليهم اخيراً وهم يجلسون على طول قمة عالية جداً . كانوا حوالي عشرين رجلاً ، ويبدو منظرهم جميلاً كمثل " قوات" لجيش معتبر . واصدرت لهم اوامري بأن يجمعوا هناك كل قادم جديد اليهم من الرجال ، وخصوصاً رجالي ومعهم مدافعهم الرشاشة .

وما ان تحركت باتجاه الشمال حيث كان ينشب القتال هناك حتى قابلني

الشريف عبدالله وهو في طريقه الى الشريف زيد ، فقد نفذت ذخيرته وفقد خمسة رجال من جراء القصف المدفعي التركي ودمر له مدفع رشاش . وكان يعتقد بأنه كان لدى القوات التركية مدفعان ، وكان رأيه هو ان يأتي الشريف زيد بكافة رجاله ويحاربوا معه ؛ لذلك فانه لم يكن لدى أي شئ لاضيفه لرسالته ، ولم تكن هناك سعادة اكثر بالنسبة لي من اذهب بنفسي لابلغ ذلك من اجل اتخاذ القرار بالتحرك .

لقد اتاح لي فرصة ووقتاً لدراسة المعركة القادمة . فالسهل الضئيل كانت مساحته حوالي ميلين مربعين ، محاطاً بمرتفعات منخفضة خضراء ، وعلى شكل مثلث تقريباً بما فيه المرتفع الاحتياطي كقاعدة . ويتخلله الطريق المؤدي الى الكرك، منخفضاً نحو وادي الحسا . وكانت القوات التركية تقاتل من اجل شق طريقها نحو اعلى هذا الطريق . وكانت مهمة الشريف عبدالله الاستيلاء على القمة الغربية أو القمة الواقعة على اليسار والتي كان يدور فيها القتال آنذاك .

كانت القذائف تتساقط على السهل وانا اسرع عبره ، وقدماي تنزفان دماءً من جراء الجروح فيهما . وكان مدفع العدو بعيد المدى ، بحيث يقوم بصب قذائفه على القمة وما خلفها . وسقطت قذيفة بالقرب مني فادركت بأنه من نوع كالبير وذلك من خلال عبوته الفارغة الساخنة . وما ان ذهبت حتى بدأوا بتقصير مدى المدفع ، فبشكل واضح ، فان القوات التركية كان لديها بعض عناصر المراقبة والاستطلاع ، فعندما نظرت حولي رأيتهم يتسلقون على طول الجهة الشرقية التي تقع خلف فجوة طريق الكرك ، فسرعان ما سيكتشفوننا عند القمة الغربية .

(٨٦)

كان عددنا حوالي ستين رجلاً ، متحلقين خلف القمة في مجموعتين ، واحدة بالقرب من قاعدة المرتفع ، والاخرى بالقرب من القمة . وكان الرجال في الموقع الاسفل يتألفون من الفلاحين ، ويسيرون على الاقدام ، وكانت حالتهم مرهقة وبائسة وقالوا بأن ذخيرتهم قد نفذت وان كل شئ كان منتهياً ، وأكدت لهم بأنها كانت البداية فحسب واشرت لهم الى مكان وجود الاسلحة والذخيرة الاحتياطية قائلاً بأن كافة الاسلحة هناك تحت تصرفهم ، وقلت لهم بان يسرعوا لهناك ويملأوا احزمتهم من الذخيرة ويحملون ما امكنهم منها ، وفي غصون ذلك فسنفضي تراجعهم من موقعنا لعدة دقائق ما امكن .

فانطلقوا مبتهجين ، وتحركت انا حول رجالي في اعلى القمة ، قائلاً لهم كيف انه لا يجب على الواحد ان ينقل نيرانه من موقع لآخر لغاية ما يكون مستعد لاطلاق النار من الموقع الآخر . وكان متعب يقود الرجال وهو متأهب ويقوم بجهد كبير . وكان وصولي في اللحظة الاخيرة عندما كانت القوات التركية تقوم بالاختراق والتقدم ، واصبح متعب غاضباً اكثر عندما قلت بأنني اردت فقط ان استطلع واتفحص طبيعة الارض . واعتقد بأنها كانت زلة لسان ، وصرخ بشئ حول مسيحي يذهب الى المعركة اعزلاً . وكان الاتراك يعرفون باننا كنا هناك فحولوا نحونا حوالي عشرين مدفعاً رشاشاً ، وكان مدى نيرانها خمسون قدماً وارتفاعه اربعة اقدام . وكان من الواضح بانه ينبغي علينا ان نغادر سريعاً ، وبما انه لم يكن لدي حصاناً فقد ذهبت اولاً ، مع وعد من متعب بأنه سينتظر حيث كان متواجد ما امكنه ، لعشرة دقائق اخرى ، ليشكل جماية لي .

وشعرت بالدفء من جراء السرعة ، وكنت اقوم بعد خطواتي لاقوم بتحديد مدى نيران الاتراك عندما يطردوننا من موقعنا ، حيث انه لم يكن متبقى سوى موقع واحد لهم ، وكان من الصعب الدفاع عنه وحمايته من الجنوب . وبخسارة لقمة الجبل الذي كان عليه رجال عشيرة المطالقة فقد اصبح من المشكوك فيه ان نكسب المعركة . وتحرك الفرسان خلال عشرة دقائق تقريباً ، ونزلوا اسفلاً دون ان يصيبهم أذى ، وأعارني متعب مطيته لاسرع بها لغاية ماوجدنا انفسنا منهمكين ولاهثين بين رجال عقيل . وكان الوقت اصبح ظهراً ، فتمهلنا وجلسنا لنفكر بهدوء .

كان ارتفاع جبلنا الجديد حوالي اربعين قدماً ، وشكله ملائم للدفاع منه . وكان لدينا عليه ثمانون رجلاً وسيأتي المزيد منهم بشكل متتابع . وتمركز رجالي في موقعهم ومعهم مدفعهم ؛ واندفع لطفي ، العامل على المدفع الرشاش ، الى الاعلى بحرارة ومعه طاقمه ، وحضر بعده مائة رجل آخرين من رجال قبيلة عقيل . واصبح الوضع أو الأمر كنزهة . وبقولنا لهم " ممتاز " وباظهارنا لانفسنا سعداء جداً ، فقد ادهشنا الرجال ، وجعلناهم يعتبرون الموقع بشكل هاديء ووضعت الاسلحة الاتوماتيكية والمدافع الرشاشة في اعلى مكان ، واصدرنا لطواقمها اوامر بأن يقوموا باطلاق النار على دفعات ، وبشكل قصير ، لارباك القوات التركية قليلاً ولكن ليس بشكل كثيف ، وذلك لتأخير عملية انتشار العدو . وبعد ذلك ساد هدوء يسوده الخطر ، واستلقيت في مكان مظلل وواقي ، تتخلله بعض اشعة الشمس ولا يأتيه الهواء ونمت لمدة ساعة ، في حين كان الاتراك يحتلون الجبل أو القمة القديمة التي كنا نتواجد فيها ، وينتشرون عليه وحوله كمثل قطعان الاوز . وتركهم رجالنا يفعلون مايشاؤون .

وصل الشريف زيد عند منتصف النهار ، كما وصل معه الشريف مستور وراسم وعبدالله ، وكان معهم الجزء الرئيس من قواتنا الذين يتألفون من عشرين رجل مشاة ممتطين البغال وثلاثون رجلاً من عشيرة المطالقة ومائتان من القرويين ومعهم خمسة بنادق اوتوماتيكية ، واربعة مدافع رشاشة ومدفع جبلي يستخدم من قبل القوات المصرية ، والذي استخدم في القتال الذي نشب حول المدينة

والبتراء والجرف . كان كل ذلك يشكل قوات جيدة وكافية ، وصحوت من نومي لأرحب بهم .

ورأنا الاتراك ونحن نحتشد ، ففتحوا النار علينا من مدافعهم الرشاشة ، الا ان مداها لم يكن ليصل الينا بسبب بعدنا عنها . وذكرنا بعضنا البعض بأن التحرك يعتبر قانون الاستراتيجة ، لذلك بدأنا بالتحرك واصبح راسم قائداً للفرسان ، وسار ومعه جميع قواتنا المحمولة على مختلف الدواب ، وكان عددهم ثمانون رجلاً ليقوم بعملية التفاف حول المرتفع او الجبل الشرقي ، ويطوقوا الجناح الايسر للعدو ، حيث ان الخطط الحربية لا تنصح بالهجوم على خط العدو مباشرة، ولكن بالهجوم من نقطة معينة . وسر راسم بهذه الخطة والتي كانت تناسب هدفه ، ووعد وهو يبتسم ابتسامة عريضة بانه سيحضر لنا آخر رجل تركي ، الا ان حمد العرار أخذ تلك المناسبة بشكل ملائم اكثر ، فقبل ان نمتطي دوابنا لنذهب ، فقد كرس وسخر نفسه كلية حتى الموت من اجل القضية العربية وسحب سيفه بطريقة استعراضية ، وقام بالقاء خطبة بطولية، في حين أخذ راسم معه خمسه مدافع اوتوماتيكية وهذا كان شيئاً جيداً .

وقمنا نحن في موقعنا في الوسط بعملية استعراض للقوات ، ذلك حتى يمكن ان لا يرى مغادرتهم للموقع من قبل العدو ، الذي كان يقوم باطلاق النيران اللامتناهية علينا من مدافعه الرشاشة ونرد عليهم بصليات متقطعة من جناحنا الايسر .

انها كانت تكتيكات طائشة ، فالمنحدر او السفح كان من صخور الصوان ، ودون ان يكون هناك غطاء اثناء الزحف والنزول للاسفل . فقد كنا نرى كيف ان الرصاص عندما كان يرتطم بالصخر ، كان ينشر رذاذاً وشظايا مميته ، كما كنا نعرف ايضاً مدى اطلاق النار ، حيث رفعنا مدافعنا الفِايكرز بعناية ، ونحن نبارك طولها ومظاهرها القديمة ، ونصب المدفع الجبلي واصبح جاهزاً لأن يصب حممه المفاجئة على العدو ، عندما يصبح راسم عند مرمى نيران العدو ، لنقوم بتغطيته .

وفيما نحن ننتظر اعلن عن وصول تعزيزات الينا تتألف من مائة رجل من

عشيرة "العيمة" ، حيث انهم كانوا اتفقوا مع الشريف زيد بالامس . وعزز وصولهم من وضعنا ، لنقرر خطة بالهجوم ، وبأي ثمن من ثلاثة اتجاهات في الحال . لذلك فقد ارسلنا رجال العيمة ومعهم ثلاثة مدافع رشاشة للالتفاف حول جيش العدو من جهة اليمين او من الجناح الغربي ، ومن ثم نفتح النار على الاتراك من موقعنا الاوسط ونربك خطوطهم المكشوفة .

وشعر العدو بأن ذلك اليوم لن يكون محبباً لهم ، وجاء المساء الذي غالباً ما يمنح المدافعين نصيراً مؤزراً . فالجنرال العجوز حميد فخري جمع اركان حربه وقـواده ، وقـال لكل رجل منهم بأن يحمل السلاح . . . . الا ان الوقت كـان متأخراً جداً ، فقد اندفع راسم قدماً بهجوم من مدافعه الاوتوماتيكية الخمسة ، ومضوا يقتحمون بشكل مضطرد ، لغاية ما استطاعوا ان يهزموا او يخترقوا ميسرة القوات التركية . وكان رجال العيمة ، الذين يعرفون المنطقة جيداً اصبحوا على بعد ثلاثمائة ياردة من مدى المدافع الرشاشة التركية . وفتحت النار عليهم لتبيد طواقم المدافع الرشاشة وتحدث فوضى وارتباك في الجناح الجنوبي . وعندما رأينا ذلك صحنا بالهجانة ليلحقوا بهم وقادهم محمد الغصيب ، الذي كان يعمل محاسباً عند الشريف زيد ، وجميع من تبقى في الوسط معنا من خدمنا ، ولحق به كل من المدفعيين واطقم المدافع الرشاشة .

كان ذلك اليوم طويلاً جداً بالنسبة لي ، واصبحت وقتذاك اتشوق لرؤية النهاية ، وكان الشريف زيد يقف بجانبي ويداه متشابكتان بغبطة بسبب نظام خطتنا المحكمة . فمن ناحية ، فان فرسان راسم كانوا يقتحمون ويتوغلون في الجناح الايسر للعدو الواقع خلف المرتفع ، ومن ناحية اخرى فان رجال العيمة كانوا يخوضون قتالاً وملاحقة دموية للفارين من الجنود الاتراك ، واصبح القطاع الاوسط للعدو متقهقراً باضطراب نحو الفجوة ، ورجالنا يلاحقونهم على الاقدام او الجياد او الجمال . اما الرجال الارمن الذين كانوا يجلسون خلفنا طيلة النهار بقلق فقد سحبوا آنئذ سكاكينهم وبدأوا يلاحقون الاتراك الفارين قدماً .

وفكرت بالوديان العميقة الواقعة مابين هنا والكرك ، ووادي الحسا الضيق الوعر والسحيق . فلا بد ان تقع هناك مجزرة ، ولا بد أن ان اصرخ بالاسف نحو

العدو ، بيد انه بعد كل الغضب والاجهاد من المعركة ، فان تفكيري كان متعباً جداً ليهتم بأن اذهب اسفلاً الى ذلك المكان البغيض ، واقضي الليلة هناك ، لأقوم بانقاذهم . فبقراري بالقتال ، فقد تسببت بقتل عشرين او ثلاثين من رجالنا الستمائة ، وان الجرحى ربما يكونوا ثلاثة اضعاف . وبذلك فان حوالي سدس قواتنا سيذهب لقاء نصر تافه ، اذا ان تدمير اوابادة الف جندي تركي بائس لن يؤثر على مجرى الحرب بشكل عام .

غنمنا في نهاية المعركة مدفعان جبليان هوتزر (وكانا من نوع سكودا وهما مفيدان جداً لنا) ، سبعة وعشرون مدفع رشاش ، مائتا جواد وبغل ، واسرنا مائتي وخمسون تركياً . وافاد رجالنا بان خمسين تركيا استطاعوا الفرار صوب سكة الحديد ، ولحق بهم الرجال العرب واطلقوا النار عليهم ، الا ان رجالنا كانوا متعبين ومنهكين وجائعين فكفوا عن الملاحقة بسرعة . ومن الممكن ان تثير هذه المعركة لبرهة الجنرالات العسكرين بل انهم غالباً ما يلعبون بخيالهم بشكل نشط مسبقاً ليجعلوا الحقيقة تبدو زائفة . وفي ذلك المساء ، فانه لم يكن هناك مجد ، ولكن كان هناك العنف والقتل واللحم البشري الممزق .

وما ان تحولنا للعودة حتى بدأ الثلج يتساقط ؛ واصبح الوقت متأخراً جداً ، وبعد جهد كبير تمكنا من اخلاء مصابينا ، ومن وضع الجرحى الاتراك جانباً ، الا انهم ماتوا في اليوم التالي . لقد كان امراً متعذراً تبريره او الدفاع عنه ، كما هي دوماً نظرية الحرب .

تساقط الثلج في اليوم التالي ، وفي اليوم الذي تلاه بشكل اشد ، واصبحنا مقيدين بالطقس ، وعندما مرت الايام بشكل رتيب فقد فقدنا الأمل بالعمل . وكان يجب علينا ان ندفع بالاخبار عبر الكرك ، في ضوء النصر الذي حققناه ، لنقوم بافزاع الاتراك واخافتهم في منطقة عمان وتسريب الشائعات الى هناك . الا انه لم يرد من هناك شئ او ردة فعل . وأخيراً اعجبت القيادة العسكرية البريطانية بفلسطين بعملي ونشاطي فمنحتني وسام الشجاعة . فيجب علينا ان تكون صدورنا براقة اكثر في الجيش ، اذا ما كان كل رجل قادراً دون شهود على ان يكتب رسالته او تقريره الخاص .

(٨٧)

كانت ارض الحسا امثولة وعبره . لي فلم نعد ثانية مولعين أو مستعدين للقتال سواء من قبل التسلية أو بالجد فيه . وفي الحقيقة ، فانه بعد ثلاثة ايام فقط ، فان كرامتنا قد أُستردت جزئياً من قبل العمل الجاد والمفيد الذي رتبناه مع "عبدالله الصغير" ، الذي كان يعسكر في المنطقة السفلى منا عند الشاطئ الجنوبي للبحر الميت ، على السهل تتدفق فيه جداول المياه العذبة وغني بزراعة الخضروات . وارسلنا اليه اخبارنا بالانتصار ومعها خطة بالاغارة على ميسرة البحر الميت من جهة الكرك وتدمير الاسطول التركي الصغير هناك . فاختار من بين رجاله سبعون فارساً ، من بدو بئر السبع . وساروا في الليل على طول ممر الرف الصخري الواقع مابين جبال مؤاب وحافة البحر والاقتراب بقدر ما يمكن من الموقع التركي ؛ ليقوموا بتدمير القوارب والزوراق الحربية الخفيفة القابعة في منعطف او خليج الشاطئ ، ويفاجئون طواقمها النائمين على الشاطئ أو في اكواخ القصب بالقرب من الشاطئ .

كانت القوة المتواجدة هناك تابعة للبحرية التركية ، ولم تكن لديها خبرة بالقتال البري ، ولم تعتاد على محاربة الفرسان ؛ وصحوا من نومهم فقط عند سماع هدير حوافز الجياد . وانتهى القتال خلال ثوان ، حيث احرقت الاكواخ ، وتم الاستيلاء على مخازن المؤن والاغذية ، وسحبت القوراب ودفعت عميقاً الى البحر لتغرق ، ومن ثم ودون ان تحدث خسائر بين صفوف المهاجمين ، فقد عاد رجالنا ومعهم ستون اسيراً وهم منتشون بالنصر الذي حققوه . وبذلك في الثامن

والعشرين من كانون الثاني(١٩١٨) ؛ فقد حققنا هدفنا الثاني ، بايقاف حركة السفن في البحر الميت باقل من اسبوعين عما وعدنا به اللنبي .

كان الهدف الثالث هو مهاجمة مدخل شرق الاردن من جهة اريحا ، قبل نهاية شهر آذار ؛ حيث سيكون ذلك هدف ممكن ، الا ان تحركنا هناك قد شل بسبب سوء الطقس والبعد عن المنطقة . وبعد تحسن الاوضاع في الطفيلة ارسل لنا الامير فيصل ذخيرة وأغذية . وانخفضت اجور المقاتلين ، بعد ان ازدادت الثقة بقوتنا . وعرض رجال القبائل المحيطين بالكرك ، والذين كانوا على الاتصال يومي بالشريف زيد ، الانضمام اليه بسلاحهم حالما ينوي التحرك قدماً .

لم نكن مستعدين بعد ، ولم يكن باستطاعتنا التحرك . فشدة فصل الشتاء دفع القادة والرجال ليقيموا في القرية وينعزلون عن مجال التحرك والقتال . وفي الحقيقة ، فان السبب ايضاً كان يكمن ضمن الابواب . وغامرت مرتين لاستطلاع واختبار سطح النجد المغطى بالثلوج ، والذي كان لاحياة فيه ولا رحمة . ففي الصباح يذوب قليل من الثلج ولكن في الليل يتجمد ويصبح جليداً، والريح تشقق الجلد والبشرة ، حيث تتجمد اصابع واطراف الانسان ، ولايعود يشعر بهم، وترتجف الخدود من شدة البرد والصقيع لتصبح مثل اوراق اشجار ميته لغاية ما تتصلب ، ومن ثم تتقيد العضلات وتتصلب من الم مروع .

كان من غير الملائم المسير على الجمال والدواب على مثل تلك الارض المنزلقة، ولم تكن هناك أية امكانية في القيام بأية حملة عبر ذلك السهل ، كما اصبح التحرك ايضاً في الطفيلة صعباً ، ولم تعد هناك مراع لجمالنا بسبب الطقس الردئ ، كما انه لم يعد هناك علفاً لها . لذلك فقد قمنا بدفعها اسفلاً الى منطقة الغور الدافئة ، وكانت الرحلة تستغرق يوماً الى هناك من مكان حاميتنا النشطة . ومع ذلك فقد كان الطريق المتعرج صعباً ويستغرق وقتاً طويلاً ، مع ان المسافة المباشرة للغور لا تبعد سوى اقل من سبعة اميال ، فهي بالنظر المجرد تبعد خمسةالاف قدم الى الاسفل . وزاد من تعاستنا في المسير صعوبة الطريق الوعرة

جداً في منطقة السلط ، وكنا نقيم في بيوت رديئة احجارها وجدرانها باردة جداً ، لايوجد فيها وقود للتدفئة ولاطعام ، والعواصف تهب على الشوراع في الخارج مثل السيول ؛ ويتخلل ذلك انهمار المطر المتجمد والرياح المجمدة ، في حين كان يوجد هناك الوادي المشمس الغني بمراعيه الخصبة ، مع تواجد الازهار البرية بشكل كثيف ، حيث ترعى عليها المواشي الحلابة ، وحيث كان الهواء دافئاً جداً مما جعل الرجال يخلعون عباءاتهم وهم يسيرون .

كان فريقي الخاص محظوظاً اكثر من الآخرين ، اذ ان الزعاقي وجد لنا بيتاً فارغاً لم يكتمل بناؤه بعد مكون من غرفتين وفناء ، ووفرت نقودي وقوداً لنا من اجل التدفئة وحتى وفرت علفاً لنياقنا ، والتي ابقيناها تستظل في زاوية بالفناء ، حيث كان عبدالله ، المحب جداً للدواب ، يقوم بالعناية بها واطعامها . ولكن كانت الايام معنا لاتزال سيئة فنار الحطب التي كنا نوقدها من اجل الدفء كان يصدر عنها لهيباً اخضراً ذو دخان كثيف وخانق . وكان الماء يتسرب ويسقط من سقف البيت الطيني طيلة النهار وتخرج البراغيث والحشرات من الارضية الحجرية للبيت في افواج بالليل لتنهش اجسادنا . وكنا حوالي ثمانية وعشرين رجلاً نقيم في غرفتين اللتين كانتا تعبقان برائحة انفاسنا وجمهرتنا . وكانت توجد في خرج سرجي رواية "موت ارثر" ، فأبعدت عني بعض الغم بالمضي في قراءتها ، ولم يكن لدى الرجال أي شيء يفعلونه مما زاد في تعاستهم ، في حين اثر البرد الشديد على الجرح الذي اصاب وركي سابقاً وجمده مما جعلني اشعر بالم شديد . وازداد التوتر بيننا يوماً بعد يوم ، اذا ان حالتنا اصبحت اكثر سوءاً ووحشيةً .

واخيراً تشاجر عواد الشراري الشرس مع فتى صغير السن وتشابكا بالخناجر بعد برهة ، في حين كان بقية الرجال يقومون بالفصل بينهما ، لذلك فلم تحدث هناك سوى جروح بسيطة بينهما ، الا ان هذا الحادث قد خرق قانون او قاعدة الخدمة في الحرس ، فقام رؤسائهما باصدار الحكم . وقام الزعاقي بتنفيذ الحكم عليهما بجلد عواد اولاً بالسوط ، وكان قاسياً جداً حتى انني اوقفته قبل ان

يصبح اكثر قسوة ، اما عواد الذي تلقى العقاب دون ان يشتكي او يتألم فقد ذهب يتمايل بقدميه وارتمى على فراشة .

ومن ثم جاء دور الفتى الآخر الذي كان ينتظر ، كان صغير السن ، نحيل الجسم والوجه وعيناه تبدوانه بانه كان برماً نافذ الصبر ، ولم يكن من حراسي او رجالي تماماً ، الا انه كان يسوق الجمال وكان لايطيق العشرة او الرفقة وروحه ضيقة وبرمه ، ومستعد للشجار بالخنجر في أية لحظة ، وهو الآن يتلقى عقابه بالسوط في زاوية الفناء ، ويكشر عن اسنانه ، متحلفاً والدموع تنهمر من عينيه للذين يجلدونه ، ومن ثم عندما انهار من شدة الضرب زحف ليختفي في مكان مظلم .

لقد شعرت بالاسى لعواد ؛ فقد جعلني عقابه الشديد اشعر بالخجل . وخجلت بشكل خاص ، عندما سمعت فجر اليوم التالي خطواته وهو يخرج الى الفناء ، ورأيته يحاول ان يقوم بواجبه اليومي والعادي نحو الجمال ، فدعوته لامنحه كوفيه مطرزة مكافأة له على اخلاصه في الخدمة . فجاء إلي شاحباً بشكل يرثى له ، وكان منكمشاً ، وفي حالة استعداد لتلقي المزيد من العقاب ، الا ان اسلوبي المتغير جعله ينهار ويسقط ارضاً ، وعند العصر كان يغني ويصيح مبتهجاً ومسروراً اكثر من قبل ، اذا انه وجد مغفلاً في الطفيلة ليدفع له اربعة جنيهات لقاء الكوفية الحريرية التي منحتها له .

ان مثل هذه الاعمال العصبية قد شحذتنا الواحد ضد الآخر ، واصبح الوضع متمرداً جداً بحيث انني قررت ان أبعثر أو أقسم مجموعتي او فريقي وان اذهب بنفسي للبحث عن مال اضافي الذي لابد وان نحتاجه عندما يصبح الطقس لطيفاً او معتدلاً . فالأمير زيد قد انفق الجزء الاول من مجمل المال الذي خصص لحملتي الطفيلة والبحر الميت ، سواء كان في الاجور او سواء انفق في التموين وشراء الاغذية وفي منح الهبات والجوائز للمنتصرين في معركة سيل او وادي الحسا . واينما وحيثما ستكون حملتنا او جبهتنا القادمة ، فانه يجب علينا ان نجند وندفع اجوراً لقوات جديدة ، اذا ان رجال المنطقة المحليون هم الذين

كانوا يعرفون طبيعة وتضاريس ارضهم بشكل فطري ويقاتلون بشكل افضل من غيرهم، ويدافعون عن بيوتهم ومحاصيلهم ضد العدو .

ومن الممكن ان يكون بوسع جويس ان يرسل لي مالاً؛ ولكن ليس بصورة سهلة في مثل هذا الفصل من الشتاء . لذلك فقد كان من الأضمن ان اذهب بنفسي، بدلاً من الاستمرار بشكل مضطرب ومشوش في الطفيلة . وبدأنا رحلتنا ، حيث كنا خمسة رجال، وكان يوماً صحواً بعض الشيء على غير المألوف . وتوقفنا قليلاً في الرشادية ومن ثم تسلقنا المرتفع خلفها لنجد انفسنا لبعض الوقت امام السحب التي تخللتها شمس واهنة . وعند العصر ساء الطقس ثانية واصبحت الرياح اشد من جهة الشمال والشرق ، وجعلنا ذلك نأسف لنكون خارجاً لنسير على السهل الاجرد . وعندما كنا نخوض في نهر الشوبك الجاري ، بدأت الامطار بالانهمار، تساقطت اولاً على شكل عواصف ، ومن ثم انهمرت بشكل مضطرد ، فغطينا كلية بالماء . وعندما كان المطر يرتطم بالارض كان يرتد على شكل رذاذ ابيض . وانطلقنا دون توقف ولغاية فترة طويلة بعد غياب الشمس حتى اصبحت جمالنا ترتعش وتنزلق كثيراً على الطريق وتسقط عبر الوديان الطينية اللزجة ، وكنا نتقطع ميلين تقريباً في الساعة . وبالرغم من الصعوبات التي كانت تواجهنا ، فقد اصبح التقدم شيقاً وممتعاً وغير متوقع ان يحولنا عن متابعة المسير .

وكانت نيتي ان نستمر بالمسير طيلة الليل ؛ بيد انه بالقرب من "الاضروح" اصبح الضباب كثيفاً ومنخفضاً ويلفنا بستاره وفوق السحب كمثل اسمال الاحجبة تتمايل وتتراقص عالياً عبر هدوء السماء . وبدا من المتوقع ان يتغير الطقس، حيث ان التلال والجبال البعيدة بدت امامنا صغيرة ، وبالقرب كانت الروابي ضخمة وانحرفنا كثيراً الى جهة اليمين ، وهذه المنطقة المفتوحة ،مع ذلك، بدت قاسية في تضاريسها ، وكانت ارضها طينية لينية مما جعلت ارجل جمالنا تنغرس فيها لعمق اربعة او خمسة بوصات ، وفي كل خطوة تخطوها . وكانت الجمال البائسة ترتعش من البرد طيلة اليوم ، وتسقط ارضاً ، وغالباً

ماتتعرض لرضوض وخدوش ، وبالتالي فانها لم تعد راغبة بالمضي في المسير امام هذه الصعوبات والعقبات الجديدة . فكانت تسرع بضعة خطواط ثم تتوقف بشكل متقطع وتنظر حولها او تحاول ان تنحاز الي طرق جانبيه .

ومنعناها من تحقيق رغباتها ، وكنا ندفع بها قدماً لغاية ما قابلتنا وديان صخرية في طريقنا العشوائي ، مع صورة ظلية وعرة ، مظلمة من اليمين والشمال ، وفي الامام ظهرت جبال حيث لايجب ان تكون هناك جبالاً ، واصبح الطقس متجمداً ثانية ، واصبحت حجارة الوادي لزجة بسبب الصقيع والتجمد . وبالاندفاع اكثر في طريق خاطئ اثناء تلك الليلة كان يعتبر عملاً غبياً وطائشاً ، فوجدنا صخرة كبيرة بارزة ، حيث يمكن ان توفر لنا ملاذاً ، وانزلنا جمالنا في مجموعة محكمة وجعلنا اذنابها وخليفاتها بمواجهة الرياح . فلو وضعنا مقدماتها او وجوهها بمواجهة الرياح فمن الممكن ان تنفق من البرد والصقيع ، وجلسنا خلفها التماساً للدفء آملين بالنوم .

لم انعم بالدفء الذي كنت احلم به ، وكان من الصعب علي ان انام . فقررت ان ننهض ونستأنف المسير ، عندما ضربت وجهي رشقات من البرد والصقيع . فحدقت في الليل الحالك ، حيث كانت الثلوج تتساقط ، وانتهى التساقط خلال دقيقة او دقيقتين ، الا انه تبع ذلك نزول الامطار ، وبعد ذلك تساقط المزيد من الصقيع ، في حين لبثت متقوقعاً في مكاني ككرة محكمةوانا في وضع بائس جداً لا استطيع الحراك لغاية حلول الفجر . وكان فجراً متحيراً ، الا انه مقبولاً ، وسرت على الطين لأرى رجالي وهم يلتفون بعبآتهم بجانب الدواب ، وبدا على وجه كل واحد منهم الانطباع باليأس .

كانوا اربعة من الجنوبيين ، جعلهم الخوف من فصل الشتاء مرضى عندما كانوا في الطفيلة ، وكانوا ينوون ان يستريحوا في القويرة لغاية مايصبح الطقس دافئاً ثانية ؛ ولكن هنا في مثل هذا الضباب قد غيروا رأيهم كمثل الجمال ، ذلك ان الموت كان يحيط بهم . ومع ذلك ، فقد كانوا يأبون لأن يرضخوا له ، وكانوا يريدون ان يظهروا لي بشكل هادئ ، ذلك ان هذا الذي يقومون به من اجلي كان

عبارة عن تضحية ، فقد كانوا لايتحدثون أو يتحركون بالرد علي . ونهض الجميع بمن فيهم الجمال من اجل استئناف المسير ، وقد فقدنا قرابنا الجلدية بسبب تجمدها وانفجارها من الصقيع وعلى ضوء النهار اصبح الافق واضحاً لنا ، ورأينا ان طريقنا الحقيقي كان يبعد عن يميننا نحو ربع ميل . وكافحنا في الوصول اليه واصبحنا نسير عبره على اقدامنا ، حيث ان الجمال كانت مرهقة جداً لتحملنا وتنزلق على الارض (فجميعها قد نفقت فيما بعد ما عدا جملي في هذا المسير) . وكانت الارض طينية جداً ، حيث اننا كنا ننزلق ونقع عليها مثلهم .

بدا الهواء بارداً تماماً ويجمد أي شيء ، بل ان الرياح التي كانت تتغير اثناء الليل كانت تهب علينا من جهة الغرب على شكل عواصف ثلجية . فكانت عبآتنا تطير خلفنا وكأنها اشرعة ، واخيراً حزمناها على اجسامنا وسرنا بطريقة اسهل . وكانت قمصان اثوابنا محكمة حول اجسادنا لتقيد وتثبت اذناب عبآتنا الصافعة ، في حين كانت الرياح الشديدة العاصفة واتجاهها مرئية لنا من خلال الضباب الذي كان يحملها عبر الجبل والوادي واصبحت ايادينا متجمدة لا احساس فيها ، الا ان اجسادنا لم تكن متجمدة الى ذلك الحد ، واصبحت ترتجف لساعات تحت هبوب كل عاصفة ثلجية ، وانحرفنا بانفسنا لنسير في جانب غير مؤذ وحللنا قمصاننا لنتظلل بها فترة من الوقت . وفي وقت متأخر من العصر على بعد عشرة اميال من «ابي اللسان» ، وفي طريقنا صادفنا رجال مولود ، ولم يحيينا أي واحد منهم ، حيث كنا في حالة بائسة يرثى لها ، ونسير كمثل قطط مرتجفة من البرد . وبعد ذلك اصبحت الطريق اسهل ، وكان آخر ميلين للوصول الى رأس جبل شتار متجمدان كمثل الحديد . واعتلينا جمالنا ثانية ، التي كانت انفاسها تخرج كبخار ابيض من انوفها ، واسرعنا للوصول الى اول نقطة من سهل القويرة العجيب ، الدافئ ، ذو الارض الحمراء والمريحة ، كما ترآى لنا من خلال فجوات الضباب . وكانت السحب تحجب التجويف السهلي بشكل غريب قاطعة منتصف السماء في خثارات منبسطة على مستوى قمة الجبل الذي كنا نقف عليه . وحدقنا بها لدقائق ، فكل حزمة صغيرة منها كانت كمثل رغوة بحرية تنساب نحونا ، وكنا

نشعر بها تلفح وجوهنا ،ومن ثم تتحول عنا ، ثم تصطدم برأس القمة الصلبة للجبل وتتمزق الى اشلاء وتتلاشى في رذاذ أو على شكل قطرات من الماء عبر الارض الطينية اللينة . وبعد ان تجولنا في السماء (على قمة الجبل) ، انزلقنا اسفلاً واسرعنا لنمر على رمال جافة ويلفنا هواء لطيف هادئ . ومع ذلك فان سرورنا لم يكن نشطاً ، كما املنا بذلك ، فقد تعرضنا ثانية للألام المريرة بسبب تجمد اطرافنا ووجوهنا ، واصبحنا ندرك اكثر بأن اقدامنا قد تمزقت وتكدمت من خلال المشي بين الحجارة . ولم نكن قد شعرنا بها وبألمها عندما كنا نسير في الطين الجليدي ، الا ان هذا الدفء ، فيما بعد ، عندما اصبحنا نسير على ارض رملية قد اشعرنا بتقرحاتنا . وعندما بلغنا المنخفض ، اعتلينا جمالنا الحزينة ، وقمنا بدفعها بواسطة العصي صوب القويرة ، ومع ذلك فان هذا التغيير في الطريق قد جعلها سعيدة ، واوصلتنا الى هناك بصورة هادئة رصينه ، بل وبنجاح .

(٨٨)

كانت هناك ليال كسولة ، ثلاث منها ، ممتعة في العربات المدرعة بالقويرة، مع كل من ألن دواناي وجـويس ، وتفـاخـرت الطفـيلة بذلك . ومع ذلك فـان هؤلاء الاصدقاء سببوا بعض الحزن لي ، اذا ان الحملة الكبيرة مع فيصل قبل اسبوعين للسيطرة على المدورة قد تحولت الى هدف غير قابل للفائدة . اما بسبب المشكلة القديمة لتعاون القوات النظامية مع غير النظامية ، او كان بسبب الشيخ محـمد علي البداوي ، والذي ذهب مع بني عطيـة للسـقاية ، ثم صـرخ قـائلاً "استراحة الظهيرة" ، ولبثوا هناك مدة شهرين واصبحوا عبيداً لدنياهم . ففي الجزيرة العربية ، حيث تنعدم الزوائد ، فان اغراء الطعام الضروري يقع دوماً على عـاتق الرجـال . فكل لقـمـة طعام تمر عبر شفاهم يمكن ان ، اذا لم تكن مشاهدة ، تصبح سعادة. فالرفاهيات يمكن ان تكون على اوسع حد كالحصول على ماء جار (نهر او جدول) او شجرة ظليلة ، اذ ان ندرتها غالباً ما تحول الى رغبات او شهوات . ان قصتهم تذكرني بما قاله ابو لونيوس ، "تعالوا يارجال تارسوس، اجلسوا على نهركم كمثل الاوز ، منتشين بماءه الابيض" .

ثم ورد لي من العقبة ثلاثون الف ديناراً ذهبياً ، ولناقتي وضيحة ، وكانت افضل ماتبقى لي من المطايا . كانت من نياق قبيلة عتيبة وقد فازت في العديد من السباقات لحساب صاحبها القديم ؛ وايضاً فقد كانت في حالة رائعة سمينة ، الا انها ليست سمينة جداً ، وكانت متمرسة في المسير على الصخور والحجارة الصوانية ، ووبرها كثيف وناعم . ولم تكن طويلة ، وبدت ثقيلة وضخمة ، الا

انها كانت طيعة سهلة الانقياد يميناً او يساراً حسبما يتطلب الأمر لتوجيهها . لذلك فقد كنت اسيرها دون عصا ، واقوم بقراءة كتاب بشكل مربح عندما كان المسير يسمح بذلك .

وبما ان رجالي الحقيقيين كانوا في الطفيلة أو الازرق ، أو ذاهبين خارجاً في مهمة ، فقد طلبت من فيصل ان يؤمن لي رجال او اتباع مؤقتين . فاعارني فارسين من قبيلة عتيبة ،اسمهما سرج ورميد ، وللمساعدة في حمل النقود الذهبية، واضاف لفريقي الشيخ مطلق ،الذي قد اكتشفنا قيمته عند كانت عرباتنا المدرعة تقوم باستطلاع السهول الواقعة اسفل المدورة باتجاه تبوك . فقد ذهب معهم كدليل ليعرفهم على المنطقة ، وكانوا مندفعين في المنطقة واجتازوا التلال الرملية بسرعة وعربات الفورد تتمايل كمثل لنشات بحرية متبجحة . ومن كثرة السرعة فقد استدارت العربة نصف استدارة خلال سيرها على عجلتين بشكل جنوني ، مما حدا بالشيخ مطلق ان يدفع برأسه للوراء . فأوقف مارشال المركبة واسرع للخلف نادماً وآسفاً على شدة السواقة ، الا ان الشيخ فرك رأسه بشكل حزين وقال بلطف " لا تؤاخذني فانا لم اتعلم ركوب مثل هذه الاشياء " . كانت النقود الذهبية موضوعة في اكياس ، كل واحد منها احتوى على الف جنيه . فاعطيت لكل واحد من رجال مطلق العشرين كيسين لحملهما واخذت انا كيسين لاحملها بنفسي . وكان كل كيس يزن اثنان وعشرون رطلاً انجليزياً، وكانت حمولتها مزعجة جداً بالنسبة للناقة فيتمايل السرج على الجهتين وبدأنا المسير عند الظهر آملين ان نبدأ بمرحلة جيدة اولى في المسير قبل ان نبلغ التلال المزعجة ؛ ولكن لسوء الحظ فقد تحول الطقس رطباً بعد نصف ساعة ، وغمرتنا مياه الامطار بشكل مضطرد وجعلت شعر الجمل مجعداً كمثل شعر كلب مبتل .

ورأى مطلق في تلك المرحلة المعينة خيمة الشريف فهاد ، وكانت منصوبة في زاوية هضبة رملية حجرية . وبالرغم من احتجاجي فقد صمم على ان يقضي الليلة هناك ، ويرى في الغد ماذا سيكون عليه الحال في التلال المحيطة . وعرفت بأن ذلك سيكون نهجاً مهلكاً وتبديد اياماً في تردد وحيرة ؛لذلك فقد ودعته

وسرت مع رجلي ومعي ستة رجال من حويطات الشوبك ، الذين قد انضموا لقافلتنا . وقد اخرنا الجدال لبعض الوقت ، وبالنتيجة فقد بلغنا بداية الممر عند حلول الظلام . وبمسيرنا تحت انهمار المطر ، فقد حسدنا مطلق وضيافته عند فهاد ، عندما انحرفنا الى يسارنا لنجتاز ونجد صالح بن شفيعة معسكراً هناك في خيمة وثلاثة كهوف ، ومعه مائة رجل مقاتل من رجاله من ينبع . فصالح ابن الشيخ الفقير محمد ، الذي اثيرت حوله النكات ، كان شاباً عملياً ، وهو الذي استولى على الوجه .

قابلني بالترحيب مرتين او ثلاثاً بعبارة "شيف أنت؟" (كيف حالك؟) ، وكانت عيناه تتلألئان على نمط ابناء قبيلة جهينة . واقترب مني ورأسه منحن وهو يقول بصوت كثيف ويردد اكثر من عشرين مرة "شيف أنت" . ولم اكن احب لأكون مبجلاً الى هذا الحد ، لذلك فقد رديت عليه عشر مرات برزانة ووقار . ومن ثم احاطني مرة ثانية بتحياته وسلاماته ، اكثر بكثير من عشرين مرة ، لذلك فقد استسلمت لمحاولة معرفة كم من المرات يمكن ان تعاد وتكرر التحيات والسلامات في وادي ينبع .

ورحب بي ثانية ، واكثر من اشباعي بالترحيب ، ثم دعاني للجلوس على بساطه الخاص ومنحني ثوباً من خياطة والدته ، في حين كنا ننتظر ورود اللحم والارز . ثم بعد ذلك استلقينا لننام برضا وعين قريرة طيلة الليل ، وكنا نسمع هطول المطر على شادر خيمته المزدوج المكي الصنع .

وعند بزوغ الفجر كنا قد صحونا من نومنا ، وتناولنا الخبز . وما ان صعدنا اول المرتفع حتى نظر سرج الى اعلى وقال ، "ان الجبل يرتدي قبعته" ، فقد كان هناك ثلجاً ابيضاً يغطي كامل القمة . واندفع رجال قبيلة عتيبة بسرعة وبشكل فضولي ليصلوا الى القمة ؛ ويتحسسوا هذا الشئ العجيب الابيض بايديهم . كما ان الجمال ايضاً كانوا يجهلون بذلك ، فمدت رقابها الكسولة الى اسفل لتشم بياض الثلج مرتين اوثلاث في عملية استطلاع تعبة ، الا انها ادارت رؤوسها بعيداً ونظرت للامام دون أي اهتمام مرة اخرى . وانتهى هذا الاستطلاع بعد دقائق ، وما أن بلغنا آخر مرتفع حتى هبت ريح من جهة الشمال الشرقي ، مما

جعلنا نرتعش من البرد وتصطك اسناننا . فذهبنا لنبحث عن مأوى وبدا لنا بأن الأمر سيكون مهلكاً، الا اننا سرنا بشكل قاس لنصل الى شبه مأوى في الوادي . وارتعد كل من سرج ورميد من شدة الخوف ومن تلك الألام الجديدة بالنسبة لهما في رئتيهما . لذلك فقد كانا يشعران بالاختناق ، ومن اجل اراحتهما فقد كان علي ان أُعرج على معسكر حليف وصديق . لذلك قدت جماعتي الى طريق جانبي يقع خلف التل الذي يعسكر فيه رجال مولود ، وهناك وجدناهم غير متأثرين بالاحوال الجوية السيئة . فهؤلاء الرجال، رجال مولود ، قد عسكروا في ذلك المكان الذي يقع على ارتفاع خمسة الاف قدم عن سطح البحر ، ولمدة شهرين دون راحة . وكانوا يعيشون في حفرة كبيرة حفرت على جانب التل ، ولم يكن لديهم وقوداً سوى ما توفر لهم من الحطب الجاف ، حتى يكون بامكانهم ان يصنعوا الخبز الضروري كل يوم ، ولم يكن لديهم ثياباً سوى اللباس الخاكي الرسمي ، وهو من النوع الصيفي الذي كانت ترتديه القوات البريطانية . وكانوا ينامون تحت المطر تقريباً وعلى الارض الجرداء ، ولم تكن لديهم اغطية كافية . لذلك فقد مات او عطب اكثر من نصفهم من شدة البرد والصقيع ، ومع ذلك فان الآخرين أو ماتبقى منهم قد حافظوا على عملية المراقبة للمواقع التركية، وكانوا يتبادلون اطلاق النار يومياً مع الاتراك ، وكان الطقس الردئ هو الذي يحميهم من هجوم أو اقتحام تركي لموقعهم . لقد كنا ندين لهم بالكثير ، وبالاكثر لمولود ، الذي كان يشجعهم ويدفعهم للقيام بواجبهم ، فان خدمته الطويلة في الجيش التركي قد اكسبته شعوراً بالكرامة العربية والقومية العربية ، وجعلت عنده عقيدة راسخة ليضحي اكثر فأكثر بآماله وتطلعاته ، فقد كانت عقيدة قوية وصلبه مما مكنه من التحمل بصورة شيقة ثلاث فصول شتاء امام جبهة معان ، وليشارك رجاله الخمسائة بروح عالية وليبقيهم صلبين ملتفين حوله .

ومكثنا هناك يوماً لنشعر تماماً بمشاق المعيشة هناك . ومن ثم عندما تابعنا المسير وصلنا الى المرتفع المحيط بابي اللسان ، فقد اصبحت الارض هناك صلبة ومتجمدة ، وكانت الريح الباردة الشديدة تعصف باعيننا ، الا انه حينذاك بدأت

متـاعـبنا ، اذ ان الجـمـال وصلت الى حـد لم تـستطع مـعـه من تحـملنا بسـبب الانزلاقات والارض الطينية واصبحت مجهدة جداً . وقفزنا من عليها لنساعدها على السـيـر ، وقـمنا بدفـعـهـا من الخلف بشـدة ، واقـدامنا تنزلق على الطين والجليد، الا ان الرياح العاتية لم تكن لتريحنا او تساعدنا في تلك العملية الشاقة. فلم تكن هناك في الجزيرة العربية اشد من الرياح التي تهب من جهة الشمال على منطقة معـان ، وكانت في ذلك اليوم على اشدها وذروتها . اذ كانت الرياح تهب فينا وفي ملابسنا حتى اننا لم نكن لنقوى على تحريك عصـا قيادة الجـمـال من شـدتهـا وقـوتها ، وبالتـالي فـان الجـمـال قـد سقطت ارضـاً من شـدتهـا ، وكـانت الارض لاتزال متجمدة من الصقيع ، ويصعب امتطاء الجمال والمسير بها .

ومع ذلك لم يعد هناك هطول للامطار ، واصبحت الرياح جافة ، لذلك فقد اتجهنا باضطراد صوب الشمال . ومع حلول المساء فقد اقتربنا من نهير او غدير البسطة ، مما عنا ذلك باننا كنا نسير لمسافة ميل واحد في الساعة ، وخشينا اننا سنكون نحن وجمالنا في الغد تعبين ومرهقين جداً ، لذلك فقد اندفعنا في الليل لنعبر الجدول الصغير . وكـان ضحلاً ، وانزلقت الجمال فيه . لذلك فقد كان علينا ان نقودها على اقدامنا من خلال ثلاثة اقدام من الماء المتجمد ، وعلى الارض المرتفعة بعد ذلك والتي كانت تقع خلف الجدول ، فقد عصفت بنا الرياح وكاننا اعداء لها . وعند حوالي الساعة التاسعة ليلاً فان الرجال الآخرين رموا بانفسهم على الارض وهم يصيحون ويبكون رافضين ان يسيروا اكثر من ذلك ، وانا نفسي كنت على وشك البكاء ، الا انني ضبطت نفسي في الحقيقة ، وذلك بسبب انزعاجي وضيقي من نحيبهم الصريح . ولذلك فقد رفضت باصرار ان افعل مثلهم ، ومن ثم قمنا بانزال الجمال على الارض وصففناها بشكل دائري وجلسنا بينها لنشعر براحة ، ولنستمع الى اصوات الرياح العاصفة حولنا وهي تعصف كمثل سفينة داخل البحر . وكانت النجوم المرئية تتلألأ في السماء ، في حين كـانت السـحب تتـحـرك بسـرعـة حولها وكـان لدى كل واحـد منا غطائان عسكريان ورزمة من الخبز ؛ لذلك فقد كنا مسلحين ضد الشر وبامكاننا ان ننام بامان بين الطين والبرد .

(٨٩)

مضينا عند الفجر قدماً ونحن منتعشين ، بل ان الطقس اصبح لطيفاً مع وجود ضباب ودكون لاحت من خلاله شجيرات المرير الحزينة التي غطت التلال ، وبدت على سفوحها نتوءات الاحجار الكلسية ثابتة على هذه التربة القديمة جداً . وازدادت عند فجوتها الطينية صعوباتنا ، وكانت الوديان تلفها موجات بطيئة من الضباب الخفيف نتيجة لذوبان الثلوج ؛ واخيراً بدأت رشقات من الثلوج الجديدة تتساقط ، وبلغنا اطلال وخراب الاضروح عند متصف النهار ، وبدا الجو وكأنه الشفق ؛ فقد كانت الرياح تهب وتخبت بصورة متقطعة تتخللها افواج متحركة بطيئة من السحب مع رشقات من الثلوج والامطار تتساقط من حولنا .

وانعطفنا نحو اليمين ، لأتجنب مضارب البدو الواقعة مابيننا والشوبك ، الا ان رجال الحويطات الذين كانوا يرافقوننا قادونا مباشرة الي مضاربهم ، فقد سرنا لمسافة ستة اميال خلال سبع ساعات ، وكانوا منهكين ولم يكن الاثنان من رجال عتيبة منهكين فقط وانما معنوياتهما ضعيفة ، وأقسما على نحو متمرد بأنه لاشئ في العالم يجب ان يمنعهما عن بلوغ مضاربهما . لذلك فقد تشاحنا عند جانب الطريق تحت هطول الثلوج الناعمة . وبالنسبة لي فقد شعرت بالنشاط والسعادة تماماً ، وانا كاره من تأخير استئنافنا المسير . فحالة الامير زيد المادية المفلسة كانت ذريعة ممتازة للتذرع بعدم مرافقتهم في مثل هذا الطقس من الشتاء . وكنا نبعد عن الشوبك عشرة اميال فقط ، وبقى على ظهور النهار خمسة ساعات

فقط . لذلك فقد قررت ان اذهب لوحدي . فسيكون ذلك سليماً تماماً ، حيث انه في مثل هذا الطقس فلا الاتراك ولا العرب سيكونون خارجاً وسيكون الطريق ملكاً لي . واخذت المال من سرج ورميد ووصفتهما بانهما جبانان ، الا انهما لم يكونا كذلك في الحقيقة . وكان رميد يحبس انفاسه في الم شديد ، في حين كان سرج في حالة عصبية ، وذهبا تلفهما التعاسة عندما طردهما وذهبت في طريقي

وكنت في الحقيقة املك افضل ناقة ، فان «وضحية» ، وهو اسمها ، كافحت في المسير قدماً وهي تحمل احمالاً اضافية من الذهب . ففي المناطق المنبسطة كنت اعتليها لاسير عليها ، وفي النزول والصعود كنت انزل وامشي معها جنباً الى جنب وتتعرضنا حوادث مضحكة ، اذ انها بدت وكأنها كانت تدرك ذلك .

توقف تساقط الثلوج عند المغيب ، وكنا حينئذ ننزل باتجاه نهر الشوبك ، وتمكنا من رؤية الممر البني ممتداً في مقابل الجبل باتجاه القرية . وحاولت أن اجتاز عثرة قصيرة ، الا ان الطين المجمد على ضفتي الطريق خدعني وخشيت ان اقضي الليلة هناك ، بعد ان اعترضنني كتلة من الجليد .

وكانت ناقتي وضحية دابة حساسة ، فقد رفضت ان تدخل وتجتاز المستنقع بل انها وقفت منهارة على جانب الطريق ، ونظرت بهدوء الى انغراسي في الوحل . ومع ذلك ، فقد عملت على حثها قليلاً لتقترب مني . ومن ثم ادرت نفسي فجأة وسحبتها لاسفل ، ففزعت من ذلك ، ومن هناك اجتزنا ، واعتليتها وانا ارتجف ، وسرنا فوق مرتفع ، ومن ثم نزلنا اسفلاً الى ارض مخروطية الشكل ، كانت تحيط بها الصخور الطباشرية ذات النتؤات الحادة ، وعلى جانبي الممر كانت حواف الصخور متجمدة ، وكنت اتجنبها عندما كانت ناقتي تندفع قدماً في هذا المكان الغريب .

لقد علمت بأن الشريف عبد المعين لابد وان يكون متواجداً في الشوبك ، لذلك فقد سرت بجرأة في الطريق الساكن تحت ضوء النجوم ، حيث كانت ترخي بسدولها وظلالها على الحيطان والاسقف والارض المكسوة بالثلوج .

وكانت الناقة تخطو بشكل قلق على الطبقة الكثيفة من الثلوج ، بيد انني لم اكن مهتماً بذلك واسعى للوصول الى هدفي الليلي . وعند تقاطع الطرق ناديت بتحية المساء ، وبعد دقيقة سمعت صوتاً مبحوحاً يناجي ويدعوا الى الله ، من بيت كان يقع عن يميني ، فسألت عن الشريف عبد المعين وقيل لي بأنه موجود في "بيت الحكومة" ، الذي يقع عند نهاية سور القلعة القديمة . فوصلت الى هناك وناديت ثانية ، وفتح باب كبير تسربت منه سحابة من ضوء دخاني تتخللها سحابات من ذرات الهباء ، وظهرت من خلال كل ذلك وجوه سوداء لتعرف من اكون ، فحييتهم بشكل ودي وذكرت لهم اسمي ، قائلاً بانني أتيت لاتناول لحم الضأن مع السيد . عندئذ اسرع اولئك الخدم للخارج وهم يبدون الاستغراب بضجة ، وانزلوني من على ناقتي وضحية ثم قادوها الى الاسطبل حيث يقيمون هم انفسهم . وأضاء لي احدهم لاسير معه من خلال ممر متعرج ، ينساب عليه الماء من سطح متعرج حتى وصلنا غرفة ضئيلة . وهناك كان يجلس عبد المعين على سجادة ورأسه مطأطئ الى الارض ، وهو يلتقط انفاسه من خلال الهواء المعبأ بدخان الموقد .

كانت قدماي ترتجفان ، لذلك فقد هبطت لاجلس بجانبه وقلدت جلسته بسرور لاتجنب السنة الدخان واللهب الصادر من الحطب المحترق ، وبحث لي عن مئزر البسه ، في حين خلعت ملابسي المبللة وعلقتها امام النار لتجف . في غضون ذلك صفق عبد المعين بيديه اشارة للاسراع بتقديم العشاء ، واحتسينا الشاي لغاية ما أُحضر لحم الضأن المغلي والمطبوخ بالسمن مع الزبيب . وشرح لي وهو يبدي تبريكاته لطبق الطعام ، بأنه في اليوم التالي فانهم اما أن يجوعون او يدفعون للسرقة ، اذا انه كان لديه مائتي رجل ، ولا يوجد لديه اغذية ولا مال . وان رسله الذين ارسلهم للامير فيصل قد اوقفوا وعوقوا بسبب الثلوج ، مما حدا بي انا ايضاً لاصفق بيداي طالباً بأن يأتوا بخرج سرجي ، وقدمت له خمسمائة جنيه على الحساب لغاية ماتأتيه المساعدة . كان هذا مبلغاً جيداً من اجل شراء الاغذية ، واصبحنا سعداء جداً ، واخذنا نتحدث عن غرابة مسيري وسفري

لوحدي في ذلك الشتاء ومعي حمولة ثقيلة جداً من المال والجنيهات الذهبية . وكررت له بأن الاميرزيد كان يعيش في ضائقة مثله ، واخبرته عما فعله سرج ورميد ومعهم الرجال الآخرون ، فغضب الشريف عبد المعين لذلك ولوح بعصاه في الهواء . وشرحت له ما اصابهم من اخفاق ، ومن ان الطقس البارد لم يزعجني ، اذا ان المناخ الانجليزي هو من نفس هذا النوع وفي معظم ايام السنة ، فقال عبد المعين " لاقدر الله لنا بذلك " .

وبعد ساعة عبر عما في نفسه ، لانه قد تزوج مؤخراً بأمرأة من الشوبك . وتحدثنا عن عادات الزواج عندهم ، الذي غالباً ماينتج عدداً من الاطفال ، وقاومت انفعالي باقتباس مقطع من قول قديم لديونيسوس . وقد صدمت لانه كان في الستين من عمره دون زواج ، وسألت كيف يمكنهم ان يكونوا سعداآد مع وجود اطفال ، ووبعد نقاش حول ايجابيات وسلبيات انجاب الاطفال تمددنا على رقع السجاد ونمنا ونحن ننعم بدفء .

نهضت في الصباح والالم يمزق رأسي ، وقلت له بأنه ينبغي عليّ ان اذهب . وأُحضر لي رجلان ليرافقاني في المسير ، ومع ذلك فان الجميع قالوا لي بأنه لا يجب علي ان اصل الطفيلة في تلك الليلة ، ومع ذلك فقد اعتقدت بأنه لا يمكن ان يكون الطقس أسوأ من الامس . لذلك فقد حزمنا امرنا ونزلنا الممر بسرعة لنصل الى السهل الذي يمتد عبره الطريق الروماني القديم وماشهده من احداث تاريخية مشهورة نقشت من قبل الاباطرة المشهورين .

ومن ذلك السهل فان الرجلان الضعيفان اللذان كانا معي فرا عائدين الى اتباعهما في قلعة الجبل . وتابعت مسيري مع ناقتي كمثل الامس مع ان الطريق كانت منزلقة جداً باستثناء رصف الحجارة القديم عليه وهو آخر آثار الامبراطورية الرومانية الذي كان زاخراً في يوم من الايام . وكنت استطيع السير عليه ، الا انه كان علي ان انزل عن دابتي وامشي على قدمي في عدة امكنة وعرة ومنخفضة فيه ، اذ ان الانجرافات والفياضانات التي حدثت في القرن الرابع عشر قد ازالت جزءاً كبيراً من الطريق المرصوف . وهطلت الامطار لتغمرني بمياهها ، ومن ثم نزل

الصقيع لغاية ماغطى ملابسي الحريرية البيضاء كلية واصبحت كمثل فارس مسرحي او كمثل كعكة زفاف، إذ اصبحت ملابسي جليدية قاسية .

سرت انا وناقتي على السهل لمدة ثلاث ساعات؛ كان مسيراً رائعاً ، الا ان مصاعبنا لم تكن لتنتهي، فقد كان تساقط الثلوج كثيفاً كما قال اللذان رافقاني سابقاً، وقد غطى الممر تماماً ، وغطى تماماً اكوام الحجارة والجدران الصخرية والحفر والفجوات الارضية، وشكل ذلك لي صعوبة في التحرك . وكنت اسقط واتعثر في عدة اماكن مع ناقتي ، وكانت تنهض على اقدامها بعد ان تسقط وتقف هادئة وهي ترتجف. فعندما كان يسقط الجمل في حفرة مثلاً كان يظل قائماً فيها لغاية ما ينفق بعد ايام. وخشيت ان يحدث ذلك لي الآن، فقد وجدت جهداً محدوداً بالنسبة للنياق ، فبعد ان سقطت ناقتي حاولت ان اجذبها من رقبتها وان اخرجها من الحفرة التي سقطت فيها ، ولكن عبثاً. ومن ثم قضيت وقتاً في ضربها على مؤخرتها، واعتليتها ولكنها نزلت على الارض ، وقفزت من عليها وانهضتها، وتساءلت فيما اذا كان الركام كثيفاً جداً امامنا . لذلك فقد انعطفت بها نحو طريق صغير عرضه قدم واحد وعمقه ثلاثة اقدام وطوله ثمانية عشرة خطوة، ماشياً على قدمي العاريتين ومستخدماً يداي كأدوات. وكان الثلج متجمداً جداً على سطح الارض ذلك انه استنفذ جميع طاقتي ووزني ، فكنت اولاً اقوم بتكسيره ومن ثم اجرفه جانباً . وكانت قطع الجليد حادة مما سببت جروحاً في رسغي وكاحلي قدماي لغاية مانزفوا بشدة. واصبح جانب الطريق مصبوغاً بخط قرمزي على قطع الجليد الكريستالية، وبديت شاحباً جداً والجروح بادية على لحمي او جلدي كمثل لون البطيخ الاحمر .

بعد ذلك رجعت الى ناقتي وضحيتي التي كانت تنتظر هناك بصبر ، وصعدت على سرجي ، فسارت بسهولة ومضينا مسرعين على ذلك الطريق . وادى بها الاندفاع الى اجتياز الارض الضحلة ، ولتعود الى الطريق الحقيقي . وسرنا بعناية وانتباه ومشيت انا على قدماي في حين كنت ادفعها بعصاي او كنت اقوم بفتح ممرات جديدة بين الجليد عندما تكون الركام كثيفة. وكنا خلال ثلاث ساعات على قمة الجبل، ووجدنا الرياح تهب من جهة الغرب ، وبذلك فقد

اجتزنا الممر واصبحنا نسير بشكل غير ثابت على القمة الوعرة جداً وكنت انظر اسفلاً الى بيوت قريةدانه والى وادي عربة النضر والاخضر ، والذي يبعد الاف الاقدام الى اسفل .

وعندما اصبح المسير صعباً جداً على المرتفع ، فقد توقفت الناقة وضحية ثانية واصبح الامر خطيراً، اذا ان المساءقد اقترب ، وادركت فجأة الشعور بالوحدة، واذا ما حل الليل ووجدنا انفسنا دون مساعدة على قمة الجبل ، فانه كان من الممكن ان تنفق الناقة وضحية ، حيث انها كانت دابة شهمة ، وكانت هناك ايضاً حمولة الذهب، ولم اكن متأكد كم كانت المسافة تبعد. فحتى في الجزيرة العربية فانه يمكنني ان اضع بأمان ستة الاف من الجنيهات الانجليزية الذهبية على قارعة الطريق ومعها اشارة تثبت صاحبها، وان اتركها لمدة ليلة ثم اعود اليها . لذلك فقد عدت بناقتي مائة ياردة على طول ممرنا المألوف ، ومن ثم اعتليتها، فاستجابت وسارت بي، وانطلقنا من خلال وفوق الحافة الجنوبية والتي كانت تشرف على قرية الرشادية .

وكانت هذه الواجهة للجبل محمية او محجوبة عن الرياح ومفتوحة امام اشعة الشمس طيلة العصر . وكانت الثلوج تحت الاقدام تبدو ذائبة والارض طينية، وعندما كانت وضحية تسرع على مثل هذه الارضية فقد كانت اقدامها تدب بصعوبة. كانت الطريق الى الرشادية لزجة ومنزلقة ومتعثرة بشكل شاق والناقة تسير بسرعة عشرة اميال في الساعة، فقد كنت اخشى الانزلاق والسقوط على الارض وتكسير العظام ، لذلك فقد كنت متشبثاً بمسك السرج .

عندماوصلت الرشادية كان هناك جمع من العرب، ومن رجال الامير زيد، ومن الذين انقطعوا هناك وقيدتهم سوء الاحوال الجوية وهم في طريقهم للامير فيصل. واسرعوا ليستقبلوني عندما رأوني مقبلاً، وصرخوا بغبطة عندما دخلت القرية وأنا بذلك الشكل المميز . وسألتهم عن الاخبار، فابلغوني بأنها كانت حسنة جداً. ومن ثم اعتليت ناقتي لاتابع مسير آخر ثمانية اميال للوصول الى الطفيلة، حيث اعطيت الامير زيد رسائلة وبعض المال، وذهبت لانام مسروراً لتنهشني البراغيث لليلة اخرى .

(٩٠)

صحوت صباحاً لأجد نفسي مصاباً تقريباً بالعمى الثلجي ، الا انني كنت مسروراً ونشيطاً. وقضيت بعض الوقت لملء نقص الايام الساكنة والغير نشطة قبل ان تصل النقود الذهبية الاخرى ، وكان القرار النهائي هو القيام بعملية استطلاع شخصي لمنطقة الكرك ومعرفة تضاريس الارض للتقدم صوب الاردن فيما بعد . واوصيت زيداً بأن يأخذ من مطلق مبلغ اربعة وعشرون الف جنيهاً عندما يأتي بها ، وان ينفق ماهو ضروري للنفقات الحالية الجارية لغاية ما اعود . واخبرني زيد بأن هناك رجل انجليزي آخر موجود في الطفيلة وقد فاجئتني هذه الاخبار . فذهبت لأجد الليفتنانت (الملازم) كيركبرايد ، وهو ضابط ركن شاب يتحدث اللغةالعربية ارسل من قبل القائد ديدز ليعد تقريراً عن الاحتمالات الاستخبارية للجبهة العربية . وكانت تلك بداية اتصال مفيد بالنسبة لنا ويعود فضله لكيركبرايد الشخص القليل الكلام والصبور في مثل عمره الصغير ، الا انه قاسياً وصلباً في العمل، والذي رافق الضباط العرب لمدة ستة اشهر، وكان يعتبر رفيقهم الصامت .

كان البرد الشديد قد توقف واصبحت الحركة والمسير حتى على المرتفعات قابلة للمسير وسالكة . واجتزنا وادي الحسا وسرنا بعيداً حتى وصلنا ضفة أو حافة وادي الأردن، والذي كانت اعماقه أو اغواره تضج بتقدم قوات اللنبي . وقالوا لنا بأن اريحا كانت لاتزال بايدي الاتراك ، ومن ثم عدنا ادراجنا الى الطفيلة بعد القيام بعملية استطلاع لضمان تحركنا المستقبلي . وكانت كل خطوة

نخطوها للاتصال بالقوات البريطانية ممكنة، ومعظمها كان سهلاً. وكان الطقس لطيفاً جداً ذلك انه من الممكن ان نبدأ بصورة معقولة في الحال؛ ويمكن ان نأمل الانتهاءمن العملية في خلال شهر.

استمع الامير زيد لتقريري بهدوء. ورأيت مطلق جالساً بجانبه فحييته بشكل تهكمي سائلاً عما حل بالنقود الذهبية، ومن ثم بدأت أُعيد عليهم برنامجي حول ماذا يمكن ان نقوم به تماماً. وأوقفني زيد قائلاً، "الا ان هذا سيتطلب مقدراً كبيراً من المال." فقلت له "ليس تماماً"؛ فقد كانت الاموال التي في حوزتنا يمكن ان تغطي العملية، واكثر من ذلك. فاجاب زيد بانه لم يكن لديه شيء، وعندما اعربت له عن دهشتي واستغرابي، تمتم قائلاً بانه قد انفق كل ما احضرته من المال. وظننت بأنه كان يمزح، الا انه مضى قائلاً بأن الكثير من المال قد ذهب الى كل من الشيخ دياب، شيخ الطفيلة، والكثير منه ايضاً اعطي للقرويين، وقسم منه الى عشيرة جازي الحويطات وقسم آخر لبني صخر.

كان انفاق ذلك المال برمته من اجل اغراض دفاعية فقط. فجميع الذين ذكروا كانوا يتركزون او يقيمون في منطقة الطفيلة، من الرجال الذين بينهم عدواة دم ويستحيل استخدامهم بعملية شمال وادي الحسا. فعلى نحو مقبول، فان الاشراف، عندما كانوا يتحركون ويقومون بعمليات حربية، فانهم كانوا يقومون بتجنيد جميع رجال المنطقة التي يتحركون اليها بأجر شهري، الا انه كان من المفهوم ان الاجر كان يعتبر وهمياً ويدفع فقط اذا مادعوا للقيام بعمل ونشاط حربي. فقد كان لدى فيصل اكثر من اربعين الفاً من الرجال المحجوزين لهذه الغاية في العقبة؛ في حين ان المساعدة التي كان يتلقاها من انجلترا لاتتعدى سبعة عشر الف جنيهاً، فبقية الاجور كانت اسمية وغالباً مايتم طلبها أو تطلب في حينها، و الا انها لم تكن ملزمة من الناحية القانونية، ومع ذلك فان زيد قال بأنه قد دفع لهم مسبقاً.

كنت مشدوهاً بذلك، اذ ان ذلك عنى تدمير تام لخططي وآمالي، وانهيار جهدنا لحفظ العهد مع اللنبي. وأكد زيد على القول بأن جميع المال قد نفذ. وبعد

ذلك ذهبت لاستطلع الامر من الشريف ناصر الذي كان مريضاً مستلقياً على فراشه. فأكد لي بدوره بأن كل شيء كان على خطأ .

وظللت افكر طيلة الليل ماذا يمكن فعله، بيد انني لم اجد سوى الفراغ؛ وعندما جاء الصباح كان كل ما بامكاني ان افعله هو ان ارسل لزيد خبراً، بانه اذا لم يكن بامكانه ان يستعيد المال فانه ينبغي علي ان اذهب. فرد علي بحساب مفترض للمال المنفق. وبينما كنت اهيء نفسي للرحيل وصل كل من جويس ومارشال، فقد قدما من القويرة ليقدما لي مفاجأة سارة، وابلغتهما بنيتي للذهاب الى اللنبي ولاضع نفسي في خدمته، بعد ان شرحت لهما سبب ذلك، وقام جويس بمناشدة زيد لايجاد حل للمشكلة لكن دون جدوي، ووعد بأن يطرح الأمر على الامير فيصل. ان ذلك كان سينهى اعمالي ويبدد رجالي. ومع ذلك فقد كان بامكاني ان ارحل مع اربعة رجال في وقت متأخر جداً من عصر ذلك اليوم الى بئر السبع، وكانت اسرع طريقة لبلوغ مقر القيادة العامة البريطانية. كان مجيء الربيع قد جعل المسير على طول حافة المنحدر الشديد لوادي عربة جميل على نحو فائق. كما ان الوديان الصغيرة الضيقة كانت مكسوة بالاشجار الخضراء، بل انه كان بالقرب منا او بالقرب من القمة، كما كانت ترى من هناك في الاعلى خليط من المروج الخضراء المتلاصقة والتي كانت تمتد حتى واجهات الصخور الجرداء المتعددة الالوان. فبعض الوانها كانت معدنية، وبعضها الآخر كان لونها عرضياً كيفما اتفق، وذلك عائد الى انسياب الماء من الثلج الذائب والمتساقط على حواف الجروف الصخرية سواء من جراء اندفاع رذاذ الماء او من جراء الخيوط الماسية لنباتات الخنشار الاخضر المتدلية كالضفائر الخضراء .

عند قرية بصيرة، وهي قرية صغيرة تقع على غلاف صخري مشرف على هاوية او منحدر شديد، هناك أصر الرجال الذين كانوا يرافقونني على التوقف لتناول الطعام. وكنت راغباً بذلك، لاننا لو رعينا جمالنا هناك على قطعة صغيرة من الأرض، فمن الممكن ان نسير طيلة الليل ونصل الى بئر السبع في

الغد: الا انه لتجنب التأخير فقد رفضت الدخول الى بيوت مرافقي هناك ، وبدلاً من ذلك فقد تناولت طعامي في مقبرة صغيرة ، على بعد امتار من قبر وضعت عليه ضفائر من الشعر ، علامة على تضيحة المنتحبين بمفاخر وزينة رؤوسهم . وبعد ذلك مضينا لننزل الى ممرات متعرجة ضيقة لممر ضخم يؤدي الى بطن اوجوف وادي دحال الحار ، والذي تعلوه الجروف الصخرية والتلال المتلازمة معاً ، ذلك انه كان من الصعب ان تصل الى ظلامه الدامس اضواء النجوم من السماء . وتوقفنا للحظة في حين كانت جمالنا ترتعش بعصبية باقدامها الامامية بسبب توتر النزول المزعج ، ومن ثم شققنا طريقنا الى اسفل عميقاً لنجتاز جدولاً هادئاً تعلوه اشجار القصب المتمايلة ، والتي كانت تضرب برؤوسنا وأوراقها تلفح وجوهنا . كما افزع الصدى الصادر عن مرورنا في ذلك الممر الجمال في مسيرها .

وسرعان ما اصبحنا خارج الممر وخارج طرفي الوادي لنسير عبر وادي عربة المفتوح . وبلغنا منتصف الوادي ووجدنا انفسنا خارج الممر ولم يكن ذلك رائعاً ، اذا اننا كنا نتبع فقط في المسير ما اتذكره منذ ثلاث سنوات لخارطة نيوكمب في اتباع الطرق . وبددنا نصف ساعة في البحث عن مكان ملائم لارساء الجمال على جرف ترابي . واخيراً وجدنا واحداً ، وشققنا طريقنا بحذر في ممرات متعرجة ، وكان مكاناً غريباً تحت ضوء الهلال في تلك الليلة . وبعد ذلك سرنا باتجاه الغرب لغاية ماوصلنا الى نبع ماء ضخم حيث كان يتدفق من جذور الاشجار . وشربت جمالنا قليلاً ، فهي قد سارت مسافة خمسة الاف قدم من جبال الطفيلة ، وتسلقت لمسافة ثلاثة الف قدم لتصل الى ارض فلسطين .

وعند سفوح تلال صغيرة قبل وادي مورا ، رأينا فجأة كومات كبيرة من النيران ، وكانت ماتزال تشتعل ، ولم يكن هناك أحد مرئي مما يثبت ان مضرمي النيران كانوا مجموعة من المحاربين ؛ وايضاً فانها لم تكن مشعولة على النمط القبلي ، كما اظهر بقاء اشتعال النيران بانهم كانوا لايزالون بقربها ؛ وكان حجمها الكبير يدل على انهم اشخاص عديدين ، لذلك فقد اسرعنا نحوها . وبالفعل فقد كانت نيران معسكر سيارات فورد البريطاني .

وصعدنا الممر عندما بدأ النهار. وبدأ هطول مطر ضئيل، معتدلاً ومنعشاً، وليس كثيفاً وعاصفاً كالذي حدث في الطفيلة. وكانت هناك طبقات أو رقعات من السحب الساكنة في السماء فوق التلال ونحن نسير فوق السهل المريح، نحو بئر السبع، وكان الوقت ظهراً تقريباً، انه كان اداءً جيداً لنزول وصعود الجبال لمسافة ثمانين ميلاً تقريباً.

اخبرونا عند وصولنا بأنه قد تم الاستيلاء على اريحا. فذهبت فوراً الى مقر قيادة اللنبي. كان هوغارث واقفاً هناك على المنصة الخارجية، واعترفت له بانني قد ارتكبت عدداً من الاخطاء، وانني قد حضرت لألتمس من اللنبي ليجد لي دوراً صغيراً اقوم به في أي مكان آخر. فقد وضعت نفسي كلية في خدمة القضية العربية ووصلت الى نقطة محطمة بسبب سؤ تقديري، ولم تكن هذه المناسبة بسبب زيد شقيق فيصل والشاب الصغير الذي احببته حقيقة. وشكوت بانه منذ ان نزلت في الجزيرة العربية فقد كانت لدي خيارات ومطالب، ولم تكن اوامر مطلقاً: ذلك انني تعبت حتى الموت من الارادة الحرة، ومن الامور العديدة التي تقع وراء الارادة الحرة. فلمدة سنة ونصف كنت في حركة دائمة اسير فوق الجمال والدواب الاف الاميال في كل شهر، اضافة للساعات العصيبة التي قضيتها تحت الطائرات المسعورة، او الاندفاع بالمركبات القوية مجتازاً المناطق المختلفة. وفي عملياتي الخمس الاخيرة فقد اصبت بجروح، واصبح جسدي مثخناً بالجراح والآلام. وكنت اتعرض للجوع بشكل عام، وللبرد الشديد الدائم مؤخراً، واصبحت جروحي متقرحة بسبب التجمد والصقيع.

(٩١)

من الناحية الدبلوماسية ، فان هوغارث لم يجبني بكلمة واحدة قط ، وانما اصطحبني لتناول طعام الافطار مع كلايتون . وهناك علمت بأن سمتس قد قدم من قبل وزارة الحرب البريطانية الى فلسطين ، ومعه اخبار قد غيرت من وضعنا نسبياً . وحاولوا لعدة ايام ان يصلوا ألي ليحضروني للتشاور ، واخيراً ارسلوا طائرات ليبحثوا عني في الطفيلة ؛ الا ان الطيارين اسقطوا رسائلهم بالقرب من الشوبك ، بين ابناء عرب كانوا مقيدين جداً بسبب سوء الاحوال الجوية .

وقال لي كلايتون بأنه في ظل الاوضاع المستجدة فانه لن يكون هناك مجالاً مطلقاً من ان يدعوني خارجاً . فقضية الشرق قد بدأت بالمضي الآن فقط . وابلغني اللنبي بأن وزارة الحرب البريطانية تمارس ضغطاً كثيفاً عليه لأن يقوم باصلاح الاوضاع على الجبهة الغربية . وكان علية ان يستولى على دمشق على الاقل ، واذا امكن على حلب باسرع ما يمكن . وانه ينبغي اخراج تركيا حالاً وكلية من ساحات الحرب . وكانت صعوباته تكمن في جناحه الشرقي والذي يقع الآن مباشرة على جبهة الاردن ، وقد استدعاني ليبحث معي فيما اذا كان بامكان العرب ان يحملوا هذا العبء عنه .

وبذلك فانه لم يكن هناك مفراً بالنسبة لي . فيجب علي ان استمر في مهمتي بالشرق . وأجبت اللنبي قائلاً ، باننا لايمكننا القيام بذلك في الوقت الحاضر ، مالم تنشأ هناك عوامل جديدة . فيجب ان تكون معان اولاً ، وعلينا ان نستولي عليها قبل ان نبدأ بالمرحلة الجديدة ، واذا ما اتيحت للقوات العربية

النظامية وسائل النقل اللازمة فانها يمكن ان تسيطر على بعض المواقع شمال معان، وان تقوم بنسف خط السكة الحديد بشكل دائم. وبذلك فان حامية معان ستخرج وتحارب القوات العربية؛ وفي الميدان فانه سيكون من السهل على العرب ان يهزموا الاتراك، فلا بد لنا من امتلاك سبعمائة جمل والمزيد من المدافع والمدافع الرشاشة؛ وفي نهاية الأمر بضمان عدم مهاجمة القوات العربية من جهة جبهة عمان، بينما نقوم بالتعامل مع معان والسيطرة عليها .

وعلى هذا الاساس فان الخطة كانت تسير قدماً. وأمر اللنبي على الفور بأن ترسل الى العقبة وحدتين من الهجانة، وهي تحت اشراف ضباط بريطانيون والتي ابدت كفاءة ونجاحاً عالياً في الحملة التي شنت على بئر السبع. انها كانت هبة عظيمة، اذ ان طاقتها المحمولة تضمن بأننا كنا سنكون قادرين آنذاك على نقل الجيش النظامي الى مسافة ثمانين ميلاً قدماً عن قاعدته، كما انه وعد بتقديم المدافع والمدافع الرشاشة. وبالنسبة لحمايتنا ضد الهجوم من جبهة عمان، فان اللنبي وعد بأنه سيرتب ذلك بسهولة، فقد كان ينوي الاستيلاء على السلط التي تقع خلف عمان، عما قريب، بواسطة اللواء الهندي. وكان مقرراً ان يعقد مؤتمراً او اجتماعاً لقادة الفيالق في اليوم التالي، وكان علي ان امكث لاحضره .

وتقرر في هذا الاجتماع بأن يتحرك الجيش العربي الى نجد معان ليستولي على بلدة معان، وان تجتاز القوات البريطانية الاردن وتحتل السلط، وتدمر نفق السكة الحديد الضخم الواقع جنوب عمان، وقد تقرر ايضاً بأن تتولى القوات البريطانية العمليات العسكرية في عمان، والتي كانت القوات العربية مكلفة بها. وأعرب بولز عن اعتقاده بأنه يجب ان تتصل قواتنا قدماً، بيد انني عارضت هذا الاقتراح، اذ ان الانسحاب منها فيما بعد سيسبب شائعات وردود فعل، وسيكون من الافضل بأن لا ندخلها لغاية ما تتحسن الاوضاع. وسأل شيتود، الذي كان سيقود التقدم العسكري، كيف سيكون بمقدوره التمييز بين العرب الاصدقاء والعرب الاعداء، حيث ان نزعتهم كانت تعادي كل القوات التي تلبس التنانير (القوات البريطانية). فاجبته بصورة طبيعية بأن مرتدي التنانير

يكرهون الرجال الذين يلبسون الزي العسكري الرسمي . وساد جو من الضحك ، وبعد ذلك تم الاتفاق بأننا سندعم احتفاظ القوات البريطانية بالسلط بعد ان تمكث هناك للاستراحة فقط . وحالما يتم الاستيلاء على معان فان القوات العربية ستتحرك قدماً وتحصل على المؤن والاغذية من اريحا وستزود القوات العربية بسبعمائة جمل ، فيما بعد ، لتكون جاهزة للعمل . وسيكون هذا كافياً لجعلها تعمل بالقرب من عمان ، وليتوافق ذلك مع الهجوم الذي سيشنه اللنبي على طول الخط الواقع من البحر الابيض الى البحر الميت ، وستوجه المرحلة الثانية من العمليات العسكرية للاستيلاء على دمشق .

عند ذلك انتهى عملي . فسافرت الى القاهرة لمدة يومين ، ومن ثم ذهبت بالطائرة الى العقبة لابحث هذه الامور المستجدة مع الامير فيصل . واخبرته بما حدث لي مع الامير زيد وكيف انفق المال ، وانسحبت من حملة البحر الميت نتيجة لذلك . الا ان اللنبي اعادني لهناك . بيد ان عودتي لم تكن لتعني بأن الخراب قد اصلح فقد بددت فرصة عظيمة ، وتبدد معها تقدم قيم وثمين . فالاتراك سيستعيدون الطفيلة خلال اسبوع دون صعوبة . وكان فيصل مستاءً خشية من ان يؤدي فقدان الطفيلة الى الاضرار بسمعته ؛ كما صدم من الاهتمام في الضئيل في هذا الامر . ولاراحته من ذلك فقد بينت له بأن موقع الطفيلة آنذاك لايعني شيئاً خطراً بالنسبة لنا ، فالاهتمام يجب ان يتركز آنئذ على عمان ومعان . فلا يستحق الامر ان نخسر رجلاً واحداً من اجل الدفاع عن الطفيلة ، اذا ماتحرك الاتراك اليها ، لأن ذلك سيضعف مواقعهم في معان وعمان ، ويجعل عملنا اسهل . واطمأن لذلك قليلاً ، الا انه ارسل تحذيراً سريعاً لزيد بشأن الخطر القادم ، لكن دون جدوى ، اذ انه بعد ستة ايام استرجع الاتراك الطفيلة . في غضون ذلك قام فيصل باعادة تنظيم قواعد تمويل جيشه . وابلغته باخبار جيدة من ان اللنبي ، بعد ما حدث في حملة البحر الميت ، وأنه قد وضع تحت تصرفي مبلغ ثلاثمائة الف دينار ، وانه منحنا مؤن وذخيرة واسلحة من قافلة مكونة من سبعمائة جمل بأفرادها ومعداتها .

وسبب هذا ابتهاجاً عظيماً لكل الجيش، اذ ان تلك الارتال من الدعم والمساندة ستمكننا من اثبات وبرهنة مدى قوة وتدريب وتنظيم القوات العربية النظامية، والجهود التي قام بها كل من جويس، جعفر، والعديد من الضباط العرب والانجليز لعدة شهور. وقمنا باعداد الخطط والبرامج اللازمة لذلك؛ ومن ثم ابحرت راجعاً الى مصر .

الجزء الثامن

انهيار الأمل الكبير

من فصل ٩٢ ـ ٩٧

من أجل الإتصال مع قوات اللنبي ، فقد وضعنا خطة ثلاثية للاتصال بها عبر الأردن ، أولاً ؛ بالاستيلاء على معان ، وعزل جبهة المدينة في عملية واحدة . وكانت تلك عملية ضخمة ولم نستطع إنجازها . لذلك فإن العرب غيروا خطتهم واهتمامهم من خط سكة حديد المدينة إلى معان ، إذ أن القوات التركية كانت كبيرة جداً .

وللمساعدة في هذه المهمة ، فإن اللنبي زاد من وسائل نقلياتنا ، ذلك حتى نتمكّن من التحرّك طويلاً وبعيداً . وكانت معان حصينة ومنيعة أمامنا ، لذلك فقد ركّزنا على قطع خط السكة الحديد الجنوبي الواصل إليها ، وحولنا الجهد التركي نحو الحامية من جهة عمان .

وبشكل واضح فإنه لا يكون هناك قراراً في مثل هذه التكتيكات ، لكن التقدّم الألماني في الفلاندرز آنذاك أخذ أو حوّل من اللنبي وحداته البريطانية ؛ وبالنتيجة تفوقه على الأتراك . واشعرنا بأنه كان غير قادر على الهجوم .

فالمعضلة التي كنا نعيشها في كل عام ١٩١٨ برمته ، كانت توقعاً لا يطاق . وخططنا لتقوية الجيش العربي من أجل القيام بعمليات الخريف بالقرب من درعا وفي منطقة بني صخر . فإذا ما نتج عن ذلك سحب فرقة عسكرية للعدو من فلسطين ، فإنه سيكون من الممكن القيام بهجوم بريطاني مساعد تكون من إحدى أهدافه الإتصال مع القوات البريطانية في وادي الأردن ، بالقرب من أريحا . إلاّ أنه بعد شهر من الإعداد والاستعداد ، فإن هذه الخطة قد الغيت بسبب خطورتها وبسبب وجود خطة أفضل .

(٩٢)

تدعم وضعنا وقوي خلال وجودي في القاهرة لمدة اربعة ايام. فقد قدم لنا اللنبي ضباط الاركان، وخبيراً في الشحن وخبيراً في الصيانة، وهيئة استخبارات بقيادة ألن داوناي، شقيق واضع خطة بئر السبع الذي ذهب آنذاك الى فرنسا. وكان داوناي يعتبر هدية اللنبي الضخمة - اضخم من حمولات الآف الجمال. وكان ضابطاً محترفاً وقديراً شغوفاً بالحرب وبالقتال. ولم يكن بامكانه ان يقوم بمهام القيادة مباشرة لانه لم يكن يعرف اللغة العربية، كما ان صحته كانت على غير مايرام نتيجة لمعارك الفلاندرز . الا انه كان شخصية انجليزية نادرة، وكان متعلماً ومثقفاً بشكل فريد، وسلوكه الكامل جعله صديقاً لكل الاجناس والطبقات. ومن خلال تعليمه وتدريبه لنا فقد بدأنا نعرف اساليب القتال وفنونها.

وبالنسبة لجويس فاننا وضعنا الخطة الثلاثية معه لمساندة الضربة الاولى لأللنبي. فالقطاع الاوسط بقيادة جعفر سيقوم باحتلال خط السير الواقع شمال معان. وسيقوم جويس ومعه سيارتنا المدرعة بالتحرك الى المدروة ويقوم بتدمير خط السكةالحديد الواصل الى المدينة، وفي الشمال، فانني انا ومرزوق سنقوم بالاتصال مع قوات اللنبي عندما تصل للسلط في الثلاثين من آذار. وكان لدي متسعاً من الوقت لحين ذلك الموعد، فعمدت للذهاب الى الشوبك مع كل من زيد وناصر .

كان الوقت ربيعاً، جميلاً بعد ذلك الشتاء القارص، وبدا الأمر كالحلم مع

ذلك التجدد في الطبيعة والاعتدال في الطقس. وكانت الحياة نشيطة معنا حتى بالنسبة للحشرات ، ففي اول ليلة لنا هناك فقد وضعت كوفيتي من نوع كشمير على الارض وتحت رأسي لاجعل منها مخدة، وعند الفجر عندما رفعتها لاضعها على رأسي ، فقد وجدت فيها مجموعة من القمل. وبعد ذلك اصبحنا ننام على اغطية سروجنا، ومع ذلك فاننا لم نترك وشأننا ، فحشرات قرادة الجمال، التي تكون اشبعت نفسها من دماء جمالنا، فانها كانت تزحف تحتنا ونحن نيام فنسحقها باجسادنا لتخلف بقع ضخمة من الدم على فراشنا .

وبينما كنا نعيش في ذلك الجو المريح ، ننعم بحليب الربيع الوافر حولنا، وردت الينا اخبار من الازرق ، حيث كان لايزال هناك علي بن الحسين والجنود الهنود يقومون بالمراقبة المخلصة ، تفيد بأن أحد الهنود قد مات من جراء البرد، وايضاً داود، ذلك الفتي العقيلي وصديق فراج ، وقد اخبرنا بذلك فراج نفسه. فهؤلاء الاثنان كانا اصدقاء منذ الطفولة ، وكانا يعملان سوياً وينامان جنباً الى جنب، ويتشاركان في كل منفعة ومضرة، ومخلصان ومحبانَ لبعضهما بشكل شريف. لذلك فلم اكن مندهشاً لأن أرى فراج يبدو كئيباً وقاسي الوجه وحزيناً وبادياً عليه الكبر والهرم، عندما قدم ليخبرني بأن صديقه وزميله قد مات؛ ومنذ ذلك اليوم ولغاية انتهاء خدمته فانه لم يعد يضحك أو يجعلنا نضحك ، واصبح دقيقاً جداً في اعماله وبشكل كبير عما كان عليه من قبل، ومعتنياً اكثر بكثير بناقتي وبالقهوة وبملابسي وسروج جمالي. واصبح يصلي بانتظام يومياً. وحاول الآخرون ن يواسوه ويريحوه، ولكن بدلاً من ذلك كان يؤثر العزلة والانعزال كثيراً.

في غضون ذلك كانت الامور تجري بشكل حسن في منطقة أبي اللسان مع خطتنا لتدمير حامية معان، وذلك بوضع الجيش العربي عبر خط السكة الحديد في الشمال، ودفع القوات التركية لدخول معركة هناك ، اذا ان اللنبي كان سيقوم بمهاجمة قاعدتهم ومراكز دعمهم في عمان. واستحسن الامير فيصل وجعفر هذه الخطة ، الا ان ضباطهما تذمروا صاخبين من اجل القيام بهجوم مباشر على

معان . فبين لهم جويس مدى ضعفهم في المدفعية والمدافع الرشاشة ، ورجالهم غير المدربين ومدى الاهمية الاستراتيجية لمهاجمة السكة الحديد ، ولكن لم يجد ذلك معهم . فمولود كان متقداً لشن هجوم فوري ومباشر وكتب مذكرة للامير فيصل بشأن التدخل الانجليزي الخطر في حرية القرار العربي . في تلك الاثناء اصيب جويس بمرض السل وغادرنا الى السويس ، وحضر داوناي ليحل محله ، فقد كان يشكل ورقتنا الافضل والرابحة بسمعته وشهرته العسكرية المعروفة ، الا انه جاء متأخراً اذا ان الضباط العرب كانوا اصبحوا يشعرون بأن كرامتهم قد مست .

ووافقنا بأنه يجب علينا ان ندعهم يتخذون قرارهم مع انه في الحقيقة كنا اقوياء تماماً سواء بالمال أو المؤن او الامدادات او بوسائل النقل ، فجميعها كانت بأيدينا . ومع ذلك ، فاذا ما كان الشعب مبدداً ، فلما ، عندئذ يجب ان يحصلوا على حكومة مبددة ؛ وبشكل خاص فهل ينبغي علينا ان نمضي ببطء مع تلك الديمقراطية من الحكم الذاتي . فالجيش العربي ، كانت الخدمة فيه تطوعية كما هي تجنيدية . وفيما بيننا فقد كنا متأقلمين مع الجيوش التركية المصرية والبريطانية ؛ ونجعل من اسيادنا المحترمين ابطالاً . فقد زعم جويس بأهمية قواته المصرية ـ كرجال رسميين ، يحبون التحرك الميكانيكي ويفوقون القوات البريطانية من ناحية القوةالجسدية ، وفي الترتيب وفي التدريب العسكري ، اما القوات التركية فهي قوات بطيئة متثاقلة ، وعبارة عن جيش من العبيد . وأما الجيش البريطاني فهو معروف بزيه المميز ومتقيد جداً بالاوامر ومطيع لها .

أما في مصر ، فان الجنود ينتمون لخدمتهم دون الالتفاف للرأي العام . وبالنتيجة فان لديهم حافز سلمي لاتمام السلوك الرسمي . وفي تركيا فان الجنود من الناحية النظرية موازين للضباط ، من الناحيةالجسدية والروحية ، الا ان نصيبهم هو ملطف بامكانية الهروب . وفي انجلترا فان التجنيد التطوعي يؤدي دوره تماماً كما هو بالنسبة للاتراك ، فيما عدا ان نتيجة اللياقة والآداب المدنية قد سلبت من السلطة مصدر بلاء الالم المادي المباشر ؛ ولكن في الناحية العملية ،

يقع على عاتق شعبنا الاقل انغلاقاً؛ وتأثيرات الاجهادات تقع قليلاً على عاتق نظام شرقي .

وفي الجيش العربي النظامي فانه لم يكن هناك قوة او سلطة تأديبية او عقابية مهما كان نوعها : فهذا الفرق الحيوي واضحاً جلياً في كافةالقوات . ولم يكن لديهم انضباطاً رسمياً ؛ كما لم يكن هناك خضوع او طاعة . والخدمة العسكرية كانت نشطة؛ والهجومات العسكرية كانت دوماً وشيكة الوقوع . ومثلما هو بالنسبة للجيش الايطالي ، فان الجنود يدركون الواجب في هزيمة العدو . وبالنسبة لبقية الرجال في الجيش العربي فانهم لم يكونوا جنوداً ، وانما رحالة ، يقصدون دوماً لأن يذهبوا ابعد قليلاً .

لم اكن راضياً على نظام هذه الامور ، حيث انه بدا لي بأن الانضباط العسكري ، أو على الاقل الانضباط الرسمي ، كان مزية سلام؛ كشخصية او دفعة يتميز بها الجنود على الرجال العاديين ، وازالة ومحو الانسانية من الفرد ، وتحل نفسها بشكل اسهل الى شيء متقيد ، وجعل الرجال لا يفعلون هذا أو ذاك؛ وبذلك يمكن ان يكون معززاً بقاعدة شديدة تماماً لجعلهم ييأسون من التمرد والعصيان . انها عملية التكتل وعنصراً للجمهور المجهول ، غير قابل للتطبيق على رجل واحد ، حيث انها مشتملة على الطاعة ، وازدواجية الارادة . كما انها لا تنطبق على رجال يجب ان تكون ارادتهم على نحو نشط ، حيث انه عندئذ سيكون هناك ، كما هو الحال في الجيش العربي وبين الجنود الغير نظاميين ، ذلك ان التوقف الخاطف من اجل نقل فكري ، او استيعاب عقلي ، اذ ان الاعصاب تحل الارادة الخاصة المنتقلة الى نتيجة نشطة . وعلى العكس فان كل جيش نظامي مثبت بشكل مجد ومواظب هذا التوقف المهم من وحداته خلال الاستعراض . ويحاول المدربون ان يجعلوا من الطاعة كغريزة وفطرة ، وانعكاس فكري او ذهني يتبع بشكل مستمر القيادة وكانها قوة وسلطة محركة للارادات الفردية مكسوه ومطوقة سوية في النظام .

وهذا كان جيداً الى حد كبير جداً كالسرعة المزدادة ، الا انه لايجعل

شروطاً للاصابات والخسائر، فوراء الافتراض الضعيف بأن كل تابع له ارادته المحركة الغير مهزولة ، الا انها محفوظة في نظام تام ، جاهزة على الفور ليسود واجبة الاعلى القديم؛ وفعالية الاتجاه المار بلطف الى اسفل الهرم الضخم لغاية ثابتة وراسخة في اسمى وأعلى من الخاصتين الباقيتين. ولها ضعف ابعد لرؤية غيره الرجال ولوضع السلطة في ايدي عشوائية كبيرة السن مع نشاطها الفظ: وتفسد على نحو اضافي بالعادة الطويلة للسيطرة، وكانغماس يدمر ضحيته، بتسببه بموت مزاجة المضاف. وايضاً فهي خاصيته او خصوصيته تلزمني لعدم الثقة بالغريزة، والتي لها جذورها في غريزتنا الحيوانية. وبدا العقل ليمنح الرجال شيئاً ما بترو اكثر نفاسه من الخوف أو الالم: وهذا جعلني احسم قيمة اناقة السلام كتعليم حربي .

وبالنسبة للحرب فانها تغير ماكر تحدث للجندي. والانضباط معدل، ومدعوم، وحتى مبتلع بتشوق الانسان للحرب والقتال. فهذا التشوق يجلب النصر في المضي الاخلاقي، وغالباً في المضي المادي للقتال. والحرب تتكون وتتشكل من أزمات الجهد المكثف. ولاسباب نفسية فان القادة يتمنون اقل بقاء او دوام لهذا الجهد الاقصى: فليس بسبب ان الرجال لن يمكنهم محاولة ان يقدموها او يمنحوها - فيمكنهم عادة ان يمضوا بهها لغاية مايسقطوا - وانما بسبب ان كل مثل هذا الجهد يضعف قوتهم الباقية. فتشوق النوع هو عصبي وعندما يقدم بقوة عالية، فانه يفصل الجسد عن الروح .

ولاثارة اهتياج واندلاع الحرب من اجل خلق روح عسكرية في وقت السلم، فسيكون ذلك امراً خطيراً ، كمثل مبتدئ. وبالنتيجة فان الانضباط مع ملازمته ومصاحبته، فقد أوجد ليأخذ مكانه. والجيش العربي أُنشئ وترعرع في جبهة القتال، ولم يتسن له ان يشهد فترة سلام، ولم يواجه بمشكلات فنية لغاية وقت الهدنة؛ عندئذ فقد تلاشى بشكل بارز .

(٩١)

بعد ان ذهب كل من جويس وداوناي، فقد غادرت منطقة اباللسان، وكان معي مرزوق. وكان بدئ يومنا موعود مع النضرة والخضرة لهذا النجد الجميل، فقبل اسبوع كانت هناك العواصف الثلجية المسعورة، وبدا بياض الثلوج وكأنه ضوءاً. وبعد ذلك اصبحت الارض مفعمة بالعشب الجديد، وبضوء الشمس التي كانت تشع فوقنا، صفراء كالقشة، وتلطف من برودة الرياح.

كان يرافقنا في رحلتنا الفين من جمال سرحان، وهي تحمل ذخيرتنا ومؤنتنا. ومن اجل مصلحة القافلة فقد سرنا بتمهل، لنصل الى خط السكة الحديد بعد حلول الليل. وقد سبقنا بضعة رجال منا ليبحثوا عن الخط خلال النهار وليتأكدوا من سلامة الطريق خلال تلك الساعات التي ستقطعها قافلتنا، وكان يرافقني حارسي الشخصي ومرزوق ومعه فتى عقيلي واثنان من جمال السباق الشهيرة، وقد ابهجهم الجو وفصل الربيع وسيطر عليهم، فسرعان ما تحدوا بعضهم بالسباق، وهددوا بعضهم البعض، وتناوشوا. وقد منعني جملي العاجز (ومزاجي) ايضاً من الانخراط بين اولئك الفتيان، الذين انحرفوا في سباقهم نحو الشمال، في حين انني واصلت سيري بانتظام. وانعشني منظر الصحراء الخلاب، وملء مخيلتي الفارغة بعظمتها الفائقة، هذه العظمة التي لم تنجز باضافة التفكير لفراغها ولكن بطرحها. ومن خلال ضعف الارض فان الحياة هي مرآة قوة السماء الواسعة، الجميلة جداً والقوية جداً. وعند اقتراب الغروب فان خط السكة الحديد اصبح مرئياً، وهو متعرج وممتداً على طول

الارض المفتوحة بين الاعشاب والشجيرات المنخفضة . وعندما رأيت بأن كل شئ كان مسالماً فقد انطلقت قدماً ناوياً بأن اتوقف خلفها واشاهد الآخرين يقدمون ، وكان هناك اهتزاز دائم عند لمس القضبان الحديدية والتي كانت هدفاً دائماً لجهودنا العديدة ضدها . وبينما كنت اجتاز بدابتي تعثرت بشئ ولم يكن ذلك سوى جندي تركي كان نائماً هناك فنهض من نومه . وحدق بي بانشداه والمسدس بيدي ، وكانت بندقيته موجودة على بعد ياردات خلفه . كان شاباً صغيراً ويبدو جريئاً وشجاعاً الا انه بدا متجهماً . وحدقت به وقلت له بلطف ، " الله غفور رحيم " . فقد عرف معنى وهدف هذه العبارة العربية ، ورفع عينيه كمثل بريق نحوي ، في حين بدا وجهه الناعس يتغير ببطء نحو الفرح . ومع ذلك فانه لم ينطق بكلمة ، ودفعت كتف ناقتي بقدمي فانطلقت عبر القضبان الحديدية اسفلاً نحو منحدر بعيد . وكان ذلك التركي رجلاً بمعنى الكلمة اذ انه لم يطلق على النار من الخلف وانا اسير مبتعداً ، فشعرت بحرارة نحوه ، وكأن حياتي قد انقذت . وعندما بلغت بعداً آمناً استدرت لانظر اليه فرأيته يضع ابهامه على انفه ويحرك اصابعه نحوي .

اشعلنا ناراً لاعداد القهوة ولتكون كأشارة للآخرين ، وانتظرنا لغاية ماياتوا . وفي اليوم التالي سرنا الى وادي «الجنز» ، حيث توجد برك المياه الضحلة التي تحيط بها اجمات الشجيرات الصغيرة . وكانت المياه رمادية اللون ، الا انها كانت حلوة . وهناك استرحنا طيلة الليل ، اذ ان الزعاقي اصطاد دجاجة بريه ، وتمتع بأكل لحمها الابيض ، في حين قمنا برعي جمالنا على العشب الربيعي . وفي المرحلة الرابعة من المسير وصلنا الى منطقة عطارة ، حيث هدفنا وحيث كان هناك حلفاؤنا ، مفلح ، وكان فهاد وأدهب يخيمون هناك . كان فهاد لايزال يعاني من اصابته ، الا ان مفلح رحب بنا بعبارته الجميلة المهذبة . وكانت خطتنا بسيطة وواعدة ، فقد كان علينا ان نكون مستعدين لاجتياز خط السكة الحديد الى منطقة آبار ثميد ، حيث يعتبر مكان السقاية الرئيس ، لنجعلها مركزاً لقيادتنا ، في حين تكون قوات اللنبي تشق طريقها نحو خط السلط - اريحا . فقد كان علينا ان نتصل مع القوات البريطانية بطريقة مريحة دون اطلاق طلقةواحدة .

في غضون ذلك كان علينا فقط ان ننتظر في منطقة العتاتير التي كانت خضراء ومليئة ببرك الماء ووديانها مغطاه بالاعشاب الطويلة والازهار، مما ادخل البهجة على نفوسنا ،وكانت الحواف الصخرية الكلسية تحيط بالقنوات المائية بشكل جميل. وكنا من نقاطها العالية نتمكن من رؤية جهتي الشمال والجنوب، ونرى كيف ينهمر المطر اسفلاً، وقد اخترقت ماءها الوديان بشكل خيوط بيضاء بين الاعشاب الخضراء، حادة وثابتة كمثل خيوط الفرشاه. فكل شيء كان نامياً، وكانت الصورة كاملة ومشرقة، لغاية ما اصبحت الصحراء متغيرة المنظر والطبيعة. وجلسنا هناك على التل ونحن نرتعش امام هذه الجداول المائية المتدفقة، متوقعين تدفقاً اشد. وبعد ذلك هبت على وجوهنا ريحاً دافئة وعطرة، ولطيفة جداً، في حين كانت جمالنا ترعي على العشب لمدة ساعة او نحو ذلك، ومن ثم تابعنا مسيرنا نزولاً .

اخيراً وردتنا اخباراً تفيد بأن القوات البريطانية استولت على عمان. وخلال نصف ساعة كنا نشق طريقنا صوب "ثميد"، مجتازين خط الصحراء. وتلقينا رسائل فيما بعد تقول بأن الانجليز تراجعوا، ووفقاً لذلك فقد كان علينا ان نحذر العرب مسبقاً بذلك، مع ان ذلك كان مزعجاً. وافادت رسالة لاحقة كيف ان الانجليز قد فروا من السلط. وكان هذا بشكل واضح مناقضاً لخطة اللنبي وهدفه، واقسمت بأن ذلك كان غير صحيح. وقال رجل قادم من هناك بأن الانجليز قد نسفوا فقط بضعة قضبان حديدية جنوب عمان بعد يومين من الهجومات الفاشلة ضد البلدة. واصبحت مستاءً جداً من تناقض الشائعات، فارسلت أدهب الذي يمكن ان يثق به بهذا الشأن الى السلط ومعه رسالة الى شتوود او شيا ، من الجيش البريطاني، طالباً توضيحاً حول الموقف الحقيقي. وجلسنا هناك ننتظر الاخبار بقلق وشغف .

وفي وقت متأخر من الليل وصل أدهب ليخبرنا بأن جمال باشا كان آنذاك في السلط، منتصراً، شانقاً اولئك السكان المحليين الذين رحبوا بالانجليز. وان الاتراك كانوا لايزالون يقومون بملاحقة قوات اللنبي الى مسافات طويلة في وادي

الاردن ، واعتقدت بأن الاتراك سيعيدون القدس . الا انني عرفت تماماً من ابناء بلدي (الانجليز) بأن هذه الاحتمالية غير ممكنة ، بل ان الامور كانت خاطئة جداً . فانطلقت وانا منذهل نحو العطاطير مرة ثانية ، فهذا التراجع الغير مدرك والمعروفة اسبابه صدمني الى حد كبير . فقد بدت خطة اللنبي متواضعة ، وبذلك فاننا لابد وان نسقط في اعين العرب ونصبح باعثين على الاسى ، وانهم لن يثقوا بنا بأن نقوم باشياء ضخمة كما وعدتهم بذلك من قبل ، وان افكارهم المستقلة الآن اصبحت متفتحة كفصل الربيع هنا . كما انهم بدأوا يستفيدون من بعض العائلات الغجرية القادمة من الشمال ومعها مهنة السمكرة وادواتها التي تتنقل بها على الدواب . كما انني انا استفدت منهم ايضاً ، فقد استأجرت أنا وفراج ثلاثة فتيات منهم، لندخل الى عمان ونستطلع فيها الامور . وقد لففنا انفسنا مثلهن وتجولنا في البلدة . وكانت زيارتنا ناجحة ، لذلك فان قراري النهائي كان بأن ذلك المكان يجب ان يترك وشأنه . وعندما رجعنا اعترضنا امر خطير واحد . فقد اعترضنا خمسة جنود اتراك ، واخذونا خمستنا ، حيث لاقينا عناية ودودة، الا اننا تدبرنا امرنا واستطعنا الفرار دون ان نصاب بأذى . وقررت مستقبلاً بأن استئنف عادتي بارتداء ملابس الجنود البريطانيين العادية ، حيث بديت بعيداً جداً عن عنصر الشك .

بعد هذا قررت اعادة الجنود الهنود من الازرق الى فيصل ، وان اعود أنا بنفسي . وبدأنا الرحيل في فجر يوم صاف يبعث على النشاط . وسرنا باتجاه الجنوب على طول خط السكة الحديد ، متوقعين ان نلتقي مع الجنود الهنود المتحركين بشكل بطيء من الازرق . وشجعنا صحو النهار بأن نسرع على المرتفعات ذات الحجارة الصوانية متجاهلين الممرات والطرق الصحراوية والتي كانت تؤدي فقط الى المعسكرات المهجورة للعام الماضي ، او الطرق التي يعود عمرها الى الاف السنين ، والتي لا زالت تحافظ على نفس الحجارة الصوانية والكلسية . وبالقرب من منطقة الفراعير رأينا دورية تركية صغيرة تسير على خط السكة الحديد . ورجاني رجالي ، بعد ان قضوا اجازة راحة في «العطاطير» ، بأن

يهاجمونهم . واعتقدت بأن هذا امراً تافهاً ، بيد انني وافقت على ذلك عندما بدأوا يغضبون . واسرع الشبان يندفعون بداوبهم . وامرت بقية الرجال عبر الخط ، بأن يقوموا بدفع العدو من مخبأهم وراء النفق . وفهم الزعاقي ، الذي كان على بعد مائة ياردة مني ، ماذا كان مطلوباً منه ، فانحرف جانباً في الحال وتبعه محسن بعد لحظة ، ومعه مجموعته ؛ في حين اندفعت انا وعبدالله قدماً باضطراد من ناحيتنا ، للاطباق على العدو من الجانبين او الجناحين معاً . وكان فراج يسير بدابته في المقدمة ، ولم يكن مستمعاً لصيحاتنا ولا لاطلاق نار التحذير التي كنا نطلقها فوقه . ونظر حوله الى مناورتنا ، الا انه استمر بالعدو بدابته بشكل جنوني باتجاه الجسر ، الذي وصله قبل الزعاقي ومجموعته ، واجتاز خط السكة الحديد . وتوقف الجنود الاتراك عن اطلاق النار ، وافترضنا بأنهم ذهبوا الى جانب بعيد آمن من الجسر ؛ الا انه ما ان نزل فراج الى اسفل القنطرة ، حتى اطلق عليه النار ، وبدا انه سقط و انزلق عن الفرس ، واختفى . وبعد فترة ، دخل الزعاقي الى الموقع على الضفة ومعه فريقه وقاموا باطلاق صليات من الرصاص ، حيث ان العدو كان لا يزال هناك .

كنت قلقاً جداً بشأن فراج . وكان جمله واقفاً سليماً بجانب الجسر ، ولوحده فمن الممكن انه قد أُصيب ، او من الممكن ان يكون ملاحقاً للعدو . ولم استطع ان اعتقد بأنه كان يلاحق العدو بترو في مكان مفتوح ، ويتوقف ؛ ومع ذلك فقد بدا الأمر كذلك . فارسلت فهيد الى الزعاقي وقلت له بأن يندفع على طول الجهة البعيدة باسرع ما يمكن ، في حين ذهبنا نعدو مباشرة الى الجسر . ووصلناه معاً ، فوجدنا هناك جندياً تركياً مقتولاً ، وفراج ملقى على الأرض ، وقد أُصيب بجراح خطيرة ، وهو ملقى بجانب القنطرة وقد سقط عن جمله للتو . وبدا انه فاقد الوعي ؛ ولكن عندما نزلنا عن دوابنا ، حيانا ، ومن ثم سقط بسكون ، غارقاً في تلك الوحدة التي تصيب وتضرب الرجال الذين يعتقدون بأن الموت قريب منهم . فقمنا بتمزيق ثيابه ونظرنا دون طائل الى جرحه . فقد اخترقت رصاصه جزء صدره الايمن ، وبدا عموده الفقري مصاباً . وقال الرجال

في الحال بأنه لم يبق على حياته سوى بضعة ساعات . وحاولنا تحريكه ، حيث انه كان عاجزاً عن ذلك ، ومع ذلك فانه لم يظهر بأنه كن متألماً . وحاولنا ايقاف نزيف الدم البطيء من الجرح البليغ ، والذي كان يسيل على العشب ، الا أن ذلك بدا مستحيلاً ، وبعد برهة قال لنا بأن نتركه وحيداً ، اذ انه كان يموت ، وكان سعيداً بالموت ، اذ انه لم يكن مهتم بالحياة . وفي الحقيقة ، فانه كان ينشد ذلك منذ زمن طويل ، فالرجال المتعبون جداً واليائسون يقعون بحب الموت ، مع ذلك الضعف المنتصر الآتي بعد قوة هُزمت في آخر معركة .

وبينما كنا مهتاجين حوله اطلق عبد اللطيف طلقة تحذيرية لنا . فقد استطاع ان يرى حوالي خمسين تركياً يقدمون على خط السكة الحديد باتجاهنا ، وبعد ذلك سمع صوت شاحنة قادمة من الشمال . وكنا فقط ستة عشر رجلاً ، ومن المستحيل مواجهتهم. فقلت لهم بانه يجب علينا ان ننسحب في الحال ، حاملين فراج معنا . وحاولوا رفعه على الجمل ، بعباءته اولاً ، ثم بغطاء بعد ذلك؛ الا انه صرخ بشكل مستعطف جداً بأنه لا يستطيع ان يتحمل المزيد من ا لالم . ولم يكن بامكاننا ان نتركه حيث كان هناك ، تحت رحمة الجنود الاتراك ، لاننا قد رأيناهم من قبل وهم يحرقون الجرحى . ولهذا السبب فقد كنا متفقين جميعنا من قبل ، قبل البدء بأية عملية ، بأن نقوم بتصفية او قتل الواحد للآخر ، فيما اذا كان جرح رفيقنا مميتاً؛ الا انني لم اكن لأتصور ابداً بأن اقوم بقتل فراج .

وجلست راكعاً بجانبه ، حاملاً مسدسي على الارض بجانب رأسه ، ذلك حتى لايدرك هدفي من ذلك ؛ ولكن لابد بانه خمن ذلك ، اذ انه فتح عينيه ، وتعلق بي بقوة، بيده النحيلة، كأيدي ابناء نجد اليافعين . وانتظرت لحظة ، وقال لي ، «سيكون داود غاضباً منك» ، وعادت الابتسامة القديمة بشكل غريب جداً الى وجهه الشاحب المنقبض . فاجبته ، «ابلغه سلامي». ورد علي بالعبارة التقليدية، «وعليك سلام الله» ، واغمض عينيه بضجر .

واصبحت العربة الشاحنة التركية قريبة جداً منا في ذلك الوقت ، وهي تتمايل نزولاً باتجاهنا كمثل خفاش ؛ ويقوم مدفعها الرشاش برش صليات

الرصاص فوق رؤوسنا في الهواء ونحن نتراجع بسرعة نحو الجسور . وقاد محسن ناقة فراج ، الذي كان لايزال عليه جاعده وغطاء السرج المزركش ، وشكل ومكان جسده لا زال عليه تماماً وكأنه قد سقط للتو بجانب الجسر . وقرب حلول الليل ، توقفنا ، وجاء إلي الزعاقي وهويهمس لي بأن الجميع يتشاحنون حول من يجب عليه ان يركب ويقود الناقة العجيبة (ناقة فراج) في اليوم التالي . فقد ارادها لنفسه ؛ الا انني شعرت بالمرارة لذلك ؛ ومن اجل أن أرخص الخسارة الكبيرة بشيء صغير ، فقد قمت باطلاق رصاصتي الثانية على الناقة المسكينة . ثم غابت الشمس علينا . وكان الريح منحبساً في وديان الكرك بشكل غريب ، وذلك بفعل حرارة النهار ، في حين ان الحرارة قد امتصت العطر من الازهار . ومع حلول الظلام فان العالم تحرك مرة اخرى ، وزحفت نسمة هواء من الغرب فوق الصحراء . وكنا على بعد اميال من العشب والازهار ، الا اننا شعرنا بها حولنا فجأة ، حيث انه هفت علينا روائحها العطرية بعبيرها الجميل واللطيف . ومع ذلك ، فانه سرعان ما تلاشى ذلك ، اذ انه تبع ذلك ، هبوب رياح الليل الرطبة والمأمونة . واحضر لي عبدالله العشاء ، المكون من الارز ولحم الناقة (ناقة فراج) . ثم خلدناللنوم بعد ذلك .

(٩٤)

في الصباح، وبالقرب من وادي الجنز، تقابلنا مع الجنود الهنود، الذين كانوا متوقفين عند شجرة منعزلة. وكان ذلك كمثل الاوقات القديمة، مثل مسيراتنا اللطيفة والجديرة بالذكر نحو جسور السكة الحديد قبل سنة، لنجتاز هذه المنطقة ثانية مع حسن شاه، ونحن نسمع اصوات المدافع الرشاشة وهي تصطك ببعضها في حمولاتها، ونساعد الجنود بحزمها على السروج. وبدت هذه العملية غير هينة في رفعها على الجمال، لذلك فاننا لم نتمكن من اجتياز خط السكة الحديد لغاية المساء. وهناك تركت الجنود الهنود، لانني شعرت بالضجر، فالتحرك بسرعة في الليل يمكن ان يعالج ذهني وتفكيري، لذلك فقد اندفعنا قدماً من خلال برد الليل المعتدل متجهين الى "الاضروح". وعندما بلغنا قمته لاحظنا ومضات من النار من جهتنا الشمال؛ واستمرت الومضات بالاشعاع بشكل مستمر، فمن الممكن انها كانت صادرة من حول محطة "جردون". واسرعنا بالعدو لنسمع صوت انفجارات منخفضة. وظهر لهيب نيران، ثم ازداد اكثر فاكثر، فربما كانت المحطة تحترق. فسرنا بسرعة لنسأل مستور عن ذلك.

مع ذلك فان مكانه كان مهجوراً، ولايوجد هناك سوى حيوان ابن آوى يتجول في ارض المعسكر القديم او السابق. فقررت ان اندفع قدماً الى الامير فيصل. واخذنا نخب بجمالنا باسرع ما يمكن، في حين كانت اشعة الشمس تزداد قوة في السماء. كان الطريق مليئاً بالجراد الوحشي، مع ان منظره بدا جميلاً من على بعد قليل، جاعلاً من الجو فضياً بوميض جناحها، فقد جاء فصل

الصيف الينا دون سابق انذار ، فذلك كان هو الصيف السابع لي على التتابع في الشرق .

وما ان اقتربنا حتى سمعنا صوت اطلاق نار صادر من امامنا من جبل "السمنا" ، وهوالجبل الكبير الذي يشرف على معان . وكانت مجموعات من القوات تتجول هناك ببطء تحت قمته ومن ثم تتوقف ، فمن الواضح أن قواتنا استولت على جبل السمنا ، لذلك فقد سرنا نحو الموقع الجديد . وعند وصولنا الى سفحه وجدنا هناك جملاً مع حمالة أو محفة . وقال لنا الرجل الذي كان يقوده ، "مولود باشا" مشيراً الى حمولته ، واسرعت وانا اصرخ "هل اصيب مولود؟" ، حيث انه كان واحداً من افضل قوادنا في الجيش وأخلص واشرف رجل نحونا . واجاب الرجل الكبير من على حمالته بصوت ضعيف قائلاً ، "نعم في الحقيقة ، يا لورنس بيك ، انني مصاب ولكن الحمد لله ، فهذا لاشيء ، فقد استولينا على جبل السمنا» . فاجبته بانني سأذهب الى هناك ، وكان مولود يمد بنفسه من على حافة الحمالة وهو ينظر أو يتكلم بصعوبة ليريني نقطة بعد نقطة ، بشأن تنظيم عملية الدفاع عن الجبل .

ووصلنا عندما كان الاتراك يقومون بقصف الجبل . وكان نوري السعيد يقود المعركة بدلاً من مولود ، ووقف بهدوء على قمة الجبل ، وكان معظم الرجال يتحدثون بسرعة تحت نيران القصف ويقومون بعملية خداع وتموية بشكل مرح . وازداد نوري هدوءاً في حين كان زيد ضجراً ، وسألت عن جعفر فقال لي نوري السعيد بأنه سيقوم بمهاجمة محطة الجردون عند منتصف الليل ، فابلغته عن النيران التي شاهدتها سابقاً ، والتي لا بد وان تكون اشارة لنجاحه بهذا الشأن . وبينما كنا نتحدث بسرور مع بعض وصلت رسالة لتفيد بعدد الاسرى وغنائم الاسلحة ، وافادوا ايضاً بانه قد تم تدمير المحطة (محطة الجردون) ومسافات كبيرة من خط السكة الحديد . انه كان جهد رائع يمكن ان يعطل الخط الشمالي للسكة الحديد لمدة اسابيع . وابلغني نوري ايضاً بانه في الفجر السابق فقد اندفع الى محطة غدير الحاج ودمرها ودمر معها خمسة جسور والاف القضبان الحديدية . وهكذا فان الخط الجنوبي تعطل ايضاً .

وفي وقت متأخر من العصر ساد هدوء ثقيل . فكلا الفريقان توقفا عن قصفهما العشوائي . وقالوا بأن فيصل قد تحرك الى "وهيده" ، فاجتزنا الجدول الصغير ومعنا مولود تجره الحمالة . وقال لي الدكتور محمود الذي كان يشرف على علاجه ، بأنه سيشفي دون اجراء عملية بتر لساقه . ووصلنا الى هناك وكان فيصل يقف على قمة الجبل ، على الحافة تماماً . وبدا وجهة الاسمر امام الشمس وقد خضب رأسه بلون ذهبي ،ومن خلال غطاءالرأس (الكوفية والعقال) الحريري المقصب الذي كان يلبسه . وانزلت ناقتي الى الارض ، ومد الامير فيصل يده وهو يصيح "ان شاء الله خير؟" فاجبت " الحمد والشكر لله" . وسحبني الى خيمته ليمكننا تبادل الاخبار . لقد سمع فيصل من داوناي اكثر مما اعرفه عن فشل القوات البريطانية بالقرب من عمان ، بسبب سوء الاحوال الجوية والتشويش والاضطراب ، وكيف ان اللنبي خابر القائد العسكري شيا ، واصدر له اوامره بالتوقف عن القتال والزحف ، وكان قراراً حكيماً ، مع انه آلمنا بشدة . وكان جويس يرقد في المستشفى ، الا انه كان يتعافي وداوناي كان مستعداً في القويرة ليتحرك باتجاه المدروة بجميع عرباته المدرعة . وسألني فيصل عن عملية جبل سمنا وعن جعفر ، فابلغته بما كنت اعرفه ، وعن رأي نوري السعيد وعن التوقعات المقبلة . فقد شكا نوري من ان رجال ابو تايه لم يفعلوا شيئاً طيلة النهار أو يساندوه في العملية . الا ان عوده ابو تايه انكر ذلك؛ واعدت عليه قصة استيلائنا الاول على النجد ، التي جرت في محطة ابي اللسان والعار الذي وصمتهم به . وكانت تلك قصة جديدة لفيصل ، وقد تألم لذلك كثيراً مما جعله يخرج من خيمته وهو يشعر بمراره شديدة .

قضيت الايام التالية اشاهد العمليات الحربية انا ومياناردا . واستطاع رجال ابو تايه الاستيلاء على موقعين خارجيين يقعان الى شرق محطة ابا اللسان ، في حين استطاع صالح ابن شفيعة الاستيلاء على موقع مدفع رشاش واسر عشرين جندياً تركياً . فكل هذه المكاسب منحتنا حرية الحركة حول معان . وفي اليوم الثالث حرك جعفر مدفعية الى المرتفع الجنوبي ، بينما قاد نوري السعيد مجموعة

اقتحام للسيطرة على مرافق محطةالسكة الحديد ومخابئها . وما ان وصلوا الى هناك حتى توقفت المدافع الفرنسية المؤازرة عن اطلاق النار ، وكنا نتجول بسيارة فورد محاولين ان نشاهد ونستطلع مدى النجاحات المتعاقبة ، عندما قابلنا نوري السعيد ، وكان في كامل لباسه العسكري وهو يدخن الغليون ، ارسلنا في مهمة لنعود الى النقيب بيساني ، قائد المدفعية بنداء عاجل من اجل تقديم المساندة ، فوجدنا بيساني وهو يفرك يديه بيأس ، فقد نفذت لديه كافة الذخيرة . وقال لنا بأن نناشد نوري بأن لايشن هجومه في تلك اللحظة .

لم يكن هناك شئ لفيصل سوى رؤية رجالنا وهم ينسحبون من محطة السكة الحديد ثانية . وكان الطريق مليئاً بالرجال الذين يرتدون الكاكي ، وعيون الجرحى المليئة بالالم تنظر الينا باتهام وقد تلاشت السيطرة من اجسادهم المحطمة واهتزت اجسادهم الممزقة بشكل عاجز ويائس . وتمكنا من رؤية كل شيء ، وفكرنا بذلك على نحو يائس ، الا ان كل شئ كان صامتاً فقد ادركنا معرفة اخفاقنا .

وفهمنا بعد ذلك باننا لم نتوقع ابداً مثل تلك الروح العظيمة لاداء قوات المشاه الذين حاربوا بحماس تحت غطاء المدافع الرشاشة وابلوا بلاءً حسناً ، وفقدنا ثلاثة ضباط فقط . وقد اظهرت لنا عملية معان بأن العرب كانوا جيدين تماماً بدون التصلب البريطاني . وهذا جعلنا اكثر حرية في وضع الخطط ، ذلك ان الفشل يمكن ترميمه وتعويضه .

صباح يوم الثامن عشر من نيسان ، قرر جعفر بشكل حكيم بأنه لا يمكن تحمل المزيد من الخسائر ، وانسحب الى الموقع على جبل سمنا لتأخذ القوات قسطاً من الراحة هناك . وقد ارسل الى القائد التركي كونه كان زميلاً قديماً له بأن يستسلم ويرفع العلم الابيض ، الا انه كان لديه اوامر بأن يحارب الى آخر خرطوش او طلقة معه وقدم جعفر عرضاً بتأجيل عملية الاستسلام حتى يمكنهم من اخراج او ابعاد جنود الاحتياط لديهم ؛ بيد ان الاتراك ترددوا في ذلك على أمل بأن يكون جمال باشا قادراً على جمع القوات من عمان ، ويعيد الاستيلاء

على الجردون ، ويمرر لهم قافلة ذخيرة واغذية ، الى بلدة معان المحاصرة. وظلت السكة الحديد مدمرة ومعطلة لعدة اسابيع .

استقليت سياره على الفور لانضم لداوناي. فقد كنت قلقاً بشأن قتال العصابات الذي كان يديره ويشرك فيه سلاحاً معقداً هو العربات المدرعة . ولم يكن داوناي مستغرباً، ولا ايضاً بيك، خبير هجانته، ولا مارشال، طبيبه الفصيح . وكانت قواته خليطاً من البريطانيين والمصريين والبدو ، وكانت الفئتان الاخيرتان متنافرتان. وهكذا فقد سرت الى معسكره الواقع فوق تل شهم بعد منتصف الليل، وقدمت له نفسي على نحو مهذب كمفسر او مترجم ، واستقبلني بشكل حسن لحسن الحظ وأخذني في جولة حول خطوط معسكره ، وكان مشهداً رائعاً . فقد كانت المركبات مصطفة بشكل هندسي والعربات المصفحة مصطفة هناك، ومفارز الطوارئ والحرس منتشرة خارجاً والمدافع الرشاشة جاهزة، وحتى القوات العربية كانت تتواجد في مكان تكتيكي خلف جبل، جاهزة لحالة دعم ومساندة ، الا انها لم تكن مرئية ولكنها تتابع بتأهب، وكانت تحت قيادة الشريف هزاع . وعجز لساني عن التعبير ، مع رغبتي على القول بأن الشي الوحيد الذي كان ناقصاً هناك هو عدم وجود عدو .

وكشف لي من خلال محادثة عن بعض الخطط والعمليات التي يقوم بها . وكانت كل وحدة لديه معين لها مهمة خاصة بها ، وكان عليهم ان يهاجموا "موقع السهل" عند الفجر (بالعربات المدرعة) من خلال الرابية التي جلسنا عليها انا وجويس في يوم ما لنتحدث ونضحك . وكان على العربات المصفحة ان تكون جاهزة قبل بدء النهار، و تفاجئ مواقع واستحكامات العدو ، ثم تقوم العربتان رقم (١) ورقم (٢) بتدمير الجسران (أ) و(ب) في عملية للخطة المعدة مسبقاً وفي الساعة الواحدة والنصف ظهراً في حين تتحرك العربات الى موقع "الصخرة" وتندفع اليه بدعم من هزاع ورجاله. وسيتبعهم بعد ذلك هورنبي ومعه المتفجرات الموضوعة في شاحنتين ليقوموا بتدمير ثلاثة جسور ، في حين تقوم القوة بشن الهجوم وبعد الغداء وعندما تكون الشمس في موضع منخفض

لتسمح الرؤيا من خلال السراب فان وحدات مشتركة ستقوم بالهجوم على الموقع الجنوبي ؛ فتقوم القوات المصرية بالهجوم من الشرق والقوات العربية من الشمال ، مغطاه بالمدافع الرشاشة للعربات المدرعة وبمدافع برودي من عيار عشرة ارطال ، المنصوبة على جبل الاشراف او المراقبة . وبعد ان يتم الاستيلاء على الموقع ستنتقل القوة بعد ذلك الى محطة تل شهم ، والتي سيتم قصفها بمدافع برودي من جهة الشمال ـ غرب ، وتقصف بالطائرات المنطلقة من منطقة رم ، كما تقوم العربات المدرعة بالتحرك اليها من جهة الغرب . وستتبع القوات العربية العربات المصفحة ، بينما ينزل بيك ومعه قوة الهجانة من الموقع الجنوبي . ووفقاً لهذة الخطة ، فانه سيتم الاستيلاء على المحطة ، الا ان انه لم تنفذ الخطة ، لأن الاتراك ، وبعجل وعلى جهل منهم ، فقد استسلموا بعد عشرة دقائق من القتال ، وجعلوا الامور تسير دون اراقة دماء في ذلك اليوم . وسؤلت فيما اذا كان هزاع قد علم بالامر ، فأُخبرت بانه لم يكن على علم بذلك وانه سيقوم بتحركة الاول عندما تتحول العربات المدرعة باتجاه الشمال . وكان هناك متسعاً من الوقت ، فزحفت واخفيت نفسي لأخذ ساعة من النوم .

وعند الفجر رأينا المصفحات تدب بهدوء على قمة الاستحكامات الرملية الناعمة ، وخرج منها الجنود الاتراك المنذهلين وهم يرفعون ايديهم مستسلمين . وكانت تلك كعملية جني الخوخ . واندفع هوربني بشاحنات الرولز ووضع كميات من المتفجرات تحت جسر (أ) ودمره بصورة تامه ، وجعلتنا شدة الانفجار نخرج انا وداوناي من الشاحنة الثالثة لنستطلع مدى الانفجار فقد كانت طريقه هوربني في التفجير شديدة ومختصره ، بحيث دمرت الجسور الى عشرة قطع . وبينما كنا نتواجد على الجسر (ب) ركزت العربات المدرعة رشاشاتها على موقع الضخرة ، وهو مستدير ذو جدران حجرية كثيفة متواجد على هضبة صغيرة شديدة الانحدار . وكان هزاع مستعداً ، راغباً ومتشوقاً للقتال والهجوم ، والاتراك مذعورين جداً من شدة رشقات المدافع الرشاشة التي كانت لدى القوات العربية . وبذلك ثم الاستيلاء عل الموقع بسهولة .

ومن ثم كانت هناك فترة توقف فاصلة للآخرين بيد ان النشاط ظل قائماً بالنسبة لهورنبي ، وبالنسبة لي ايضاً ، الذي اصبحت الآن مساعد مهندس متفجرات . وقمنا بتفجير الجسور وقضبان سكة الحديد ، كما قام طواقم السيارت بتغطيتنا ، واحياناً بتغطية انفسهم من شظايا الانفجارات بالاختباء تحت السيارات ، وتم استخدام عشرون طناً من المواد المتفجرة في هذه العملية ، وبعد ذلك وفي خلال الفترات الفاصلة قام كل واحد منا بالتقاط الصور التذكارية لعمليات التفجير ، انه كان قتالاً فاخراً وتفجيراً فاخراً ايضاً ، حيث تمتعنا بذلك ، وبعد فترة غداء لمدة ساعةذهبنا لرؤية سقوط "موقع الجنوب" . وكان سقط خلال دقيقة ، ولكن ليس تماماً ، حيث لم يقم هزاع ورجاله بالاندفاع كالذي قام به بيك ومعه القوات المصرية ، واستخدام اندفاعات وهجومات بديلة . فقد ظنوا بانه حقل لسباق الخيل فجعلوا الجمال تسير فوقه وتسحق الخنادق ومرابض المدافع الرشاشة مما جعل الاتراك يستسلمون على الفوز وقد اصابتهم المفاجأة والغثيان .

ثم جاءت العملية المركزية في ذلك اليوم ، وهي الهجوم على المحطة . فانقض بيك باتجاهها من جهة الشمال محركاً رجاله وهو في المقدمة . ووجه مدفع برودي قذائفه المحكمة عليها ، في حين كانت الطائرات تقوم بقصفها بصورة دائرية وتسقط قنابلها على الخنادق والاستحكامات . وتقدمت العربات المدرعة للامام وهي تصب نيران مدافعها الرشاشة وضباب من الغبار يثار حولها ، ومن خلال هذا الضباب رفع الاتراك العلم الابيض ملو حين به وخارجين من خنادقهم موهنى العزيمة .

وركبنا سياراتنا الرولز ، واعتلى الرجال العرب جمالهم ، في حين اصبح رجال بيك جريئين الآن واندفعوا ، واطبقت القوات على المحطة بشكل شرس . وفازت سيارتنا اولاً ، حيث حصلت على جرس المحطة وهو قطعة نحاسية من صناعة دمشقية . اما الرجل الآخر الذي كان معي فقد حصل على مثقب التذاكر ، والرجل الثالث حصل على ختم المكتب ، في حين كان الاتراك المنذهلين يحدقون بنا وهم في انذهال متزايد من ان اهميتهم كانت تأتي في الدرجة الثانية

فحسب. وبعد دقيقة، ووسط الصراخ والتهليل، كان البدو يقومون بجمع الغنائم جرياً على عادتهم فغنموا مائتي بندقية وثمانين الف قطعة من الذخيرة والعديد من القنابل ، والكثير من الاغذية والملابس التي كانت متواجدة في المحطة . الا ان جملاً غير محظوظ داس فوق لغم تركي عندما دخل فناء المحطة فاحدث ذلك انفجاراً وارتباكاً وفزعاً، حيث ظنوا بأن مدفع برودي قد وجه قذائفه ثانية . وخلال فترة التوقف اكتشف ضابط مصري مستودع للاغذية سليماً فوضع عليه حراساً لأن القوات المصرية كانت تعاني نقصاً في الاغذية ، الا ان رجال هزاع، الذين لم يشبعوا بعد ، لم يعترفوا بحق المصريين في مقاسمتهم بشكل متواز. فبدأ اطلاق النار ، وبعد عملية توسط، فقد توصلنا الى ان يقوم المصريون بأخذ ما يحتاجونه من الاغذية اولاً ، وبعد ذلك يكون ما تبقى مشاعاً للآخرين.

كانت الاستفادة من موقع تل شهم كبيرة جداً ذلك ان ثمانية من عشرة من الرجال العرب تمتعوا بغنائمه. وفي الصباح ظل هزاع ومساعده فقط معنا من اجل القيام بعمليات اخرى. كان هدف داوناي التالي هو محطة رملة ، الا ان اوامره كانت ناقصة ، اذا انة لم يتم استطلاع وتدقيق الموقع .

لذلك فقد قمنا بارسال واد بعربته المدرعة، ورافقته عربة ثانية للمساندة. فسار بحذر مرحلة بعد مرحلة ويسكون مطبق ، واخيراً ودون اطلاق اية طلقة ، دخل ساحة المحطة وبعناية خوفاً من الالغام، التي كانت فتائلها واسلاك تفجيرها بارزة على الارض .

كانت المحطة مغلقة. وقام بتدقيق الابواب والشبابيك ، الا انه لم يجد رداً، فنزل من سيارته وقام بتفتيش البناء ، فوجده خالياً من الرجال مع انه كان مليئاً بالامتعة والاشياء ، مما جعل ذلك غنيمة كبري لهزاع ومساعديه . وقضينا النهار ونحن نقوم بنسف اميال من قضبان الخط الحديدي لغاية ما تأكدنا باننا احدثنا دماراً ضخماً تتحمل امكانية اصلاحه اسبوعان .

كان هدف اليوم الثالث هو محطة المدورة ، الا انه لم يكن لدينا املاً كبيراً

في ذلك او قوات كافية للقيام بالعملية . فالرجال العرب قد ذهبوا ورجال بيك كانوا مولعين قليلاً بالقتال . ومع ذلك فربما تكون محطة المدورة قد فزعت مثل محطة رملة ، لذلك فقد نمنا تلك على امل تنفيذ ذلك في الغد. وفي الصباح تحركنا لاستطلاع محطة المدورة ، وكنا نسوق سياراتنا بشكل رائع وهي تدب وتهدر فوق السهول المنبسطة ذات الرمال الناعمة والحجارة الصوانية ، واشعة الشمس المنخفضة من الشرق خلفنا. كان الضوء يخفينا لغاية مااصبحنا قريبين ورأينا قطاراً طويلاً يقف في المحطة . أكان هذا قطار تعزيزات ام اخلاء المحطة؟ تسألنا فيما بيننا . وبعد برهة اطلقوا علينا قذائف من اربعة مدافع ، وكان اثنان منها دقيقان في الاصابة ، وهما من المدافع الجبلية النمساوية ومن نوع هاوتزر . وقاموا باطلاق النار من ساحة المحطة ، فاسرعنا بالاختباء في بعض المنخفضات البعيدة. وبعد ذلك قمنا بعملية التفاف واسعة الى حيث قمنا سابقاً مع زعل بتفجير اول قطار لنا هناك. وقمنا بنسف جسر طويل كانت تتواجد تحته دورية تركية تأخذ قسطها من النوم في منتصف ذلك النهار المتوتر . وبعد ذلك رجعنا الى محطة رملة وقضينا وقتاً في تدمير مسافات من الخط والجسور ، لنحدث دماراً ضخماً يصعب معه على فخري باشا من ان يعيد تصلحيها ، في حين ارسل الامير فيصل محمد الدحيلان الى تلك المحطات السليمة الواقعة مابين المحطات التي نسيطر عليها ومعان . وانضم اليهم داوناي، من الناحية الجغرافية، وقاموا بتدمير الخط الممتد مسافة ثمانين ميلاً من معان الى المدورة ومعه محطاته السبع التي وقعت جميعها في ايدينا ، وبهذه العملية انتهى الخط الدفاعي التركي النشط الى المدينة (المنورة) .

قدم الينا ضابط جديد، اسمه يونغ، من العراق لتعزيز ضباط اركاننا. وكانت لديه خاصية وخبرة طويلة وواسعة بالحرب، ولديه المام تام باللغة العربية. وكان دوره المخصص هو مضاعفة عمليات نسف خط السكة الحديد ، ومساعدة رجال القبائل ، ذلك ان نشاطنا ضد العدو يمكن ان يكون أوسع وافضل

توجهاً . ولاجعله يلعب او يقوم بذلك بنفسه فقد ابلغته بامكانية انضمام زيد، ناصر ومرزوق لعملية القيام بنسف مسافة ثمانين ميلاً من خطة السكة الحديد ابتداء من جهة الشمال، من معان، في حين ذهبت انا الى العقبة واستقليت سفينة الى السويس، لبحث الامور المستقبلية مع اللنبي .

(٩٥)

قابلني داوناي، وتباحثنا قليلاً قبل الذهاب الى معسكر اللنبي. وهناك قابلنا الجنرال بولز مبتسماً لنا بفرح، وقال، "حسناً، اننا استولينا على السلط الآن". واستمر بحديثه، مع دهشتنا وانذهالنا، قائلاً بأن شيوخ بني صخر قد جاءوا الى اريحا صباح احدى الايام، ليقدموا عرضاً فورياً بالتعاون مع البريطانيين بقوات من رجال القبائل يقدر عددها بحوالي عشرين الفاً متواجدين في منطقة ثميد؛ فقام باعداد خطة في اليوم التالي، وتم الاستيلاء على السلط.

فسألت من كان هو زعيم بني صخر الذي قام بقيادة الرجال، فقال لي "انه فهاد". وكان هذا أمر لايصدق. فقد عرفت بأن فهاد لايمكنه ان يقود اربعمائة رجل؛ وانه في تلك الاثناء لم تكن هناك خيمةواحدة في ثميد فقد تحركوا جنوباً، الى حيث يتواجد يونغ.

واسرعنا الى المكتب من اجل سماع القصة الحقيقية، وعلمنا بأنها كانت الحقيقية، ولسوء الحظ، كما قال بولز. وفي هذا الفصل فانه لم يكن هناك شريك ثالث (قائد ثالث) متواجد في مقر القيادة العليا البريطانية. فغاي داوناي، شقيق عزيزنا داوناي، والذي قام باعداد خطة الاستيلاء على القدس قد ذهب الي قيادة اركان هيغ، وبارثولوميو، الذي كان يعد لخطة الخريف للزحف الى دمشق، كان لايزال مع شيتوود. لذلك فان القيادة التنفيذية لأعمال اللنبي في هذه الاشهر غير قابلة للفهم والاستيعاب.

لذلك فان هذه الزيارات كانت مخففة، في حين ظللت في القدس،

لأسلي نفسي بالتناقض مابين بولز وستورز ، والذي اصبح الآن الحاكم المدني للمدينة . وكان بني صخو مسترخين في خيامهم او ان بعضهم قد ذهب الى يونغ . ولاحظ الجنرال شوفال بأن الاتراك يعيدون فتح جبها ت في الاردن ثانية خلف خطوطه ويستولون على الطريق الرئيس الذي تقدم منه . فقام بقواته بالتصدي لهم ، دون مساعدة أحد آخر و نجونا بذلك من كارثة محدقة ، وذلك بسبب فطنة اللنبي برؤيته للخطر في وقته . ومع ذلك فقد كنا نعاني بألم . فالدقة علمت البريطانيين بأن يكونوا اكثر صبراً مع الصعوبات التي كان يواجهها الامير فيصل ؛ مقتنعين بأن الاتراك كانوا يعتبرون قطاع عمان نقطة خطرهم ، ويجعل بني صخر يشعرون بأن الانجليز كانوا يتفهمون الوضع . فهم ربما لم يكونوا مقاتليين عظماء ، الا انهم مستعدين ومهيأين لمواجهة الامور الغريبة ، لذلك فقد قاموا بلئم وتصحيح الفشل الذي حدث في قطاع عمان ، والذي بدا بأنه كان عرضياً . وفي نفس الوقت فقد هدموا (الانجلبز) الامال التي كان يعلقها فيصل على التعامل مع بني صخر بصورة مستقلة .

ان تحركنا الواضح المحدد مع عدو بسيط ، اصبح آنذاك عاجزاً عن التقدم . فقد كان علينا ان نأخذ ايحاءاتنا من اللنبي ، الذي لم يكن سعيداً وقتذاك . فالهجوم الالماني في فرنسا جرده من قواته . وكان عليه ان يحافظ على القدس ، الا انه لم يكن بامكانه تحمل اية اصابة ، او تحمل أي هجوم ولو كان صغيراً في الاشهر القادمة . ووعدته وزارة الحربية البريطانية بامداده بفرق عسكرية هندية من العراق . وبهذه الفرق سيعيد بناء جيشه على النموذج الهندي ؛ وربما بعد فصل الصيف ، فمن الممكن ان يكون مستعداً للحرب ، اما الآن فان كلانا يجب ان نكون متوقفين .

واخبرني (اللنبي) في الخامس من آيار بأنه تم تحديد موعد للزحف نحو الشمال بكافةالجيش كتمهيد للاستيلاء على دمشق وحلب . وكمرحلة اولى لترتيباته فقد كان علينا ان نسيطر على معان ، الا ان توقف اللنبي المؤقت صدمنا وجعلنا نحاصر البلدة بهذة القوات المتفوقة . اضافة الى انه من الممكن الآن ان

يتاح للاتراك الوقت لارسال قوات من عمان لاخراجنا من منطقة ابي اللسان ، ولارجاعنا الى العقبة . وفي مثل هذا الوضع البغيض فان العادة المشتركة للعمليات المشتركة وهي لعنة الشريك الآخر جثم فوق كاهلي بقوة . ومع ذلك فان صلابة اللنبي كانت تهدف لاراحتنا . فقد كان يهدد العدو بالقرب من رأس جسر ضخم عبر الاردن ، وكما لو انه كان على وشك ان يجتازه للمرة الثانية . وهكذا فانه سيبقي على جبهة عمان ضعيفة . ومن اجل تقويتنا ونحن نقف على نجدنا فقد قدم لنا كل ما نحتاجه من وحدات فنية .

وانتهزنا الفرصة لنطلب القيام بغارات جوية متكررة على سكة حديد الحجاز فاستدعى الجنرال سالموند ، وأعطي الاوامر اللازمة بهذا الصدد . وقام سلاح الجو الملكي (البريطاني) ، بممارسة ضغط متزايد على جبهة عمان اعتباراً من ذلك الوقت وحتى استسلام تركيا . وكان الكثير من عدم نشاط العدو في موسمنا او فصلنا القاحل ذاك يعزى الى عدم تنظيم وتشويش واضطراب خط سكتهم الحديد جراء قصفها من قبلنا . وخلال فترة احتساء الشاي ، فقد جاء اللنبي على ذكر لواء الهجانة الملكي في سيناء ، واعرب عن اسفه بأنه في هذه المرحلة الجديدة الحرجة فانه يجب ان يلغي وان يستخدم رجاله كقوات تعزيز محمولة ، وعندما سألته ، "ماذا تنوي ان تفعل بجمالهم ؟" فضحك وقال ، " اسأل قيادة التموين والامدادات " .

وعلى نحو مطيع ، ذهبت عبر الحديقة المغبرة لاصل إلى آمر الامدادات والتموين في الجيش ، السير والتر كامبل الاسكتلندي وكررت له سؤالي . فاجاب بشكل ثابت بأنها (الجمال) قد خصصت كوحدة نقل احتياط للفرق الهندية الجديدة . فشرحت له بأنني بحاجة لالفين منها . وكانت اجابته الاولى لاصلة لها بالموضوع ، واجابته الثانية مموهة . فألححت عليه ، الا انه بدا غير قادر على فهم موقفي تماماً . فبالطبع فان ذلك كان من طبيعة قيادة التموين والامدادات لتكون شحيحة ومموهة .

وعدت الى اللنبي وقلت بصوت مرتفع امام جماعته ، بأنه كان هناك

عرضاً لالفين من الجمال ، مائتين منها جمال سباق ، والباقي جمال لحمل المتاع والامدادات وجميعها كانت مخصصة بشكل مشروط لعمليات النقل ؛ ولكن بالطبع فان جمال السباق هي مخصصة لهذا الغرض . وصفر ضباط الاركان وبدا عليهم الجد والحكمة ، حيث انهم فكروا بذلك ايضاً وشكوا فيما اذا كانت جمال السباق يمكنها ان تحمل الامتعة والامدادات . ومن الناحية الفنية فانه حتى الجمال التي يمكنها السباق او نحو ذلك ، يمكن ان تكون مفيدة ومساعدة . فكل ضابط بريطاني كان يفهم دور الجمال كنقطة او موضوع شرف وكرامة . وبذلك فقد ذهلت عندما طلب من السير والتر كامبل بأن يتناول العشاء مع القائد العام ذلك المساء .

وجلسنا عن يمينه وعن يساره وعندما بدأنا بتناول الحساء بدأ اللنبي يتحدث عن الجمال ، ورد السير والتر بأن هذه الجمال التي ستخصص لعمليات النقل ستقوي من وضع الفرقة الهندية ، حيث ان الشرق يزهوا دوماً بالجمال . ولم يعر اللنبي اهتماماً بمصادرة القوة . ونظر الي باشراق ، "وماذا تريد ان تفعل بها؟ " فاجبت بحرارة ، "لأحرك الف رجل الى درعا في أي يوم تريده او ترغبه " . فاصبحت "الماعز طائشه والشاه خجولة" . انها كانت هبة ضخمة وفخمة؛ هبة للتحرك الغير محدود . فبامكان العرب الآن ان يكسبوا حربهم عندما وحيثما يرغبون بذلك .

في صباح اليوم التالي ذهبت لانضم لفيصل في عرينه الجبلي عند أبي اللسان. وهناك تناقشنا في عدة مواضيع تاريخية قبلية واحوال الطقس وفصل الربيع والرعي ، وبشكل طويل ومفصل. واخيراً ابلغته بأن اللنبي سيمنحنا الفي جمل. وذهل فيصل وامسك بي قائلاً "كيف ذلك؟" فاخبرته بكامل القصة . فانحنى وقبلني ، ثم صفق بيديه بصوت عال . فظهر هيجرس بشكله الاسود عند باب الخيمة ، "اسرع" ، صرخ فيصل "واستدعهم" . فسأل هيجرس "من هم؟" فقال فيصل "أوه ، فهاد ، عبدالله الفعير ، عودة ، مطلق ، زعل " ، " وليس مرزوق؟" فتمتم هيجرس ببرود ، فصرخ فيصل به قائلاً بانه غبي ،

واسرع العبد راكضاً، في حين قلت ، "ان الامر قد انتهي تقريباً وقريباً ستدعني أذهب" ، واحتج على ذلك قائلاً بانه يجب ان ظل معهم دوماً ، وليس قبل ان ندخل دمشق، كما وعدت بذلك عندما كنا في "ام لج" . فأنا الذي اردت ان اذهب بعيداً. وقدم الشيوخ، واحداً اثر الآخر، حيث بدا عليهم الوجوم. وجلسوا بشكل هاديء على السجاد، وكل واحد منهم يقول، "خير، ان شاء الله؟" وكان فيصل يجيبهم "الحمد لله" ، وحدقوا بتسائل في عينيه المشرقتين. وعندما دخل آخر واحد منهم ، وابلغهم فيصل بأن اللنبي قد ارسل لهم وسائل النصر ـ الفان من جمال الركوب . فحربنا كانت تتجه نحو نيل الحرية بدون شك، ولتصل الى نهاية الانتصا. وتمتموا بدهشة وانذهال ، وهم يبذلون جهدهم ، كرجال كبار ليكونوا هادئين ، أخذوا ينظرون إلي ويخمنون دوري في هذا الحدث . فقلت لهم، "انها هبة اللنبي. . . " ، فقطع زعل جو الهدوء ليقول، "حفظه الله وحفظك" . فاجبت "لقد صنعنا عوامل النصر" ، ونهضت واستأذنت بالانصراف من فيصل ، وانسللت خارجاً لابلغ جويس. ونشب خلفي جدال عنيف حول امور وتوقعات المستقبل ، الا ان كل رجل قد شعر بأنها ستكون حرباً سهلة . كما ان جويس كان مسروراً بخبر الالفي جمل. وحلمنا بكيفية ورودها من منطقة بئر السبع الى العقبة، واين يمكننا ان نجد لمدة شهرين مكاناً ليرعي فيه هذا العدد الضخم من الجمال ، كما انهم يجب ان يبعدوا عن الشعير اذا ما سيكونون مفيدين لنا. ولم تكن تلك افكاراً ملحة . فقد كان لدينا في غضون ذلك ، حاجة للحفاظ على انفسنا طيلة الصيف على ذلك النجد، محاصرين بلدة معان ، والابقاء على خط السكة الحديد معطلاً ، فقد كانت مهمة صعبة .

اولاً، بشأن التموين ، فقد ضجرت بالترتيبات الموجودة وقتذاك. فسرايا جمال النقل المصرية كانت تقوم بعمليات نقل التموين والاغذية بصورة مضطردة مابين العقبة وابا اللسان ، الا انها كانت تقوم بحمل كميات قليلة وتسير ببطء اكثر مما نقدره بكثير . وحثثتهم على زيادة الاوزان او الحمولات وزيادة السرعة، الا

اننا وجدنا انفسنا ثانية امام حاجز الانظمة ، التي وضعت للحفاظ على الجمال . ولكن بزيادة عددهم قليلاً ، فاننا ستتمكن من مضاعفة طاقة حمولات القافلة؛ وبالتالي فقد توليت أمر الجمال وارجاع رجال القافلة المصريين. وهلل الرجال البريطانيون ، الذين كانوا يعانون من قلة العمل لهذه الفكرة ؛ وبسرعة كبيرة ايضاً. وكان علينا مهمة شاقة لايجاد سواقين في تلك الاثناء. فجوسليت ، كان لوحده آنذاك يقوم بعمليات الاشراف على التموين والامداد، النقل ، الصيانة صرف الاجور ، وآمرية الموقع . وأي عمل اضافي يسند له سيكون متعباً ومرهقاً جداً عليه . لذلك فقد كلف داوناي سكوت ، وهو ايرلندي، للقيام بهمة آمرية القاعدة . وكان يتمتع بمزاج جيد ، وطاقة وروح جيدتين. وكلفنا برايت بمهمة الصيانة ، وكان برتبة رقيب او رقيب اول؛ وتولى يونغ مهمة الاشراف على النقليات والقيام بمهمة ضابط الامدادات والتموين . وكان يونغ يقوم بعمل مرهق، والتنقل مابين القبائل ، وما بين ناصر ومرزوق وفيصل ، ويجاهد بالوصل بينهم . وبالتالي فانه ارهق العرب بشدة وعنف . وفي مجال النقل فان اندفاعه ومقدرته سيكونان مستخدمان بشكل افضل. كما استخدم كافة طاقته في عمليات نقل المؤن بالسيارات وليختصر كافة الاكوور الاخرى ، وليقوم بجهد مشكور في حل مشكلة التموين للجيش النظامي العربي المتواجد على النجد .

كل شئ في ذلك الوقت كان يزيد ويدعم الثورة العربية . وكان الامير فيصل يقوم وهو في خيمته بشرح وتبيان اهداف الثورة بشكل مستمر . وازدهرت العقبة حتى ان عملنا الميداني كان يسير بشكل جيد . واستطاع الجيش العربي احراز نجاح ضد محطة الجردون ، التي جرى مهاجمتها كالعادة ، ومن ثم تركها. وقامت عرباتنا المسلحة بشن هجوم على وحدة عسكرية تركية خرجت من معان وابادتها . واظهر الامير زيد ، الذي كان يتمركز بقواته شمال وهيدة، نشاطاً كبيراً .

ومع ذلك فانه كان هناك سحباً في الشمال. فقد احتشدت قوات تركية كبيرة في منطقة عمان مخصصة للتحرك الى معان عندما تسمح ظروف واواضاع

التموين بذلك . فكميات التموين هذه كانت محملة لتنقل بالقطار بواسطة السكة الحديد من دمشق ، حالما يتم توقف هجمات سلاح الجو البريطاني من فلسطين . ولنأخذ زمام المبادرة ضد الاتراك ، فقد أُسند الى الشريف ناصر مهمة التحرك ليقوم بعمل كبير ضد السكة الحديد . فخيم في وادي الحسا ، ومعه هوربني ، وبحوزتهما كميات من الديناميت ، وساعد في ذلك فيلق هجانة "بيك" المصري . فيجب ان نستغل الوقت لغاية مايستعد اللنبي للزحف ، وعلى الشريف ناصر ان يقوم بالمساعدة بشكل كبير ، ليجعل من القوات التركية عنصراً غير فعال . واذا مافشل بمهمته تلك فاننا سنتوقع فك الحصار عن معان واعادة سيطرة العدو على منطقة "أبي اللسان" .

(٩٦)

قام الشريف ناصر بالهجوم على محطة الحسا وفقاً لاسلوبه القديم، قاطعاً الخط من الشمال والجنوب اثناء الليل، وموجهاً قصفاً شديداً نحو ابنيتها . وكان المدفعي في تلك العملية هو راسم والمدفع هو من نوع كروب القديم ، والذي استخدم في المدينة ، والوجه والطفيلة. وعندما تم اضعاف القوات التركية هناك، اندفع العرب نحو المحطة ، وكان على رأسهم رجال بني صخر والحويطات . ولم نتكبد اية خسائر في الارواح بالطبع وفقاً للتكتيك الذي أتبع ، وحول هوربني وبيك المكان الى كومة من الانقاض . فقد قاموا بتدمير البئر وخزنات المياه ، والمضخات والمحركات ، والابنية وثلاثة جسور، وقضبان السكة الحديد الاحتياط وحوالي اربعة اميال من خط السكة الحديد . وفي اليوم التالي تحرك ناصر شمالاً ، ودمر محطة الفرايفره . واستمر بيك وهوربني بمتابعة عملها في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه ، وبدا ذلك وكأنه اكبر عمل تدميري قمنا به . فقررت ان اذهب لارى بنفسي .

رافقني عشرة من رجالي ، والى الاسفل من جبل الرشيدية، وصلنا الى الشجرة الوحيدة هناك ، شجرة الطيار . نزل الرجال ليستريحوا فترة من الوقت هناك، ومن ثم تابعنا مسيرنا لنصل الى الحسا ونجد الشريف ناصر هناك ، ومعه الرجال الستمائة وهم يختفون بجانب الجروف الصخرية والاشجار خشية من غارات العدو المفاجئة ، التي قتلت العديد منهم . وقد سقطت قنبلة في بركة ماء من جراء القصف بينما كانت بعض الجمال تشرب منها ، فقتلتهم جميعاً ،

وتبعثرت جثثهم حول بركة الماء فوق الاعشاب وازهار الدفلى الممزقة . وكتبنا الى مساعد مارشال الجو سالموند من اجل القيام بعملية انتقاميه وشن هجوم جوي معاكس . وكانت ماتزال السكة الحديد هناك تحت سيطرة ناصر ، ويقوم كل من هوربني وبيك بعمليات التفجير كلما سنحت الفرصة لذلك . وتم تدمير مساحات كبيرة من الخط امتدت من منطقة السلطاني في الشمال الى الجوف في الجنوب ، بلغ طولها اربعة عشر ميلاً . وكان الشريف ناصر مدركاً تماماً لأهمية الابقاء على نشاطه هناك . وقد وجد مكاناً مريحاً في كهف يقع هناك بين الصخور ليتلافى قصف الطائرات التركية . س كما ان الحرارة والذباب في الوادي لم تكن تشكل عاملاً مزعجاً ، وكان الماء يجري في الوادي ، الذي كان خصباً بمراعيه ويقع الى ماوراء الطفيلة ؛ واذا ماتعرض الشريف ناصر لضغط شديد ، فانه كان بامكانه ان يرسل الى اهالي القرى هناك ليقوموا بنجدته ومساعدته على الفور .

وفي اليوم الذي وصلنا فيه لهناك ، فان الاتراك كانوا ارسلوا قوة من الهجانة والفرسان المشاة ، الى محطة الفرايفرة كأول هجوم معاكس لاستعادتها . وتصدى لها ناصر على الفور . وبينما كانت مدافعه الرشاشة تقوم بحصد القوة التركية ، قام رجال ابو تايه بالسيطرة على جميع الرجال وبعض الجياد لاغتنامها ، خوفاً من ان تفر ويستولى عليها البدو .

بعد ذلك نزلت انا وعودة بالقرب من تشعب الوادي عندما ارتجت السيارة التي كنا نسير بها ، وحدث هدير شديد . ورجعنا من خلال الجلاميد (الصخور) حيث سمعنا انفجار اول قنبلة تسقط في الوادي ، حيث كان بيك يخيم بين اشجار الدلفى الكثيفة . وحلقت الطائرة باتجاهنا ، حيث سقطت القنابل بالقرب من الجمال التي استولينا عليها . وعندما انجلى الدخان والغبار ، كان اثنان منهما مصابان ومطروحان على الارض . وكان هناك رجل غارق في دمه وهو مطروحاً امام صخرة يصرخ من الالم . ثم اصبح ينتقل من صخرة لأخرى ووجهه مغرق بالدماء ويصرخ بشكل جنوني . وبعد لحظة ارتمى على الارض دون حراك ، اما نحن الذين ابعدنا عنه في اول الامر ، فقد اقتربنا منه ، الا انه كان ميتاً .

عدت الى الشريف ناصر ، الذي كان آمنا في مخبئه ومعه نواف الفايز ، شقيق مثقال الفايز شيخ قبيلة بني صخر . وكان نواف رجلاً داهية معتزاً بكرامته ومعتداً بنفسه ، الا انه كان مهذراً كثير الكلام وذا عينين مضطربتين . وكانت معرفتي به تعود الى ما قبل الحرب بسنة ، عندما زحفنا معه بعد الغروب الى مضارب عشيرته الغنية بالقرب من زيزيا . وكان فواز وهو من كبار عشيرة الفايز ، رجلاً بارزاً ، وعضوا بارزاً في حزب الاستقلال الدمشقي . واستقبلني بعبارات الترحيب والضيافة ، واقام لنا وليمة فاخرة ، وبعد ان تحدثنا ملياً ، احضر لنا اغطية والحفه فاخرة لنتدثر بها . ونمت ساعة او ساعتين عندما همس صوت خفيف في اذني يصدر من نفسه رائحة الدخان . انه كان نواف . شقيق فواز ، ليقول لي بأن فواز قد ارسل فرسانه الى زيزيا وسيكونون عنا قريب هنا ومعهم قوات تركية . فقد أوقع بنا بالتأكيد ، ورجالي العرب سيثبتون في مكانهم وينون القتال بشكل شرس ، ويقتلون بعض عناصر العدو قبل ان يقتلوا . فمثل هذه التكتيكات لاتسرني . وعندما يتحول القتال الى الاشتباك بالايدي فانني عندئذ سانتهي . فخشيتي من ان أُلمس يثيرني اكثر بكثير من التفكير بالهزيمة والموت : فربما هذا الخوف من النضال الغنيف عائد الى ايام طفولتي حيث اكسبني خوفاً من الاحتكاك والنزال ؛ وربما كنت موقراً لدهائي وفطنتي كثيراً ، واحتقر جسدي ، وهمست لنواف طالباً منه النصيحة . فزحف راجعاً الى الخيمة ، وقمنا بعد ذلك بتحميل اشيائي وامتعتي القليلة على السرج ، وكانت تقف بجانب خيمته الجمال وعليها سروجها ، وهي راكعة على الارض ، واعتليناها بشكل حذر . وقادنا فواز وهو على مهرته ، وقام بارشادنا في الطريق ، وهو يضع بندقيته في حضنه ، حتى وصلنا خط السكة الحديد ومن خلفها الصحراء . واصبحنا نستضيء بالنجوم ووجهتنا وادي البعير (البير) ، وبعد بضعة ايام مات الشيخ فواز .

(٩٧)

شرحت للامير فيصل بأن قطع وتدمير الشريف ناصر لخط السكة الحديد سيتحمل شهراً آخراً ، وبعد ان يتمكن الاتراك منه ، فسيكون هناك شهراً ثالثاً قبل ان يهاجموننا في منطقة ابا اللسان . وعندئذ فانه ولا بد ان تصل ارتال الجمال الجديدة لتستخدم في شن هجوم لصالحنا . واقترحت على الامير فيصل بأن يطلب من والده، الشريف، بأن يأمر بنقل الوحدات النظامية المتواجدة آنذاك مع الاميرين انذاك مع الاميرين علي وعبدالله الى العقبة . وستزداد تعزيزاتهم لتصل الى عشرة الاف رجل نظامي .

وسنقوم بتقسيمهم الى ثلاثة اقسام . وستخصص القوات الغير منقولة من اجل السيطرة على معان تماماً. وتقوم قوات تقدر بالف رجل بمهاجمة قطاع درعا ـ دمشق . وستتوفر قوات لاعداد حملة عسكرية ثانية تتكون من الفين أو ثلاثة الاف من قوات المشاة ، لتتحرك الى منطقة بني صخر وتتصل مع قوات اللنبي في اريحا ، وسيؤدي الهجوم البعيد المدى الذي سيشن للاستيلاء على درعا او دمشق الى اجبار الاتراك لسحب فرقة أو فرقتين عسكريتين من فلسطين ، وذلك للحفاظ على طرق ووسائل مواصلاتهم واتصالاتهم وباضعاف العدو الي حد كبير ، فاننا ستتيح لأللنبي القوة اللازمة لتعزيز خط هجومه ، وليصل الى نابلس، وسيؤدي سقوط نابلس الى قطع خط الاتصالات الجانبي الذي يجعل القوات التركية قوية في موآب؛ وبذلك فانهم سيجبروا على التراجع الى عمان، سامحين لنا تماماً بالسيطرة على وادي الاردن . ومن الناحية العملية فقد اقترحت

بان نستخدم عرب حوران لنتمكن من الوصول الى اريحا ، وهذا يشكل نصف الهدف للوصول الى هدفنا بدمش . وقد اقتنع فيصل بهذا الاقتراح ، واعطاني رسائل لوالده ينصح فيها الأخذ بهذا الاقتراح . ومن اجل دعم موقفي فقد قررت الاستعانة بوينجيت واللنبي ، فقررت الذهاب الى مصر بصورة شخصية لدفعهما للكتابة للشريف حسين بهذا الصدد . وفي القاهرة وافق داوناي على كل من نقل القوات النظامية الجنوبية ، والقيام بالهجوم المستقل . وذهبنا سوياً الى وينجيت وقمنا بحثه ، واقنعناه بأن تلك الافكار والاقتراحات كانت جيدة الاهداف . فكتب رسائل الى الملك حسين ينصح فيها بارسال هذه التعزيزات الى فيصل .

ومن اجل الحصول على دعم اقوى ، فقد ذهبنا الى اللنبي ، لنتلمس مساعدته بهذا الصدد . وفي مقر القيادة العليا شعرنا بوجود جو مختلف بشكل بارز . فالمكان الذي كان يضج دوماً بالطاقة والامل ، اصبح الآن وضعه منطقياً ، ومنسقاً الى درجة غير عادية . فقد كان لدى اللنبي فضولاً اعمى في الحكم على اختيار الرجال ، وهذا يعود بشكل كبير الى عظمته الايجابيه ، التي تجعل الخاصيات الجيدة في مساعديه تبدو زائدة أو غير ضرورية ، الا ان سثيتوود ، الغير راضي ، كان معترضاً ثانية ، فعين بارثولوميو ، رئيس اركانه ، في المركز الهرمي الثالث للقيادة . وبارثولوميو ، على العكس من داوناي ، مع مايمتلكه من العديد من الجوانب الاجنبية لخياله ، كان مع ذلك مقعداً وصعباً الى حد كبير ، وجنديا مصقولاً بشكل كبير واكثر حذراً وحي الضمير ، وبدا قائداً ودوداً . وعرضنا عليه خطتنا التي سنقوم بها في الخريف ، آملين من خلال حثنا واقناعنا بأن نجعلها ممكنة امامه . وان يوافق عليها بقوة ويدعمنا . واستمع البناوهو يبتسم ، ثم قال بأننا كنا متأخرين عن ذلك كثيراً ولمدة ثلاثة ايام . فقد وصلت جيوشهم الجديدة في موعدها من العراق والهند ، وجرت بصددها الاستعدادات الضخمة في توزيعها وتنظيمها وكانت تدريباتها جارية وقتذاك . وفي الخامس من حزيران تقرر من خلال اجتماع عسكري بأن الجيش سيكون قادراً على شن هجوم عام في شهر ايلول .

اصبح الافق مفتوحاً امامنا في الحقيقة فذهبنا الى اللنبي الذي بادرنا بأنه في وقت متأخر من ايلول فانه سيشن هجوماً كبيراً لتنفيذ خطتي الاستيلاء على دمشق وحلب . وكان دورنا يكمن كما وضع لنا في الربيع ، حيث ينبغي علينا شن الهجوم على درعا بقوات تقدر بالفين من الهجانة . اما مواعيد وتفاصيل الهجومات فستقرر بعد اسابيع وعندما تتبلور حسابات وتخمينات بارثولوميو .

وكان الامل بالنصر يدفعني بأن يكون ذلك مؤكداً . لذلك ، ومن اجل الاحكام والتأكيد الثاني ، فقد حصلت على مباركة اللنبي لنقل الوحدات النظامية لدى الاميرين علي وعبدالله . ومن ثم نويت الذهاب الى جده لمقابلة الشريف حسين والحصول على موافقته . بيد ان الشريف حسين كان انتقل الى مكة من اجل قضاء شهر رمضان هناك ، كما انني لم استطع الاتصال معه هاتفياً ، لذلك فقد رجعت الى القاهرة ومعي رسائل كل من فيصل ، وينجيت واللنبي .

الجزء التاسع

التوازن من أجل جهد أخير

من فصل ٩٨ ـ ١٠٧

أصبح اللنبي مدعماً بالتعزيزات الكبيرة بالقوات التي وصلته من الهند والعراق ، فأكسبته الأمل بالقدرة على وضع خطة الهجوم في الخريف . وعني التوازن القريب في القوات للطرفين (البريطاني والتركي) بأن النصر سيعتمد على مهارته وكفاءته في خداع الأتراك بأن خطرهم الكلي يكمن إلى ما وراء الأردن .

وكان دورنا بأن نلبث هادئين لمدة ستة أسابيع ، متظاهرين بالضعف الذي لا بدّ وأن يغري الأتراك بالهجوم .

عندئذ فإن القوات العربية تبدأ بمهمتها الخطيرة وذلك بقطع خط السكة الحديد الواصل إلى فلسطين .

فمثل هذه الخدعة ضمن الخدعة تستدعي توقيتاً دقيقاً ، إذ أن التوازن سيتضعضع ويخرب سواء بالتراجع التركي المبتور في فلسطين ، أو بهجومهم المبتور ضد العرب إلى ما وراء خط الأردن . واستعرنا من اللنبي بعض قوات الهجانة لإضافتها إلى تعزيزاتنا المفترضة ، في حين كانت تجري الاستعدادات على قدم وساق من أجل الهجوم على درعا .

(٩٨)

في الحادي عشر من شهر تموز، ذهبت انا وداوناي ثانية للتباحث مع اللنبي وبارثولوميو ، حيث ان ثقتهم وسخائهم ، كانت تشكل دعماً قوياً لنا . انها كانت تشكل الخبرة؛ سواء الفنية او اعادة الثقة والطمأنينة ، وكانت ذات قيمة كبيرة لي، وكأني كنت جنرالاً ايضاً ، وبشكل معتدل في مظهري الذاتي الغريب . وكان بولز ذاهباً في اجازة في حين كان يجري اعداد الخطط ، كما ان السير والتر كامبل كان غائباً ايضاً ؛ وقام كل من نائبيه بارثولوميو وايفانز ، باعداد الخطط لاعادة ترتيب وتنظيم نقليات الجيش ، بغض النظر عن اعداد تشكيلاته ،يمثل هذه المرونة فان أية ملاحقة للموضوع يمكن ان تكون مطولة .

كانت ثقة اللنبي كالجدار . فقبل بدء الهجوم ذهب لرؤية قواته تحتشد بصورة سرية ، بانتظار اشارة البدء ، ويبلغهم بأنه متأكد من مساعدتهم الجيدة في كسب المعركة واسر ثلاثين الفاً من العدو ؛ هذا عندما تتحول اللعبة برمتها الى حظ . وكان بارثولوميو قلقاً جداً . فقد قال بانه سيكون عملاً يائساً بأن يعاد تشكيل وتنظيم الجيش برمته مع حلول شهر ايلول، وحتى لو كانوا مستعدين، فاننا لا ينبغي ان نفترض بأن الهجوم كان سيجري كما خطط له . فمن الممكن ان يشن فقط في القطاع الساحلي ، مقابل الرملة ، حيث هناك رأس خط السكة الحديد ، وحيث يمكن ان تجمع هناك المؤن والاغذية . وبدا هذا بشكل واضح جداً بانه لا يمكنه ان يحلم بأن يظل الاتراك عميان، مع انه في تلك الاثناء كانت نزعاتهم تجهل ذلك .

كانت خطة اللنبي تكمن في جمع كافة قوات المشاه والفرسان بين بيارات البرتقال واشجار الزيتون في رام الله قبل التاسع عشر من ايلول. وأمل على نحو متزامن بأن يقوم بنفس الحشودات في وادي الاردن ، ولابد ان يقنع ذلك الاتراك بأن يقوموا بالحشد هناك . فالهجومان البريطانيان اللذان شنا على السلط جعل اعين الاتراك منصبة بشكل خاص على شرق الاردن . فكل تحرك هناك ، سواء كان بريطاني او عربي ، كان يرافقه تحرك تركي مضاد مظهراً مدى الخوف الذي كان لديهم . اما في القطاع الساحلي. المنطقة التي يكمن فيها الخط الحقيقي، فانه لم يكن للعدو هناك سوى عدد ضئيل من القوات . فالنجاح اذن يكمن في ابقائهم بهذا التضليل والخداع المميت . وبعد النجاح الذي حققه القائد الالماني مينيرتزهاجن ، فان عمليات الخداع ، التي كانت تعتبر كمقبلات شهية قبل بدء المعركة ، اصبحت بالنسبة لأللنبي هدف رئيس للاستراتيجية الحربية . ووفقاً لذلك فان بارثولوميو سيقوم ببناء معسكر ضخم (بالقرب من اريحا)، وسينقل الى هناك مستشفيات بشرية وبيطرية ، وسيقوم بوضع معسكرات زائفة ، وقوات وخيول زائفة في أي مكان معقول ؛ من اجل عملية التموين اللازمة، وسيقوم برمي او بناء المزيد من الجسور على نهر الاردن، وسيقوم بجمع كافة المدافع المستولى عليها من العدو ، وفي الايام المناسبة ، فانه سيضمن التحرك المدني على الطرق المغبرة ، ليعطي انطباعاً عن وجود حشودات عسكرية من اجل القيام بهجوم. وفي نفس الوقت فان سلاح الجو الملكي سيقوم بطلعات جوية مستمرة بتشكيلات لاحدث مقاتلاته. وهذا بالتالي سيحرم العدو لمدة ايام من القيام بعمليات استطلاع جوية.

وتمنى بارثولوميو علينا بأن نقوم باتمام جهوده بكل جد ونشاط ، من جانبنا باتجاه عمان . ومع ذلك فقد حذرنا، حتى من هذا ، فالنجاح يمكن ان يتعلق على شعرة ، اذا انه يمكن للاتراك بأن ينقذوا انفسهم وجيشهم، وان ينهوا تحشدنا ثانية، وذلك بانسحابهم ببساطة عن قطاعهم الساحلي لسبعة أو ثمانية اميال . فستكون خطوط سكته الحديد ، ومدفعيته الثقيلة، ذخيرته، تمويناته ،

ومعسكراته جميعها في مكانها الخاطيء ، ودون وجود او حرمانه من بساتين اشجار الزيون ليخفي حشوداته فيها في المرة القادمة. لذلك فانه بينما يضمن بأن تقوم القوات البريطانية باقصى جهدها ، فقد ناشدنا بأن لانخرط العرب لصالح خططة ، في موقف لايمكنهم الخروج او الانسحاب منه .

اعادنا هذا التوقع الممتاز انا وداوناي الى القاهرة ونحن في تأمل وتفكير كبيرين ، واثارت الاخبار القادمة من القاهرة التساؤل ثانية عن مدى الدفاع عن النجد حول معان ضد هجوم تركي محتمل ، الامر الذي اعاد الشريف ناصر من الحسا واصبحوا يفكرون بتوجيه ضربة ضد محطة اباللسان بنهاية شهر آب عندما يتحتم علينا ان نبدأ هجومنا ضد درعا. فما لم يمكننا ان نؤخر الهجوم التركي لمدة اسبوعين اخرين، فان تهديدهم يمكن ان يشلنا ، فقد كان من المطلوب ان ينشأ عامل جديد بشكل ملح .

عند هذه النقطة فان داوناي فكر باحياء فكرة الحصول على فيلق الهجانة البريطاني. فربما تعيرنا اياه القيادة العليا البريطانية وذلك لتشويش تقدير وتخمين الاتراك. وهاتفنا بارثولوميو، الذي تفهم الموقف، وحول طلبنا الى بولز الذي كان متواجداً في الاسكندرية ومن ثم الى اللنبي. وبعد القيام بمراسلات برقية نشطة، فقد حصلنا على طلبنا. ومن ثم اعارتنا القيادة ثلاثمائة هجان بقيادة بوكستن، لمدة شهر وبشرطين : الاول، بانه يجب علينا تزويدهم وفي الحال بخطط عملياتنا؛ ثانياً، بانه لايجب ان يتحملوا اية خسائر، وقد شعر بارثولوميو بانه من الضروري ان يعرب عن اسفه لهذا الشرط الاخير الذي اعتقد بأنه لايمت للجندية بصلة .

جلست انا وداوناي امام خارطة واخذنا نحسب ونخمن بأن بوكستون يجب ان يسير من القتال الى العقبة ؛ ومن ثم يسير من خلال وادي رم ، للاستيلاء على المدورة بهجوم ليلي ؛ ومن ثم من خلال وادي البعير ، لتدمير الجسر والنفق بالقرب من عمان، والعودة الى فلسطين في الثلاثين من آب . وسيمنحنا نشاطهم شهراً آمناً ، بحيث يمكن لجمالنا الجديدة ان تتعلم الرعي، في حين تقوم بحمل الذخيرة والمؤن التي ستتوقعها قوات بوكستون .

وبينما كنا نستعرض هذه الامور، وردت من العقبة خطط اكثر احكاماً واتفاقاً من قبل يونغ الى جويس ، تتعلق بالعمليات العربية المستقلة في حوران وفقاً لما تم التفاهم عليه في شهر حزيران. وقد خمنت هذه الخطط وقدرت الاغذية والذخيرة والعلف ونقل قوات تقدر بالفين من مختلف الرتب ، من منطقة ابا اللسان الى درعا ، واخذت بالاعتبار كافة مصادرنا وبأية طرق ستكمل، وان الهجوم سيبدأ في شهر تشرين ثاني. وحتى لو ان اللنبي لم يقم بسحب جيشه فان هذه الخطة ستسقط بشكل فعلي . وستعتمد الخطة على تعزيزات فورية للجيش العربي في أبي اللسان ، مع ان شهر تشرين الثاني قريب جداً من الشتاء ، مع ماينتج عنه من طرق طينية في حوران . فالطقس والقوات يمكن ان تكون مسائل رأي ، الا ان اللنبي كان معنياً بالهجوم في التاسع عشر من ايلول ، واراد منا ان نبدأ ليس باكثر من اربعة ايام ولا بأقل من يومين قبل بدء هجومه . وكانت كلماته لي بأن ثلاثة رجال وصبي ومعهم مسدساتهم يكونون امام درعا في التاسع عشر من ايلول سيكون ذلك كافياً لفهمه للبدء بالعملية ؛ وسيكون ذلك افضل من الالاف قبل اسبوع او بعد اسبوع. وكانت الحقيقة ، بانه لم يكن يعبأ بقوتنا القتالية ، ولم يكن يعتمد علينا كجزء من قوته التكتيكية . وكان التزامنا نحوه اخلاقياً ونفسياً وتأهباً؛ وذلك لنبقى قيادة العدو مركزة على جبهة شرق الاردن . ومن خلال نزعتي الانجليزية فقد شاركته هذا الرأي ، ولكن من جانبي العربي، فان كل من الاهتياج والمعركة بدتا مهمتين على نحو متواز ، الاول ليؤدي النجاح المشترك ، والآخر لانشاء وتكوين الاحترام الذاتي العربي ، والذي بدونه فان النصر لن يكون شاملاً. لذلك، وبدون أي تردد فقد وضعنا خطة يونغ جانباً وتحولنا لاعداد خطتنا الذاتية. ومن اجل الوصول الى درعا من منطقة ابي اللسان، فان هذا سيتغرق اسبوعين؛ وايضاً من اجل قطع وتدمير ثلاثة محطات سكة حديد ومن ثم الانسحاب الى الصحراء والاستعداد ثانية ، فان ذلك سيستغرق اسبوعاً آخراً ، وسيلزم لمقاتلينا حتى يهيئوا انفسهم ثانية ثلاثة اسابيع. وكانت الصورة متبلورة في مخيلتي - فقد كنا نقوم باعدادها لمدة عامين - ولذلك فقد اعطيت لداوناي تقديري من ان جمالنا الالفين ، ستكون كافية لنقل

خمسمائة رجل مشاه نظامي في رحلة واحدة، ترافقهم بطارية مدفعية جبلية فرنسية، مدافع رشاشة، سيارتان مصفحتان، مهندسو الغام، عناصر استطلاع هجانة، وطائرتان لغاية ما ننجز مهمتنا وابلغنا بارثولوميو ، وبناء عليه استلمنا مباركة القيادة العليا.

ولم يكن كل من يونغ وجويس سعيدين عندما عدت لاقول لهما بأن الخطة الكبرى قد تبعثرت . ولم ارد ان اصف خططهما بأنها كانت عسيرة جداً ومتأخرة جداً ايضاً ، ورميت مسؤولية ذلك على تغير خطة اللنبي. وكان عرضي الجديد لهما معقداً في الشهر والنصف القادم ، فيما يتعلق بهجوم فيلق الخيالة البريطاني والهجوم الرئيسي لمفاجئة الاتراك في درعا. وشعر جويس بانني ارتكبت خطأً. فباستدعاء قوات اجنبية فان ذلك سيحرج العرب ، وان تجعلهم يذهبون بعد شهر، فان ذلك سيكون اسوأ . واصبح يونغ عنيداً ، ومعارضاً جداً لفكري . وسيتحمل فيلق الخيالة مسؤولية الجمال الذين سيحملون الامتعة والمؤن وغيرها، الامر الذي سيمكن القوات العربية من الوصول الى هدفها في درعا ، وبمحاولة عمل أمرين شجاعين او طموحين كان يجب علي فعل لاشئ. فقد قمت بواجبي واصبحت لدينا معركة. وفي المرحلة الاولى فقد حثثت جويس بتولى امر فيلق الهجانة البريطاني . فقد كانوا سيصلون في صباح احدى الايام الى العقبة ولن يشك بهم أحد من العرب - فسيتلاشون فجأة متوجهين الى وادي رم . ومن المدورة الى جسر القصير فسيسرون في الصحراء ، بعيداً عن رؤية الجيش العربي لهم وبعيداً عن اسماع القرى. ونتيجة لغموض وتمويه هذه العملية فان استخبارات العدو ستستنتج بأن كافة قوات لواء او فيلق الهجانه هي موجودة الآن في جبهة فيصل . فمثل هذا التخمين الخاطئ سيجعل الاتراك يطمئنون على وضع سكة حديدهم ، في حين ان ظهور بوكستون على جسر القصير، من خلال عملية استطلاع تمهيدية ، سيجعل الامور مصدقة وتشيع الروايات عن النية قريباً في مهاجمة عمان . فاستسلم جويس امام هذه الخطط الفعالة ، واصبح الآن يؤيد وجهة نظري بقوة .

اما بالنسبة لمتاعب النقل التي كان يواجهها جويس فقد شعرت معه

بالشفقة. فهو كقادم جديد ، كان يقول بأن مشكلاتي لاتحل ، الا انه كان علي ان اقوم بهذه الاشياء بصورة عشوائية ، وبدون نصف مقدرته وتركيزه؛ وعرفت بانها لم تكن حتى صعبة . فبالنسبة لفيلق الهجانة ، فقد تركناه يتولى امرها ، اذ انه كان ضابطاً في الجيش البريطاني وهذه هي مهنته ، ومع ذلك فانه لم يكن يعد بأي شيء ، اي لم يكن دقيقاً في مواعيد البرنامج الزمني الذي لا حدود له . فالهجوم على درعا كان امراً مختلفاً ونقطة بعد نقطة فقد اعترضت على فهمة لطبيعة ومعدات فيلق الهجانه .

واصبح يونغ برماً وغير متحملاً لعبء الجمال من ناحية الاعلاف ، الا انه في تلك السنة فان المراعي كانت وافرة في منطقتي الازرق ودرعا . كما انني اقتصدت في اغذية القوات ، من اجل شن هجوم ثان ، ومن اجل رحلة العودة . واحتج يونغ عالياً من ان الرجال سيقاتلون وهم جياعٌ . فشرحت له باننا سنعيش بما تقدمه تلك المنطقة لنا من اغذية . واعتقد يونغ بأن تلك المنطقة كانت فقيرة بمواردها ، الا انني طمأنته بأنها جيدة. وقال بأن عشرة ايام من مسير العودة بعد القيام بالهجومات ، ستكون تلك مسافات طويلة ، الا انه لم تكن لدي نية بالعودة الى العقبة . ومن ثم فهل يمكنه ان يسأل فيما اذا كان يدور بمخيلتي، هل يكون ذلك بعد انتصار ام هزيمة ؟ وبينت كيف ان كل رجل كان لديه جملاً ، ولو اننا ذبحنا ستة جمال في اليوم ، فان كافة الجيش سيكون لديه طعاماً وافراً . ومع ذلك فان هذا لم يقنعه ، فقد كانت خطة يونغ خاطئة ، لانها شديدة العناية بالتفاصيل. وبدلاً من ذلك ، فاننا سنسير بطابور من الهجانة يقدر بالف هجان الى الازرق ، حيث ان حشدهم يجب ان يستكمل في الثالث عشر من ايلول ، وفي السادس عشر منه سنطوق درعا ، ونقطع خط سكة حديدها. وبعد يومين فسنتراجع الى شرق سكة حديد الحجاز وننتظر الاحداث مع اللنبي . ومن اجل الحصول على احتياطي علف للجمال، فقد قمنا بشراء الشعير من جبل الدروز (العرب) ، وتخزينه في العقبة .

كان نوري الشعلان سيرافقنا ومعه مجموعة من رجال قبيلة الرولى ، وكان هناك ايضاً رجال من عشيرتي السردية والسراحين ، والفلاحين الحوارنة لهذه

الارض "المنخفضة" ، بقيادة طلال الحرادين . واعتقد يونغ بأنها كانت مغامرة يائسة . اما جويس فقد احب اجتماعنا النزاعي والجد لي ، مع انه كان شاكاً بأنني كنت طموحاً الى حد كبير . ومع ذلك فانه كان من المؤكد بأن كلاهما سيبذلان جهدهما ، اذا ان كل شئ كان قد تقرر ، وساعد داوناي في تدبير قرض مالي بالجنيه الاسترليني من القيادة العليا ، فهو ضابط ماهر وحاذق ، حكيماً ولبقاً . فسيكون ذلك له تأثير قوي على الجيش وقادته . ووزعت بعض الاوسمة العسكرية على بعض الضباط العرب ، تقديراً لجهودهم في حملة معان . وكانت تلك اشارات وبادرات تقدير من اللنبي للجيش العربي . وأُسند الى نوري السعيد مهمة قيادة الحملة على درعا ، اذا ان شجاعته ، وسلطته وبرودة اعصابه جعلت منه قائداً نموذجياً . وبدأ باختبار ، من اجل ذلك ، افضل اربعمائة رجل في الجيش .

اما بيساني ، القائد الفرنسي ، فقد كان لديه اربعة مدافع من نوع شنيدر . كان ارسلها لنا كوسيه ، الذي حل محل بريموند ، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية ، وقضى وقتاً معذباً مع يونغ ، محاولاً ان يضع برنامجاً للذخيرة ولعلف البغال ، وتحميل مطبخه الخاص على الجمال . فقد كانت المعسكرات تعج بالنشاط والاستعدادات ، وكل شئ كان واعداً . كان نزاعنا محزناً ، الا انه محتوماً . فالثورة العربية اصبحت متنامية الآن ، واصبحت ومؤسسة مساعدة وجاهزة للعمل . الا انه من المحتمل ان يكون ذلك آخر عمل ، وبقليل من الصبر فمن الممكن ان نجعل مصادرنا الحالية تخدم اهدافنا . وكانت المشاكل والمتاعب بين انفسنا فقط ، وشكراً لعدم انانية جويس المهمة ، فقد احتفظنا بروح الفريق الواحد تماماً لمنع انهياراً كاملاً ، وتنفيذ الامر برمته ، اذا ما كانت هناك حاجة لذلك ، على مسؤوليتي . وقد اعتادوا على الظن بأنني كنت متباهياً عندما قلت ذلك ، الان ان ثقتي لم تكن كبيرة جداً في قدرتي بالقيام بالاشياء تماماً ، كأفضلية لاجعل الامور تسير غير متقنة ، من ان اجعلها تسير معاً بطريقة مهملة او متخلفة .

(٩٩)

كـان الوقت نهـاية شهـر تموز ، ومع حلول شـهـر آب (١٩١٨) فـان حـملة درعا يجب ان تكون قد بدأت . في غصون ذلك ، فان فيلق هجانه بوكستون كان يسير حسب البرنامج المعد له ، وقد تم تنبيه نوري الشعـلان ، وشقت العربات المدرعة طريقها الى الازرق ، وأوجدت مهابط للطائرات . انه كان شهر عمل ونشاط . وبدأ نوري الشعلان ورجاله ،الذين كانوا يتواجدون في ابعد مكان ، زحفهم اولاً . واستدعي لمقابلة الامير فيصل في الجفر في السابع من شهر آب . وبدت الحاجة لقوة بوكستون في المرتبة الثانية ، وابلغت الامير فيصل بمجيئهم . ولضمان عدم تعرضهم لخسائر او اصابات فانه كان ينبغي عليهم ضرب المدورة اولاً في هجوم مفاجئ . وكان علي ان ارشدهم بنفسي الى وادي رم ، في اول مسير خطير من خلال تخوم أو اطراف قبيلة الحويطات المنتشرة حول العقبة .

ووفقاً لذلك فقد ذهبت الى العقبة ، حيث جعلني بوكستون اقوم بشرح لكل سرية من قواته خطة مسيرها ، وعن طبيعة الحلفاء ، الذين دون استفسار ، سيذهبون لمساعدتهم ، ملتمساً منهم ان يديروا خدهم الآخر اذا ما حدث هناك مناوشة ، وذلك لانهم كانوا اكثر تعليماً ، او لانهم كانوا قلة صغيرة. وبعد كل هذه التوجيهات جاء وقت المسير ، فسرنا اولاً في ممر وادي العتم الضيق ، ولغاية مامررنا من خلال الفجوة الواقعة قبل صخرة خزايل ، والى الموضع الداخلي للينابيع ، المتميزة ببرودتها وعذوبتها .

وفي وادي رم كـانت اول تجربة للهجانة في سقـاية الجمـال وكمـا يفـعل

العرب ، فوجدوا ان تلك كان عملية مزعجة . ومع ذلك فقد قاموا بذلك بصورة رائعة ؛ وكان بوكستون يتحدث العربية ، منذ كان مسؤولاً في السودان ويفهم ويستوعب العادات البدوية ، وكان صبوراً جداً ، جيد المزاج ومتعاطف . وكان هزاع مساعداً في افهام واقناع العرب ، كما ان كل من ستيرلنغ ومارشال ، اللذان رافقا الرتل متأقلمين مع عادات عشيرة بني عطية . فشكراً لدبلوماسيتهما وعنايتهما بالكوادر البريطانية فلم يحدث أي شيء نتيجة لذلك .

مكثت معهم في رم يومهم الاول ، وانا صامت امام عدم تصديق رؤية هولاء الاتباع الذين تبدو عليهم الصحة والعافية ، كمثل اولاد المدارس في سراويلهم القصيرة ، وهم يتجولون حول الصخور التي كانت تشكل متنجعاً لي . وأدى مكوثهم في صحراء سيناء لمدة ثلاث سنوات الى حرق ولفح وجوههم باشعة الشمس ، واصبحت عيونهم الزرقاء مضطربة بضعف امام عيون البدو المتفرسة . وبدا الجنود البريطانيون امام رجالي النجديين المطواعين ، بلداء وكسولين .

وسرت فيما بعد الى العقبة ، من خلال الجدران الصخرية العالية لوادي العتم ، واصبحت وحيداً الآن ومعي ستة رجال ساكنين وهادئين ، سائرين من غير تردد او اعتراض ، والذين كانوا يتبعونني كمثل خيالي ، منسجمين وغاصين في رمالهم وشجيراتهم وجبالهم الطبيعية ؛ وتملكني الحنين الى الوطن ، ضاغطاً علي بقوة بين هؤلاء العرب ، بينما اقوم باستغلال مثالياتهم العليا وجعل حبهم للحرية اكثر من اداة لمساعدة بريطانيا في كسب الحرب .

واصبح الوقت مساءً ، وكانت الشمس تغيب من وراء الجبال ، وتشع اشعتها بشكل متطرف في عيني ، ولانني كنت مرهقاً للغاية متشوقاً جداً وبشكل ملح من اجل رؤية سماء انجلترا . فشمس الغروب هذه كانت عنيفة ووحشية ومثيرة ، محيية الوان الصحراء كطبق الاصل - اذ انها في كل مساء تقوم بذلك ، في معجزة جديدة من القوة والحرارة - في حين ان اشتياقاتي الشديدة كانت من اجل الضعف ، والمثبطات والغبابية الباهتة ، ذلك ان العالم لا يمكن ان يكون

بلوري صاف، جداً وصحيح وخطأ بشكل مؤكد جداً. ونحن الانجليز ، الذين عشنا في الخارج بين الغرباء، كنا دائما نلبس بفخر تذكر بلدنا ، ذلك ان الهوية (الشخص) الغريبة ليست جزءاً من السكان المحليين ، بالنسبة لهؤلاء الذين يحبون بريطانيا جداً ، وغالباً مايحبون ابناء الانجليز قليلاً . وهنا في الجزيرة العربية ، من خلال حاجة ومتطلب الحرب ، فقد كنت اقايض شرفي وكرامتي بمؤازرتها واعانتها ، بشكل محتوم .

وفي العقبة تجمع بقية رجالي ، واستعدوا من اجل نيل النصر ، اذا انني قد وعدت الرجال الحوارنة بأنه يجب عليهم ان يجتازوا هذه الوليمة العظيمة في سبيل تحرير قراهم ، وان موعدها قد اقترب. لذلك فقد تجمعنا واحتشدنا لآخر مرة على الشاطئ العاصف بالقرب من حافة البحر ، وكانت الشمس بموجاتها المشعة تومض في منافسة مع رجالي المتوهجين والمتغيرين .

كانوا ستين رجلاً ، ونادراً ما كان الزعاقي يقوم بجمع اعداد كبيرة من قواته معاً ، وما ان نسير الى الجبال السمراء للوصول الى القويرة حتى يكون منشغلاً بفرزهم على النمط العقيلي ، فيوزعهم في الوسط وفي الاجنحة ، ومعهم شعراء ومغنون من اليمن والشمال . لذلك فقد كان مسيرنا موسيقياً . وكان يؤلمه بأنه لم يكن لدينا راية ، كمثل جيش امير . وكنت ممتطياً ناقتي غزالة ، الناقة الجدة القديمة ، واصبحت مرة ثانية ملائمة بشكل هام . فقد نفقت وليدتها مؤخراً، وقام عبد الله بسلخ جلدها ، وحمله بعد ان جففه وراء سرجه ، كمثل قطعة مذيلة. وبدأنا المسير بشكل حسن ، شاكرين للزعاقي غنائه وانشاده ، ولكن بعد ساعة رفعت "غزاله" رأسها عالياً ، وبدأت تخب باضطراب ، وتحرك ساقيها كمثل رقاص السيف . وحاولت ان احثها على السير ، الا ان عبد الله اندفع ليسير بجانبي وقام بلف عباءته حوله ، ونزل من على جمله وفي يده جلد بنت الناقة التي نفقت. وقذف بحفنة من الحصى امام غزالة التي توقفت تماماً واخذت تنوح ، وقام بعد ذلك ببسط الجلد امامها وسحب رأسها لتنظر اليه اسفلاً ، فتوقفت عن البكاء ، وقامت لتسير قدماً بتذمر. وحدث ذلك عدة مرات

في ذلك اليوم . ولكن بعد ذلك بدت وكأنها تنسى . وفي القويرة ،كان الطيار سايدونز ينتظرني امام طائرته . فقد ارادني الامير فيصل ونوري الشعلان ان اذهب الى الجفر فوراً . وكان الهواء ضعيفاً ومتخبطاً، لذلك فقد حلقنا بصعوبة فوق قمة جبل شتار . وتساءلت اذا ما كنا سنسقط نصطدم بقمته، آملاً ان يحدث ذلك تقريباً . وشعرت بيقين من ان نوري الشعلان كان على وشك الطلب بانجاز نصف صفقة غير منطقية ، والتي سيكون تنفيذها اكثر سوءاً من التفكير بها . فالموت في الجو اثناء التحليق سيكون فراراً نظيفاً وشريفاً من ذلك ، مع انني من النادر ان افكر بذلك ليس بسبب الخوف، اذ انني كنت تعباً جداً لأن اكون خائفاً بشكل كبير، ليس بسبب التردد ، اذا ان حياتنا بدت لي بأنها كانت تخصنا تماماً ، سواء لنبقي عليها او لنبددها : ولكن كالعادة ، انه كان من المتأخر ان اخاطر بنفسي فقط، عندما بدت الامور مغيرة لقضيتنا كان التفكير يحتل جزءاً كبيراً من تفكيري، واجداً الغريزة والسبب كما من قبل يكمن في حرب قوية . فالغريزة تقول "يموت" ، الا ان العقل يقول بانه كان فقط لقطع نطاق الفكر ، واطلاقه نحو الحرية؛ فمن الافضل السعي نحو بعض الموت الذهني ، وتبديد بعض بطء الذهن لبغوص اسفل هذه الارتباكات والاندهالات فالحدث ، هو اغنى من الخطأ المقصود . واذا لم اتردد بالمخاطرة بحياتي، فلما الاعتراض على تلويثها ؟ ومع ذلك فان الحياة والشرف بدتا في فئات مختلفة، غير قادرة لتباع واحدة للاخرى ، وبالنسبة للشرف او الكرامة ، الم اكن قد فقدت ذلك قبل سنة، عندما سنة عندما اكدت للعرب بأن انجلترا تحافظ على عهدها ؟

ام ان الشرف كان كمثل اوراق شجر "سايبل" ، كلما فقدت اوراق اكثر كلما اصبح الورق القليل الباقي نفيساً ؟ وهل جزئها موازياً لمجملها ؟ وسريتي الذاتية تركتني بلا حكم او وسيط للمسؤولية . وان افساد العمل المادي الجسدي انتهى مع ذلك في رغبة ملحة من اجل المزيد ، في حين ان الشك الدائم الابدي المتسائل ، يقيد فكري ويحاصره في لولب طائش ولايترك لي ابداً مجالاً للتفكير .

وهكذا فقد وصلنا اخيراً احياءً الى الجفر ، حيث قابلنا كل من فيصل ونوري بروح لطيفة جداً ، ودون ذكر لمتاعبي ، وبدا أمر لايصدق بأن نوري الشعلان، الرجل العجوز ، قد انضم الى شبابنا بشكل حر ، اذا انه كان كبيراً في السن، شاحباً ومتعباً ، وعلى وجهه علامات الحزن مع ابتسامة مريرة . وجرى حديث رسمي حول هذا الزعيم قليل الكلام ، اذ انه كان كبير شيوخ القبيلة. وكان الشيوخ يتباهون بهبات وعطايا الامير فيصل لهم. وكان اولهم الشيخ فارس ، كمثل شخصية هاملت ، لايغفر لنوري قتل والده سطام ، وهو رجل نحيل ذو شارب متدلي ، ووجه لبعض غير طبيعي ، وكان اسلوبه في الكلام ليناً وهادئاً . وقال موجهاً كلامه نحوي باندهاش "هو يفهم اللغة العربية" ، وكان طراد وسلطان هناك ايضاً ، وهما من الرجال الشرفاء الذين يتكلمون بصورة مباشرة ، وقادة فروسية عظماء. وايضاً مجحم، الرجل الثائر ، قد أُحضر من قبل الامير فيصل وجرى تسوية الامور بينه وبين عمه بعدم رغبة ، والذي بدا بأنه شبه متسامح بهذا الشأن ، ومع ذلك فان اسلوب مجحم كان ودوداً .

وكان مجحم زعيماً عظيماً ومنافساً لطراد في القيام بالغارات ، الا انه كان ضعيفاً وقاسي القلب. وجلس الى جانب خالد، شقيق طراد ، وهو فارس قوي ومغوار آخر ويشبه طراد بالوجه ، الا انه ليس رجلاً مكتملاً. ومال درزي ابن دغمي ورحب بي ، فذكرني على نحو غير مشكور بجشعه في النبك ، وكان ذا عين واحدة، وذا انف حاد بديناً وشجاعاً ، وكان هناك الخفاجي ، وهو من جيل ابناء نوري الشعلان ، وبدا انه غير ودود معي ، وذلك بسبب والده، وليس لأي سبب في نفسه ، وكان صغيراً تماماً في العمر مما جعله مسروراً جداً بمغامرة الحرب وفخوراً باسلحته الجديدة. اما بندر الولد الضاحك وهو في مثل عمر الخفاجي فقد احرجني امام الجميع بالالتماس مني بأن اضمه الى رجالي . وقد سمع من رحايل، اخيه في الرضاعة حول المغامرات التي يقومون بها والاحداث التي يشهدونها ، وعارضت ذلك، وعندما الح اكثر رددته متمماً بانني لست ملكاً لأن يكون لي خدماً من الشعلان ، وبادرني نوري بالرضا والموافقة .

وجلس رحايل بجانبي ، وكان يهمس لي من خلال الحديث باسم كل شيخ قبيلة متواجد هناك . ولم يسألوا من أكون ، اذا ان ملابسي ومظهري كانا خاصين بالصحراء . وكان من رداءة السمعة او الهيئة لأن اكون الشخص الوحيد الحليق الوجه ، وضاعفت ذلك بارتدائي دوماً الحرير الخالص المثير للاشتباه ، الناصع البياض ، مع الكوفية والعقال المكي الذهبي المقصب ، والخنجر المذهب . وبارتدائي لذلك ، فقد كنت أثير تساؤلاً ، والذي كان الاعتبار العام لفيصل يؤكدني . كان الامير فيصل يعقد مثل هذه المجالس القبلية في الكثير من الاوقات ويخرج منها غانما وضاماً قبائل جديدة لجانبه ، وكان العمل في كثير من الاحيان يقع على كاهلي ، الا انه لغاية ذلك اليوم لم نكن ابداً متكاثفين ومتجمعين بشكل نشط في كتلة واحدة ، معززين ومعتمدين على بعضنا البعض ؛ وسار العمل كمثل مسرحية اطفال ، وانصهرت قبيلة الرولا في جيشاننا المزدوج . وقد اصبح بامكاننا ان نحركهم بالكلمة والفعل . وكان هناك توتراً ، والتقاطاً للانفاس ، وتألقاً في المبدأ والعقيدة في عيونهم المتباعدة الواهنة المركزة والمثبته علينا .

وغرس فيصل مبدأ القومية في اذهانهم وعقولهم بعبارة واحدة ، مما جعلهم يفكرون بالتاريخ واللغة العربيتين ، ثم ركن للهدوء برهة ؛ اذ ان الكلام او الحديث مع هؤلاء الشيوخ كان حيوياً ، وقد احبوا ان يتذوقوا او يدققوا في بعضهم البعض ، مع انهم كانوا غير ممتزجين او مندمجين في عملية التذوق او التدقيق . واظهرت لهم عبارة اخرى الروح التي كان يتمتع بها الامير فيصل ، كزعيم وابن قومهم ، مضحياً بكل شيء من اجل الحرية القومية والوطنية ؛ ومن ثم سكت ثانية في حين تخيلوه نهاراً وليلاً وهو في خيمة ، يقوم بالوعظ والتعليم ، ويقوم باصدار الاوامر ويصنع الاصدقاء ؛ وشعروا بشيء من الفكرة والرأي خلف صورة هذا الرجل الجالس هناك كمثل الايقونة ، مليئاً بالرغبات والطموحات ؛ مجمعاً رجال وسلاح العرب في سبيل هدف واحد .

ومضى الامير فيصل موضحاً الخط الدفاعي الابدي للعدو ، وان الهدف الاسمي هو القيام بالعمل الضروري . وكانت محادثتنا لهم مباشرة لاضاءة

سلسلة من الافكار المدفونة او المكبوتة لديهم ؛ ذلك ان الحافز يمكن ان يكون نابعاً من ذاتهم، وليس مزروعاً من قبلنا. وسرعان ما اصبحوا مفعمين بالحيوية ونشطين تجاه بعضهم، فلمنا للخلف ، واخذنا نشاهد تحركهم وحديثهم واصبح بينهم حديث ودي حار لغاية ما اصبح الجو نابعاً بالحياة ، فما لبثوا ان اصبحوا متحمسين مندفعين . ثم تحولوا نحونا ليستعجلوننا، وسرعان انضمت القبائل الواحدة تلو الاخرى الينا ، مع ان كلمة نوري الشعلان الواسعة والتي تفوه بها بعبارة "نعم" في النهاية، حملت اكثر من جميع ماقاله .

لم يكن او يحدث أي شي او ردة فعل عصبية من خلال محادثتنا او وعظنا فقد بذلنا قصار جهدنا لتلافي الحساسيات، و ذلك حتى يكون دعمنا ومساندتنا على نحو بطئ ومقنع، متيناً، وغير عاطفي . كما انه لم نرد ان نبدد اموالنا على هؤلاء الذين لم يقتنعوا من الناحية الروحية. فالمال كان عبارة عن تأكيد؛ كمدقه او هاون ، وليس حجر بناء ، فمن اجل شرآء الرجال فانه ولابد وان نصنع حركتنا (ثورتنا) على قاعدة المصلحة؛ في حين ان اتباعنا يجب ان يكونوا مستعدين للذهاب الى كل الطرق دون خليط آخر في حوافزهم من الضعف والهشاشة الانسانية. وحتى انا، الغريب، فقد تملكني الهام غريب بالقومية، وشعرت بالانعتاق من البغض والكره وتساءل ابدي للنفس في تقليدي واقتباسي لعبوديتهم للفكرة؛ وهذا بالرغم من نقص الغريزة في ادائي الذاتي .

ذلك انه بطبيعة الحال لايمكنني ان اخدع نفسي لمدة طويلة ، الا ان دوري كان القيام بالعمل على نحو ثرثار ووقح جداً ذلك انه لا أحد سوى جويس ، ونسيب ومحمد الدحيلان بدوا ليعرفوا بأنني كنت عاملاً. ومع وجود الفطرة الانسانية فأي شئ يعتقد من قبل اثنين او ثلاثة كان له موافقة عجيبة للراحة الفردية، وان الحياة يمكن ان يضحى بها بشكل شريف . وبالعقلانية الانسانية ، فان حروب القومية كانت رخيصة جداً كالحروب الدينية ، ولاشئ يستحق القتال من اجلها . فالحياة هي خاصة بشكل تام ذلك انه لاتوجد ظروف يمكن ان تبرر لرجل او انسان في وضع العنف على انسان آخر ، مع ان موت الانسان يشكل آخر ارادة حرة له ، كانقاذ مبارك لألم لايرحم .

لقد كان الامر الذي يدعوا للسخرية يكمن في حبي للاهداف وتقديمها على الحياة والمبادئ . وكانت مهمة صعبة بالنسبة لي لأن اباعد ما بين الاحساس والعمل . وقد كان لدي رغبة ملحة واحدة في كل حياتي ، الا انها كانت مبددة تماماً لتكتسب اسلوباً معيناً. وفي آخر حادثة ، بمزاج محصور ، في طرحي كرجل عمل ، قد منحني مكاناً في الثورة العربية ، كفكرة مهيئة ومستعدة وملحمة لعين ويد مباشرتين. وبناء عليه فقد اصبحت متحفزاً فقط فوق الآلية. فالنموذج الملحمي كان غريباً عني ، كما هو بالنسبة لابناء جيلي ، والذاكرة لم تمنحني مفتاحاً للغز البطولة ، لذلك فانه لم يمكنني ان اشعر بمثل ما كان يشعر به اولئك الرجال كمثل عودة ابو تايه. فقد بدا رائعاً كجبال رم ، وكبيراً مثل ملوري (كاتب ملحمي مشهور) .

وكنت بين ابناء العرب مخيب الامل متشككاً حاسداً عقيدتهم ، فالرجل الزائف غير المدرك بدا ملائماً جداً واصبح مرتدياً لباس الفخر .

(١٠٠)

مضى تفكيري حول هذا النص ينسج عبر فضائه المغبر، وسط افكار اشعة الشمس وشعارتها الفكرية المتراقصة . ثم رأيت ان هذا التفضيل المجهول للعقيدة كان عبارة عن فكرة كبش فداء ، التي تلوح فقط لسلام زائف . ولتحمل ذلك بنظام ، او لأن ذلك هو واجب فذلك كان هيناً . فالجندي يعاني من الضربات الغير طوعيه فقط ؛ في حين ان ارادتنا كان عليها ان تلعب دور المغامر لغاية مايوهن الرجال العاملون لحفظها في مكان أمن ودفع الآخرين الى الخطر . ومن الممكن ان يكون الآمر بطولياً لتقديم حياتي الخاصة من اجل قضية لايمكنني أن أومن بها ؛ الا انها كانت سرقة للارواح لجعل الآخرين يموتون باخلاص مز اجل صورتي المنقوشة . ولانهم قبلواالرسالة كحقيقة، فقد كانوا مستعدين لأن يقتلوا من اجلها ، وهي حالة جعلت اعمالهم اكثر حقيقة من الشهرة ، وملائمة لميزان الربح والخسارة للسلوك .

ان العمل الكامل للحركة بدا لأن يكون قابلاً للتعبير فقط بلغة الموت والحياة . وعموماً فقد كنا واعين فقط لاجسادنا لانها كانت تؤلمنا . والسرور أتى حاداً اكثر من اعتيادنا الطويل على الالم؛ الا انه مصادرنا في المعاناة بدت اعظم من طاقتنا من اجل السرور . واللامبالاة لعبت دورها هنا . فالعواطف كانت في موهبتنا ، اذا ان ألمنا كان مليئاً بالداومات، مشوشاً طهارتها .

انها عقبة تحطمت عليها الكثير من التقديرات ، وكانت فارغة ذلك ان تحملنا يمكن ان تكسب هدمها، ربما من اجل جنس كامل . فمثل هذا الشئ

المستثمر غذى ورعى رضا عابر حار ، وشعرنا في ذلك بأنه كان علينا ان نستأنف الم أو تجربة أخرى في شخصيتها . انه كان الانتصار ومزاج التوسع ؛ وكان علينا اتقاد وحماس انفسنا، وغزو كما لنا الهندسي، وانتزاع ذاكرة "تغير الفكر او التفكير" .

ومع ذلك في الحقيقة فقد كان علينا تحمل الشيء البديلي من اجل مصالحنا الخاصة ، او على الاقل لأنه كان مخصصاً ومعيناً لمصلحتنا وفائدتنا؛ ويمكن الفرار من هذه المعرفة بواسطة صنع الاعتقاد فقط في المعنى كما هو الامر في الحافز .

ان ضحيته المضحي ذاتياً أُخذت من اجل صالح الهبة النادرة للتضحية؛ ومن دون فخر وبضعة ابتهاجات في العالم كانت مبهجة جداً ، غنية جداً بهذا الاختيار الطوعي لشر آخر لاتمام النفس. وكانت هناك انانية مخفية فيها ، كما في كل الكمالات . ولكل فرصة فانه يمكن ان يكون هناك فقط ممثل او نائب واحد يكون مبتهجاً بينما اخوانه يكونون مجروحين في رجولتهم . ولقبول ذلك بتواضع كبير جداً فان اطلاقه او تحريره كان تاماً فيهم ؛ فسرورهم على انقاد كلفته هو آثم أو مذنب في ذلك وجعله ثانوياً وهامشياً، مذنب جزئياً بتلويث وسيطهم، فجزءه الانقى ، بالنسبة للوسيط يمكن ان يكون وافقاً بين الحشد ، ليراقب فوزاً آخراً بنظافة اسم المخلص وبواسطة طريق واحد يكمن في الكمال الذاتي، وتضحية ذاتية بواسطة واحد آخر ، وجعل الجار كاملاً .

والاصلاح الشريف يجب ان يكون حراً طليقاً ، ذو فكر طفولي . وعندما يكون الكافر واعياً لما هو تحت الحافز وما تليه من شهره لعمله ، فان كلاهما يتبددان فيه . لذلك فان الغيري او محب الغير المستبطن لمشاركة او حصة عديمة الجدوي مؤذية في الحقيقة لنفسه ، حيث يظل ويبقى سلبياً ، فمن الممكن ان يمنح صليبه او وسامه الى واحد بريء. ولانقاذ الاشخاص البسيطين من مثل هذا الشر بدفعه لهم لتعقيد نفسه فسيكون ذلك عاملاً جشعاً في الانسان العصري . فهو في لغز تفكيره يمكن ان يشاركهم الاعتقاد في شحن الآخرين من خلال عذابه ، وهم

ينظرون اليه دون فهم ويمكن ان يشعر بالخجل الذي هو حصته تهذيب رجولي . او ربما يغسل بالاحساس به ويجلب على نفسه العقاب المزدوج للجهل .

ام كان هذا خجلاً ايضاً ، من نكران الذات ، ليقبل ويعجب به من اجل مصلحته ؟ وكيف كان هذا صحيحاً لجعل الرجال يموتون لانهم لم يفهموا ذلك ؟ فالعمى والغباء يبعدان الطريق الصحيح حيث يكون العقاب اكثر شدة من الشر المغرض ، وعلى الاقل في الوعي الحاضر وندم الرجل الحي . والرجال المعقدون الذين عرفوا كيف تكون التضحية بالذات مرتفعة عن المصلح وتطرح الزائد ، والذي يتراجع في معرفته ، يمكن ان يدع الاخ الغبي يأخذ مكاناً في السمع الزائف ، وصحوه الاخير يعود الى عقوبته الاشد . ولم يبد هناك سير مستقيم في هذا الممر او الخط الملتوي للسلوك ، حلقة داخل حلقة للمجهول ، كحوافز مخجلة تلغي او تشحن بشكل مزدوج سابقاتها . ومع ذلك فانني لااستطيع ان اضع اسفلاً معرفتي في الخداع لاضعاف الشخصية او النفاق الفطري ، ومع ذلك بالطبع فيجب ان تكون لدى بعض النزعة ، واصريت لمدة سنتين في جلبها للنجاح . ولم يكن لدي اهتمام بالثورة العربية في البداية . بيد انه في النهاية فقد اصبحت مسؤولاً عن بعض الرجال الذين يقاتلون من اجلها . ومنذ ان سرت في حملة العقبة اصبحت منخرطاً فيها .

(١٠١)

طار بي سايدونز بطائرته عائدا الى القويرة في ذلك المساء ، وفي الليل في العقبة فقد ابلغت داوناي ، عندما وصلت على الفور ، بأن الحياة كانت مليئة بالاحداث ، الا انها تسير بهدوء وروية . وفي اليوم التالي بلغنا بواسطة طائرة كيف وصلت قوات بوكستون الى المدورة . وقرروا الهجوم عليها قبل حلول الفجر بواسطة القنابل ، بواسطة ثلاثة مجموعات ، واحدة تدخل المحطة مباشرة ، وتقوم المجموعات الاخريتان بمضاعفة الهجوم الرئيس .

ووفقاً لهذه الخطة ، وقبل منتصف الليل وضعت خطوط بيضاء كمرشدة لنقطة الصفر . وبعد ان القيت عدد من القنابل في الداخل وماحولها اندفع الرجال واستولوا على المحطة بسهولة ـ ليجدوا بأن المحط كانت مستعدة للاستسلام مسبقاً. واستسلم رجالها بعد عشرين دقيقة .

وفي الجانب الجنوبي من المحطة ، التي كانت بها مجموعة من قوات العدو ومعهم مدفع ، فقد بدت في قوتها واخذت تطلق قنابلها بحرية على فناء المحطة ، وعلى قواتنا وقام بوكستون بتوجيه مدافع برودي الدقيقة في الاصابة ، واطلق عليهم قذيفة اثر قذيفة . وقام سايدونز بالقصف بطائرته ، في حين قام فيلق الهجانة باستخدام مدافعه الرشاشة من نوع لويس . وفي الساعة السابعة صباحاً استسلم آخر جندي للعدو بهدوء . وفقدنا في هذه المعركة اربعة رجال وجرح لنا عشرة . بينما فقد الاتراك واحد وعشرون رجلاً ، وأُسر لهم مائة وخمسين رجلاً ، وتم الاستيلاء على مدفعي ميدان وثلاث مدافع رشاشة .

وفي الحال ، جعل بوكستون الاتراك يقومون بتشغيل محطة الماء ، ذلك

حتى يمكنه سقاية جماله ، في حين قام رجاله بنسف الآبار والمضخات ومعها الف ياردة من خط السكة الحديد . وعند الغسق ، قاموا بتلغيم خزان الماء الضخم وتفجيره؛ وبعد قليل أمر بوكستون رجاله بالمسير ، فهب اربعمائة جمل سوياً وهم يزمجرون ، ليبدأوا مسيرهم صوب الجفر . وذهب داوناي بابتهاج الى ابي اللسان ، ليسلم على الامير فيصل . والتمس منه بأن لا يقوم بأي عمل متسرع ، حيث ان الاندفاع البريطاني كان يعتبر فرصة ، واذا ما فشل فان العرب سيكونون في الجانب الخاسر على جبهة الاردن . كما ان اللنبي ، التمس من فيصل بشكل خاص بأن لا يندفع باتجاه دمشق ، ولكن بأن يتريث لغاية ما تصبح الاحداث والظروف مواتية .

فهذا التحذير الحقيقي والحصيف كان موجوداً في حسابي . ففي احدى امسياتي في القيادة العليا ، فقد اوضحت انه في عام ١٩١٨ ، ستكون هناك آخر فرصة للاستيلاء على دمشق ، بأي حال من الاحوال ، ومهما سيحدث في درعا او رام الله؛ اذ انه سيكون من الافضل الاستيلاء عليها وفقدها ، من ان لا يتم الاستيلاء عليها ابداً .

وابتسم فيصل بحكمة لهذه النصيحة من داوناي ، واجاب بأنه سيحاول في ذلك الخريف الزحف على دمشق مهما حدث ، واذا لم يكن البريطانيون قادرين على المشاركة في الهجوم ، فانه سينقذ ابناء شعبه بعقد سلام منفصل مع الاتراك . فقد كان على اتصال منذ وقت طويل مع عناصر في تركيا ، وكان جمال باشا هو اول من فتح او قام بهذه الاتصالات او المراسلات . واصبح متزناً وواقعياً ، وكونه كان مسلماً ، فان ثورة مكة (الثورة العربية) كانت حكماً . فقد كان مستعداً بأن يفصل أي شيء يهيء لمثل هذه الثغرة في الايمان . فرسائله ، لهذا السبب كانت واضحة الهدف . وقام الامير فيصل بارسالها الى مكة ومصر ، آملاً بأن يقرأوا فيها ما قمنا به ، الا ان النقاط اخذت من ناحيتها اللغوية فقط ، واستلمنا حقنة او رفض للاجابة بأن السيف اصبح هو الحكم الآن .

صحيح بأن التسوية مع جمال باشا كانت غير ممكنة . فقد قام باعدام شخصيات عربية في سورية ، ولا بد باننا سنتنكر لدماء اصدقائنا فيما لو قبلنا

عرضه بالسلام ، ولكن بالاشارة لهذه الفطنة في اجابتنا فاننا سنوسع الشرخ الوطني الحزبي في تركيا . وكان هدفنا الخاص في ذلك هو هوتدعيم الجناح المناهض للالمان في الاركان العامة التركية ، بزعامة مصطفى كمال اتاتورك ، الذي كان متحمساً جداً لمعارضة "تتريك" الولايات العربية التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية . واستمرت المراسلات بينهم وبين الامير فيصل بشكل نشط . وبدأ الجنود الاتراك بالتذمر من الولاءات والطاعات لقوادهم ، الذين وضعوا العادات القديمة البالية قبل الاستراتيجية العسكرية الحديثة .

ان معرفة مواطن القلق والاهتياج اثرت على قرار وتصميم جمال باشا . ففي اول الأمر فقد عرض علينا الحكم الذاتي للحجاز . ومن ثم ضم سورية الى ذلك ، ثم العراق . وبدا فيصل هادئاً وليس راضياً ، لذلك فان مندوب جمال باشا (حيث كان سيده يقيم في القسطنطينية آنذاك) اضاف بجرأة مكة (المكرمة) الى حكم الشريف حسين ومملكته . واخيراً ، قالوا لنا بأنهم كانوا يرون من المنطق بأن تتولى سلالة الرسول الزعامة الروحية للمسلمين . وكان هدفهم والجانب المضحك من هذه الرسالة واضحة في المساعدة على شق صفوف الاركان التركية المناهضة . وكانت ورقتهم الاقوى بهذا الصدد هي معاهدة سايكس - بيكو ، وهو اسلوب تركي قديم اسخدمته تركيا لزرع بذور الشقاق بين انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، حيث ان الثورة البلشفية هي التي كشفت عن المعاهدة . وكشف جمال باشا عن المزيد من التفاصيل خلاله مأدبة اقيمت في بيروت .

وصدمنا هذا الكشف لفترة من الزمن ، تماماً ، اذ اننا نحن والفرنسيون فكرنا بلئم وسد الشرخ في السياسة بصيغة غامضة تماماً لكل واحد لتفسر بطريقة مختلفة .

ولحسن الحظ ، فقد ضللت ونفيت وجود المعاهدة لفيصل ، واقنعته بأن يساعد البريطانيين ، ذلك انه بعد انتهاء الحرب وعقد اتفاقيات السلام ، فانهم لن يكونوا قادرين ، وبسبب الخجل ، من ان يتخلوا عنه ، ورجوته بأن لا يثق بوعودنا ، ولكن بأن يثق بادائه القوي .

وعلى نحو ملائم ، قامت الحكومة البريطانية ، وباسلوب بهيج ، بوعد العرب بالاحتفاظ بالاراضي التي يحررونها من الاتراك في الحرب . وعمت هذه الاخبار السارة سورية . ولمساعدة الاتراك المهزومين ، ولتظهر لنا بأن بامكانها ان تمنح العديد من الوعود للاطراف والفرقاء ، فان بريطانيا اخيراً اصدرت ضربتها من الوثائق ، ، فأصدرت الوثيقة (أ) للشريف حسين ، الوثيقة (ب) لحلفائها ، الوثيقة (ث) للجنة العربية في القاهرة ، وبالوثيقة (د) التي اصدرتها للورد روتشيلد ، حيث كانت جديدة في مضمونها ، ووعدت ابناء جنسه من اليهود بشيء مشبوه في فلسطين . لذلك فان الشيخ نوري الشعلان ، وبحكمته وفطنته ، راجعني بملفه المحتوي على هذه الوثائق ، وهويسألني بارتباك في أية وثيقة من هذه الوثائق يمكنه ان يصدقها . وكما حدث من قبل ، فقد كررت له على نحو مرتجل و عفوي بأن يصدق "آخر وثيقة صدرت" ، وجعله شعوره واحساسه ان يفهم هذه اللعبة . وعندما اخفق في تنفيذ وعده لنا بالانضمام للقضية المشتركة ، فقد برر ذلك بسبب النية الواردة في الوثيقة الاخيرة .

ومع ذلك ، فان جمال باشا مضى يسير في أمله ، كونه كان رجلاً عنيداً ووحشياً بعد هزيمة اللنبي في السلط ، فقد ارسل لنا الامير محمد سعيد ، شقيق عبد القادر . وكان محمد سعيد حاد اللسان ، ومراوغ مثل شقيقه ، ولكنه اقل شجاعة منه . وقدكان متواضعاً جداً وهو يقف امام الامير فيصل ويقدم له عرض جمال باشا بالسلام . وابلغه فيصل بأنه قد جاء في اللحظة المناسبة . فبامكانه ان يقدم لجمال عرضاً لموالاة الجيش العربي ، فيما لو ان الاتراك اخلو منطقة عمان ، وتسليمها للحكم العربي . واعتقد هذا الامير الجزائري بانه قد حقق نجاحاً ضخماً، واندفع عائداً الى دمشق ؛ الا ان جمال جعله يعيش في الم وحسرة .

وحُذر مصطفى كمال اتاتورك من ذلك ، والتمس فيصل بأن لا ينخدع بعروض جمال ، واعداً بأنه عندما يستقر العرب في عاصمتهم (دمشق) ، فان القوى المعارضة في تركيا سوف تؤيدهم ، وان تستخدم اراضيهم في مهاجمة انفير باشا وحلفاؤه الالمان في الاناضول . وقد أمل مصطفى كمال انه بواسطة التحام كافة القوى التركية المناهضة والمتواجدة في شرق طوروس ستمكنه من الزحف على القسطنطينية مباشرة .

وفي النهاية اجهضت الاحداث هذه المفاوضات المعقدة ، والتي لم يكشف النقاب عنها لمصر او مكة ، بسبب شكنا وعدم ثقتنا بها منذ البداية . وخشيت بانه من الممكن للبريطانيين ان تهتز ثقتهم بسبب هذه الاتصالات المنفصلة . ومع ذلك ، وبسبب ثقتنا بعدالة القضية العربية ومقاتليها ، فاننا لم نستطع من الاقتراب جداً بكل الوسائل والسبل التوفيقية مع تركيا . واذا ما فشلت الحرب في اوروبا بالنسبة للاتراك ، فان ذلك سيكون من شأنهم لايجاد طريقة بالخروج منها ؛ اما بالنسبة للشرق ، فقد كنت دوماً اخشى بأن تعمد بريطانيا العظمى الى استباق فيصل وتختتم الحرب بعقد معاهدة سلام منفصلة ، ليس مع الوطنيين (العلمانيين) الاتراك ، وانما مع الاتراك التقليديين .

وذهبت الحكومة البريطانية ا لى ابعد حد في هذا الاتجاه ، ودون اعلام اصغر حليف لها . فمعلوماتنا للخطوات المعينة التي تمت ، وللعروض والاقتراحات (والتي كانت مشؤومة للعديد من الفصائل العربية المقاتلة التي كانت تقف بجانبنا) ، لم تصل الينا بصورة رسمية ، وانما بصورة خاصة . انها كانت المرة الوحيدة فحسب من عشرين مرة التي ساعدني فيها الاصدقاء اكثر مما فعلت حكومتنا ؛ التي كان عملها وسكوتها كمثال فوري لي ، وكمهماز ورخصة لي بأن افعل واقوم بعمل مماثل .

(١٠٢)

بعد محادثات السلام تلك فقد تمكنا ثانية من استئناف العمل . فقررت ان اذهب انا وجويس بسيارتنا المشتركة الى الازرق ، في هذه المرة ، لنقوم بالتحضير لحملة درعا . لذلك فقد انطلقنا اولاً الى الجفر للقاء فيلق الهجانة المنتصر ، الذي عاد منتشياً وزاهياً بالنجاح والانتصار الذي حققه في المدورة . وقال بوكستون انه بسبب التحرر وعدم التقيد بالاوامر في الصحراء ، فانه مستعد بأن يذهب ليقاتل في أي مكان آخر .

وكانوا سيستريحون ليلتين ، ومن ثم يذهبون لمدة اربعة ايام لينالو حصتهم من المؤن ، التي ستكون جاهزة في حينه بالقرب من خيمة عودة وبعناية يونغ . ووفقاً لذلك ، فقد ذهبت انا وجويس بسيرتنا ، في الصباح المبكر من اليوم التالي الى وادي البير ، حيث كان علوان ، احد اقارب عودة ابو تايه ، يختبيء بين آباره ، ليعيش بسلام بعيداً هناك . وتوقفنا بضعة دقائق لنرتب معه تأمين رجال بوكستون؛ ثم سرنا بسيارتنا خارجاً ، ومعنا فتى شراري ليساعدنا على معرفة الطريق . ولم يكن جمله ليساعده على مجاراة عربة مدرعة تزن خمسة اطنان ، الا ان معرفته بالطريق يمكن ان تخدم العربات القادمة فيما بعد . وكان المسير على نجد "إرحا" جيداً ، حيث كان سطحه من الطين القاسي ، وسرنا عدة اميال بسرعة لنصل الى حواف وادي جنز الضحل ، ذو المرعى الخصب المتنامي . وكان هناك عدد من رعيان عشيرة ابو تايه يرعون الابل المضطربة ، وهم يعتلونها وبنادقهم بايديهم ، ويقومون بانشاد اهازيج الحرب . وعندما سمعوا هدير عرباتنا اندفعوا نحونا ، واخذوا يصرخون لرجال ممتطين جمالهم يتواجدون في

اراض منخفضة تقع الى الامام . واندفعنا بسرعة نحوهم لينجرفوا قدماً باتجاه الشمال باسرع ما يمكن . ولحقنا بهم نصل اليهم بعد عشر دقائق ، فانزلوا جمالهم وجاءوا ليقابلوننا كاصدقاء ، فقد كانوا من حويطات الجازي ، واخذوا يصرخون بفرح لمقابلتنا فجأة . واختصرت الامر وطلبت منهم بأن يعودوا الى مضاربهم في الحال . فذهبوا باتجاه الشرق .

اتبعنا بعد ذلك طريق ضفة وادي ام خاروق ، حيث وجدنا الطريق صلباً ، الا انه كان بطيئاً ، وكان مليئاً بالقنوات او السيول الجافة ، وكان علينا ان نجتاز الشجيرات والسير فوق الرمال الناعمة اوالحصى الصغيرة ، والتي كانت مجاري للمياه ايام الشتاء . وعند نهاية النهار اصبحنا نسير في وديان كثيفة وخصبة بالمراعي ، وكانت ملائمة جداً لقوافلنا القادمة المتوقعة . وفي الصباح هبت علينا ريح شمالية منعشة وكانت باردة جداً ذلك اننا اعددنا فطوراً ساخناً قبل ان نستقل عرباتنا ونغادر منطقة ام خاروق والدحيروه ، لنسير ونجتاز منطقة مائية ضئيلة الى "جيشه" . وكانت توجد هناك شبكة من السيول الضحلة تسير وتتجه الى وادي سرحان ، عبر منطقة العماري ، والتي كنت معنياً بزيارتها ، في حال لو وقع لنا شراً في الازرق ، فانها ستكون ملجأنا القادم ، اذا ما امكن وصول العربات المصفحة اليها . فمثل هذه السلسلة من التوقعات والتخمينات كانت دوماً توضع في كل خطة جديدة لنا باستمرار .

انعشت استراحة الليل كل من رولز وساندرسون ، فساروا بنا بشكل رائع فوق مرتفع الزعفران الواقع في منطقة جيشه وحتى الوادي الضخم هناك . وفي عصر اليوم التالي رأينا الضفاف الطباشيرية ، واستدرنا نزولاً على سفوحها الرمادية ، الى وادي السرحان ، وبالقرب من الحفر المائية تماماً . فهذه الطريق تجعل من تراجعنا آمنا دوماً ، اذ ان العدو لن يكون قادراً تماماً على الوصول الى كل من الازرق والعماري في وقت واحد معاً .

بعد ذلك ، ملئنا «روديترات» عرباتنا بالماء العكر من حفرة من الحفر ، والتي كان فراج وداود يلعبان فيها في يوم من الايام الماضية ، ومن ثم انطلقنا فوق مرتفعات مفتوحة ، لغاية ما اصبحنا بعيدين تماماً عن الآبار لتلافي غارات

الاشـخـاص المحتـاجين الليليـة . وهناك جلسـت انا وجـويس لنشـاهد مـغـيب الشمس، التي كـانت تحولت من اللون الباهت الى اللون الزهري ، ومن ثم الى اللون الاحـمـر ، ثم الى اللون القـرمزي وبشكل عـمـيق لا يرحم ذلك اننا كـتـمنا وحبسنا انفـاسنا خـشـية من ضـربة وهج او رعـد لكسـر هدوئها الاحـمق . وفي غضـون ذلك، قـام الرجـال بفتح معلبات اللحوم المحفـوظة ، واعـداد الشـاي ، ووضعـها مـع البسكويت على بسـاط من اجل تناول العشـاء . وبعـد ذلك وزعـت الاغطية علينا ، لننعم تحتها بالدفء وننام عميقاً .

وفي اليوم التالي انطلقنا بسرعة عبر دلتا الغداف لغاية ما اصبحنا نسير على طريق منبسط طيني واسع والذي امـتـد لسـبـعـة امـيـال ، باتجـاه الجنوب واتجـاه الشرق، من المسيرات القريبة من قلعة الازرق القـديمة . وكـان السـراب في ذلك اليوم يلفنا بحدوداته وبضبابياته الزرقاء الفولاذية ، حيث كانـت الاشـجار النحيلة تبدو امامنا عالية شامخة في الجو بفعل بخار الحرارة . واردت الوصول الى ينابيع مجابر ، الا اننا لم نرد النزول الى الوادي الوعر المليء بالاشجار ، لذلك فقد مال رولز بعربته قدماً الى مـسـاحـة فسيـحـة من الارض . وكـانت الاتربة من حـولنا ارجوانية قـاتمة اللون . وفي نهاية الطريق اخذت فرامل العربات تصطك بالارض بشكل مـحـتج ونحن ننزل ببطء نحو غـابة من اشـجـار "التـامـاريسك" النحيلة ، الفارعة الطول حيث تكوم الغبار فوق رؤوسهـا . واخذنا نسير ونجتاز من خلالها وبشكل صـعب ، لغاية مـا انتهينا منها ، واصبحنا على ارض رملية رطبة ، مليئة بالشـجيرات الشـائكة . وتوقفت العربات خلف رابية عين الاسد ، وتحت غطاء اشجار القصب العالية ، والتي كانت تجري بين سيقانها جداول الماء الصافية كمثل الجـواهر . وصـعـدنا بعـد ذلك ببطء على هضـبـة من الحـصى تقع فـوق البـرك الكبيرة، ورأينا بأن اماكن السقاية كانت فارغة . وغطى السراب وامتد فوق الحفر والمسـاحات المفتوحة ، ولكن هنا ، حيث كانت الارض مكسوة بالشـجيرات ، فلا يوجد امواج حـارة يمكنهـا ان تتـجـمـع ، واشعة الشـمس ارتنا الوادي وكـانه كريستال نقي كمسارات مياهه ، وكـان مهجوراً سوى من الطيور البرية ، وقطعان الغزلان ، التي تنبـهت الى وجـود دبيب عـرباتنا المقتربة ، واخـذت تتـجـمـع بذعـر استعداداً للانطلاق والفرار .

وسحب رولز عربته ليجتاز بركة السمك الرومانية القديمة ، وتجنبنا حقل حجارة اللافا البركانية الغربي ، الذي كانت تنمو عليه وقتذاك سبخة اومستنقع من الاعشاب تتخللها الاحجار الصلبة ، لنسير بجانب الجدران الزرقاء للقلعة الساكنه ، ومعها اشجار النخيل ذات الصوت الرخيم ، والتي ربما يكمن وراء هدوئها مزيداً من الخوف بدلاً من السلام . وشعرت بالذنب من جراء دفع هذه العربة بساقها الى هذا المكان النائي لهذه المنطقة الاسطورية المخفية ، الا ان حدسي كان مخطئاً ، اذ ان الرجال هم الذين كانوا يبدون حقيقيين وان الخلفية هي التي اصبحت صورة مشهدية . فجديدهم ويقينهم (وضوح القوات البريطانية النظامية) جعلت الازرق يفتخر اكث من كونه سهلاً منعزلاً وحيداً .

توقفنا للحظة فقط . وتسلقنا انا وجويس البرج الغربي ، وادركنا بتنوع فوائد الازرق كقاعدة عاملة لنا ، الا انها وللأسف فقد كانت المنطقة تفتقر الى المراعي ، لذلك فانه لا يمكننا ا ن نركن اليها كمكان للتوقف المؤقت في هجومينا الاول والثاني المقبلين . ثم عبرنا الى النقطة الشمالية للسهل أو المنبسط الطيني ، وكانت ارضاً ملائمة لهبوط الطائرات ، والتي اضافها سايدونزالى مناطق مهابط طائراتنا . وكان من بين ميزاتها وخاصياتها الاخرى هو مجال الرؤيا فيها ، حيث كانت المنطقة شاسعة وواسعة وممتدة لعشرات الاميال .

ورجعنا ادراجنا الى عين الاسد ، حيث كانت تجثو هناك عربتنا المدرعة ، ومن ثم سرنا بها بسرعة فوق ارض الصحراء الصلبة ثانية . وكان الوقت منتصف بعد العصر ، والطقس حار جداً ، خصوصاً في المعدن المتوهج للسيارة المصفحة ، الا ان سائقها المتحرق حافظ بالسيطرة عليها ، وقبل غروب الشمس اصبحنا على المرتفع الفاصل بين وديان جيشه ، لنجد طريقاً اقصر واسهل من الطريق الذي قدمنا منه .

ادركنا الليل ولم نكن بعيدين عن جنوب العماري ، فخيمنا هناك على قمة التل ، حيث كان النسيم عليلاً ، ونفيساً جداً بعد يوم من الحرارة اللاذعة ، قادماً الينا من عبير السفوح المزهرة لجبل الدروز (العرب) . وجعلنا ذلك مسروين مع شرب الشاي الحار ، وتلفحنا باغطيتنا لننعم بالنوم .

كانت هذه الرحلة مسرة لي ، اذ انه لم تكن لدي أية مسؤولية او مهمة مسندة لي سوى مسؤولية الطريق . وكانت هناك ايضاً الانعكاسات الطيبة للفتى الشراري ، الذي كان يرافقنا ، انها كانت انعاكسات طبيعية سرتني ، اذ انني كنت الشخص الوحيد الذي كان يلبس نفس نوع ملابسه ، ويتكلم لهجته . وكان فتى فقيراً مشرداً ، ولم يلق ابداً من قبل اعتناءً او اعتباراً ، وكان مندهشاً جداً من الاساليب والعادات الانجليزية .

وقال لي باستغراب بأن كل جندي (بريطاني) كان يعتبر كعائلة منفصلة ، وشعر بأن ملابسهم كانت غير ملائمة ومشدودة . فقد كان معتاداً على رؤية الثوب والكوفية والعباءة . اما الجنود البريطانيون فقد كان لباسهم يتكون من القمصان والسراويل القصيرة ، ولفافات السيقان والاحذية الطويلة (البوطات) ، وان نسيم الهواء يمكنه ان يعبث بها . ففي الحقيقة فقد كانوا يرتدون هذه الاشياء طيلة النهار والليل وهم يتعرضون للحرارة والتعرق ومنشغلين حول العربات المزيتة والمغبرة ، فان هذا اللباس يلتصق باجسادهم ، ويصبح كمثل لحاء الشجر . ثم انهم جميعهم كانوا حليقي الوجوه ، وجميعهم يرتدون نفس اللباس ، فقد اعتاد هذا الفتى الشراري على رؤية الرجال في البسة مختلفة ليستطيع التمييز بينهم ، اما هنا قد كان اللباس موحداً . وحتى يمكنه ان يعرف كل واحد على حدا ، فقد كان عليه ان يتعرف على شخصية كل واحد منهم بصورة منفردة . وطعامهم لا يحتاج الى طهو ، وشرابهم كان ساخناً ، وكانوا من النادر ان يتحدثوا مع بعضهم البعض ، الا ان كلمة واحدة يمكن ان تؤدي بهم الى الانخراط في ضحك غير قابل للاستيعاب ، وغير جدير او ذو جدوى وغير انساني . وكان اعتقاده بانهم كانوا عبيداً او خدماً لي ، وان هناك قليلاً من الراحة او الرضا في حياتهم ، ومع ذلك فان هذه الرحلة كانت تعتبر شيئاً فاخراً بالنسبة لهذا الشراري ، يسافر فيها كالريح ، ويجلس ويستريح ، وامتيازاً لاكل اللحم ، اللحم المعلب ، يومياً .

أسرعنا في الصباح على طول المرتفع ، لنصل الى وادي البير عند العصر . وحدثت هناك متاعب في اطارات العربات . فالعربة المدرعة كات ثقيلة جداً

بالنسبة للارض الصلبة أو الصوانية ، وكانت دوماً تغوض في السرعة الخفيفة ، وتسير بسرعة ثقيلة عند الغيار الثالث ، مما جعل اغطيتها تصبح حارة جداً . وعانينا من سلسلة من التعشيقات ، ومن التوقف لتغيير الاطارات . وكان النهار حاراً وكنا نحن مستعجلين ، مما اثر ذلك على مزاجنا واعصابنا . ووصلنا عند الظهر الى مرتفع رأس المحيوير . عندئذ وعدت السائقين المرهقين من ان الطريق بعد ذلك ستكون رائعة ، وكان كذلك . واصبحنا جميعاً بنفسية جديدة ، حتى ان الاطارات اصبح وضعها افضل ، في حين انطلقنا على طول المرتفع المتعرج ، واخذت العربات تتمايل في منعطفات طويلة من الشرق الى الغرب ثم تعود لوضعها المستقيم ثانية ، وكنا تارة مشرفين من جهة اليسار على الوديان الضحلة المتجهة نحو وادي السرحان ، وتار مشرفين من جهة اليمين على خط حديد الحجاز . وكانت محطاتها تبدو من بعيد ومن خلال وهج الشمس تلمع وتتوهج في بياض لامع .

وفي وقت متأخر من بعد العصر وصلنا الى نهاية المرتفع ، ثم انحدرنا نحو منخفض وسرنا لمسافة اربعين ميلاً على صدر مرتفع حادي . وكان الظلام على وشك الحلول عندما عبرنا منطقة اخاديد العوساجي متجهين نحو آبار وادي البير ، حيث كان الوادي ينشط بالنيران ، فقد كان كل من بوكستون ، مارشال ومعهم فيلق الهجانه يقومون بنصب الخيام هناك ، بعد رجوعهم من الجفر .

وكان الاسى يعم بينهم ، اذ انه لم يبق هناك سوى بئران صالحان ، وكلاهما ايضاً مكانان مكتظان بالمسافرين . فقد احتشد على واحد منهما رجال من قبيلتي الحويطات وبني صخر ومعهم ستمائة جمل يقومون بسقايتها بعد جلبها من حقول الرعي ، والبئر الآخر كان يحتشد حوله الف من اللاجئين السوريين والدروز ، والتجار الدمشقين والارمن ، وهم في طريقهم الى العقبة . فكل هذه الجموع الفقيرة من المسافرين كانت تعيق وصولنا الى الماء بسبب ازدحامهم حول البئرين .

وجلسنا مع بوكستون لنعقد مجلس حرب . وكان يونغ ارسل الى وادي البير مؤونة واغذية تكفي لمدة اربعين يوماً ، اضافة لعلف البهائم . الا انه لم يتبق

منها سوى مؤنة تكفي لمدة ثمانية ايام بالنسبة للرجال ، وعشرة ايام بالنسبة للرجال ، وعشرة ايام بالنسبة للبهائم . وجمالة (هجانة) رتل المؤونة والاغذية ، الذين دفعوا من قبل يونغ بارادة قوية ، قد غادروا الجفر وهم شبه متمردين خشية من الرحيل في الصحراء . لذلك فاما انهم قد خسروا ، او سرقوا او باعوا بقية مؤن بوكستون وهم في طريقهم .

وشككت بالأرمن المتذمرين ، الا انه لا يمكن ان ينتزع شيء منهم ، وكان علينا تسوية الخطة بناء على الاوضاع المستجدة . فقام بوكستون بالتخلص من كل واحد من الجمالة لم يكن ضرورياً ، بينما قمت انا بتغيير خط سيري بالعربات المصفحة .

(١٠٣)

ساعدت فيلق الهجانة في سقاية جماهلم لمدة طويلة من الآبار ، كما تمتعت بلطف بوكستون ورجاله الثلاثمائة . وبدا الوادي حياً ونشطاً بهم ، كما ان رجال الحويطات ، الذين لم يتصوروا بأنه كان هناك الكثير من الانجليز في العالم ، لم يمكنهم ان يحولوا عيونهم أو احداقهم بهم . وكنت فخوراً بابناء جنسي ، بالنسبة لنشاطهم ونظامهم في العمل . وبدا العرب بالقرب منهم وكأنهم غرباء في الجزيرة العربية ، كما ان حديث بوكستون كان ممتعاً ومسراً ، اذ انه كان متفهماً ، وملماً جيداً بالامور وجريئاً ، مع انه كان منشغلاً جداً بالاستعداد لمسير صعب طويل .

ووفقاً لذلك ، فقد قضيت ساعات وانا مختلي بنفسي ، وانا مستغرق في التأمل والتفكير ، بمناسبة بلوغي الثلاثين من العمر . وقدتسائلت في نفسي ، انه منذ اربعة سنوات مضت ، فقد كنت أطمح لأن اكون جنرالاً وفارساً ، وعندما ابلغ الثلاثين فمثل هذه الوقارات المؤقتة (اذا ما بقيت حيا في الاسابيع الاربعة القادمة) هي الآن في متناول يدي - الا ان شعوري فحسب بالموقف العربي الحساس قد عالجني من اللجوء الى الطموح الفج غير الناضج ، في حين تركني ذلك ملتمساً وتائقاً من اجل سمعة جيدة بين الرجال .

فهذا الالتماس والتشوق جعلني شاكاً بشكل عميق في حقيقة وصدق نفسي . انه امر جيد تماماً لممثل يمكنه ان يعبر عن رأيه المفضل . فهنا العرب يصدقونني ، كما ان اللنبي وكلايتون يثقان بي ، ورجالي يضحون من اجلي . وبدأت اتسائل فيما اذا كانت كافة السمعات مبنية على اساس ، خداعي ، كمثلي .

ان اجوري التشجيعية لادائي وعملي قد اصبحت مقبولة الآن . فأي احتجاج للحقيقة تصدر مني كانت تدعى بالتواضع ، وانخفاض ذاتي ، وسحر وفتنة ـ اذ ان الرجال شغوفين دوماً بالاعتقاد بالرواية الرومانسية . فقد اثارني ذلك ، ذلك التشوش السخيف بالخجل ، والذي كان يمارس بتواضع ، والذي كان عبارة عن وجهة نظر . وأنني لم اكن متواضعاً ، وانما خجلاً من ارتباكي ، ومن مظهري وغطائي الجسدي ، ومن انعزالي الغريب والذي جعلني منفرداً بلا صديق أو رفيق معين ، وانما على اطلاع تام ، شفافاً ، غير مريح ، كمثل الكريستال . وكان لدي احساس دوماً عندما اكون مع الرجال لأن اكون سطحياً . وهذا أدى الى نوع من الاتقان ـ انها شائبة الهواة المؤقتين في فنهم . اذ ان حربي كانت فوق التفكير ، لانني لم اكن جندياً ، لذلك فان نشاطي كان منمقاً ، لانني لم اكن رجل عمل ونشاط . انها فقط كانت جهوداً واعية بشكل مكثف مع نفسي وذاتي المنعزلة دوماً والتي كانت ترى وتشاهد الاداء من اجنحة وزوايا النقد .

ويمكن ان يضاف لهذا الموقف او الحالة ، كل من الجوع ، التعب ، الحرارة أو البرد ، والحياة القاسية البدائية التي كنت اعيشها بين العرب . فكل هذه العوامل صنعت عدم الطبيعية أو الغرابة في شخصيتي . وبدلاً من الحقائق والارقام ، فان دفتر ملاحظاتي كان مليئاً بالحالات الذهنية والفكرية ، كاحلام يقظة والتساؤل الذاتي المستنبط والمحفز او المغوي باوضاعنا ، والمعبر عنه بكلمات مطلقة لنضم خبب الجمال في المسير .

ففي مناسبة عيد ميلادي التي صادفت وجودي في وادي البير ، ولأرضي احساسي بالصدق والاخلاص ، فقد بدأت ببحث معتقداتي وحوافزي ، متلمساً البحث عنها في ذاتي خلال الظلام الدامس . فهذا الخجل لعدم الثقة بالذات كان يحمل قناعاً ، فغالباً ما كان قناعاً لعدم المبالاة او الوقاحة ، امام وجهي ، ويربكني . وافكاري كانت ذات براثن ، متسائلة ومستغربة ، في هذا السلام الظاهر ، عارفة بأنه كان قناعاً فقط ، ولأن ، بالرغم من محاولتي عدم الاسهاب او الامعان عما كان مهماً او مثيراً للاهتمام ، فقد كانت هناك لحظات قوية جداً للسيطرة عندما تنفجر شهيتي وتذعرني وتخيفيني . لقد كنت واعياً جداً لقواي

المخرومة والكيانات في نفسي ، انها كانت شخصياتها المخفية . فقد كانت هناك رغبتي الملحة وتوقي الشديد لتكون محببة ـ وقوية جداً وعصبية ذلك انه لم استطع ابداً ان افتح نفسي بشكل ودي لأي شخص آخر . فالخوف من الفشل في أي جهد هو مهم جداً مما جعلني منكمشاً من المحاولة ، اضافة الى انه كان هناك المعيار والقياس؛ اذ ان المودة بدت مخجلة لغاية ما يمكن للشخص الآخر ان يعمل اجابة كاملة ، بنفس اللغة ، وبعد القيام بنفس الاسلوب أو النهج ، من اجل نفس الاسباب .

وقد كانت هناك رغبة شديدة لأن اكون شهيراً ، ورعب وخشية لأن اكون معروفاً او مشهوراً من اجل الرغبة لأن اكون مشهوراً . والازدراء من اجل عاطفتي لاجل التمييز جعلني ارفض كل عرض شريف . وقد زرعت استقلالي كما فعل او يفعل أي بدوي ، الا ان عجزي بالرؤيا اراني شكلي بصورة افضل في صور مرسومة ، والعلامات المائلة او المنحرفة الفوقية للآخرين علمتني بصورة افضل لمعرفة تعبيري المبتكر . فالتشوق لمراقبة وتفحص نفسي كان يشكل اعتدائي على قلعتي الذاتية الصافية والسليمة .

فالابتكار الاكثر انخفاضاً الذي تجنبته ، كانعكاس على فشلنا لكسب واحراز الفكرية او العقلانية الحقيقية . فاذا ما فرضت نفسها علي فانني ساكرهها . ولوضع يدي على شيء حي فانه كان يعتبر تلوث ودنس ، وجعلني ارتعد اذا ما لمسني أو أخذ اهتماماً سريعاً جداً مني . فهذا كان يعتبر تنافراً ذرياً ، كمثل كتلة ثلجية سليمة . والنقيض سيكون اختياري اذا لم يكن فكري استبدادي وظالم . فقد كانت لدي رغبة شديدة من اجل استبدادية النساء والحيوانات ، واندب كثيراً جداً عندما أرى جندياً مع فتاة ، أو رجلاً مولعاً بكلب ، لأن رغبتي هي لأن اكون سطحياً تماماً ، وان سجاني يتبعني خلفاً .

كانت مشاعري واحاسيسي وأوهامي في حرب دائمة في داخلي ، فالسبب قوي تماماً ليكسب ، الا انه ليس قوي تماماً ليبطل المهزوم ، او يحجم عن حبهم بشكل افضل ، وربما تكون المعرفة الاصح للحب هو حب ما تزدريه النفس . ومع ذلك فقد تمكنت فقط بالرغبة ، بامكانية رؤية السعادة في اقصى

ماديتها ، ولم استطع ان استسلم لها ، فاستطعت ان احاول وضع فكري وعقلي لانامة ذلك الحياء الذي يمكن ان يضرب من خلالي بحرية ، ويظل مستيقظاً ببرارة .

لقد احببت الاشياء المباشرة بالنسبة لي واخذت ووضعت مسراتي ومغامراتي اسفلاً . وهناك بدا اليقين بالتجرد ، كسلامة نهائية . فبامكان الانسان ان ينهض الى اية درجة عليا ، الا ان هناك مستوى حيواني يكمن اسفلاً بحيث لا يمكنه ان يسقط اليه . وهناك رضى وطمأنينة يمكن ان يرتاح اليها فقوة الاشياء ، السنوات والوقار المصطنع ، استنكرت لي اكثر فأكثر . فالحقيقة هناك تبقى وتكمن دوماً بأن الارادة تنظر بشكل مضطرب لتنفجر خارجاً . وكان عقلي وذهني مفاجئاً وسريعاً وساكناً كمثل قط بري ، واحاسيسي ملبدة كالطين ، (ونفسي الواعية دوماً بذاتها وخجلها) قوية ومعبرة . متناغمة جداً في الاعصاب والتردد ، فلا يمكن ان يكون هناك شيئاً لتتخوف منه .

لقد كنت اطور وانمي الافكار بسرعة . لذلك فلم اكن اثق بالخبراء ، الذين كانوا غالباً ما يقيدون ذكائهم ضمن اسوار عالية ، عارفين في الحقيقة كل حجر وضع في زنزانات سجونهم ، في حين من الممكن ان اعرف ما هي كمية الحجارة التي وضعت وما هي الاجور التي كسبت او حصلت . فقد كنت لا أبالي بذلك ، حيث انني وجدت المادة دوماً ميالة لتخدم الهدف ، وان الارادة هي اضمن دليل لتقود الى عدة طرق مؤدية من الهدف الى الانجاز .

ان العديد من الاشياء التي تعاملت معها قد تخليت عنها وطرحتها جانباً ، من اجل الاقتناع من ان القيام بها لم يكن يلائمني . فالخيال بدا بالنسبة لي اكثر صلابة من النشاط . وقد زارني او تملكني لفترة طموحات السعي الذاتي ، الا انها لم تمكث معي طويلاً ، اذ ان نفسي الحاسمة قد جعلتني ارفض ثمارها بثبات . وكنت اسعى دوماً للهيمنة على تلك الاشياء التي اندفعت اليها ، الا انه لم تكن أي واحدة منها قد انخرطت فيها بشكل طوعي . وفي الحقيقة ، فقد رأيت نفسي خطراً على الرجال العاديين ، مع مثل تلك الطاقة التي لا ترحم .

لقد اتبعت ولم استهل أو ابدأ في ذلك ، ففي الحقيقة لم تكن لدي رغبة حتى بأن أُتبع . وانه كان الضعف فقط هو الذي اعاقني من القيام بالانتحار الفكري ، وبعض المهمة البطيئة لكبت وخنق بشكل طويل هذا الفرن الموجود في دماغي . وقد كنت اطور افكار الرجال الآخرين ، واسعدهم ، الا انني لم ابتكر ابداً شيئاً خاصاً بي ، اذ انني لم اكن اقر بالابتكار والابداع . وعندما كان الرجال الآخرون يبتدعون فقد كنت أُقدم وأُصلح لأجعل الامر جيداً كما يجب ان يكون، حيث انه لو كان الابتكار والابتداع شيئاً آثماً ، فانه لابد وان يكون الاثم والخجل مضافان لامتلاك شيء مبتكر أو متوقف .

كنت احاول دوماً وانا في اثناء العمل بأن أخدم وأقدم ، اذ ان تدقيق وفحص القيادة او الزعامة هو امر بارز جداً . وان الخضوع لنظام أو لأمر ينجز اقتصاداً او قصوراً في التفكير، هو مؤلم ، وهو تخزين بارد للشخصية والارادة ، مؤدياً دون ألم الى نسيان النشا ط . انه كان جزءاً من اخفاقي لم يجد ابداً قائداً ليستخدمني . فجميعهم ومن خلال عدم القدرة أو الجبن او الميل والولع ، سمحوا لي واتاحوا باطلاق يدي بحرية تماماً ؛ كما لو انهم لم يتمكنوا من رؤية تلك العبودية الطوعية والتي كانت غروراً عميقاً لروح بديلة ، وألماً بالغاً لزخرفة اكثر بهجة . وبدلاً من هذا ، فقد منحونني رخصة ، التي أسئت استخدامها في تساهل تافه . فكل بستان ملائم للسرقة يجب ان يكون له حارساً ، وكلاب حراسة ، واسوار عالية ، واسلاك شائكة . ليشكل له حصانة منيعة .

لقد كان فيصل شجاعاً ، محاولاً بأن يقوم بالعمل بعبقرية . لذلك فقد خدمته بجد وبحافز جيد . وكان اللنبي أقرب الي كسيد أو قائد ، الا انه كان علي ان اتجنبه ، ولا اجرؤ على الانحناء خشية ان يرى اقدام طينية مع تلك الكلمة الودية التي لا بد وان تبعثر ولائي واخلاصي .

وكانت هناك صفات وخواص مثل الشجاعة التي لا يمكن ان تقف لوحدها، وانما يجب ان تخلط مع متوسط او معدل جيد او سيء لتظهر . وان عظمة اللنبي قد اظهرت نفسها بشكل آخر ، من حيث الفئة ؛ الاكتفاء الذاتي ، ومظهر وسمة الشخصية ، وليس الفكر فحسب . وجعلت فيه اموراً زائدة في

الخواص ؛ الذكاء ، الخيال ، الدقة ، وفي الكد والمثابرة ، مما جعلني ابدو سخيفاً بجانبه . ولم يكن ليحكم عليه أو يقيم بمقاييسنا ومعاييرنا ، وبأكثر من حد الرمح الذي يمكن ان يقيم ويختبر بحد الامواس (الخناجر)، فهو موزع معها بقوته الداخلية .

ان سماعي مدح الاشخاص الآخرين جعلني غيوراً بيأس في نفسي ، فقد اخذت ذلك على وجه القيمة ؛ ولو فعلوا ذلك عشرة مرات ، فانني اعتبرت ذلك لا شيء . وكنت اعقد لنفسي محاكاة عسكرية ، وبشكل محتوم ، لانه بالنسبة لي فان نوابض عملي كانت ظاهرة بمعرفة الفرصة المستغلة . وان الا مر المشرف الجديد بالتصديق يجب ان يكون مفكراً به مسبقاً ، ومتنبأ به ، ومهيأ للعمل من اجله . فالنفس ، عارفة بالأذى ، ودفعت الى الانخفاض بمدح الآخرين غير الخطير . وانه كان انتقاماً لقدرتي او معرفتي التاريخية المدربة على دليل وبينة الحكم العام ، الذي يعتبر اخفض عامل او قاسم مشترك لأولئك الذين عرفوا ذلك ، ولكن لم تكن هناك مناشدة منه لأن العالم واسع .

وعندما يكون الشيء في متناول يدي ، فانني لم اعد اريده ، فسروري يكمن في الرغبة وكل شيء الذي يمكن لعقلي او فكري ان يرغب به بشكل مترابط كان ممكن الحصول عليه او تحقيقه ، كما هو الأمر بالنسبة لطموحات كافة الرجال العقلاء ، وعندما يمكن الحصول على الرغبة مقدماً ، فقد اعتدت على ان اكافح لغاية ما كان علي ان افتح يدي وآخذها . عندئذ فانني سأتحول بعيداً ، راضياً بأنها ستكون ضمن نطاق قوتي . وسعيت فحسب لاثبت وادعم نفسي ، غير عابئاً قيد انملة لأن اجعل الآخرين يعرفون ذلك .

وكان هناك انجذاب خاص في البدايات ، والذي دفعني الى القيام بمحاولة دائمة لاطلاق شخصيتي من الاضافات الخارجية الغريبة وان اقذف بها على وسط جديد ، ذلك ان فضولي يرى خياله العاري الذي يمكن ان يغُذى . وان النفس المرئية ظهرت لتكون منعكسة بشكل اوضح في الماء الراكد او الهادىء لرجل آخر وفكره غير مبال مع ذلك . فالاحكام المعتبرة ، والتي كان لها تأثيراً فيهم في الماضي والمستقبل ، كانت غير ذي جدوى مقارنه مع الكشف عنها من

اول نظرة، فالأمر غريزي سواء كان مفتوحاً او مغلقاً لانسان ما كما لو انه قابل غريباً.

ان الكثير من عملي وفعلي كان نابعاً من الفضول الضروري . وعندما اكون في رفقة او عشرة جديدة ، فقد كنت اباشر ذلك بعربة صغيرة من مشاكل السلوك ، مراقباً تأثير ذلك لهذا او ذلك الاتجاه على سامعي ، متعاملاً ومعاملاً رجالي كمثل اهداف عديدة من اجل الابداع او البراعة الفكرية ؛ وأكلم واخبر نفسي بصعوبة حيث ان سحب القدم تكون قد بدأت أو انتهت . وهذه التفاهة ساعدت لجعلي غير مرتاح مع الرجال الآخرين ، خشية من ان تجرفني نزوتي فجأة لجمعها كمثل دورانات البراعة في الرماية ، كما انها كانت مهتمة في ذلك كثيراً والتي رفضها وعي الذاتي . وقد تحدثوا عن الطعام والمرض ، وعن الالعاب والمسرات ، معي ، والتي شعرت او ادركت بأن الحصول عليها من اجل الغايات الجسدية هو انتقاص تماماً للانسان . وسأشعر بالخجل من نفسي عند رؤيتها تنغمس في الجسد الذي يمكن ان يكون فقط تمجيد محنة انسان . ففي الواقع ، فان الحقيقة هي انني لم احب كلمة «الأنا» أو اسمعها.

(١٠٤)

وصلت الى هذه المرحلة المفيدة (من التفكير) عندما حدث اضطراب من جهة خيام الطويحة . فقد كان الرجال يندفعون نحوي وهم يصرخون . فجهزت نفسي لأهدي واتدخل في نزاع بين العرب وفيلق الهجانة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد كانت هناك مناشدة من اجل المساعدة ضد غارة كان يقوم بها عرب شمر منذ ساعتين ، وقد فروا عن طريق وادي السنينيرات . وقد تم نهب ثمانين جملاً . وبدا ذلك ثقيلاً تماماً ، فوضعت على جمالي الاحتياط اربعة او خمسة من رجالي من الذين عانى اصدقائهم او اقاربهم من الغارة ، وارسلتهم قدماً . وبدأ بوكستون ورجاله بالرحيل عند منتصف العصر ، في حين تأخرت لغاية المساء ، وانا أرى رجالي يحملون ستة الاف باوند من المتفجرات على ثلاثين جملاً . وكان رجالي مشمئزين لهذه الرحلة التي ستؤدي او تدفع الى تفجير قطار .

وخمنا بأن بوكستون سينام هو ورجاله قبل مسافة قصيرة من جبل "الحادي" ، لذلك فقد سرنا الى هناك؛ الا اننا لم نر نار المعسكر ، ولم تكن هناك ايضاً اثار اقدام . وقمنا بالبحث فوق قمة الجبل ، وكانت تهب علينا ريح شمال قادمة من جبل حرمون (جبل الشيخ) وتلفح وجوهنا المرتبكة . وكانت السفوح التي تقع خلفنا سوداء وساكنة ، فقد كان هناك شيء ما ينذر بالخطر تقريباً، ومن خلال ريح الصحراء الفولاذي . لذلك فقد رجعنا بضعة خطوات ، واختبئنا تحت حافة الجبل لننام براحة في ظل جوه الهادئ .

وفي الصباح قمنا بالبحث لمسافة خمسين ميلاً في تلك المنطقة الفارغة ، واستغربنا من هذا الفقد لرفقائنا ؛ الا ان "ضاهر" صرخ فجأة من زواية جبل

"الحادي" ، حيث رأى رتلهم ملتفاً من جهة الجنوب شرق . فقد ضلوا الطريق مبكراً وعسكروا هناك لغاية الفجر . ومازح رجالي الشيخ صالح ، الذي كان دليل فيلق الهجانة في المسير ، واستهجنوا من كونه ضل الطريق مابين جبال الثلاث خوات ووادي البير . ومع ذلك ، فقد كان صباحاً رائعاً ، حيث كانت الشمس تدفء ظهورنا ، والريح تنعش وجوهنا . وكان فيلق الهجانة يدب بجماله بشكل رائع مجتازاً الحواف المجمدة لقمم الجبال الثلاث متجهين نحو اعماق وادي الضحيروة الاخضر . وبدوا وكأنهم مختلفين عما كانوا عليه من قبل عندما وصلوا الى العقبة ، اذ ان بوكستون اللين التفكير والودود اصبح ممتلئاً بالتجربة للقتال الغير نظامي ، وصقل قواعد تدريب قواته من اجل المتطلبات الجديدة .

وقد غير من تشكيلهم القتالي والنظامي ؛ كما انه غير من نظام المسير ، لذلك فبدلاً من ان يسيروا في طابور رتيب وفقاً للنظام القديم ، فقد اصبحوايسيرون في مجموعات سوية ودون تأخير على أي اختلاف في الطريق او التضاريس او طبيعة الارض . وقلص من الحمولات على الجمال ، مما امكن معه من اطالة مدة المسير على الجمال . واختصر من نظامهم القديم في التوفقات العديدة اثناء المسير ، ففي الايام الماضية ، فقد كانوا يقومون بتزيين دوابهم ويدللونها وكانهم متنزهين ، في كل توقف ، كما يقومون بمسح وترتيب السروج ومسح حدبات الجمال وتدليكها ؛ في حين اصبح الوقت يستغل آنذاك في رعيها وعلفها .

وبالنتيجة ، فان فيلق الهجانة الملكي اصبح سريعاً في تحركه ، مرناً ، متحملاً ، وهادئاً ؛ باستثناء عندما يكون الرجال ممتطين جمالهم ، فانه عندئذ ترغى الجمال الثلاثمائة في صوت وكانه جوقة موسيقية ، ويصبح صوتها مسموعاً من على بعد اميال اثناء الليل . وفي كل مسير بعد ذلك ، بدوا بارعين ، واصلب واسرع ، وكانوا يتصرفون وكأنهم اولاد في اجازة ، حيث كان الضباط والجنود يختلطون ببعضهم ويجعلون جوهم ممتعاً وبهيجاً .

وعلى هذا النمط فقد اصبحنا نبحث دوماً ، اثناء مسيرنا ، عن قطعة

صالحة للرعي وعن الشجيرات النضرة ، وندع دوابنا ترعى عليها في حين كنا نلاحقها ، فاصبح فيلق الهجانة رائعاً في نظامه .

من خلال سراب الحرارة والوهج الذي كان يتمايل فوق الحجارة الصوانية المشعة للمرتفع ، فقد امكننا ان نرى اولاً ، العقد البنية لسروج رتل الهجانة تتمايل في الوهج . وما ان اصبحوا اكثر قرباً فانه امكن تمييز مجموعاتهم الصغيرة ، والتي تتمايل ؛ منفصلة ومتداخلة في بعضها ، واخيراً ، وعندما اصبحوا قريبين جداً منا ، فقد استطعنا من تمييز افراد الخيالة او ممتطوا الجمال ، كمثل طيور مائية ضخمة من خلال السراب الفضي ، ومعهم بوكستون بجسمه الرياضي ، ممتطياً جمله بشكل رائع وهو يقود رجاله الذين لفحت الشمس وجوههم ، الضاحكين ، والمرتدين للباس الخاكي الرسمي .

وكم كان غريباً منظرهم وهم يسيرون بالجمال ، فبعضهم كانوا يجلسون على مطاياهم بشكل طبيعي ، بالرغم من سروجهم الغير متقنة في وضعها ، وبعضهم كانوا يميلون للامام على مطاياهم وكانهم قرويون عرب ؛ وآخرين كانوا متراخين ومتكاسلين وكانهم ممتطوا جياد استراليين . وقد هزأ رجالي بتمايلهم . واخبرتهم كيف انني سانتقي واختار من بين هؤلاد الثلاثمائة هجان اربعين رجلاً ، والذين سيكونون اسرع في مسيرهم ، وأفضل قتالاً ، واكثر تحملاً من أي رجال في الجيش .

عند الظهر ، توقفنا عند راس محيور لمدة ساعة او ساعتين ، حيث ان الحرارة كانت آنذاك اقل من درجة الحرارة في مصر بشهر آب ، ولم يرغب بوكستون ان يدفع رجاله من خلال ذلك دون أخذ فترة استراحة . وحلت الجمال وأُطلقت في حين استلقينا ، ثم تناولنا الغداء وحاولنا النوم ، بالرغم من وجود اسراب كثيفة من الذباب كانت تحوم فوقنا آتية من وادي البير . في غضون ذلك كان رجالي يعانون وهم يتمايلون بجمالهم من ثقل الحمولات ، ويشعرون بالخجل من وضعهم كما لم يشعروا به من قبل ، ويصلون بأن لايسمع العالم عن تعسفي لهم . وتضاعف حزنهم اذ ان جمال الامتعة - الجمال التي كانت تحمل الامتعة كانوا من النوع الصومالي ، اذ ان اعظم سرعة لهم لم تكن لتتجاوز ثلاثة

اميال في الساعة ، وكانت جمال قوة بوكستون تسير بسرعة اربعة اميال تقريباً ، وناقتي تسير بسرعة خمسة اميال في الساعة ؛ لذلك فان المسير بالنسبة للزعاقي ورفاقه الاربعين كان مصدر ازعاج وبطء .

وسخرنا من عدم ملائمتهم ، داعينهم بتجار ماشية وحمالين ، عارضين من شراء بضاعتهم عندما يأتون الى السوق ؛ ولغاية ماتضحك الظروف على محنتهم . وبعد اليوم الاول فقد حافظوا وبقوا معنا باطالة المسير الى الليل ، وبسرقة بعض الفطور ، واثناء توقفات منتصف النهار . ويسيرون بقافلتهم دون فقد أي شئ من حمولاتهم ؛ وهو اداء ممتاز بالنسبة لهؤلاء الرجال الدمثين ؛ وهذا ممكن فقط لانهم يقودون افضل الجمال في الجزيرة العربية .

قضينا الليل في منطقة الغداف . فاجتنتل العربة المدرعة ونحن متوقفين ، وكان دليلها الشراري يجلس على مقدمتها منتشياً ، وبعد ساعة او ساعتين وصل الزعاقي ، مفيداً بأن كل شئ على الطريق امامنا كان حسناً . وتوسل قائلاً بأنه لايجب على بوكستون ان يقتل ، مباشرة على الطريق ، مثل هذا العدد من الجمال المعطوبة من جراء المسير ؛ اذ ان رجاله يجعلون كل مناسبة من هذا القبيل مبرراً لعمل وليمة وبالتالي التأخر بالمسير .

وكان عبدالله منزعجاً ويريد ان يفهم في الوقت ذاته لماذا يقوم البريطانيون بقتل بهائمهم المهجورة او المعطوبة . فشبهت له لماذا يقوم الواحد منا بقتل الآخر اذا ما كانت جراحه بليغة او مميتة في المعركة ؛ الا ان عبدالله اجاب عن السؤال بقوله ، لينجينا ذلك من الالم والعذاب الشديدين الذي ممكن معه ان نخجل من انفسنا . وكان يعتقد بأنه من الصعب ان يكون هناك رجل حي لايختار موتاً تدريجياً بسبب الضعف في الصحراء ، بدلاً من القتل المفاجئ ؛ ففي الحقيقة ، حسب تخمينه ، فان الموت الابطأهو اعظم رحمة من كل شئ ، اذا ان غياب الامل سيمنع الحدة لقتال خاسر ، ويترك الانسان آملاً برحمة الله . اما حجتنا الانجليزية ، فهي انه من الالطف قتل كل شئ بسرعة ماعدا الانسان فهو يؤخذ على محمل الجد .

(١٠٥)

كان غدنا مثل امسنا ، مسير مجهد مضطرد لمسافة اربعين ميلاً . وفي اليوم التالي كانت هناك آخر خطوة قبل القيام بجهد ضد الجسر . فأخذت نصف رجالي من قافلة الامتعة والجمولات ، ودفعتهم قدماً على خط مسيرنا ، ليقوموا بالمراقبة على كل قمة جبل . وكان هذا عملاً جيداً ، الا انه لم يفيدنا ، اذا انه في منتصف الصباح ، ومع توجهنا الى الموقر لوضع الكمين هناك ، حيث كنا نسير بقوة وأمل ، عندما قدمت من الجنوب طائرة تركية ، وحلقت طويلاً فوق طابورنا ، ومن ثم اتجهت اسفلاً ، امامنا ، باتجاه عمان .

ووصلنا بتثاقل الى الموقر عند الظهر ، واختبئنا بين بعض الآثار الرومانية . واخذ مراقبونا موقعهم على قمة جبل ، الذي كان مطلاً على السهول المحصودة حتى سكة حديد الحجاز . ومن فوق سفوح الجبال ، شاهدنا من خلال مناظيرنا الحجارة الرمادية التي بدت كمثل قطعان الماشية التي ترعى . وارسلت رجالي من الفلاحين الى القرى التي تقع الى اسفل ، لاستطلاع الاخبار ، وان يقوموا بتخدير الاهالي بأن يمكثوا في بيوتهم . وعادوا ليبلغوننا بأن الحظ كان ضدنا . اذ ان الجنود الاتراك كانوا منتشرن هناك مع محصلي الضرائب على المحاصيل السنوية ، وان هناك حوالي اربعين جندياً سيمكثون الليلة في القرى الثلاث القريبة من الجسر الكبير ـ حيث كان من الضروري ان نمر ونعود من خلالها اثناء القيام بعمليتنا .

وعقدنا مشاورات سريعة . فالطائرة التركية التي حلقت فوقنا ربما ميزتنا أولم تميزنا . وستيسبب ذلك ، في اسوأ الاحوال ، بأن يقوموا بتعزيز الحراسة

على الجسر الكبير ، الا انه لم يكن لدي خشية من ذلك . فالاتراك سيعتقدون باننا كنا عبارة عن قوة متقدمة لشن هجوم ثالث على عمان ، ومن المحتمل انهم قاموا بحشد قوات وليس بتوزيعها . ورجال بوكستون كانوا مقاتلين اشداء ، وقد اعد خططاً رائعة من اجل ذلك . فالنجاح كان مؤكداً .

كان الشك يتركز حول مدي كلفة القيام بعملية الجسر ، او مدى امكانية في الارواح البريطانية ، وذلك وفقاً لتحريم بارثولوميو بحدوث اصابات . كما ان استخدام البغال من قبل عناصرها عند الانسحاب سوف لن يكون غير معوق . وكان على رجال فيلق الهجانة ان يترجلوا عن جمالهم قبل مسافة ميل تقريباً من الجسر (منعاً لضجيج جمالهم) ويتقدموا مشياً على الاقدام . فضجيج هجومهم مع ما سيسببه انفجار ثلاثة اطنان من المتفجرات تحت الجسر ، فانه سيوقظ المنطقة برمتها . ومن الممكن ان يقوم الجنود الاتراك في القرية بالهجوم على مكان وقوف جمالنا - وهذه ستكون كارثة لنا - او على الاقل سيفيدنا في ارض وعرة عند انسحابنا ، ولايمكن لرجال بوكستون ان يتبعثروا او ينتشروا كمثل اسراب الطيور ، بعد عملية نسف الجسر ليبحثوا عن طريق عودتهم الى الموقر . ففي أي هجوم ليلاً لابد وان يُفقد بعض الرجال او يُعزلوا . وكان علينا ان ننتظرهم ، ومن المحتمل ان يفقد المزيد في هذه العملية . ومن الممكن ان يكون كلفة ذلك الاجمالية خمسون رجلاً ، وكنت قد وضعت كلفة عملية الجسر هذه بخسارة اقل من خمسة رجال . الا ان تدميره كان مهماً لتخويف وتشويش الاتراك ، ذلك انهم سيتركوننا وشأننا لغاية الثلاثين من آب عندما يبدأ زحف رتلنا الطويل باتجاه الازرق . واليوم كان العشرين منه . وبدا الخطر ضاغطاً في شهر تموز ، الا انه قد انتهى الآن تقريباً .

ووافق بوكستون على ذلك . فقررنا التوقف عن القيام بالعملية ، وتحركنا عائدين في الحال . في تلك الاثناء حلقت المزيد من الطائرات التركية القادمة من عمان فوق التلال الشمالية من الموقر ، وكانت تبحث عنا . وشعر الرجال بخيبة وكانوا متحرقين لأن يبلغوا قيادتهم المتشكلة في مصر بأن خططهم كانت منجزة واقعياً . ومن اجل الحصول على ما كان باستطاعتنا ، فقد ارسلت صالح

والشيوخ الآخرين الى قراهم ليقوموا بنشر الشائعات حول عددنا ، وجيشنا كجيش استطلاع لفيصل ، لنقوم بالاستيلاء على عمان في هجوم يشن تحت ضوء القمر . فقد كانت هذه هي القصة التي يخشاها الاتراك ؛ وكانت تلك العملية التي تصوروها ، والضربة التي كانوا يرتعدون منها . فقام الاتراك بدفع قوة من الفرسان بحذر الى الموقر ، ووجدوا تأكيدات لذلك من الحكايات التي كان يرويها القرويون ، وحيث كانت قمة الجبل مليئة بعلب اللحوم الفارغة ، وسفوح القرية مليئة بالاثار العميقة للعربات العديدة . فقد كانت هناك آثار عديدة ! وابقاهم هذا التحذير مستنفرين ومشوشين لمدة اسبوع . فتدمير الجسر سيكسبنا وقتاً مدته اسبوعان .

انتظرنا لغاية ما اصبح الغسق كثيفاً ، ومن ثم سرنا صوب الازرق ، التي كانت تبعد خمسين ميلاً . وتظاهرنا بأن الغارة كانت اصبحت عبارة عن رحلة . وتحدثنا عن الآثار الرومانية وعن مناطق الصيد الغسانية . وكان لدى فيلق الهجانة خبرة عملية ، وعادة تقريباً، للرحلات الليلية ، لذلك فان المسير كان بالنسبة لهم كالمسير في النهار ، ولم تكن الوحدات لتضل طريقها ابداً . وكان ضوء القمر مشعاً واستمرينا بالمسير لغاية تباشير الصباح الاولى ، مجتازين قصر الخزانة الوحيد حوالي منتصف الليل ، وغير مبالين تماماً لنتحول جانباً ونرى غرابته .

وخشيت في اول الامر ان نواجه غارات بعض العرب ، الذين من الممكن ان يهاجموا فيلق الهجانة على جهل منهم ، ، لذلك فقد انطلقت في المقدمة ومعي رجالي لنكون امام الرتل بنصف ميل . وماان اندفعنا قدماً حتى شعرنا تدريجياً بطيور الليل ، وهي تطير باسراب فوق وتحت اقدامنا ، وكان لونها اسود وحجمها كبير . وازدادت لغاية مابدت وكأن الارض مغطاه بها ، وكانت تطير بكثافة ولكن بهدوء وسكون ، وتدور وتحلق حولنا بشكل دوائر ، كمثل الريش في مهب الريح . وقد اذعر وأخاف عددهم وهدوئهم رجالي ، الذين اشهروا بنادقهم واخذوا يطلقون النار على الطيور المحلقة . وبعد ميلين اصبح الليل فارغاً ثانية ؛ واخيراً نزلنا لنرتاح وننام بين شجيرات المرير ، لغاية ماصحونا على حرارة الشمس .

وفي العصر وصلنا بعد تعب الى قُصير عمره ، وكان مخصصاً لموسم الصيد فيما مضى ، شامخاً امام اكمة من الاشجار . وجعل بوكستون من قاعته الباردة مقراً له ، واستقلينا هناك ونحن مندهشين بالنقوش المرسومة على جدرانه ، وأخذنا نتحدث ونضحك كثيراً . وبالنسبة للرجال فان بعضهم وجدوا ملاذاً لهم في الغرف الاخرى للقصر ، ومعظمهم انتشروا مع جمالهم ليستلقوا تحت الاشجار ، من اجل قضاء فترة العصر والمساء . ولم تكن الطائرات التركية قد وجدتنا ـ كما انها لم تستطع ان تجدنا هناك . وفي الغد كنا سنكون في الازرق ، وسنحصل على الماء العذب بدلاً من ماء البئر العكر الذي ، مع مرور الايام ، اصبح مستساغاً لنا .

وكان الازرق مكاناً مشهوراً ، يعتبر ملك الواحات ، واكثر جمالاً من منطقة عمره ، بخضرته وينابيعه المتدفقة . وقد وعدت كل واحد من الرجال بالاغتسال هناك ، فالرجال الانجليز ، لم يستحموا منذ قدومهم من العقبة . في غضون ذلك كان قصير عمره رائعاً . وسألني الرجال بدهشة من كانوا هم ملوك غسان ، فيما يتعلق بالرسومات على جدران القصر . فكان كل ما باستطاعتي ان اخبرهم به هي الروايات الغامضة لشعرهم ، وبالحروب القاسية التي خاضوها ؛ الا ان عصرهم كان بعيداً ومبهرجاً بتفاهة .

وسرنا في اليوم التالي بهدوء الى واحة الازرق . وعندما اصبحنا على آخر مرتفع من حجارة اللافا ورأينا محيط المقابر حولها ، فقد اندفعت مع رجالي للتأكد من عدم حدوث شيء ، وخلو المنطقة وانعزالها قبل ان يأتي الآخرون . ومع ذلك فانه لم يكن هناك مجال للخوف ، فقد كانت الواحة خالية من الناس ، وجميلة كما في السابق ، وحتى انها اصبحت اكثر جمالاً عندما كانت بركها المشعة تتلألأ باجساد رجالنا وهم يسبحون فيها ، وبنسيم الهواء الناعم من خلال اشجار القصب ، وصدى صرخات الفرح الصادر من رجالنا وارتطامهم في الماء . وقمنا بعد ذلك بدفن اطنان من المتفجرات من اجل الحملة على درعا في شهر ايلول .

استرحنا هناك لمدة يومين ، وكان انتعاش مياهه عظيماً . وسار معي

بوكستون الى الحصن ، لفحص وتدقيق المذبح المكسيمي الموجود فيه ؛ الا ان مكوثنا هناك قد سمم بافواج الذباب الرمادية ، ومن ثم دمر بحادث مأساوي . اذ ان أحد الرجال العرب ، بينما كان يقوم باطلاق النار على سمكة في بركة الحصن ، سقطت البندقية منه وانفجرت وقتلت على الفور الملازم روان ، من سلاح الخيالية الاسكتلندي . ودفناه في مقبرة مجابر الصغيرة . وسرنا في اليوم الثالث لنجتاز العماري ، ونعبر "جيشه" الى القرب من جبال الثلاث اخوات ، وهي المنطقة القديمة التي اعرفها تماماً . وعند اقترابنا من "الحادي" ، شعرنا بالامان ، وقمنا بمسير ليلي ، وتساءل الرجال هل كنا نسير بشكل صحيح . وكنت مقيداً بخطهم او رتلهم الطويل خلفي ، ذلك انني انا ايضاً ضللت طريقي مابين "الحادي" ووادي "البير" . ومع ذلك ولغاية الفجر فقد كنا نستهدي بالنجوم ، وطلع الفجر علينا ونحن في واد ذو اشجار والذي كان وادي البير بالتأكيد ؛ ولكنني لم استطع ان اعرف فيما اذا كنا فوق او تحت منطقة الآبار . واعترفت بخطأي لبوكستون ومارشال ، واصبحنا نجوم هنا وهناك لمدة من الزمن ، لغاية ، وبالصدفة مالقينا صقر ابن شعلان ، وكان من حلفاؤنا القدامى منذ ايام الوجه ، حيث قام بدلنا على الطريق ، وبعد ساعة كان رجال الهجانة يحصلون على حصصهم من الطعام وينصبون خيمهم بجانب الابار ، ووجدنا بأن سلامة ، الطبيب المصري الحكيم ، قد حسب عودتهم اليوم ، وقام بملء احواض الشرب بالماء الكافي لتشرب منها الدواب العطشة .

قررت ان اذهب الى منطقة ابا اللسان مع العربات المدرعة ، اذا ان بوكستون اصبح الآن على ارض امنية وبين الاصدقاء ، ويمكنه ان يبقى دون مساعدتي . لذلك فقد سرنا بسرعة منحدرين الى سهل الجفر ، وسرنا فيه بسرعة ستين ميلاً في الساعة ، وكانت عربتنا في المقدمة . وكنا نثير عباراً كثيفاً بعربتنا مما افقدنا العربة الاخرى ، وعندما وصلنا الى الحافة الجنوبية للسهل لم تعد العربة مرئية لنا في أي مكان . فربماكانت تعاني من متاعب في عجلاتها ، لذلك فقد جلسنا ننتظر ، واخذنا نحدق في موجات السراب خلفنا والتي كانت تتبخر فوق الارض . وكان بخارها الاسود تحت السماء الشاحبة متغير عدة مرات في

الساعة، موحياً لنا باشارة زائفة. لقدوم رفاقنا؛ بيد انه في النهاية، ومن خلال الكتلة الرمادية، قدمت نحونا زوبعة من الغبار.

فتابعنا سيرنا بسرعة تحت اشعة الشمس الحارقة والتي جعلت هيكل العربة معدناً حارقاً. فتوقفنا لننظر هناك. وقام الرجال باعداد الشاي لنا، وكان شاياً جيشياً اضيف اليه الحليب المعلب، الا انه كان جيداً للاجواف الطامئة. وبينما كنا نحتسي الشاي، ظهر رفاقنا في العربة الاخرى من بعيد، فقدمنا لهم الشاي، وضحكنا من منظر وجوههم المغبرة وايديهم المزيتة من جراء تغييرهم لاطارات عربتهم التي اصابها العطب اثناء سيرها. وبدا مظهرهم هرماً وشاحباً، وجعل التعرق جلودهم سوداء وملطخة.

وشربوا شايهم على عجل (اذ كان علينا المسير مسافة خمسين ميلاً اخرى)، ثم قذفوا بما تبقى من الشاي على الارض، ومن ثم تابعنا مسيرنا من خلال السكة الحديد المدمرة الى ابي اللسان، حيث كان كل من جويس، داوناي ويونغ قد ذهبوا جميعهم بشكل يدعوا للدهشة. ففي الحقيقة، فقد كانت الاستعدادات قد استكملت، وبناء عليه فقد تفرقوا. فذهب جويس الى القاهرة لمراجعة طبيب الاسنان، وذهب داوناي الى مقر القيادة العليا، ليبلغ اللنبي باننا كنا مستعدين ومهيأين لتلقي الاوامر.

(١٠٦)

قدمت سفينة جويس من جدة ، وكانت تحمل بريد مكة . وفتح فيصل جريدة القبلة (وكانت الجريدة الرسمية للشريف حسين) ليجد فيها مرسوم ملكي بتعيين جعفر باشا برتبه لواء وقائداً للجيش العربي الشمالي . كان واجبي الاول هو ارسال ملاحظة الى نوري الشعلان بأنني لن اتمكن من مقابلته في الحشد الذي سيضم قبائله ، الا انني سأكون في خدمته في اليوم الاول من الشهر . وكانت تلك ذريعة سيئة ، اذ ان نوري يمكن ان يأخذ ذلك التغير من قبلي بالشك ؛ وبدون قبيلة الروالى فان نصف فعاليتنا في حملة درعا في السادس عشر من ايلول ستختفي . ومع ذلك ، فقد كان علينا ان نخاطر بهذا الفقدان ، اذ انه بدون جيش فيصل النظامي ومدفعية بيساني فلن تكون هناك حملة عسكرية ، ومن اجل احتمالية تغيير رأيهم وقرارهم ، فقد كان يجب علي الانتظار في "ابي اللسان" .

وكان واجبي الثاني بأن ابدأ بارسال القوافل التي تحتوي على الامتعة ، الاغذية ، والمحروقات ، والذخيرة الى الازرق . وكان يونغ قد هيأ هذه القوافل ، كما كان يفعل من قبل .

ومهمتي الثالثة كانت مواجهة تمرد القوات . فقد سمعوا شائعات زائفة حول وجود أزمة . وبشكل خاص سوء فهم المدفعيين ، اذا انهم في عصر احدى الايام تنازعوا مع ضباتهم ، واندفعوا ليحولوا مدافعهم الى خيامهم . الا ان راسم ، قائد المدفعية ، قد احتواهم واحبط عملية التمرد ، وذلك بجمع كافة الضباط والافراد في خيمته . واستفدت من هذه اللخطة المسلية لاقابل أولئك

الاشخاص . كان هناك توتراً في الخيمة ، ولكن اخيراً وبدافع الفضول اصبحوا يتكلمون معي ، وكان اسمي يعتبر غريباً بالنسبة لهم ، كرجل نصف بدوي ونصف انجليزي . وقلت لهم بأنها عبارة عن عاصفة في فنجان قهوة والتي ستعصف بين الرؤوس العالية ، فضحكوا جميعهم بسعادة . فقد كانت وجوههم تتجه نحو دمشق ، ولم يكونوا يعبأون بشئ خارج جيشهم . وكان خوفهم من ان يترك فيصل لوحده ، حيث انه لم يظهر خارجاً منذ ايام . فوعدتهم بأن التمس منه الخروج باستمرار . عندما يكون هو وزيد يقومان بالاستطلاع والتفتيش كالعادة ، وهما يسيران عبر الخطوط بسيارة الفوكسهول ، التي قام بولز بدهنها باللون الاخضر خصيصاً له . وكانت مهمتي الرابعة هي البدء بدفع الجيش قدماً نحو الازرق في اليوم المناسب . ومن اجل ذلك فقد تمت الاستعانة ببراعة ولياقة ستيرلنغ في هذا المجال . وكان نوري الشعلان طموحاً ، كما يمكن ان يكون عليه الحال مع أي جندي آخر ، وليجعل لنفسه الكثير من الفرص ، ووافق على ان يتحرك الى الازرق واذا ما كان الامر غير مرضياً له ولرجاله فبامكانهم ان يعودوا ادراجهم ، أو يتخلون عن ولائهم والتزامهم ؛ واذا ما كان الامر مناسباً ، كما أكدت له بانه سيكون ، فانهم سيكون لهم استحقاقاتهم بالخدمة في الجيش الشمالي العربي .

واستجابت الكوادر والعناصر لهذه الحجج . وقدمنا تطمينات من ان مسائل الغذاء والاجور تعتمد تماماً على صيانة الجيش . فوافقوا على ذلك ، وبدأت الارتال المنفصلة للفرسان الممتطين الدواب ، وطواقم المدافع الرشاشة ، ومهندسوا الالغام الانجليز ، وطواقم مدفعية بيساني ، بالتحرك وفقاً للخطة التي وضعها كل من ستيرلنغ ويونغ ، وبعد تأخر دام يومين فقط .

وكان الالتزام الاخير هر وضع فيصل على قمة الجيش . فمن اجل القيام بمحاولة أي شئ جاد مابين درعا ودمشق بدونه ، فان ذلك سيكون شيئاً فارغاً . وقد كان بامكاننا ان نقوم بالهجوم على درعا ، الامر الذي كان يتوقعه اللنبي منا ؛ بيد ان الاستيلاء على دمشق ـ وهذا ما كنت اتوتقعه من العرب ، والسبب الذي من اجله انضممت اليهم ، والذي اخذ مني عشرة الاف ألماً ، واستهلك فكري

وقوتي - فهذا كله كان يعتمد على وجود الامير فيصل معنا على خط القتال ، اذ ان ذلك سيكسب الحملة زخماً سياسياً . واخيراً وافق فيصل على القدوم . ودرات اتصالات مابين اللنبي ، ويلسون ، والشريف حسين ؛ وبعد عدة ايام وردت برقية من مكة (من الشريف حسين) انعشت الآمال ، وذلك بتكليف فيصل من قبل والده على ان يكون على رأس الجيش الذي سيدخل دمشق .

وعم الفرح الجميع ، وعلق فيصل على ذلك بقوله بأن هذا كان "شرفاً عظيماً لنا جميعاً" . واضاف قائلاً ، "والآن يا سادة سموا بالله واعملوا" .

ووضعنا خلال ثلاث ساعات برنامجاً زمنياً للخطة ، ورتبنا من سيحل محلنا في منطقة ابي اللسان ، مع تحديد مسؤولياتهم وواجباتهم . وبعد ذلك هيأت نفسي للرحيل . وكان جويس رجع الينا للتو من مصر ، ووعد فيصل بانه سيأتي ، معه ومع مارشال ، الى الازرق لينضموا الينا هناك . وكان الفرح يعم المعسكر عندما استقليت سيارة رولز واتجهت صوب الشمال ، آملاً بحشد قبائل الروالى بقيادة نوري الشعلان في الوقت المحدد لهجومنا على درعا .

الجزء العاشر

اكتمال الأعداد والزحف على دمشق

من فصل ١٠٧ـ ١١٩

كان رتلنا المتحرّك في الأزرق يشمل الطائرات العربات المصفّحة ، الجيش النظامي العربي والقبائل المتجمعة هناك ، وذلك من أجل قطع خطوط السكة الحديد الثلاث خارج درعا . وكان الخط الجنوبي الذي قطعناه أو نسفناه يقع بالقرب من المفرق ؛ والخط الشمالي في منطقة عرار ، والخط الغربي كان بالقرب من مزيريب . وبذلك طوقنا درعا ، واحتشدنا هناك ، رغم الغارات الجوية التركية .

وفي اليوم التالي ، شنّ اللنبي هجومه ، وخلال بضعة ساعات بعثر الجيوش التركية تماماً . وطرت إلى فلسطين من أجل الحصول علي مساندة الطائرات ، فحصلت هناك على أوامر من أجل القيام بالمرحلة الثانية من الهجوم باتجاه الشمال .

وتحرّكنا إلى ما وراء درعا للتعجيل باستسلامها . وانضم إلينا الجنرال باور ، وبرفقته ، تقدّمنا إلى الكسوة ، وهناك تقابلنا مع فيلق الفرسان الاسترالي . ودخلت قواتنا المتحدة دمشق دون مقاومة . وحدث بعض الإضطراب في المدينة .

وبذلنا جهدنا بإشاعة الطمأنينة والهدوء . ووصل اللنبي وأزال كافة الصعوبات . وبعد ذلك سمح لي بأن أمضي .

(١٠٧)

لقد كان سروراً لايوصف لأن نترك الضباب والسديم خلفنا. فقد كنا ننظر الى بعضنا البعض بغبطة ونحن نتطلق بالسيارة ، انا والشريف ناصر ومعنا ونترتون . فاللورد ونترتون كان آخر ضابط مجند انضم الينا ؛ وهو ذا خبرة من فيلق هجانة بوكستون . اما الشريف ناصر الذي كان منضماً للجيش العربي منذ الايام الاولى لمعارك المدينة ، فقد اختير من قبلنا من اجل القيام بالعمل الميداني في هذه المهمة الاخيرة . حيث انه استحق شرف المشاركة في الاستيلاء على دمشق ، وفقاً لما قام به من اعمال حربية مشرفة في معارك المدينة، الوجه، العقبة، والطفيلة؛ الى جانب الايام الخوالي العديدة .

وكانت سيارة الفورد الصغيرة تسير خلفنا باذلة جهدها بين الغبار ، خلفنا اذ ان سيارتنا الرائعة كانت تنطلق الى عدة اميال اماماً . وقد كنت فيما مضى افتخر بالمسير من الأزرق إلى العقبة خلال ثلاثة أيام ، بيد أننا نصل الآن خلال يومين ، وننام بملء جفوننا بعد هذه الرحلة المريحة بسيارة الرولز رويس ، كمثل الشخصيات الحربية العظمية . ولاحظنا ثانية كم كانت حياتهم مريحة ومرفهة ؛ فالجسم المرتاح والقوي الفكرية غير المنهمكة والمرهقة تساعد الذهن او العقل على التركيز والشخص جالس على كرسي العمل المريح ايضاً ؛ في حين ان عقولنا واجسادنا لاتركن او ترتاح الا عند التوقف للنوم والذهاب في سبات عميق ، سواء كان عند بوادر الفجر او عند الغروب ، اما بقية النهار فنكون في مسير شاق علي الدواب . وكنا في ايام عديدة نسير في اليوم لمدة اثنتي وعشرين ساعة ونحن على سروجنا ، وكل واحد منا يأخذ دوره ليقودنا اثناء الظلام ، في حين يكون

الآخرين يومئون برؤوسهم للامام وهم على يجلسون على الاجزاء المقوسة لسروجهم . ولايتوقف الامر عند هذا الحد ، فانه حتى عندما يذهب المرء بنوم عميق وهو على سرج دابته ، فقد كان عليه ان يبقى على قدميه ضاغطتان على كتف الجمل ليبقيه ماضياً في سيره ، كما انه كان على المتطي للدابة ان يحافظ على توازنه في حالة السير بخطوات سريعة للدابة أو في حالة الالتفاف أو التحول في المسير . ومن ثم كنا نتعرض للامطار والثلوج او أشعة الشمس الحارقة ونعاني كثيراً من ذلك ؛ اضافة للنقص في الاغذية والماء والى عدم الطمائنية من هجوم الاتراك المفاجئ ، او من غارات قطاع الطرق .

اما الان فقد اصبحت الصحراء غير عادية ، ففي الحقيقة اصبحت مريحة بشكل مخجل . فلم نعد نفقد او نضل بعضنا البعض ، او نغيب عن الرؤيا ، حيث كانت قوافلنا الخفيفة والنشطة لقواتنا ولرجال القبائل وللامتعة تتحرك ببطء باتجاه الشمال فوق منبسط الجفر اللامتناهي . واجتزنا تلك الارتال النشطة (التي كانت تنبئ بحشدنا الدقيق في التوقيت في الازرق) ، وانطلقنا بسيارتنا ندب على السهل ، وكان سائقي الممتاز ، جرين ، يسوق بسرعة سبعة وستين ميلاً في الساعة . اما الشريف ناصر الذي كان يجلس على صندوق السيارة الخلفي وهو شبه متذمر ، من هذه المطية ، فقد كان يلوح بيده لكل صديق يراه عند اجتيازنا لقافلة او رتل سائر .

وعند وادي البير سمعنا من بني صخر المتيقظين بأن الاتراك ، في اليوم السابق ، قد قاموا باندفاع مفاجئ من الحسا الى الطفيلة . وظنني مفلح بانني كنت مجنوناً ، او انني مسروراً في الوقت الغير مناسب ، عندما ضحكت بصوت عال من الاخبار التي سمعتها ، لاننا كنا تحركنا وبدأنا الحشد ، فلا يجدي بعد ذلك ، العدو نفعاً فيما لو استولى على ابي اللسان ، القويرة ، او العقبة ذاتها . فاشاعتنا التي اطلقناها بالتقدم نحو عمان قد سحبت اقدامهم نحو الجنوب ، بينما نحن كان هدفنا في الشمال .

وفي الازرق وجدنا بضعة رجال لنوري الشعلان ، وسيارة من نوع كروسلي ومعها ضابط طيار وبضعة قطع غيار ، وطيارتان مغطتان بالشوادر ،

حيث كانتا مخصصتان للدفاع عن حشودنا . وقضينا ليلتنا الاولى على مهبطها ونحن نعاني من ذباب الجمال القارص كمثل قرصة الدبور، لغاية الغروب . ومن ثم أتت علينا راحة قصيرة مباركة عندما خفت حدة حكة جلودنا مع برودة المساء، الا ان الرياح تغيرت وهبت علينا امواج حارة من الغبار العمياء لمدة ثلاث ساعات، فاستلقينا على الارض ووضعنا اغطية على رؤوسنا ، الا اننا لم نستطيع النوم . وكان علينا في كل نصف ساعة ان نقوم وننفض الغبار عنا والذي كان يهددنا بالطمر . وتوقفت الرياح الرملية عند منتصف الليل ، ونهضنا من اعشاشنا المغبرة لنعد انفسنا للنوم - عندما هاجمتنا اسراب من الصراصير الطائرة، فظللنا نقاومها لغاية الفجر .

وبالنتيجة، وعند الفجر، فقد قمنا بتغيير مكان معسكرنا الى مكان مرتفع عند جسر مجابر ، وكان يبعد ميلاً عن مكان وجود الماء ومائة قدم فوق خط المسير ، الذي كانت تسير عليه القوافل ، وهو مفتوح لجميع اتجاهات الرياح . واسترحنا هناك لفترة ، وبعد ذلك ذهبنا لنستحم في مياه النهر الفضية . وخلعنا ملابسنا ووضعناها بجانب برك الماء الصافية كاللؤلؤ الابيض، والتي كان سطحها عاكساً الاشعة القمرية للسماء "انها رائعة" قلت ذلك وانا انزل في الماء ، وسأل ونترتون، "ولما تبقى رأسك منحنياً تحت الماء ؟" . ثم قرصته ذبابة جمل من خلفه ، ففهم ذلك ، ثم انحنى من بعد ذلك . واخذنا نسبح في البركة ونحوم فيها بشكل يائس محافظين على رأسينا لتبقى مبتلة ولتزيل الاوساخ العالقة بهما، وبعد خمسة دقائق خرجنا من الماء ، واتجهنا نحو ملابسنا ، التي كانت ملطخة ببقع الدماء من جراء قرص الحشرات .

وقف ناصر هناك واخذ يضحك علينا : وذهبنا بعد ذلك سوياً الى القلعة ، لنأخذ استراحة منتصف النهار هناك. وذهبنا بعد ذلك سوياً الى القلعة ، لنأخذ استراحة منتصف النهار هناك . وكان برجها بارداً وهادئاً والرياح تلعب باغصان النخيل فتحدث حفيفاً ناعماً ، وكانت اغصانها المتدلية تمنح ظلالاً جميلاً . وجلس ناصر تحتها ، على سجادته ، بهدوء، وهو يستمتع بالتدخين ، وعبر عما في نفسه قائلاً : "انني سعيد" ، وفي الواقع فقد كنا جميعاً سعداء .

عند العصر قدمت الينا عربة مدرعة ، وأكملت بذلك عنصر دفاعنا الضروري مع ان خطر هجوم العدو كان امراً تافهاً آنئذ . فهناك ثلاثة قبائل كانت تغطي المنطقة بيننا وبين خط السكة الحديد . ولم يكن هناك سوى اربعين فارساً من القوات التركية في درعا ، ولاتوجد أية قوات تركية في عمان؛ وايضاً، فانه لم تكن لدى الاتراك بعد أية اخبار عن وجودنا . وحلقت احدى طائراتهم في صباح احدى الايام فوق منطقتنا ، بصورة غير مبالية ، ومن ثم مضت في طريقها، فمن المحتمل انها لم ترانا . وكان معسكرنا يقع على قمة هاوية ومفتوحة، مما منحنا مركز اشراف ومراقبة رائع للطرق المؤدية الى درعا وعمان . واصبح عددنا فيما بعد اثنا عشر انجليزياً ، ومعنا الشريف ناصر وخادمه ، وكنا نقضي وقتنا بكسل واسترخاء ، او في التجوال او الاستحمام تحت اشعة الشمس او في المراقبة ، او التفكير؛ وننام بشكل مريح في الليل. وبالنسبة لي فقد كنت متمتعاً بسخاء الفترات الفاصلة مابين رفاقنا الموجودين في منطقة أبي اللسان ومابين معركتنا المقبلة مع العدو في الشهر القادم .

ان السخاء بدا ليكون جزءاً مني ، اذ ان هذا المسير الى دمشق (والذي كان يشغل مخليتنا آنذاك) ، جعل التوزان العادي متغيراً لدي . وامكنني ان اشعر بالقوة المحكمة للعرب من خلفي . فقد أتت ذروة الوعظ والارشاد الذي بذل على مدى سنوات ثمارها ، واتحدت جميع القوى باتجاه عاصمتها التاريخية . لقد سيطر علي هذا السلاح بثقة ، وكان كافياً لتحقيق اقصى هدف ، وبدا علي بأنني قد نسيت رفاقي الانجليز الذين وقفوا خارج تفكيري في ظل حرب عادية . فقد اخفقت بأن اجعلهم شركائي في يقيني وثقتي .

سمعت بعد وقت طويل بأن وتترتون كان ينهض فجر كل يوم ويقوم بفحص واستطلاع الافق ، خشية منه من ان يؤدي اهمالي الى حدوث مفاجأة لنا؛ فما بين منطقتي "ام طي" و "شيخ سعد" ، ظن البريطانيون هناك لعدة ايام باننا كنا فاقدي الامل . الا انني بالفعل فقد عرفت (واقول ذلك متأكداً) باننا كنا في وضع آمن جداً . وبسبب الاعتداد الذي كان لدينا ، فانني لم أر أو افهم ابداً الشك الذي كان يساورهم بخططي . فهذه الخطط كانت تعتمد على عنصر

الخدعة سواء ضد عمان أو بالقطع الحقيقي الفعلي لخط سكة حديد درعا؛ في حين كنا نقوم بدراسة الخطط البديلة ، وذلك لنبقي على مراحل المعركة قائمة والحلول متوفرة .

ان الرأي العام غالباً ما يعطي الفضل في كسب المعارك او الحروب للجنرالات ، وذلك بسبب فقط رؤية الاوامر ومايتنج عنها؛ حتى ان فوش قال (قبل ان يتولى قيادة القوات) بأن الجنرالات يكسبون المعارك : الا انه لايوجد جنرال واحد قد فكر بذلك بصدق . وان الحملة السورية المقررة في شهر ايلول (١٩١٨) ربما كانت اعظم كمالاً من الناحية العملية في التاريخ الانجليزي ، واحدة من المعارك جرى الاعداد لها باقل قوة واكثر جهداً في التفكير والتخطيط . فجميع العالم ، وبشكل خاص اولئك الذين أدوها او قاموا بها ، فانهم عزو الفضل بالانتصار فيها الى اللنبي وبارثولوميو ، الا ان هؤلاء الاثنان لم يروها ابداً بمنظارنا ، عارفين كيف ان افكارهم الحديثة كانت مكتشفة في التطبيق ، وكيف ان رجالهما لم يكونوا يعرفون غالباً ، القيام بتكييفها حسب الخطط . وبحشدنا في الازرق وهي الجزء الاول من خطتنا ، الخدعة ، فقد أنجز ذلك الامر وارسلنا فرساننا من فرقة "فرسان القديس جورج" . وكان عددهم الف فارس ، الى بني صخر لشراء جميع مالديهم من الشعير ؛ راجين منهم بأن يذكروا السبب الحقيقي لذلك ، وانما كنا بحاجة اليه من اجل دوابنا ومن اجل حلفاء البريطانيين ، الا ان دياب ، ذلك الاحمق ، الذي كان موجوداً في الطفيلة ، سرب الاخبار تماماً الى الكرك .

اضافة لذلك ، ارسل الامير فيصل الى شيوخ الزبن الذين كانوا متواجدين في وادي البير من اجل الانضمام للقوات العربية ؛ وقام هوربني الذي اصبح يرتدي الملابس العربية آنذاك ، بالاعداد والتحضير للهجوم الكبير ضد مادبا . وكانت خطته تقتضي بالتحرك في حوالي التاسع عشر من ايلول ، عندما يسمع بأن اللنبي قد بدأ بالهجوم ، وكان أمله في ان يصل الى اريحا ليتصل مع القوات البريطانية هناك ، ذلك انه لو فشلنا في درعا فان قواتنا يمكنها ان تعود وان تعزز تحركه ، والتي ستكون عندئذ ، ليست عبارة عن خدعة حربية ، وانما الخطة

القديمة البديلة لتحولنا . ومع ذلك فان الاتراك افسدوا ذلك بتقدمهم نحو الطفيلة، وان هوربني كان عليه ان يدافع عن الشوبك ضدهم. وبالنسبة للجزء الثاني من خطتنا، بالنسبة للعملبات في جبهة درعا، فقد كان علينا ان نخطط بالهجوم الحقيقي عليها . وكتمهيد لذلك، فقد قررنا تعزيزات تركية من عمان الى درعا، وان نبقي على الاعتقاد بأن خدعتنا الحربية كانت خطة حقيقية . وبدا لي بأن هذا العمل التمهيدي (بمساندة القوات المصرية الفعلية في تدمير الخط) يمكن ان يباشر من قبل قوات "الغوركاس" .

وكان الهدف الرئيس يكمن في قطع او نسف خط السكة الحديد في حوران وابقائها مقطوعة لمدة اسبوع على الاقل؛ وبدت هناك ثلاثة وسائل او طرق للقيام بذلك الاول، وهو الزحف الى شمال درعا وحتى خط سكة حديد دمشق، وحتى المنطقة التي وصلتها مع طلال من قبل في الشتاء الماضي، وقطع ونسف خط السكة الحديد هناك، ومن ثم العبور الى خط سكة حديد وادي اليرموك . والوسيلة الثانية هي المسير الى جنوب درعا ومن ثم الى وادي اليرموك، كما قمنا بذلك مع علي ابن الحسين في شهر تشرين الثاني ١٩١٧ . اما الوسيلة الثالثة فهي الاندفاع مباشرة الى بلدة درعا .

ومن الممكن القيام والمباشرة بالخطة او الوسيلة الثالثة فقط، اذا ما قام سلاح الجو بعملية قصف مكثفة طيلة النهار على محطة درعا، على ان يكون تأثير القصف معادلاً وموازياً لقصف المدفعية، مما يجعلنا قادرين على المخاطرة بالهجوم ضدها بالقوات الضئيلة التي كانت لدينا. واعرب الطيار سالموند عن أمله في القيام بهذا، الا ان ذلك اعتمد عن مدى عدد القاذفات الثقلية التي يمكن ان يتلقاها ووصولها في الموعد المحدد . وكان من المتوقع ان يصل الينا داوناي بالطائرة ومعه آخر التعلميات بشأن الخطة التي سننفذها في الحادي عشر من ايلول. ولغاية ذلك الوقت فانه كان علينا ان نبقي على خططنا موازية لتخميننا للوضع .

وبالنسبة للقوات الداعمة لنا، فقد كان رجالي أول من وصل، قاطعين وادي سرحان في التاسع من ايلول، سعداء، وأسمن من جمالهم، ومرتاحين

ومسرورين بعد قضائهم شهراً في ضيافة قبيلة الروالى . وقد افدوا بأن الشيخ نوري الشعلان كان مستعداً تقريباً ، وانه مصمم على الانضمام الينا . وقد أثار هذا الخبر ، في انضمام قبيلة جديدة لنا ، ابتهاجنا وسرونا جميعاً . وفي العاشر من ايلول وصلت الينا طائرتان قادمتان من العقبة ، وكان يقودهما كل من الطيارين مورفي وجونور ، وكانا يحلقان بمرح في الجو . وفي الحادي عشر منه ، قدمت العربات المدرعة يقودها جويس ، ومعه ستيرلينغ ، الا ان فيصل لم يكن قادماً معهم . وبقي مارشال معه ليرافقه في اليوم التالي ، فالاموروستكون دوماً آمنة لتسير بشكل جيد ، عندما يكون مارشال القادر والبارع ، يقودها مباشرة . ووصل كل من يونغ ، بيك ، سكوت ـ هايجنيز ومعهم الامتعة . واصبح الازرق يحتوي على العديد من الناس ، واصبحت بحيراته رنانة وطنانة باصوات وارتطام الاجسام فيها ، الاجساد ذات الالوان البنية والنحاسية والبيضاء .

وفي الحادي عشر من ايلول وصلت طائرة حربية من فلسطين . ولسوء الحظ ، فان داوناي اصبح مريضاً ثانية ، وان ضابط الاركان الذي حل محله (كونه كان قليل التجربة) قد عانى كثيراً وبشكل حاد من صعوبة وشدة الجو والطقس ، فنسي وراءه الامور والملاحظات التي كان عليه ان يحضرها لنا . حتى انه نسي اكثر الامور أهمية ، حول كيف انه في السادس من ايلول ، ان اللنبي، وبإلهام جديد ، قد قال لبارثولوميو ، "لماذا تشغل نفسك بقرية المسعودية؟ فدع الفرسان يذهبون مباشرة الى العفولة ، والناصرة" . وبذلك فان الخطة برمتها قد تغيرت ، وان التقدم الضخم الغير محدود استبدل بهدف محدد وثابت ، ولم نحصل على اية فكرة بهذا الصدد ؛ الا ان سالموند ابدي استعداده لمساندتنا بالطائرات ، حسب خطتنا الموضوعية .

وفي اليوم التالي وصل الامير فيصل ، وتبعته كافة قوات الجيش العربي و معها نوري السعيد ، جميل المدفعي وبيساني . واصبح هناك الفان من الهجانة ، اضافة الى الطائرات . وعند العصر ظهر نوري الشعلان ، وكان معه كل من طراد وخالد ، فارس ،درزي ، والخفاجي . ووصل عودة ابو تايه ومعه محمد الدحيلان ؛ ووصل ايضاً كل من فهد وأدهب ، وشيوخ الزبن ، ومعهم ابن هاني

و شيخ قبيلة السراحين ، وابن كينج شيخ السردية . ووصل ماجد ابن سلطان ، من عشيرة العدوان بالقرب من السلط (البلقاء) ، ليستعلم حقيقة هجومنا على عمان . وفيما بعد في المساء كان هناك اطلاق نار صادر من جهة الشمال ، حيث كان ذلك صادر من قبل طلال الحريدين ، صديقي القديم ، جاء قادماً وخلفه حوالي خمسين قروياً ممتطين الدواب . وكان وجهه مشرقاً بالفرح بعد امله الطويل بالوصول الينا . وكان الدروز وابناء القري والبلدات السورية ، العيساوية والحوارنة يتباهون ويفتخرون بمرافقته ، وحتى ان كميات الشعير من اجل عودتنا او انسحابنا اذا مافشلت المغامرة او الخطة (وهي احتمالية نادراً ما فكرنا بها) بدأت بالوصول تباعاً . وكل واحد كان قوياً ومتيناً وفي كامل صحته . باستثنائي انا . فهذا الازدحام قد افسد سروري في الازرق ، فذهبت اسفلاً الى الوادي ، الى مكاني المنعزل في عين الاسد ، واستقليت هناك طيلة النهار في ملجأي وعريني القديم بين اشجار "التاماريسك" النحيلة ، حيث كانت الرياح تداعب الاغصان المغبرة الخضراء بمثل تلك الاصوات التي تصدر عن الاشجار الانجليزية . وكأنها كانت تقول لي بأنني كنت تعباً حتى الموت من اجل هؤلاء العرب ، فقد ادركوا جوهرنا واساسنا من خلال طاقتهم اللامتناهية لمعرفة الخير والشر ؛ وقد شعرت بالخجل من نفسي علي مدى سنتين لأن اكون رفيقاً وزميلاً لهم .

واليوم حضرني امر نهائي بأن صبري فيما يتعلق بالوضع الزائف الذي قدته وقمت به اصبح منتهياً . فبعد اسبوع ، اسبوعين ، او ثلاثة ، فانني سألح عتلى اراحتي من ذلك . فلقد تحطمت اعصابي ، وسأكون محظوظاً اذ ما امكن ان يخفى حطامها لمدة طويلة جداً .

في غضون ذلك فسيحمل جويس على عاتقه مسؤولية الخطر الذي سيحدثه ارتدادي وتراجعي . وبناء على اوامره ، فان بيك سيقوم ، ومعه فيلق الهجانة المصري ، الذي اصبح افراده الآن خبراء الغام ، وسكوت - هايجينز ومعه رجاله المقاتلين من الغوركاس (الهنود) ، وعربتان مدرعتان كقوة مساندة ويذهبون جميعهم لقطع ونسف السكة الحديد بالقرب من "افدين" .

وكانت الخطة بالنسبة لسكوت ـ هايجينز هي الاندفاع بعد حلول الظلام ومعه مقاتليه الهنود ـ وهم مترجلين ، لانهم يبدون كالاكياس وهم على الدواب ، ويقومون بتدمير المعقل او الموقع التركي هناك . ومن ثم يقوم بيك بنسف الخط لغاية الفجر . كما تقوم العربات المدرعة بتغطية انسحابهم من جهة الشرق في الصباح ، على السهل ، الذي سنكون سائرين عليه ، ومعنا كافة الجيش متجهين شمالاً من الازرق صوب "ام طي" ، وهي منطقة تحتوي على حفرة ماء ضخمة وتبعد خمسة عشرة ميلاً الى اسفل من درعا ، وعن قاعدتنا المتقدمة . وقدمنا لهم ادلاء من قبيلة روالي وودعناهم ،على نحو يدعو للامل ، من اجل القيام بهذا العمل التمهيدي المهم .

(١٠٨)

تحرك رتلنا عند الفجر تماماً . وكان من بينها الفرقة العسكرية الموجودة في ابي اللسان؛ وثلاثة الاف من فرسان نوري الشعلان البدو وكان لديه الفان من هجانة الروالى ، وهؤلاء طلبنا منه ان يبقيهم في وادي سرحان . وبدا ذلك امر غير حكيم ، قبل يوم الحسم ، لنقوم بتوزيع العديد من القوات البدو بين قرى حوران ، فقد كان الفرسان من الشيوخ او من خدم الشيوخ ، رجال اشداء تحت السيطرة .

وجعلتني المسائل العالقة مع فيصل ونوري ماكثاً يوماً في الازرق. الا ان جويس ترك لي سيارة ، والتي كانت تتيح لي ان اقوم باستعراض الجيش في صباح اليوم التالي ، وان اجدهم يتناولون طعام الافطار بين حقول اعشاب منطقة جيعان خونة . اما الجمال فقد كانت تسرح حول الازرق ، وتملء معدها على عجل بهذا الطعام (العشب) الجيد .

كان لدى جويس اخبار سيئة . حيث عاد بيك، معرباً عن اخفاقة في الوصول الى خط السكة الحديد ، وذلك بسبب المتاعب التي حدثت مع العرب الذين كانوا يخيمون بجوار المنطقة المفترض تدميرها . وكان لابد من تدمير خط سكة حديد عمان . لذلك فقد تركت السيارة ، واخذت كمية من المتفجرات ، وركبت ناقتي ، لاندفع قدماً امام القوة المرافقة . وقام جزء من قواتنا بعمل تحويلة باتجاه السكة الحديد ؛ الا انني انا ورجال عقيل واخرين من اصحاب المطايا الجيدة، عبرنا مباشرة عن طريق ممر اللصوص وحتى السهل المفتوح الذي يقع حول اطلال ام الجمال .

كنت افكر تماماً بشأن تدمير خط سكة حديد عمان ، وأنا مرتبك بما يمكن ان تكون الوسيلة الاسرع والافضل لتدميره ؛ ومرتبك ايضاً لهذه الاطلال او الآثار المضافة لاهتمامي . فبدا هذا دليل على تبلد الفكر في هذه المدن الرومانية الامامية المندثرة ، ام الجمال ، ام السوراب ، وام طي . فمثل هذه الابنية المتنافرة، التي كانت آنئذ ومازالت تتواجد في الصحراء ، اتهمت بنائيها بعدم الاحساس ؛ وتأكيد شائع ومألوف لحق الانسان (الحق الروماني) للعيش الغير متغير في كافة املاكه .

بدت ام الجمال عدوانية وصفيقة ، وكان خط السكة الحديد الذي يقع خلفها سليم جداً ، حتى ان ذلك اعماني عن الانتباه لحدوث معركة جوية دارت بين مقاتلة من مقاتلاتنا كان يقودها مورفي وبين طائرة حربية عدوة . وقد اصيبت طائرتنا باصابة بالغة قبل ان تسقط الطائرة التركية هاوية. وكان جيشنا يشاهد تلك المعركة الجوية بسرور. الا ان مورفي ، وجد الخراب في الطائرة كبير جداً ويصعب اصلاحها في الازرق ، فذهب الى فلسطين في الصباح من اجل اصلاحها. وبذلك فقد انخفض سلاحنا الجوي هناك الى طائرة واحدة من طراز ب.ي. ١٢ ، وهو طراز قديم، ومن المستحيل ان تخوض قتالاً جوياً ، ويمكن استخدامها بشكل ضئيل في عمليات الاستطلاع .

ووصلنا "ام طي" ، قبل الغروب تماماً . وكانت القوات تبعد عنا خمسة او ستة اميال الى الخلف ، وبعد ان شربت جمالنا فاننا سرعان ما اندفعنا الى خط السكة الحديد ، والتي كانت تبعد اربعة اميال الى اسفل التل بجهة الغرب ، مفكرين بعملية نسف الخط. وجعلنا الغسق ان نكون قريبين جداً دون ان نثير الانتباه ، ومما اسرنا ايضاً، اننا وجدنا الذهاب بالعربات المصفحة ممكناً ، في حين كان امامنا جسرين كاملين .

فهذه الاهداف جعلتني اقرر الرجوع في الصباح ، ومعي العربات المدرعة والمزيد من المتفجرات الالغام ، لنسف هدف اكبر ، وهو الجسر ذو الاربعة قنطرات . فتدميره سيكلف الاتراك بضعة ايام من التصليح الصعب ، ويجعلنا طليقي الايدي نحو عمان طيلة فترة هجومنا الاول على درعا ، وبذلك فان

اخفاق بيك في تدمير الخط سيُملأ . انه كان اكتشاف مفرح ، فعدنا ادراجنا ، ونحن نسرع في حين كان الظلام يرخى سدوله ، لنلتقط افضل سيارة مدرعة .

وما ان تسلقنا آخر مرتفع ، وكان مستجمع ماء عال غير وعر والذي يخفي وراءه "أم طي" تماماً عن خط السكة الحديد وعن امكانية المراقبة او المشاهدة، حيث هبت على وجوهنا، رياح ساخنة وغبار على بعد عشرة الاف قدم ؛ ومن القمة، بدت لنا الاطلال بشكل مثير . وكانت الحفرة او الفجوة الارضية تتلألأ بكوكبه من النيران ، التي اشعلت حديثاً ولهيب النار يتصاعد منها . وكان يتجمع حولها عدد من الرجال وهم يقومون باعداد الخبز او القهوة ، في حين كان آخرون يقومون بدفع جمالهم الصاخبة الى ومن مستجمع الماء .

فسرت الى معسكر المظلم، المعسكر البريطاني ، وجلست هناك مع جويس و ونترتون ويونغ ، لابلغهم بما يجب ان نفعله اولاً في الصباح . وكان يتواجد بالقرب منا الجنود البريطانيون ، وهم جالسون بهدوء معرضين انفسهم للخطر في هذه الحملة الحربية ، لاننا نحن امرنا بها . وفي الصباح ، وبينما كان الجيش يتناول فطوره ، قمنا بتوضيح الامر للشيوخ العرب خلال اجتماع عقدناه معهم حول امكانية وملائمة الخط الحديدي للاغارة بواسطة عربة مدرعة، فتقرر بأن تقوم سيارتان مدرعتان بالاندفاع الى الجسر والهجوم عليه ، في حين تستمر القوات الرئيسة بالزحف الى "تل عرار" على خط حديد دمشق التي تبعد اربعة اميال عن درعا . وسيقيمون موقعاً هناك للسيطرة على الخط ، عند فجر الغد ، الموافق للسابع عشر من ايلول وبعد ذلك كنا سننضم اليهم بعد ان ننهي أمر الجسر .

وحوالي الساعة الثانية من بعد الظهر ، وبينما كنا ننطلق باتجاه السكة الحديد ، فقد شاهدنا بفخر طائراتنا القاذفة وهي تقوم بطلعات مضطردة باتجاه درعا لتقوم باغارتها الاولى عليها . وكان المجال مفتوحاً ومهيأً امامها ، حيث كانت الحامية التركية هناك غير معتادة ، وغير محمية ضد الغارات الجوية . لذلك فقد كانت الاصابات والخسائر فادحة ومعنويات الجنود الاتراك منهارة ، وكان كل جهدهم منصباً على حفر الخنادق ليحتموا بها . وسرنا عبر حقول من

الاعشاب ، كانت تتخللها حقول من الحجارة القاسية ونحن ندب بعربتينا المدرعتين ، الا اننا وصلنا بخير تماماً الى ماوراء آخر مرتفع ، حيث كان يقع هناك هدفنا . وفي الجنوب من الجسر كان يوجد موقع تركي مبني من الحجارة . وتوقفنا لترك العربتين هناك ، وانتقلت ومعي مائة وخمسين باونداً من المتفجرات، وفتيل التفجير ، الى احدى العربتين المصفحتين هادفاً لان اسوق نزولاً الى الوادي باتجاه الجسر ، لغاية ما اصبحت قناطره تحمينا من اطلاق نيران الموقع التركي ، ولاتمكن من وضع واشعال شحنات التفجير . وفي غضون ذلك تقوم العربة المصفحة الاخرى بالتعامل ومهاجمة الموقع التركي من على بعد قصير ، وذلك لتغطية عمليتي .

وانطلقت العربتان في وقت واحد معاً . وعندما رأنا الجنود الاتراك في الموقع وكان عددهم سبعة او ثمانية جنود خرجوا من خنادقهم مندهشين ، وهم يصوبون بنادقهم نحونا ، وتقدموا للامام وهم مذعورين ، وغير مدركين لما يحدث . وخلال بضعة دقائق تقدمت العربة المدرعة الثانية لتهاجمهم ؛ في حين ظهر اربعة جنود آخرين بجانب الجسر وقاموا باطلاق النار علينا . فقام رجالنا باطلاق صلية من المدفع الرشاش للعربة المدرعة فهوى واحد منهم على الارض ، واصيب آخر ؛ وفر الآخران لمسافة قصيرة ، ومن ثم عادا وهما يرفعان اشارات الاستسلام . فأخذنا بندقيتهما ، وارسلناهما الى اعلى الوادي الى حيث كانت تتواجد هناك العربات المدرعة ، التي كان سائقوها يشاهدوننا بعناية من على مرتفعهم . وفي نفس الوقت استسلم الموقع التركي . وكنا راضين بالسيطرة على الجسر خلال خمسة دقائق دون حدوث خسائر بيننا .

واندفع جويس الى الاسفل بعربته المدرعة ومعه المزيد من المتفجرات ، واسرعنا بعملية تلغيم الجسر ، الذي كان طوله ثمانين قدماً وارتفاعه حمسة عشر قدماً ، وعليه لوحة شرف من الرخام الابيض ، تحمل اسم القاب والسلطان عبد الحميد . وبعد ذلك قمنا بعملية تفجير الجسر ، واحداث خراب ضخم فيه ، بحيث يصعب على العدو القيام بترميمه او اصلاحه . وعندما انتهينا من ذلك ، اصبحت دوريات العدو قريبة جداً منا مما حدا بنا لأن ننسحب . واخذنا معنا

الاسرى القلائل ، واسرعنا بالانسحاب . ولسوء الحظ ، وعندما كنت اجتاز مستجمع مياه انفجرت احدى اطارات عربتي المدرعة ، بسبب ثقل الحمولة ووعورة الطريق . وتوقفنا هناك ونحن شبه يائسين لاننا كنا نبعد عن خط السكة الحديد ثلاثمائة ياردة فقط ، ولابد وان نفقد العربة هناك ، لان العدو كان سيصل الينا بعد عشرة دقائق . وكان من الصعب اصلاح العربة الا في ورشة ميكانيكية . واحتار رولز السائق في امره ، وهو السائق الماهر والحاذق والميكانيكي الخبير ، وكاد ينفجر بالبكاء من هذا الحادث المؤسف . وتحلقنا جميعنا حوله من ضباط وجنود انجليز وعرب واتراك (الاسرى) ونحن نشاهد وجهة المضطرب ، واخيراً قال بانه توجد هناك فرصة واحدة فقط . حيث من الممكن ان نقوم برفع النهاية الساقطة للزنبرك ، ووضع اسفين بينها . وبواسطة الحبال فان الزوايا الحديدية للالواح الخشبية المتصلة يمكن ان تحمل الحمولة الاضافية .

وكان لدينا في كل سيارة قطعة خشب طويلة لتوضع بين الاطارات المزدوجة اذا ما تعرضت السيارة للغوص في الرمال أو الطين . وثلاثة اجزاء منها كانت كافية لرفع السيارة . ولم يكن لدينا منشاراً ، الا اننا قمنا باطلاق النار عليها لتقسيمها . وسمعنا الاتراك نقوم باطلاق النار ، فتوقفوا بحذر . واسرع الينا جويس عائدا لتقديم المساعدة . وقمنا بنقل حمولتنا الى سيارته ، وقمنا بعد ذلك برفع نابض وشاسي السيارة ، ودفعناها على العوارض الخشبية (فحملتها بشكل رائع) ، وشغلنا السيارة . وأخذ رولز يسوقها بسرعة عند كل حفرة او موضع حجارة ليجتازها ، في حين كنا ، نحن والاسرى جميعاً ، نخف بسرعة بجانبها ونطلق صيحات التشجيع ، ونحن ننظف الطريق امامها . وفي المعسكر قمنا بشد العوارض الخشبية باسلاك التلغراف التي استولينا عليها اثناء اغارتنا ، وربطها مع بعضها بالشاسي ، وربط النابض بالشاسي ، لغاية مابدت قوية ما امكن ، ومن ثم اعدنا الحمولة اليها . انه كان تحمل وعناء كبيرين حيث قمنا بهذا العمل من اجل الاسابيع الثلاثة القادمة ، واخذناها معنا الى دمشق في النهاية . ولقد كان رولز عظيماً ، وكان جويس ايضاً عظيماً فقد كانا يوازيان مئات الرجال بالنسبة لنا في هذه الصحاري .

ان عطل العربة هذا أخرنا لعدة ساعات، وفي النهاية نمنا في "أم طي" ، ونحن واثقين ، ببدئنا بالمسير قبل بزوغ الفجر، وبأنه لايجب علينا ان نكون متأخرين في مقابلة نوري السعيد على خط حديد دمشق في الغد ؛ وان يكون بامكاننا ابلاغه بأن خط عمان سيكون مغلقاً لمدة اسبوع ، وذلك بتدمير الجسر الرئيس لهذا الخط . فقد كان هذا التعزيز الاسرع من اجل حملة درعا ، وان تدميره جعل مؤخرتنا آمنة . وحتى انه بذلك فقد قدمنا مساندة لزيد المتواجد في الخلف هناك، في منطقة ابا اللسان ، اذ ان الزحف التركي من الطفيلة سيتوقف لغاية مايتم فتح طرق المواصلات ثانية . واصبحت بداية حملتنا مبشرة بالنجاح .

(١٠٩)

في الوقت المحدد ، وقبل الفجر سرنا بالعربات على خطى آثار عربات ستيرلينغ ، وكنا بشوق بأن نكون معهم قبل بدئهم القتال . ولسوء الحظ فان السير على الطريق لم يكن سهلاً ومساعداً . ففي البدء واجهنا طريق منحدر سيء، ومن ثم طرق منبسطة عليها صخور خشنة مثلمة . وكانت التربة ثقيلة على العربات ، اذ انه بسبب جفاف الصيف فان هذه التربة الحمراء تصلبت و تشققت بمساحة ياردة عمقاً وإنشان او ثلاثة عرضاً . فكانت العربة المدرعة التي وزنها خمسة اطنان مقلصة السرعة اولاً ، ومتعثرة تقريباً .

ولحقنا بالجيش العربي في حوالي الساعة الثامنة صباحاً ، على قمة السفح المؤدي الى خط السكة الحديد ، وكان يقوم بالانتشار لمهاجمة جسر الحراسة الصغير والذي يشكل حاجزاً دفاعياً تركياً بيننا وبين جبل تل عرار الذي تشرف قمته على ريف درعا . وانطلق فرسان قبيلة الروالى ، وكان يقودهم طراد على السفح الطويل وعبروا القناة المائية الى الخط ، وتبعهم يونغ بسيارته الفورد . واعتقدنا ونحن على المرتفع بانه سيتم الاستيلاء على خط السكة الحديد دون اطلاق طلقة واحدة ، بيد انه ونحن نحدق ، صدر فجأة من الموقع التركي المهجور اطلاق نار شديد ، فاختفى رجالنا ، الذين كانا يقفون بشكل رائع على الخط الحديدي (حيث كانوا يتسائلون ماذا يمكنهم ان يفعلوا) .

وقام نوري السعيد بتحريك مدافع بيساني واطلق بضعة قذائف . وسن ثم اندفع فرسان الروالى والقوات ليقتحموا الموقع التركي بسهولة . وكانت خسائرنا مقتل احد افرادنا ، وبذلك اصبحت مساحة عشرة اميال من خط السكة الحديد

تحت سيطرتنا بحلول الساعة التاسعة صباحاً . فقد كانت السكة الحديد الوحيدة المتصلة بفلسطين والحجاز، وقد امكنني ان ادرك بالكاد مدى خطنا وفرصتنا ؛ فمن الصعوبة الاعتقاد بأن وعدنا لأللنبي كان انجر ببساطة وبتلك السرعة .

ونزلت القوات العربية من المرتفع على شكل انهار من الرجال ، واحتشدوا فوق القمة المستديرة لتل عرار ، ليشرفوا على السهل امامهم ، وكان بامكانهم ان يروا بالعين المجردة محطات درعا ، مزيريب وغزالة . وكان بالامكان ايضاً رؤية ابعد من هذا ، الاتجاه او الطريق الشمالي المؤدي الى دمشق ، دمشق التي كانت تعتبر القاعدة التركية ، ومركز اتصالهم الوحيد مع القسطنطينية والمانيا ، وقد عزلت خطوط المواصلات اليها الآن ، من جهةالجنوب الى عمان ومعان والمدينة، فجميعها اصبحت مقطوعة . ومن اتجاه الغرب ، فان القائد الالماني "ليمان فون ساندرز" عزل في الناصرة ، وحتى نابلس ، ووادي الاردن . وكان هذا اليوم هو السابع عشر من ايلول (١٩١٨) ، وهو اليوم الموعود ، ولم يتبق سوى ثمانية واربعين ساعة قبل ان يندفع اللنبي بكافة قواته قدماً ، وربما خلال الثمانية والاربعين ساعة هذه فقد يقوم الاتراك بتغيير مواقعهم العسكرية لمواجهة خطرنا الجديد ، الا انه لن يكون باستطاعتهم تغييرها قبل ان يقوم اللنبي بضربته. وقد قال لي بارثولوميو من قبل، "قل لي فيما اذا كان سيكون على خط العوجا قبل يوم من بدئنا التحرك، وسأقول لك فيما اذا كنا سنكسب الحرب" . حسناً، فانه فعل ذلك؛ لذلك فاننا سنكسب . السؤال كان كم كان ذلك سيكلف .

اردت ان يدمر الخط الحديدي برمته خلال لحظة ، الا ان الامور بدت وكأنها متوقفة . والجيش العربي قد قدم مشاركته في المعركة : فنوري السعيد قد قام بتركيز المدافع الرشاشة حول هضبة عرار لمواجهة أية هجوم مضاد من درعا . ولكن لماذا لايكون هناك أي تدمير آخر لخط السكة الحديد ؟ واندفعت اسفلاً ، لأجد قوات بيك المصرية وهي تقوم باعداد الافطار ، فسكت باعجاب .

ومع ذلك، وخلال ساعة فقد كانوا يستأنفون عملية تفجيرهم المتناغمة للخط الحديدي ، وايضاً نزل المدفعيون الفرنسيون ، الذين كانوا يحملون فتائل المدافع ، اسفلاً بنيته نسف الجسر القريب . ولم يكونوا جيدين بتصويبهم ، بيد انه بعد محاولتهم الثانية استطاعوا احداث بعض الاصابات فيه .

ومن قمة تل عرار ، وقبل ان يبدأ السراب بالتراقص ، فقد قمنا بتفحص واستطلاع درعا بعناية من خلال منظاري القوي ، ونحن نريد ان نرى ماذا كان الترك يخبئونه لنا في هذا اليوم . وكان الاكتشاف الاول مزعجاً بالنسبة لنا . فقد كان مهبط طائراتهم يعج بالنشاط ، حيث كان رجالهم يقومون بدفع الطائرات الى المجال المفتوح . وامكنني ان احصي ثمانية او تسعة طائرات مصطفة هناك . وبخلاف ذلك فقد كان كل شيء كما توقعنا . وكانت بعض قوات المشاه تخرج من مواقعها الدفاعية ، وكانت مدافعهم تطلق النيران باتجاهنا ؛ بيد اننا كنا نبعد عنهم مسافة اربعة اميال. وكانت القاطرات جاهزة ويخرج منها البخار ؛ الا ان عربات القطار لم تكن مدرعة . والمنطقة خلفنا باتجاه دمشق ، كانت تمتد منبسطة كالخارطة . ومن ناحية مزيريب على يميننا ، لم تكن هناك اية تحركات تجري . لقد امسكنا بزمام المبادرة . كان املنا تفجير كمية من المتفجرات بعدد ستمائة متفجرة ، وعلى شكل زهرة التوليب ، نقوم بنسف وتدمير ستمائة كيلو متراً من الخط الحديد . فعمليات التوليب اخترعت من قبل بيك ومن قبلي ايضاً ، ومن اجل هذه المناسبة . فنقوم بوضع فتائل المدافع تحت العوارض المعدنية الثقيلة للسكة الحديد في الوسط عند كل عشرة امتار من الخط . ومن ثم ونقوم بعملية التفجير على دفعات ، وبشحنة متفجرة واحدة ، ولم تكن القضبان الحديدية تتطاير عالياً جداً ، وانما بمقدار قدمين فقط للاعلى .

ان ستمائة شحنة متفجرة على الخط كانت ستأخذ من الاتراك وقتاً مدته اسبوعاً لاصلاحها . وبعد ذلك رجعت عائداً الى القوات وحدث امران عند تلك اللحظة . فقد قام بيك بتفجير شحنته الاولى ، مما نتج عنها سحابة دخان اسود طويلة كشجرة الحور ؛ وحلقت اول طائرة تركية في الجو باتجاهنا . فاختبئت انا ونوري السعيد وراء صخرة تقع في فجوة عميقة وكأنها خندق طبيعي. الا انها كانت فقط طائرة استطلاع كانت تقوم باستطلاعنا ،ومن ثم عادت ادراجها الى درعا ومعها معلوماتها. ولابد أنها كانت تحمل الينا اخبار سيئة ، حيث قامت بعد ذلك مجموعات من الطائرات التركية وعلى التتابع بسرعة ، واخذت تحوم فوقنا ، وتسقط القنابل او تفرقنا بنيران رشاشاتها ، فوضع

نوري مدافعه الرشاشة من نوع هوتشيكس بين شقوق الصخور ، واخذت تصوب نحوها . كما صوب بيساني مدافعه الجبلية نحوها لتطلق قذائفها على الطائرات . فجعلت هذه العملية العدو مضطرباً ، الذي قام بابعاد طائراته ، ومن ثم عادت وهي على ارتفاع أعلى . واصبح هدفها غير واضح .

وقمنا ببعثرةالقوات والجمال ، في حين تبعثرت القوات الغير نظامية . فهذا التفرق والبعثرة كان يشكل املنا الوحيد بالسلامة ، اذا ان السهل الواسع المفتوح لم يشكل أي غطاء ولو لأرنب ، وكانت قلوبنا ترتجف خيفة عندما كنا نرى الاف الرجال وهي تدب بجمالها اسفلاً . وكان منظراً غريباً بأن تقف على قمة التلة لننظر هذا السيل الطويل من الرجال والدواب المنتشرون هنا وهناك ، وهم يتجنبوا هطول القنابل عليهم ، والتي كانت تبعث دخاناً اسوداً عندما تنفجر على الارض او رذاذاً من الغبار من جراء اطلاق صليات المدافع الرشاشة للطائرات .

بدت الامور ساخنة وقاسية ، الا ان القوات المصرية كانت ماضية في عملية تفجير خط السكة الحديد بشكل مضطرد . فقد كانت هناك اربعة مجموعات منها تقوم بعملية حفر الالغام وزرعها على شكل التوليب ، في حين كان بيك وواحد من ضباطه يقومون باشعال كل سلسلة من الشحنات المتفجرة الموضوعة . ولم تكن تلك التفجيرات شديدة ، بحيث ان الطائرات التركية لم تلاحظ ما كان يجري على الارض ، فهي على الاقل لم تقم بقصفهم ، وعندما انتهت عملية تفجير الخط ، انسحبت المجموعات تدريجياً عن منطقة الخطر الى منطقة هادئة في الشمال . وتتبعاهم وهم ينسحبون ويتلفون معهم اسلاك واعمدة التلغراف .

عقدنا اجتماعاً انا ونوري السعيد وجويس ، لبحث كيفية الوصول الى خط سكة حديد اليرموك بفلسطين لنقوم بنسفه وقطعه . وكانت وجهة النظر بانه ينبغي علينا أخذ كافة القوات معنا تقريباً ، وبدا ذلك امراً حكيماً تحت مثل هذا الاستطلاع الجوي المستمر من قبل الاتراك . ومن ناحية فان قصف الطائرات يمكن ان يسبب لنا خسائر فادحة ونحن نعبر السهل المفتوح ؛ ومن ناحية ثانية ، فان

فريق بيك التدميري سيكون تحت رحمة الاتراك في درعا ، اذا ما تملكتهم الشجاعة بالهجوم . فهم لهذة اللحظة كانوا مذعورين ، ولكن ربما يجعلهم الوقت شجعان .

وبينما كنا مترددين ، حُلت الامور بشكل عجيب . فالطيار جونور ، الذي كان وقتذاك متواجداً لوحده في الازرق سمع بهجوم الطائرات التركية علينا ، فقرر على الفور الاقلاع بمقاتلتة البريستول واتجه نحونا ، عندما كانت الطائرات التركية تكثف قصفها لنا . وشاهدنا ذلك ونحن تتملكنا احاسيس مختلطة ، بسبب قيامه بهذه العملية اليائسة وبطائرة من طراز قديم ، والتي من الممكن جداً اسقاطها من قبل الطائرات التركية ، الا انه فاجئهم في البداية ، وهو يقوم بتصويب مدفعيه الرشاشين نحوهم . فبعثرت طائراتهم عند هذه المفاجأة الغير متوقعة . ومن ثم طار باتجاه الغرب على طول خط السكة الحديد ، فلاحقوه بطائراتهم .

اصبحنا عندئذ بسلام تام . واستغل نوري السعيد هذا الهدوء الحذر ليقوم بجمع ثلاثمائة وخمسين جندي نظامي ، ومعهم مدفعين من مدافع بيساني ، واسرع بهم من خلف تل عرار ، في المرحلة الاولى من مسيرهم الى مزيريب . فاذا ما منحتنا الطائرات المعادية مدة نصف ساعة ، فانها من المحتمل ان لاتلاحظ قواتنا خلف الهضبة ، ولا مجموعاتنا المبعثرة على طول كل سفح او منحدر او فجوة على طول اتجاه الغرب . وهذه الارض المزروعة لاتمنح المجال لرؤيا واضحة من الجو ، كما ان الارض كانت تغص بحقول الذرة وغيرها من المزروعات .

وقمنا بارسال القوات القروية في اعقاب القوات النظامية ، وبعد نصف ساعة استدعيت رجالي فمن الممكن ان نصل الى مزيريب قبل وصول الآخرين ، عندما سمعنا ثانية هدير الطائرات لنفاجأ بظهور طائرة جونور ثانية ، تلاحقه ثلاثة طائرات معادية وهي تطلق رشاشاتها عليه . وكان يتمايل بطائرته ويتملص منها ببراعة ، ويرد باطلاق النار عليها . الا ان النتجية كانت معروفة . وعلى امل ضعيف منه ليتمكن من الهبوط بطائرته بسلام ، فقد اندفعنا باتجاه السكة الحديد حيث كانت توجد هناك مساحة منبسطة من الارض . وساعد كل واحد منا

باخلائها بسرعة ، في حين كان جونور ينخفض بطائرته ، ورمى لنا برسالة تقول بأن وقود طائرته قد نفذ ، فبذلنا جهدنا بشكل محموم لخمس دقائق ، ومن ثم اعطيناه اشارة الهبوط . فهبط هناك ، ولكن ما ان فعل ذلك حتى هبت رياح عاصفة ، الا انه نزل منها بسلام ، بعد ان قلبت الرياح طائرته وحطمتها . واسرعنا اليه لانقاذه ، الا انه كان اصبح خارج الطائرة ولم يكن مصاباً باذي سوى بجرح طفيف بدقنه. واخرجنا مدفعي الرشاش من نوع لويس وفايكرز وذخيرتهما . وقذفنا بهما جميعاً في سيارة يونغ الفورد ، وانطلقنا عندما كانت طائرة تركية تلقي بقنبلة لتنفجر بجانب حطام الطائرة .

وبعد خمسة دقائق كان جونور يطلب عملاً آخراً ليقوم به . فاعطاه جويس سيارته الفورد ، فانطلق بها بالقرب من درعا عند خط السكة الحديد ، وهناك قام بتفجير جزء منه ، قبل ان يراه الاتراك ، حيث وجدوا بأن ذلك كان حماساً مفرطاً، ففتحوا عليه نيران مدافعهم الرشاشة ، الا انه انطلق بسيارته ناجياً مرة ثانية ، دون ان يصيبه اذى للمرة الثالثة .

(١١٠)

انتظر رجالي في خطين طويلين على جانب التل . وكان جويس يمكث في تل عرار مع قواته كقوات تغطية ، معه مائة من رجال نوري السعيد ، ومن رجال قبيلة الروالى ، والغوراكس (الهنود) والعربات المدرعة؛ في حين ذهبنا نحن لنسف خط سكة حديد فلسطين . وكانت مجموعتي تبدو على انها من البدو ، لذلك فقد قررت التحرك علنا الى مزيريب واتباع اسرع واقرب طريق ، حيث كنا متأخرين .

ولسوء الحظ فقد أثرنا انتباه العدو . حيث حلقت طائرة تركية فوقنا ، واسقطت ثلاثة قنابل فاخطئنا ؛ اما القنبلة الرابعة فقد سقطت في وسطنا . فسقط اثنان من رجالي . فأصيب جملهما ، واخذا يتخبطان بدمائهما . ولم يصب الرجلان والتحقا برفاقهما . وقدمت طائرة اخرى ، والقت المزيد من القنابل ، فاصابتني انا وناقتي مباشرة والقتني تقريباً عن سرجي ، وكانت اصابتي في مرفقي الايمن . فشعرت بأن اصابتي كانت شديدة ، وبدأت اصرخ من اجل النجدة . وكان الدم ينزف من يدي بغزارة ، وربما لو انني لم انظر اليها فمن الممكن ان لااشعر بانني كنت مصاباً .

وتأرجحت ناقتي من رشقات مدفع رشاش الطائرة . فتعلقت بالقربوس (الجزء العلوي من السرج) ، واكتشفت مدى اصابة يدي . فخمنت بأنها قد اتلفت تماماً . وقمت برمي العباءة بيدي اليسرى جانباً واستطلعت مدى الجرح لاشعر فقط بحرارة شديدة في يدي اليمنى نتيجة للجرح ونزف الدم منها .

واظهرت تفاهة الجرح كم كانت اعصابي متوترة . وعلى نحو يدعو للفضول تماماً فقد كانت هذه اول مرة أُصيب بها من الجو .

وقمنا بعد ذلك بالاسراع بشكل كبير ، حيث كنا نعرف طبيعة الارض عن كثب ، وكنا نقول لكل من نلقاه من القرويين في طريقنا بأننا ذاهبون الى مزيريب . وكانت الممرات في الحقول مليئة بهولاء الاتباع ، الذين كانوا يخرجون من قراهم مشياً على الاقدام لمساعدتنا . وكانوا راغبين جداً في مساعدتنا ومرافقتنا ، الا ان رأينا كان مستقراً بالاعتماد على رجال الصحراء . اذ ان هؤلاء القرويين ، بوجوههم اللامعة وشعورهم المجعدة وايديهم وارجلهم البيضاء الممتلئة ، بدوا كمثل الفتيات .

وعندما وصلنا مزيريب قابلنا درزي بن دغمي ومعه اخبار تفيد بأن نوري السعيد كان على بعد ميلين فقط . وقمنا بسقاية جمالنا ، وشربنا نحن بشكل عميق ، اذا ان الطريق كانت طويلة ، والنهار حار ، ولم ينته بعد ، ومن ثم ومن خلف القلعة نظرنا عبر البحيرة لنرى التحرك في محطة السكة الحديد الفرنسية . واخبرنا أحد القرويين بأن الاتراك يحتفظون فيها ببعض الاسلحة والمؤن . ومع ذلك فان الاقتراب منها كان مغرياً جداً . وقاد عبدالله الرجال الى هناك ، اذ ان ايام مغامراتي كانت انتهت ، وذلك للاحتفاظ ببعض طاقتي للايام الطارئة القادمة . بيد انني اردت ان ادخل فيه . لا سيما وانه عمل سهل جداً . ووجد عبد الله هناك بعض المحاصيل ، والطحين ، وبعض الاسلحة والجياد ، وبعض الزخارف . واثارت هذه اهتمام رجالي النهمين . وقدم رجال جدد الينا وهم يسرعون عبر الاعشاب ، كالذباب في اثر العسل . ووصل طلال وهو يعدو بجواده . واجتزنا الجدول ، ومشينا سوياً على الحافة وفوق الاعشاب الضارة لغاية مارأينا المحطة التركية على بعد ثلاثمائة ياردة امامنا . فمن الممكن السيطرة عليها قبل مهاجمة الجسر الكبير الواقع الى اسفل من تل شهاب . وتقدم طلال غير مبال . فظهر علي الاتراك من على جهتي اليمين واليسار ، فقال طلال ، "حسناً ، انني اعرف رئيس المحطة" . الا اننا عندما اصبحنا على بعد مائتي ياردة منهم ،

قاموا باطلاق النار علينا فجأة . فانبطحنا على العشب دون ان يصيبنا شيء واخذنا نزحف الى الخلف ، وكان طلال يسب ويشتم . فسمعه الرجال القرويون أو انهم سمعوا صوت إطلاق النار ، فقدموا عبر الجدول ؛ الا اننا ارجعناهم خوفاً من ان يكون هناك مدفع رشاش في ابنية المحطة . وكان نوري السعيد وصل ومعه الشريف ناصر ، فقمنا بدراسة الوضع . فاشار نوري بأن أي تأخير في مزيريب يمكن ان يفقدنا الوصول الى الجسر ، وهو هدفنا الكبير . فوافقته على ذلك ، الا انني فكرت بأن هذا العصفور في اليد يمكن ان يكون كافياً ، حيث ان تدمير بيك للخط الرئيس سيتغرق اسبوعاً اسبوعاً آخراً ، وان نهاية الاسبوع سيجلب وضعاً جديداً .

لذلك فقد قام بيساني بنشر مدافعه وقام باطلاق مدافعها الشديدة الانفجار على الموقع التركي . وتحت هذا الغطاء ، ومعنا عدة مدافع رشاشة تقوم باطلاق صلياتها من فوق رؤوسنا ، تقدم نوري للامام ، ليستسلم له اربعين جندياً تركياً . وقام مئات القرويون الحوارنة بعد ذلك ، رجالاً ونساء واطفالاً بنهب هذه المحطة الفنية ، وكل شيء فيها ، حتى الابواب والشبابيك واطاراتها ، وحتى درجات المحطة قاموا بنزعها .

وقمت انا وجويس بقطع اسلاك التلغراف والهاتف ، فهناك كانت توجد شبكة هامة للمقاسم الهاتفية والخطوط الداخلية ، ففي الحقيقة فان الجيش التركي الرئيس في فلسطين كان مرتبط مع الوطن التركي بواسطة تلك الشبكة . وكان امر سار لنا بأن نسبب للقائد الالماني هناك ، ليمان فون ساندرز ، مصيبه جديدة ، وهو كان في الناصرة ، بازالة هذه الاسلاك . وقمنا بهذا العمل ببطء وروية . فهذا العمل سيفقد الجيش التركي زمام المباردة ، وتدمير اسلاك واعمدة الهاتف والتلغراف سيجعلهم مجرد رعاع .

وبعد ان انتهينا من ذلك ، قمنا بنسف بعض قضبان السكة الحديد في عدة نقاط ، ولم نقم بنسف الكثير منها ، الا انها كانت كافية للتعطيل . وبينما كنا نعمل قدمت طائرة استطلاع خفيفة نحونا من جهة درعا ، فلفت انتباهها

سحابات الدخان والغبار من جراء عمليات التفجير ، فزارتنا بعد ذلك طائرة حربية .

وكان من بين الاشياء التي أُستولي عليها من الشاحنات الواقعة على منصة المحطة ، شاحنتان مليئتان ببعض الاطعمة المعلبة الالمانية الشهية . الا ان الرجال العرب الذين كانوا لايثقون بالمعلبات والزجاجات المليئة ، قاموا باتلافها وافسادها تقريباً ، غير اننا استطعنا الحصول على بعض معلبات اللحوم والحساء ، وفيما بعد اعطانا نوري السعيد زجاجة معبأ بها نبات الهليون . فقد رأى احد القرويين وهو يقوم بفتح احدى العلب ليصرخ قائلاً بعد ان تذوق بعض مافيها ، " انها خنازير " ، ومن ثم قذفها ، فالتقطها نوري بسرعة ووضعها في جيب سرجه . وكان يوجد في الشاحنات كمية كبيرة من عبوات البترول . وكانت تقف خلفها بعض الشاحنات المليئة بحطب الوقود . فقمنا باشعالها جميعاً عند الغروب ، عندما انتهت عملية أخذ الغنائم ، وتراجعت القوات ومعها رجال القبائل للخلف الى حقول الاعشاب بالقرب من البحيرة .

وكان منظر النيران الكثيفة رائعاً وهي تشتعل في الشاحنات المحتوية على البترول والحطب . وبعد ذلك تركنا الرجال يقومون باعداد الخبز ويتناولون عشائهم ويستريحون ، قبل ان نبدأ بعملية جسر تل شهاب ، والذي يبعد ثلاثة اميال الي جهة الغرب . وكان يعنينا بأن نهاجم عند حلول الظلام ، الا ان الرغبة بالطعام اوقفنا وعطلنا ، ومن ثم استقبلنا العديد من الضيوف ، الذين قدموا الينا عندما رأوا نيراننا الكثفية والتي عمت نصف حوران تقريباً . كان اولئك الزوار كعيون لنا ، وكان علينا ان نرحب بهم . وكانت مهمتي ان ارى واتحدث مع كل واحد منهم للحصول على الاخبار والمعلومات ، وبعد ذلك اقوم بترتيب وتجميع المعلومات ، لاصل الى الحقيقة وتكوين صورة كاملة في ذهني . صورة كاملة ، لانها ستمنحني حكماً او تخميناً صحيحاً واكيداً ، الا ان ذلك لم يكن امراً واعياً ولامنطقياً ، اذ ان معلوماتي كانت كثيرة جداً ذلك انها كانت تشكل اضطراب فكري لدي ، بسبب كثافة المعلومات .

قدم الرجال من جهة الشمال وهم على الجياد ، او الجمال او على الاقدام . مئات اثر مئات يشوبهم حماس عظيم ، وكانوا يعتقدون بأن هذا كان نهاية احتلال المنطقة ، من قبل الاتراك ، وان الشريف سيختتم انتصاره بالاستيلاء على درعا تلك الليلة . وحتى ان قضاة درعا قدموا الينا ليفتحوا البلدة لنا . وبتقبل ذلك فقد كان علينا الاستيلاء على مصدر مياه محطة السكة الحديد ، ذلك انه عندما يتم تدمير الجيش التركي فيما بعد ولكن ببطء ، فربما نُخبر على الخروج ثانية ، ونفقد رجال السهول المتواجدين مابين درعا ودمشق ، والذين سننال النصر النهائي على ايديهم . انه تخمين بارع ، الا ان كافة الحجج والذرائع كانت لاتزال ضد عملية الاستيلاء على درعا . ومرة ثانية كان علينا ان نخيب امال اصدقائنا بالمبررات والاسباب ضمن استيعابهم .

(١١١)

كان العمل يجري بطيئاً ، وعندما اصبحنا اخيراً جاهزين قدم الينا زائر جديد ، انه كان زعيم قرية تل شهاب . فقريته كانت مفتاحاً للجسر . ووصف لنا الموقع ؛ والجنود والحراس القائمين فيه ، وكيف كان موقعهم . فمن الواضح ان المشكلة كانت اصعب مما اعتقدنا ، اذا ما كانت روايته صحيحة . وشككنا بها ، اذ ان والده الذي مات حديثاً كان معادياً لنا ، وان الابن اصبح فجأة موالياً لنا . ومع ذلك ، فقد انهى كلامه بالاقتراح بانه سيعود بعد ساعة ومعه الضابط قائد الحامية ،الذي كان صديقاً له . فارسلناه ليحضر صديقه التركي ، وامرنا بعض رجالنا بأن يقوموا بمراقبته .

وبعد وقت قصير ، رجع الشاب ومعه ضابط برتبة نقيب ، وكان ارمني الاصل ، وقلقاً لان يسبب أي اذى لحكومته بأية طريقة كانت . كما انه كان عصبياً جداً . وبذلنا جهداً كبيراً لنؤكد له عدالة وتنوير قضيتنا . وبعد ان وافق قال بأن اتباعه كانوا موالين للاتراك ، وبعضهم كانوا ضباط صف . واقترح بأن نتحرك لنقترب جداً من القرية ، وان نكمن هناك بسرية ، في حين يختبئ ثلاثة او اربعة من رجالنافي غرفته . ومن ثم يقوم باستدعاء مساعديه واتباعه واحدا اثر الآخر لمقابلته ، وعندما يدخل كل واحد منهم ، يقوم كميننا من الرجال بالامساك به وتقييده .

بدا هذا الامر وكأنه مستقى من كتب المغامرات ، فوافقنا على ذلك بحماس . وكان الوقت التاسعة ليلاً . وعند الساعة الحادية عشر بالتحديد فاننا سنقوم بتطويق القرية وانتظار شيخ القرية ليقوم بارشاد رجالنا الاقوياء لبيت

القائد. وغادر الاثنان بعد ذلك ، وهما راضيان ، في حين قمنا بايقاظ رجالنا من نومهم، الذين كانوا نائمين بعمق بجانب جمالهم المحملة . وكان الظلام حالكاً. وقام رجالي باعداد الشحنات المتفجرة . وملئت جيوبي بفتائل التفجير. وارسل ناصر رجالاً الى كل جزء من فيلق الهجانة ليخبرهم بالعملية المقبلة، ذلك حتى يكونوا متأهبين ومستعدين . وبعد ذلك قامت قوتنا بالزحف في طريق متعرج بجانب قناه للري ، وعلى قمة المرتفع المتشعب . فاذا ما كانت هناك اية مؤامرة او خيانة ضدنا ، فان هذا الطريق الاجرد سيكون بمثابة مصيدة موت لنا ، فلا يوجد هناك منفذ سواء من الشمال او من اليمين ، فالطريق او الممر كان ضيقاً ، ووعراً، ومنزلقاً او قابلاً للانزلاق عليه بسبب القناة المائية . لذلك فقد ذهبت انا وناصر اولاً ومعنا رجالنا الذين كانت أذانهم مدربة على سماع أي صوت وعيونهم حذرة ومراقبة بشكل مستمر. وكان يوجد امامنا شلال متدفق المياه ، وهدير ماءه يعكس شخصيته التي لاتنسى لتلك الليلة التي حدثت مع علي بن الحسين ، عندما حاولنا الوصول الى هذا الجسر من جهة أخرى للوادي الضيق. وفقط كنا في هذه الليلة اقرب اليه، ذلك ان الصوت المتدفق للماء قد ملأ آذاننا .

وزحفنا ببطء شديد وبعناية ، لانصدر اية اصوات، في حين كانت تسير خلفنا القوة الاثقل وزنا ، وهي تحبس انفاسها . كما انهم كانوا يسيرون دون احداث صوت ، اذ ان الجمال تتحرك دوماً بشكل هادئ في الليل ، وحيث قمنا بربط المعدات عليها باحكام ، حتى لا تنهار السروج ومن عليها . وهدوئهم جعل الظلام اظلم ، وعمق من خطر هذه الوديان . وواجهنا هواء رطب صادر من النهر الذي صادفنا ، ولفح الصقيع وجوهنا ؛ ومن ثم جاء رحايل بهدوء من جهة اليسار وامسك بيدي ، مشيراً الى عمود بطيء من دخان ابيض يتصاعد من جهة الوادي .

اسرعنا الى حافة المرتفع ، ونظرنا من هناك ، الا ان العمق كان مشوباً بضباب وبخار الماء ، ورأينا فقط العتمة والظلام . وفي مكان ما في الاسفل كانت هناك السكة الحديد ، فتوقفنا عن المسير خشية من ان يكون ذلك فخاً ، ونزل ثلاثة رجال منا على اقدامهم الى اسفل منحدر التل لغاية ما امكننا سماع

اصوات. وفجأة انقطع الدخان وتحول ، وحدث هدير وكأن قاطرة كانت قادمة. فلا بد ان يكون هناك قطاراً ينتظر في الاسفل ، وللتأكد من ذلك و سرنا ثانية الى نقطة قريبة جداً من القرية .

وتوزعنا هناك وانتشرنا بخط طويل ، وانتظرنا لخمس دقائق او عشر دقائق ، حيث مرت ببطء . واصاب رجالنا السأم من جراءالانتظار . وسمحنا لهم بعد ذلك بأن ينزلوا من على مطاياهم ، وان يجلسوا على الارض متسائلين عن سبب التأخير. وكان الجنود والحراس الاتراك يقومون بالمراقبة المكثفة ، والقطار جاثم بهدوء الى الاسفل عند القرية . واصبحت عباءاتنا الصوفية ثقيلة ودبقة من جراء البخار والضباب واصبحنا نرتجف من البرد .

وبعد فترة طويلة ظهر وميض من خلال الظلام ، انه كان من شيخ القرية الشاب ، جاعلاً عباثته مفتوحة ليرينا ثوبه الابيض كمثل راية . وهمس الينا قائلاً بأن خطته قد فشلت ، لأن القطار المتواجد هناك ، قد وصل للتو وهو يقل كولونيل (عقيد) الماني وقوات احتياطية المانية وتركية من العفولة ، ارسلت من قبل القائد الالماني ليمان فون ساندرز ، وذلك لانقاذ بلده درعا المهددة . كما انهم قاموا بالقاء القبض على الضابط الارمني ، لانه كان غائباً عن موقعه . وكانت توجد هناك اعداد وافرة من المدافع الرشاشة ، وحراس وجنود يقومون بدوريات متتابعة غير متوقفة. ففي الواقع كان الموقع محصناً وقوياً وايضاً الممر اليه ، الذي كان لايبعد اكثر من مائة باردة عن مكان وجودنا ، وجعلتني غرابة الموقف لأن اضحك بهدوء .

وعرض نوري السعيد بالاستيلاء على الموقع بواسطة قوتنا الرئيسة ، فلدينا كمية كافية من القنابل ، واعداد كافية من القوات والاسلحة . انها كانت فكرة جيدة ؛ الا انني كنت مكلفاً بهدف محدد ، لذلك فقد قلت لنوري بأنني اخالفه الرأي . فلدينا آنذاك مكسبين اولاً نسف سكة الحديد دمشق ـ فلسطين ؛ كما ان جلب القوات التركية ـ الالمانية من حامية العفولة ، كان مكسباً للأللنبي . فميثاقنا معه ينبغي ان يُحافظ عليه بشرف .

وافق نوري على ذلك بعد تفكير سريع . وقلنا "تصبح على خير" للفتى الذي حاول ان يفعل الكثير من اجلنا باخلاص . واجتزنا الخطوط بالاسفل ، هامسين لكل رجل بان يعود بهدوء . ثم جلسنا في مجموعة ومعنا بنادقنا ، منتظرين لغاية ما يمكن لرجالنا ان يكونوا خارج منطقة الخطر . فقد كانت بشكل غريب اصعب لحظة لتلك الليلة . وبعدئذ وبعد ان اصبح العمل منتهياً ، فقد كان بامكاننا ان نقاوم الاغراء لطرح الرياضة الالمانية المفسدة خارجاً .

وكان من الممكن ان يكون سهلاً جداً تحطيم معسكراتهم المؤقتة ، واصبح رجالنا الهادئون يسرعون بفرح ، وهم يطلقون النار على جانب التل الاجرد على فرض التحذيرات المشتركة والابقاء على انضباطنا . وفي مزيريب ، بعد منتصف الليل ، شعرنا بأنه لا بد ان يفعل شيء ما للانتقام من خسارة الجسر السابق . لذلك ذهبت مجموعتان من رجالي ، ومعهم ادلاء من رجال طلال ، الى ما وراء تل شهاب ، وقاموا بنسف خط السكة الحديد الذي يقع خلفه مرتين ، ووقعا (الانفجار) في منحنيات مهجورة . وقد سببت اصداء انفجاراتهما ليلة مزعجة للكتيبة الالمانية واشتعلت النيران واضائت الجو وقام الاتراك بالبحث من اجل من اجل القيام بهجوم انتقامي .

كنا مسرورين لأن نمنحهم ليلة مزعجة كليلتنا ، حيث انهم حينئذ سيكونون ايضاً واهنين في الصباح . وكان اصدقائنا يردون الينا في كل دقيقة ، ليقوموا بتقبيل ايادينا ، ويؤدون قسم الولاء الابدي . وقد عمت صفوفهم الطويلة معسكرنا المعتم ، بين مئات الرجال النيام ، والجمال المضطربة ، الذين كانت افواهها تقوم بالمضغ (الاشترار) طيلة الليل من جراء التهامها للاعشاب المسببة للغازات طيلة ساعات النهار .

قبل حلول الفجر وصلت مدافع بيساني الاخرى وبقية قوات نوري السعيد من تل عرار . وكتبنا الى جويس نبغله باننا سنعود في الغد الى اتجاه الجنوب ، لنعسكر بالقرب من "نسيب" ، وذلك لاتمام الطوق حول درعا . واقترحت عليه بأن يتحرك ويعود مباشرة الى ام طي وينتظرنا هناك ، ذلك ان تلك المنطقة وافرة

الماء، ويوجد بها مراعي رائعة ، وهي على بعد متساو من درعا وجبل العرب وصحراء الروالى ، وبدت بأنها منطقة نموذجية من الممكن ان نحتشد فيها وننتظر اخبار اللنبي السعيدة . وبسيطرتنا على "ام طي" فسيكون بامكاننا عزل الجيش التركي الرابع فيما وراء الاردن عن دمشق؛ ونكون في موقع بسرعة لتجديد تدميراتنا للخط الرئيسي للسكة الحديد ، في الاجزاء التي اصلحها العدو تقريباً .

(١١٢)

سحبنا انفسنا سوياً على مضض من اجل القيام بجهد يوم جديد ، وهيأنا الجيش ، وتحركنا في حشد ضخم باتجاه محطة مزيريب . وقمنا باطفاء نيراننا ، جاعلين من مكاننا السابق اشعثاً ومبعثراً . وقمت انا ويونغ بوضع المتفجرات تحت خط السكة الحديد ، في حين اختفت القوات في الارض الوعرة متجهة الى الرمثا ، لتكون خارجة عن مرمي نظر كل من درعا وتل شهاب . وكانت الطائرات التركية تحوم فوق رؤوسنا ، وهي تبحث عنا ، لذلك فقد ارسلنا قروبينا عائدين من خلال مزيريب الى قراهم . وبالتالي فان الطيارين الاتراك افادوا بأن عددنا كان ضخماً ، حوالي ثمانية أو تسعة الاف رجل قوى، وبدت تحركاتنا المندفعة لتكون مباشرة بكل اتجاه في وقت واحد .

ولزيادة استغرابهم ودهشتهم ، فقد قام المدفعيون الفرنسيون بعملية تفجير كبيرة لخزان الماء في مزيريب ، بعد ساعات من مغادرتنا لها . وكانت القوات الالمانية تزحف خارجة من تل شهاب الى درعا ، في تلك اللحظة ، و جعلتهم تلك الصدمة الغير المتوقعة من العودة الى هناك ثانية لغاية مابعد العصر . في غضون ذلك كنا قد ابعدنا في مسيرنا ، ونحن نزحف باتجاه قرية نسيب ، حيث وصلنا الى قمة تلها حوالي الساعة الرابعة عصراً . ومنحنا الفرسان المتطين راحة قصيرة ، في حين حركنا مدافعنا ومدافع رشاشاتنا الى قمة المرتفع الاول ، والذي منه تنبسط الارض منخفضة حتى محطة السكة الحديد .

ونصبنا لمدافع هناك في موقع محصن ، وطلبنا من المدفعين بأن يفتحوا النار

على نحو محكم على ابنية المحطة التي تبعد مائتي ياردة . وخاضت مدافع بيزاني منافسة كبيرة ، ذلك انه قبل مضي وقت طويل ، كانت احدثت فجوات كبيرة في اسقف ومظلات المحطة . وفي نفس الوقت قمنا بدفع مدافعنا الرشاشة اماماً من جهة اليسار ، لتقوم باطلاق صليات طويلة ضد الخنادق والاستحكامات ، والتي كانت ترد بنيران عنيدة . ومع ذلك فان قواتنا كانت في غطاء طبيعي واصبحت لها ميزة عند العصر ، حيث اصبحت الشمس وراء ظهورنا لذلك فاننا لم نعان من اية اصابات . ولا العدو ايضاً ، وبالطبع فان كل هذا كان عبارة عن لعبة ، وان الاستيلاء على المحطة لم يكن من ضمن خطتنا . فهدفنا الحقيقي كان الجسر الضخم الواقع شمال القرية . وكان المرتفع الى الاسفل منا متعرجاً على شكل قرن طويل ، مؤدياً كضفة واحدة للوادي الذي بني عليه الجسر . وكانت القرية تقع على الضفة الاخرى . وسيطر الاتراك على الجسر بموقع دفاعي صغير ، وابقوا على الاتصال معه بواسطة قوات مشاه متواجدة في القرية تحت غطاء جدرانه الضخمة .

وحولنا مدفعين من مدافع بيزاني وستة مدافع رشاشة باتجاه الموقع الصغير ، وقامت بدك الموقع ، آملين بأن نجبر مدافعيها على الخروج . وصوبت خمسة مدافع رشاشة نيرانها باتجاه القرية . وخرج شيوخها منها خلال خمسة عشرة دقيقة واصبحو يقفون معنا ، وهم قلقون على قريتهم . ووضع لهم نوري السعيد شرطاً ، لقاء وقف اطلاق النار ، بأن يقوموا باخراج الجنود الاتراك من البيوت . فوعدوا بأن يقوموا بذلك ، وبذلك فقد اصبحت المحطة معزولة عن الجسر .

وضاعفنا من اطلاق النار ضد هذين الهدفين . واصبح اطلاق النار من اربعة جهات عنيفاً ، فشكراً لمدافعنا الرشاشة الخمسة والعشرين ، كما ان الاتراك ايضاً كانت لديهم اسلحة وافرة . واخيراً وجهنا مدافع بيزاني الاربعة ضد الموقع التركي ، وبعد بضعة صليات من القذائف المتتابعة ، رأينا جنوده ينسلون من خنادقهم ليعبروا الجسر وليجدوا لهم ملجأ وغطاً عند ضفة السكة الحديد . وكان

ارتفاع هذا السد او الضفة حوالي عشرين قدماً . واذا ما اختار حراس الجسر الاتراك الدفاع عن الجسر من خلال القناطر ، فسيكونون في موقع مكلف بالنسبة لهم . ومع ذلك ، فقد خمنا وقدرنا بأن اهتمام رفقائهم المتواجدين في المحطة سيجرفهم او يدفعهم جانباً . فابلغت نصف رجالي بأن يحملوا المتفجرات ، للتحرك على طول مدى حماية المدافع الرشاشة لغاية مايصلوا على بعد مرمى حجر من الموقع التركي .

انها كانت امسية رائعة ، صفراء ، معتدلة ، ولاتوصف ، رقيقة بقصف مدفعيتنا المتوالي . وكانت النيران تندلع من زوايا اسفل المرتفعات . وبدا رجالي يفكرون ، بأن تلك الامسية كانت غير ملائمة للموت ، حيث انه ولأول مرة فقد اخفقت اعصابهم ، ورفضوا ان يتحركون او يخرجوا من مخبئهم من اجل ان تصطادهم رصاصات العدو ، فقد كانوا مرهقين وجمالهم ايضاً مرهقة من كثرة المسير ، وان بامكانهم فقط ان يمشوا على الاقدام . وعرفوا ايضاً بأن طلقة واحدة على المتفجرات ستجعلهم يطيرون في السماء .

باءت محاولاتي دفعهم بالفشل؛ تركتهم اخيراً ، واخترت حميد فقط ، ذلك الفتى الرعديد بينهم ، ليذهب معي الى قمة التل . فهز رأسه كمثل رجل في حلم مزعج او كابوس ، الا انه تبعني بهدوء . وسرنا الى اسفل المرتفع حتى اقصى حافته ، لنلقي نظرة قريبة جداً على الجسر . وكان نوري السعيد هناك ، وهو يدخن غليونه ، ويشجع المدفعيين ، الذين كانوا يقومون بتسديد وابل من القذائف والنيران على الطرق المظلمة الواقعة مابين الجسر ، والقرية والمحطة . وكان نوري سعيداً ، مقترحاً علي خططاً للهجوم ولهجومات بديلة ضد هذه المحطة التي لم نكن نرغب بمهاجمتها . وقمنا بتبادل الاقتراحات لعشرة دقائق ، بينما كان حميد يجفل على سرجه من الرصاص ، الذي كان بعضه يمر من فوق رؤوسنا او يجتازنا ، او يمر من جانب اذاننا بأزيزه كمثل النحل . وكان بعضاً منه يرتطم بشدة بالصخور ، لتخرج منها شرارات وشظايا غبارية طباشرية .

ووافق نوري على ان يقوم بتغطية تحركاتي الى الجسر ما امكنه ذلك . ثم ارسلت حميد عائداً على ناقتي ، و ليبلغ بقية رجالي بأنني سأوذيهم اكثر من

الرصاص اذا لم يتبعوه عبر منطقة الخطر للاقاتي ؛ وفي غضون ذلك فانني كنت معنياً لأن امشي ملتفاً لغاية ما امكنني ان اكون متأكداً من ان موقع الجسر كان فارغاً .

وبينما كانوا مترددين في القدوم ، فقد حضر عبدالله ، الرجل المغامر ، الرابط الجأش ، والذي لايهاب من شيء ، وكان معه الزعاقي . واصابهم غضب جنوني عندما رأوني اسفلاً لوحدي ، مندفعاً نحو الموقع التركي ، الذي كان في الحقيقة فارغاً ومهجوراً . لذلك فقد ترجلنا عن دوابنا ، واشرنا لنوري بأن يوقف اطلاق النار . ورجعنا بهدوء عبر قناطر الجسر ، ووجدناها فارغة ايضاً . وقمنا بسرعة بوضع المتفجرات بين دعامات الجسر ، والتي كان سمكها خمسة اقدام وارتفاعها خمسة وعشرين قدماً ؛ انه جسر جيد ، ورقمه تسعة وسبعون ، من الجسور الذين فجرتهم ، وخطير من الناحية الاستراتيجية ، حيث اننا كنا ننوي الاقامة بمواجهته في منطقة ام طي ، لغاية مايأتي اللنبي قدماً ويريحنا . لذلك فقد عزمت بأن لاأبقي اي حجر قائماً فيه .

في غضون ذلك كان نوري يقوم بدفع الفرسان ، والمدفعيين وطواقم المدافع الرشاشة سريعاً الى اسفل ، وباتجاه الخط ، ومعهم اوامر بأن يكونوا بعيدين مسافة ميل في الصحراء ، وينتظرون هناك على شكل رتل . ومع ذلك فان اجتياز اعداد كبيرة من الجمال على الطريق او الممر لابد وان يستغرق وقتاً طويلاً ومملاً . وجلسنا تحت الجسر واخذنا نفرك ايدينا لندفئها ، واعواد الثقاب في ايدينا ، لنشعلها في الحال ، عند ورود الاشارة بالبدء بعملية التفجير . ولحسن الحظ فان الامور سارت بشكل حسن ، وبعد ساعة اعطاني نوري السعيد الاشارة . وخلال نصف دقيقة ، وما ان قفزت الى الموقع التركي الفارغ ، حتى انفجرت ثمانمائة باوند من المتفجرات دفعة واحدة ، وصدر عنها سحابة من الدخان الاسود وحلقت معها الاحجار . وكان الانفجار من الشدة الى حد انه لابد وان سمع الى نصف المسافة من دمشق .

وسعى نوري بقلق كبير لأن يجعلني اخرج من مكاني . فقد اعطى اشارة للجميع بأن يخلوا المنطقة ، قبل ان يعلم بأن احدى سرايا المشاة الممتطية قد ضلت طريقها وفقدت . ولحسن الحظ فان رجالي الذين كانوا مرهقين قد استردوا نشاطهم . فسار بهم طلال الحريدين الى اعلى التلال ، في حين وقفت انا ونوري بجانب الركام الذي كان جسراً فيما مضي ، وقمنا باشعال مشعل كهربائي ، وذلك لاعطائهم اشارة ثابتة في حال رجوعهم .

وعاد محمد بعد نصف ساعة على نحو منتصر ، وكان يقود الوحدة أو السرية التي ضلت طريقها . وقمنا باطلاق عدة عيارات نارية لاستدعاء الباحثين الآخرين من الرجال ، ومن ثم سرنا مسافة ميلين او ثلاثة باتجاه "أم طي" . ثم اصبح الطريق امامنا وعراً جداً ، حيث سرنا على اكوام من ركام الحجارة والصخور النارية الزلقة ؛ لذلك فقد دعونا الى التوقف ، واستقلينا ارضاً للحصول على فترة من النوم .

(١١٣)

بدا وكأنني انا والشريف ناصر قد فقدنا نعمة النوم . فضجيج تفجيراتنا في منطقة نسيب اتسع وعم كما فعلت الحرائق من قبل في مزيريب . عندما قدم زوار يتدفقون من ثلاثة اتجاهات ليستفسروا عن آخر الاحداث . فقد انتشرت شائعات تقول باننا كنا نقوم بالاغارة فقط ، واننا سنفر بعد ذلك ، كما فعل البريطانيون في السلط ، تاركين الاهالي يدفعون الثمن وشهد الليل ساعة بعد ساعة، قدوم المزيد من اولئك القادمين الجدد وهم يحتشدون حول معسكرنا المؤقت ، ويشقون طريقهم الينا كمثل ارواح مفقودة وهم يرجوننا بان نضمهم الينا ، وانهم سيكونون في خدمتنا ، ويعتبروننا اسياداً لهم . وظلوا هكذا دون ان يدعونا نركن الى النوم . وهكذا فقد بقينا لمدة ثلاثة ايام نفكر ، ونصدر الاوامر وننفذ . وتأثرنا اكثر واكثر بمعنوياتهم المهزوزة ، لغاية ما سحبني الشريف ناصر جانباً وهمس لي بوضوح بأن هناك استياء متركز في منطقة قريبة منا . فارسلت رجالي القرويين الى القرى المجاورة لينخرطوا بين الاهالي ويتأكدون من الحقيقة . وبدا من خلال تقاريرهم بأن قضية عدم الثقة تكمن في قرية "تايب" ، التي اهتزت بعودة عربات جويس المدرعة بالامس ، مصادفة ، وبخشيتهم من ان قريتهم كانت نقطة تراجع لنا ، وبعد ذلك، خشيتهم من انتقام الاتراك .

فدعوت عزيز وسرنا معا الى ؛ "تايب" ، فوق امتداد لحجارة اللافا البركانية السوداء ، واكوم وركام الحجارة ، جاعلة الطريق وعراً . وفي كوخ شيخ القرية ، كان يوجد هناك اجتماع سري ، يتشارون فيه حول كيفية ارسال

التماس رحمة ورجاء للاتراك ، عندما فاجئناهم بقدومنا . واربكهم مجيئنا الفردي في سرية تامة . وتحدثنا معهم بمواضيع لاصلة لها بالموضوع لمدة ساعة ، عن المحاصيل واسعار الاراضي الزراعية ، واحتسينا بعض القهوة ، ومن ثم نهضنا لنذهب . وعادت الثرثرة ثانية من خلفنا ، الا انهم قد غيروا من رأيهم ، ولم يرسلوا أية كلمة او رسالة للعدو . لذلك فانهم قصفوا في اليوم التالي من اجل مثل هذا التعقيد المستعصي معنا .

عدنا ادراجنا قبل حلول الفجر ، وتمددنا لننام ، عندما توارد الينا صوت دوي عنيف من جهة السكة الحديد ، وتبعثر القصف خلف مضيفينا النائمين فقد ارسل الاتراك قطار مدرع يحمل مدفع ميدان . وعرفت بنفسي ما اذا كان هدفه ، اذا ان استغراقي في النوم كان طويلاً تماماً ؛ بيد ان افراد الجيش قد ناموا ستة ساعات ومن ثم تحركوا .

اسرعنا لنجتاز المسير المخيف . وجاءت طائرة ، وحامت فوقنا لتساعد في تصويب المدافع والمدفعيين . وبدأت القذائف تنهال بدقة على خط مسيرنا . وضاعفنا من سرعتنا ، وانتشرنا على الارض الفسيحة . وأخذت الطائرة الموجهة تترنح فجأة ، وتتجه نحو الخط ، وبدت وكانها تهبط . واطلق المدفع التركي قذيفة اخرى ، فقتلت جملين ؛ الا ان قذائفها الاخرى فقدت دقتها ، وبعد حوالي خمسين قذيفة اصبحنا خارج مدى قصفها . فبدأوا بعدئذ بصب قذائفهم على قرية تايب ليقتصوا منها .

كان جويس المتواجد في "ام طي" قد قلق من جراء القصف ، فخرج ليلقانا ويرحب بنا . وبدت من خلف قامته الطويلة الاطلال والآثار المتنافرة ، وكأنها تعكس نماذج من كل قرية وعشيرة في حوران . وتركت ناصر المرهق لاذهب الى جويس ووينترتون ، ولأخبرهما عن الطائرة التركية التي هبطت هناك ، واقترح عليهما بان تذهب عربة مدرعة وتقوم بتدميرها ، ومن ثم بعد ذلك ظهرت طائرتان عدوتان وحطتا في نفس الموقع هناك . الا ان طعام الافطار كان جاهزاً ، ونحن لم نتناول طعاماً منذ فترة . لذلك فقد جلسنا لتناوله ، وحدثنا جويس

كيف ان رجال قرية طايب قد اطلقوا النار عليه عندما كان يمر بالقرب منها ، ومن المفترض ان يكون ذلك تملقاً . انتهينا من الافطار ، ومن ثم طلبنا عربة مدرعة لنقوم باستطلاع مدرج هبوط طائرات العدو بالقرب . فجأت كافة العربات قدماً متطوعة بحسن نية ومستعدة لأي عمل . وفي اخر الأمر اختار جويس اثنتان منها ـ واحدة من اجل جونور والاخرى من اجلي ـ ومن ثم سقنا العربتين لمسافة خمسة اميال الى الوادي الذي كانت تجثم في جوفه الطائرات التركية . فأطفئنا محركات السيارتين وزحفنا نحو الهدف . وعندما وصلنا الى نقطة تبعد الفي ياردة عن خط السكة الحديد ، كانت توجد هناك مرجة خضراء منبسطة جثمت على الجانب الاقصى منها ثلاثة طائرات . وكان هذا مفيداً ومهماً ، فملنا للامام لنجد قناة مائية لها حواف مستقيمة من التراب . فاسرعنا بشكل عنيف عبرها ، بواسطة طريق افقي ، لغاية ما اصبحنا على بعد اثنتي عشرة ياردة . وما ان توقفنا ، حتى بدأت طائرتان بالتحرك ، ففتحنا عليهما النار ، الا انهما كانتا قد اقلعتا ، وهما تتمايلان وتقعقان عبر السماء فوق رؤوسنا .

وكانت الطائرة الثالثة ساكنة . وحاول طيارها ومراقبها تحريكها وتشغيلها ، بينما كنا نقترب اكثر منها . وفي النهاية فقد نزلا الى قناة السكة الحديد ، في حين كنا نمطر الطائرة بالرصاص . واطلقنا عليها كمية ضخمة من الرصاص ، ومن ثم عدنا الى قاعدتنا ، (وقد احرق الاتراك هذه الطائرة فيما بعد) .

ولسوء الحظ فان الطائرتان الناجيتان كان لديهما الوقت الكافي للذهاب الى درعا ، ومن ثم العودة ومعهما شعوراً بالحقد والكراهية ، لتنتقما . وواحدة منهما لم تكن دقيقة في تصويبها ، فاسقطت قنابلها من على ارتفاع عال ، وقد اخطأتنا بشكل كبير . اما الطائرة الأخرى ، فقد حلقت على ارتفاع منخَفض ، وهي تقذف بقنبلة في كل مرة وبعناية فائقة . فكنا نزحف للنجاه بانفسنا ، ببطء بين الصخور ونحن نشعر وكأننا سمك سردين معلب مقدراً بأن تفتح علبته ، عندما كانت القنابل تتساقط بالقرب منا . وفتحت احدى الطائرات مدفعها الرشاش على احدى عرباتنا المدرعة الا انها لم تحدث بها سوى اصابات طفيفة .

ومع كل الخطر الذي حدق بنا فانه منحني نوعاً من الانعزال. ومع ذلك فقد وصلنا الى "ام طي" بخير وابلغنا جويس بنجاهنا . وقد اثبتنا للاتراك بأن مهبط الطائرات لم يعد صالحاً للاستخدام ؛ وان درعا اصبحت مفتوحة لهجوم المدرعات. واستلقيت فيما بعد تحت ظل احدى العربات وخلدت للنوم ، والطائرات التركية التي اتت لتقصفنا ، كانت تؤثر على نومي العميق . ومع تضارب الاحداث وزخمها فقد اصبح الرجال مفعمين بالنشاط ، بل انانه وقتذاك قد انهينا جولتنا الاولى ، لحسن الحظ ؛ وكان من الضروري ان اخلد للراحة ، لتصفية فكري من اجل الاستعداد لتحركاتنا القادمة . وكالعادة عندما استقليت لأنام ، فقد غططت بالنوم لغاية العصر .

ومن الناحية الاستراتيجية ، فقد كان علينا ان نبقي في "ام طي" ، وذلك لنبقي سيطرتنا على ثلاثة خطوط حديدية لدرعا . واذا ما سيطرنا عليها لاسبوع آخر فاننا سنخنق الجيوش التركية. ومع ذلك فمن الناحية التكتيكية فان "ام طي" كانت منطقة خطرة . وقوة صغيرة مؤلفة بشكل خاص من الجنود النظاميين ، فلن يكون بامكانها السيطرة عليها بشكل سليم ، ومع ذلك فانه من الممكن ان يتقلص عددنا ، مع استمرار الضربات الجوية ضدنا . فقد كان لدى الاتراك تسعة طائرات على الاقل . وكنا نعسكر على بعد اثنتي عشر ميلاً من مهبط طائراتهم ، في الصحراء المفتوحة ، وكانت قريبة جداً من مصدر مياهنا ، حيث تواجدت هناك اعداد كبيرة من الجمال والجياد تقوم بالرعي حولنا . وبدء الاتراك بقصفنا من الجو كان كافياً لاقلاق القوات الغير نظامية التي كانت تمثل عيوننا وآذاننا . فسرعان ماستنهار ويذهب افرادها الى قراهم ومضاربهم ، وتنتهي بذلك استفادتنا منهم . فقرية طايب ، ايضاً كانت القرية الاولى التي غطت تواجدنا عن درعا ـ اصبحت آنذاك تقبع مستسلمة ومرتعشة تحت الهجومات المتكررة للاتراك. واذا ماعرفنا البقاء في "ام طي" ، فلا بد "لطايب" ان تكون مطمئنة معنا .

وكان واجبنا الاول بوضوح هو الحصول على دعم جوي من اللنبي ، الذي

كان رتب ارسال طائرات جديدة الى الازرق بعد يومين . وخمنت بانه سيكون من الافضل لي بأن اذهب لاتحدث معه بهذا الصدد. ومن الممكن ان اعود في الثاني والعشرين من ايلول . فلا بد من البقاء في "ام طي" لمدة طويلة ، اذ انه من الممكن دوماً ان نخدع الطائرات التركية لفترة من الوقت فتحركنا الى "ام السراب" ، القرية الرومانية التالية ، وسواء كنا في "ام طي" او "ام السراب" ، فحتى نكون آمنين فلابد من اخذ زمام المبادرة . وريف درعا كان مغلقاً بصورة مؤقتة وذلك بسبب الشك بالقرويين ؛ ويظل هناك الخط الحديدي الحجازي . والجسر بالقرب من الكليومتر (١٤٩) قد اصلح تقريباً . فلابد من نسفه ثانية ونسف الجسر الآخر في الجنوب ، لنحرم قطارات التصليح من الوصول اليه . واظهر الجهد الذي بذله ونترتون بالأمس بأن الجسر الاول كان يحتاج الى قوات ومدافع . وكان الآخر هدفاً سهلاً لنشن عارة عليه . فذهبت لأرى فيما اذا كان بامكان رجالي ان يقوموا بذلك معي ونحن في طريقنا الى الازرق .

كان هناك خللاً ما ، فقد كانوا خائفين ، مترددين ، وجافلين ، وفهمت اخيراً انه بينما كنت بعيداً في الصباح ، ذهب كل من الزعاقي وعبدالله وغيرهم من الشيوخ وقابلوا اولئك الذين اجفلوا وامتنعوا عن الالتحاق بنا في قرية نسيب. وكان من حقهم ذلك ، اذا انه منذ تواجدنا في الطفيلة فقد تركت امور الانضباط للسرية او المجموعة نفسها ؛ الاان الفعالية لتلك اللحظة كانت في جعلهم غير مفيدين لهدفي ، فمثل هذا العقاب كان مسبوقاً بالخوف ؛ الا ان ذكرى بلائها او ضربتها اثارت عدم قانونية اوسع بين الضحايا الاقوى ، واحتمالية حدوث جرائم او عنف بين الاشهاد. وسيكون هذا امر خطير جداً بالنسبة لي ، ولهم او للعدو ، كما منحت النزوة والفرصة ، فهل نذهب تلك الليلة الى العمل .

لذلك ، فبدلاً من ذلك فقد اقترحت على جويس بأن تعود كل من القوات المصرية والغوركاس (الهنود) الى العقبة ؛ ومقترحاً عليه ايضاً بأن يعيرني عربة مدرعة لتذهب معهم الى السكة الحديد ، مرحلتهم الاولى ، والقيام بما يمكن

القيام به . وذهبت الى كل من الشريف ناصر ونوري السعيد ، وابلغتهما بانني ساعود في الثاني والعشرين من ايلول ومعي طائرات مقاتلة ، لتحمينا من طائرات الاستطلاع والقاذفات التركية . وفي غضون ذلك فاننا سنقوم بتعويض قرية طايب بالمال من جراء الخراب الذي احدثه الاتراك فيها ، وان جويس سيقوم بنشر قوات هناك في "ام طي" وفي "ام السراب" ، لحين عودتي ومعي التعزيزات الجوية .

ان التدمير او الخراب لتلك الليلة كان التشوش والاختلاط المثير الذي حدث . وتحركنا عند المغيب نحو واد مفتوح ، يبعد ثلاثة كليو مترات عن خط السكة الحديد . وكان من الممكن ان يَحدث تهديد من محطة المفرق . وكانت عربتي المدرعة، مع سيارة جونور الفورد ، ستحرس ذلك الجانب ضد تقدم معاد. وان القوات المصرية ستتحرك مباشرة الى الخط ، وتقوم بتفجير شحناتها . وأخطأت الطريق . حيث اخذنا نتجول لمدة ثلاث ساعات في متاهات الوديان ، غير قادرين على ايجاد السكة الحديد ، ولا القوات المصرية ، ولا حتى نقطة بدء تحركنا . واخيراً رأينا ضوءاً فسرنا اليه ، لنجد انفسنا امام محطة المفرق . وعدنا ادراجنا ، فسمعنا دبيب قطار يسير باتجاه الشمال خارجاً من المحطة . وتبعنا دخانه المتقطع ، على أمل ان نلحق به أو نحصره بيننا وبين الجسر المهدوم؛ ولكن قبل ان نلحق به صدرت عدة ومضات وانفجارات من بعيد، حيث كان بيك يقوم بتفجيراته هناك . واقبل بعض الرجال المتطين وهم يدبون بمطياتهم نحونا، من اتجاه الجنوب . فأطلقنا النار عليهم، ومن ثم رجع قطار الدورية ثانية، وكان يسير باقصى سرعته تلافياً لتفجيرات بيك . فانطلقنا على طول السكة الحديد ، وفتحنا النار عليه من مدافعنا الرشاشة ، في حين كان جونور ايضاً يقوم باطلاق رشقات من رشاش لويس عبر الظلام . ومن خلال اطلاق النيران والضجيج الذي كانت تحدثه القاطرة ، فقد سمعنا الاتراك يصيحون بفزع من جراء هذا الهجوم المفاجئ الذكي . وقاموا بالرد على اطلاق النار ، ولكن بينما كانوا يقومون بذلك ظهرت سيارة كبيرة فجأة ووقفت هادئة ، فقد كانت صهريجاً للوقود ، ومن الممكن ان تشتعل وتنفجر من جراء رصاصة واحدة .

ثم سرنا بعد ذلك على طول الخط الهادئ وحتى خطوط السكة الملتوية ، الا اننا لم نجد رفاقنا هناك . لذلك انسحبنا ميلاً الى الخلف ، وهنا كان علي ان انام اخيراً لمدة ثلاث ساعات كاملة قبل بزوغ الفجر . وصحوت نشيطاً لادرك واعرف مكاننا . ومن المحتمل انها كانت الليلة الخامسة فقط دون ان احصل فيها على نوم كامل ، والذي جعل افكاري ملبدة . واندفعنا قدماً ، متجاوزين القوات المصرية ومعهم الغوركاس ، ووصلنا الازرق في وقت مبكر من العصر . وكان يتواجد هناك الامير فيصل ونوري الشعلان وهما يتشوقان لسماع اخبارنا . وشرحنا لهما الوضع ، ومن ثم ذهبت الى مارشال ، الذي كان يتواجد في المستشفى المؤقت . وكان لديه جروحنا السيئة التي يقوم بالعناية بها بهدوء ، الا انها كانت اقل مما كان يتوقع ، لذلك فقد كان قادراً على ان يوفر لي سريراً .

ووصل جويس عند الفجر على نحو غير متوقع ، فقد غير رأيه ففي مثل ذلك الهدوء الحذر رأى انه كان من واجبه ان يذهب الى ابي اللسان لمساعدة الامير زيد وجعفر ضد حامية معان التركية ، وان يضغط على هوربني ليسير قدماً بين بني صخر . ثم وصلت طائرة من فلسطين ، وسمعنا اول خبر مدهش عن انتصار اللنبي . فقد قامت قواته بسحق واختراق الخطوط التركية ، فقد تغير وجه حربنا ، وقمنا بابلاغ الامير فيصل بذلك بسرعة ، لعقد اجتماعات عليا من اجل الاستفادة من الوضع . وبعد ساعة كنت واصلاً الى فلسطين بسلام .

ومن الرملة وفر لي سلاح الجو سيارة لتوصلني الى مقر القيادة العامة ، وهناك وجدت الرجل العظيم (اللنبي) هادئاً ، ما عدا البريق الذي ظهر في عينيه عندما كان بولز يخبره في كل خمسة عشر دقيقة باخبار النجاحات الحربية الكبرى التي كانت تتحقق . فقد كان اللنبي متأكداً جداً من ذلك قبل ان يبدأ عملياته الحربية ، ذلك ان النتيجة كانت مضجرة بالنسبة له . الا انه لايوجد جنرال ، مهما كان عملياً ، يمكنه ان يرى خطته الصعبة المعقدة تنفذ فوق ميدان وافر في كل نقطة مع نجاح كامل ، ولايعرف جوهر السرور ؛ خصوصاً عندما يشعر بذلك (كما يجب ان يشعر بذلك) على انه مكافأة لاتساع او سعة التفكير والتخمين والذي جعله يتصور مثل هذه التحركات الغير تقليدية ، وحطم الكتاب الحقيقي لخدماته

الادراية لتلائمها ؛ ويدعمها بكل التخمينات المادية والاخلاقية، والعسكرية او السياسة ، ضمن فهمه وادراكه .

واستعرض لي خططه واهدافه المقبلة. فقد اصبحت فلسطين التاريخية تحت سيطرته ،والقوات التركية أضحت مبعثرة ومهزومة على الجبال والتلال ، وهي تتوقع الملاحقة. وليس هذا كل شيء ! فقد كان كل من بارثولوميو وايفانز يعدان لشن ثلاث هجومات واندفاعات ، الاول عبر الاردن الى درعا ، وينجز ذلك من قبل بارو وقواته الهندية. وسيمكث شاتيور في عمان ؛ وسيستمر كل من بارو وشوفيل بعد تحقيق الاهداف الاولى بالزحف نحو دمشق . وكان علينا ان نقوم بمساعدة ودعم الهجومات الثلاثة : ولم اكن اريد ان انفذ مهمتي للاستيلاء على دمشق لغاية ما سنكون متجمعين سوياً .

وشرحت له توقعاتنا ، وكيف ان كل شيء كان يحطم او يدمر من جراء عجزنا الجوي هناك ، فضغط على الجرس ، وخلال دقائق كان كل من سالموند وبورتون يتداولان معنا . فطائراتهما قد اخذت دوراً لاغنى عنه في خطة اللنبي ، (ان كمالية هذا الرجل كمنت في قدرته على ان يستخدم المشاه والفرسان ، المدفعية وسلاح الجو ، والاسطول والمدرعات ، والقوات الغير نظامية ، كل واحدة في افضل وجه لها !) ، وقد انجز ذلك بنجاح. ولم تعد هناك طائرات تركية تحلق في السماء ، باستثناء جبهتنا او منطقتنا ، عندما عرضت ذلك بسرعة. وكنت النتيجة جيدة، عندما قال سالموند، بانهم سيرسلون طائرتين من طراز بريستول الى "ام طي" لتساندنا عندما نحتاج اليهما . وهل كان لدينا وقوداً او بترولاً هناك ؟ لا لم يكن لدينا نقطة واحدة منه . وكيف سيتم الحصول عليه هناك ؟ فقط بواسطة الجو ؟ .

ومع ذلك، فان سالموند وبورتون كانا رجلان عمليان يتبعان الوسائل الحديثة فقد خصصنا طائراتا نقل من اجل ذلك ، واحدة من طراز د. اتش ٩ ، وهانلدي-باج ، في حين كان اللنبي يقف جانباً ، يستمع ويبتسم ، فبالتأكيد ان ذلك سينجز ، وبالتعاون مع سلاح الجو فان خطته ستكون جاهزة ومرنة ،

فعوامل الارتباط كاملة وتامة وسريعة . فقد كان سلاح الجو الملكي البريطاني هو الذي قام بتدمير وسائل الاتصالات التركية وقطع خطوط المواصلات ، وتدمير طوابير وارتال شاحناتهم ، وبعثرة وحدات مشاتهم .

والتفت قادة سلاح الجو الي ليسألونني عن امكانية وجود اراض او مهابط للطائرات ملائمة تماماً من اجل هبوط طائرات النقل عليها . وقد رأيت مَرة واحدة من قبل طائرة النقل الضخمة من طراز هاندلي- باج ، فقلت لهم "نعم" ، ومع ذلك فقد كان من الافضل ان يرسلوا خبيراً معي في الغد ليتأكد من ذلك . ومن الممكن ان يعود عند الظهر ، وبعد ذلك تأتي طائرة النقل عند الساعة الثالثة عصراً . ونهض سالموند وقال : "حسناً سنقوم بما هو ضروري ياسيدي" . وبعد ذلك ذهبت لتناول الافطار .

كان مقر قيادة اللنبي مكاناً رائعاً ، مبرداً ومهوى ، وابنيته طليت باللون الابيض ، وحصن ضد الذباب ، كما جعلت الرياح صوت الاشجار موسيقية عندما تقوم بتحركيها . وشعرت بانني متخلف ، وانا اتمتع بالجلوس خلف الطاولة ذات الاغطية البيضاء ، وبالقهوة ، وبمشاهدة الخدم ، في حين ان رجالنا في "ام طي" يجلسون مثل السحالي بين الحجارة والصخور ، وهم يتناولون الخبز الغير مختمر ، منتظرين الطائرة التالية لتقوم بقصفهم . لقد شعرت بعدم راحة وارهاق الازهار والاعشاب ، واثارة في الاعصاب ، بعد قضاء مدة طويلة في الصحراء المقيدة ، وفي الغبار وتحت حرارة الشمس الشديدة .

كان كل من كلايتون وديديس وداوناي يمثلون الصداقة ذاتها ، وكذلك ايضاً قيادة اركان سلاح الجو ؛ في حين كان التأييد القوي والفعال صادر من القائد العام (اللنبي) ، اذا انه كان مصدر راحة لشخص تعب وبعد ايام طويلة مرهقة . وبسط بارثولوميو الخرائط شارحاً ما سيقومون به . وزودته بمعلومات اضافية عن العدو ، اذا انني كنت افضل ضابط استخبارات لديه ؛ واظهرت لي توقعاته بالمقابل النصر المؤكد، مهما حدث بالنسبة لاعاقتنا هناك . ومع ذلك بدا

لي بأن الخيار كان يكمن في ايدي العرب ، فيما اذا دعوا هذا الانتصار ليكون اكثر من مجرد نصر واحد ، او بالمخاطرة بانفسهم مرة ثانية ، لجعله نهائياً. ليس خياراً محدداً او معنياً جداً ، انه كان خياراً حقيقياً ؛ ولكن عندما تكون الروح والجسد مريضتان بالضجر والسأم كما هو الامر بالنسنبة لي ، فانهما يلتمسان تقريباً وبشكل عزيزي وفطري تجنباً معقولاً لطريق الخطر .

(١١٤)

قبل الفجر وعلى مهبط الطائرات الاسترالي ، وقفت طائرتان من طراز بريستول وطائرة نقل من طراز د . اتش ٩ . وكان يوجد في احداها روس سميث، طياري القديم ، والذي اختير لقيادة الطائرة الجديدة هندلي باج ، الطائرة الريطانية الوحيدة من نوعها في مصر ، والتي تعتبر تفاحة في نظر سالموند . واعارتها لتطير فوق خطوط العدو على ارتفاع منخفض وهي تحمل المواد الضرورية ، كان يعتبر اجراءً حسن النية تجاهنا .

وصلنا "ام طي" خلال ساعة ، ورأينا بأن الجيش قد ذهب من هناك . لذلك فقد اشرت بأن نرجع الى "ام سراب" ؛ وكانوا يتواجدون هناك؛ مجموعة من العربات المدرعة كانت في وضع دفاعي ، واختبأ الرجال العرب عندما رأوا ضجيج طائراتنا خوفاً من ان تكون معادية ، وكانتالجمال متفرقة ومبعثرة فوق السهل ، وهي تملأ نفسها بالكلأ العجيب . ووضع يونغ لنا اشارة الهبوط ، عندما رأى شاراتنا وعلاماتنا على الطائرات . واعرب روس عن قلقه بخصوص طول او مساحة الارض المخصصة للهبوط ، وقام بدراسة عدم ملائمتها ، الا انه انضم الينا ثانية ، عندما كان السائقون يقومون باعداد الفطور ، بوجه صاف . فالارض كانت ملائمة لطائرة هاندلي-باج . واخبرنا يونغ بالغارات المتكررة للطائرات التركية بالأمس وأول امس، والتي قتلت بعض الجنود النظامين وبعض مدفعيي بيزاني وجعلت الحياة صعبة بالنسبة لكل واحد ، لذلك فقد تحركوا في الليل الى "ام سراب" . فالاتراك كانوا لايزالون يقصفون

" ام طي " مع ان الرجال كانوا يذهبون اليها فرادى في اوقات العصر والليل ليجلبوا الماء من هناك .

وسمعت ايضاً اخبار آخر تفجيرات ونترتون لخط السكة الحديد ، حيث كان ذلك في امسية مسلية ، والتي قابل فيها جندي غير معروف وشرح له بلغة عربية مكسرة كم من الجيد ان يتفقا سوياً . وشكر الجندي الله على رحمته ، واختفى في الظلام ؛ وبعد لحظة فتحت النار من مدفع رشاش من جهتي اليمين والشمال ! ومع ذلك فان ونترتون قد قام باشعال كافة المتفجرات وانسحب بنظام جيد دون أية خسائر . وقدم الشريف ناصر الينا ليفيد بأن هذا الرجل قد أُصيب ، وان تلك العشيرة متأهبة ، وان اولئك انضموا الينا للتو ، الا ان آخرين قد ذهبوا لديارهم ـ فالشائعات كانت تعم المنطقة . فالطائرات الثلاثة المتلألئة قد اعادت الكثير من الرجال العرب ، الذين أثنوا على البريطانيين ، وعلى شجاعتهم وتحملهم ، في حين حدثتهم عن الملحمة النادرة والخارقة لنجاحات اللنبي ـ فقد تم الاستيلاء على نابلس ، العفولة ، بيسان وحيفا ، وغيرها . وشحذت عقول سامعي كاللهب . فاشعل طلال النار ، مزهواً بذلك ؛ بينما قام رجال الروالي بالصياح من اجل الزحف المستمر الى دمشق . حتى ان رجالي ، الذين كانوا مايزالون يحملون علامات قسوة الزعاقي في عيونهم المضطربة ووجوههم الملطخة ، قد فرحوا وبدأوا يسوون انفسهم قليلاً امام الجمع ، ويعبرون عن سعادتهم . وسرت رعشة بالثقة بالنفس، وسرت الثقة عبر المعسكر . فقررت ان ابلغ فيصل ونوري الشعلان بآخر تلك التطورات .

في غضون ذلك كان حان موعد الفطور مع رائحة السجق تعبق في الجو . وجلسنا متحلقين ، مستعدين لتناول الطعام ، الا ان المراقب الموجود على البرج المحطم صاح قائلاً . " هناك طائرة " ، اذ انه رأى واحدة منها قادمة من درعا . وقفز طيارينا الاستراليين نحو طائرتيهما الجاهزتين ، وشغلاها خلال لحظة . واصبح روس سميث مع مساعده المراقب في طائرته ، وقد طار الى السماء ، ولحقه بيترو ، في حين وقف الطيار الثالث بجانب طائرة د . اتش ٩ ونظر بتأثر

إلي . وبديت بانني لم افهمه . واستعدت رشاشات لويس لاطلاق نيرانها في كافة الاتجاهات . ولم يكن لدي أية فكرة عن كيفية القتال الجوي . ولم يتكلم الطيار الواقف معي ، وانما نظر إلي في حين كنا نشاهد المعركة في الجو . كانت هناك طائرة معادية واحدة ومعها ثلاث طائرات استطلاع . وركز الطيار روس سميث على الطائرة المعادية الكبيرة ، وبعد خمسة دقائق من رشقات مدافعة الرشاشة الحادة ، فقد غاص طيارها الالماني فجأة باتجاه خط السكة الحديد . حيث انفجرت خلف جسر منخفض ، وصدر عنها عمود طويل من الدخان ، ومن مكان سقوطها صدرت سحابة سوداء . وعبر الرجال العرب عن اعجابهم بذلك . وعاد روس سميث بعد خمسة دقائق ، وقفز بفرح من طائرته ، مقسماً على ان الجبهة العربية كانت مكاناً رائعاً للنزال الجوي .

كان السجق لايزال ساخناً ، فتناولناه ، واحتسينا الشاي (وكانت تلك آخر اغذية انجليزية لدينا ، قدمناها لزوارنا) ، ولكن عندما بدأنا بتناول الضب الذي احضر من جبل الدروز (جبل العرب) ، حتى اشار المراقب بعباته وصاح " هناك طائرة ! " فاقلع هذه المرة بيترز اولاً ، ومن ثم سميث ، ليقوم بعملية حماية واحتياط ، الا ان الطائرات المعادية رجعت بسرعة جداً ذلك ان بيترز لم يمسك بها الا بالقرب من منطقة عرار ، وهناك جرت معركة جوية . وقد وجدنا فيما بعد جثتين متفحمتين لطيارين المانيين .

لقد رغب روس سميث بأن يمكث للابد في هذه الجبهة العربية مع طائرات معادية تأتي كل نصف ساعة ، وقد حسد بيترز بعمق على ايامه القادمه . ذلك لانه ينبغي عليه ان يقود طائرة هاندلي الى فلسطين ومن ثم العودة بها محملة بالوقود والاغذية وقطع الغيار . اما الطائرة الثالثة فقد كانت طارت الى الازرق بالأمس ، لتحضر المراقب الجوي من هناك ، فذهبت فيها ، لمقابلة الامير فيصل ، لقد اصبح الوقت رحباً ومترفاً بالنسبة لهؤلاء الذين يستقلون الطائرات ، وقضينا ثلاثين ساعة بالازرق ، وغادرناها بعد ذلك ، وعدت لانضم الى الجيش ثانية ، من اجل القيام بتفجيرات جديدة للخط الحديدي في الشمال . ومن ثم ذهبت مع

فيصل ونوري الشعلان بسيارة الفوكسهول الخضراء الى "ام السراب" لرؤية طائرة هاندلي جاثمة هناك .

سرنا بسرعة كبيرة فوق صخور ناعمة او ارض طينية قاسية ومنبسطة ، جاعلين السيارة القوية تسير بكامل سرعتها ، الا ان الحظ لم يكن بجانبنا . فقد توارد الينا عن وجود نزاع قبلي ، فكان علينا ان نتحول جانباً الى مضارب السراحين . ومع ذلك فقد استفدنا من هذه الزيارة ، وذلك باصدار اوامرنا الى رجالهم المقاتلين للتحرك الي "ام طي" ، وكان علينا ان نرسل معهم كلمة انتصار عبر خط السكة الحديد ، ذلك ان الطرق من خلال جبال عجلون يمكن ان تكون مغلقة امام الجيوش التركية المهزومة ، التي كانت تحاول الفرار الى حيث الامان .

ثم اندفعت سيارتنا باتجاه الشمال ثانية . وعلى بعد عشرين ميلاً من "ام السراب" ادركنا شخص بدوي ، وكان يسرع مهتاجاً باتجاه الجنوب ، وشعر رأسه ولحيته الرماديتين يتطاير في الهواء ، وثوبه يتطاير بالهواء خلفه . وتحول ليمر من جانبنا ، وهو يلوح بيده النحيلة ، صائحاً ، "انها اكبر طائرة في العالم" ، قبل ان ينحرف ليدب نحو الجنوب ، ويقوم بنشر خبره بين الخيام .

وفي ام السراب وقفت الطآئرة هندلي شامخة على العشب ، وبجانبها طائرات بريستول و أ . ٩ وقفت كفراخ الطير تحت اجنحتها المنبسطة . وانتشر حولها العرب المعجبين ، وهم يقولون "في الحقيقة واخيراً ارسلوا لنا الطائرة ، حيث ان تلك الاشياء (الطائرات الصغيرة) كانت فلوات (اي وليد الفرس) . وانتشرت الاخبار قبل حلول الليل لتصل الى جبل الدروز وحوران ، مخبرة الناس بأن رجحان الكفة اصبحت الى جانبنا .

وقدم بورتون نفسه جواً بطائرة ، ليقدم لنا مساعدة ملموسة . وتحدثنا معه بينما كان رجالنا يقومون بتفريغ الطائرة من حمولتها لنا من الوقود ، وقطع الغبار والزيوت لمقاتلات البريستول ، وكمية من الشاي والسكر وحصص رجالنا من الاغذية ، والرسائل ، ونشرات اخبار رويتر والادوية . ثم اقلعت الطائرة الضخمة عند اول الغروب ، الى رام الله ، مع برنامج معد من اجل القيام بقصف

ليلي ضد درعا والمفرق وذلك لاتمام تدمير خط السكة الحديد ، والتي بدأت متفجراتنا العمل بها .

ونحن بدورنا سنبقي على ضغطنا بواسطة المتفجرات . فقد اسند اللنبي الينا مهمة محاصرة واحتواء الجيش التركي الرابع ، لغاية مايجبره شايتور على الخروج من عمان ، ومن ثم نقوم باعتراض ووقف تراجعه . وكان هذا التراجع مسألة ايام فقط ، وكان اكيداً كما يمكن ان تكون الامور في الحرب ، وذلك ان علينا ان نزحف على السهل الواقع مابيننا وبين دمشق في الاسبوع القادم . لذلك فقد قرر فيصل ان يضيف الى رتلنا هجانة نوري الشعلان من قبيلة الروالي من الازرق . وهذا سيزيد من عددنا ليصبح اربعة الاف من المقاتلين الاشداء ، ثلاثة ارباعهم من المقاتلين غير النظامين ؛ الا انهم موثوق بهم جداً ، اذا ان نوري الشعلان ، الرجل الهادئ والصلب ، كان يسيطر على قبيلته تماماً كمثل اله بيده. كان نادراً من وجود او مثله في الصحراء ، كرجل ليس لديه احساساً بالجدال . فعندما كان الاخرون ينهون كلامهم ، كان يعلن رغبته ببضعة عبارات، وينتظر بهدوء لاطاعته ، الذي يأتي للتو ، حيث انه كان مهيباً . كان كبيراً في السن وحكيماً ، وهذا عني التعب وخيبة الامل . وقد اثار استغرابي من انه كان عليه ان يربط نفسه بحماسنا .

استرحت في اليوم التالي بخيمة الشريف ناصر ، وكنت متواجداً بين زائريه القرويين ؛ اقوم بتحليل الاخبار الوافرة جداً المقدمة بسرعة بديهتهم وحسن نيتهم، واثناء يوم راحتي ، ذهب كل من نوري السعيد ، وبيزاني ومعه مدفعين ، وستيرلنغ ، ونترتون ويونغ ، ومعهم عرباتهم المدرعة ، وقوة كبيرة، ذهبوا جميعاً الى خط السكة الحديد ، وقاموا بنسف كيلومتر من الخط ، وحرقوا البنية الخشبية المؤقتة التي كان الاتراك قد اصلحوا بها الجسر الذي دمرته انا وجويس قبل هجومنا الاول على درعا . وقام نوري الشعلان ، بعباائته السوداء ، بقيادة فرسانه من قبيلة الروالى ، واخذ يدب بجوراه كأفضل واحد منهم . فتحت قيادته اظهرت قبيلته بسالة وشجاعة ، حتى انها حصلت على الثناء من نوري السعيد .

(١١٥)

كانت عملية نوري الشعلان لذاك اليوم آخر ضربة وجهت للاتراك ، وبعدها تخلوا عن محاولة استعادة الخط الحديدي مابين عمان ودرعا . ولم نعرف ذلك ، الا ان شبحه كان لايزال يحوم فوقنا ، وكان من الملح ان نستمر بالعمل على طول الخط الممتد . ووفقاً لذلك، ففي اليوم ، ذهبت انا وونترتون وجميل (المدفعي) بالعربات المصفحة لاستطلاع الخط الواقع جنوب محطة المفرق . واستقبلنا هناك بنيران نشطة ومكثفة ومباشرة من مدفع رشاش، وكان ذلك خارجاً عن توقعاتنا . واستولينا فيما بعد على طاقمه لنجد بانها كانت وحدة المانية . وتابعنا سيرنا بعد ذلك، مندهشين، وذهبنا حتى الجسر . وكانت خطتي تكمن بالانطلاق تحت الجسر بعربة مصفحة لغاية ما تسمح لنا القنطرة ان نضع الشحنات الناسفة امام دعامة الجسر تحت المظلة ، لذلك فقد انتقلت الى عربة مدرعة ، ووضعت في صندوقها ستين باونداً من الشحنات المتفجرة ، وقلت للسائق بأن يندفع تحت القنطرة .

وجاء كل من ونترتون وجميل بعربة مساندة . وتذمر جميل قائلاً "انها ساخنة جداً" . فاجابه ونترتون ، "انها ستكون ساخنة اكثر طالما كنا سائرين" . وكنا نتلمس طريقنا قدماً للامام ، على بعد حوالي خمسين ياردة من الحافة ، ومعنا ذخيرة للمدفع الرشاش في العربة المدرعة تكفي لقتال اسبوع ، عندما قذف احد من خلف الخط بقنبلة يدوية باتجاهنا . وجعل هذا الوضع الجديد من المستحيل تنفيذ خطتي من الاستمرار تحت الجسر ، لشيء واحد بسيط ، وهو ان

توجيه أية ضربة او طلقة من خلف العربة ستشعل فتيل المتفجرات وتفجرنا جميعاً، ولسبب آخر فان العربة المدرعة ليس بمقدورها او عاجزة على فعل اي شئ ضد قنبلة مقذوفة . لذلك فقد انسحبنا من هناك ، ونحن مرتبكين من فهم هذا الدفاع المفرط لهذا الجزء الصغير من خط السكة الحديد ، والكثير من الاهتمام به . لذلك كان ينبغي علينا ان نحاول ثانية بعد حلول الظلام . وفي " ام السراب " وجدنا بأن الشريف ناصر كان يرغب بان يقيم معسكراً مرة ثانية في " ام طي " . انها كانت اول مرحلة لزحفنا نحو دمشق ، لذلك فان رغبته اسرتني ، فتحركنا ، واجداً بذلك سبباً جيداً بأن لانقوم بأي شيء ضد الخط في تلك الليلة . وبدلاً من ذلك ، جلسنا واخذنا نروي القصص حول الخبرة وننتظر انتصاف الليل ، عندما تقوم الطائرة هندلي بقصف محطة المفرق . وحانت تلك اللحظة ، فالقت الطائرة مئات الارطال من القنابل ، لغاية ما اشتعلت المحطة برمتها ، وتوقف الاتراك عن اطلاق النار .

ونمنا ، ونحن نحلم بتلك الرواية لأنفير باشا ، بعد ان استرد الاتراك منطقة مهمة على جبهة بلغاريا . حيث ذهب انفير لرؤية ذلك ومعه الامير جميل وأركان حربه . فالبلغار عندما احتلوا المنطقة ارتكبوا مجزرة ضد الاتراك ؛ وكان من المفترض ان يفعل الاتراك الشئ ذاته عندما استردوا المنطقة ، الا انهم لم يجدوا احداً ليقتلوه هناك . واخيراً وجدوا احد البلغار وقادوه الى قارب القائد العام البخاري ، فاشار الى مساعديه بان يقذفوا به في فرن القارب ، قائلاً لهم ، " اقذفوا به للداخل " . وصرخ الرجل المسن وأخذ يقاوم ، الا ان الضباط كانوا اقوى منه والقوه في الفرن ، وتملك الضباط الغثيان ، الا ان انفير اوقفهم وطلب منهم ان يستمعوا لغاية ماصدر صوت ارتطام او فرقعة قوية داخل الفرن ، فابتسم انفير عندئذ واومأ برأسه قائلاً " يجب ان تشوى رؤوسهم دوماً بهذه الطريقة " .

وكانت النار طيلة الليل ، وطيلة اليوم التالي مشتعلة بين الشاحنات في المحطة وتزداد اكثر فاكثر . انه كان برهان على انهيار الاتراك ، والذي اشاعه العرب منذ الامس . فهم قالوا بأن الجيش التركي الرابع كان ينسحب من عمان

على شكل رعاع متفرقة وبغير انتظام ، وقد افاد بني حسن بانهم كانوا في انسحابهم كافواج الغجر في المسير ، فكتائبهم المنسحبة بدت ضعيفة ومهلهلة . وعقدنا اجتماعاً ، فقد انتهي عملنا ضد الجيش التركي الرابع . وفلت ما تبقى منه من ايدي العرب ، فانهم سيصلون درعا مبعثرين مجردين من السلاح . ويجب ان تكون مهمتنا الجديدة القيام بعملية سريعة لاجبار الاتراك على اخلاء درعا ، وذلك لكي نمنعهم من تشكيل خط دفاعي هناك من الجنود الفارين في المؤخرة . لذلك فقد اقترحت بأن علينا الزحف شمالاً ، لنجتاز تل عرار ، ونسير فوق خط السكة الحديد عند فجر الغد ، الى قرية الشيخ سعد . وهي تقع في منطقة معروفة بمياهها الوافرة ، وموقعها المشرف التام ، فهي تضمن وتؤمن انسحاباً الى جهة الغرب او الشمال ، او حتى باتجاه الجنوب غرب ، اذا ما هوجمنا مباشرة . كما انها تعزل درعا عن دمشق وعن مزيريب ايضاً .

وأيدني طلال بحماس . كما ان نوري الشعلان اعطى موافقته ؛ وايضاً الشريف ناصر ونوري السعيد . لذلك فقد عزمنا على اقامة معسكر ضارب هناك . ولم يكن بامكان العربات المدرعة ان تأتي معنا . فقد كان من الافضل ان تبقى في الازرق ، لغاية ماتقع درعا ، كما اننا اردنا ان تساعدنا في دمشق . وقامت مقاتلات بريستول بعملها ايضاً ، منظفة الاجواء من الطائرات التركية . ومن الممكن ان تعود الى فلسطين ومعها اخبار تحركنا الى منطقة "شيخ سعد" .

ورأينا طائراتنا وهي تدور على الارض ، لنشاهد خط سيرها ، وملاحظين سحابة من الغبار مضافاً الى دخان البطيء الصادر من محطة المفرق المدمرة . ورجعت احدى الطائرات بعد تحليقها واسقطت قصاصة من الورق تفيد بأن هناك قوة معادية كبيرة من الفرسان كانت تتجه نحونا من خط سكة الحديد . وكانت تلك اخبار غير سارة ، اذ اننا لم نكن مستعدين للقتال ، فالعربات المدرعة قد ذهبت ، وكذلك الطائرات ، وكانت احدى سرايا الفرسان قد سارت ، وحملت مدافع بيزاني على البغال وسارت في الرتل . وذهبت الى نوري السعيد ، الذي كان واقفاً مع الشريف ناصر على قمة التل ، وتبادلنا الرأي فيما اذا كان علينا ان

نسرع بالذهاب او ان نبقى هناك . وبدا اخيراً انه من الاحكم ان نسرع بالذهاب، اذا ان موقع شيخ سعد كان اكثر فائدة وسداً منيعاً . لذلك فقد قمنا بحث الجيش النظامي على الاسراع .

ومع ذلك فان الامور لم تكن كما تصورنا . فوفقاً لذلك قاد كل من نوري الشعلان وطلال فرسان الروالى وحوران لتأخير عميلة ملاحقة الاتراك لقواتنا . ليفاجأوا قوات العدو هناك . وفوق كل ذلك ، فان قوة الاتراك التي أتت لتهاجمنا لم تكن من الفرسان ، وانما عبارة عن عناصر قد ضلت طريقها وكانت تسعي لايجاد طريق اقصر للوصول الى وطنها . فقمنا باخذ بضعةمئات من الاسرى منهم والكثير من وسائل النقل ، مسببين ذعراً بينهم ، ذلك ان مقدمتهم اخذت تدب على خيولها هائمة في الصحراء . وعم وانتشر وباء الذعر على طول الخط الحديدي ، وكانت القوات التركية تقوم برمي وطرح كل ما لديها عندما تشعر بدنو القوات العربية منها ، حتى انهم كانوا يتخلون عن بنادقهم ، ويندفعون بجنون باتجاه درعا التي افترضوها آمنة .

ومع ذلك، فان هذا العمل قد اخرنا ؛ ولم يكن من السهل ان نسير بفيلق هجانتنا عبر حوران في الليل دون ان يذهب فرسان من قبلنا الى القرى الشائكة لتخبرهم باننا لم نكن اتراكاً . كذلك ففي وقت متأخر من بعد العصر توقفنا من اجل انتظار كل من طلال وناصر ونوري الشعلان ليلحقوا بنا . ومنح هذا التوقف بعض القوم لاستعراض الاحداث ، وارتفعت تساؤلات جديدة تقول انه من الحكمة اجتياز خط السكة الحديد ثانية ، لنضع انفسنا في الموقع الخطير "للشيخ سعد" معترضين الانسحاب الرئيس للقوات التركية . واخيراً ، وحول منتصف الليل ، ظهر الضابط البريطاني سابين حيث كنت مستلقياً يقظاً على سجادتي بين افراد الجيش ، واقترح باننا قد قمنا بما فيه الكفاية . وان اللنبي قد اسند لنا مهمة مراقبة الجيش التركي الرابع . وكنا قد شاهدنا من قبل انسحابه المشوش والغير منظم . وكانت مهمتنا اتمام ذلك ، ومن الممكن ان نتراجع بشكل مشرف الى بصرى ، التي تبعد عشرين ميلاً الى الشرق ، حيث كان يحتشد الدروز هناك

تحت قيادة نسيب البكري لمساعدتنا . ومن الممكن ايضاً ان ننتظر معهم هناك حتى قدوم البريطانيون للاستيلاء على درعا ، ومن ثم اتمام حملتنا بالنصر الكامل .

تغاضيت عن هذا الاقتراح ، اذ انه اذا ما انسحبنا الى جبل الدروز ، فاننا سننهي بذلك نشاطنا قبل ان تنتهي اللعبة ، تاركين الوطأة العظمي من الهجوم للألنبي . فقد كنت غيوراً جداً على كرامة العرب ، الذين سامضي قدماً في خدمتهم بكل ثمن . فقد انضموا ودخلوا الحرب لنيل الحرية ، وان استعادة عاصمتهم القديمة بقوتهم وسلاحهم الذاتي كانت اشارة يمكن ان يفهموها بشكل افضل فالواجب، كمثل الاناس الذين امتدحوه ، كان امراً تعساً. فبشكل واضح ، وبواسطة الاندفاع من خلف درعا الى قرية الشيخ سعد فاننا سنضع المزيد من الضغط على الاتراك اكثر من اية قوة بريطانية تقوم بذلك . وذلك سيمنع الاتراك من القتال ثانية على هذه الجبهة القريبة من دمشق ، ولن نتكبد بذلك سوى خسائر ضعيفة . والوصول الى دمشق سيعني انتهاء هذه الحرب في الشرق، كما انني اعتقد ، بانها ستنهي الحرب العامة ايضاً ، لأن القوي المركزية يتوقف وضعها على انهيار ارتباطها او حليفتها الاضعف تركياً ، لذلك فمن اجل كل سبب حساس ، سواء كان استراتيجي ، تكتيكي ، سياسي ، وحتى اخلاقي، فاننا سنمضي في عملنا .

الا ان تفكير سابين العنيد والمستعصي لم يكن ليقنع . فرجع ومعه بيزاني وونترتون ، وبدأوا بالتدوال والنقاش ، وكانوا يتحدثون بصوت خفيض لان نوري السعيد كان مستلقياً بالقرب وهو شبه نائم ، واراد ان يُشرك في هذا النقاش. ووفقاً لذلك فقد شدد علي المظهر العسكري ، على هدفنا المنجز وخطر الخط الحديدي الحجازي. وهذا التأخير جعلنا متأخرين جداً على العبور تلك الليلة . وانه سيكون من الجنون ان نقود بالمحاولة او التجربة . فالخط سيكون محروساً من عند طرفيه بعشرات الالاف من الجنود الاتراك المندفعين من درعا . واذا ما انهوا مهمتنا فاننا سنكون في خطر اكبر. وقال سابين ، بأن جويس قد عينه مستشاراً عسكرياً للحملة ؛ وان من واجبه ان يشير ، وعلى نحو معارض ، فأنه كضابط نظامي فقد عرف عمله .

وكوني كنت ضابطاً نظامياً فمن الممكن ان أجد ان سابين قد ازعج وأربك القوات الغير نظامية الاخرى ، وتنهدت وعرفت بأن ذلك سيلقى معارضة ، وفي النهاية قلت له بانني اريد ان انام ، اذ ان علينا ان ننهض باكراً لعبور الخط ، وكان بنيتتي ان اذهب قدماً مع رجالي لاكون بين العرب ، اينما يكونون ، وحيث انه سيكون من الغرابة الايلحق بنا نوري الشعلان وطلال . وعلى اية حال ، فانني كنت ذاهب للنوم وقتذاك .

اما بيزاني ، الذي كانت حياته العسكرية الطويلة كلها كمساعد عسكري فقط ، قال بصدق بانه قد اخذ اوامره وانه سيتبعها او ينفذها . واعجبت به مع ذلك ، وحاولت ان اهديء واسكن شكوكه المخلصة بتذكيره باننا قد عملنا سوية لمدة ثمانية عشر شهراً دون ان يجد سبباً ابداً ليدعوني بالطائش أو المتهور . واجاب بضحكة فرنسية بأنه كان يعتقد بأن كل شيء كان طائشاً ، الا انه كان جندياً فحسب .

وانضم اليه ونترتون بصورة فطرية . اما نوري السعيد فقد كان مستلقياً بهدوء خلال حديثنا ، وهو يتظاهر بالنوم ؛ ولكن عندما ذهب سابين ، فقد زحف نحوي وقال هامساً ، "هل هذا صحيح؟" فاجبته بانني لم اكن ارى اي مخاطرة في عبور الخط عند منتصف العصر وبذلك فاننا سنتجنب الشراك والمكايد في "شيخ سعد" . فعاد للاستلقاء مطمئناً .

(١١٦)

تقدمنا كل من الشريف ناصر ، ونوري الشعلان وطلال وأنا في الظلام . وزحفت قواتنا المشتركة باتجاه الشمال عبر الاراضي المزروعة ، والقرى الغنية السعيدة . فوق الحقول المحصودة ، والتي حصدت وكومت محاصيلها . وكانت هناك النساء ، خارجات وهن فوق دوابهن لاحضار الماء ، اللواتي اسرعن نحونا وهن يصيحن بأن هناك طائرة قد هبطت منذ برهة بالقرب . وكانت تحمل الشارة الشريفية على هيكلها . وسار بيك الى هناك ، ليجد الطيارين الاستراليين لطائرتي البريستول وقد اصيبت خزانات تبريدهما فوق درعا . وكانا مسرورين ، ومندهشين ، لمقابلة ولقاء الاصدقاء . وبعد اصلاح العطب ، وأخذ الماء من النساء لملء خزانات التبريد ، طارا عائدين بسلام .

كان الرجال يرودن الينا من كل صوب في كل دقيقة لينضموا الينا ، ومن كل قرية يسارع المغامرون الشبان على اقدامهم لينضموا لقواتنا . وعند الظهر دخلنا حقولاً للبطيخ . واسرع الجيش فوقها ، في حين انحرفت انا الى خط السكة الحديد ، الذي كان يقع مهجوراً اماماً . حيث شاهدنا قطاراً يمر . فقد تم اصلاح الخط ليلة امس فقط ، وكان كل هذا ثالث قطار يمر . وتحركنا دون مقاومة فوق الخط ، وبدأنا نقوم بعمليات النسف والتفجير ، وكان واحد لديه متفجرات يقوم باستخدامها بالطريقة التي تخيلها وتحلو له . وكان الرجال الجددالذين انضموا الينا متحمسين جداً لعمليات التفجير ، التي كانت واسعة جداً .

وبوضوح فان رجوعنا قد فاجأ العدو المترنح ؛ وكان علينا ان نستغل

ونوسع هذه الفرصة . لذلك فقد ذهبنا الى كل من نوري الشعلان ، وعوده ابو تايه ، وطلال ، وطلبنا منهم بان يقوموا ويباشروا كل منهم بجهد محلي . فتولى طلال مهاجمة "ازرع" ، والتي كانت تعتبر مخزناً كبيراً للغلال في الشمال ، وتولى عودة "خربة الغزاله" ، التي كان يوجد بها محطة للاتصالات مع الجنوب، وان يقود نوري الشعلان رجاله الى الطريق الرئيس ، باتجاه درعا ، لتصيد ومواجهة المجموعات التركية هناك .

كانت هذه ثلاث افكار او خطط جيدة . وذهب الشيوخ لتنفيذ ذلك ، في حين سحبنا رتلنا ثانية ، وتابعنا طريقنا لنجتاز قرية شيخ مسكين المدمرة ، والتي بدت هزيلة جداً تحت ضوء القمر . وقد اعاقت حفرها المائية الطينية رتلنا ، مما جعلنا نتوقف عند السهل الصلب خلفها ، لحين طلوع الفجر . وقام البعض باشعال النيران لتقاوم ذلك الضباب المتركز في هذه المنطقة الطينية لحوران ؛ ونام اخرون من جراء تعب وارهاق الرحلة . واختفى القمر ، واصبحت المنطقة في ظلام دامس والطقس بارد جداً .

انهضت رجالي ، لنتجه الى "شيخ سعد" وندخلها مع الفجر . وبينما كنا نجتاز بين الصخور الى حقل يقع خلف الاشجار ، بزغ ضوء الفجر ثانية ومعه ضوء جديد للشمس . وشعت شمس الصباح فوق حقول شجر الزيتون لتبدو برونزية اللون ، ودعانا رجال كانوا يتواجدون في بيت شعر كبير على جهة اليمين لأن نستضيف عندهم . وسألنا لمن تكون تلك المضارب ، فاجابوا بانها "لابن سمّير" . وكان ذلك سيثير التعقيدات . وكان عدواً لنوري الشعلان ، ولم تسوي الامور بينهما بعد ، وقد شاءت الصدفة ذلك . وفي الحال ارسلنا تحذيراً الى الشريف ناصر . ولحسن الحظ فان ابن سمّير كان غائباً . لذلك فان عشيرته ستكون ضيفة مؤقتة علينا ، وان نوري الشعلان سيكون كمضيف ، متبعاً العادات والتقاليد .

كان ذلك مريحاً لنا ، ذلك انه قد اصبح في صفوفنا الآن مئات من الاعداء السابقين ، وقد توقفت وعلقت عداءاتهم بحكمة فيصل . وبعد ذلك عادت

مجموعات الاغارة الليلية ، ومعها اخبار مثيرة . فقرية ازرع كانت احتلت من قبل عبد القادر الجزائري واتباعه ، ومعهم بعض المتطوعين والقوات . وعندما قدم طلال اليها انضم اليه المتطوعين ، وفرت القوات التركية ، وكان اتباع عبد القادر قلة ضئيلة تخلوا عنها دون قتال . والقى رجالنا القبض عليه وغنموا غنائم كبيرة وقدم عودة مزهوا . فقد استولى على خربة الغزالة بهجوم عاصف ، مستولياً ، على قطار مهجور ، وعلى مدافع وأسر مائتي رجل ، كان من بينهم المان . وافاد نوري الشعلان بأنه قد أسر اربعمائة تركي وغنم البغال والمدافع الرشاشة . وتم ارسال طوابير الاتراك الى القرى النائية ، من اجل كسب معيشتهم. وحلقت طائرة انجليزية فوقنا في عدة جولات ، وكأنها تتسائل فيما اذا كنا قوة عربية ام لا . وقام يونغ بعمل اشارات ارضية ، فقامت الطائرة باسقاط رسالة تقول بأن بلغاريا قد استسلمت للحلفاء. ولم نكن نعرف بانه كان هناك هجوماً في بلغاريا ، لذلك فان هذه الاخبار لم تكن مهمة بالنسبة لنا . ودون شك فان النهاية ، لم تكن نهاية الحرب العظمى ، بالنسبة لنا ، وانما حربنا نحن ، التي كانت او شكت على الانتهاء . انه جهد حاد ، وان محاولتنا ستنتهي وكل واحد سيعود الى شؤونه الخاصة ، حيث انه بالنسبة لمعظمنا فانها كانت اول حرب ، ونتطلع لنهايتها من اجل الراحة والسلام .

وصل الجيش . واصبحت البساتين مزدحمة بالجنود اذ ان كل كتيبة اختارت افضل مكان خال وحطت رحالها فيه ، سواء بجانب اشجار التين ، او تحت اشجار النخيل ، او شجر الزيتون ، والتي خرجت واندفعت منها الطيور في موجات مذعورة ، وهي تزقزق بشكل كثيف . وأخذ رجالنا دوابهم ومطياتهم الى جدول الماء من خلال الاجمات الخضراء والازهار واشجار الفاكهة ، فهذه الاشياء كانت غريبة علينا خلال سنوات تجوالنا في الصحراء القاسية الجرداء .

وجاء اهالي قرية شيخ سعد بخجل ليروا جيش الامير فيصل ، الذي كانوا سمعوا عنه اشياء اسطورية ، وهو يحط الآن في قريتهم ، يقوده رجال ذوي اسماء ضخمة ـ طلال ، ناصر ، نوري ، عودة . وبادلناهم الدهشة ، في حسد

خفي على حياتهم الريفية تلك . وبينما كان الرجال يستريحون من سروجهم ، ذهبنا خمسة او ستة رجال لنستطلع من فوق الاطلال ، ولننظر عبر السهل الجنوبي ولنرى الاجراء الدفاعي الذي أعد لنا . ولشدة دهشتنا فقد رأينا سرية صغيرة من الجنود النظامين ـ اتراك ، نمساويين ، والمان ـ ومعهم ثمانية مدافع رشاشة محملة على الدواب . وكانوا قادمين من جهة الجليل باتجاه دمشق بعد هزيمتهم من قبل جيش اللنبي ، وكانوا يائسين ، الا انهم سائرين براحة ، يظنون انفسهم بأنهم كانوا بعيدين عن دائرة الحرب او الخطر . ولم نشأ ان نعطي تحذيراً لقواتنا التعبة ؛ وانما تحرك نحوهم درزي بن دغمي واخرون بهدوء وانقصوا عليهم من ممر ضيق . فاظهر ضباطهم رغبة في القتال ، فقتلوا على الفور . اما الجنود فقد رموا اسلحتهم على الارض ، وقام رجالنا بتفتيشهم وسيقوا على طول الممرات المائية بين البساتين الى زريبة مفتوحة بدت ملائمة لأسرانا . لقد اظهرت قرية شيخ سعد نتيجة سريعة وجيدة .

وبدا بعيداً الى جهة الشرق ثلاثة أو اربعة مجموعات من الرجال يتحركون باتجاه الشمال . واطلقنا اليهم رجال الحويطات ، وبعد ساعة عادوا وهم يضحكون ، فكل رجل منهم كان يقود بغلاً او جواداً محملاً ومعهم رجال بؤساء ومتعبين مظهرين تماماً وبوضوح سمة الجيش المهزوم . وكانوا جنوداً غير مسلحين فروا من الجيش التركي . وأنف الحويطات ان يحووا مثل هؤلاء الاسرى . وقال زعل متبسماً ، "سنعطيهم لاولاد وبنات القرية من اجل خدمتهم" .

قدمت اخبار الينا من جهة الغرب تفيد بأن سرايا صغيرة من الاتراك تهيم وتتراجع الى القري المحلية من جراء هجوم شوفيل . فارسلنا اليهم مجموعات مسلحة من قبيلة نعيم ، هي قبيلة ريفيه انضمت الينا الليلة الماضية في قرية الشيخ مسكين ، واعربوا عن استعدادهم للشريف ناصر بأن يقدموا ما باستطاعتهم . وبذلك ازدادت الجموع المنضمة الينا بشكل كثيف وكالسيل الجارف ، ازدادت مع ازدياد نجاحاتنا . وكان من الممكن خلال يومين ان يكون لدينا ستون ألف رجل مسلح متحرك .

لقد اطبقنا اكثر فأكثر على الطريق المؤدي الى دمشق . ومن ثم رأينا دخاناً كثيفاً من فوق تلة مشرفة على درعا . وذهب رجل ليستطلع الامر ، حيث ابلغ طلال بعد ذلك بأن الالمان قد اشعلوا النار في الطائرات والمستودعات ، وانهم كانوا يستعدون لاخلاء البلدة . وقامت الطائرات البريطانية باسقاط منشور يفيد بأن قوات بارو كانت قريبة من الرمثا ، وان هناك رتلين من القوات التركية المتراجعة ، واحد منه يضم اربعة الاف تركي ، والآخر ضم الفان ، كانا ينسحبان باتجاهنا من جهة درعا ومزيريب على التوالي .

بدا لي بأن الستة الاف تركي اولئك كانوا كل ماتبقى من الجيش التركي الرابع ، من درعا ، والجيش السابع ، الذي كان اعاق تقدم قوات بارو . وبتدميرهما (تدمير هذين الجيشيين) فسننهي مهمتنا وغرضنا هنا . ومع ذلك ، فقد عرفنا ، بانه كان ينبغي علينا الاحتفاظ بقرية شيخ سعد . وهكذا فاننا اسندنا مهمة الاغارة على مؤخرة وجوانب الرتل التركي المنسحب الاكبر ، بعد ان ندعه يمر ، للفارس خالد ورجاله من قبيلة روالى وبعض القرويين الشماليين .

(١١٧)

بدا الرتل التركي الاصغر عدداً مناسباً اكثر لحجم قوتنا . وبامكاننا ان نواجههم بنصف قواتنا النظامية ، وبمدفعين من مدافع بيزاني . وكان طلال قلقاً، اذ ان طريقهم المتبع سيؤدي بهم لأن يمروا من خلال قرية طفس ، وهي قريته . وأصر علينا بأن نسرع الى هناك وان نحتل المرتفع الواقع جنوبها . ولسوء الحظ فان السرعة لم تكن تتلائم مع رجال متعبين جداً فسرت ومعي قواتي الى قرية طفس ، آملين ان نحتل موقع خفي خلفها ونقوم بقتال الرتل التركي لغاية ما تأتي بقية قواتنا . وفي منتصف الطريق قابلنا رجال غير ممتطين ، وهم يقودون طابوراً من الاسرى باتجاه قرية شيخ سعد . وكانوا يقودوهم دون رحمة ، وكانت آثار الضرب تبدو على ظهورهم ، الا انني تركتهم ، لانهم كانوا من كتيبة الشرطة التركية في درعا ، فقد عانى القرويون الكثير من البلاء والعذاب والقتل في اوقات لاتحصي من هؤلاء العناصر .

ابلغنا العرب بأن الرتل التركي ـ ومعهم حاملوا الرماح من فوج جمال باشا ـ كان يدخل قرية طفس للتو . عندما اقتربنا من القرية ، وجدنا بانهم قد استولوا على القرية (وكانت تصدر بعض الطلقات النارية من حين لآخر) وتوقفوا حولها . وارتفعت بعض اعمدة الدخان من بين بيوت القرية ، وهم يرون القصص المرعبة عما حدث عندما اندفع الاتراك الى القرية قبل ساعة .

وجلسنا هناك نشاهد ، ورأينا قوة العدو تسير خارجة من نقطة تجمعها من خلف بيوت القرية . وساروا في رتل منظم باتجاه قرية الشيخ مسكين ، وحاملوا

الرماح في المقدمة والمؤخرة ، مشكلين مجموعات من الفرسان في رتل معه مدافع رشاشه كقوة جناح ، ومدافع وعدة وسائل نقل في الوسط . وفتحنا النار على مقدمة رتلهم عندما ابتعدوآ قليلاً عن بيوت القرية . فاداروا مدفعين ميدان نحونا ، للرد علينا . وكانت مدافع من نوع شرابنل غير دقيقة كالعادة ، حيث مرت القذائف من فوق رؤوسنا .

وجاء نوري ومعه بيزاني . ولحقهم كل من عودة ابو تايه ، وطلال ، الذي كان حانقاً عما سمعه من قصص من ابناء قريته عما عانته القرية من الاتراك . وكانت آخر مجموعة تخرج من القرية وقتذاك. فانسللنا من خلفهم من اجل دخولها مع طلال ليطمئن على اهله ، بينما كانت قوة مشاتنا تأخذ موقعاً لها وتطلق النار بقوة من مدافع هوتشكيس الرشاشة ، وتقدم بيزاني بنصف بطارية مدفعيته بينهم ، ذلك ان قوة الانفجار العالية لقذائف المدفعية الفرنسية قد احدثت اضطراباً في مؤخرتهم .

كانت القرية هادئة وتصدر منها بقايا اعمدة الدخان البيضاء ، عندما اقتربنا منها . وتبعثرت هنا وهناك بعض الجثث ، ومررنا بجانبها ، ونحن عارفين ، بانهم كانوا امواتاً ؛ ولكن فجأة دب من بينهم جسم صغير ، كما لو انه يفرمنا . انها كانت طفلة ، عمرها ثلاث او اربع سنوات ، ويتدفق الدم من اعلى صدرها ، ربما كان من جراء ضربة رمح . وسارت الطفلة بصنع خطوات ، ثم وقفت وصاحت بنا بقوة عجيبة (ووقف كل واحد صامتاً) قائلة ، "لاتضربني ، يابابا" . ووقف عبد العزيز متجمداً۔حيث كانت تلك قريته ، ومن الممكن ان تكون الطفلة من عائلته۔ ، نزل بسرعة من على جمله ، واسرع ليجلس على ركبتيه بجانب الطفلة . وأذعرها وجوده المفاجيء ، حيث رفعت يداها وحاولت الصراخ ، ولكن بدلاً من ذلك سقطت جثة هامدة ، في حين كانت الدماء تتدفق منها ثانية وتعلوا ملابسها ، واعتقد بانها ماتت .

ومررنا بجثث اخرى لرجال ونساء ، وكانت جثثهم مشوهة تحت أشعة الشمس ، وعرفنا ماذا عني الموت والرعب . ورأيت جدران البيوت ملطخة بالدماء ونظرت بالقرب لاري جثة امرأة وقد قتلت بحربة في بطنها ، بدت بأنها

كانت حامل ، وقد تناثرت جثث حولها ، ربما كان عدها عشرين جثة ، قتلت بطرق مختلفة .

اطلق الزعاقي سلسة من الضحكات الشرسة المجلجلة ، فقلت ، " افضل واحد منكم هو من يقتل اكبر عدد من الاتراك " ، واستدرنا نحو العدو المتلاشي ، وقمنا باطلاق النار على اولئك الجنود الاتراك الذين سقطوا على جانب الطريق ولم يستطيعوا اللحاق برتلهم ، دون رحمة او شفقة . وكان طلال رأى ما رأينا وما حل بالقرية . فصاح مثل حيوان مصاب ؛ ثم ركب مطيته وتوجه الى ارض عالية ووقف هناك لبرهة على جواده ، وهو يرتجف وينظر بثبات نحو الاتراك . وتحركت لاقترب واتحدث معه ، الا ان عودة ابو تايه كبح جماحي وابقاني مكاني ، وببطء شديد قام طلال بلف وجهه بكوفيته ومن ثم اندفع فجأة باتجاه العدو .

وكانت المسافة طويلة بينه وبين العدو . وجلسنا هناك متجمدين وهو يندفع قدماً ، وكان صوت حوافر جواده مسموعاً وعالياً بشكل غير طبيعي لنا ، حيث اوقفنا اطلاق النار ، كما اوقف الاتراك اطلاق النار ، وانتظره الاتراك حتى اقترب ، وهو يصيح بصرخة الحرب ، ويطلق النار عليهم . الا ان جميع بنادقهم ورشاشاتهم اتجهت اليه واغرقته باطلاق النار هو وفرسه ، فسقط ميتاً . ونظر عودة بهدوء تام وقال ، " الله يرحمه ، سنثأرله " . وتحرك ببطء نحو العدو . واستدعينا القرويين ، الذين كانوا متعطشين للانتقام ، وقمنا بارسالهم من هذه الجهة وتلك ليهاجموا رتل العدو المنسحب . وتحرك اسد المعركة القديم في قلب واعماق عودة ابو تايه ، وجعله ثانية قائدنا الطبيعي المحتوم . وبتحرك ماهر قام بدفع العدو الى ارض وعرة وسيئة وشق رتلهم الى ثلاثة اجزاء .

كان الجزء الاول ، وهو الاصغر ، مكوناً بغالبيته من مدفعيين المان ونمساويين ومعهم ثلاث عربات مدرعة ، وقوات ممتطية مساعدة او مساندة . وقاتلوا بعناد واعاقونا لفترة من الوقت بالرغم من شدتنا . وكان العرب يقاتلون كالشياطين ، والعرق يتصبب منهم ، والغبار يجفف حلوقهم ، في حين كان

لهيب القسوة والانتقام يتأجج في اجسامهم ويتلوى . وطبقاً لأوامري فاننا لم نأخذ أسرى منهم ، ولأول مرة يحدث هذا في حربنا .

واخيراً تركنا هذا الجزء خلفاً ، واسرعنا نلاحق الجزئين الآخرين ، اللذين كانوا اسرع في مسيرهم . وكانوا في ذعر شديد ، ومع الغروب فقد دمرنا كافة قوات العدو سوى جزء بسيط منهم ، وغنمنا كل شيء كان معهم . ولحقت بنا مجموعات من القرويين . وكان السلاح قليلاً في ايديهم في البدء ، خمسة او ستة منهم لديهم سلاح واحد فقط ؛ ثم قاموا باكتساب الغنائم تدريجياً من العدو ، فواحد حصل على رمح ، والآخر على سيف ، وثالث على مسدس ، وبعد ساعة اصبح لكل واحد منهم كان ماشياً على الاقدام مطية يمتطيها . وبعد ذلك اصبح لكل رجل بندقية ، وجواد استولى عليه . ومع حلول الليل اصبحت الجياد محمله بالغنائم ، وغطي السهل الفني الخصب بجثث العدو والدواب المبعثرة . وثأراً لقرية طفس وما اصابها فقد قتلنا وقتلنا من قوات العدو بما فيه الكفاية .

وكانت هناك مجموعة من العرب ، لم تسمع باخبارنا ، قد اخذت اسرى من قوات العدو . الا ان ذلك لم يطل . حيث ذهبت لاعلمهم بالأمر ، اذ لم اكن راغب بأن ندع هذه البقية تحيا كشاهد على ثمن طلال ؛ بيد ان رجلاً كان ملقى على الارض خلفهم صرخ بشيء ما للعرب ، الذين قادوني بوجوه شاحبة لإرى . انه كان واحداً منا ـ وقد فسخت ساقية . وكانت الدماء تتدفق منه على التربة الحمراء ، وكان يموت ؛ وبدت اثار الرماح وقد نهشت جسده . وكان مايزال واعياً تماماً . عندما سألناه ، " حسن ، من فعل بك هذا ؟ " فحرك عينيه باتجاه الاسرى . ولم يتفوهوا بشيء خلال لحظات قبل ان نفتح النار عليهم ، ويصبحوا جثثاً هامدة . وامتيطنا دوابنا ثانية لندب ببطء نحو قرية الشيخ سعد باكتئاب وحزن ، والتي شعرنا به اكثر مع حلول برودة الليل .

ومع ذلك ، ومع كل ماحدث فانني لم استطيع ان ابعد عن نفسي التفكير بطلال ، القائد الرائع ، والفارس المغوار ، والرفيق القوي والودود في المسير

والطريق . وبعد ذلك استبدلت ناقتي ، وذهبت مع أحد رجالي لانضم لرجالنا الذين كانوا يقتنصون الرتل الاكبر الخارج من درعا . وكان الظلام حالكاً ، والرياح تعصف بنا من جهتي الجنوب والشرق ، وبواسطة اصوات اطلاق النار فقط التي تواردت الينا وبومضات قذائف المدفعية من فترة لاخرى وتمكنا بعد طول عناء من الوصول الى ارض القتال . ففي كل حقل ووادي ، كان الجنود الاتراك هائمين على وجوهم فيه . وكان رجالنا يلاحقونهم . ومع حلول الليل فقد اصبحوا اجرأ ، واصبحوا الآن مقتربين جداً من العدو . وحاولت قوات العدو بأن تتوقف وتعسكر عند مغيب الشمس ، الا ان خالد قد دفعهم للتحرك ثانية . فبعضهم تابع المسير ، وقسم آخر منهم مكث هناك . وسقط العديد منهم من جراء النعاس والارهاق . لقد فقدوا النظام والتماسك ، وكانوا مستعدين لأن يطلقوا النار ويفرون عند كل احتكاك بنا او مع بعضهم البعض .

باستثناء الكتائب الالمانية ، التي شعرت هنا ، ولأول مرة ، بفخر مزداد نحوها ، وهي العدو الذي قتل اخواني هناك . انهم كانوا يبتعدون حوالي الفي ميل عن الوطن ، دون أي امل ودون ادلاء ترافقهم ، وفي اوضاع جنونية تماماً لتحطيم اقوي الاعصاب . ومع ذلك فان وحداتهم ظلت متماسكة بثبات وانضباط ، مندفعين من خلال الدمار العربي والتركي كمثل سفن مدرعة . فلم يكن هناك بينهم تهور ، والصراخ ، ولاتردد . انهم كانوا رائعين .

اخيراً وجدت خالد ، وطلبت منه استدعاء رجال قبيلة الروالى وترك هذا الطريق للزمن وللقرويين ليتولوا امره . فالعمل الاثقل ، ربما يكمن في الاتجاه الجنوبي . وعند الغسق وردتنا شائعات عبر السهل تقول بأن درعا اصبحت فارغة ، فسار طراد ، شقيق خالد ، ومعه بعض الرجال من قبيلة عنزة ، وللتحقق من ذلك . وخشيت حدوث هجوم مضاد ضدهم ، اذ انه لابد ان تكون هناك قوات تركية في المنطقة ، والمزيد من المقاومة التركية باتجاهها على طول خط السكة الحديد ومن خلال جبال اربد . وفي الحقيقة ، فان تأخر بارو ، كما افادت آخر التقارير الواردة الينا من الرمثا ، كان بسبب فقده الاتصال او الاحتكاك بالعدو هناك ، فلا بد ان يكون هناك قتال سيتبع في الخطوط الخلفية .

فاردت من خالد ان يساند شقيقه . وبعد ساعة او ساعتين ، زحف المئات من الفرسان والهجانة لمساندة طراد . فوصلوا الى هناك ليجدوا طراد ورجاله في وضع آمن . فقد تم لهم اقتحام المنطقة مع الغروب ، والاستيلاء على محطة السكة الحديد هناك ، وقاموا بتطهير الاستحكامات والخنادق من بقايا الاتراك التي حاولت المقاومة . وقام رجال الروالى بمساعدة الاهالي باغتنام ما في المعسكر التركي ، وجدوا الغنائم خاصة في المستودعات المحترقة .

شهدت قرية شيخ سعد اضطراباً عند المساء تخلله اطلاق عيارات نارية وصراخ وتهديدات من القرويين لقتل الاسرى كثمن اضافي او ثأر لطلال وقريته . فالشيوخ النشطاء كانوا متواجدين خارجاً لاصطياد الاتراك ، وغيابهم حرم المعسكر العربي من خبرتهم ومن ضبطهم للامور . فقد صحت غريزة الانتقام عند بعض العشائر ، وحاول كل من الشريف ناصر ونوري السعيد ، ويونغ وونترتون ، الحيلولة دون تفاقم الأمر والحفاظ على الامن والسلام . وصحوت بعد منتصف الليل ووجدت بأن رسل طراد قد وصلوا للتو من درعا . وغادر الشريف ناصر للانضمام اليه . وكنت راغباً بالنوم ، اذ ان هذه كانت ليلتي الرابعة في متابعة المسير ، الا ان تفكيري لم يدعني اشعر بمدى تعب وارهاق جسدي ، لذلك فقد امتطيت دابتي وانطلقت صوب درعا ، ماراً مرة ثانية من طريق قرية طفس ، التي اضحت قرية مظلمة في مهب الرياح .

وكان نوري السعيد واركانه يسلكون نفس الطريق متقدمين قوة مشاتهم المحمولة او الممتطية ، واسرعنا سوياً . ثم فقدت صبري من امتطاء الدابة ، فاطلقتها واستبدلت بها جواداً لاسبق رجالي ميلاً بعد ميل كمثل سيارة ، وهكذا دخلت درعا وحيداً تماماً عند الفجر .

كان ناصر يتواجد في بيت رئيس البلدية ، ويقوم بدور الحاكم العسكري ، وقمت بمساعدته ببعض الامور . فوضعت حراساً حول مضخات المياه وماتبقي من المخازن والحوانيت . ومن ثم وبعد ساعة من المداولات وضعت برنامجاً لما قد يتطلبه الوضع من هذه الاشياء ، اذا لم تفقد السيطرة عليها . وحدق بي الشريف ناصر مندهشاً .

استعلمت بخصوص الجنرال بارو . فاخبرنا رجل كان وصل من جهة الغرب بأنه قد اطلق عليه النار من قبل الانجليز ، عندما كانوا ينتشرون لمهاجمة البلدة (درعا) . ولمنع حدوث مثل ذلك الامر ، فقد سرت انا والزعاقي الى اعلى جبل بويب ، ، حيث كانت قمته تكشف موقع المدفعيين الهنود . فاداروا اسلحتهم نحونا ، وهم يظنوننا غرباء . ومع ذلك ، اظهر احد الضباط نفسه لنا ، ومعه بعض القوات البريطانية وعرفتهم بنفسي . فقد كانوا حقيقة يقومون بعملية تطويق لدرعا . وبينما كنا نشاهد ذلك ، قامت طائراتهم بقصف قوات نوري السعيد عندما كانت تسير نحو محطة السكة الحديد ، فكان هذا عقاباً له لانه اضل الطريق من شيخ سعد ، ولكن لوقف ذلك ، فقد اسرعت الى حيث كان الجنرال بارو يقوم بتفقد المواقع الخارجية للقوات في سيارته ، واخبرته بأننا قد قضينا الليل في البلدة ، وان اطلاق النار الذي يسمعه كان رصاص الفرح والابتهاج . وكان جافاً معي ، الا انني عذرته بعض الشئ ، لانه تأخر يوم وليلة من اجل السقاية من آبار الرمثا الفقيرة ، حيث ان خارطته كانت تظهر بحيرة ونهر مزيريب في الامام ، على الطريق الذي كانت تفر عليه فلول العدو . الا ان الاوامر التي كانت معه حددت له درعا فقط ، وان عليه ان يذهب الى درعا .

وقال لي بأن اسير الى جانبه ، الا ان جياده كرهت ناقتي ، لذلك فقد ابعدنا عن بعض في المسير . وقال بانه ينبغي عليه ان يضع حراساً في البلدة لحفظ النظام . فشرحت له بلطف بأن العرب قد عينوا حاكمهم العسكري هناك . وعند الآبار قال بأن مهندسيه العسكريين يجب ان يقوموا بتفتيش مضخات المياه . فرحبت بهذه المساعدة . وكان علينا انارة الافران وتشغيلها ، وأملنا في اتاحة سقاية جياده خلال نصف ساعة . فقال مشخراً بأننا كنا نبدو وكأننا رتبنا كل شئ، وانه سيتولى فقط مسؤولية محطة السكة الحديد . واشرت نحو قاطرة كانت تتحرك باتجاه مزيريب (حيث قام شيخ هناك بمنع الاتراك من نسف جسر تل شهاب ، الذي اصبح وقتذاك من ضمن الاملاك العربية) وطلبت بأن يقوم بأمر

حراسه من ان لايتدخلوا بعملنا ضد خط السكة الحديد .

ولم يكن لديه اوامر فيما يتعلق بالوضع العربي على الساحة ، فقد قام كلايتون بهذه الخدمة ، معتقداً بانه يجب ان نستحق ما يمكننا ان نجزم به ؛ لذلك فان بارو ، الذي قدم ومعه تفكير واعتقاد بانهم كانوا اناساً محتلين ، ذلك انه ذهل من اقتراحي الهادئ بانه كان ضيفاً علي ، ولم يكن لديه أي خيار سوى ان يتبع هذه المبادرة . وكان رأسي آنذاك يعمل بسرعة كاملة في تلك الدقائق ، لمصلحتنا المشتركة ، لمنع الخطوات الاولى المميتة والتي بواسطها حرم البريطانيون الغير خياليين ، مع افضل ادارة في العالم ، الاذعان البدائي لانضباط وتهذيب المسؤولية ، وأوجدوا وضعاً اطلق عليه لسنوات الغليان المتعاقبة من الاصلاحات والاضطربات من اجل ان تصلح . لقد درست وتفحصت بارو وكنت مستعداً له . فقبل سنوات ، اصدر اعترافاً حقاً عبر فيه عن حوافزه في الحرب والسلام . لذلك فقد عرفته تماماً وكنت متحفزاً له .

واستسلم بارو للامر عندما طلب مني بان أجد لقواته علفاً ومؤونة . وفعلاً فقد حصلوا على ذلك سريعاً . وفي الساحة فقد اريته راية الشريف ناصر الحريرية الصغيرة ، وهي التي كانت ترفرف على شرفة المكتب الحكومي المحترق، والذي كان يوجد تحته الحارس المتثائب . فوقف بارو ليؤدي له التحية، في حين اثار ذلك استحسان وسرور الضباط والرجال العرب .

وفي المقابل فقد بذلنا جهدنا للابقاء على التأكيد الذاتي ضمن حدود الضروة السياسية . وعبر العرب عن انطباعهم بأن هذه القوات الهندية كانت ضيفاً عليهم ، ويجب ان يسمح لها بالحصول على مساعدة ، وان يقوموا بأي شئ يرغبونه . وقاد ذلك الى امور لاتحمد عقباها . فأختفت كافة الدواجن من البلدة ، وقام جندي هندي بسرقة راية الشريف ناصر ، طامعاً بخيوطها الفضية . مما أوجد تناقضاً بين تحية الجنرال الانجليزي لهذه الراية وبين الجندي الهندي الذي سرقها : تناقضاً مرحب به من قبل العرب المترددين في مشاعرهم تجاه الهنود .

في غضون ذلك ، كنا نستولي على الرجال والسلاح من الاعداء ، واصبح لدينا آلاف الاسرى . سلمنا بعضاً منهم للبريطانيين ، كما وزعنا معظمهم على القرى . وسمع الازرق باخبار انتصارنا ، فاتجه الينا الامير فيصل في اليوم التالي ، ورافق سيارته الفوكسهول طابور من عرباتنا المدرعة . واستقر في محطة السكة الحديد . واستدعيت مع سجلاتي المدونة الى هناك . وما ان انتهت الحكاية حتى اهتزت الغرفة ، التي كنا فيها ، بهزة ارضية خفيفة .

(١١٨)

كان الجنرال بارو يستعد للرحيل من اجل ملاقاة القائد البريطاني شوفيل مع قواته بالقرب من دمشق ، ذلك حتى يمكنهم دخول المدينة سوياً . وطلب منا بأن نسير في الجناح الايمن مع قواته ، وقد ناسبني ذلك ، حيث هناك ، وعلى طول الخط الحديدي الحجازي ، كان الشريف ناصر ، ينقض على فلول القوات التركية المنسحبة ، ويقوم بتقليص عددها بالهجوم المستمر عليها ليلاً نهاراً . وكان لايزال لدي الكثير لاقوم به ، لذلك فقد انتظرت في درعا ليلة اخرى لاتذوق واستمتع بهدوئها بعد ان غادرتها القوات ، اذ ان المحطة كانت تقع في نقطة محدودة لمنطقة مفتوحة ، وقد اغضبتني القوات الهندية التي كانت تعسكر حولها بافسادها للمكان . فان جوهر الصحراء كان يكمن في التحرك فيها منفرداً ، فشعر ابن الطريق بنفسه منعزلاً عن العالم وكأنه في قبر ، فتلك القوات ، كانت كقطعان الاغنام ، لاتبدو جديرة بامتياز المكان .

وملء فكري وشغل بهولاد الهنود وطوقني ، وفكرت بوضاعتهم ، واسلوب الضباط البريطانيون تجاههم ، مما اوجد رعباً بين رجالي ، الذين لم يرو من قبل ابداً مثل تلك العدم مساواة الشخصية . وقد شعرت بظلم وجور الانسان هنا ، ولذلك فقد كرهت درعا ذلك بأنني كنت استلقي في كل ليلة ومعي رجالي على مهبط الطائرات القديم هناك . وكان رجالي ينتشرون بجانب العنابر المحترقة ، وهناك في تلك الليلة احضر لي عبد الله لآخر مرة ارزاً مطبوخاً في إناء فضي . وبعد العشاء ، حاولت ان افكر بالمستقبل ، الا ان فكري كان ملبداً ،

فاحلامي تبخرت مثل شموع محترقة اطفئت بريح شديدة من النجاح . وكان هناك هدفنا الملموس ايضاً ، الاانه خلف ذلك كان يكمن جهدنا الذي دام سنتين ، فهل اصبح بؤسها منسياً ام ممجداً ؟ ومرت الاسماء في ذهني ورأسي ، كل واحد يلفه خيال مفرط : فهناك وادي رم الرائع ، والبتراء المتألقة ، والازرق الشاعري . حتى ان الرجال قد تغيروا . فالموت قد أخذ اللطفاء منهم؛ والحدة الجديدة ، لأولئك الذين بقوا ، قد اذتني .

ولم اتمكن من النوم ، بسبب التفكير ، لذلك وقبل بزوغ الفجر ، أنهضت ستيرلنغ وسائقي ، وذهبنا لنتسلق الى الضباب الازرق ، انها سيارتنا الرولز ، وانطلقنا نحو دمشق ، لنسير على الطريق القذرة التي حفرت اولاً ، ومن ثم سدت بطوابير وارتال نقليات فرقة بارو العسكرية . وعبرنا المنطقة الى خط السكة الحديد الفرنسي ، حيث منحنا خطها المرصوف بالحصى وضوحاً في المسير ، فاسرعنا في سيرنا . وعند الظهر رأينا راية بارو من بعيد ، حيث كان يقوم بسقاية جياده . وكان رجالي يتواجدون بالقرب ، لذلك فقد أخذت ناقتي وانطلقت اليه . ومثله كمثل الخيالة الآخرين ، فقد كان يزدري الجمال بعض الشيء ، وقد أوحى ، عندما كان في درعا ، بانه من الصعب علينا ان نلحق به بجمالنا . ولذلك تملكه الدهشة عندما رأني ، وسألني متى غادرت درعا . فاجبته " في هذا الصباح " . فطأطأ برأسه . وسأل قائلاً ، "واين ستتوقف هذه الليلة ؟ " فاجبته بزهو ، "في دمشق" ، وتابعت سيري مضيفاً عدواً آخراً لقائمتي . وكان من عادتي ان لا اعتمد على الخدع سوى قليلاً ، اذ انه كان سخياً تجاه رغباتي ؛ الا ان الرهان كان غالياً ، ووراء رؤيته ، ولم اهتم بما ظنه او فكر به نحوي .

وعدت الى ستيرلنغ ، وتابعنا سيرنا . وكنا نترك عند كل قرية ملاحظة للقوات البريطانية المتقدمة ، لنبلغها اين نكون ، وكم كان العدو بعيداً خلفنا . وضجرت انا وستيرلنغ لرؤية تقدم قوات بارو ، حيث كانت العربات المدرعة تدب في الوديان الفارغة ، ووحدات الجيش تجتاز التلال المهجورة ، وكل شيء كان مريحاً في تقدمها .

ولن تكون هناك اية ازمات أو مشاكل لغاية مانصل الكسوة ، حيث سنلاقي هناك شوفيل وقواته ، وحيث ان خط حديد الحجاز دنا واقتراب من طريقنا . وكان على خط السكة الحديد كل من الشريف ناصر نوري الشعلان ، وعودة ابو تايه ، ومعهم رجال قبائلهم ، الذين كان عددهم اكثر من اربعة الاف رجل . وكانوا قد قاتلوا دون انقطاع في كل اوقا ت راحتنا وطمأنينتنا .

وما ان بدأنا بمتابعة سيرنا حتى سمعنا صوت اطلاق نار ، فرأينا مدفعاً تركياً من خلف مرتفع يقع على يميننا ، حيث كان خط السكة الحديد ، وسرعان ماظهرت مقدمة رتل تركي مكون من الفي رجل ، وهم في مجموعات هائجة ، يتوقفون هنا وهناك لاطلاق القذائف من مدافعهم الجبلية . واسرعنا لنلحق بملاحقيهم ، فسيارتنا الرولز كانت رائعة في سيرها على الطريق المفتوح . وقدم بعض الفرسان العرب يدبون من خلف الاتراك نحونا ، فادركنا انه كان الشريف ناصر وهو على ظهر فرس رائع في عدوه ؛ وكان هناك ايضاً نوري الشعلان ومعهم حوالي ثلاثين من رجالهم . وقالوا لنا بأن هؤلاء الاتراك هم كل ما تبقى من سبعة آلاف تركي . وقام رجال الروالى بالانقضاض على جناحي الرتل التركي ، في حين توجه عوده ابو تايه من وراء جبل منيعة ليقوم بجمع رجال "ولد علي ، ويكمن هناك لمفاجئة هذا الرتل . وابلغتهم بأن القوات البريطانية كانت قريبة ، وهي على بعد مسافة قصيرة في الخلف . فاذا ما امكنهم تأخير العدو ساعة ، فان القوات البريطانية او الهندية ستصل . ونظر ناصر اماماً فرأى مزرعة مسورة ، فدعا نوري الشعلان ، واسرعا سوياً لاستطلاع قوة الاتراك .

ورجعنا ثلاثة اميال الى حيث كانت طلائع القوات الهندية ، وابلغنا قائدها القديم العقيد بخصوص الهبة التي جلبها العرب . وبدا انه غير مسرور لأن يزعج النظام الجميل لزحفه ومسيره ، ولكن في النهاية افرز تشكيل من قواته وارسلهم ببطء عبر السهل باتجاه الاتراك ، الذين صبوا نيران مدافعهم عليهم . وسقطت قذيفة او قذيفتين بين الرتل ، ومن ثم ذعرنا (حيث ان الشريف ناصر وضع نفسه في نقطة الخطر ، متوقعاً مساعدة شجاعة) عندما امر الكولونيل بانسحاب قواته ،

وتراجع بسرعة الى الطريق . واندفعت انا وستيرلينغ نحوه بجنون متوسلين له بأن لايخاف من هذه المدافع الجبلية ، فهي ليست ذات جدوى وفعالية ولا تعدو كونها اكثر من مسدسات ؛ الا ان هذا لم يجد نفعاً مع ذلك الرجل العجوز ويحركه قيد انمله. واندفعنا للمرة الثانية الى الخلف على طول الخط بحثاً عن شخص أقوى نستعين به .

وابلغنا أحد المساعدين العسكريين بأنه كان يوجد هناك في الجانب الآخر الجنرال جريجوري . فباركناه لذلك ، اذ ان الشريف العسكري لستيرلنغ كان علي وشك الانهيار . واركبنا صديقنا المساعد معنا في السيارة لنجد الجنرال ، الذي اعرناه سيارتنا حتى يمكنه الذهاب لاصدار اوامر لقوات الفرسان والمدفعية ، التي قامت بالهجوم على مؤخرة العدو . وما ان حل الليل حتى رأينا انهيار قوة الاتراك ، الذين تخلوا عن مدافعهم ، ووسائل نقلهم وكافة مؤونتهم وفروا باتجاه ممر ضيق بين جبلين ، ظانين بأنه كانت هناك ارض فارغة تقع خلفهم. بيد انه ، في تلك الارض الفارغة كان يتواجد هناك عودة ابو تايه مع رجاله . ودارت معركة طيلة تلك الليلة ، وقام الرجل الكبير بقتل عدد كبير من الاعداء ، وغنم وأسر العديد منهم لغاية مطلع الفجر . وانتهى هناك الجيش التركي الرابع ، الذي كان سداً منيعاً منذ سنتين .

دفعتنا سعادة جريجوري بشوق لملاقاة الشريف ناصر . فسرنا الى الكسوة ، حيث توافق وقابلناه قبل منتصف الليل . وقدمت بعدنا القوات الهندية . وسعينا لايجاد بقعة منعزلة ، الا انه كان هناك الاف من الرجال في كل مكان . ودفعني هذا الحشد الضخم والتحرك المستمر لأن اكون ضجراً ومتململاً . وفي الليل فقد كانت شخصيتي مختفية ، ويمكنني ان اتجول كيفما يحلو لي ، دون ان يعرفني احد ، الا ان رجال عربتنا المدرعة كانوا معروفين بالنسبة لي ، من خلال قلتهم ورفقتنا الطويلة في التنقل ، كما كنت ايضاً معروفاً لهم . فمع هذا الرعاع الغير مألوف من الجنود ، البريطانيين ، الاستراليين والهنود وغيرهم ، بدا الوضع غريباً، ومميزاً بالاشمئزاز ، حيث انهم لم يمكنهم ان يغيروا ملابسهم التي تعفنت

بعرقهم وصدرت عنها رائحة نتنة كريهة .

بل ان اولئك الآخرين (العرب) كانوا ايضاً جنوداً في الحقيقة ، بعد سنتين من خدمتهم وقتالهم الغير نظامي . وحضرتني فكرة جديدة كيف ان سر اللباس العسكري كان يجعل الحشد صلباً ، مهيباً ، ومجرداً ؛ ليمنح مرتديه الشخصية الاناقة ، ورجلاً قوياً مستقيماً . فبزة الموت هذه التي تعزل لابسيها عن الحياة العادية ، هي عبارة عن علاقة تشير الى انهم قد باعوا اراداتهم واجسادهم للدولة، ويقيدون ويعقدون انفسهم للخدمة العسكرية بعقد مذل تكون بدايته التطوع في الخدمة . وبعضهم يطيع فطرة القانون والنظام؛ وبعضهم يكونون جائعين ، وآخرين متعطشين للمجد ، وللتلون المفترض للحياة العسكرية . الا ان لكل اولئك الذين نالوا الرضا فقط والذين سعوا لامتهان او انحطاط انفسهم ، فقد كانوا في وضع دون الانسانية . فالنساء الفاسقات فقط هن اللواتي يفتتن بهؤلاء الذين يرتدون هذا اللباس ، فراتب او أجر الجندي ، لايكون كافياً للاعاله كأجر العامل ، ولكنه مال لمصروف الجيب فقط لايفي بالحاجة .

وتسري العقوبات القاسية عليهم . فالعبيد يمكن ان يكونوا احراراً ، اذا ما استطاعوا ذلك ، وبتصميم . الا ان الجندي يسخر لمالكه استخدام جسده مدة اربع وعشرين ساعة ؛ وليتصرف بفعله وعواطفه ، والانسان المدان يكون لديه تصريحاً لكره الحكم او العقوبة التي قيدته ، وكافة الانسانية تصبح خارجاً، فيما اذا كان جشعاً في الكره او البغض ، الا ان الجندي الرافض يعتبر جندياً سيئاً ؛ وهو ليس بجندي حقاً . فيجب ان تكون عواطفه مؤجرة كقطع الشطرنج .

ان القوة الغريبة للحرب جعلتنا جميعاً نقوم بواجب يحط من قدرنا . فهؤلاء الجنود الاستراليون ، الذين كانوايدفعوني بجيادهم بطريقة غير حضارية ، كانوا مهيمنين في تلك الليلة ، ليثبتوا انفسهم ، حيث شعرت بانهم كانوا فارغين وغريزيين ، يحاولون دوماً بأن يقوموا باشياء عظيمة . اما ابناء قومي الانجليز فهم ليسوا غريزيين ، ولا متهاونين او مهملين كمثل الاستراليين ، الا انهم ممسكون انفسهم بخجل تقريباً . وكانوا انيقين ومحتشمين في لباسهم ، هادئين ويسيرون

بصورة زوجية (كل اثنان سوياً) بخجل . اما الاستراليون فيقفون في مجموعات ويسيرون فرادي .

وحول هؤلاء ، كان هناك الرجال العرب ؛ بدوا وكأنهم من عالم غريب . فواجبي تجاههم قد ابعدني عن وطني لمدة سنتين . وفي تلك الليلة شعرت بأنني كنت اقرب اليهم من بقية القوات الاخرى ، وامتعضت من ذلك بخجل . فالتطفل المتناقض اختلط بالغياب الطويل عن الوطن ، ليشحذ قدراتي الشخصية ويجعل الكره خصباً لدي ، لغاية لا ارى فحسب اختلاف العرق او الجنس ، وسماع اختلاف اللغة ، وانما لاتعلم الامساك والتمييز بين رائحة الفئتين (العرب والانجليز) ، بين رائحة عرق الرجال العرب والجنود الانجليز .

(١١٩)

انتهت حربنا . ومع ذلك فقد نمنا تلك الليلة في الكسوة ، اذ ان العرب قالوا لنا بأن المسير على الطرق كان خطراً ، ولم تكن لدينا رغبة بالموت بطريقة غبية في الظلام وعند مدخل دمشق . وكانت رياضة الاستراليين ترى الحملة كهدف لهدف ، يكون مركزة دمشق ؛ الا اننا في الحقيقة فقد كنا جميعاً تحت قيادة اللنبي ، وان النصر كان ثمرة منطقية يعود لعبقريته كلية ، ولألام بارثولوميو .

وكانت خطتهما التكتيكية تصنع الاستراليين تماماً شمال وغرب دمشق ، عبر خطوطها الحديدية ، قبل ان يتمكن الرتل الجنوبي دخولها ، وكان علينا نحن والقواد العرب الانتظار لحين وصول الجزء الانجليزي من القوات (الوات الانجليزية) التي كانت بطيئة في زحفها ، لأن اللنبي لم يستفسر ابداً عما قد انجزناه ، فالقوة تكمن في افتراضه الهادئ ذلك انه سيلقي طاعة كاملة كالثقة التي منحها .

وأمل (اللنبي) بأن نكون متواجدين عند مدخل دمشق ، اما لانه كان يعرف كم كانت دمشق تعتبر اكثر من كونها غنيمة بالنسبة للعرب ؛ وأما من اجل اسباب متعلقة او متدبرة ، وتحرك الامير فيصل جعل الارض العدوة صديقة لقوات الحلفاء في تقدمها ، ممكناً الارتال والطوابير العسكرية لأن تزحف بحرية ، وان تدار المدن والبلدات دون وجود حاميات عسكرية فيها . ومن خلال التفافهم حول دمشق ، فمن الممكن ان تدفع القوات الاسترالية لدخول دمشق ، بالرغم من عدم وجود اوامر لديها بهذا الصدد . واذا ما حاول أي واحد مقاومتها فان

الامور ستتعقد مستقبلاً . وقضينا ليلة كاملة لجعل الدمشقيين يستقبلون القوات البريطانية كحليفة لهم .

كانت هذه تعتبر ثورة في السلوك والتصرف ، اذا لم تكن في الرأي؛ بيد ان لجنة الامير فيصل في دمشق كانت اعدت وتهيأت منذ اربعة اشهر لتولي زمام الامور عندما ينهار الاتراك . وكان علينا فحسب ان نتصل بها ، ونخبرها بتحركات قوات الحلفاء ، وما كان مطلوباً منها ان تقوم به . لذلك وعند المساء ، ارسل الشريف ناصر رجلاً من قبيلة الروالى الى المدينة ، ليبحث عن علي رضا ، رئيس اللجنة المذكورة ، او شكري الايوبي ، مساعده ليخبرهما بأن الامور ستكون مريحة في الغد ، فيما لو قاموا بتأليف حكومة في الحال . وقد تم ذلك في الواقع عند الساعة الرابعة عصراً ، قبل ان نقوم بتحركنا . وكان علي رضا غائباً ، حيث كلف في آخر لحظة من قبل الاتراك بمهمة الاشراف على انسحاب قواتهم من منطقة الجليل ، امام هجوم القائد الانجليزي شوفيل . بل ان شكري الايوبي وجد مساندة غير متوقعة من الشقيقين الجزائريين محمد سعيد وعبد القادر . وبمساعدة اتباعهما فقد رفرف العلم العربي على مبنى بلدية المدينة قبل الغروب ، عندما كانت آخر فلول الالمان والاتراك تغادر . وقد قالوا بأن الجنرال الأخير الذي كان متواجداً هناك ادى التحية له .

ونصحت الشريف ناصر بعدم دخول المدينة . حيث ستكون هناك ليلة من الاضطرابات ، ومن الافضل ان يحفظ وقاره اذا ما دخلها بشكل هادئ عند الفجر . وعليه فقد قام هو ونوري الشعلان باعتراض الدفعة الثانية من هجانة قبيلة الروالى ، الذين بدأوا زحفهم معي من درعا في ذلك الصباح ، ودفعا بهم قدماً الى دمشق ، لمساندة شيوخ القبيلة هناك. لذلك ومع منتصف الليل ، عندما ذهبنا لنستريح ، كان لدينا اربعة الاف رجل مسلح في المدينة .

اردت ان انام ، اذ ان عملي القادم سيكون كثيفاً في الغد ؛ الا انني لم استطيع ذلك . فقد كانت دمشق تشكل ذروة جهدنا على مدى سنتين ، لذلك فان تفكيري كان مرتبكاً بشتى انواع وضروب الافكار التي استخدمت او رفضت

في ذلك الوقت . وايضاً فان الكسوة كانت تغص بعبق الاشجار والمزروعات الكثيفة فيها ، والجمع الغفير من الناس ايضاً : انه عالم صغير مزدحم امامنا .

وعندما غادر الالمان دمشق قاموا بتفجير مستودعات السلاح والذخيرة ، ذلك انه في كل بضعة دقائق كنا نرتعد من صوت الانفجارات ، والتي اخترق دخانها الابيض السماء . وعند كل هدير انفجار كانت الارض تبدو مهتزة ، ورفعنا عيوننا باتجاه الشمال لنرى السماء الشاحبة تتخللها نقاط صفراء ، وتزداد السنة اللهب مع كل انفجار مروع لمستودع ذخيرة . واستدرت نحو ستيرلينغ لاتمتم قائلاً " ان دمشق تحترق " ، وقد اصابني الغثيان للتفكير بأن تكون هذه المدينة العظيمة رماداً كثمن للحرية .

وعند الفجر سرنا الى قمة الجبل ، الذي يقع فوق واحة المدينة ، خائفين من النظر شمالاً لرؤية الخراب الذي توقعناه ، ولكن بدلاً من الخراب بدت البساتين خضراء عابقة بالضباب ، مزينة المدينة ، وجميلة كما هي من قبل ، كمثل لؤلؤة في شمس الصباح . وقد خلفت انفجارات الليل اعمدة طويلة من الدخان ، والتي تصاعدت بسواد بطيء من مستودع ذخيرة بالقرب من القدم ، وهي مركز نهاية الخط الحديدي الحجازي .

وسرنا على طريق مستقيم من خلال الحقول المروية ، والتي كان الفلاحون يبدأون يوم عمل جديد فيها . وكان هناك رجلاً يمتطي جواداً قد تعرف علينا من خلال اغطية رؤوسنا ونحن نسير بالسيارة ، فقام بتحيتنا بسرور ، وهو يحمل عنقوداً من العنب الاصفر ، فبادرنا بالقول "اخبار جيدة ، دمشق تحييكم" ، فلقد جاء من قبل شكري الايوبي .

كان الشريف ناصر يسير خلفنا مباشرة ، فنقلنا اليه الاخبار ، ذلك حتى يمكنه ان يدخل المدينة على نحو مشرف ، يليق بالمعارك الخمسين التي خاضها .

واختفى ومعه نوري الشعلان ، حيث نزلا الى طريق طويل مخلفين سحابة من الغبار ، التي تعلقت على مضض في الجو بين ارتطامات ماء النهر . ومن اجل

بداية حسنة ، فقد وجدت انا وستيرلنغ جدولاً صغيراً ، توقفنا عنده ، لنغتسل ونحلق ذقنينا .

مـرت بنا بعض القـوات الـهندية وحـدقت بنا وبسـيـارتنا . وكنت انا في ملابسي العربية ؛ وستيرلنغ في ملابسه العسكرية البريطانية . وكان مزاج ضابط صفهم (القوات الهندية) سيئاً ، فظن بأنه قد حصل على اسرى . وعندما افلتنا من اعتقاله لنا ، قررنا اللحاق بالشريف ناصر . وسقنا سيارتنا بهدوء تماماً على طول الطريق المؤدي الى مباني الحكومـة على ضـفة نهر بردي . وكـان رصـيف الطريق غـاصـاً بالناس ، وفي النوافـذ وعلى الشـرفـات واسطح المنازل ايضـاً . وكانوا يصرخون وبعضهم يحيوننا باسمائنا ، بل ان الفرح والسرور كان بادياً في اعينهم .

وفي قاعة مبنى البلدية كانت الامور مختلفة . فدرجات المبنى كانت مليئة بالناس المتـمـايلين ؛ وهم يهللون ، ويقـبلون بعـضـهـم البـعض ، ويرقـصـون ويغنون . وافسـحوا لنا الطريق بصعـوبة الى حجرة الانتظار ، حيث كان يوجد هناك الشريف ناصر ونوري الشعلان يجلسان . وجلس على جانبهـما كل من عبد القادر الجزائري ، وشقيقه محمد سعيد . وتملكتني دهشة شديدة . ومال محمد سعيد للامام وصاح قائلاً بانهما كانا احفاد عبد القادر ، الامير الجزائري ، و معهـمـا شكري الايوبي ، من بيت صـلاح الدين قد شكلوا حكومة بالامس ، واعلنوا بأن الشـريف حـسين هو "ملك العـرب" ، وعلى مـسـمع ومـرأى من الاتراك والالمان .

وبينما كان يتحدث بصخب التفت الي شكري الايوبي ، الذي كان رجلاً محبوباً ، وشهيداً تقريباً في اعين الناس ، بسبب ماعاناه من جمال باشا التركي . واخبرني كيف ان الشقيقين ، وقفا وحدهما من دون الدمشقيين مع الاتراك لغاية مارأوهم يفرون . وبعدئذ اقتحما المقر السري للجنة الامير فيصل وفرضا نفسيهما عليها بالقوة .

وفي مكان منفصل كان يتواجد كل عودة ابو تايه وسلطان الاطرش ، زعيم

الدروز ، وهما يتبادلان العواطف الجياشة . وكان رجالهما بعيدين عنهما ، بينما قفزت نحوهما لابعدهما جانباً ، بعيداً عن جموع الناس الغفيرة ، كما اندفعت نحو محمد الدحيلان لنفس الغرض . ولم يكن عودة على اطلاع بما حصل . وادخلناه الى صالة ضخمة في المبنى ، كانت فخمة ومطلية بالذهب ، وهادئة ، حيث ان جميع ابوابها كانت مغلقة سوى الباب المؤدي الينا . ودفعناه ليجلس على كرسي ، في حين كان منفعلاً جداً ومحتجاً . وقدم كل من زعل ومعه الحبصي واربعة من رجالنا لتهدئته ، الا انه لم يهدأ قبل مرور نصف ساعة ليسمعنا . وذهبت خارجاً فعلمت ان سلطان الاطرش قد غادر المدينة بصورة سرية في سرعة كبيرة ؛ ومن ثم بحثت عن الشريف ناصر وعبد القادر فعلمت بانهما قد ذهبا . اذ ان الشقيقين الجزائريين حثا الشريف ناصر على زيارتهما في بيتهما للاستراحة . وكانت تلك فكرة جيدة ، اذ ان ضغط الجماهير كان متزايداً . ويجب علينا ان ندعم الحكومة المحلية التي كان يرأسها شكري الايوبي . ووضعنا انفسنا في السيارة وانطلقنا .

وكانت الجماهير تحيينا على طول الطريق لحين وصولنا الى هناك . فكل رجل وأمرأة وطفل في دمشق كانوا يبدون في فرح غامر ، ويقومون بنثر الزهور ورش الطيب والزهور علينا ، وفرش السجاد والبسط امامنا على الطريق .

وكانوا يهتفون ويغنون للأمير فيصل والشريف ناصر وغيرهم ، وامتدت هذه الموجات العارمة من البشر على طول الميادين العامة ، وعلى الشوراع الطويلة المؤدية الى باب شرقي ، وبوابه الميدان ، وحتى قلعة دمشق . وأخبروني ان شوفيل كان قادماً مع قواته ، فتلاقت سياراتنا في الضواحي الجنوبية للمدينة . ووصفت له روح الابتهاج التي تجتاج المدينة ، وكيف ان الحكومة الجديدة لايمكنها ان تكفل الخدمات الادارية قبل يوم غد . وانني سانتظره لبحث متطلباته ومتطلباتي . في غضون ذلك جعلت من نفسي مسؤولاً عن حفظ النظام العام . ورجوته بأن يبقي رجاله خارجاً ، لاننا سنشاهد الليلة كرنفالاً لم تشهد المدينة مثله منذ ستمائة عام، ومن الممكن ان يفسد ذلك انضباط رجاله .

واتبع شوفيل مبادرتي دون رغبة منه ، فترddاته رضخت لتأكيداتي . ومثله بارو ، لم تكن لديه أية تعليمات ليقوم بها في المدينة المحررة ، وبما اننا امتلكنا زمام المبادرة ، وكنا عارفين طريقنا ، بهدف واضح ، واجراءاتنا جاهزة ، كذلك تخميناتنا ، فانه لم يكن لديه خيار سوى ان يدعنا نمضي ونستمر في عملنا . وسر رئيس اركانه ، جودوين ، الذي كان يتولى الامور الفنية بتحويل ذلك على عاتق حكومة مدنية ، وهذا ثبت ودعم اقتراحي .

وطالب شوفيل بأن تكون له الحرية بالتجوال في المدينة . وطلب بأنه سيكون من الملائم له أن يدخل مع قواته رسمياً الى المدينة في الغد . فأجبته بالتأكيد، مع انه كانت لدينا فكرة ضئيلة عن الطريق . وهنا تذكرت سرور رجالنا في درعا عندما قام بارو بتحية رايتهم - فقدمت ذلك كمثال جيد لتتبعه عندما يمر امام مبنى البلدية . وقد كانت فكرة عشوائية من قبلي ، الا انه وجد من الصعب ان يقوم باداء التحية سوى للعلم البريطاني . فوجدت حلاً وسطاً ، حيث اقترحت بأن نتجنب المرور من امام مبنى البلدية ونسلك طريقاً آخراً ، يكون بالقرب من مكتب البريد مثلاً . واقترح بدلاً من ذلك عدة او طرق ، حيث نفذ صبري ، ولم اعد اعبأ بأي طريق سيسلكه مع قواته .

(١٢٠)

بينما كنا نناقش الامور الاحتفالية الغريبة ، كان هناك عملاً بانتظارنا سواء كان داخلياً ام خارجياً . ورجعنا الي مبني البلدية لنتصارع مع عبد القادر ؛ بيد انه لم يكن قد رجع بعد . فارسلت من يسأل عنه وعن شقيقه ، وعن الشريف ناصر ؛ فوصلني الرد بأنهم كانوا نائمين . كذلك كان يجب ان يكون الامر بالنسبة لي ، ولكن بدلاً من ذلك كنا نتناول وجبة سريعة في القاعة الكبيرة ، ونجلس على الكراسي المذهبة وحول الطاولة المذهبة ذات الارجل المجدلة ايضاً .

شرحت لرسولي ما كنت اقصده بالتحديد . فاختفى وخلال بضع دقائق حضر ابن عم الجزائريين ، وكان مضطرباً ، وقال بانهما كانا في طريقهما الينا . وكانت هذه كذبة صريحة ، الا انني اجبته بانني سأحضر بعض القوات البريطانية للبحث عنهما بعناية . فانطلق بسرعة ، فسأل نوري الشعلان بهدوء عما كنت انوى عمله ، فقلت له بانني سأعزل عبد القادر وشقيقه من الحكومة ، واعين شكري الايوبي في مكانهما لغاية مايأتي الامير فيصل؛ وانني سأقوم بهذا بطريقة لطيفة حتي لا أوذي مشاعر الشريف ناصر ، وانه لم تكن لدي قوة ذاتية اذا ما قاوم الرجال ذلك. فسأل اذا كان بالامكان ان لاتأتي قوات بريطانية . فاجبت بالتأكيد؛ ولكن الامر المحزن بعد ذلك بأن لايمكنهم ان يذهبوا اليهما ، ففكر لحظة وقال ، " سيكون لديك رجال قبيلة روالى اذا ماشئت ان تقوم بذلك ، وبسرعة " . ودون انتظار ، ذهب الرجل خارجاً ليهيء رجال قبيلته . وقدم الجزائريان ومعهما رجالهما ، والشر في عينيهما ، ولكن في طريقها وجدا نوري

الشعلان وهو يهيئ رجال قبيلته ، كما ان نوري السعيد كان متأهباً مع رجاله في الساحة ، وفي الداخل كان رجالي ينتشرون في القاعة . فرأوا بوضوح بأن اللعبة كانت منتهية ؛ ومع ذلك فقد كان لقاء عاصفاً .

وبصفتي كنت مستشاراً للامير فيصل فقد اعلنت بأن حكومتهما المدينة تعتبر محلولة ، وقد سميت شكري باشا الايوبي كمساعد للحاكم العسكري ، وان يكون نوري السعيد قائداً للقوات ، واللواء عزمي مساعداً له ؛ وجميل المدفعي قائداً للامن العام . فاجاب محمد سعيد بحدة بانني انجليزي غريب ، ودعا الشريف ناصر بأن يتدخل بالأمر ، ولم يتدخل الشريف ناصر الذي كان جالساً بيننا . وقام عبد القادر بشتمي ولعني ، الا انني لم اعره انتباهاً ، فازداد حنقاً علي ؛ وفجأة مال للامام وسحب خنجره ، وكالبرق قام عوده ابو تايه بالانقضاض عليه ، وسحب منه الخنجر ، ووقف عبد القادر مذهولاً . واغلق نوري الشعلان النقاش الحاد بقوله بأن رجال الروالى تحت تصرفي ، وبدون اسئلة نهض الاخوان الجزائريان وغادرا القاعة بحنق . وكان بوسعي ان احث لأن يقبض ويطلق النار عليهما ، بيد انني لم ارد ان يكون ذلك مثالاً للعرب كنوع من القتل او الاغتيال السياسي .

وذهبنا لنعمل . كان هدفنا يتعلق بالحكومة العربية ، وايجاد الاسس الكبيرة والاصيلة لها لتعمل بحماس وتضحية . ولم يكن بالضرورة وضع الثوار في مراكز ومناصب حساسة مدنية . اذ كان على الامير فيصل ان يستبدل اصدقاء حربه بعناصر مدنية مفيدة لتشكل حكومة مدنية . وكان ناصر قليل الالمام بالامور السياسية . اما نوري السعيد ونوري الشعلان ، فقد كانا لهما المام بذلك .

وبسرعة قاموا بتأليف نواه لفريق عمل . وقد علمنا التاريخ ان تلك الخطوات كانت رتيبة ومملة ، كروتين التعيينات ، والمكاتب ، والادارات . وكان اول عمل هو جهاز الشرطة . فاختير قائدها ومساعديه ، وخصصت المناطق ، والاجور ، واللباس الرسمي والمسؤوليات ، وبدأ الجهاز بالعمل . ثم جاء دور مصدر التزود بالماء ، فالقنوات المائية كانت مليئة بجثث الرجال والحيوانات .

فقام جهاز التفتيش بحل هذه المشكلة . ووضعت أنظمة طوارئ لهذه الغاية . واخترنا مهندساً لتشغيل مولد الكهرباء ، وذلك لأضاءة المدينة في تلك الليلة . فاعادة اضاءة الشوراع سيكون اشارة لتبرهن وتثبت استتباب الأمن والسلام . وتم ذلك واضيئت الشوراع حيث عم النظام لأول ليلة انتصار ؛ ذلك ان قوة شرطتنا كانت متحسمة ، وقام شيوخ ومخاتير الاحياء بمساعدة دورياتهم في الاحياء المختلفة .

اما بالنسبة للصحة العامة . فان الشوراع كانت مليئة بالانقاض والحطام العائدة للجيش التركي المهزوم ، كالسيارات والعربات المهجورة والمدمرة ، الامتعة ، المواد المختلفة ، والجثث . وكانت امراض واوبئة التيفوس والدوسنتاريا وغيرها منتشرة بين الاتراك ، وكان المصابون بها يموتون في كل مكان على طول خط سيرهم . وقام نوري السعيد بتشكيل فرق لتقوم بتفتيش الطرق والامكنة المختلفة من هذه الجثث ، ووزع الاطباء على المستشفيات ، مع وعدهم بتزويدهم بالادوية والاغذية في اليوم التالي ، اذا ما امكن ذلك .

وبعد ذلك جاء دور وحدة الاطفاء . فالقاطرات المحلية كانت احرقت من قبل الالمان ، ومستودعات الجيش كانت ومازال تحترق ، وتعرض المدينة للخطر . فتم استدعاء الميكانيكيين ، والرجال المتدربين ، ليقوموا بمحاولة اطفاء الحرائق . ثم ان السجون ، قد فر منها نزلائها جميعاً ، فقام شكري الايوبي باصدار عفو عام عن المساجين المدنيين والعسكرين والسياسين . كما انه كان لابد من نزع السلاح من المواطنين ـ او على الاقل منع حمل الاسلحة في الطرقات . فاعلن عن ذلك ، وطلب من الشرطة تنفيذ ذلك . وكان هذا سيحقق هدفنا دون حقد خلال ثلاثة زو اربعة ايام .

اما بالنسبة للتموين وتوزيع الاغذية . فقد كانت المدينة معرضة للمجاعة خلال يومين ، حيث انه لم يكن هناك مخزون للاغذية في دمشق . وللحصول على اغذية وتموينات مؤقتة من القرى القريبة ، فقد كان ذلك أمر سهل ، اذا ما أعدنا تأمين سلامة الطرق ، واستبدال وسائل النقل من الدواب لنستعين بوسائل نقل جيشنا .

وكانت المدينة بحاجة لتشغيل السكة الحديد . فتم ايجاد المشغلين والسائقين وغيرهم لاعادة تشغيل الخطوط . ومن ثم جاء دور اعمدة واسلاك التلغراف والهاتف ، فتم ايجاد الفنيين من اجل اصلاحها . وايضاً اعادة تشغيل مكاتب البريد وكان ذلك ملحاً ، وخاصة للبريطانيين . ومن ثم استئناف النشاط التجاري ، وفتح الحوانيت ، وكان لابد من اعادة النشاط للاسواق وايجاد وحدة نقد مقبولة . وكانت حالة النقد والنقود مروعة . فالاستراليون قد نهبوا ملايين الاوراق النقدية التركية ، والتي كانت وحدة النقد الوحيدة المستخدمة ، وقلصوا من قيمتها باهدارها هنا وهناك . فأحد الجنود ، مثلاً ، اعطى ولداً مبلغ خمسمائة جنيه ليحفظ او يمسك جواده لثلاث دقائق فقط . وحاول يونغ ان يعالج الوضع بآخر ماتبقى لدينا من الجنيهات الذهبية التي اتينا بها من العقبة . الا ان الاسعار الجديدة للمواد كان يجب ان تثبت . وايضاً ، وبما ان العرب كانوا ورثة للحكومة التركية ، فانه لابد وان يحافظوا على خزينة الدولة والممتلكات ، وعلى السجلات الرسمية ، في حين انه تم تسريح القائمين عليها السابقين .

وكانت هناك مشكلة ايجاد الاعلاف للدواب . فلم يكن لدى شوفيل علف ، ولديه اربعة الاف جواد . واذا لم يُجلب العلف له فانه سيذهب للسعي وراء ذلك . وكانت تلك ليلة عمل وشغل . قمنا بها انا وستيرلنغ ، يونغ ، وكيركبرايد . وكان هدفنا دعم مظهر البناء وليس ايجاد البنية الملائمة له . واستمر ذلك يجري بشكل محموم ، ذلك انه عندما غادرت دمشق في الرابع من تشرين الاول (١٩١٨) ، فقد كان لدى السوريين حكومة واقعية ، والتي استمرت لسنتين ، دون مساعدة اجنبية ، في بلد انهكته الحرب ، وضد رغبة عناصر هامة متواجدة بين الحلفاء .

فيما بعد كنت جالساً وحيداً في غرفتي ، منشغلاً ومفكراً بذكرياتي ، عندما تبادرت إلى اصوات المؤذنين من مساجد حي الشيخ محي الدين يدعون للصلاة . وقد رن صوت احدهم الجميل في اذني من خلال نافذة بيتي من مسجد

قريب . ووجدت نفسي أميز كلماته وهو يقول : الله اكبر ، اشهد ان لا إله الا الله ، وأشهد ان محمداً رسول الله . . . " وفي نهاية الآذان ، اضاف المؤذن بصوت ناعم "يا ابناء دمشق ، ان الله كان كريماً معنا هذا اليوم" . وبدا ان كل واحد لبى نداء الصلاة في ليليتهم تلك المنعمة بالحرية الكاملة . بينما اظهر لي خيالي ، مدى وحدتي وانعزالي .

(١٢١)

ايقظني احد المواطنين بشكل مرتجف ، ليقول لي بأن عبد القادر كان يقوم بتمرد في المدينة . فارسلت الى نوري السعيد على الفور ، لاخبره بما يقوم به عبد القادر الجزائري ؛ الذي جمع بعض الفئات حوله ، وحثهم على القيام باعمال النهب والشغب ، فبدأوا باقتحام الحوانيت .

ولم نقم بأي عمل لغاية طلوع الفجر ، عندها حركنا رجالنا الى الاحياء العليا من المدينة ، ودفعنا المشاغبين باتجاه مركز المدينة ، حيث كانت الشوراع متقاطعة بالجسور ، ومن السهل السيطرة عليهم . ثم اكتشفنا كم كان الاضطراب صغيراً . وطوق نوري السعيد الفئات المشاغبة بوحده مدافعة الرشاشة ، التي اطلقت رشة طويلة من الرصاص على الاسوار الخالية ، وما ان سمعوا ذلك حتى تركوا ما بأيديهم من مواد منهوبة وفروا بين الممرات والازقة الضيقة . والقي القبض على محمد سعيد في بيته ، ومن ثم سيق الى مبنى البلدية . ومرة ثانية تلهفت لاطلاق النار عليه ، الا انني انتظرت لغاية ما نلقي القبض على الآخر . وعند الظهر كان كل شيء قد انتهي . واستدعيت شوفيل ، الذي قدم قواته على الفور . فشكرته ، وطلبت منه ان ترسل سرية الفرسان الثانية الى الثكنات التركية (التي تقع في اقرب موقع) لتكون متأهبة عند الطلب : غير ان القتال كان ضئيلاً جداً لأن تستدعي .

كانت افضل نتيجة لذلك الحدث من قبل الصحافة والصحميين ، حيث انهم قاموا بتهويل الوضع واعطاء صورة مضخمة ومبالغ فيها جداً . وقاموا

بارسال برقيات صحفية للخارج بهذا الصدد ، مما اذعر اللنبي ، الموجود في رام الله آنذاك ، فارسل لي رسالة صحفية تعيد للاذهان المذابح الارمنية وحربي البلقان ، وتصور الذي حدث في دمشق ، ان جثث القتلى كانت تملأ الشوراع ، والدماء تسيل كالانهار ، وان لون نهر بردى اصبح احمراً قرمزياً من جراء دماء القتلى . وكان ردي له بأن الخسائر لا تتعدى خمسة ضحايا ، وبضعة جرحى .

وطرد بعض الدروز من المدينة ، وفقدت بعض الجياد والبنادق على ايدي المواطنين ، الذين قمنا بتشكيلهم من اجل الطوارئ ليكونوا حراس مدنيين . فهؤلاء قد منحوا المدينة مظهراً حربياً ، يقومون باعمال الدورية لغاية العصر ، عندما عادت الامور لنصابها ثانية ، واصبح السير طبيعياً على الشوراع ، واخذ الباعة المتجولين يجوبون الشوراع والاحياء .

عدنا الى تنظيم الخدمات العامة ثانية . وكانت هناك حادثة مضحكة لي ، وبصورة شخصية ، لنداء رسمي من القنصل الاسباني ، الذي كان يتقن اللغة الانجليزية ، والذي قدم نفسه كقائم بأعمال سبعة عشر دولة (تتضمن كافة الدول المحاربة ماعدا تركيا) يقول فيه بانه كان يبحث عن سلطة قانونية في المدينة دون جدوى .

وعند الغداء ناشدني طبيب استرالي ، باسم الانسانية ، بأن اقوم بتفتيش المستشفى التركي في المدينة ، وتبادر الى ذهني على الفور ثلاث مستشفيات ، المستشفى العسكري ، المستشفى المدني ، ومستشفى الارساليات الاجنبية ، وابلغته بأن هذه المستشفيات كان تعمل بشكل جيد وحسب وسائلنا المتاحة . فالعرب لايمكنهم صنع الادوية . كما انه لم يكن بامكان شوفيل توفير الدواء لنا .

وتوسع الطبيب الى ابعد من ذلك ، واصفاً بأن هناك ابنية عديدة مليئة بالناس الذين يموتون من جراء الدوسنتاريا ، وبعض حالات التيفوئيد ، الا انه لم تكن هناك حالات تيفوس او كوليرا ، كما كان يُؤمل .

ومن خلال وصفه ادركت بانه كان يعني الثكنات التركية ، المحتلة من قبل

سريتين استراليتين . فقلت له ، هل هناك حراس عند البوابات ؟ فاجاب بنعم، انه كان ذلك المكان ، بيد انه كان مليئاً بالمرضى الاتراك . ومشيت لاتحدث مع الحارس ، الذي شك بمظهري . فقد كانت لديهم اوامر بأن يبقوا كافة المواطنين بعيداً عن المكان خشية من حدوث مجازر للمرضى - وهو سوء استيعاب او ادراك نحو العرب . واخيراً سمح لي حديثي بالانجليزية من ان ادخل الى جناح صغير الذي كانت حديقته ملىء بما ئتين من الاسرى البائسين واليائسين .

 وناديت من خلال باب كبير للثكنة ، فلم يجبني احد . واخبرني الحارس بأن الاف من الاسري قد ذهبوا من هناك بالامس الى معسكر يقع خارج المدينة . ومنذ ذلك الحين لم يأت أحد او يخرج ، ومشيت الى آخر الممر ، حيث كانت توجد هناك قاعة مغلقة . ودخلت اليها ، لارى منظراً يثير الغثيان . فقد كانت ارض القاعة مغطاه بالجثث ، المصفوفة جنباً الى جنباً ، بعضهم في اللباس العسكري ، والبعض الآخر بملابسهم التحتية ، وبعضهم كان عارياً . وكان عددها حوالي ثلاثين جثة ، والفئران تعبث بها . وكان بعضها جثث لرجال حديثي الموت تقريباً ، ربما منذ يوم او يومين ، وجثث اخرى مضى عليها وقتاً طويلاً وبعضها كان لونها أصفراً أو أزرقاً أو أسوداً . وبعضها منتفخاً ومتصلباً .

وخلف هذه القاعة، كانت توجد هناك غرفة كبيرة ، اعتقدت بانه كان يصدر منها صوت انين . فذهبت الى هناك وانا اغطي انفي وفمي بثوبي من شدة رائحة الجثث المتعفنة ، واسير عاري القدمين متجنباً الدوس على الجثث ، عندما سمعت فجأة انيناً، فاستدرت لأجد رجلاً فاغر العينين وهو يتفوه بعبارة "الرحمة، الرحمة" . وكان هناك ايضاً عدة مرضى ، كانوا يحاولون رفع ايديهم، التي كانت تشبه اوراق الشجر الرفيعة المرتعشة ، وهم يرتمون على اسرتهم ثانية . ولا احد منهم كان يقوي على الكلام ، الا انه كان هناك شيء ما جعلني اضحك عند همسهم بانسجام ، كما لو كان ذلك امراً صدر اليهم . فلاشك بأن هذا المشهد قد تكرر على مدى اليومين الماضيين ، في كل مرة كان احد العسكرين ينعم النظر بهذه القاعات ثم يمضي .

واسرعت من خلال القنطرة الى الحديقة ، وعبرت الى حيث كان يتواجد الجنود الاستراليون ، وطلبت منهم اعداد فريق عمل . فرفضوا ذلك . وسألتهم عن المعدات والادوات اللازمة؟ فلم يكن لديهم شيء . وسألت عن الاطباء . فقالوا انهم مشغولون . وقدم كيركبرايد ، وسمعنا بأن الاطباء الاتراك كانوا في الطابق العلوي . فصعدنا الى هناك لنجد سبعة رجال وهم في ثياب نومهم يجلسون على اسرتهم في غرفة كبيرة . فطلبنا منهم بسرعة بأنه سيكون من الحكمة فصل الاحياء عن الاموات من المرضى ، وان يعدوا لي خلال نصف ساعة تقريراً عن عددهم (المرضي والاموات) . واشرف كيركبرايد على هذا العمل ، في حين ذهبت لأرى علي رضا باشا ، وطلبت منه ان يحول لنا أحد اطباء الجيش العربي . وعندما حضر ذلك الطبيب قمنا بفرز خمسين اسيراً ملائماً كفريق عمل ، وقمنا بشراء البسكويت لاطعامهم ، ثم زودناهم بالادوات التركية وحددنا لهم مكانا يقع في الفناء الخلفي ليحفروا حفرة كبيرة لتكون قبراً جماعياً للموتى ، واحتج الضباط الاستراليون على ان ذلك المكان غير ملائم ، اذ ان الروائح الكريهة ستنبعث من ذلك المكان القريب من الحديقة التي يستخدمونها . وكان ردي متشنجاً بأنني امل من الله ان يحدث ذلك .

وكان من القسوة لتشغيل هؤلاء الرجال الاتراك البؤساء والمتعبين جداً ، الا ان الاسراع بالامر الملح لم يترك لنا خياراً . وبدأنا بحفر حفرة مساحتها ستة اقدام في زاوية الحديقة ، الا انه لم يكن بالامكان تعميقها ، لأنه كان يوجد في الاسفل سقف اسمنتي ، لذلك فقد اقترحت بأن يتم توسيع الحفرة ، وكان يوجد بالقرب حجارة واتربة كلسية وهي ملائمة لتغطية الجثث بفعالية . ابلغنا الاطباء بأنه يوجد هناك ستة وخمسون ميتاً ، ومائتين يموتون ، وسبعمائة ليسو مرضى بشكل خطير . وشكلنا فريق ليقوموا بنقل الجثث الى اسفل ، وليقوموا بدفنهم في تلك الحفرة ، كما اضيف اليهم جثث جديدة حتى ضاقت الحفرة بهم . وانتصف الليل قبل ان ينتهي العمل بذلك ، فذهبت لآخذ قسطاً من النوم ، وكنت منهكاً جداً ، حيث لم انم سوى ثلاث ساعات منذ غادرت درعا قبل اربعة ايام مضت . وبقي

كيركبرايد (الذي بذل جهداً مضاعفاً في تلك الايام) هناك لحين انتهاء عملية الدفن ، وطمر القبر الجماعي بالرمال والحجارة الكلسية .

وفي الفندق كان هناك بانتظاري رزمة من الامور الملحة ، فهناك بعض الاحداث والقضايا ، وانه ربما تحدث مجاعة في الغد ، اذا لم يصل قطار الاغذية . وكانت هناك شكوى من شوفيل يشكو فيها من تقاعص واهمال بعض الجنود العرب لاداء التحية العسكرية للضباط الاستراليين .

(١٢٢)

عند الصباح ، وبعد انتهاء ومرور بعض المتاعب ، فان سفيتنا ابحرت تحت سماء صافية (اي سارت الامور بشكل حسن) . وقدمت العربات المدرعة ، فقد وصل بيزاني وقواته . وكانت الامور في دمشق طبيعية ، وفتحت الحوانيت والمتاجر ابوابها ، وجاب الباعة المتجولون الشوراع ، واعيد تشغيل عربات الترام على خطوطها الداخلية في المدينة ، وقدمت المحاصيل والخضروات والفواكة الى المدينة بشكل جيد .

وتم رش وغسل الشورع من الغبار والقاذورات المزعجة لازالة اثار ثلاث سنوات من الحرب . وكان الناس يسيرون في الشوراع ببطء ، وهم سعداء ، كما كان هناك عدداً من الجنود البريطانيين يجوبون شوراع المدينة دون اسلحة . وأُعيد تشغيل التلغراف والبرق مع فلسطين ، وبيروت ، التي استولت عليها القوات العربية في الليل . ومنذ وقت طويل ، ومنذ كنا في الوجه ، فقد حذرتهم ، من انه عندما يتم دخول دمشق ، بأن يترك لبنان وشأنه للفرنسيين ، وبدلاً من ذلك يتم الاستيلاء على طرابلس ، حيث ان مينائها يغني عن ميناء بيروت ، وان انجلترا ستلعب دور الوسيط الشريف من اجل مصلحة العرب لايجاد حل سلمي . لذلك فقد كنت منزعجاً جداً من هذا الخطأ .

اصبح وضع المستشفي افضلاً ، وحثثت شوفيل بأن يتولى مسؤوليتها ، الا انه لم يشأ ذلك . وظننت بأنه يريد ارهاقنا ، ليبرر عجز حكومتنا المحلية ، ومع ذلك ، ومنذ ان قدمت فقد شعرت بأن هناك توتراً بيننا يعود الى سوء فهم وتفاهم

ماض . وبالتأكيد فان شوفيل ربح الجولة الاخيرة ، وجعلني اشعر بالندم ، اذ انه ما انّ سمع باني قد غادرت حتى اسرع بسيارته هو وجودوين ، ليشكرني على مساعدتي في ازالة صعوباته . وكانت الامور لاتزال تتحسن في المستشفى . فقد قام فريق الاسرى بتنظيف الفناء ، وحرق النفايات والقاذروات ، وقام فريق آخر منهم بحفر حفرة كبيرة اخرى في الحديقة ، لتكون كقبر جماعي لموتى جدد . كما قام آخرون بتغسيل كل مريض متواجد في المستشفى ، ومساعدتهم على تغيير ملابسهم ، وتغيير وتنظيف فراشهم . وزودناهم بكمية ملائمة من الاغذية . وكانت كل غرفة اوصالة في المستشفى قد زودت بممرض يعرف اللغة التركية ، ليستجيب لكل نداء من مريض .

وعلى هذا المعدل فانه خلال ثلاثة ايام ستكون الامور ملائمة جداً ، وكنت متأملاً بفخر من حدوث فوائد اخرى ، عندما حضر الطبيب العسكري وسألني باختصار اذا ما كنت اتحدث الانجليزية . وكان ينظر باشمئزاز الى ثوبي وصندلي ، وسألني قائلاً ، " هل انت المسؤول هنا ؟ " فاجبته بتواضع وبابتسامة تكلف بأنني كنت كذلك ، عندئذ انفجر غاضباً وقال ، " انه أمر مخزي وشائن " . ووجدت نفسي اندفع خارجاً كدجاجة ، وتملكتني ضحكة هستيرية ، فقد كان احساساً غير عادي ومضحك من ان أُلعن هكذا وانا الذي بذلت جهدي في سبيل تحسين وضع المستشفى . فالطبيب العسكري لم يكن قد دخل مكان حفظ الموتى بالامس ، ولم يشم رائحة الجثث المتعفنة ، ولم ير ايضاً عملية دفن تلك الجثث بطريقة مهينة ، التي ظلت منظرها وذكراها تروادني كلما ذهبت للنوم ، وسببت لي التعرق والارتعاش لبضعة ساعات . وكان يحدق بي ، عندما حدثته بذلك ، وهو يتمتم بقوله " انه أمر مخزٍ " . ثم خرجت مغادراً ، وانا اشعر بالخجل اكثر من الغضب .

عندما رجعت الى الفندق وجدت جمعاً غفيراً من الناس في الخارج ، وكانت تقف في الخارج سيارة رولز رويس رمادية ، عرفت انها كانت سيارة اللنبي . واسرعت الى الداخل فوجدته هناك ومعه كل من كلايتون وكورنواليس

وشخصيات أخرى. وببضع كلمات اعطى موافقته على تشكيل الحكومة العربية، هنا وفي درعا ، بعد تحقيق الانتصار . كما انه أكد وثبت تعيين علي رضا الركابي كحاكم عسكري ، بناء على اوامر الامير فيصل . كما وافق بأن يولى المستشفى المذكور العناية اللازمة ، والأهتمام بأعادة تشغيل الخطوط الحديدية . وتلاشت كافة الصعوبات خلال عشرة دقائق. وادركت بأن الايام الثقيلة من انعزالي قد تلاشت. وشعرت بالراحة والثقة من زوال ذلك الكابوس القاسي .

ثم أُبلغنا بان قطار الامير فيصل الخاص قد وصل للتو من درعا. فارسل له يونغ برقية مستعجلة يخبره بوجودنا ، وانتظرناه هناك لغاية ما قدم ، وكانت الجماهير الحاشدة المبتهجة تحيط بموكبه . وكان شيئاً رائعاً ان يتقابل القائدان لأول مرة في صميم انتصارهما ، وانا معهما اقوم بدور المترجم بينهما .

اعطاني اللنبي برقية واردة من وزارة الخارجية ، تعترف فيها بوضع المحاربين العرب ؛ وقال لي بأن اقوم بترجمتها للامير : الا اننا جميعاً لم نعرف ماذا عنى هذا الخطاب بالانجليزية ، جاعلينه ليفسر كما يشاء بالعربية . وكان الامير فيصل الذي اغرورقت عيناه بدموع الفرح من جراء ترحيب الجماهير به، شكر اللنبي على ما قدمه من مساعدة. وعندما غادر الامير فيصل ، قدمت لأللنبي آخر طلب لي (وأعتقد بانه ايضاً كان اول طلب لي منه) ، بأن اذهب في حال سبيلي . ولم يوافق على ذلك لفترة من الوقت ، الا انني اصريت على ذلك، مذكراً اياه بوعده لي قبل سنة ، مشيراً ومبيناً له بانه كم كان من الاسهل بأن اكون غائباً في ظل هذا الوضع الجديد . فوافق على ذلك في النهاية، ومن ثم، وفي الحال، فقد عرفت كم كنت نادماً وآسفاً على ذلك .

خاتمة

لم تبدُ دمشق غـمداً بسيفي ، عندما نزلت ارض الجزيرة العربية : الا ان دخولها قد ختم تعب وارهاق مجريات مهمتي الرئيسة . وان اقوى حافز لي طوال تلك المهمة والعمل كان حافزاً شخصياً ، لايذكر هنا ، الا انه يظل مختبئاً في نفسي ، في كل ساعة من ساعات تلك السنتين الماضيتين . والآلام والافراح يمكن ان ترتفع وتعلو ، مثل الابراج ، على مر الايام : الا انها انحسرت وتلاشت كالهواء لهذا الحافز المخفي ، ليكون عنصراً ملحاً للحياة ، لغاية النهاية المقتربة . إلا ان (الحافز) قد مات قبل وصولنا دمشق . الى جانب ذلك ، كانت هناك رغبة مولعة بالقتال لكسب الحرب : مرتبط بالاقتناع من انه بدون مساعدة العرب ، فان انجلترا لم يمكنها ان تدفع ثمن حربها على الجبهة او القطاع التركي . وعندما سقطت دمشق ، فان الحرب الشرقية : او في الشرق - ومن المحتمل الحرب برمتها - وصلت للنهاية . لقد دخلنا دمشق ، وخشيت من ذلك . فقد زرعت لدي الايام القليلة التي قضيتها هناك شعوراً بالسلطة .

وبقي هناك طموح تاريخي ، وهمي وخيالي ، كحافز بحد ذاته . فقد حلمت بجامعة اكسفورد ، وبالنشاط المفعم الذي كان لي هناك ، في حين كنت اعيش حقبة جديدة من حياتي في أسيا . فطريق مكة كان يؤدي الى دمشق ؛ وطريق دمشق الى الاناضول ، وبعد ذلك الى بغداد ؛ ومن ثم كانت هناك اليمن . فهذه الخيالات ، بدت لتكون قادرة على دعوة بدايتي على انها كانت جهداً عادياً .

المحتويات

توماس ادوارد لورانس

آبار الوجه

غدير عثمان

سينج ويبدو بيت لورانس إلى اليمين

الرقيب بيري، الرائد هورنبي، الملازم ويد، مع ناقة لورانس
غزالة ومهرها (فلو)

الأمير فيصل، رسم جيمس مكبي

رجال قبائل؛ من الشمال إلى اليمين: غير معروف، محمود حيلان،
عودة أبو تايه، شخص غير معروف، ابن عودة أبو تايه،
رجلان غير معروفان
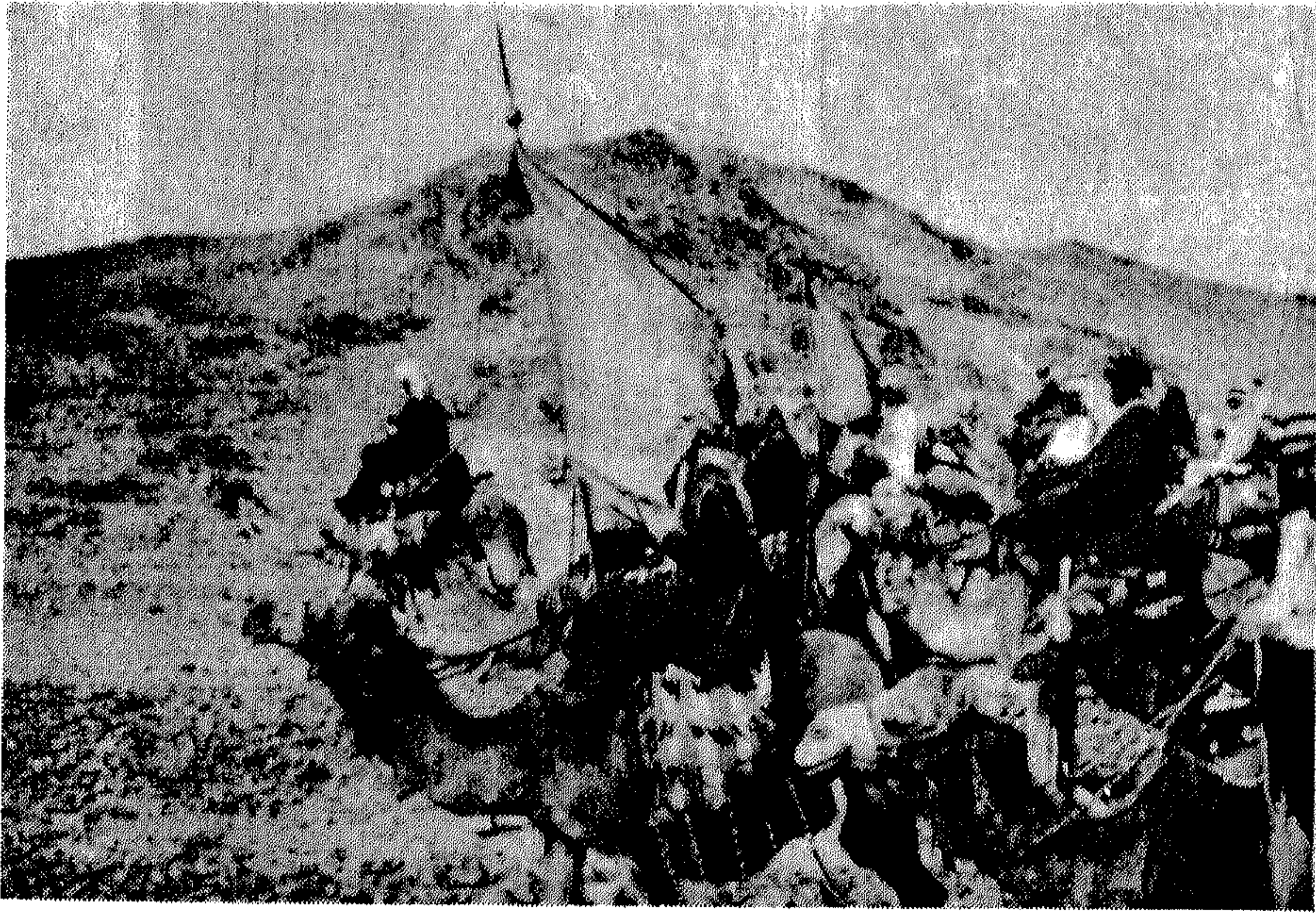
الأمير فيصل وحرّاسه من رجال قبيلة عقيل

لورانس في اللباس العربي
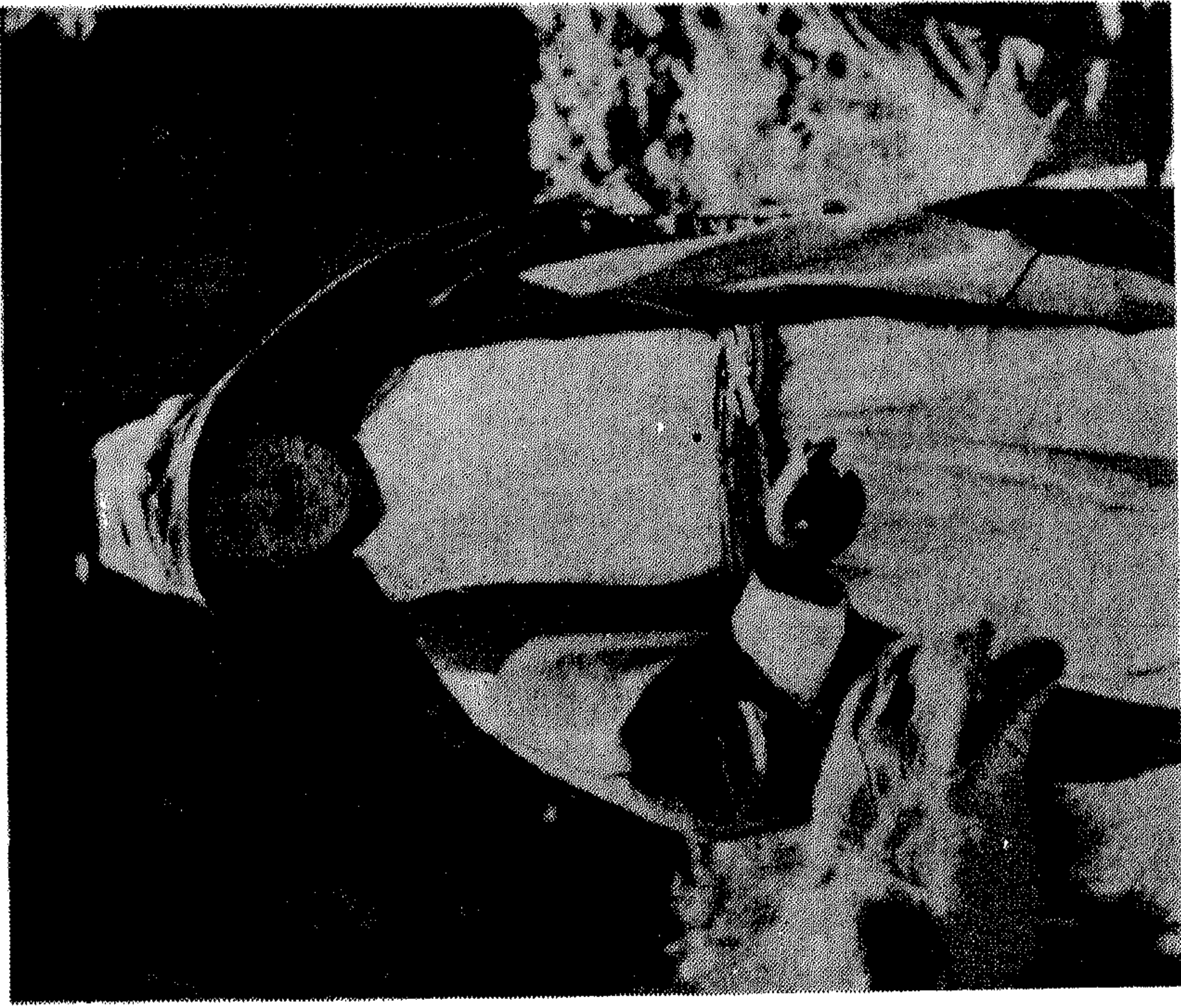
المقدم نيوكمب، آذار ١٩١٧

السير رونالد ستورز
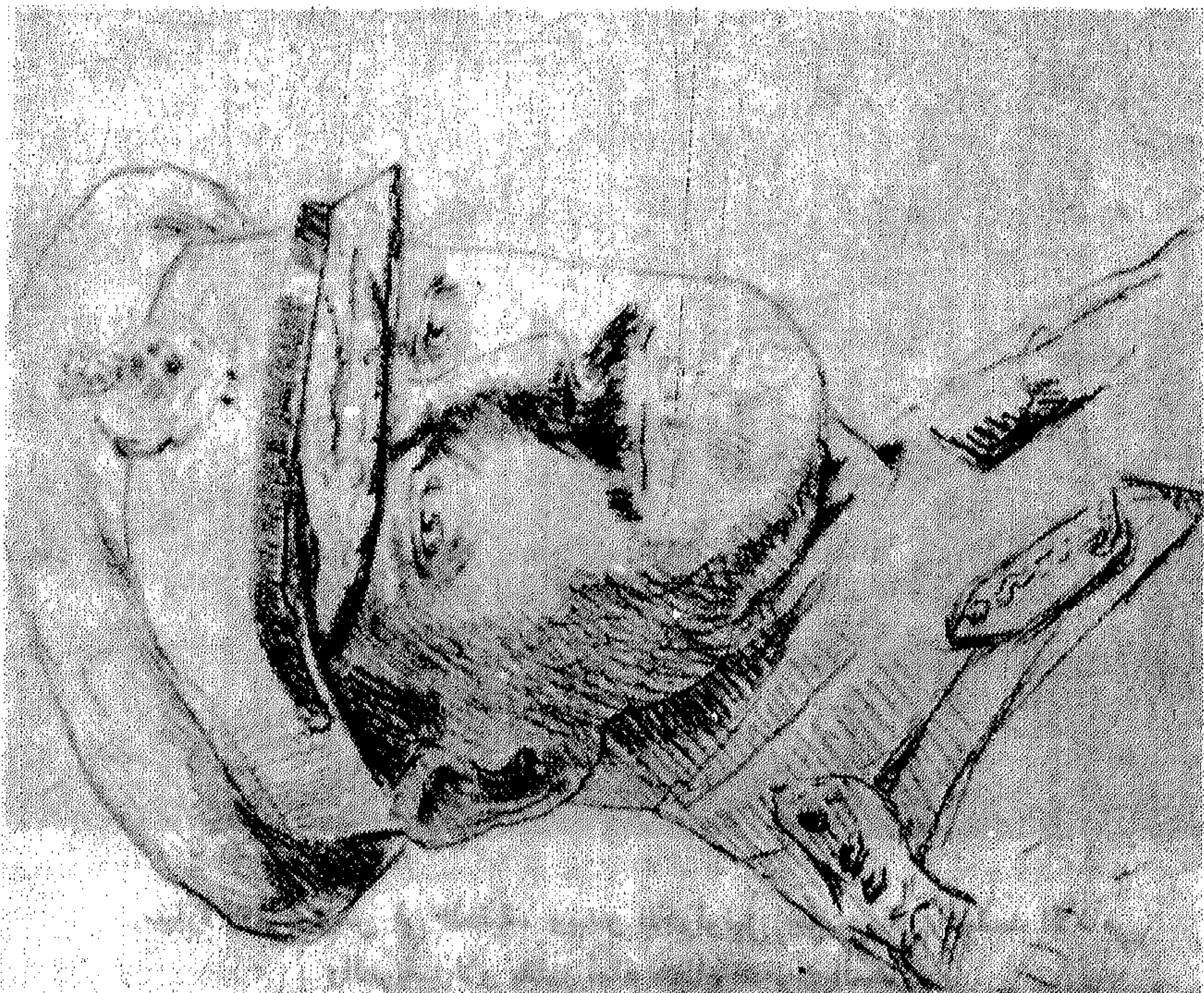
الجنرال ادموند اللنبي، رسم جيمس مكبي

بقايا طائرة جونور
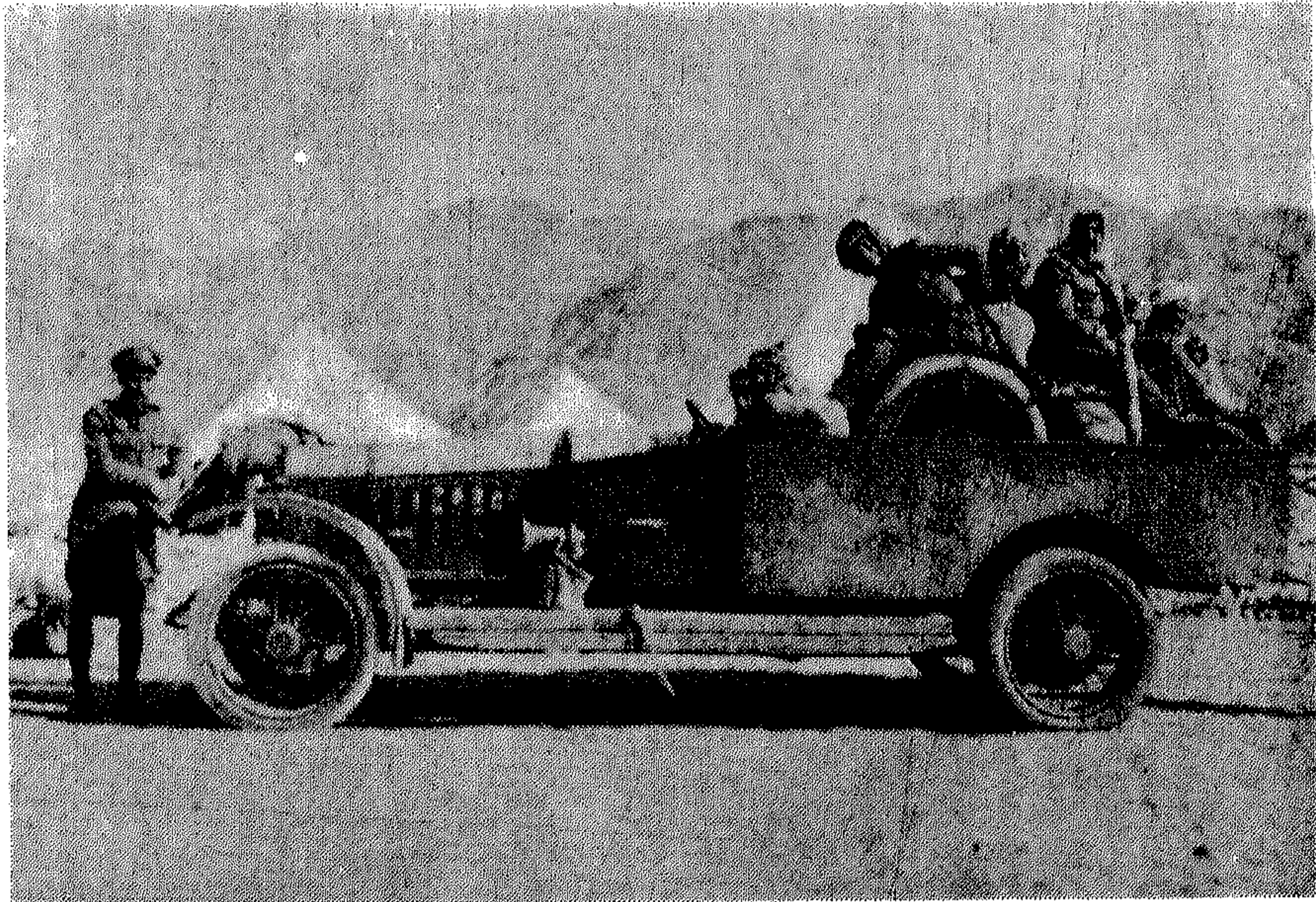
سيارة رولز رويس في العقبة، ويبدو الكولونيل جويس في المقعد الأمامي
والعريف لاو يقف أمام غطاء محرك السيارة.